رواية

مكتبة

سيمون دو بوفوار

وانتهى كل شيء

ترجمة: محمد فطومي

1068

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

وانتهى كل شئ

روايـــة

اسم المؤلف: سيمون دو بوڤوار
Author: **Simone de Beauvoir**

عنوان الكتاب: وانتهى كل شئ
Title: **Tout compte fait**

ترجمة: محمد فطومي
Translated by: **Muhammad Fatumi**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

الناشر: دار المدى
P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2021**
First Edition: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Editions Gallimard,
Paris, 1972

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+964 (0) 770 2799 999 +964 (0) 780 808 0800
+964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+961 175 2617 +961 706 15017
+961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+963 11 232 2276 +963 11 232 2275
+963 11 232 2289 ص.ب: 8272

27 12 2022

مكتبة
t.me/soramnqraa

سيمون دو بوفوار

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

وانتهى كل شئ

#1064

ترجمة : محمد فطومي

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدّمة المؤلف

عندما صدر نصّي: *الشّيخوخة*، لامني بعض النقّاد وبعضُ القرّاء لأنّي لم أضمّنه شيخوختي الخاصّة بشكلٍ ضافٍ. بدا لي هذا الفضول، دائماً، مرتبطاً بنوعٍ من شراهة أكل لحوم البشر أكثر ممّا هو اهتمام حقيقيّ. لكنّه فضول يُحفّزني على استكمال ما بدأتُه منذ سنوات من كتابة سيرتي. كلّما اقتربتُ من نهاية وجودي، بات في إمكاني الإحاطة، إجمالاً، بهذا الشّيء الغريب الذي هو الحياة: سأحاول الإفصاح عن ذلك في مُستهَلّ هذا الكتاب.

من جانب آخر، عشرُ سنوات مضت منذ اللّحظة التي توقّفتُ فيها عن سرد حكايتي: لديَّ بعض الأشياء أريد أن أرويها.

انتهجت في كتبي السّابقة التّسلسُل الزّمني. أعرف مساوئ ذلك. ينطبع لدى القارئ أنّنا لا نُدلي له سوى ببعض القشور: مجرّد ديباجة. يبدو أنّ الجوهري يكمن دائماً فيما هو آت، فيما هو بعيد. فما نلبث نهفو لمعانقته من صفحة إلى أخرى؛ ثمّ ينتهي الكتاب دون أن نكون قد خلصنا إلى نتيجة. وأنا أضمّنها جُملاً، يجعلُ السّرد من حكايتي حقيقة منتهية، فيما هي ليست كذلك بالمرّة. لكنّه أيضاً يبعثرها، مُقسّماً إيّاها إلى خرزات جامدة فيما كان كلّ منها مرتبطاً بماضٍ وحاضرٍ ومستقبل. أستطيع أن أكتب: سأجهّز نفسي للذّهاب إلى أمريكا. لكن مُستقبل هذا المشروع القديم قد سقط ورائي كالمشروع الذي لا شيء يدفعُ به إلى الأمام. من ناحية أخرى، ما من فقرة إلّا وهي مسكونة بحقبات سبقتها: سنّ النّضج

حافلٌ بالشّباب والمراهقة؛ الحربُ حافلةٌ بما قبل الحرب. وأنا أسير على خطى الوقت، أمنع على نفسي الوفاء لهذا التّشابك. هذا يعني أنّي أخفقتُ في منح السّاعات المُتطوّرة أبعادها الثّلاثة: إنّها تمضي فاترة، مُختزلة في حاضر دائم مُسطّح، منفصلة عمّا سبقها وما يليها.

إلّا أنّي لا أملك سوى القيام بذلك. أن نعيش، كان بالنّسبة إليَّ مؤسّسة، مسعى مُوجّهاً، وكي أحرّر تقريري عنها، كان لا بدّ من اقتفاء سبيلها. اختلفت المُجريات اليوم. طبعاً، لن أكرّس نفسي للتّكرار؛ منذ 1962، تحرّك العالم وخضتُ تجارب جديدة. لكن ما من حدث جماعي أو خاصّ، غيّر جذريّاً من وضعي: لم أتغيّر. ثمّ إنّ هناك مشاريع أتمنّى إنجازها، لكنّها لم تجتمع تحت هدف واحد واضح. ليس لديّ إحساسٌ بأنّي أمضي نحو تحقيق غاية، باستثناء الانزلاق الحتمي نحو قبري. لم يعد، إذّا، ضروريّاً أن أتّخذ من مرور الوقت خيطاً رابطاً؛ سآخذ الجدول الزّمني بعين الاعتبار فقط إذا تعلّق الأمر بخطوات مُعيّنة؛ لكنّي سأرتّب ذكرياتي حول بعض المحاور.

مُقدّمة المترجم

كرّست سيمون دي بوفوار حياتها للكتابة والبحث والاطّلاع والدّفاع عن قضايا المرأة في مختلف جوانبها دون أن يلهيها ذلك عن النّضال من أجل إنسانيّة يطيب فيها العيشُ، إنسانيّة خالية من العنصُريّة والجهل والاضطهاد. إلّا أنّ ما يُميّزها عن غيرها من الحقوقيّين هو نصّها الرّائعُ الذي ما انفكّ يرافقها في جميع محطّات سعيها إلى إحراج الطّغاة على اختلاف طبيعة سلطاتهم (الميز بينَ الجِنسَيْن، البورجوازيّة، استغلال الدّين، اغتصاب الحُرّيات، الاستعمار، الدّكتاتوريّة..). بوسائل ضغط ميدانيّة وصحافيّة وأدبيّة وسياسيّة، على نحوٍ لا تتحقّق معه المطالب وتُعادُ الحقوق إلى أصحابها فحسب، بل أن يقف الجُناة - وهذا هو الأهمّ - أمام مسؤوليّاتهم وهم على دراية لا يكتنفها غموض بما تدينهم من أجله الإنسانيّة والتاريخ. فهي، إذًا، محاكمة للعتاة من جهة ودرس للأجيال حتّى لا تتكرّر أخطاء سوء الاختيار والتخاذل وتغليب المصلحة الخاصة على الإحساس العام بالقضايا.

في الفنّ والمعمار أيضاً، من خلال اكتشافاتها وأسفارها الكثيرة حول العالم، كان لها وجهة نظر عميقة، اختلفت عمّا يرويه أدباء الرّحلة، فهي وإن بدت تنقل ما رأت أثناء زياراتها، فهي ترمي من وراء ذلك إلى تقصّي مسيرة الإنسانيّة في حيرتها الوجوديّة وبؤسها وطريقة تعبيرها عن أسئلة الموت والخلود وعن جدوى الإنجاز والتّضحية. ومن خلال قراءاتها وأحلامها أخذتنا دي بوفوار في جولة داخل عالمها السّحري المُتفرّد،

وعرّجت بنا على علاقاتها وصداقاتها التي كان لها أثر عميق في حياتها، لاسيّما تلك التي جمعتها بالفيلسوف الكبير رفيق دربها سارتر.

لكنّ الأهمّ في اعتقادي هو تفرّد سيمون دي بوفوار في إحساسها العميق بواجبٍ تجاه الوجود يُحتّم عليها سرد ما أتاحه لها هذا الوجود من فرص سفرٍ واطّلاع وتأمّل وأمجاد، كأنّها تدفع مقابلَ حياةٍ قُدّمت لها في شكل هديّة جميلة لا شيء يشكُرها سوى العمل. وهكذا سيشعر القارئ على امتداد الكتاب بأنّه مُنطلق في رحلة طويلة جذّابة في الصّورة والمعنى، ترجو من خلالها الكاتبة أن تعيره حواسّها وعقلها ووجدانها وحاضرها وماضيها كي يُشاركها امتنانها لما حَبَتْها به الحياة من مِنَح وأيّدتها به دون كثيرين من ظروف جعلتها تعيش أفكارها. وأخيراً، ولكي تجعل المتلقّي من كلّ زمن وبلد، بأسلوبها، شاهداً على أنّها أدّت ما عليها تجاه المُضطَهَدين أفراداً كانوا أم شعوباً وتجاه التّاريخ. وعلى أنّها سوّت حسابها أمام الضّمير والفكر.

الفصل الأوّل

أتعرّف على سريري وعلى غرفتي حالما أستيقِظ. لكن لو حدث أن نمتُ بعد منتصف النّهار في شقّتي فإنّه يعتريني عند يقظتي ذهول طفوليّ: لماذا أنا هي أنا؟ ما يفاجئني - كطفل يعي انتماءه - هو أن أجد نفسي هنا، الآن، في قلب هذه الحياة وليس في أخرى: أيّ صدفة حصلت؟ لو تأمّلتُ الأمر من الخارج لاتّضح لي بشكل غريب أنّي مولودة. تقابل البويضة مع الحيوان المنويّ الذي يعني أوّلاً لقاء الوالِدَيْن، ولقاء أسلافهم، لا حظّ لها من مليارات كي تتحقّق. صدفة علميّة غير مُتوَقَّعة جعلتني أولد امرأة. ثمّ لقاء كلّ لحظة من الماضي ألف مُستقبل مختلف يلوح لي ممكناً: أن أقع فريسة مرض فأنقطع عن التّعليم؛ ألاّ ألتقِيَ سارتر؛ أيّ شيء. لمّا أُلقِيَ بي في هذا الكون، خضعتُ إلى قوانين وحوادث مرتبطة بإرادة غريبة، بظروف، بالتّاريخ: كنتُ، إذًا، مُحقّة وأنا أشعر بأنّي ذات طبيعة عرضيّة؛ الأمر الذي يسبّب لي الدُّوار، هو أنّي، في نفس الوقت، لستُ كذلك فعلاً. لم تكن الأسئلة لتنشأ لو أنّي لم أولد: يجب أن أنطلق من حقيقة أنّي موجودة. وطبعاً، مُستقبل الإنسان الذي كنتُه، كان في إمكانه أن يجعل منّي أخرى. لكن عندها تلك الأخرى هي التي كانت ستتساءل عن نفسها. عن التي تقول: ها أنا ذي، ما من توافق. تلك المصادفة الضّروريّة للموضوع مع ماضيه، لم تكن كافية كي تُذهِبَ عنّي القلق. حياتي: مألوفة وبعيدة، إنّها تُفسِّرني مع أنّي خارجها. ما هذا الشّيء الغريب تحديداً؟

مثل كون أينشتاين، لا حدّ له وهو محدود في آن. لا حدّ له: عبر الزّمن والمكان، إنّه يترامى بين أصل العالم وأقصاه. في هذه اللّحظة، أنا أختزل في نفسي الإرث الأرضيّ ووضع الكون. كلّ بيوغرافيا جيّدة، تعرف أنّه لأجل

التّعريف بأبطالها عليها أوّلاً ذكرُ الفترة، الحضارة، المُجتمع الذي تنتمي إليه - والعودة قدر الإمكان في سلسلة الآباء. مجموعة المعلومات هذه، متناهية في الصّغر لو قورِنت بالعلاقات اللاّنهائيّة التي قد تربط كلّ عنصر في الوجود بما حوله. كلّ منّا يحتمل تأويلاً مُختلفاً حسب وجهة النّظر هذه أو تلك. هذا الحدث: «وُلدتُ في باريس» لا يعني الشّيء ذاته في نظر باريسي، أو في نظر ريفيّ، أو أجنبيّ. بساطته في الظّاهر تتوزّع على ملايين الأشخاص الذين تربطهم بهذه المدينة رؤى مختلفة.

مع ذلك، أيُّ حياة هي حقيقة منتهية. لها نواة، *أنا*، تُبدي نفسها مشابهةً لنفسها فتنخرط في لعبة الفترة التي تحتمل بداية ونهاية، التي تقع في أماكن مُحدّدَة، محافظة على أصولها الأولى، واهبة نفسها ماضياً واحداً، ثابتاً، منفتحاً على مُستقبل واحد ومحدود. لا يمكن حصر حياة، كما نحصر شيئاً أو نمسك به، لأنّه كما قال سارتر، «مجموعة مُفكّكَة»، أيْ أنّها ليست كذلك. لكن في وسعنا طرح بعض الأسئلة فيما يخصّه: كي تنشأ حياة؟ ما هو نصيب الظّروف، الضّرورة، الصّدفة، الاختيارات ومبادرات الأشخاص المعنيّين بها؟

ما ساعدني على التّفكير في حياتي هو أنّي رويتُها. «أوه! الحَكْيُ» قال أحد أبطال «ألان روب-غريي». حسناً: تقع القصّة على أرض مغايرة للتّجربة المعيشة؛ لكنّها تنهل منها وتسمح لنفسها بأن تقتبس منها بعض الخطوط. وفيما تفضي الحياة إلى نهاية فإنّ القصّة ستُختَزَلُ في كمّ من الكلمات التي يمكن عدّها بقليل من الصّبر: لكنّ الكلمات نفسها تحيل على معرفة لا تقف عند حدّ. حين أكتب: «وُلدتُ في باريس»، فإنّ القارئ الذي أوجّه إليه كلامي سيفهم قصدي دون أن يكون عليَّ تحديد موقع تاريخيّ أو جغرافيّ لباريس على خريطة العالم. يجدر القول أيضاً إنّ الحَكْيَ هو استبدال الغموض المنساب للمعيش بحدود صارمة تمنحها الجُمل المكتوبة. على أيّ حال لن أسحب القارئ نحو حلم يقظة يستحضر ماضِيً بقدر ما هي محاولة لاختبار قصّتي من خلال جملة من المفاهيم والتصوّرات.

ثمّة ما سيصلح لي كخيط واصل: الحظّ. إنّ لديه معنى واضحاً بالنّسبة

إليَّ. أجهل أين كانت ستفضي بي الطّرق التي مثّلت فيما مضى سُبلاً ممكنة، لكنّي لم أتّخذها. الأكيد هو أنّي راضية عن مصيري، ولا أريد أن يطرأ عليه أيّ تحوير. ما أعتبره حظّاً هو أن يكون قد تحقّق دون سواه.

الأولى هي ولادتي. سبق أن قلتُ إنّ من العبث المراهنة على الصّدفة التي ألقت بي على سطح هذه الأرض. سأنطلق من مُعطى أنّي وُلدتُ لأبويْن هما «جورج» و«فرنسواز دي بوفوار» التاسع من يناير 1908. من الخارج يبدو هذا الحدث استثنائيّاً بشكل مُدهش، وعاديّاً جدّاً. شابّان بورجوازيّانِ امتثلا لتقاليد بيئتهما وعصرهما وهما يتزوّجان، هي في سنّ العشرين وهو في سنّ الثّلاثين ويُنجبان طفلاً بعد سنة من الزّواج. كينونة هذا الطّفل كانت مُجهّزة سلفاً: فرنسيّ، بورجوازي، كاثوليكي؛ وحده الجنس كان غير معلوم. بفضل وضع عائلتي الميسور، كان احتمال ألّا أموت مُبكّراً عالياً وأن أكون في صحّة جيّدة؛ مُستقبَلٌ مُحدَّدٌ في انتظاري: عناية جيّدة، انتباه، عائلة، قريبة وبعيدة، خادمة، «لويز»، منزل باريس، الليموزين، وشبه يقين بولادة طفل ثانٍ.

كفلت لي طفولتي، منذ البداية، امتيازاً اجتماعيّاً، وضمنت لي فُرَصاً كثيرة مقارنة بابنة رجل ريفيّ أو ابنة عامل. حظّ آخر لا يسعني تعريفه يتمثّل في نمط الحياة الذي خُصَّت به طفولتي الأولى.

كلّ أطباء الطّفل يجمعون اليوم على أهميّة تكوين المرء خلال السّنتيْن الأولَيَيْن. عادة، في الأشهر الثّمانية الأولى، يكون بكاء الرّضيع وصراخه هما طريقته في التّواصُل مع محيطه؛ إنّه يختبر جدواهما ويستعملهما كرموز: تنشأ بينه وبين الكبار علاقة مُشتركة. ولا تنشأ حين يكون الرّضيع مكروهاً، مُهمَلاً، مُحبَطاً: إذا لم يمت فإنّه حتماً سيكون طفلا مُتوحّداً. أو منفصم الشخصيّة. في درجات أقلّ، فإنّ عدم الاكتراث، والإهمال وغياب الرّعاية ستنمّي في وجدانه شعوراً بفقدان الأمان وتجعله ينطوي على نفسه. أثبت سارتر فيما يتعلّق بـ«فلوبير»[1] الطّفل الذي حظي برعاية كبيرة، الذي وُجِّه دون حنان،

1- فلوبير: غوستاف فلوبير، روائي فرنسي. أهمّ روائيي القرن التاسع عشر ومن مؤسسي المدرسة الواقعية في الأدب وقد اشتهر برواية مادام بوفاري.

الشّبعان، الذي كانت طلباته تُلَبّى دون أن يُحاوره أحد، كيف أنّه تلقّى تكويناً سلبيّاً. لم يكن ذاك حالي. لا أعرف كيف تمّ فطامي، كيف تعلّمتُ النّظافة وكيف كانت ردّة فعلي. لكنّ أمّي كانت صغيرة، مرحة، وفخورة لأنّها نجحت في تربية كفلها الأوّل: كانت بيننا علاقات حنان ودفء. عائلة كثيرة الأفراد تجمّعت حول مهدي بلهفة. تفتّحتُ بثقة. تلقّى الكبارُ نزواتي بابتسامة تواطؤ: أقنعني ذلك بسلطتي عليهم. غذّى تفاؤلي هذه الحاجة التي تملّكتني منذ بداية حكايتي ولم تتركني لحظة: أن أمضي إلى أقاصي رغباتي، رفضي، أفعالي، أفكاري. نحنُ لا نطالب سوى بما نتوقّع الحصول عليه من الآخرين ومن أنفسنا: نحن لا نحصُل على ما نستحقّ إلّا إذا طالبنا بذلك. أعرف منذ سنواتي الأولى أنّي سأملك ما أريد. ألم يكن ذلك وراء الغضب المسعور الذي ينتابني عندما تُقابَلُ رغباتي بالرّفض؟ لم أشرح ذلك إلّا بشكل سيّئ في مُذكّراتي كما لا أملك القيام بالأفضل اليوم. لكنّي ما زلتُ على يقين أنّها أفادتني. كانت انطلاقة جيّدة. وطبعاً هذا لا يكفي. ليست الحياة بذرة أولى تأخذ في التطوّر. ثمّة دائماً تهديد بأن تتوقّف، أن تنكسر أو تتشوّه أو تنحرف. إلّا أنّ بداية سعيدة، تظلّ مُحفّزاً جيّداً للمرء كي ينتفع من الظّروف قدر الإمكان؛ أمّا إن كان تعيساً فسيخلق لنفسه دائرة مُفرغة: سيُهدر الفرص، سيغلق على نفسه داخل الرّفض المستمرّ، في الوحدة، والكآبة.

المقارنة بين قدري وقدر أختي أمر مُجدٍ للغاية: كان طريقها أكثر وعورة من طريقي إذ كان عليها أن تتغلّب على إعاقتها خلال سنواتها الأولى. في سنّ العاميْن والنّصف كان يبدو على ملامحي، في الصّور، أنّي واثقة من نفسي وأنّي صاحبة قرار؛ في مثل سنّي كان وجهها مرعوباً. الأخت الصّغرى أقلّ تسلية وإدهاشاً من الأخت الكبرى؛ كان هناك أسف لأنّها لم تولد ذكراً؛ لم يبتسموا لها كثيراً بالتّأكيد، ولم يعتنوا بها ما يكفي. كانوا يعتبرونها، وهي قلقة ومليئة بالهواجس، أكثر «نعومة» منّي: كانت في حاجة إلى من يطمئنها. كانوا أيضاً يقولون إنّها «متبرّمة»، الأمر الذي يجعلها تنزلق أكثر فأكثر في البُؤس؛ كانت أحياناً تبكي، دون سبب واضح. لقد قضت وقتاً طويلاً كي تتخلّص من طفولتها.

طفولتي كانت هادئة. حُسنُ إصغاء والِدَيَّ عزّز - رغم بعض المناوشات - شعوري بالطمأنينة الذي حظيتُ به في المهد. لم يكن، من ناحية أخرى، تناقضاً بين الصّورة التي خصّني بها محيطي والصّورة التي كوّنتُها عن نفسي.

الطّفلُ كائن معتوه. يتلقّى من الكبار العالم والزّمن والمكان الذي يحتويه واللغة التي يتكلّمها. لأنّها بين يدَيْ أنصاف آلهة وتحمل علامتهم. ليست الأشياء مجرّد أوعية بالنّسبة إليه بل رمز الحقائق الخفيّة، في أعماق غامضة. هذا ما يُسمّى بسحر الطّفولة. إنّ الانتقال الشّعريّ من الطّفولة الذي أجراه القرن التاسع عشر البورجوازي كان تعتيماً: لا شيء شاعريّاً في طفل؛ فيما للعالم غرابة مُذهلة في عينيه - إن كان مؤهّلاً لاكتشافه وتأمّله.

الفدية، هي أنّه يستقي صورته من الآخرين ومن نفسه: إنّه يعتبر الآخرين الأهم ويعتبر نفسه غير المُهمّ. في نفس الوقت هو لا يعتني سوى بنفسه. إنّه يجد نفسه في قلب عالم حيثُ سيفهم أنّه نسبيّ حيال الأشخاص الكبار. إنّه يرى نفسَه مرئيّاً. ويمكنه أن يحسّ هذا الشّرط بأنماط عديدة.

ثمّة أطفال لا طفولة لهم. في الخامسة من عمره، مُلمّع أحذية، يحافظ على علاقة مُشغّل وعامل مع الكبار، وهو يمسح بالفرشاة، إنّه يتحرّك مُستقلاً من خلال عمل دون وساطة الآخرين. آخرون، في العائلات الكبيرة العدد، والفقيرة، مُهمَلون إلى درجة أنّهم لا يكادون يعون وجودهم: أو في أفضل الأحوال يتحوّلون - في الهند مثلاً - إلى أطفال برّيين تائهين في الطّبيعة. خائفين، مُستَغَلّين، مُطارَدين، ليس للطفل أن يتّخذ موقفاً فكريّاً من وضعه. بينما في مجتمعنا، جُلُّ الأطفال يعرفون في آن - كما أشرتُ - الجنون والاستقلال: حتّى أكثرهم طيشاً يعتقد أنّه مهمّ وأنّه يقوم بتجارب برقيّة يثبت بها حضوره أمام نفسه. إن كانت شخصيّة متكبّرة فإنّه يتأقلم معها متضايقاً؛ سيتحوّل إلى قرد وكوميديّ. في «الكلمات»[2]، بيَّنَ سارتر ما سمّاه تصنّعه المُثير للسّخرية! لكنّه في بعض الأحيان كان يكتشف أنّ هناك أشياء أخرى إلى جانب التصنّع: اكتشف الحقيقة العارية لذاته فراح يتهكّم على نفسه أمام

2- الكلمات Les mots: مذكرات شخصية قاسية لسارتر تلخص فلسفته.

المرآة؛ لقد وجد سلاماً في النّشاط المُستقِل: القراءة والكتابة. آخرون – مثل أختي، أو مثل الصّغير فلوبير – يفرضون على أنفسهم خيارات مُجحفة، فإمّا أن يذعنوا لها أو أن يثوروا عليها. ثمّة العديد من الممكنات بين الحقد والغضب. عندما كانت «ڤيوليت لودوك» المريضة أغلب الوقت، صغيرة، كانت تشعر بأنّها تمثّل عبئاً ثقيلاً على أمّها وكانت تؤاخذ نفسها: كانت تعتبر نفسها مُذنبة. من هذه النّاحية كنتُ محظوظة. كنتُ أحياناً أغضب بعنف عندما أعامَلُ كطفلة فيما كنتُ أعتقد أنّي امرأة كاملة. لكن عموماً كانت شخصيّتي تعجبني. في سنّ السابعة، تراجعت نوبات غضبي ورحت ألعب دور الفتاة الرّصينة. إلّا أنّ نشاطي الذي سمح لي بتحقيق الاستقلال قد تضاعف.

خلال سنواتي الأولى، كانت مشاعري إزاء والِدَيَّ وإزاء لويز مُتعلّقة بفضل حرّيتي لأنّي أعيشها؛ لكن كان طبيعيّاً في نظري أن يرضخوا لمشيئتي وكنتُ أعرف جيّداً ماذا يعني تصرّفهم: إنّه إجابة عن نداء مُعيَّن، عن جملة من الانتظارات.

لم يحدث خلال تلك الفترة القصيرة سوى خلقٍ حُرٍّ واحد: علاقتي بأختي. النّمط العائليّ الذي ينتمي إليه والِدَاي يقضي بأن يسارعا في إنجاب طفل آخر: شاءت الصّدفة أن يكون بنتاً. هل كانت الأمور ستأخذ مجرى آخر، بالنّسبة إليَّ، لو كان المولود ذكراً؟ لا أجزم بشيء. على أيّ حال لا أعتقد أنّي كنتُ سأستفيد، بل كنتُ سأتضرّر. أظنّ أنّه من باب ضربة الحظّ أيضاً أن يكون المولود أنثى، بعدي وقريبة منّي في السنّ. لقد ساعدتني كي أبنِيَ لنفسي شخصيّة قويّة. اخترعتُ مزيجاً بين العطف والسّلطة ميّز فيما بعد علاقتي بها. علّمتُها القراءة والعدّ والكتابة بمبادرة منّي. أنا التي كنتُ أقرّر الألعاب والحميميّة التي ستربطنا. دون شك، كان موقفي منها ينبع ممّا كنتُ عليه. لا شيء كان يمنعني من استقبال أخت صغرى لا أغار منها بما أنّي كنتُ سعيدة وواثقة من نفسي ومنفتحة على بيئتي بشكل جيّد. كنتُ دائماً أحاول التخلّص من سلبيّة الطّفولة بالقيام بأعمال ناجعة، بنشاط وتفوّق: كانت تمنحني الفرصة التي أحلم بها. يمكنني الحديث عن الابتكار، إذ، فيما كان

الكبار يُشيرون عليَّ كيف أتصرّف معهم، لم تكن أختي تطالبني بشيء، أمامها لم يكن عليَّ أن أبتدع مظهراً: كنتُ على سجيّتي.

فيما عدا ذلك، تمثّلت حُرّيتي، عن حسن نيّة بل باعتزاز، في القبول بالقدر الذي كُتِب لي. كنتُ متديّنة بحماسة، حتّى إنّي كنتُ أفضل تلميذ في درس «الرّغبة»، ووالِدَاي اللذان أصبحا نصف مُفَقَّرَيْن، راهنا على القيمة الثّقافيّة على حساب «إنفاق التّباهي» الذي كنت أمْيَلَ إليه. عرضا عليَّ القراءة كتسلِيَة سامية، ترفيهاً لا يكلّف الكثير. أحببتُ الكتبَ بشغف. كنتُ أحبّ أبي وكان هو مُحبّاً للكتب؛ كان يُبدي احتراماً دينيّاً لأمّي. حفّز في داخلي فضولاً وجدتُ فيه، منذ ذكرياتي الأولى، نوعاً من اليقظة لم ينطفئ إلى اليوم. من أين أتى تحديداً؟ يرى «فرويد» أنّنا نعثر على الغريزة الجنسيّة في الفضول. فيما أرى أنّ اهتمامي بـ «الأشياء غير اللّائقة» لم يكن سوى غصن في شجرة نهمي للمعرفة، الذي يبدو لي مُعطى أصليّاً.

قد يبدو عديم الجدوى أن نزعم القدرة على شرح ذلك. كلّ طفل يتوق إلى اكتشاف العالم. بل علينا التّساؤل لِمَ قد يتحطّم انطلاقه في بعض الحالات. تلوح لي بعض الأسباب: ضعف البنية الجسديّة، نقص في الطّول، غياب الحافز بسبب الإهمال، الرّوتين أو المبالغة في الوحدة، القيام بأعمال مُضنِيَة في سنّ مُبَكّرة، هموم وهواجس من كلّ نوع، فقدان التّوازن. سيكون الطّفل البائس مهتماً بنفسه أكثر من اهتمامه بالعالم من حوله. كانت أختي ذكيّة لكنّها لم تكن مُتعطّشة للمعرفة مثلي. كانت «زازا» حيويّة لكنّ علاقتها المُعقّدة بالعائلة، لاحقاً علاقات الحبّ الصّبيانيّة، لاحقاً أكثر الذّكريات التي سترسخ لديها، تجعلها أقلّ استعداداً منّي لمواجهة الحياة. كنتُ حتّى العاشرة والثانية عشرة خالية من المشاكل: كان في وسعي تكريس الوقت الذي أريد في البحث: لم أكن أكبر من سنّي. كنتُ حتّى الثانية عشرة، في «ميرينياك» Meyrignac[3] ما زلتُ ألعب مع أختي وابنة عمّي لعبة البائعة.

كنتُ أقرأ كتباً صبيانيّة؛ هذه تجعلني أراجع ما يهمّني بشكل أكبر:

3- ميرينياك: بلدية في إقليم جيروند، في آكيتين الجديدة، في جنوب غرب فرنسا.

التغيّرات الممكنة في الظّروف الإنسانيّة والعلاقات التي يبنيها الناس فيما بينهم. لا يستهويني الميكانيك، لا أريد أن أعرف كيف صُنِعَت الأشياء وكيف تعمل. أحبّ التّاريخ - لم يصبني بالضّجر إلّا لاحقاً - لأنّه يخبرني عن تقاليد الشّعوب القديمة، حتّى ما قبل التّاريخ وعلم الحفريّات، اهتممتُ بالفلك والجغرافيا. التهمتُ كتب الرّحلات التهاماً. وعندما تعلّمتُ الإنجليزيّة اكتشفتُ أدباً، بلداً. أردتُ إعادة تشكيل الماضي وفهمَه. النّجوم في قلب الكون، كلّ هذا الوجود الذي يحيط بي.

الصّدفة بوصفها سلسِلَتَيْن سببيّتين لا توجّه إحداهما إلى الأخرى، لم تتدخّل خلال سنواتي الأولى؛ باستثناء الأخت الأنثى وليس الذّكر التي وهبني إيّاها والِدَاي. كان «جاك» ابن عمّي، رغم الاحترام الذي يوحي به إليَّ والذي يوشك أن يكون إعجاباً، لم يلعب دوراً كبيراً في طفولتي. الصّدفةُ الكبرى، إذًا، هي تفوّق زازا في درس «الرّغبة» وأنا في العاشرة من عمري. كان علينا كلتينا التعلّم في مدرسة كاثوليكيّة؛ لكن لم يكن ذلك ذا بالٍ بالنّسبة إلينا؛ كان مُحتَمَلا ألاّ نلتقي في نفس القسم. في هذه الحالة لم نكن لنعرف بعضنا بعضاً، دون شكّ، لأنّ والِدَيَّ و«مابيّ» Mabille لم تجمعهما علاقة مُشتركة. لم تشرق طفولتي بصداقة كبيرة، لأنّ بقيّة الرّفاق لم يكونوا يمثّلون لي سوى علاقات متواضعة.

ما ليس بالصّدفة هي الطّريقة التي استفدتُ من خلالها بلقائنا؛ كنتُ منفتحة واجتماعيّة، جمعتني علاقة ببقيّة التّلاميذ؛ كانت لي «صديقة مُفَضّلة» أتفاهم معها جيّداً. لكن ليس أكثر. فوراً عرفتُ قيمة زازا ورحتُ أحاول أن أقيم معها نوعاً من الشّراكة: جلستُ إلى جانبها أثناء الدّرس ولم أكلّم سواها. كنتُ راضية لأنّ طفولتي صنعت منّي: أقلّ سطحيّة وحيويّة من زازا، كنتُ معجبة بها لأنّها تختلف عنّي، لكن لم يشلّني الخجل؛ نجحتُ في لفت انتباهها. لا أعرف إن كنتُ أقنعتُ أمّي بدعوة زازا إلى بيتنا أم أنّ السيّدة «مابيّ» هي التي بادرت. في مجمل الأحوال أنا من نحت هذه الصّداقة التي خاضتها معي زازا بطيب خاطر دون أن تشكّ في مدى حرصي عليها.

من دونها، هل كانت حياتي النّاضجة مختلفة؟ يصعب تأكيد ذلك. عرفتُ لذّة الحبّ مع زازا، متعة تبادل الأفكار والشّراكة اليوميّة. جعلتني أودّع شخصيّة الطّفلة المتعقّلة، علّمتني الاستقلال وعدم الاحترام: لكن بصورة سطحيّة. لم تتّخذ موقفاً من خلافاتي الفكريّة التي وسمت مراهقتي: لم أحشرها قط فيما يعتمل في داخلي. بل لقد أخفيتُ عنها أنّي أقرأ كتباً ممنوعة، أنّي أناقش الأخلاق والدّين، أخفيتُ عنها طويلاً أنّي لا أؤمن بالربّ. لم تكن علاقة الصّداقة التي تجمعنا لتتدخّل في شؤوننا الخارجيّة. بسببها درستُ الرياضيّات: تسلّيتُ بذلك دون عواقب. اقترح والدها على والِدَيَّ إلحاقي بمعهد القديسة ماري حيث عرفتُ «غاريك» والآنسة «لومبير»؛ لم يمثّل غاريك بالنّسبة إليَّ سوى مجرّد خيال؛ شجّعتني الآنسة لومبير على دراسة الفلسفة، الأمر الذي قرّر مسار حياتي. لكنّي كنتُ سأختار دراستها لأنّها كانت بمنزلة نداء داخلي عميق. عرفتُ «ستيفا» عن طريق زازا وبشكل غير مباشر عرفتُ من خلالها «فرناند» اللذين علّماني الكثير، لكنّه كثير بلا فائدة. لم تكن، إذاً، السّعادة التي منحتني إيّاها زازا لتدوم مدى حياتي؟ لستُ متأكّدة من ذلك. أوحت لي عائلتي في سنّ السّادسة عشرة برغبة في الهروب، غضباً، حقداً؛ لكنّي لم أكتشف كم أنّ البيئة البورجوازيّة تستحقّ الكراهية إلّا عن طريق زازا. على كلّ حال كنتُ سأجد نفسي مناهضة لها، لكنّي لم أكن لأكنّ في قلبي أو أدفع بدموع ثمن روحانيّة مغلوطة، الامتثال الخانق، الغطرسة، الطغيان الظّالم. كانت جريمة مُحيط زازا تجاهها تجربة لا تنسى تقلب الكيان رأساً على عقب. ثمّ من دون زازا أيّ شباب كئيب كنتُ سأعيش! كانت الصّلة الوحيدة بيني وبين الحياة السعيدة غير المتأدّبة. كانت لي نزعة الدّفاع عن نفسي ضدّ القوى العدائيّة والكبرياء المتشنّج: إعجابي بزازا هو الذي أنقذني. من دونها هل كنتُ سأجد نفسي حذرة، شاعرة بالمرارة، بدل أن أفتح أبواب الصّداقة والحب، الأمر الذي كان آنذاك طبيعة خالصة. لم أكن لأتخيّل نفسي في العشرين مختلفة عمّا كنتُ عليه حينها: لكن أيضاً لا أستطيع تصوّر مراهقة لا وجود فيها لزازا.

لماذا أخفقتْ في الموت، فيما كان في إمكانها أن تتمنّى الحياة، الحبّ وربّما الكتابة؟ فيمَ تمثّل سوء طالعها؟ قبل كلّ شيء، أفكّر، في طفولتها الأولى: غير محبوبة من قبل والدها، على حساب أختها الكبرى، متعلّقة بشغف بأمّ حنون لكنّها غائبة جلّ الوقت، تحت ظاهرها المتهكّم كانت هشّة جدّاً وتنقصها الثّقة بنفسها: ماذا تعني الكلمات الأخيرة التي نطقت بها: «أنا فضلات». كانت ممزّقة من طرف تناقضات لا قِبَلَ لها بتجاوزها، تناقضات حطّمتها في النّهاية: حبّها لأمّها في الخامسة عشرة الذي يقابله الحبّ الذي تكنّه لابن عمّها الشاب، ثمّ لاحقاً ذاك الذي أوحت إليها به «ﭘراديل» Pradelle. هشاشتها البدائيّة جعلت من صراعاتها أمراً قاتلاً.

أُتيحت لي في سنّ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، فرصة القيام بمنعرج لحياتي. قرّر أبي الذي أحبطه التّعليم الذي تخصّنا به دروس «الرّغبة» أن يُلحِقَنا بمعهد: ستكون الدّراسة أكثر صلابة وأقلّ كلفة. كانت أمّي ستستسلم لو أنّي انضممتُ إليها. طريقان انفتحا أمامي آنذاك. لكن كما هو الحال في جلّ الاختيارات لم أبدُ قادرة على الحسم: فُرِضَ عليَّ قراري. لم أشأ الانفصال عن زازا. إلى جانب ذلك كنتُ متعلّقة بماضِيَّ، برفاق القسم، بالقاعات التي كنتُ أقضي فيها أكثر اليوم. كنتُ قويّة في بيئة أعرف تفاصيلها؛ كانت فكرة مواجهة عالم مجهول تفزعني. كنتُ مستمتعة بالتسلية التي يتركها لي وقتي المشحون. كنتُ على دراية بأنّ وقتي في المعهد سيكون أكثر تطلّباً. انضممتُ، إذًا، دون تردّد إلى احتجاجات أمّي.

لم يكن أبي قادراً على فعل العكس؛ فقد ترك دائماً جانب التّربية إلى أمّنا: كان اقتراحه، من الأساس، وجهة نظر غير مسؤولة. لو أنّ زازا لم تكن موجودة لعرف كيف يقنعني، لأجل أسباب نقديّة مُلحّة أو لأجل أسباب أخرى، كيف ألتحق بالمعهد، كيف كانت الأمور ستجري؟ في البداية، غريبة، مُقتَلَعة من جذوري، كنتُ سأنجح بشكل رديء وكنتُ سأُجرَحُ في كرامتي: لكنّ دراستي أثبتت أنّ في وسعي التّأقلم مع التغيّرات؛ كنتُ سأجد نفسي، إذًا، في رتبة مُشرّفة. كنتُ سألقّى أقلّ من دروس «الرّغبة»، حتماً، المنافسة

أكثر قسوة لكنّ فرصاً عديدة كانت ستُتاح لي: أساتذة أذكياء، ورفاق ذوو عقول مستنيرة. لن أُضطرّ إلى إخفاء تطوّري الفكريّ. كنتُ سأبلغ أهدافي بشكل أسرع وبسهولة. ولعلّي أتساءل اليوم بنوع من رعب التطلّع إلى الوراء: «لو تابعتُ دروس «الرّغبة» هل كانت فرصي ستضيع منّي؟»

بقيتُ لأنّ حياتي الماضية تُملي عليَّ ذلك، لا لأنّي اخترتُ بحرّية. حريّتي الحقيقيّة في تلك الفترة، كانت في مكان آخر: في العمل المضني والمبهج الذي، في عمر الجحود ذاك، موكل إليه أن أكون ما أنا عليه. أعزو بعض حظّي إلى الخلاف الأخلاقي الذي حاصرني به والداي والذي أفضى بي إلى الاعتراض. وقرّرتُ أنّي لن أسمع غير نفسي. تحرّرتُ من بعض المُحرّمات. اشتدّت رغبتي في المعرفة والكتابة. اخترتُ ألاّ أؤمن بوجود الربّ. سأتحدّث بجرأة عن إلحادي. لكن ما هو جدير بالملاحظة أنّ صفاقة القسّ «مارتان» لم تلعب دوراً كبيراً في تطوّري. فقد حادت بي عنه لا عن الدّين الذي ظللتُ متمسّكة به بعض الوقت. غير أنّي تعلّمتُ التّفكير وفقد إيماني سذاجته الفطريّة؛ أصبحت ذاك الاتّفاق المحفوف بالشكّ الذي يرضى به كثيرون، مكتفين بالاعتقاد فيما يعتقدونه: سخّرتُ كياني بأكمله لأتأقلم.

عند ولادتي كنتُ على السكّة. قلتُ إنّ والديَّ تحوّلا سنة 1919 إلى «فقراء جدد»، حدث تغيّر في البوصلة ووجدتُ نفسي في درب آخر: تلك التي تناسبني أكثر من غيرها. كان ذلك حظّا أيضاً. عانيتُ من جيناتنا، مباشرة أو خصوصاً عن طريق مزاج والِدَيَّ المتعكّر. لكن من دونها، وأنا أفارق دروس «الرّغبة»، كان سيشقّ عليَّ مواصلة تعليمي.

كان عليَّ، إذًا، أن أتّخذ بعض القرارات؛ لكن حتّى ذلك الحين، لا يبدو أنّي اخترتُ شيئاً معيّناً: تتبّعتُ الطّريق الذي أشار عليَّ به ماضيَّ بشكل ملِحّ. منذ طفولتي كنتُ أتمنّى أن أدرّس. عندما عُرِض عليَّ العمل كأمينة مكتبة، رفضت: تعالي الفلسفة واللغات كان ينفّرني. أقنعتُ أبي الذي يتمنّى لي وظيفة، أن يسمح لي بالحصول على الأستاذيّة. كانت سنة كافية لأفهم أنّي لا أرغب في الرياضيّات أو في الآداب، لكن في الفلسفة:

أقنعتُ السيّدة «لومبير» وبفضلها والِدَيَّ. ثمّ بالتّالي، ارتبط اختيار الموادّ وموضوع الشّهادة بالظّروف: كانت، في الواقع، قرارات دون معنى. المبادرة الأهمّ، كانت دخول امتحان التّبريز سنة 29؛ حتّى هذه ارتبطت بالوضع: كان من حقّي التقدّم للمناظرة، اختنقتُ في البيت وأردتُ بأيّ ثمن التخلّص من الأمر بأسرع ما يمكن.

وهكذا خلال سنوات الطّفولة، المراهقة والشّباب، لم تتّخذ حرّيتي شكل الأمر؛ كان ذلك مواصلة لمشروع أساسي، مُستمرّ ويزداد عناداً بلا هوادة: أن أعرف وأعبّر. تفرّع ضمن مشاريع ثانويّة، عبر مواقف مختلفة إزاء العالم والنّاس: لكن لديها نفس المنبع ونفس المعنى. انخرطتُ في الفريق الاجتماعي، سعيتُ إلى صداقة جاك وطوّرتُها، خالطتُ رفاقاً من «السّوربون»، تسكّعتُ، خفية، في حانات «مون بارناس»، وطّدتُ صلة مع «ستيفا»، استغللتُ طيبة «هيربو» التي وقعت في نفسي. لم أكن سلبيّة قط: كنتُ أُهادن الحياة. أثناء رحلة بحثي غالباً ما كنتُ أصل إلى طريق مسدود. لكنّي، أيضاً، وجدتُ أشياء أثْرَت مسيرتي. كان منهجي يضاعف حظوظ عثوري على اللقاء الحاسم.

منذ طفولتي حتّى نضجي وأنا أنتقل من اكتشاف إلى آخر؛ كانت حياتي عبارة عن مغامرة. مع ذلك، وفي آن واحد، كانت تخضع ككلّ وجود إلى قانون المراحل. كانت صادمة خلال فترة تلَقِّي دوري «الرّغبة». كنتُ أذهبُ تقريباً كلّ يوم، قاطعة نفس الطّريق مشياً على الأقدام أو في المترو، لأجد نفس الأساتذة ونفس الرّفقة. كانت أيام الآحاد تعيد أيام الآحاد وعطلة الصّيف تعيد التي قبلها. بعد الباكالوريا، كُسِرَ الرّوتين. كان معهد سانت–ماري والمدرسة الكاثوليكيّة والسوربون تجديداً كبيراً في حياتي. اكتشفتُ المكتبة الوطنيّة. تعرّفتُ على وجوه جديدة وأصبحت مألوفة لديّ. لكنّي بقيتُ مرتبطة ببيت والدَيَّ، سجينة إيقاع حياتهما. فقط بعد التّبريز تغيّرت كلُّ الأطُر القديمة.

اتّسم وجودي خلال العشرين سنة الأولى بازدواجيّة في استمرار

المُجريات. تبدّلت أشياء كثيرة في جسمي. إلى جانب ذلك تزوّدتُ بمعارف لا حصر لها. كان الوقت، إذاً، وبشكل إيجابيّ، عامل مراكمة: وبما أنّي كنتُ أتمتّع بذاكرة قويّة فلم أكن أفقد الشّيء الكثير ممّا أجمع. مع ذلك تجدر الملاحظة أنّه بالنّسبة إلى كلّ فرد، حتّى لو لم يكن يتوقّف، منذ ولادته حتّى نضجه، عن التطوّر، فإنّه يأخذ في التّراجع رُويداً. كتب تولستوي وهو في الثّمانين، أنّ خطوة واحدة تفصله عن سنته الخامسة الأولى، بينما هناك بين المولود الجديد وبين طفل الخامسة مداد لا ينتهي. ثمّة حقائق كبيرة في هذا التّناقض الظّاهر. إنّ تحوّل العلقَة الإنسانيّة إلى شخص يتكلّم لهو أمر مُذهل. ثمّ بعد ذلك اكتشاف اللّغة، التّفكير الموضوعيّ، القراءة، الكتابة، مبادئ المعرفة، كلّها ستشكّل إنجازاً عظيماً. لاحقاً، سيستمرّ التطوّر، لكنّه سيتباطأ بمرور الوقت. من حيثُ التّعليم، نحنُ نتعلّم في المرحلة الثانوية أكثر ممّا نتعلّمه في المرحلة الابتدائيّة، وفي السّوربون أكثر من الثّانويّة: لكن في التّكوين العامّ للفرد ستلعب المعارف دوراً أصغر. (وسط هذا التّراجع، هناك سنة مُفضّلة: تلك التي غادرتُ فيها دروس «الرّغبة» التي منحتني، بفضل جاك، فرصة التعرفّ على الأدب المُعاصر، التي كانت بالنّسبة إليّ اكتشافاً مزعزعاً).

وأنا أكبر شيئاً فشيئاً، تغيّر وضعي في علاقتي بالكبار وتصرّفهم تجاهي، تلك التغيّرات في حدّ ذاتها أثّرت عليَّ بشكل مباشر: كان لابدّ أن أتأقلم مع طريقة تأقلمهم معي. كفّت أمّي عن أخذي فوق ركبتيها، راحت تعاملني بجدّية جعلتني أشعر بالافتخار: دخلتُ في جلد فتاة متعقّلة. تحت تأثير زازا، وأيضاً بسبب حداثة سنّي، أصبحتُ في سنّ الثانية عشرة عابثة ومتمرّدة. جلبت لي حدّة ردود فعل تلك الآنسات ثورة داخليّة: رفضتُ أخلاقهم والربّ الضامن لها؛ كانت في جيناتي المسافة بين الصّورة التي رسمنها ورسمها لي والِدَايّ وبين حقيقتي. لاحقاً عند بداية حياتي الجامعيّة، تعلّمتُ بشكل مُشوّش الضّرورة بالمعنى السّارتري للكلمة: القدر خارج الحرّية. جعلتُ من نفسي، بحرّية وبتزكية من الجميع، كما اعتقدت، طالبة متحمّسة:

وألفيتُ نفسي وقد تحوّلتُ إلى وحش. في البيت، أصبحتُ منغلقة، غامضة وعدائيّة. لحسن الحظّ أنّه كان هناك رفقة وصداقات ساعدتني على استعادة صورتي الضّاحكة.

كان لحياتي معنى واضح من خلال طفولتي وشبابي: كانت سنّ النّضج هي الهدف والسّبب.

أن تعيش العشرين لا يعني أبداً أنّك تُجهّز نفسك للأربعين. بينما بالنّسبة إلى محيطي وبالنّسبة إليَّ، كان واجب الطّفل والمراهق يتمثّل في تشكيل نحت المرأة التي سأكونها غداً. (لهذا السّبب كان لـ: *مذكّرات فتاة شابّة مُرتّبة* وحدة روائيّة غائبة في الكتب اللّاحقة. مثل روايات التدرّب، يسيل الوقت بسلاسة من البداية حتّى النّهاية). أحسستُ، إذًا، أن وجودي ضرب من الارتقاء. بالتّأكيد نحنُ لا نربح شيئاً دون خسارة شيء ما. إنّه فضاء مشترك لا يقوم إلّا بتضحية الممكنات. الجبال التي في عقل وجسم الطّفل ستزعج فيما بعد الذين يرجو إنشاءهم. المصالح التي ظهرت، تلغي أخرى: طعم المعرفة طمس في داخلي مذاقات كثيرة أخرى. الاستمتاع بغرض ما يلغي جِدّتَه. ارتداد الأطفال إلى الوراء يعني ندمهم على الكِبَر. فقدتُ لمسات أمّي، لامبالاة وعدم مسؤوليّة الطّفولة، ودهشتي أمام أسرار العالم. أحياناً يرعبني المُستقبل: هل سيأتي يوم يكون فيه وجودي مُسطّحا ورماديّا مثل أمّي؟ هل سنصير أنا أختي غريبتيْن بعضنا على بعض؟ هل سنتوقّف عن الذّهاب إلى «ميرينياك»؟ لكنّ مجمل الحصيلة كانت مُرضية. مُصيبتي الوحيدة في شبابي هي الموت، الكِبَرُ أصبح يعجبني: إنّي أتطوّر. فيما بعد صرتُ أريد الهرب من عائلتي. التقدّم في السنّ، كان يُمثّل بالنّسبة إليَّ النّضج والتحرّر. حتّى خلال أيّامي الأكثر عتمة، دفعني تفاؤلي إلى أن أثق بالمستقبل. كنتُ أؤمن بنجمي وبأنّ كلّ ما سيحدث لي لن يكون إلّا جيّداً.

الكثير من الأطفال والمراهقين يرون في سنّ الرّشد نوعاً من التحرّر. فيما يشكّ في ذلك آخرون. وجدَت زازا صعوبة أكثر منّي في التقدّم في العمر. كانت فكرة الابتعاد عن أمّها تؤسفها. سحرُ طفولتها جعل مراهقتها

تبدو كئيبة، كان يرعبها الزّواج المتعقّل الذي بدأ يلوح في الأفق. يشقّ على ابن العامل أن يفكّر في أنّه سيصبح عاملاً هو أيضاً، أي محكوماً بعدم القيام بشيء عدا تكرار حياة أبيه. شباب كثيرون يدفعون عن أنفسهم النّضج بالتمرّد، بالانحراف، بالتشرّد، بالمخدّرات، بالعنف، تحدٍّ للموت قد يصل أحياناً إلى الانتحار. بالنّسبة إليَّ، فكرة أن أعيش بفضل عمل يلائمني، تجذبني أكثر من فكرة الارتباط بالغير التي تلوّح لي بها أنوثتي.

ماذا كان مصيري لو أنّ وضع عائلتي كان مغايراً؟ يمكنني في هذا الشّأن إجراء العديد من الاحتمالات. الأول هو أنّ عائلتي وإن كانت قد أفلست ربّما تصرّفت بشكل مختلف. لو أنّ أمّي كانت أقلّ كتماناً وطغياناً، كان ذكاؤها المحدود سيزعجني بصورة أقلّ، لم تكن الضّغينة لتُلغِيَ العطف الذي أكنّه إليها وكنتُ سأتحمّل جفاء أبي. لو أنّ أبي دون أن يتدخّل في صراعي مع أمّي، تابع اهتمامه بي، فإنّ ذلك كان سيساعدني كثيراً. لو أنّه انحاز إلى صفّي، واهباً إيّاي بعض الحرّية التي كان يجب أن تُمنَح لي لكانت حياتي أكثر خفّة. لو أنّهما كليهما أظهرا لي ودّاً، فمؤكّد أنّي كنتُ سأبدي معارضة إزاء طريقتهما في العيش وفي التّفكير؛ كنتُ سأختنق في البيت وأجد نفسي أكثر وحدة: لكن أبداً مُهملة، مخدوعة، منفيّة. لم يكن قدري ليتغيّر: لكنّ الكثير من الحزن كان سينجلي عنّي. إنّها الفترة الوحيدة في حياتي التي خلّفت لي الأسف. أزمة سنيّ الجحود، أنا التي اختلقتها وكانت فعلاً خصبة؛ انتشلتُ نفسي من الشّكوك عبر الحبّ والحقيقة: وكافأتني الحقيقة. من السابعة عشرة إلى العشرين، آلمني تصرّف والِدَيّ بعمق دون أن أستفيد شيئاً.

لو أنّهما حافظا على ثروتهما، كنّا عندئذ سنعيش بشكل أفضل، ولكان مزاجهما أقلّ حدّة: لكن من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة وقد تعكّر مزاجهما كنتُ قد تشكّلتُ وانتهى الأمر. كانت أمّي وجِلَةً ومتسلّطة إلى درجة أنّها لم تعرف كيف تصنع سعادتنا تاركة إيّانا نبحث عن السّعادة من دونها. دون شكّ، هل لجأتُ إلى الألعاب والرّياضات: بلى في «غريار» أحببتُ لعبة الكروكيت، إذ لم يكن هناك تسلية أخرى من ذاك النّوع في حياتي. غير

أنّ ألعابي الخياليّة مع أختي هي التي كنتُ سأضحّي بها، وليس دراستي أو القراءة. حتّى لو كنتُ أكثر أناقة، أي أكثر راحة، فإنّي كنتُ سأمقت التجمّعات الرّاقية. كلاّ، لم يكن المال ليُغيّر الشّيء الكثير في طفولتي أو مراهقتي. ولو لم أكن مُضطرّة للعمل، لكنتُ واصلتُ دراستي.

في نقطة واحدة، لكن شديدة الأهمّية، كانت حياتي ستأخذ مجرى مختلفاً: لو أنّ جاك اهتمّ بي بأكثر سهولة وأنا لو كنتُ أصدّق بشكل أفضل ولو كنتُ أملك البداهة التي يمنحها المال عادة؛ لم يكن فقري ليُشكّل عائقاً أمام زواج طالما سعى إليه. أنا لا أقامر بالفرضيّات: ماذا لو أنّه تزوّجني دون ثروة؟ كان لابدّ أن يكون آخر، وإن كان لا معنى لهذه الفرضيّة. لكن، والحالُ كما هو عليه، لو كان لي مقابل مهر لكان تزوّجني عن طيب خاطر. لو أنّه عرض عليَّ ذلك قبل لقائي بسارتر، كيف كنتُ سأتصرّف؟ من الصّعب التّفكير بارتداد في الحياة: يجب أن يسيطر المرء على كلّ المتغيّرات. لم يكن أبي ليعتبرني انعكاس فشله وهو راضٍ عن وضعه، لم يكن ليتجنّبني؛ حتّى في ظلّ الخسارة التي سبّبتها لي أمّي، لم يكن البيت ليبدو لي جحيماً ولا جاك منقذًا. ربّما، لم أكن لأجد فيه سوى الصّديق الذي أعرف شروخه. أساساً، عندما أفكّر في مقاسمته الحياة أُصاب بالفزع. كنتُ سأتردّد. رغم ذلك، لو أنّه حدّثني عن الحبّ، العاطفة، فإنّ الانجذاب الجسدي الذي كان سينشأ بيننا، كان، دون شكّ، سيُقنعني.

ثمّ ماذا؟ هل كان جاك سيشرب بشكل أقلّ ويدير أعماله بتعقّل أكبر؟ لا أتخيّل أنّي كنتُ سأملأ الفراغ في داخله: لم يكن جاهزاً ليستقبل ما أستطيع أن أمنحه لشخص ما. كنتُ سريعاً سأكتشف فقره العاطفيّ ولم يكن ليُشبعني فكريّاً. مع ذلك كنتُ سأتمسّك به وبالأطفال الذين كنّا سننجبهم. كنتُ سأعرف التمزّق الذي تعيشه نساء شابّات كثيرات، مُقيّدات بالحبّ وبالأمومة دون أن ينسين أحلامهنّ القديمة.

إلّا أنّي متأكّدة من أنّي كنتُ سأجد مخرجاً.

سنواتي الثّماني عشرة الأولى نحتت شخصيّتي بصورة يصعب معها خيانتها. من المستحيل أن أتخيّل فكرة التخلّي عن طموحاتي، آمالي، كلّ ما كان ضرورياً ليُضفِيَ معنى على حياتي. في مرحلة ما، كنتُ سأرفض الرّكود البورجوازيّ. كنتُ سأواصل دراستي، كنتُ سأكتب وحتماً كان الأمر سينتهي بي إلى الابتعاد عنه. كنتُ سأذلّل العديد من العقبات؛ كانت مقاومتها ستساعدني أكثر ممّا لو أنّي استسلمتُ للسّهولة المُتاحة. أكثر من مستقبل ممكن ينتظر الفتاة التي كنتُها: مثلما هي امرأة اليوم غير قادرة على تصوّر نفسها بشكل مُختلف.

ما أهمّية جاك في حياتي على وجه التّحديد؟ أقلّ بكثير من أهمّية زازا. كان دخول عالم الأدب والفنّ المُعاصر سيُكتَشفُ في السّوربون، على أيّ حال. عرفتُ بفضله «شعر الحانات»؛ ارتدتُها: كان رخاءً ضرورياً لكنّه لم يمنحني الكثير. عرفتُ من خلال جاك اليأس أكثر ممّا عرفتُ البهجة. في الواقع، لقد مثّل خلال شبابي جانب الحُلم. قبله كنتُ أحلم قليلاً: زازا، الكتب، الطّبيعة، وكنتُ أجد كفايتي في المشاريع. في الثّامنة عشرة حلُمتُ لأنّي مُضطربة في داخلي وإزاء عائلتي: لا أن أصبح أخرى لكن أن أقتسم حياة تبدو لي رائعة – حياة «غاريك»– أو مؤثّرة – حياة جاك –. دام هذا الحلم طويلاً دون أن أصدّقه تماماً. كانت مشاعري تجاه جاك مُزيّفة فيما كانت مشاعري تجاه زازا حقيقيّة، لم يكن لديه ما يلفت الانتباه رغم أنّه كان غير مألوف، فيما كانت زازا استثنائيّة.

بمناسبة الحديث عن زازا، عن جاك، عن آخرين، ألاحظ كم الجهل الهائل الذي يسم علاقاتي بهم؛ ظننتُ أنّها شفّافة للغاية لكن اتّضح أنّ فيها جانباً خفيّاً لم أشكّ يوماً في وجوده. قد أشعر بعاطفة خاصّة وأنا أدخل غرفة زازا في غيابها فأتساءل أيّ طعم للحياة لديها؛ لكنّي لا أرتاب في أنّ الطّعم الذي أتساءل عنه هو ما أعرفه عنه. كان ينقصني الخيال والتّجربة ونفاذ البصيرة. كانت لديّ ثقة الأطفال بكلام النّاس ولم أكن أتساءل البتّة عن صمتهم. ذُهلتُ لمّا عثرتُ على رواية المراهقة الخاصّة بزازا،

علاقة جاك، حين أخبرني فرناند بأنّه ينام مع ستيفا. إنّما زازا لم تكن زازا لتظلّ كما هي، كما أحببتُها، من دون حبّها الكبير الذي تحوّل إلى استياء تجاه ابن عمّها. إنّها حياتي التي بدأت تتّضح أنّها مُظلمة فيما اعتقدتُ أنّي أمسك بزمامها جيّداً.

كنتُ عمياء أيضاً فيما يتعلّق بالمنزلة الاجتماعيّة والسيّاسيّة التي بنتها لنفسها. كانت قصّتي هي القصّة التّقليديّة لفتاة بورجوازيّة فرنسيّة من عائلة فقيرة. كان في وسعي الحصول على الرفاهيّة التي تقدّمها بلادي في حدود ما تسمح به ميزانيّة والِدَيَّ. كانت دراستي وقراءاتي مفروضة من قبل المجتمع. هذا أيضاً لم أعرفه إلّا من خلال والِدَيَّ ثمّ بشكل مباشر لكن دون اكتراث. كانت تلك اللاّمبالاة مشروطة بأحوال العالم: إنّه أمان ما بعد الحرب ما جعلني أدير ظهري للأحداث. في السّوربون، أجبرني بعض الزّملاء على الانشغال قليلاً بما يحدث. عرفتُ عار الاحتلال. أقنعتني ستيفا باعتناق التيّار العالميّ والمناهض للحرب. أحسستُ بالبغضاء التي أكنّها، منذ زمن طويل، لليمين، للعنصريّة، للقيم البورجوازيّة وكلّ التّعتيم. أغرتني فكرة الثّورة. مِلتُ ناحية اليسار: كلّ مُثقّف نزيه، باسم الفرديّة التي لقّنوه إيّاها، لا يمكنه إلّا أن يتوق إلى تقويض الطّبقيّة. إلّا أنّ تجربتي الفرديّة كانت تهمّني أكثر من الإنسانيّة. لم أكن واعية إلى أيّ حدّ يمكن للأولى أن تكون مؤثّرة في الثّانية التي مازلتُ لا أعرف عنها الكثير.

كيف كنتُ سأتطوّر لو أنّي لم ألتقِ سارتر؟ هل كنتُ سأتخلّص، باكراً أو متأخّراً، من فرديّتي التي مازالت تبسط سيطرتها عليَّ؟ لم أعرف. ما يهمّني هو أنّي التقيتُ به وأنّه الحدث الأعظم في حياتي.

يصعب أن أقيس إلى أيّ حدّ كان هذا الحدث من صنع الصّدفة. لم يكن فجائيّاً تماماً. وأنا أنذر نفسي للدّراسات العليا، أعطيتُ نفسي أكبر قدر من الفرص ليحدث لقاء مماثل: كان لابدّ للرّفيق المثاليّ الذي أحلم به في سنّ الخامسة عشرة أن يكون مُثقّفاً، متعطّشاً مثلي لفهم العالم. من جهة أخرى، بعين وأذن يقظتين ومنذ وصولي إلى السّوربون، سعيتُ إلى التعرّف بين

رفاقي على من أتّفق معه بشكل أكبر من غيره. أخيراً، جلب لي انفتاحي على الآخرين الاستلطاف: كسبتُ وُدّ «هيربو» ومن خلاله وُدّ سارتر.

رغم ذلك، لو أنّه نجح في امتحان التّبريز سنة إلى الوراء، لو أنّي تقدّمتُ سنة لاحقة، هل كنّا سنلتقي؟ ليس على هذا النّحو الحتمي. كان هيربو سيلعب دور الخلّ المشترك بيننا. حتّى إنّنا فكّرنا في بعض الأحيان أنّه لو لم يحدث اللّقاء سنة 1929 فإنّه كان سيتحقّق لاحقاً. كانت حلقة الأساتذة المنتمين إلى اليسار التي انضممنا إليها مُضيّقة. كنتُ في كلّ الحالات سأكتب، سأخالط الكتّاب ومن خلالهم كنتُ سأتعرّف على سارتر. بين سنة 43 و45، كانت أمنيتي ستتحقّق بالنّظر إلى الوحدة التي كانت تجمع بين المُثقّفين المناهضين للنّازيّة. كانت سترتبطنا علاقة مختلفة، ربّما، لكن بالتّأكيد متينة جدّاً.

إن كانت الصّدفة هي التي صنعت لقاءنا فإنّ الالتزام الذي ربط بين حياتَيْنا كان عن اختيار حُرّ: اختيار كهذا لم يكن أمراً بل مؤسّسة ذات نفَس طويل. تمثّل أوّلاً، بالنّسبة إليَّ، في قرارٍ عمليّ: البقاء سنتين في باريس بدل الحصول على وظيفة. تبنّيتُ صداقات سارتر، دخلتُ عالمه، لا لأنّي امرأة كما ظنّ كثيرون بل لأنّ هذا العالم يستهويني منذ زمن. حتّى إنّه تبنّى صداقاتي أيضاً: استلطف زازا؛ لكن عمّا قريب لن يظلّ لي من ماضٍ سوى أختي، ستيفا وفرناند؛ كان عدد أصدقائه أكبر وكانت تجمع بينهم علاقات حميمة وخصوصيّات فكريّة.

حرصتُ على ألاّ تتغيّر علاقتنا، متّخذة لنفسي مسافة بين ما يجب أن أقبله، وأن أرفضه، من جهته، من جهتي، كي لا أعرّضها للخطر. وافقتُ ضدّ مشيئتي، لكن من دون يأس، على أن يذهب إلى اليابان. كنتُ على يقين أنّنا، خلال سنتَيْن، سنجد أنفسنا كما تواعدنا. كان قراراً مهمّاً أن أذهب إلى مرساي بدل أن نتزوّج. في جميع الحالات الأخرى، كانت إرادتي تتقاطع مع اندفاعي التّلقائي؛ ليس في هذا القرار. لم أكن أرغب في أن نفترق أنا وسارتر. ملتُ إلى الحلّ الأقسى خوفاً على المستقبل. هل كانت المرّة الوحيدة التي بدا لي فيها أنّي توقّيتُ خطراً حقيقيّاً وأعطيتُ حياتي إكسير الحياة.

ماذا كان سيحصل لو أنّي وافقت؟ لا معنى لهذه الفرضيّة. كنتُ مُشكّلة

على نحو يجعلني أحترم الآخرين. أعرف أنّ سارتر لا يرغب في الزّواج. لم يكن منطقيّاً أن أتمنّاه وحدي. يحدث أن أعارضه في تفاصيل صغيرة (والعكس صحيح) لكن، لم أكن لأرغمه قط على اتّخاذ قرار في ظروف جادّة. لنفترض - لأسباب لا أتخيّلها بوضوح - أن الزّواج قد طُرِح علينا، أنا متأكّدة من أنّنا كنّا سنتصرّف على نحو يجعلنا نعيشه بحرّية.

الحرّية: إلى أيّ حدّ مارستُها خلال السّنوات العشر المُقبلة؟ فيمَ تدخّلت الصّدفة والظّروف؟

اتّخذتُ بعض القرارات التي أملاها عليَّ الوضع: طلبتُ الاقتراب من باريس وعُيِّنتُ في «روان» Rouen، غير بعيد عن سارتر الذي كان يدرّس في «هافر» Havre. ثمّ بعد ذلك سيكون من السّهل القبول بمركز في باريس. كنتُ موافقة تماماً على أن يُقضّي سارتر سنة في برلين. معاً، في معهد تحضيري عُرِض عليه في ليون، اخترنا له تدريس الفلسفة في «ليون» Lyon، بعد تفكير متعقّل أفضى بنا إلى إمكانيّة عودته إلى باريس في أسرع وقت.

كان مصيري في تلك الفترة، يشبه مصائر جلّ النّاس: أنا أيضاً اشتغلتُ كي أكرّر حياتي. كان وجودي مُكرّراً مثلهم، الأمر الذي أثقل كاهلي. لم تكن الأغلبيّة تتوق إلى الهرب من هذا الرّوتين قبل مجيء موعد التّقاعد المُنتظر. الأمر المُتجدّد الوحيد هو ما يمنحه إيّاهم ولادة طفل أو نموّه: إنّها تضيع في الرّتابة اليوميّة. بالنّسبة إليَّ، كانت لي تسالٍ كثيرة؛ كنتُ أقرأ، أقيم علاقات صداقة، أسافر: كنتُ في اكتشاف مُتواصل. كنتُ منتبهة ويقظة إزاء العالم. ظلّت علاقتي بسارتر حيّة؛ لم أكن مُسخّرة في بيت؛ لم أشعر بصلة تربطني بالماضي. كانت نظرتي متطلّعة إلى مُستقبل واعد: سأصير كاتبة. نشأت حرّيتي وأنا أتدرّب على الكتابة. لم يكن ارتقاءً هادئاً، شبيهاً بذاك الذي أفضى بي إلى التّبريز في الفلسفة، بل مجهوداً مرتعشاً: تعثّراً وتراجعاً وتطوّراً مُحتشماً.

ساعدت الصّدف على تأثيث حياتي. كان من الممكن ألاّ تكون «كوليت أودي» معي في نفس المعهد، «أولغا»، «بيانكا»، «ليز»، كان من

الممكن ألاّ يتابعن دروسي. أخذاً بعين الاعتبار الاهتمام الذي أحمله للنّاس، كان من غير المعقول ألاّ تلفت أيّ من طالباتي انتباهي. في حين، كان من الممكن، بدل هذه اللّقاءات، أن تحدث أخرى أقلّ أو أكثر سخاءً، ربّما جلبت لحياتي لوناً مختلفاً. كان من قبيل الصّدفة أن تحدث هذه اللّقاءات دون أخرى. لكن لم يكن متاحاً لهذه الصّدف أن تصنع الكثير في حياتي ما دام الضّروريّ قد تحقّق فيها.

خدمت حرّيتي الطّريقة التي أنشأتُ بها صداقاتي. يهمّني بشكل خاصّ أن أفهم ماذا كان نصيب حرّيتي في تحديد علاقتي بأولغا بسبب تعقّدها.

أنا من أخذتُ مبادرة الخروج معها من حين إلى آخر. استطعتُ أن أثنِيَ والِدَيْها اللذين أرادا إرسالها إلى «كايان» وأمكنني إقناعهما بتركها في روين، كلّ ذلك تحت تأثير من لطفها وبتشجيع من سارتر. لم أنجح في تجهيزها لإجازة الفلسفة كما خطّطتُ؛ أذعنتُ إلى كسلها: لم *أستطع* القيام بالأفضل. تتحمّل الأعراف الإنسانيّة الخاملة، كما أثبت سارتر، الكثير من المتطلّبات؛ تسقط الصّداقة في الماضي، ولا تُعاشُ فقط كأمر يوميّ، إنّها تصبح حقيقة جامدة ما علينا سوى القبول بها: ما أتحدّث عنه يطالبُ بمتابعة خاصّة. لم يكن مطروحاً أن أشوّش علاقتي بأولغا ولا أن أعاند في الوقوف ضدّها. بعد ذلك، وجدتُني مُجبَرة على خوض مُستحيلات أخرى. «كان من الضّروريّ أن أتناغم مع سارتر كي أرى أولغا بعيون غير عينيها». كان لتلك الضّرورة منبع من داخلي، أختارها دائماً: لكنّه اختيار يناقض اختيارات أخرى وهذا ما يُفسّر، داخل الحلقة المؤلّفة منّا نحن الثّلاثة، وجدتُني مُمَزّقة. لم أكن *قادرة* على أن أجد مخرجاً لكنّي كنتُ منزعجة. أولغا هي التي حلّت العقدة بعلاقتها مع «بوست». من هذا المُنطلق، كنتُ جاهزة تماماً لإرضاء متطلّبات صداقتنا. عشتُها بحرّية غير مشروطة.

جرى عندئذ حدث كان من الممكن أن يحطّم وجودي إلى الأبد: مرضي. لم يكن عرضيّاً. كنتُ أتعب حدّ الإرهاق؛ لم أخضع، فوراً إلى العلاج كما يُفترَض. كان نوعاً من الهرب: هربتُ من الثّلاثي الذي بدأ يدبّ فيه التوتّر. لم

يكن من قبيل الصّدفة أنّنا لم نستطع وضع حدّ لكلّ ذلك: لم تكن المُضادّات الحيويّة موجودة بعد. كانت أعجوبة أنّي نجوتُ – على الأقلّ من زاوية ما كان يعرفه الأطبّاء آنذاك. مُنِحتُ حظّاً من اثنين كي أعيش.

بدا لي خلال عشر سنوات أنّي بنيتُ حياتي بيَدَيَّ؛ لم يكن ذلك مجانباً للصّواب؛ مع ذلك، تماماً مثلما حصل معي في الفترة السّابقة، كنتُ رهينة الظّرف الاجتماعيّ. كنتُ مُضطرّة لاستهلاك السّلع التي يُوفّرها المجتمع؛ كنتُ أتقاضى راتباً معيّناً: كان الحيّز المتروك لي ضيّقاً جدّاً. مهنيّاً، كنتُ أنعم بالمكانة المُريحة لأساتذة المعاهد.

يمكنني القيام ببعض المبادرات: لكنّ البرامج والتّوقيت وعدد الطّلبة، كانت مُقرّرة من دوني. في المجال الثّقافيّ كان يُسمح لي بالاختيار: إنّما دائماً بين الكتب والأفلام المُقتَرَحَة عليَّ، بالإضافة إلى ذلك، عندما أظنّ أنّي أسلك طريقاً خاصّاً، لا يتّضح في الحقيقة سوى أنّي كنتُ وفيّة لنموذج جاهز مُسبقاً: ممارسة رياضات الشتاء، قضاء العطلة في اليونان، كان ذلك بمنزلة اتّباع نمط البورجوازيّين الصّغار الفرنسيّين. مع ذلك كنتُ أتضايق عندما أباغت نفسي بعين محايدة، كواحدة من المجموعة. عندما قالت ستيفا لروبين: «هؤلاء الفرنسيّون يأكلون جيّداً!» ولاحقاً قال فرناند: «فرنسيّون أوغاد»، لم أقبل أن يكون موقفهم يهمّني. ليس أكثر من عدم رغبتي في أن أكون ضمن الأطفال وأنا طفلة صغيرة – كنتُ نفسي – لم أقبل أن يتمّ تعريفي بأنّي فرنسيّة: هنا أيضاً كنتُ نفسي.

ترتبط أوضاع البلدان بتاريخها وبالتّاريخ العالمي؛ كنتُ، إذًا، رهينة الأحداث: أكره الاهتمام بها. أحاول قدر الإمكان معرفة ما يجري لكن لا شيء كان يعنيني. كي أقدّم فكرة شافية حول حياتي، كان عليَّ أن أشير في *(سلطة العمر)*[4] إلى امتداد جهلي. يُعَرَّفُ المرء أحياناً بما يغيب عنه أكثر ممّا بلغه. لويس السادس عشر، القيصر الأخير، كتب في يوميّاته: «اليوم، لا

4- سلطة العمر La force de l' âge: كتاب ألّفته الكاتبة سنة 1960 ويعتبر الجزء الثاني من مذكّراتها.

شيء»، فيما كانت الثّورة مندلعة من حوله. وكان ذلك كافياً كي نعرف الكثير عن آرائه وأفعاله. قلتُها: بين 29 و39، يعاني اليسار الفرنسيّ برُمّته من فقدان البصيرة السّياسية. كان من السّهل عليَّ مشاطرة مقولتي لأنّي لا أرزح تحت ثقل التّاريخ بالشّكل الذي يجعلني أقلق. وأردتُ ذرّ الرّماد على عينَيَّ: أردتُ أن أصدّق أنّ شيئاً، لن يزعزع سعادتي. تعني لي الجبهة الشّعبيّة: لأنّها كانت تحمل الأمل لا التّهديد. أثّرت فيَّ الحرب في إسبانيا: لكنّي لم أتخيّل أنّها تهمّني بشكل مباشر. مارستُ حرّيتي كي أنكر حقيقة الفترة التي أعيشها.

تقاطعتُ مع الحقيقة سنة 1939. عرفتُ أنّي استعدتُ حياتي لأنّي كففتُ عن الموافقة على ما يُفرَضُ عليَّ: مزّقتني الحرب، فرّقتني عن سارتر، أبعدتني عن أختي؛ انتقلتُ من الخوف إلى اليأس، ثمّ إلى الغضب، ثمّ إلى القرف، مع نسمات نادرة من الأمل. كنتُ كلّ يوم، كلّ ساعة، أقيس كم أنّي مرتبطة بالأحداث. لقد تحوّلت الأحداث إلى عقار يومي. غاب عنّي منها الكثير بسبب الحظر: لم تكن جهة الظلّ التي هي عكس وجودي مُظلمة، قطّ، كما هو الشّأن وقت الحرب. لكنّي كنتُ أبحث عنها بشغف وأسعى لفهمها: لم أكن أميّز بينها بمجرّد الحدس.

لم يبق لي من الحريّة إلّا القليل. تصرّفتُ، شتاء 1939، كي أذهب أنا وسارتر إلى «برومات» Brumath [5]: حتّى هناك لم أفعل سوى تقليد عدد كبير من النّساء. غادرتُ باريس في يونيو 40: عاد معهدنا بالنّظر إلى «نانت» Nantes، ومنحني والد بيانكا مكاناً في السيّارة، كانت رحلة عفويّة. عدتُ بسرعة من «پرواز» Prouèze، مُستغلّة فرصة: حتّى تلك العودة فُرِضَتْ عليَّ. كان تصرّفي تجاه الاحتلال تحت إملاء من ماضِيَّ: سُلم قِيَمي، قناعاتي. التزامي السيّاسي فسّرت دائماً الأفكار التي بنيتُها على مدى حياتي: كانت المسألة تتمثّل في اختيار الأفعال، في تلك الظّروف، القادرة على ترجمتها بشكل جيّد. سبّب لي ذلك بعض المشاكل. سنة 40، على المستوى الفكريّ

5- برومات Brumath: بلدية تقع في إقليم الراين الأسفل من منطقة ألزاس في شمال شرق فرنسا.

لم يكن ثمّة تردّد ممكن: لم يكن أمامي سوى الحقد على النّازيّة والتّعاوُن. كان في نيّتي أيضاً محاولة ردّ الفعل إزاء الأوضاع دون أن أترك أيّ طرف يسحقني. بعد اطمئناني على مصير سارتر من قِبَل أحد رفاق المعتقل، قرّرتُ المراهنة على المستقبل السّعيد. طلبتُ من «هيجل» Hegel أن يفسّر لي ما استعصى من دروس التّاريخ. شرّعتُ أبوابي على جميع التّسليات المتاحة. قرّرتُ إنهاء رواية «*الضّيف*» و«*دماء الآخرين*». ما لم أكتشفه، هو كيف أترجم معارضتي للنّازية من خلال الأفعال. اتّخذ سارتر المبادرة بعد عودته من الجبهة: الأولى - تأسيس مجموعة *اشتراكيّة وحرّية* - أدهشتني في البداية لكنّه أقنعني وانضممتُ إليها، إذًا، ثمّ بعد ذلك إلى النّشاط السّياسي. تكيّفتُ مع الخصاصة المادّية جاعلة من مشاغلي نوعاً من الهوس. اضطرّتنا الأوضاع إلى مغادرة باريس في يوليو 44؛ عدنا إليها متطوّعين، رغم الصّعوبات، كي نحضر الاحتفال: التحرّر.

لم تكن الصّداقات التي عقدناها أواخر الحرب عابرة. عرفنا «جياكوميتي»، عن طريق «ليز»، الآخرين عن طريق «لايريس». أحببنا كُتُب هذا الأخير واشتغل معه سارتر في اللجنة الوطنيّة للكتّاب C.N.E. عرّفنا على «سالاكرو» Salacrou، جورج باتاي، لاكان، ميبوفيتز، كينو، الذين كانوا جميعاً ينتمون إلى المقاومة الفكريّة. ألبير كامي - الذي كتب عنه سارتر مقالاً - عرّف بنفسه أثناء تقدير كتاب «*الذّباب*». جينيت - الذي كان يعرف أنّنا نحبّ *قدّيسة الزّهور* - قابل سارتر في مقهى«فلور» Flore. لنفترض أنّي لم ألتقِ سارتر هل كنتُ سأتعرّف على هؤلاء الكُتّاب؟ دون شكّ. في تلك الفترة لابدّ أنّي كنتُ سأصدر كتاباً؛ كنتُ سأنضمّ إلى لجنة الكُتّاب C.N.E هناك، ربّما، كنتُ سأتعرّف على سارتر.

سنة 1945، وجدتُ نفسي على السكّة، وكان أمامي القليل فقط من القرارات للنّظر فيها. أهمّ تلك القرارات كان عدم دخول الجامعة وعدم القيام بأيّ مهمّة منزليّة كي يتسنّى لي التفرّغ للكتابة. لم يعد هناك مجال لأهدر الفرص. واقعي الموضوعيّ - كاتبة، مساعدة في مجلّة *الأزمنة المعاصرة*،

السّارتريّة الكبيرة – ضمِنَ لي أشياء عديدة: إمّا أن أقبَل أو أستبعد. وهكذا دُعيتُ إلى تونس والبرتغال وسويسرا وهولندا دون سَعْي منّي. تعبتُ بشكل مُضاعف خلال الرّحلة إلى إيطاليا: أصررتُ على الحضور رغم الظّروف غير الملائمة. «سوبولت» هو الذي رتّب رحلتي إلى أمريكا: يجدر القول إنّي استعطفتُه. ثمّ بعد ذلك نظّمتُ بصحبة سارتر بعض الرّحلات؛ أخرى عُرضت علينا بإصرار، خصوصاً رحلات 1960 إلى كوبا، البرازيل، وسنة 62 إلى الاتّحاد السوفيتي.. أمّا إقامتنا في «پرويز» Prouèze فكانت تحت إلحاح من السيّدة «لومار» Lemaire وبرغبة منّا. أمّا إقامتنا في نزل «ميدي» Midi، فأنا التي اخترتها ورّتبتُ لها، مع مراعاة ذوق سارتر. غادرتُ النّزل لأستقرّ في غرفة، شارع مقاطع الخشب bûcherie، وانتقلتُ من تلك الغرفة بعد قبولي بجائزة غنكور إلى شقّة قريبة من مقبرة مونبارناس. سنة 1951، اقتنيتُ سيّارة وتعلّمتُ القيادة: لا شيء جديداً في تلك المبادرة؛ لأنّ صناعة السيّارات ازدهرت والكثير من الفرنسيّين أرادوا شراء سيّارات.

بما أنّ حياتي بدأت تنفتح على العالم رُويداً – عرفتُ أناساً كثيرين، وتضاعفت الفرص التي كانت تُتاح لي – تراجع دور الصّدفة إلى أن أصبح ضئيلاً جدّاً. كانت الأحداث التي تقع إمّا امتداداً أو نتيجة لما خلّفتُه ورائي. إلّا أنّها الصّدفة ما جعلني ألتقي «ألغرين» Algren: لا شيء كان غير مُحْتَمَلٍ مثلما هو لقائي معه. كان من الطّبيعي أن يلتَقِيَ سارتر «ريتشارد رايت» في الولايات المُتّحدة، وطبيعيّ أيضاً أن يكون الأخير قد عرّفني على كتّاب من نيويورك. لكنّه لم يحدّثني عن ألغرين الذي يقطن في شيكاغو. نيلي بنسون هي التي نصحتني برؤيته عندما رحتُ لأتناول الغداء في بيتها، وكنتُ قبلها أكاد أرفض الدّعوة. في شيكاغو، كاد ألغرين ألاّ يجيبني على الهاتف، ورغم الودّ الذي نشأ بيننا لم أكن لأراه ثانية لولا أن طلب منّي سارتر تمديد إقامتي في الولايات المُتّحدة. مع ذلك، لم يكن ليحدث شيء بيننا لو لم تكن لديَّ الرّغبة الكافية لمواصلة المغامرة: لم أكن لأطلعه، في مكالمة هاتفيّة، عن رغبتي في العودة إلى شيكاغو، كما دعاني أوّل مرّة. ثمّ بعد ذلك أردتُ أن

تكون الحكاية كالتالي: نحنُ نتّفق بسبب ما نحنُ عليه وما يُمثّله أحدنا للآخر. لكنّي أردتُها، أيضاً، محدودة على ذلك النّحو الذي يؤدّي بها حتماً إلى نهاية سريعة. رويتُ ما منحتني إيّاه الحكاية في *سلطة الأشياء*.

لعبت الصّدفة دوراً محدوداً في علاقتي بـ «لانزمان». كان من الممكن ألّا ينضمّ إلى فريق تحرير *الأزمنة المعاصرة*؛ مع أنّ مكانته كانت واضحة بالنّظر إلى سنّه وتكوينه الفكري وأفكاره السّياسيّة. أحسستُ آنذاك أنّي في أتمّ الاستعداد وتملّكتني رغبة في أن يحدث لي خطبٌ ما: كان شعور الاستلطاف المتبادَلِ بيني وبين لانزما على أهبة التحوّل إلى شعور أعمق. فارق السنّ بيننا، والظّروف قادت الحكاية إلى نهايتها بعد أن استمرّت بضع سنوات كي تترك مكانها لصداقة متينة. كان هذا المنحى حتميّاً أيضاً.

أعرف أنّ المُجريات في العالم هي كساءُ حياتي، أحاول متابعتها. لكن بسبب نقص المعلومات فإنّ جهلي ظلّ هائلاً: بينها أنّي لم أعلم سنة 45 بمدى خطورة القمع الذي حدث في ولاية سطيف الجزائريّة ولا الوضع الحقيقيّ في الجزائر؛ لم أكن أعلم بما يجري حقيقة في الاتّحاد السوفيتي، وفي الدّيمقراطيّات الشّعبيّة. حتّى لو لم نكن ننظر بعيداً، فلابدّ دائماً من اتّخاذ موقف: وهذا غير ممكن من دون تردّد وأخطاء. أمّا عن علاقتنا بالحزب الاشتراكي وبالبلدان الاشتراكيّة، فقد نسجتُ على منوال سارتر في تقلّبه. أحياناً يتحتّم علينا بشكل صاعق رفض بعض الفضائح: المعسكرات السوفيتية، محاكمة «راجك» Rajk و«سلانسكي» Slansky، بودابيست. كانت مواقفها إزاء الرّأسماليّة والإمبرياليّة والاحتلال واضحة: يجب أن نقاومها في كتاباتنا وبالأفعال إن لزم الأمر. كنتُ فكريّاً منخرطة في هذه المقاومة، لكن على المستوى العمَلِيّ لم أشارك قط. لا أتحمّل الاجتماعات والمؤتمرات. وإن كنتُ قد شاركتُ في مؤتمر «هيلسنكي» Helsinki[6] سنة 1955. كتبتُ كتاباً حول الصّين في نفس السّنة، حيثُ استغرق منّي الأمر سنتيْن كي أعرّف

6- مؤتمر هلسنكي: L'accord de Helsinki وثيقة صدرت عن مؤتمر هلسنكي المنعقد في عام 1975 نظمت أسساً جديدة للأمن والتعاون بين الدول الأوروبية.

بالثّورة الصّينيّة. شاركتُ في مناسبات مختلفة في اجتماعات، وقّعتُ بيانات تنديد، قمتُ بشيء ما خلال الحرب في الجزائر، وضدّ سياسة ديغول. حول هاتين النّقطَتيْن، كانت قناعاتي أكثر التصاقاً بي من رفضي للنازيّة سنة 1940؛ كيف أترجمها إلى أفعال؟ سألتُ ناشطين مثل فرنسيس جونسون أو منظّمات منخرطة في المقاومة. لم أفعل سوى اتّباع تعليماتهم: لكن، طبعاً، اخترتُ أن ألتمس ذلك منهم، فكان قراراً حُرّاً منذ البداية.

مارستُ حرّيتي، خصوصاً، في مجال الكتابة؛ نحنُ نكتب كما نجيد أن نكون، لكنّه عمل مُتجدّد دائماً. قلتُ في *سلطة الأشياء كيف*، حتّى 62، نشأت وتطوّرت الابتكارات: لا فائدة من العودة إلى ذكر ذلك مُجدّداً. لو تأمّلتُ الخطّ العام لحياتي لأدهشني. وُلدتُ وعشتُ في باريس: ظللتُ موثوقة بباريس حتّى خلال السّنوات التي قضّيتُها في مارساي وروين. غيّرتُ سكني عديد المرّات لكنّي حافظتُ دائماً على نفس الحيّ: أسكن اليوم على بعد خمس دقائق من أوّل شقّة لي. تبدّلت باريس منذ شبابي، صار بالإمكان إيجادُها في عديد الأماكن الأخرى: في اللكسمبرغ، في السّوربون، المكتبة الوطنيّة، شارع مونبارناس. ساحة سان جرمان دي پري. لم أعد أكتُب في المقاهي، لكنّي أعمل تقريباً وفق نفس الإيقاع، وَفْقَ نفس المناهج. لم أعد أقوم بمسافات طويلة مشياً على الأقدام، لكنّي أتجوّل في السيّارة. لبثتُ وفيّة لاهتماماتي: القراءة، السّينما، الاستماع إلى الأسطوانات، مشاهدة اللّوحات.

مع ذلك، هناك مجال انقطعت استمراريّته: الصّداقات المُشتركة بيني وبين سارتر. أحياناً بسبب الموت، رويتُ كيف أنّ هناك بينهم من اختفى أو انقطعت صلتي به فجأة فيما صداقات أخرى كانت تنشأ. في مُجمل الأحوال مثلما هو الأمر بالنّسبة إلى كامو – بدت الحكاية واضحة من البداية إلى النّهاية. أحدهم أثار فضولي: «پانييز» Pagniez. كان أفضل أصدقاء سارتر فترة طويلة، كانا مُعجبين بعضهما ببعض ويلتقيان كلّ يوم. لم يحدث بينهما خلاف: كيف أمكنهما الابتعاد أحدهما عن الآخر إلى درجة أنّ أحداً منهما لم يعد يرى الآخر؟ كانت أفكارهما تتشابه في فترة الشّباب لكنّها مُجرّد آراء

ومواقف: فوارق بسيطة لا تخضع إلى أيّ أعراف. منذ اللّحظة التي تُتَرجَمُ فيها إلى اختيارات، والتي سرعان ما تأخذ شكل حرّية غير مشروطة مشحونة بمتطلّبات جديدة، سنفهم أنّ طُرقاً، متّحدة في بدايتها، يمكنها أن تتباين بسهولة. أن يكون پانييز من الطّراز القديم، سارتر متطرّف، فإنّ هذا مُضحك: لكلّ منهما نمطه في أن يعيش وضعه الفكري كبورجوازيّ صغير. عندما أظهر پانييز أنّه مُحافظ، رجعي، فيما اكتشف سارتر وتبنّى بجدّية مقاومة الطبقيّة، جعل ذلك كلّ تفاهم بينهما مُستحيلاً. مع ذلك كان من الممكن أن يوضَعَ تصوّر، باسم الماضي، من قبيل التّغاضي المُشترك: طالما ساد بيننا وبين السيّدة لومير. حاولنا مع پانييز: «أنتِ تكتُبين، أنا اخترتُ لنفسي بيتاً سعيداً، هذا ليس سيّئاً أيضاً»، قال پانييز. لكن بدا لنا أنّ ذلك مجانب لما يُفكِّر فيه، وإلّا ما كان ليُغذّي ذاك الكمّ الحدّة تجاه سارتر. لم يجمع بيننا أيّ لقاء منذ زمن، ففي سنة 1960 رفض مساندة «پويون» و«پانغو»، زميليه اللذين وجدا أنفسهما مطرودَين من وظيفتهما بسبب بيان وقّعا عليه. كان بيان 121 [7].

في الوقت نفسه، كانت في حياتي علاقات قديمة لم تنقطع قط. أمران منحاها استمراريّتها: المكانة التي أولاها إليها سارتر. وإخلاصي لمشروعي الأوّل: المعرفة والكتابة. ماذا أردتُ من خلاله؟ ككلّ حيّ، حاولتُ إيجاد نفسي ومن أجل ذلك نهلتُ من تجاربي التي توهّمتُ أنّي خُضتُها. كانت المعرفة كما تخيّلتُها في تأمّلاتي الطّفوليّة، أن أعير للعالم وعياً، انتزاعه من عدم الماضي، من ظلمات الغياب؛ بدا لي أنّي حقّقتُ الصّلة المُستحيلة بين ما في نفسي وما لنفسي وأنا أضيع في الموضوع الذي أشاهده، في لحظات السّعادة الجسديّة القصوى، في حرارة الذّكرى، في إحساس الاحتفاء بالمستقبل. وأردتُ أيضاً أن أتجسّد في كتُبٍ، ستكون أشياء موجودة بالنّسبة إلى الآخر، حافلة بحضور ما: حضوري.

كلّ بحث عن الذّات محكوم بالفشل لكنّه فشل مقبول. بعد اليأس من

7- بيان 121: بيان وقّعه جامعيّون ومُثقّفون فرنسيّون مطالبة بالحق في عصيان دخول حرب الجزائر.

أن نكون آلهة قد نرضى بكوننا موجودين فحسب. أن تعرف، لا يعني أن تملك، مع ذلك لم أنفكّ أتعلّم. أردتُ المساهمة في عمل حيثُ سيسعني أن أتجسّد، لكن قبل ذلك أردتُ أن أُسمِع معاصِرِيَّ. إنّها علاقتي بهم – التعاون، المقاومة، الحوار – التي كانت طوال حياتي الأمر الأكثر قيمة في نظري.

إجمالا، كان قدري حافلاً. اعتراني الخوف، وعشتُ الثّورة. لكنّي لم أتلقَّ القمع، لم أُنفَ، لم أُعنَّف بأيّ شكل. لم أرَ أعزّائي يموتون ولم أعرف الوحدة منذ سنّ الواحدة والعشرين. لم تُساعدني الفُرَص التي مُنِحتُها حياة سعيدة فحسب، لكن أن تُعجِبَني حياتي التي وُهبتُها. عرفتُ نقصي وحدودي، لكنّي تأقلمتُ. حين تمزّقني الأحداث التي تجري فإنّ رغبة في تغيير العالم هي ما يجتاحني، لا المكان الذي أشغله.

«نحنُ نولَدُ مُتعدّدين ونموت فرادى»، قال فاليري. برغسون أيضاً قال إنّنا نفقد احتمالاتنا ونحنُ نتحقّق. لستُ كذلك. نعم، في الثانية عشرة كنتُ مأخوذة بعلم الحفريّات، بالفلك، التاريخ، بكلّ مجال جديد أكتشفه: لكنّها كانت جميعاً جزءاً من مشروع كبير يتمثّل في كشف سرّ العالم وحقّاً كرّستُ نفسي لذلك. فكرة الكتابة أضاءت مستقبلي في آن واحد. كنتُ دون شكل، لكن لم أكن مُتعدّدة. ما يصعقني، في المقابل، هو كيف تحافظ فتاة الثّالثة على بقائها، مُتجسّدة في فتاة العاشرة، ثمّ في فتاة العشرين وهكذا دواليك. مؤكّد أنّ الظّروف جعلتني أتطوّر. لكنّي أتعرّف على نفسي في كلّ أطوارها.

مثالي يبرهن بشكل صارخ كم أنّ المرء رهينٌ لطفولته. طفولتي ضمنت لي انطلاقة جيّدة. حظيتُ بأنّي لم أتعرّض إلى حوادث تقطع تسلسل حياتي؛ حظّ آخر، تمثّل في الصّدفة التي ألقت سارتر في طريقي. سخّرتُ حرّيتي لخدمة مشاريعي الأساسيّة؛ ولكي أظلّ وفيّة لها، خضعَت، خلال تقلّبات الأوضاع إلى الابتكار؛ في شكل قرار، أحياناً، لكن عموماً بصورة طبيعيّة: لم أُضطَرَّ إلى التحرّر بفضل نزوعي إلى الاهتمام بالمُهمّ. كانت حياتي بوصفها استكمالاً لمشروع جوهريّ، النّتيجة والتّعبير عن العالم الذي يجري فيه، لهذا السّبب استطعتُ، وأنا أرويها، أن أتحدّث عن أشياء بعيدة عن ذاتي.

والآن، أين أنا تحديداً؟ أيّ جديد منحتني إيّاه السّنوات العشر الأخيرة؟ هذا تحديداً ما أحاول تسليط الضّوء عليه.

***

الأمر الأوّل الذي يصدمني، باعتبار السّنوات العشر التي مضت منذ إتمامي لـ: *سلطة الأشياء*، هو أنّ لديّ انطباعاً بأنّي تقدّمتُ في السنّ. بين 1958 و1962، لديَّ وعيٌ بأنّي تجاوزتُ خطّاً. إنّه ورائي في الوقت الحاضر وأعرف أنّي نلتُ منه نصيبي. ربّما جعلني مرض ما أو عجز ما أتجاوزُ خطّاً آخر؛ لا أجهل التهديد الذي يحمله المستقبل بين طيّاته، لكنّي لستُ مهووسة بذلك. لقد توقّف الزّمن مؤقّتاً بالنّسبة إليَّ: أن أكون في الثالثة والستّين أو الثّالثة والخمسين، ما من فرق في نظري؛ فيما في الثّالثة والخمسين اعتبرتُ أنّ مسافة مُذهلة تفصلني عن الثّالثة والأربعين. الآن، صرتُ لا أهتمّ إلّا قليلاً بجسدي: وإن فعلتُ فمن أجل أقاربي. عموماً يبدو أنّي أعيش استقراراً في شيخوختي. ومثل الجميع، أنا عاجزة عن خوض التجربة من الدّاخل: العمرُ مسألة غير قابلة للتحقّق. لا أتلقّى إشارات من جسدي بفضل صحّتي الجيّدة. عمري ثلاثة وستّون عاماً: حقيقةٌ تظلّ غريبةً عنّي.

لم تتغيّر حياتي منذ 1962. إنّها، بشكل محدود، متوقّفة على ماضٍ. الماضي هو الذي يحدّد الوضع الحاليّ وانفتاحه على المُستقبل. إنّه المُعطى الذي أقيم به إسقاط حياتي على القادم والذي يجب أن أتخطّاه. أدين له بالآليات التي يتحرّك بها جسدي، الأدوات الفكريّة التي أحتاج إليها، معرفتي، جهلي، ذوقي، اهتماماتي، علاقاتي بالآخرين، إكراهاتي، مشاغلي. إلى أيّ مدى تُعتبَرُ إعادة كتابة قصّتي على طريقة *هيمنة المادة على الحرّية Le pratico-inerte* كانت حدّاً وشرطاً؟ ماذا تركتْ لحرّيتي؟

قلتُها بأعلى صوت: إن *هيمنة المادّة على الحرّية* تحتمل بعض المتطلّبات. في الحوارات المتداولة بين العُشّاق: «لا *أقدر* أن أفعل له كذا. – قُل إنّك لا *تريد*»، عادة، الأوّل هو المُحقّ. لا يمكننا أن نريد دائماً ما أردنا: سيكون ذلك بمنزلة كبح النّفس. لهذا يعيش أناس كثيرون حياتهم عكس

مشيئتهم، مسجونين داخل بيوت يرغبون في الهروب منها أو يمارسون مهناً كفّت منذ زمن عن إسعادهم. إن كانت القطيعة مع الماضي مرغوبة بشكل عنيف وممنوعة إلى حدّ كبير، فيحدث أن يلوح الانتحار للمرء. مثلما هو الحال بالنّسبة إلى «لايريس» Leiris [8]، كما شرح ذلك في *الألياف الصّغيرة Fibrilles*: حيثُ لم يستطع خيانة رفيقة حياته، ولا التخلّي عن المرأة التي فتحتْ له آفاقاً جديدة. سيبدو مُبهَماً أن يقوم المرء بعمل يمزّق أحبّته، كي يحافظ عليهم. لكنّ الغرابة هي السّبيل الوحيد لفهم ذلك. أن نحطّم المعقول بضربة عنيفة عمياء: أمام انعدام الحلول، سيكون العبث مخرجاً جذريّاً. من النّادر أن نصل إلى ذلك الحدّ، لكن من المألوف أن نتلقّى، في الرّضوخ أو الثّورة تأثير قناعات قديمة. بالنّسبة إليَّ لم يتحتّم عليَّ ذلك قط. كرهتُ دائماً الملل وإلى حدّ ما نجحتُ في اجتناب العناء غير المُجدي. أن تعيش دون وقت ضائع: إنّه أحد شعارات مايو 68 التي لامستني لأنّي تبنّيتُها منذ طفولتي؛ ولبثتُ وفيّة لها. أيّامي في الوقت الحاضر هي امتداد لأيّامي فيما مضى لكن بملء الرّضا. مثلاً، أنا في نفس المكان منذ خمسة عشر عاماً. صحيح أنّ الانتقال في السّكن يزعجني لما يتطلّبه من جهد. لكن، أيضاً، لا أتخيّل أنّ بيتاً آخر يمكن أن يلائمني بشكل أكبر؛ هذا الذي أقيم فيه، مليء بذكريات حافلة بسحر لا يُقدَّر. اخترتُ البقاء بكامل حرّيتي.

يسكنني الماضي ويشحنني. لكنّي لم أعد أعود إليه مثل السّابق. أحببتُ دائماً التحدّث مع سارتر حول أختي، الأصدقاء، الذّكريات المُشتركة. بينها ما هو نفيس بالنّسبة إليَّ وحدي، رغم رتابتها، لأنّ عاطفة حيّة تؤجّجها في داخلي. لحسن الحظّ أنّ لديَّ أحاسيس متجدّدة: لم تكن الأوقات التي عشتها فيما مضى بعنف مجرّد خدعة، لقد تحقّق المُستقبل الذي وعدتني به مُحافظة على قيمتها. يُخيَّلُ إليَّ أنّه في حياة مُحطّمة بالانقطاعات، لن يكون الارتداد إلى الوراء بنفس العذوبة. لو حافظتُ مع أحد ما على صلة واحدة مثل السّابق، أو مُختلفة بعض الشّيء لكن حميمة، فإنّ كلّ التّجارب التي

8- لايريس Leiris: كاتب وشاعر وناقد فنون فرنسي (1901-1990).

عشناها معاً تعكس الصّور القديمة. تمنحها وزنها، وتعزّز معناها. أي من زاوية أخرى: ما زال الماضي يثيرني بسحره: حين أروي رحلاتي، أتساءل، ما جدوى هذه المواجهات.

لم أكوّن رؤية واضحة كفاية في شأن الماضي كي أقيس التغيّرات التي حدثت من حولي، هذا الماضي الذي لم أكن يوماً مُقيّدة إليه ولا مهووسة به: لهذا يصعب الإمساك بخيط الزّمن. حين أجد نفسي في بلد لم أزره منذ زمن، فإنّ تبدّلاً كبيراً يقفز إلى عينَيَّ: لكن يُخيَّلُ إليَّ أنّي لاحظتُ تغيّراً في الديكور، أكثر من كونه تحوّلاً. بينما عندما أشهد، يوماً بعد يوم، اللّحظات المختلفة لتطوّر ما، فإنّي أعتاد عليها بصورة تجعلها تتسرّب منّي. عبر نافذتي أو نافذة سارتر شاهدتُ مباني عملاقة شُيّدت خلال عشر سنوات لم تكن موجودة قبل ذلك. حين بدؤوا في تشييدها لم تكن تحجب المنظر: ونسيتُ ذلك عندما انتهوا من بنائها.

من وجهة النّظر هذه، لا يُعدُّ التّاريخُ مُخيِّباً. فمع تأكّد الحاضر رويداً، فإنّ الأوقات السّابقة تختفي في الظّلام. من النّادر أن نستمتع بروعة العودة إلى الماضي، ونحنُ مأخوذون بالمُستقبل. مع ذلك، فُرِضت عليَّ العودة إلى الماضي. في كلّ سنة، كان محامون شبّانٌ يعدّون، بمهابة، في قصر العدالة، محكمة مُزيّفة للتدرّب على التّرافع. في أبريل 67، اختاروا محاكمة «فرانتز» Frantz، بطل «محبوس ألتونا»: أليس حريّاً إخلاء سبيل هذا المُعذّب؟ الحكم عليه بالإعدام أو بعقوبة أقلّ خطورة؟ كثيرون تحدّثوا بشكل جيّد. ألقى المدّعي، مقابل التّعذيب، مرافعة شرسة: لا شفقة تأخذنا بالذين لجأوا إليه، يجب القضاء عليهم. قبل ذلك بسنوات، وفي نفس القصر، جرت محاكمة «بِن صادق» Ben Sadok، اتّهم المحامون الذين واكبوا المحاكمة بعضهم بعضاً لأنّ الشّهود تحدّثوا عن عمليّة تعذيب. فُقِدَت اليوم تلك الذّكرى الرّهيبة حتّى إنّها طُمست شعبيّاً أيضاً. اعتُبِرَ استقلالُ الجزائر نجاحاً لديغول، في حين أنّه واصل الحرب هناك وغطّى على مُجرمي التّعذيب. بالنّسبة إليَّ شغلتني الحرب في الجزائر وظلّت تسكن مُخيّلتي تحديداً بسبب الصمت الذي دُفنت فيه.

ما أشار لي بعدد سنين عمري، بشكل تلقائيّ، هو التحوّل الذي طرأ على سُلمّ الأعمار. لم أُنزّل أقاربي في هذا السُلّم. حسب التصوّر المعيش في الفضاء - وهي حقيقة سلّطت الضّوء على نظريّة الأشكال - فإنّ زاوية النّظر لا تلعب أيّ دور: لم تتقلّص قامة الصّديقة التي أراها من بعيد؛ ما زالت 1.60 متر على بعد عشرين متراً عنّي. وهكذا فإنّها تظلّ على حالها مُشابهة لنفسها على مرّ السّنين. في الزّمن كما في الفضاء - وهذا معروف - يجب أن يوجد ظرف غير عاديّ كي يلمح بروست امرأة عجوزاً بدل جدّته. تتعقّد الأشياء عندما يتعلّق الأمر بالغرباء وبالرّوابط البعيدة؛ سأمنحهم عمري: لكنّ ذلك لا يحمل نفس القيمة في كلّ فترات حياتي. سآخذ مثالاً واحداً: نظرتي لامرأة الأربعين.

حين كنتُ طفلة، كنتُ أقسّم الكبار حسب الأجيال: جيل والِـدَيَّ - الأناس المتقدّمون في العمر مثل أجدادي وهناك المُسنّون؛ وهناك مخلوقات مُقزّزة هم الشّيوخ الهرمون الذين كنتُ أجعلهم في خانة واحدة مع المرضى والعاجزين. في الأربعين يكون المرء متقدّماً في السنّ. عندما كنتُ في العشرين، كان الأربعينيّون يبدون في نظري شخصيّات روائيّة: خلّفوا حياة وراءهم، شخصيّة مُكتملة؛ كنتُ أحلم بالمرأة الغنيّة بالتّجارب النّاضجة التي سأصيرها يوماً. لكن بدا لي في غير محلّه الحديث، في تلك السنّ، عن علاقات حبّ. عندما حضرتُ حفلاً في الورشة، وأنا في الخامسة والعشرين، اعتبرتُ كلّ المخلوقات «المُحافظة» كـ«عجائز قديمة». حتّى في الخامسة والثّلاثين كان يصدمني أن يتحدّث من هم أكبر منّي عن مُتَع زوجيّة: يجب أنّ يتراجع ذلك، فكّرتُ.

كنتُ في الأربعين عندما نزلتُ إلى الميسيسيبي مع ألغرين وأحسستُ أنّني شابّة في مُقتبل العُمر؛ كنتُ في الرّابعة والأربعين عندما تعرّفتُ على «لانزمان» ولم أشعر بأنّي مُسنّة. في الخمسين فقط، بدا لي - قلتُ ذلك من قبل - أنّي تجاوزتُ خطّاً. تُمثّل الأربعون بالنّسبة إليّ، إذًا، بداية نضج، وفهمتُ كيف أنّ إحدى بطلات «كوليت» Colette، قالت بحنين: «لم أعد

في الأربعين، حتّى أتأثّر بوردة تذبُل». (أذكُرُ ذلك من ذاكرتي) وفي يوم، وأنا أتحدّث مع امرأة في الخامسة والأربعين، حيويّة ونضرة، بدت لي شابّة كأنّها في العشرين، لمّا التقيتُها أوّل مرّة. تُطمَسُ التّضاريس ونحن نشاهدها من الأعلى، وفوارق السنّ خفتت في نظري بل ربّما أُلغيتْ تماماً. هناك الشّباب، وبعدهم من هم في الخمسين، الكبار، ثمّ المُسنّون فالشّيوخ الهرمون الذين لا أرى أنّي أبعد عنهم كثيراً.

لكنّ علامة تقدّم في العمر بدت لي صارخة، علاقتي بالمُستقبل. حين يُحاورُ أشخاص مُسنّون، فإنّهم يعلنون بتفاؤل عن مزايا الشّيخوخة: من الغريب أن لا أحد يتكلّم عن تضاؤل المُستقبل الذي تحدّث عنه «لايريس» في *الألياف الصّغيرة*. صحيح أنّ هناك أناساً لا يشعرون بذلك. قالت لي صديقتي أولغا: «عشتُ دائماً اللّحظة والأبديّة، لم أؤمن يوماً بالمُستقبل. أن تكوني في العشرين أو الخمسين، لا فرق مُطلقاً». الحياة ثقيلة بالنّسبة إلى آخرين: ضيق المُستقبل تجعلها خفيفة في نظرهم. وضعي مُختلف؛ كنتُ مسحوبة إلى المستقبل؛ تقدّمتُ نحو امرأة الغد التي سأصيرها بسرور؛ كنتُ أشعر بالمرارة لأنّي في كلّ مرحلة كانت لديّ ذكريات لا تذبلُ أبداً. يمكنني الآن، أن أتعامل بحماس إذا تعلّق الأمر بمشاريع قصيرة المدى - رحلة، قراءة، لقاء - لكنّ الاندفاع الكبير الذي قد يلقي بي إلى الأمام كثيراً فقد أحجمتُ عنه. إنّي ألامس النّهاية، كما قال «شاتوبريان» Chateaubriand؛ لم أعد أسمح لنفسي بخطوات عملاقة. أقول أحياناً: منذ ثلاثين سنة، منذ أربعين سنة. لم أجرؤ على القول: خلال ثلاثين سنة. مُستقبل قصير مُغلَق. إنّي أواجه حتميّة الفناء. حتّى بكتابَيْن أو أكثر فإنّ أعمالي ستظلّ ما هي عليه.

في الوقت الحاضر، ما انفكّ عالمي يتّسع. دوّنتُ هذه الظّاهرة من قبل، وأنا أتحدّث عمّا بعد الحرب؛ إنّه يتعاظم. تراجع تأثير الوقائع الخارجيّة على حكايتي: تجري الأحداث في صندوقها وأغلب الصّدف تضاءلت إلى العدم. كتب لي الناس الجدد الذين التقيتُهم لأنّهم أحبّوا كُتُبي: أنا من حرّك العلاقات التي نشأت بيننا بنوع من الصّدمة المُرتدّة. لأنّ حياتي أخذت في الانتشار

حول العالم، فإنّها تحوّلت إلى مكان يصبّ فيه شتاتٌ كبير: هكذا تُفَسّرُ كثرة الصُّدف التي لاحظتُها منذ فترة قصيرة. يقول «پونتاليس» Pontalis إنّ الملل في الرّوايات متأتٍّ من كون الشّخصيّات تلتقي دائماً فيما بينها. هذا صحيح. لكنّي لاحظتُ أنّ الأمر ذاته يحدث في الواقع. امرأة في الأربعين، جمعتني بها علاقة صداقة تزوّجت رجلاً عرفتُه في بيت السيّدة لومير عندما كان عمرُه ستّة عشر عاماً. كانت «فيوليت لودوك» أحياناً تخرج مع مِثلِيَّيْن جنسيَّيْن كانت ليز متعلّقة بهما. أستطيع سرد أمثلة عديدة أخرى. هذا يتوقّف على كمّ النّاس الذين عرفتُهم وعلى ضيق الدّائرة الفكريّة التي أنتمي إليها.

تشابهت أيّامي بسبب الإيقاع، وطبيعة مشاغلي ورفقتي. مع ذلك لا تبدو لي حياتي راكدة. ليس التّكرار سوى خلفيّة حيثُ تتلاحقُ الأحداث دون هوادة. أقرأ يوميّاً: لكن ليس الكتاب نفسَه. أكتُبُ كلَّ يوم: لكنّ الكتابة تخبّئ لي دائماً أشياء غير متوقّعة. وأتابع بقلق مجريات الأحداث التي لا تُستأنفُ أبداً والتي تنتمي الآن إلى حكايتي.

إحدى مزايا العمر، هي أنّه يمكّنني من فهم خطوط بعض الحيوات في استمرارها وتطوّرها. كثير منها تُدهشني. لم أتخيّل يوماً أنّ الزّمن سيجعل من النّادلة المُذهلة في مقهى فلور Flore، جميلة وشاردة على الدّوام، امرأة أعمال تتقن عملها، ولا الأخرى، اللّامبالية، البرّية تقريباً، ستُصبح مُختصّة في كافكا؛ ولا الجميل نيكو، الذي صنع أفلاماً جميلة في كهولته. لم أتخيّل أنّ «پولهان» Paulhan، التقليديّ قليلاً، الذي يبدو غير مكترث بالتّكريم، أن يصبح أحد الأكاديميّين. ولا كاتب *الأمل* L'Espoir سيقبل منصب وزير في فرنسا التكنوقراط ولا أنّ صداقة ستجمعه بفرانكو. إن كان هذا التّطوّر قد أدهشني، فلأنّي لم أفهمه إلّا من الخارج؛ لم أكن أعرف على أيّ خلفيّة سُجّل ما أعرفه عن تلك النّساء والرّجال؛ أجهل كلّ شيء عن طفولتهم، التي هي مفتاح كلّ وجود.

الأمر مختلف في شأن أصدقائي. فلديّ معلومات ضافية عن ماضيهم وجذورهم وانفتاحهم على العالم وعن فُرصهم؛ كنتُ سأتوقّع بسهولة أن

تحصل في حياتهم أحداث فارقة؛ ولا أعتقد أنّ حياتهم ستكون مشحونة. في الواقع، عليَّ أن أتراجع خطوة كي أتأمّلهم بشكل جيّد. لا أفعل ذلك عادة؛ أعيش في شفافيّة شراكة مع المقرّبين منّي. ولكي أشاهدهم من الخارج، في عتمتهم، لابدّ، في وقت من الأوقات أن يتقلّص شيء ما في علاقتي بهم: أن يظهروا أعلى أو أسفل أو مُختلفين عمّا أظنّه عنهم. لكن أن تُلغى المسافة بيننا.

طبعاً، ما داموا يعتنقون مجريات الأشياء ويواجهون الأوضاع غير المسبوقة، فإنّهم سيطوّرون. قد تحدث عندهم مراجعات، شروخ، التزامات جديدة. رأيتُ بعض الأمثلة في بيت سارتر، لايريس، جينيت، جياكوميتي، وآخرين. لكنّ غير الأوفياء إلى أنفسهم قد تلاشَوا. لم أرهم يتحوّلون أمام عيني. لاحظتُ أيضاً استقراراً كبيراً فيما يُسَمّى طبيعة البشر: مجموع ردود الفعل الخاصّة بالظّروف المشابهة. مرور السّنوات يؤدّي إلى تغيّرات في وضع المرء: ستتأثّر تصرّفاته بالضّرورة. رأيتُ مراهقات مرتابات أو مُفرطات في الخجل كيف تحوّلن إلى نساء مُتفتّحات. رأيتُ مزاج جياكوميتي يتعكّر بسبب مرضه وتعبه الكبير. شهدتُ على التدهور المُريع لليز Lize وكامي Camille. لكن، عموماً، رجل، امرأة مستقرّان في نضجهما، يظلاّن منسجمَيْن مع ذاتيهما. حتّى إنّهما أحياناً، يكرّران بعضهما على مسامع بعض أنّهما يظنّان أنّهما على خلاف ما هما عليه. «غورتز8 Gortz، في كتابه (الخائن) أدان الغمغمة، لكنّه استمرّ فيها.

في الواقع، ما من أحد يودّ، حتّى لو ادّعى العكس، أن يكون خلاف ما هو عليه، ما دامت الكينونة بالنّسبة إلى كلّ موجود هي أن تجعل غيرك يكون. ربّما بأثر رجعي، يوبّخ البعض من سلوكه: لكن ذلك لا يفضي به إلى تحوّل مهما كان نوعه. ما انفكّ «آميال» Amiel في يوميّاته يشتكي من كسله، ادّعى أنّه يقاومه، لكنّه استمرّ في الرّكون إليه. في الحقيقة، لقد اختار أن يكون كسولاً دائم التذمّر من كسله. هذا لا يعني أنّ الجميع يحبّون بعضهم. قلتُها سابقاً: عندما يكو ن المرء غير محبوب في صغره متبنّياً آراء والِدَيْه، فإنّه يكون قد كوّن عن نفسه صورة غير مرغوب فيها لا يمكن التخلّص منها أبداً. إلّا أنّ

هذا التقزّز من الذّات، هو نفسُه الموضوع الذي يؤرّقه والذي يزداد التصاقاً به كلّما عانى منه. هذا الالتصاق الأنطولوجي يتيح للبعض الاحتجاج بفخر ضدّ خطوط تبدو لي أعباء غير قابلة للاعتراف: «أحترم الأموال، لا أبذّرها... يُسلّيني أنّ هناك أناساً يعانون... لستُ من بين هؤلاء المجانين الذين يريدون معرفة كلّ الحقيقة». سرعان ما فكّرتُ: إنّه بخيل؛ شرّير؛ إنّها امرأة تكذب على نفسها. لكنّ المعنّيين بالمسألة يحيّدون هذه المفاهيم. إنّه يكاد يكون من المستحيل أن نقنع الآخرين بالعيوب التي تبدو لنا جليّة: إن وافقونا الرّأي فلأنّهم يتمتّعون بنظام قيمٍ لا ينسجم مع نظام قيمِنا وسيظلّ نقدُنا سطحيّاً بالنّسبة إليهم. قال «فرناندً بيكاسو»: «عندما لا يهزأ بي أحدٌ في الشّارع وأنا مارّ، أفكّر أنّ قبّعتي ليست أنيقة». الفاشلون الذين يعتقدون أنّهم يهينونه، لم يفعلوا سوى أن زادوه يقيناً بأناقته. أنا أيضاً أشعر بهذا الرّضا عن نفسي.

صديقة خبيرة خطوط، أنجزت لي بورتريه، بعد تحليل كتابتي، فوجدتُه حافلاً بالإطراء. «أعجبكِ لأنّكِ اخترتِ أن تكوني نفسك، قالت، لكن قد نأخذ الأمر من الجانب السّلبي». في الواقع، يمكن أن نسمّي طريقتي في التّركيز على عملي والمُضيّ في مشاريعي حتّى الآخر، إصراراً، مثابرة. يمكن أن يكون الأمر مجرّد عناد أعمى، أو نظرة محدودة. هل إن رغبتي في المعرفة، انفتاح فكريّ أم فضول مجنون؟ أمّا أنا فأقبل نفسي دون تلكّؤ. حين «أتعرّف» إلى نفسي أفرح كثيراً. فترة من الزّمن اكتشفتُ عالم الموسيقى بنفس النمطيّة التي اكتشفتُ بها فيما مضى المناظر الريفيّة: انتبهتُ إلى ذلك لكنّه لم يُخفّف من حدّة احتقاني وهوسي. ما قلتُه في شأن الآخر يعني أيضاً بالنّسبة إليَّ: يصعبُ جرحي. لا يؤثّر فيَّ النّقدُ واللّوم غيرُ المُعلّل، أمّا إن كانت مبنيّة على أسُسٍ عميقة فإنّي أعتبرها إطراءً. لا يُزعجني أن أوسم بالمُفكّرة أو النّسويّة: أقبل ما أنا عليه.

أحد معاني جنون العظمة، هو أن يرفض المرء مغادرة وضعه: نحن مُصابون به بدرجات متفاوتة، عميان إزاء الحاضر عاجزون حيال عالم الآخر. يحدث، مع ذلك أن تمرّ بنا وقائع تهدم ألفتنا الشفّافة مع أنفسنا.

يشير إليَّ أقاربي بجُمَلٍ كنتُ قد قلتُها، إيماءات قمتُ بها دون انتباه؛ قمتُ بها دون أن أشكّ في أنّي أخطأت: هذا الاكتشاف يُقلقني. أو أنّهم يؤاخذونني على تصرّف كنتُ واعية به، لكن دون أن أنتبه إلى أنّه في غير محلّه. أو أنّهم يشيرون إليَّ بطبع لم أعره اهتماماً: «تفضّلين أن تكوني مغمورة بالأشياء على أن تسيطري عليها»، قالت لي صديقة على سبيل المثال. «تبدين مُصدِّقة أنّ الأمور تسير من تلقاء نفسها: لكن لا». هذا صحيح. إنّ طريقتي في التّفكير، والإحساس، والتصرّف تسير جميعها من تلقاء نفسها، من وجهة نظري. أجد مشقّة في القبول بأنّها في نظري فقط.

مع ذلك أحياناً أجد مُدهشاً أن أرى نفسي من الخارج. بعض الاختبارات تضعني أمام حقيقة هي حقيقتي المسروقة عنّي. خضعتُ إلى اختبار «رورشاش» Rorschach. حين أطلعتني الاختصاصية النفسيّة على النّتيجة وجدتُني في قلب الغرابة: زرتُ عرّافة كانت ستقول لي الحقيقة. لم تأتِني بجديد. لكنّي استغربتُ كوني عهدتُ إليها بنفسي وأنّي رأيتُ ذاتي عاكِسةً ومُنعكسة. تجربة مزعجة أخرى هي أنّي قرأتُ حكاية مُحاوِرٍ أجرى معي محادثة؛ حتّى إن كان كلّ تفصيل صحيحاً، فإنّ مقارعة وجهة نظره مع وجهة نظري أربكتني؛ كان له وجه أمّا أنا فلا: فقدَه وحظيتُ أنا بواحد. الأقوال التي ندّت عنّي، مسموعة من طرفه ولقد نقلها. أعرف أنّ تحويلاً سيحدُث مع كلّ حوار أجريه مع أحدهم. إجمالاً أنا لا أبالي كثيراً بالصّورة التي يرسمها عنّي الآخرون؛ إنّها متناقضة ومندفعة إلى درجة أنّي لا أقف عندها. مع ذلك أتأثر كثيراً عندما ألتقي جمهوراً من لحم ودم. أشعر بأنّي تحوّلتُ إلى شيء من خلال نمط الوعي هذا الغريب عنّي. لا أتمكّن من تحديد كُنهِه وهذا يُخجلني.

أن أشكّل عن نفسي صورة: لا يهمّني هذا الإنجاز العابث والمُستحيل في الواقع.

ما أتمنّاه هو أن أكوّن فكرة عن وضعي في العالم. أن أكون امرأة، فرنسيّة، كاتبة، تبلغ من العمر أربعة وستّين عاماً سنة 1972، ماذا يعني هذا؟ كي أجيب يجب أن أعرف، أوّلاً، ماذا تُمثّل الفترة التي أعيشُها تاريخيّاً. هل هو ما قبل

الحرب، أم اللّيلة التي تسبق الثّورات الكُبرى التي ستُطيح بالنّظام؟ هل سيرى جيلُ اليوم التّتويج على أنّه اشتراكيّة حقيقيّة، أو انتصار التكنوقراطية تخليداً للرّأسماليّة، أو شكلاً من أشكال المُجتمع المُختلف عن كلّ ما يمكنني تصوُّرُه؟ تظلّ هذه الأسئلة دون أجوبة: المعنى العميق لفترتي غائم، وهذا، بالنّسبة إليَّ، يُعتِمُ وجودي الفردي.

عندما كنتُ شابّة، كنتُ أعتقد أنّ حياتي، بصورة فريدة، هي تجربة ناجحة تعبيراً عن الوضع الإنساني («يبدو لي بشكل مُشوّش أنّه لحظة دخول شيء ما إلى دائرة حياتي فإنّه يحظى بإضاءة خاصّة. يظلّ أيّ بلد غريباً عن الأنظار ما لم أره بعَيْنَيَّ» (*سلطة العمر*، الصّفحة 369). فهمتُ منذ زمن أنّ ذلك كان مجرّد وهم. لم أتقاسم مصير غالبيّة النّاس: الاستغلال، الاضطهاد، البُؤس. أنا محظوظة. عندما أقارن نفسي بالمحظوظين المخصوصين الآخرين لا أؤاخذ أحداً، لكنّي أعرف منهم من لا يجد شيئاً يؤاخذني من أجله. حافظتُ فترة طويلة على شعور بالتفوّق إزاء القرون الماضية. حين كان الكُتاب القدامى يذكرون في سيرهم الذّاتيّة ما كانوا يقرؤونه، كنتُ أشعر بالانزعاج: علوم، تاريخ، علم نفس، كانوا يدرسون كُتُباً عفا عليها الزّمن! من ناحية ما، كان ذلك بفضلهم. لا يهمّ، ذلك يُنزل من شأنهم في نظري. وها أنذي الآن أعود إلى نفسي. دون أن أغفل عن الدُّوار المُستقبَليّ الذي استولى عليه معاصِرِيَّ، يجب أن أعترف بأنّ الأجيال القادمة لها فضل عظيم عليَّ. ستعرف فترتي فيما لن نعرف عنها شيئاً. ستكون كمّية أشياء أجهلها. ستبدو لهم ثقافتي ونظرتي إلى العالم بالية. عدا بعض الأعمال العظيمة فإنّها سترفض العناصر التي تغذّيتُ عليها فكريّاً.

مع ذلك: لن يجد ستندال ما يؤاخذ عليه سائحاً يجوب «الكُرسو» Corso حيثُ كان يُشاهد، فيما مضى، سباق الخيول، تلك الشّوارع التي أصبحت بشعة ومُهمَلة. كلّ فترة في التّاريخ هي مرتبة قصوى، حيثُ ما من عنصر كونيّ سيسمحُ بمقارعتها بفترة أخرى. لا تطعنُ أقدار النّاس بعضها ببعض. لا يُفقرني ثراء المُستقبل.

لا: لكنّها تُنسّب وضعي. لقد فقدتُ نهائيّاً وهمي الطّفوليّ بأنّي مركز الكون.

بقيت لي أوهام أخرى. لديّ الآن همّ استعادة حياتي: أن أنعش ذكرياتي المنسيّة، أن أعيد القراءة، المُشاهدات، أن أكمل معارفي المنقوصة، أن أملأ الثّغرات، إضاءة نقاط مُظلمة، تجميع ما هو متناثر. كما لو أنّه لابدّ من وجود آونة تكون فيها تجربتي مُعمّمة، كما لو أنّه من الضّروريّ أن يتمّ هذا التّعميم. بعض الكائنات البدائيّة تعتقد أنّها، بعد الموت، ستظلّ إلى الأبد على حالها لحظة حلول النّهاية: شباباً، أو كباراً، أقوياء أو عاجزين. أنا أتصرّف كما لو أنّ وجودي سيتسمرّ دائماً من القبر تماماً مثلما كنتُ سأنجح في الاستعداد إليه خلال سنواتي الأخيرة. مع ذلك، أعرف جيّداً، رغم ذلك، أنّي «لن أحملها معي». سأموت بأكملي. لم أعد مهمومة بذلك كما في السّابق. لم أعد أشعر بقلق الموت الرّهيب الذي أبدَيْتُه في شبابي. أحجمتُ عن الاحتجاج عليه. كتب فرويد حول الألم البدني: «يمكن أن نصفه باللّئيم لو أنّ أحدهم يتحمّل مسؤوليّة التسبّب فيه». تنطبق المقولة أيضاً على الموت: فراغُ السّماء يُلطّف الغضب. لم تعد إدانتي موجّهة إلّا للآلام التي يتسبّب فيها البشر. غير أنّ فكرة الموت تظلّ حاضرة. تمتدّ تحت أقدامي طريق تخلّف اللّيل وراءها وتخفي أمامها آخر: لقد قطعتُ ثلاثة أرباعه؛ لم يبق سوى حيّز ضيّق. الصّورة ثابتة عادة؛ يدفعُني، أحياناً، بساطٌ متحرّك نحو الهاوية. آخر مرّة رأيتُ فيها تابوتاً ينزلق صوب قبر - السيّدة مانسي - فكّرتُ ببداهة صاعقة: قريباً، سيأتي دوري. لم أعد، أثناء اللّيل، أرى كوابيس حيثُ صوتٌ يقول بعد موتي: «أنا ميّتة». لكن يحدث أن أستيقظ عائمة في كآبة مُشوّشة المعالم: أشعر بطعم العدم في عظامي.

العدم: إن كان لم يعد يجعلني أضطرب فإنّي في الآن نفسه لم أتصالح معه. قيل لي: «لماذا الخوف من العدم؟ قبل ولادتكِ كان العدم أيضاً». مقارنة مغلوطة. ليس لأنّ المعرفة تضيء الماضي فيما تنهب الظّلمات المُستقبل، فقط؛ بل خصوصاً لأنّه ليس العدم ما يزعج، إنّما أن نصير عدماً. علاقة

الوجود - وعي وتجاوُز - بالحياة، في المفهوم البيولوجي للكلمة، رمت بي دائماً في دوّامة من الحيرة - ثمّ إنّي أجد من الشاق جدّاً أن أزعم القدرة على الفصل بين الأمريْن. يسير الوجود مجهولاً نحو مُستقبل تخلُقُه هذه الحركة بالذّات: إنّه بالنّسبة إليه من الفاضح الارتطام بانطفاء الحياة. عندما يتسبّب هو في ذلك - في حال الموت البطولي أو الانتحار - الفضيحة، تخفت في أحد معانيها. لكن لا شيء يبدو لي أفظع من الموت في صحّة جيّدة دون إرادة. تساعد الشّيخوخة والمرض، وهما يُقلّصان قوّتنا وحيويّتنا، على قبول فكرة النّهاية.

أندهش أحياناً: هناك فرق كبير بين جسدي وجثّتي، مقارنة بالفرق الذي بين جسدي الغضّ في العشرين وذاك الذي يرافقني اليوم محافظاً على حرارته وحيويّته. مع ذلك تفصلني أربعة وأربعون عاماً عني وأنا في العشرين من العمر وما يفصلني عن القبر أقلّ من ذلك حتماً.

حين أتخيّل أنّ جثّتي تسكنني، تتولّد لديّ مشاعر غريبة في علاقتي بجسدي.

هل إن لا مبالاتي بالموت متأتّية من كوني على يقين بأنّ المُهلة ما زالت بعيدة؟ أم من كوني أقلّ تعلّقاً بالحياة مقارنة بالماضي؟ أعتقد أنّ السّبب الحقيقيّ مُختلف تماماً: حين أنطفئ بعد خمس عشرة أو عشرين سنة، فستكون قد اختفت امرأة عجوز. لا أستطيع التّعاطف مع موت تلك الثّمانينيّة، ولا أتمنّى العيش في داخلها. الأمر الوحيد المؤلم وأنا أفكّر في فراق الحياة، هو الألم الذي سأسبّبُه لبعض الأشخاص: خصوصاً أولئك الذين أحتاج إلى سعادتهم.

تحتلّ علاقتي بالآخر - عاطفتي، صداقاتي - في وجودي المكانة الأهمّ. بعض هذه العلاقات قديم. لم تتغيّر صلتي بسارتر وبأختي. مازلت أرى أولغا، بوست، لانزمان، بيانكا، فيوليت لودوك. وبأكثر ندرة، لكن بانتظام، ما زلتُ ألتقي پويون، غورز، جيزال، حليمي، جيجي، إيلان رايت، وآخرين. تشتّت انشغالاتنا جعل لقاءاتي ببعض الأصدقاء متباعدة؛ لكن، مثلاً، ميشال لايريس، وجينيت ليس بيني وبينهما صلة، لكنّي أتابع ما ينجزانه.

حتّى في هذا المجال، لا يعني الانتظام الجمود: عندما أرى نفس الأشخاص فلنتقاسم ما جدَّ في العالم كلّ علمِه. نفكّر معاً في مواضيع تشغلنا بشكل مُشترك، ونقارب المعلومات التي أمكننا جمعها. لأنّ مشاريعنا وقيمنا ومراجعنا وخلاصاتنا تتقاطع، ولاختلافنا معنى: كلّ وجهة نظر تُطرَحُ في النّقاش تضيء جانباً مُختلفاً: الأحداث، الكُتب، الأفلام. أستطيع أن أحصل على فائدة من وراء حواري مع أناسٍ لهم عناوين ومعطيات لا تشبه عنواني ومُعطياتي الشّخصيّة. شرط أن نتّفق حول ما هو جوهريّ. هكذا نشأت علاقة بيني وبين لينا، في الاتّحاد السوفيتي. مع توميكو من اليابان (انظُر صفحة 388). إنّهما، من زوايا أخرى، تفهمان، العالم الذي تخوضانه بنفس التطلّب: يثري تجربتي أن أرى العالم من خلال عيونهما. من ناحية أخرى، أقدّر أنّه عديم الجدوى أن أتحدّث مع أناسٍ تتضارب آراؤهم مع آرائي جوهريّاً: ليس للكلمات نفس المعنى بالنّسبة إليهم، كما بالنّسبة إليَّ ما يباعد بيننا فلا نلتقي إذاً أبداً. عموما ليس لديَّ ما يكفي من الوقت لأخسره مع من استوت عندهم الأشياء. أفضّل تكريس وقتي لأقربائي. لقد استثمرتُ في حياتهم مصالح كالمشاريع وبات نجاحهم هو نجاحي وفشلهم هو فشلي. أقرأ باهتمام خاصٍّ ما يكتبون من كتب ومقالات وأشاطرهم ما يحدث معهم. في جانب ما، إنّ وجودي يحتوي وجودهم وينهل منه.

إنّ وجود سارتر، مثلا، بشكل محدود جزء من وجودي. يقطن في الوقت الحاضر على مسافة خمس دقائق من بيتي، شارع «راسباي»؛ لدينا، من مكتبه الواقع في الطّابق العاشر، مجال فسيح لرؤية باريس، مقبرة مونبارناس في مستوى أوّل؛ أعمل في بيته بعد منتصف النّهار وأتأمّل غروب الشّمس السّاحر من شرفته. نقضّي الأمسيات في شقّتي. معلومة جدّاً لدى الجميع أعماله منذ سنة 1962 حتّى أذكُرها هنا. أشير فقط إلى فترة: حصوله على جائزة نوبل.

في بداية خريف 1964، كتب له أحد الفلاسفة الإيطاليين، «باس»، الذي كان يناقشه باستمرار: طلب منه أن يمدّه بخطاب نوبل الذي سيُلقيه بمناسبة حصوله على الجائزة. هل كانت الجائزة متّجهة لسارتر تلك السّنة؟ نعم، فهمنا

ذلك لاحقاً. رفض وشجّعتُه على ذلك. طلب منه أصدقاء في عمر النّضج قبولها لكنّ طلبة طرحتُ عليهم السّؤال غضبوا: يا لها من خيبة للشّباب أن يسمحوا بتتويجهم!

اتّخذ سارتر قراره. كان لديهِ رهبة كبرياء من «التّكريم»: لم يكن في نيّته أن يلعب دور القرد في استوكهولم. من كان أولئك الأكاديميّون الذين سمحوا لأنفسهم بإنصافه؟ كان لاختيارهم لون سياسيّ: لم تُسنَد الجائزة قطُّ إلى اشتراكيّ من قبل. إن كان سارتر اشتراكيّاً، فكان من الممكن أن يقبل لأنّ الأكاديميّة السويديّة كانت ستبدي جانباً من الحياد؛ لكنّه لم يكن كذلك وأن يُمنَحَ الجائزة لا يعني أبداً أنّهم يقبلون مواقفه السّياسيّة بل يعني أنّهم يرون بأنّها تافهة: لم يرضَ بأن يُستَغفَل. بعث برسالة مؤدّبة جدّاً إلى الأكاديميّة يرجوهم فيها عدم إسناد الجائزة إليه لأنّه سيجد نفسه، إذًا، عند ضرورة رفضها.

لم تعبأ الأكاديميّة بالرّسالة. كنّا بصدد تناول الفطور في مطعم صغير بحيي عندما مثل أمامنا صحافيّ سويدي، عن طريق كلود غاليمار الذي التقاه في «مركور دي فرانس». في اعترافه الذي قُرئ في استوكهولم من قِبَلِ ممثّل عن دار النّشر وانتشرت في صحف كثيرة، ذكّر سارتر بأنّه حاد دائماً عن التّمييز الرّسمي لأنّه يعتقد جازماً أنّ الكاتب لا يجب أن يسمح بتحويله إلى مُؤسّسة؛ وتأسّف من جهة أخرى كيف أنّ جائزة نوبل ظلّت دائماً حكراً على الكتّاب الغربيّين أو لمُتمرّدي الشّرق (أوضح سارتر: أُسنِدَت إلى پسترناك، لا إلى شولوخوف. أسيئ فهم الجملة من قِبَلِ أصدقائنا في الاتّحاد السوفيتي. ظنّوا أنّ سارتر غادر المعسكر «اللّيبرالي» لمصلحة المُعسكر «السّتاليني»).

لم يشأ سارتر التحدّث أمام وسائل الإعلام قبل أن يُذاع النصّ أمام الأكاديميّة السويديّة. جاء لرؤيتي عند الخامسة، واتّصلت بنا أمّه – كانت تسكن قريبة منه – قالت إنّ حشداً من الصّحافيّين في انتظاره أمام العمارة. بعضهم خمّن أنّه لجأ إليَّ فرنّوا جرسي إلى غاية الثّانية صباحاً. كي ينعم بالسّلام، خرج سارتر أمام عدسات المُصوّرين ولم يفُه إلا بكلمات قليلة.

حالما استيقظتُ رأيتُ صحافيّين وسيّارة التّلفزيون. سُرعان ما رُصِدَ

سارتر. تعقّبه صحافيّون وتقنيّون إلى غاية بيته. أجابهم أمام الباب أخيراً: «لا رغبة لديَّ في أن أُدفَن». عند منتصف النّهار، قالت لي بائعة شرائح اللّحم التي تقطن بجواري، بتعاطف كبير: «مسكين السيّد سارتر! كانت المنظّمة السرّية المُسلّحة منذ عامَيْن والآن جائزة نوبل! لن يتركوه في سلام».

طبعاً، اتّهمت الصّحافة سارتر بأنّه أخرج الحكاية برمّتها طلباً للدّعاية. أوّلوا أنّه رفض الجائزة لأنّ كامو قد حصل عليها قبله؛ أو لأنّني كنتُ سأغار منه. يجب أن يكون غنيّاً جدّاً كي يبصق على 26 مليوناً. ما حزّ في نفسه أكثر هي رسائل النّاس الذين طلبوا منه أخذ الأموال وإعطاءهم جزءاً منها، أو كامل المبلغ، أو ربّما أكثر بقليل: سينفقونها في حماية الحيوانات وبعض الفصائل النّباتيّة، لشراء أصول تجاريّة، لصيانة مزرعة، أو للسّفر. كانوا قابلين جميع مبادئ الرّأسماليّة؛ لا تسبّب لهم الثّروات الفاحشة حرجاً ولا أن يكون مورياك قد أنفق مبلغ الجائزة لتركيز حمّام: لكنّ سارتر الذي رفض مبلغاً بذلك الحجم خيّبهم.

كان سارتر قبل ذلك بفترة قد أصدر الكلمات، كتاب ظلّ مدّة طويلة موسوماً بجون دون أرض. لم يتسنّ لي اكتشاف كُتُبه الجديدة، لأنّي كنتُ أقرأ مخطوطاتها. إلّا أنّها بعد سنتيْن أو ثلاث تُصبح جديدة. ذاك الكتاب بدا لي مألوفاً، وغريباً جدّاً. أعرف تلك الطّفولة وأولئك النّاس الذين تحرّكوا داخله. ما أجهله – مثل الكاتب نفسه قبل أن يروي ذلك في قصّة مكتوبة – هي المسافة الحاليّة بينه وبين زمنه الماضي. لو تحدّثنا عنه بدوره في علاقته بالحاضر والماضي، لقد خلق من خلال ابتكار اللّغة، ذلك الرّابط بين الكهل والطّفل، وهو الذي أكادُ أجزم أنّه أكسب العمل فرادته واستحقاقه. سجّلتُ سريعاً مجرى حكاية طارئة على أزليّة النّصوص. رأيتُ كائنات خياليّة تتجسّد – مصّاص الدّماء – الذي يقود يد الكاتب. أحمق العائلة، لا أدري كم مرّة قرأتُه من الأعلى ومن الأسفل وناقشتُ كُتلاً كبيرة منه مع سارتر. أعدتُ قراءته في روما صيف سنة 1971، من الصّفحة الأولى حتّى الأخيرة على امتداد ثماني ساعات متواصلة. لم يبدُ لي أيّ كتاب لسارتر سائغاً مثل ذلك

الكتاب. إنّها رواية مُشوّقة، تحقيق بوليسيّ تنتهي بحلّ اللّغز: كيف جعل من نفسه فلوبير؟ الكاتب يخوض، بحرّية، بمرح لم يتحلّ به في المباحث التي تهمّه: ما يدين به الإنسان لطفولته ولحقبته، ما العلاقة بين خطابه وتجربته المعيشة؛ ما اللغة، الفنّ، التّهريج؟ الأمر يتطلّب صفحات عديدة لتفسير ذلك. جادّاً ومتيناً، كما هو الشّأن بالنّسبة إلى كتابه النّقد فإنّ روايته تلك كانت تمتاز بالجاذبيّة والتحرّر، كان سارتر بشكل واضح، مستمتعاً بكتابته ولو أنّ قارئه أجهد نفسه في اتّباع خطواته لاستمتع هو أيضاً، دون شكّ.

لا تسكن أختي باريس. زوجُها، الآن، عضوٌ في المجلس الأوروبي باستراسبورغ؛ اشتريا مزرعة ألزاسيّة قديمة في أحد القرى حيث شيّدا منزلاً جميلاً ومُريحاً. كانت تغلق على نفسها ورشتها لترسم منذ الصّباح إلى غاية المساء حتّى حين يكون الطّقسُ بارداً شتاءً. رفضت دائماً إكراه التّقليد مع صعوبة الرّسم التّجريدي: لقد وجدت توازناً مُحترفاً شيئاً فشيئاً بين الابتكار الشّكلي وبين الرّجوع إلى الواقع. لم أشاهد معارضها في لاهاي، وطوكيو، التي حقّقت الكثير من النّجاح. لكنّي أحببتُ اللّوحات المُستلهمة من فينيسيا، والتي عرضتها في باريس سنة 63 وعموماً ما قدّمته من أعمال مُستوحاة من احتفالات مايو 68 وفجائعه. كان لديها إزميل رائع في النّحت، ولقد نجحت في التّعبير عن المرأة المُحطّمة التي عرضتها مع لوحات أكواريل. منذ فترة قريبة، نجحت في ابتكار تقنيّة مهمّة في الرّسم على البوليستر والزّجاج الصّناعي، لكن دون إهمال الرّسم الزّيتي. يمكنها أن تجابه حجم الأعمال لأنّها لا تأخذ عطلة تقريباً. صيفاً، بإيطاليا، في بيتها الواقع في تريبيانو، كانت تعمل في ورشة كبيرة مُشمسة. نحنُ نلتقي بانتظام في باريس وأحياناً أزورها في بيتها لأرى لوحاتها وزهورها في الحديقة.

صداقتي الأولى هي التي تجمعني بستيفا، لكنّها لم تستطع أن تقاوم فراقنا: كانت سعادة كبيرة أن تنتعش من جديد.

رحلت ستيفا وفرناند إلى الولايات المُتّحدة بداية الحرب واستقرّا في نيويورك. استمرّ هو في الرّسم فيما مارست هي نشاطات ومهناً مُختلفة.

مضى وقتٌ طويل لم أرهما قبل أن أرنّ جرس بيتها سنة 1947. جاء فرناند ليفتح: لم يتغيّر كثيراً. عندما دخلتُ تأثّرت ستيفا لرؤيتي إلى درجة أنّها سقطت من الكنبة التي كانت مُمَدَّدة عليها آنذاك. قضيتُ ساعات كثيرة معهما خلال إقامتي تلك. جرى بيننا لقاء سريع سنة 48 و80، عندما مررتُ بنيويورك للذّهاب إلى شيكاغو. ثمّ استقرّا في مدينة صغيرة من «فيرمونت» مُدَرِّسَيْن. لا أنا ولا ستيفا كانت تستهوينا الرّسائل. تركنا الصّمتَ يسود بيننا. توقّفت في باريس سنة 65 أثناء ذهابها للنّمسا لرؤية أمّها؛ كنتُ آنذاك في الاتّحاد السوفيتي، لامتني كثيراً وبصورة غير عادلة عن غيابي. أخذت أختي تدافع عنّي لكنّ ستيفا قاطعتها: «لا، إن كنّا لا نهمّ النّاس فلا فائدة من الإلحاح».

مع ذلك، عندما صدرت رواية *المرأة المُحطّمة*، أرسلتُ لها نسخة عليها إهداء. كتبت لي شاكرة وأخبرتني بأنّها تقيم في باريس منذ ربيع 69.

ضربنا موعداً بالهاتف ليكون اللّقاء في بيتي: كانت تسكن بيت صهرها، على مسافة تقلّ عن مائة متر. انتظرتُ رنين الجرس بتوتّر. هل سأجد تسيفا العجوز، ستيفا التي لم تعد تلك التي عرفتُها في العشرين، هل سأجد شخصاً آخر تماماً، من إذًا؟

فتحتُ الباب؛ كانت على العتبة امرأة مُسنّة، قصيرة، تستند إلى عكّاز؛ لكنّني فوراً عرفتُ عَيْنَيْ ستيفا الزّرقاوين، بشرتها الورديّة اللّون، أنفها، خَدّيْها، الفم الكبير الضّاحك. قلتُ باندفاع: «لم تتغيّري». ترقرق الدّمعُ في عيْنَيْها وقبّلتها. «كم أنتِ فارعة!» قالت لي. لقد قصُرتْ: أصبحت أقلّ منّي برأس. مرّرت يدها من جبهتها إلى أعلى رأسها: «من هنا إلى هنا، عُمري خمسة وعشرون». غادرت يدها رأسها وأشارت إلى قدمها: «البقيّة عمرها مائة عام». كانت تعاني من هشاشة في العظام، ولم تكن قادرة على المشي دون عكّاز. لاحظت أنّ وجهي لم يعد يحمل تعابير الماضي.

تحدّثنا عن فرناند، عن ابنها الذي كانت فخورة به وبعمله جدّاً. تُحبُّ مهنة الأستاذ التي كانت تمارسها منذ عشرين سنة؛ كان طلبتها يحترمونها ويُحبّونها: استغلّت مشاعرهم ناحيتها كي توقظ لديهم وعياً سياسيّاً. «أحبّ

الشّباب»، قالت لي بحرارة. كانت تستمتع كثيراً في بيت صهرها لأنّ لديه ثلاثة أبناء تتراوح أعمارهم بين العشرين والثّلاثين، كانوا جميعاً ناشطين في اليسار المُتطرّف. لم تكن تملُّ حديثهم عن مغامرة مايو العظيمة.

رأيتُها بعد ذلك باستمرار، أحياناً مع سارتر. كنّا نتنزّه مشياً على الأقدام على طول شارع «راسباي»، كنّا نتناول الفطور في مطاعم الحيّ. كانت حواراتنا هادئة كما لو أنّنا لم نفترق يوماً: كانت لدينا نفسُ المواقف، ونفسُ الذّوق. كان كلُّ شيء يهمّها. كنتُ مُعجَبَة بحيَويّتها وجسارتها. كانت آلام ساقيْها رهيبة مع ذلك حافظت دائماً على مرحها. قرّرت ألاّ تتقاعد من العمل بل أن تقبل شُغلاً عُرِض عليها في فيلادلفيا. ستُقضّي عُطلتها في پوتني، التي كان هدوؤها يلائم فرناند. لكنّها كانت تودّ أن تُبقِيَ على صلتها مع الشّباب وأن تستمتع بالمرافق التي تمنحها المُدُن الكبرى.

حقّقت مشروعها وجنت الرّضا المطلوب. إنّها من بين الشّخصيّات النّادرة التي استثمرت كثيراً في نشاطها فلم تهزمها الشّيخوخة: إذ يظلّ العالم حافلاً بالفُرص، والقِيَم، والأهداف حتّى آخر يوم في حياتها. أفكّر في أنّنا لن نلتقي مُجدّداً أبداً. لكن، أنا التي تكره جدّاً أن يتلاشى ماضِيَّ، كان من النّفيس للغاية أن أستعيد صداقة شبابي تلك.

بينما كنتُ منهمكة في إصلاح تلك الاختبارات، ماتت فيوليت لودوك، في فوكون. سأتحدّث عنها في فصل الصّداقات الحيّة، فقد ظلّ وجودها مقترناً بوجودي عشر سنوات من حياتي.

قلتُ قبل هذا إنّ فشل رواية «الدّمار» سنة 1955 قد سبّب لها اضطراباً نفسيّاً كبيراً. سرعان ما أصبحت فريسة للهذيان الذي كانت قد وصفته في «*الجنون في الرّأس*». قطع خيوط، قصاصات جرائد، براز كلاب، أغلفة غولواز زرقاء: كان الشّارع يعجّ بعلامات النّحس المزروعة نكاية فيها كي تصبح أضحوكة. رغم الأقفال التي أقامتها فإنّ هناك أناساً يدخلون غرفتها ليلاً: لدى استيقاظها، تكتشف أنّ معطف الفرو خاصّتها صار أقصر، أنّ هناك لطخة على الجدار، أنّ صورة فوتوغرافيّة شُرِختْ. أثناء العمل كانت

تسمع طقطقة فوق رأسها: كان هناك جاسوس يقرأ مخطوطها؛ كانت تجد إشارات النّحس في الجرائد والرّاديو متعلّقة بما كانت تكتبه. كنتُ أحاول تعقيلها دون أن أؤجّج قناعات لا تحاول التشبّه بها في نظام متناغم. يُسخَرُ منها ويُرادُ لها الأذى: لكنّها تجهل من يطاردها ولماذا؛ كانت بالكاد تغذّي أفكارها ببعض الشّكوك. كنتُ قلقة بجدّية حيالها وهي تردّ الفعل بعنف ضدّ الهجومات التي تعتقد أنّها ضحيّتها: كانت تشتم النّاس الذين يدفعونها في المترو أو الذين يرمقونها بنظرة غريبة. عرفتُ أنّها ترتاد اختصاصيّاً نفسيّاً: جعلني أفهم أنّها تعاني حالة ميئوساً من علاجها. ظهيرة إحدى أيّام شهر نوفمبر 1957، كنتُ بصدد العمل في بيت سارتر، شارع بونابارت، عندما رنّ الهاتف. كانت مادلين كاستينغ، إحدى صديقات فيوليت وكانت تمسك محلّاً لبيع الأغراض العتيقة في زاوية شارع جاكوب، وشارع بونابارت: كانت فيوليت في بيتها في وضع مريع؛ طلبت منّي المجيء. ذهبت. وأنا أعبر بالسيّارة أمام مبنى سارتر، لمحت مادلين كاستينغ فيوليت ساندة ظهرها إلى الجدار، بيضاء بالكامل، ثابتة النّظرات؛ نزلت، لمست كتف فيوليت التي سقطت على الأرض صارخة؛ جعلتها تصعد إلى السيّارة وحملتها إلى هنا. وجدتُ فيوليت باكية؛ شرحت لي بصورة مُشوّشة بأنّها تنتظر سارتر أمام الباب كي تحتجّ على ما كتبه في شأنها في مجلّة *الأزمنة المُعاصرة*؛ تحدّث، فيما يتعلّق بـ«تانتوري» Tintoret، عن البشاعة واعتقدت أنّه بذلك يقصدها دون سواها. تعرّضت بعدها إلى نوبتين أو ثلاثة، انتهت بها حدّتها إلى الشّعور بالفزع. قرّرت الخضوع إلى العلاج. أدخلتها إلى مصحّة في فرساي بنصيحة من الطّبيب النّفسي: أخضعها الطّبيب إلى سلسلة من الصّعقات الكهربائيّة رغم معارضتي. قامت بعد ذلك بنقاهة نوم في منزل يديره الدّكتور «لو سافورو» Le Savoureux في ضيعة الذّئاب (منزل شاتوبريان فيما مضى)؛ استلطفته واستلطفت زوجته أيضاً، وأحبّت التنزّه في الحديقة الرّائعة. صارت قادرة على العيش بشكل طبيعيّ. لقد بدت لي مُصابة إلى درجة فقدت معها الثّقة بعلاجها يوماً. أحد

أصدقائها القدامى انقطع عن رؤيتها لشدّة خوفه منها. لكنّ شيئاً ما كان قويّاً في داخلها، كانت تعشق الحياة بشغف جعلها تتجاوز زيغها.

لم تتوقّف قط عن التّأويل. كان العالم بالنّسبة إليها مليئاً بالإشارات والرّموز التي كان يبعث بها مُستبدّون لا مرئيّون. لكنّها لم تسمح بهزيمتها: عادت إلى العمل. كنتُ دائماً مُعجَبَة بشجاعتها. وصفت في كتُبها الأهمّية التي كانت تعلّقها على الأعمال المنزليّة؛ كانت تقضي ساعات في ترتيب الدّاخل؛ كانت تتسوّق مولية عناية لأدقّ التّفاصيل؛ كانت تجهّز طعامها على مهل. وكانت تقضي ساعات منحنية على كرّاسها ذي الصّفحات المُؤطّرة. في الصّيف، كانت تؤجّر شقّة قديمة، جميلة لكن مترهّلة في «فوكون» Faucon، و«فوكلوز» Vaucluse. كانت، كلّ صباح، تخرج إلى الغابة، تعلّق على أحد الأغصان سلّة تحتوي على وجبة بسيطة وتشرع في الكتابة حتّى المساء. عندما نعي أيّ جهد تتطلّبه مقارعة الصّفحة البيضاء، أيّ توتّر يوجبه تنسيق الجمل فيما بينها وأيّ إحباط يلمّ بك أحياناً، فإنّنا دون شكّ، نقف مشدوهين أمام مثابرة مماثلة -إضافة إلى أنّ فيوليت لودوك تجتهد بخلفيّة إخفاق.

قرّرت أن تروي حياتها. في باريس، عندما كنّا نلتقي، كنتُ أعيد قراءة مُسودّتها وكنّا نتحدّث في شأنها. انتهت سنة 64 من كتابة *«اللّقيطة»* التي حازت فوراً على نجاح كبير. قلتُ في مقدّمتي للكتاب ما شدّني فيه: جرأة المؤلّف النّزيهة، إحساسُه المرهف، الفنّ الذي مزجت به الحياة الحقيقيّة مع الحياة الحالمة. حوّل النّجاحُ وجود فيوليت لودوك بالكامل. حتّى ذلك الحين كانت حياتها منذورة للوحدة والفقر: وجدت نفسها ثريّة ومحوطة بالأصدقاء، بينهم من كان صادقاً وبينهم من كان مُهتمّاً إن كثيراً أو قليلاً. استسلمت لثمالة الوضع الجديد؛ لكنّها كانت أحياناً تشعر بالغضب. كانت تخالط المثليّين الجنسيّين بشكل خاص؛ كانت ترافقهم عن طواعية إلى علب المُتحوّلين جنسيّاً: *عند السّيدة أرتور*، *في كاروسال*؛ بينهم من قدّم لها دروساً مُكثّفة؛ انقادت فترة؛ ثمّ اتّهمتهم بالتّلاعب بها وثارت عليهم بلهجة حادّة. أبهرها البذخ؛ كان الرّجال المترفون جدّاً الذين اهتمّوا بها، بدافع تعجرف،

يوقظون لديها الصورة الأسطوريّة لوالدها: كانت تثيرها إيماءاتهم الجميلة وذوقهم العالي. لكنّها كانت، في آن، تكشف عيوبهم: حسّ الصّواب لديها وقوّة روحها المعنويّة ثارا بعنف ضدّ التّعقيد. لن أروي في هذا الصّدد سوى طرفة مُعبّرة واحدة. كانت فيوليت مدعُوّة عند «راوول ليفي»، المنتج المشهور، في منزل ريفيّ رائع؛ كان عنده النحّات «سيزار» César، كتّاب، وأصدقاء شخصيّون للسيّد راوول ليفي: ثلاثون شخصاً تقريباً. تناولوا النّخب معاً في قاعة الأكل. فجأة، وجدوا أنفسهم خمسة عشر شخصاً حول «البايلّا» Paella: كان صاحب المنزل وخاصّته يتناولون العشاء في المطبخ. نهضت فيوليت لودوك، جعلت منديلها في حزامها، محوّلة إيّاه إلى منديل منظّف، أخذت صحن البايلّا، اقتربت من السيّد راوول ليفي الذي كان مُشيحاً بظهره، مُقلّدة خادمة متأنّقة: «هل يرغب سيّدي في القليل من البايلّا؟ هل سيّدي راضٍ عن خدماتنا؟» انتفض: «ماذا تفعلين؟ - إن كنتِ تلعبين دور الخادمة فيمكنني القيام بذلك أيضاً». وفسّر بانزعاج: «كان سوءَ تفاهم، في المرّة القادمة علينا أن نكون أقلّ عدداً، في المرّة القادمة ستأكلين أنتِ أيضاً في المطبخ». أكثر من مرّة، حصل معها هذا، منتزعة نفسها من إعصار الملذّات في باريس، أن تتصالح من جديد مع كبريائها. اعتذرت لي عن جنونها القديم؛ لكنّي سرعان ما فهمتُ أنّه بعد حرمان كبير سيسلّيها كثيراً أن تتعرّف إلى المطاعم والعلب اللّيليّة الرّائجة على الموضة. كانت تحبّ الحمّام. كتبت في مجلّة «فوغ» Vogue مقالات حول الحائكين الكبار. واستعادت متعة ارتداء الملابس الأنيقة: باروكتها الشّقراء، وتنانيرها القصيرة، معاطف آخر صيحة، كانت جذّابة؛ لكن في الشّارع كان يُلتَفتُ إليها بسبب عمرها الذي ارتسم على وجهها المُتوتّر بشكل يثير الحفيظة خصوصاً مع هيئتها الشبابيّة.

يسبّب لها المال المشاكل: في كُتُبها، تحدّثت عن تعلّقها بالمال: روت في كتُبها كم كانت متعلّقة به. كانت تكره أن تترك أموالها التي ربحتها نائمة لدى النّاشر؛ لكن، من جهة أخرى، لو أنّها سحبت منها كمّية كبيرة لتفطّنت إليها مصالح الضّرائب ولأخذت منها قسماً كبيراً: كانت فكرة مرهقة بالنّسبة إليها.

عثرت على مخرج بنصيحة من بعض الأصدقاء. لكن وبما أنّها كانت تسافر وتشتري الملابس فقد ظلّت مُقتصدة دوماً: لم تكن ترغب في العودة إلى أيّامها القديمة، أيّام نصف البؤس التي عاشتها قبل «*اللّقيطة*». حافظت على الأستوديو الذي كانت تشغله في بناية شعبيّة. النّفقة الوحيدة التي كانت تسمح لنفسها بها هي تحقيق أحلامها القديمة: أن تملك على الأرض حيّزاً خاصّاً بها. اشترت ورتّبت منزل «فوكون» Faucon حيثُ كانت تمضي الصّائفة. لم يكن الأمر هيّناً: كانت تعارك المقاول والبنّائين. بدا لها أحياناً أنّ نحساً يحوم حول البيت. لكنّها، أخيراً، بنت صداقة معه. كانت الإطلالة الكبيرة على جبل «فونتو» Ventoux الذي كان يملأ نافذتها. وجدت شغفاً في العناية بالحديقة حيثُ غرست أشجاراً نادرة وزهوراً استمتعت كثيراً بتنسيقها. في البداية تفاجأ سكّان القرية بسراويلها القصيرة وقبّعات القشّ الكبيرة ومساحيقها، لكن انتهى بهم الأمر لقبولها. بل صارت تعدّ بينهم أصدقاء مُخلصين.

حتّى في فترة رقيّها لم تتوقّف يوماً عن العمل. كتبت «*المرأة ذات الثّعلب الصّغير*»، قصّة طويلة مُكثّفة مثل «*الفتاة العجوز والموت*» تطرّقت فيها إلى موضوع الوحدة. تابعت في «*الجنون في الرّأس*» كتابة سيرتها. كانت قراءتها بالنّسبة إليَّ تجربة استثنائيّة. كنتُ أعرف الأحداث التي روتها فيوليت لودوك، كنتُ قد لعبتُ فيها دوراً في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى كان دوري كبيراً: إنّه لأمر باعث على الارتباك أن أظهر كشيء فيما كنتُ قد مررتُ بالأحداث واعية تماماً.

شيئاً فشيئاً راحت فيوليت لودوك تطيل إقامتها في «فوكون» بعد أن تعبت من السّهر والدّعوات والصّخب الباريسي. ثمّ انتهى بها الأمر إلى أن تستقرّ ابتداءً من سنة 1969. هكذا اكتشفت أفضليّة طفولتها. أحبّت الكتب والموسيقى واللّوحات والمعالم. لكن خلال السّنوات الأخيرة كفّ الأدب والفنّ عن حوز اهتمامها. كانت أكثر حساسيّة للعالم الحقيقي: النّاس، الأشياء، ألوان السّماء، روائح الأرض. «*ما أحبّه من كلّ قلبي؟ الرّيف، الغابة، الخشب. مكاني بينها، بينهم*»، كتبت في «*اللّقيطة*».

كان لدى فيوليت لودوك تناقض ملموس بين حياتها المُتخيّلة - الحافلة بالوهم والهوس - وبين موقفها من الواقع. كانت تخشى الموت: كانت تشعر بأنّ حياتها تتسرّب منها عندما يلمّ بها تعكّر بسيط أو قشعريرة خفيفة. مع أنّها أجرت عمليّتين جراحيّتين تطلّبهما أعتى الأمراض على الإطلاق. في مرحلة أولى أكّدوا لها أنّ الورم الذي استأصلوه حميد: صدّقت ذلك. عرفتُ الحقيقة وانتابني الهلع: خِفتُ عليها من انتكاسة وأن تعيش بقيّة حياة سيّئة. بعد فترة كان عليها أن تخضع إلى بتر ثدي: قبلت الأمر بهدوء. «أخبرني الطّبيب بأنّه سرطان، لكنّه سرطان من الدّرجة الصّفر»، قالت لي. ما أزعجها يوم زُرتُها في المصحّة هو أنّ لون شعرها الرّمادي عادة بدا لها في المرآة مائلاً إلى الحمرة، لون جلد جمجمتها أيضاً؛ حدثت الظّاهرة من قبل في «فوكون»، لكنّها لم تحاول البحث في الأمر. قلتُ لها إنّها تتوهّم ذلك فغضبت. «لكن لمَ لمْ أستدعِ الممرّضة كي تشرح لي ما يحدث؟» فكّرت، وابتسمت: «أعتقد أنّ لا وعيي يأبى التّصديق».

يبدو لي أنّها كلمة عميقة جدّاً، وأنّها تفسّر قوّة فيوليت ذات النّفسيّة الهشّة. كان لاوعيُها متفائلاً، لم يكن يصدّق التقدّم في السنّ، ولا مسألة الموت ولا الهذيان الذي تبتدعه. عندما دخلت مستشفى «أفينيون» ربيع 72، كانت مقتنعة بأنّها تعاني نوبة كبد حميدة. وعندما تجاوزتها كتبت لي كم كانت محايدة وهي تجد نفسها في بيتها مع علمها أنّ اضطراباتها لا خطر من ورائها. بعد وقت تلقّيتُ مكالمة مفادها أنّها سقطت في غيبوبة: تركها الأطبّاء ترحل لأنّهم لا يجدون حيلة لإنقاذها. ماتت دون أن تستعيد وعيها، دون ألم، ويبدو أيضاً، دون ضيق. دُفنت في مقبرة قريتها كما أرادت.

خطّت في «فوكون» آخر سيرتها. أظنّ أنّه سيكون ممكناً عمّا قريب أن تُذاع بعض الفقرات إلى الجمهور. أتمنّى ذلك، لأنّه في حالتها لم يكن سهلاً فصلُ كتُبها عن المرأة التي ألّفتها. جعلت من حياتها مادّة فنّها الذي بدوره أعطى معنى لحياتها.

هناك أشياء كثيرة أخرى تُقال حول فيوليت لودوك: فعلتُ ذلك قدر استطاعتي في مقدّمة «*اللّقيطة*» ولم أشأ تكرارها هنا.

تحدّثتُ في *سلطة الأشياء* عن بعض الصّداقات التي خُضتُها حول سنة 1960. لقد تمتّنت تلك العلاقات. الشّاب المرسيلي الذي قدّم لي نفسه على أنّه «غير متأقلم كلاسيكي» والذي، خلال حرب الجزائر، خدم جبهة التّحرير الوطنيّة F.L.N. تجشّم خلالها مخاطرة كبيرة ومن ثمّ أصبح أستاذ أدب. انتقل بين عديد المهن في الأرياف، في «غوادلوپ» Guadeloupe، في كمبوديا: روى تجربته في كتاب (كورشاي: الحياة التي بدأت أخيراً، منشورات غاليمار).. كان ملتحياً وذا شعر طويل ومتعطّشاً للاغتراب، لكنّه دائم الحضور في كلّ ما يتعلّق بما يُعرَضُ عليه. حافظت ثوراته على اتّقادها. حاول في معهد ثانويّ بباريس حيثُ عُيِّن، أن يلقّن طلبته الحرّية قبل أيّ شيء آخر، الأمر الذي جعله يدخل في مشاحنة مع إدارة المعهد. كان في الصّيف يقدّم دروساً فوق العشب. لم يكن يُجري الغيابات، ولم يكن يتّبع البرنامج المُقرّر، وكان يحفّز على الاعتراض. تمّ إيقافه عن العمل سنة 72 دون سبب مُحدّد. خصّصت له صحيفة لوموند Le Monde في عدد 2 مارس مقالاً: «مدعوماً من التّلاميذ، منتقداً من الأولياء. – أستاذ من طينة غير مألوفة في معهد «غونيس» Gonesse». كان مُهتمّاً بتلاميذه هو المقيم في المعهد، إلى درجة أنّه كان يسمح لهم بدخول غرفته والاستماع إلى الأسطوانات وتبادل النّقاشات فيما بينهم أو معه كلّما أرادوا. طبعاً، تحدّث الأولياء عن مخدّرات وعن مغازلات جماعيّة: اتّحاد الأولياء والتّلاميذ «أرماند» Armand هو الذي طالب بإيقافه. أحد الأولياء قال لصحافيّ لوموند: «لا أدري سيّدي إن كنتَ قد رأيتَه في جوارب الرّعاة. إنّه لا يلبس مثل أستاذ». (في الواقع كان يرتدي معطفاً طويلاً أبيض جاء به من أفغانستان).

صديقتي الكنديّة، مادلين غوبيل، صرفت النّظر عن الإخراج. قدّمت دروساً في جامعة بكندا وأعدّت برامج أدبيّة في التّلفزيون. قامت أيضاً بريبورتاجات وحوارات نشرتها صُحُف بلدها. جاءت إلى فرنسا عديد المرّات وهي الآن مُستقرّة هنا: لإعداد رسالة الدكتوراه حول «ميشال لايريس».

تواصل لقائي بجاكلين أيضاً أورموند. مُشفقة جدّاً جرّاء ما حدث

في مالي، عادت للعيش في سويسرا. كتبت رواية (ترانزيت؛ منشورات غاليمار).، الرّواية مُستلهمة من خيالها، وشرعت في كتابة أخرى، مستوحاة من تجربتها في أفريقيا. ثمّ التحقت بالنّيجر للتّدريس لكنّها لم تُعجب قط. ذات صباح وصلتني نسخة من كتابها الثّاني، المنشور في سويسرا. كلمة من النّاشر يقول فيها إنّها ماتت قبل أيّام من صدور الكتاب. كان الخبر مفاجئاً، لكنّه لم يذهلني. أعتقد أني أعرف كيف غادرت الحياة ولماذا. تلقّيتُ أواخر حرب الجزائر رسائل من دينيس بريبان، التي كانت راغبة بشدّة في لقائي؛ لم يُثنها رفضي المتكرّر: «أنا عنيدة مثل ليز»، كانت تقول، ملمّحة إلى تلميذة سابقة وسمتها بهذا الاسم في «*سلطة العمر*». فهمتُ أنّه لم يكن مجرّد فضول عابر: كانت تساعد جبهة التّحرير الوطنيّة F.L.N. وإنّما أرادت استشارتي في الأمر. بعد ذلك سخّرت بيتها ملجأ لجزائريّين: كانت تضع في الميزان وضعها المهني ولم يكن لها من مورد آخر. تعلّق كلانا بالآخر. كان لها عمري تقريباً وكانت حياتها شاقّة. كانت ابنة فلّاح تلقّى تربية قاسية في طفولته فنقل تجربته أيضاً إلى أطفاله السّتّة. تزوّج الابن البكر في سنّ الثّامنة عشرة كي يهرب منه. آخر التحق بالحرب في إسبانيا فقُتِلَ هناك. وأرسلوا دينيس للدّراسة في «سونليس» Senlis. لاحظت مُدرّستها أنّها نابغة فقرّرت أن تنفق على تعليمها في معهد ترشيح المعلّمين. رفض أهلها. جعلوها تعمل في الضّيعة، ثمّ جعلوها تنتقل: إلى مستودع، في مصنع، لدى صيدليّ كانت زوجته مريضة؛ وهي تنوء بحملها الثّقيل من مكان إلى آخر، أصيبت إحدى كليتيها وهي في عمر الثّامنة عشرة. (أُجريت لها عمليّة بعد سنوات) كان والداها يوسعانها ضرباً لأجل نعم ولأجل لا تقولها رغم أنّها كانت تضع في يديهما جميع ما تكسبه. أجبرها ضرر في رئتيها على قضاء سنة في مصحّة. عندما خرجت في سنّ العشرين حاولت أن تجرّب حظّها في باريس. عثرت على عمل يتمثّل في التّدريس لمصلحة عائلة. مكثت سبع سنوات تابعت خلالها دروساً في الفرنسيّة والأدب والتّاريخ وقرأت كثيراً. قامت بالتّسجيل في جيش الخلاص. مساءً، كانت ترتاد المطاعم الفخمة والعلب اللّيليّة، كانت في رحلة بحث لا

هدنة فيها؛ وبما أنّها كانت جذّابة وشابّة، فقد كانت تجني أموالاً كثيرة؛ بل لقد كان يُسمَحُ لها بدخول الصّالونات الخاصّة في «فوكيتس» Fouquet's. «آه! ها هي ذي الخُلاصيّة الصّغيرة»، كان يقول المُعتادون. أظهر محافظ الشّرطة «شياپ»، وغابي مورلاي وماري بال وساشا غيتري كرماً كبيراً؛ لكن أبداً جون غابان ورايمو. كانت اللّقاءات تُسلّيها لكن سرعان ما اكتشفت أنّ الفقراء لا ينعمون بكلّ هذا. لذا دسّت الخُلاصيّين هناك. في بداية الحرب دخلت إلى الإنقاذ الوطني. تابعت الدّراسة على أمل أن تصبح مُرشدة اجتماعيّة. «ابنة فلّاح! لن تصلي أبداً»، قالت لها مُنشّطة بازدراء. إلّا أنّها تقدّمت إلى مناظرة سنة 1948: استُقبِلت الرّابعة من بين خمسمائة مترشّح وباعتزاز علمت أنّها حازت على أعلى عدد فيما يخصّ الواجب الذي حرّرته حول الخدمة الاجتماعيّة المُنجزة خلال الحرب. أخبرتني بفخر كبير أنّ الورقة قد قرأها وزير الصحّة أمام الجماهير: كان انتقاماً رائعاً من المُستهزئين الذين ردّت لهم الصّفعة مضاعفة. كانت تشتغل خارج أوقات العمل، شغوفة به، ثمّ إنّها كانت تساعد المُحتاجين من مالها الخاص. كان دائماً لديها الفرصة لتعاين تحت أيّ مأساة كان الجزائريّون يرزحون وأيّ اضطهاد يُسلّط عليهم: كانت في صفّهم. التقينا إذًا. كان لها الفضل في تقريب البؤس والضّيق اللذين لولاها ما كنتُ لأعرفهما إلّا من بعيد.

أحببتُ كثيراً *إليز أو الحياة الحقيقيّة*، كتاب «كلير اتشيرلّي» Claire Etcherelli الذي شوّقني لنزمان لقراءته. روت، مريضة من العنصريّة، وهي تصف عالم العمل - الذي نادراً ما كانت الرّوايات تهتمّ به - قصّة حبّ تراجيديّة بين جزائريّ وفرنسيّة في باريس سنة 1957. أردتُ التعرّف على الكاتب: شعر أسود جميل، عينان خضراوان جميلتان، صوت وحضور راقٍ، ما جعلني أستلطفها فوراً. ابنة عامل شحن في الموانئ، أعدمه الألمان رمياً بالرّصاص سنة 1942، تربّت عند جدّ مُسنّ غجريّ يبيع الخيول لمنظّمات الكوريدا. لم تكن تجيد القراءة حتّى سنّ التّاسعة. ولأنّها كانت قاصراً فقد التحقت بمعهد دينيّ متقاضية منحة؛ تداركت تأخّرها بسرعة وتابعت دراستها

إلى غاية الباكالوريا بتفوّق: لكن، مُشمئزّة من تصرّف الاستهانة الذي كانت تمارسه الفتيات البورجوازيّات اللّاتي درسن معها، فقد رفضت التقدّم للامتحان. تزوّجت في سنّ الثّانية والعشرين وأنجبت طفلاً ثمّ طلّقت بعد ثلاث سنوات. جاءت إلى باريس واشتغلت في شركة «ستروان»، ثمّ في مصنع لمحامل الكريّات، ثمّ خادمة في بيت، الوضع الذي بدا لها أقلّ صعوبة ممّا يُطلَبُ من العمّال. وجّهها الزّوجان اللذان شغّلاها إلى العمل في المكاتب. عندما التقيتُها كانت موظّفة في وكالة أسفار، ما منحها الفرصة لتكتب *إليز* خلال أربع سنوات. كانت مُغرمة بالكتابة منذ سنّ الرّابعة عشرة. كانت ضربة حظّها أن تلقّت دروس الثّانوية قبل سنوات الإبادة التي قضّتها في المصانع.

حاورتُها لمصلحة *المراقب الجديد* بعد ذلك بفترة قصيرة حصلت على جائزة فيمينا Femina، الأمر الذي مكّنها من اقتناء دولاب ملابس- كانت قبل ذلك تملك مشجباً واحداً – وأن تغادر الحيّ العشوائيّ الذي كانت تقطُن فيه. تعيش الآن في الطّابق العشرين من برج انتهوا من تشييده في الدّائرة الثّالثة عشرة؛ من نافذتها يمكن اكتشاف باريس إميل زولا، بنايات قديمة، مصانع قديمة، محطّة أسترليتز Austerlitz. من بعيد يمكن رؤية نهر السّين وصخرة حديقة فانسان للحيوانات. تقول إنّها من ذلك العُلُوّ في مقدورها أن تشعر بأنّها بعيدة عن الأرض: حتّى شدو العصافير لا يصل إلى ذلك المُستوى. كانت تعيش مع طفليها: ابنها الذي أنجبته من زواجها وابنها الذي أنجبته من الجزائريّ الذي أطلقت عليه في الرّواية اسم «أرزقي».

يحفّز النّجاح على سوء النيّة: اتُّهمت بتزوير قصّة حياتها. بعد موت «أرزقي» كانت ستعيش مع موظّف جزائريّ سامٍ كان سيجعلها تعيش حياة مُترفة. في الواقع لقد تعاقدت مع جزائريّ ضمن زواج غير قانونيّ في فرنسا. لكن لم تعش قط في علاقة معه – بالعكس؛ لقد رحلت عنه خلال أشهر قليلة.

بعد جائزة فيمينا Fémina انتقلت بين مهن كثيرة وكتبت روايتها الثّانية حول واقع المنفيّين الإسبانيّين، في *شأن كليمونس*. قلتُ في صحيفة ما رأيتُه جيّداً. كانت *كليمونس* من طينة *إليز*، رقيقة وقاسية، مُتاحة وحذرة. عبرت

سعادة هشّة شاردة حُزن وجودها وانبجس الأمل من تحت البؤس. رواية مُشوّقة كالتي سبقتها، لكنّها للأسف لم تحقّق النّجاح نفسه.

يحدث معي باستمرار، حين أُعجَبُ بعمل أدبيّ لكاتب، أن أودّ رؤيته. كان من المهمّ التحدّث إلى ألبير كوهين، مع أرتور لندن، أن أسمع فراشة Papillon. بعد ظهور «*مجد الوغد*» التي أحببتها كثيراً، التقيتُ ايهني Ehni ورحنا نلتقي من وقت إلى آخر. لم أشاطره حبّه للحياة الزّراعيّة ولا نزعة إحياء الماضي لديه. يؤسفني أنّ في مسرحيّاته (أوجينEugène، كوپرونيم Kopronime، حيثُ يهاجم بمرح الثّقافة الغربيّة، لا تدخل في عتابي عليه) إدانة صارخة لدروب رجال اليسار. لكنّي أحبّ حيويّته وعفويّته وعلى الأغلب كنّا مُتّفقيْن في حواراتنا.

قبل أن أعثر على ستيفا، ربطتني صداقة منذ سنوات بابنها تيتو Tito. كانت علاقتنا قديمة. في اليوم الذي أتى فيه إلى العالم، سنة 1931، كنتُ مع والده بصحبة بعض الأصدقاء في «*مروج اللّيلك*»، بجانب مركز التوليد حيثُ ستيفا تنجب طفلها. رأيتُه يتحوّل إلى طفل صغير ضاحك ومشاغب، ثمّ رافق والِدَيه إلى أمريكا. سنوات الخمسين جاء إلى باريس برفقة زوجته الفرنسيّة؛ كان له بنت. عرّفتُه على أصدقاء، خرجتُ به في نزهة بالسيّارة، استلطفتُه كثيراً. عندما عاد إلى الولايات المُتّحدة عمل في الصّحافة، سافر إلى أمريكا اللاّتينيّة وكتب عنها كتاباً. كان من حين إلى آخر يُرسل مقالاً إلى *الأزمنة المعاصرة*. علمتُ أنّه طلّق زوجته وأنّه تزوّج من ابنة منفيّ إسباني، كان قد درّسها في «بيركلي» Bercley. سياسيّاً، كان دؤوباً جدّاً. أسّس نقابة مناهضة للحرب في فيتنام؛ كان بين الحين والآخر يتكلّم في التّلفزيون لإدانة الجرائم المُقترفة من طرف الفيالق الأمريكيّة ويُطالب بانسحابهم. شارك في أوّل محاكمة تمّت في فيتنام من قِبَل محكمة «روسال» Russel؛ خلال ذهابه وإيّابه توقّف في باريس، عندها تحديداً صرنا صديقين مُقرّبين جدّاً. ولدى عودته إلى «بيركلي»، انضمّ إلى صفوف الفهود السّود، الذين، عكس مسار الحركة المؤسّسة من طرف «كارميشايل» Carmichael، تمّ قبول البيض في صفوفهم. ارتبط ارتباطاً وثيقاً

بـ «ويذرمان» Weathermen («علماء الأرصاد الجوّية»، كما وسمهم بوب ديلان في أحد أغانيه).

إثر حادثة عنصريّة، احتلّ بصحبة طلبته بنايات إداريّة؛ فقد كان يُعتَبَرُ عنصراً مُحرّضاً خطيراً، وطُرد من الجامعة. هذا الإجراء الاستثنائيّ أثار احتجاجات واسعة وأحدث ضجّة إعلاميّة كبيرة. باع كلّ ما يملك ووهب نفسه بالكامل للمقاومة الثّوريّة؛ غادرته زوجته التي لم تعد تطيق حياة النّفي من جديد. لم يروِ لي تفاصيل نشاطه الثّوري. أعرف فقط أنّه سُجنَ بسبب ضلوعه الكبير في احتجاجات شيكاغو ضدّ الحرب في فيتنام: كانوا يوسعونه ضرباً كلّ يوم بهراوة مطّاطيّة. استأنف معركته لدى إخلاء سبيله. عن طريقه، عرفنا، أنا وسارتر، محاميّي أنجيلا دافيس وجاكسون: رأى أنجيلا دافيس عديد المرّات في سجنها. عندما أبطأ الفهود السّود في تحرّكاتهم لبعض الوقت، قرّر، فترة، تسخير وقته لأعمال خاصّة. وبما أنّه ألّف العديد من الكتب فقد حظي بمنحة إعاشة في لندن. كان يسافر إلى بريطانيا من وقت إلى آخر لكنّه يقيم في باريس حيثُ كنّا نلتقي باستمرار.

استمرّ تراسلي وكنتُ عموماً أردّ على الرّسائل. بينها ما هو مهمّ كي ينشأ تراسُل جاد. مع ذلك، عادة، أرفض الخوض في التّراسُل بسبب ضيق الوقت. لنفس السّبب لم أكن أفتح بابي لأناس يطلبون رؤيتي لا لسبب يستأهل. في الحقيقة، لم أكن أفهم تماماً عناد بعض القرّاء الذين يرغبون في رؤيتي «خمس دقائق». يعمل الكاتب سنوات وهو يحاول التّواصُل ما استطاع كي يبلّغ ما يعتقد أنّه مهمّ: كيف يمكنه في بحر ساعة زمن من الحوار أن يمنح ما يعادل كتاباً؟ إن كان الأمر حكراً على تقديم نصيحة «شخصيّة» فلستُ قادرة عليه ما دمتُ لا أعرف بوضوح من يطلُبُها. يُدهشني عكسُ ما ينجرّ عن موقفي. «آه! أنا لا أهمّك»، يقول لي بامتعاض شخصٌ لا يمثّل بالنّسبة إليَّ أكثر من صوت في سمّاعة الهاتف. أنتِ لا تدينين لي بشيء مُعيّن: «لكن كلانا يدين بأشياء لكلّ النّاس»، كتبت لي امرأة شابّة. ربّما. لكن العالم، هذا كثير؛ أنا مُضطرّة إلى أن أختار. ألتقي الطّلبة الفرنسيّين أو الأجانب الذين يُختبَرون أو يُجرون

رسائل الدّكتوراه حول أعمالي والذين لديهم أسئلة دقيقة يطرحونها عليَّ. ألتقي أيضاً مناضلين من دول مختلفة يلجؤون إليَّ من أجل تحرّك اجتماعيّ أو سياسيّ. من بينها، كانت أحياناً تنشأ علاقات متينة: بدءًا من سنة 71، كانت لديَّ صلة بأعضاء في حركة تحرير المرأة وكنتُ، باستمرار، ألتقي بعضهنّ.

أجد متعة برفقة الشّباب. أتفهّم إرادتهم للهرب من التدهور والعزل المسلّط عليهم من جانب الكبار. أجد تشدّدهم مريحاً، راديكاليّتهم وتطلّبهم وتسرّني نضارة رؤيتهم: بالنّسبة إليهم، كلّ شيء يُعتَبَرُ جديداً ولا شيء يسير من تلقاء نفسه. في خطاب لا أسمع فيه غير هذر السّياسيّين، ينتبهون إلى أخطاء، تناقض يثير ضحكهم أو يُغضبهم. الحماقة تثير غرابتهم أيضاً، والفضائح تجعلهم يشعرون بالخزي. يبدو لهم تغيير الحياة أمراً عاجلاً، لأنّ مستقبلهم في الميزان. أسعد كثيراً حين تُتاح لي فرصة مشاركتهم نضالهم. قبل خمس عشرة سنة من الآن، حين يكون لديّ مُتّسع من الوقت كنتُ أربط علاقات خاصّة مع بعض قارئاتي الشابّات. فقدتُ أثر بعضهنّ. تابعتُ مسيرة تطوّر الأخريات. كُنّ تلميذات في الثّانويّة: أصبحن طالبات: ثمّ صرن أستاذات. كنّ في ثورة ضدّ هذا المجتمع؛ أصبحت مواقفهن أكثر وضوحاً؛ كنّ ماركسيّات أو ماويّات (نسبة إلى ماو تسي تونغ زعيم الثّورة الصّينيّة والأب الرّوحي للصين الاشتراكيّة)، وعادة، عدا بعض التّفاصيل كنتُ أتّفق معهنّ حول الجوهريّ.

كان من بين تلك الصّداقات، ما حاز مكانة هامّة في حياتي. كنتُ مخطئة سنة 1962، حين اعتقدتُ أنّ شيئاً مهمّاً لن يحدث معي، ما عدا المآسي: حظّ كبير آخر فتح لي ذراعيْه من جديد. تلميذة في السّنة التّحضيريّة كتبت لي، ربيع 1960، متمنّية رؤيتي؛ رسالتها البسيطة والقصيرة، أقنعتني بأنّها تحبّ الفلسفة وتحبّ كتبي بنزاهة. أجبتُها بأنّي سأخطرها بموعد اللّقاء في العودة المدرسيّة. وهكذا فعلاً؛ كنتُ في تلك الفترة أجد ما يرفّه عنّي أكثر من الآن: في شهر نوفمبر، أرسلتُ كلمة إلى «سيلفي لوبون» كي نحدّد موعداً للّقاء. صحبتُها إلى العشاء في مطعم في حيّي. خجولةً، كانت تفرك

أصابعها بتوتّر، كانت تتلعثم وتجيب على أسئلتي بصوت مُختنق. تحدّثنا عن دراستها وانتهيتُ بالاعتراف لها بأنّها حازت على جائزة التميّز في يوليو. كانت مسرورة بالمعهد حيثُ صنعت لنفسها رفقة جميلة.

رأيتُها مُجدّداً، لكن بعد سنتين، باتت حواراتنا قصيرة ومتباعدة. لم تعد تشعر بالخجل منّي، لم تعد تتعثّر، صارت تبتسم وتضحك أحياناً؛ كان وجهها جذّاباً وكنتُ أجد حضورها رائعاً. بدا أنّها لم تكن بمشاكل شخصيّة. كانت تتهرّب من الإجابة حين كنتُ أسألها عن علاقتها بوالِدَيْها، كانا يعيشان في «ران»، أرسلاها إلى باريس لاجتياز المناظرة، لا شيء يُقال في هذا الشّأن. كانت تحدّثني خاصّة عن المعهد، عن الأساتذة، عن رفاقها، عن البرامج والعمل: كانت بشكل حيويّ، حيثُ من خلال همومها الدّراسيّة، تظهر نظرتها إزاء العالم. كنتُ مهتمّة بها وعلى انسجام تامّ معها.

ولشدّ ما اندهشتُ عندما وجدتُ رسالة من أمّها في بريدي. كانت قد وقعت، صدفة، في دفتر سيلفي الخاصّ وقرأت، كما تقول، جملة تشير إلى أنّي أخمّن بأنّها تضرب ابنتها. أكّدت لي أنّها لم ترفع يدها يوماً على ابنتها؛ عدّدت لي كلّ التّضحيات التي قامت بها وزوجها كي تتمكّن من متابعة دروسها المُعمّقة. بدت لي الحكاية مريبة؛ لم تكن الكلمات التي كنتُ جزءًا منها تخصّني ولا هي من قاموس مفرداتي. أجبتُ بأدب لكن بشكل جاف، قائلة إنّ سيلفي لم تكن تحدّثني قط عن عائلتها. تردّدتُ في إطلاع سيلفي على الأمر، لكن الحميمية لم تكن بيننا كبيرة إلى درجة أن أبدّل صورة أمّها في نظرها: كنتُ أجهل ما يدور بينهما. لزمتُ الصّمت.

انتهت السّنة الدّراسيّة. قضت سيلفي الصّيف في المغرب في بيت صديقة. لم تكتب لي. في العودة كان عليها أن تنتظر شهراً كي تتّصل بي عبر الهاتف. حين التقينا، عاتبتني بحرارة ما اعتبرته خيانة من جانبي. أطلعتها أمّها على رسالتي، قرأت لها بضعة أسطر، زاعمة أنّي في الواقع شريكتها، الأمر الذي رفضتُه بوضوح. شرحتُ القصّة لكنّ سيلفي تعنّتت: تصرّف أمّها محاولة التدخّل في أسرارها تكرّر في مناسبات عديدة خلال

حياتها، هكذا طفحت ضغينتها على أمّها في وجهي. فهمتُ أنّ علاقتها مع والِديْها لم تكن محايدة كما جعلتني أعتقد.

عندما استعدتُ ثقتها، أطلعتني على ملامح من طفولتها. كانت سنواتها الأولى سعيدة. أرادت أمّها التي لم تحقّق طموحها، أن تنتقم لحلمها عن طريق ابنتها. جعلتها تأخذ دروساً في البيانو على حداثة سنّها، دروساً في الغناء والرّقص في مسرح المدينة. اختالت سيلفي على الرّكح. أرتني صوراً لها، في سنّ الثّامنة أو التّاسعة: مرتدية حريراً أبيض، بتسريحةورديّة بيضاء، حاملة المكياج، منتعلة حذاء رقص، مبتسمة، واقفة على أصابع قدميها. تعرّفتُ على وجهها، لكن كان من الصّعب عليَّ أن أصدّق أنّ الطّالبة الجالسة بجانبي كانت تلك الطّفلة الصّغيرة المتنكّرة الحاذقة نوعاً ما. كانت الطّفلة التي احتضنتها السيّدة باترفلاي قبل أن تموت؛ كانت من بين الكورال الذي حيّا يقظة «ريپ فان وينكل» Rip Van Winkle[9]. كان عالم المسرح يمتعها وكانت فخورة بلعب أدوار الكوميديا. لم يكن يضنيها العمل الدّراسي: فقد كانت تنال كلّ الجوائز خلال السّنوات الأولى.

ثمّ، لم تعد تنجح في التّوفيق وقرّرت أمّها أن تصرف النّظر عن المسرح. أمكنها العمل أكثر؛ احتلّت في الفرنسيّة المرتبة الأولى؛ لكنّ أعدادها في الموادّ الأولى فقد ظلّت ضعيفة. لم يخفِ والداها أسفهما. وراحت علاقتها بهما تسوء شيئاً فشيئاً، أصبحت منغلقة وصامتة. وعاتبتها أمّها لأنّها حطّمت أحلامها بترك المسرح؛ أظهرت نزعة تملّك وغيرة وعصبيّة. روت لي سيلفي حكايتها متضايقة: كان موضوعاً مزعجاً بالنّسبة إليها ولم ألحّ.

قرّبتنا المواساة التي أعقبت نصف التعكّر الذي شاب صداقتنا. لكن خلال خريف 1963 بدأتُ فعلاً أتعلّق بسيلفي. صدر كتاب *سلطة الأشياء* ومنحت معنى للخاتمة التي عادة ما يُساءُ فهمُها. خلال احتضار أمّي وبعد موتها

9- ريپ فان وينكل Rip Van Winkle: هي قصة قصيرة للكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج نشرت في 1819، وكذلك اسم القصة الروائية الخيالية.

عرفت، رغم حداثة سنّها، كيف تواسيني. رحتُ ألتقيها بوتيرة أكبر؛ صارت حواراتنا أطول وأكثر حرّية.

قُبِلت في مناظرة «سافر» Sèvres، وتسكن الآن في شارع «جوردان». كانت مسرورة جدّاً في إقامتها. لم تكن تشبه وحش مناظرات وكانت تعمل بحرّية. كانت تجمعها صداقة ببعض الزميلات اللواتي تعتبرهنّ الإدارة رؤوساً عنيدة: كنّ يخرجن معاً، يحتسين النّبيذ الأحمر، ويشاغبن أثناء أوقات الرّاحة ويتحدّيْن السّلطات. ورغم التّوبيخ الذي كنّ يتعرّضن له فقد كنّ محلّ احترام وتوقير لأنّهن كنّ ينجحن في اختباراتهنّ بتفوّق.

حدّثتني سيلفي عمّن كانت تسمّيهنّ «عزيزاتي»؛ كانت تُخطرني بجولاتها، قراءاتها، وصداقاتها، بكلّ ما يحدث معها. منتبهة للأشياء والنّاس، حسّاسة لكلّ الفوارق، كانت تصفهنّ بسعادة كبيرة. كانت تعجبني وتسلّيني. كلّ تجربة تشاطرني إيّاها تصبح أكثر ثراءً. سنة «التّبريز» Agrégation، صحبتُها باستمرار إلى السّينما، المسرح، إلى معارض الفنون التّشكيليّة. في الرّبيع، بداية الصّيف، قمنا بجولات كبيرة بالسيّارة. على الرّغم من كلّ شيء بالكاد كنتُ أعرفها فقد كانت مليئة بالأسرار وكانت تفاجئني من وقت إلى آخر.

بعد يوم أمضيناه في «سولونيْ» Sologne، تناولنا العشاء ومكثنا للمبيت في نزل وسط المتنزّه. نمتُ باكراً وسرعان ما صرتُ بعيدة عن هذا العالم لمّا قفزتُ فجأة؛ يد لمست كتفي، كانت سيلفي واقفة بجانب سريري: «ارتدي ملابسك وتعالَيْ بسرعة، هذا جميل!» قالت لي بحماس. فركتُ عينَيَّ: ماذا يجري؟ صحبتني إلى النّافذة. قمرٌ كبير كامل الاستدارة يضيء وسط سماء صافية للغاية، رائحة عشب وزهور - رائحة طفولة - تصعد من الأرض؛ على العشب كان هناك أناس مُمدّدون وآخرون جالسون يعزفون القيثارة ويغنّون بصوت نصف خفيض. «لم أر قمراً كهذا في حياتي!» قالت سيلفي. نعم، ليلة بديعة، والموسيقى جميلة: لكن لا رغبة لديّ في ارتداء ملابسي والنّزول. «أوه! ما كان عليَّ إيقاظكِ إذًا!» قالت سيلفي مُعتذرة. في الواقع كان من الأفضل أن تفعل لأنّها جعلتني أكتشف فيها جانباً لم أكن ليسعفني به حدسي:

إمكانيّة أن تندهش، أن تمتلئ شغفاً، أخفاه عنّي، حتّى تلك اللّحظة، ضبطُها لنفسها. القليل من كؤوس النّبيذ الأحمر منحها القدرة على كسر الحواجز. عدتُ إلى النّوم. عادت إلى المتنزّه وبدا لها أجمل أن تقضي اللّيلة في السيّارة تحت النّجوم.

مساءً آخر، في ظروف مماثلة، أثارت غرابتي مرّة أخرى. إثر رحلتنا الطّويلة أنزلنا حقائبنا في نزل كائن في ضاحية قريبة من باريس وتناولنا العشاء. لم أعد أذكر حول ماذا تحديداً قلتُ لها ضاحكة: «أوه! أنتِ، لقد بات واضحاً أنّك صاحبة عقل مجنون!» كان في ذهني أنّها جملة مقلوبة لأنّ أحداً لم يبدُ لي متّزناً أفضل منها. بعد العشاء بدت حزينة: خمّنتُ أنّ السيّارة والهواء أتعباها. صباحاً، عندما طرقتُ بابها كي نتناول الفطور معاً، وجدتُها في كامل ملابسها؛ كانت تحمل نظّارتيْن سوداويْن. أعجبني أن تكون جاهزة في ساعة مُبكّرة. في الواقع، اعترفت لي بعد قليل، بأنّه لم يغمض لها جفن، قضت اللّيلة تبكي غاضبة: إن كنتُ قد خرجتُ معها فقد فعلتُ لأنّي أتسلّى بها كمهرّج، أتعاملُ معها كمخبولة. استغرق منّي إقناعها بأنّها مخطئة وقتها. لماذا أوّلت دعابة بريئة بهذا الشّكل؟ أخيراً أخبرتني. مجنونة، معتوهة، مريضة، غير طبيعيّة، مُعوَجّة، سمعت هذه الأسطوانة طوال مراهقتها ولم تتحمّل أن تخرج تلك الكلمة من فمي أنا بالذّات. لم أتمكّن من فهم حكم والِدَيْها وانتهى بها الأمر أن روت لي الحكاية.

قلتُ قبل الآن أنّها خلال سنتها الثّالثة لم تتّفق معها. تعلّقت في تلك السّنة بزميلة دراسة، ابنة أستاذ ونابغة في الدّراسة؛ كانتا تتبادلان دفاتر ترويان فيها يوميّاتهما وتعبّران فيها عن حرارة أحاسيسهما. وقعت الدّفاتر بين أيدي أبويهما: كان لذلك وقع الكارثة. اتُّهمت سيلفي بـ«النّشوة الشرّيرة»؛ وقرّرا أنّها «شاذّة»؛ والدا صديقتها دانيال أصدرا حكمهما هما أيضاً وأطلقا الصّرخة: كيف لابنتهما المتفوّقة أن تخالط زميلة دراسة بهذه الرّداءة! تقدّما بشكوى للأساتذة، للمديرة وقرّرا اتّخاذ إجراء بعد العودة من العطلة.

مثّل الصّيف جحيماً بالنّسبة إلى سيلفي. كانت دانيال تكتب لها كلّ يوم،

تقريباً، رسالة طويلة: وكانت أمّها تفتحها، وتسّر بسخرية حيناً وبحنق حيناً آخر بعض الفقرات ومنعتها من الردّ؛ كان عليها التحايل كي تلقِيَ في صندوق البريد من بعيد بعض الأسطر. مقارنة بصديقتها، كانت سيلفي أكثر تطوّراً ذهنيّاً؛ كانت تقرأ بشغف كلّ ما يقع بين يديْها. باتت الصّداقات والألعاب التي كانت تُسلّيها في السّنة الماضية تُزعجها. كانت أمّها تطالبها بقضاء اليوم بأكمله على الشّاطئ وكانت تغضب لرؤيتها مُستغرقة في الكتب طوال النّهار. كانت صدامات عنيفة تنشب بينهما باستمرار. كان والدُها يقف في صفّ زوجته لدى التحاقه بهما يوم السّبت. متضايقة، وحيدة، فزعة لكونها تحوّلت إلى نعجة جرباء، عاشت سيلفي بيأس لم يُمحَ من ذاكرتها.

خلال العودة، ولفصلها عن صديقتها، جعلاها ترسب في الثّالثة فيما كانت قادرة على العبور. أحسّت بالعار، حتّى إنّها أمضت ليلة بأكملها تصرخ ثائرة. ولكيْ تنتقم من والِدَيْها، ومن المعهد ومن عائلة دانيال، قرّرت أن تهزمهم على أرضها. انغمست في العمل بمثابرة وسرعان ما حصلت على أعلى النّتائج في جميع الموادّ واستطاعت أن تحصل على المركز الأوّل في فصلها. مع ذلك لم تُمنَحْ جائزة التميّز - لا أحد حصل عليها - تحت ذريعة رسوبها. أجّج هذا الإجحاف غيظها. كانت حزينة بعمق، لأنّ عائلتيْهما كانتا تحرسانهما عن قرب، لم يكن في مقدورها أن تضفر بدانيال أكثر من ربع ساعة.

انتقلت الأخيرة إلى باريس في السّنة التالية ولم تعد إحداهما ترى الأخرى. استمرّت سيلفي تجتهد بسخط وكانت تحوز كلّ سنة على جائزة الامتياز. حينئذ فقط فهمتُ لماذا كانت في بداية علاقتنا تحدّثني كثيراً عن دراستها بصورة تدعو إلى التّساؤل: كانت سنوات المعهد مهربها الوحيد. لم تنغمس في الدّراسة بطاعة تلميذ جيّد لكن بوازع شعور بالألم، بدافع تحدٍّ، بنوع من النّقمة. لم يتحسّن وضعها العائلي. كانت عائلتها فخورة بها أمام النّاس؛ فيما كان تصرّفها المهتاج يثير غضب والديْها؛ كانا يزعمان استيعابها لكنّها هي التي لم تتحمّل. أرادا «ترويضها»، لكنّها لا تُقهَر. هدّدوها أكثر من مرّة بإرسالها إلى مركز للإصلاح. باتت المواجهة بينهم أكثر فأكثر عنفاً.

أمضت خمسة عشر يوماً لا تكلّم أمّها لأنّها مزّقت كُتُبَها المُفضّلة. كان لهذه الحكاية صدى في داخلي. لكنّي كنتُ أكبر سنّاً، وأقلّ حاجة إلى عائلتي عندما عانيتُ سوء نيّتهم ولم تكن بنفس العنف.

كنتُ كلّما عرفتُ سيلفي بشكل أفضل، أحسستُ بالانسجام معها. كانت مثلي ذات توجّه فكري، وكانت متعلّقة بقوّة بالحياة. كانت تشبهني في نقاط أخرى عديدة: مع ثلاثة وثلاثين سنة من فارق السنّ، كنتُ أجد فيها صفاتي وخلفيّاتي. كانت لديها موهبة نادرة: كانت تجيد الإصغاء. عبر أفكارها، وابتساماتها وصمتها، كانت تفتح شهيّة الحَكْي: أنا أيضاً كنتُ أخبرها أوّلاً بأوّل بكلّ ما يطرأ في وجودي وكنتُ أعلمها بماضيَّ بالتّفصيل. لا أحد استثمر مثلها ما يمكن أن أقدّمه لشخص ما؛ ولا أحد كان سيتذوّق ما كنتُ أحظى به منها. كنتُ أحبّ حماسها وغضبها، جدّيتها ومرحها، رعبها من الرّداءة وكرمها الذي لم يكن يشوبه حذر.

لم تعد النّجاحات المدرسيّة تحظى باهتمام سيلفي منذ علمت أنّ في وسعها بلوغها دائماً. لكنّها كانت تحبّ التعلّم، والفهم، وكان ذكاؤها حادّاً ونشطاً؛ حظيتْ في شهادة التّبريز برتبة جيّدة جدّاً، ما منحها سنة رابعة في المعهد قبل الانتقال للتّدريس في الأرياف. في البداية عُيِّنَت في «مانس» Mans، ثمّ «رووان» Rouen، في المعهد الذي اشتغلتُ فيه أستاذة؛ عندما كانت تقضي فيه اللّيلة، كانت تنزل إلى الفندق المجاور للمحطّة حيثُ أقمتُ سنتيْن، كانت تحتسي قهوتها في حانة الميتروپول: كان ذلك يتيح لها انطباعاً بأنّها تُبْعَث. الآن، هي تعمل في الضّاحية.

يتيح لنا ذلك اللّقاء كلّ يوم، كانت متغلغلة في حياتي مثلما كان حالي معها. عرّفتها بمُحيطي. كنّا نقرأ الكُتُبَ نفسها، نذهب إلى العروض معاً، ونقوم بجولات طويلة بالسيّارة. كان بيننا تعامل متبادل فقدتُ معه مبدأ العمر: دفعت بي إلى مستقبلها وفوراً استعاد الحاضر خاصيّة كان قد فقدها منذ زمن.

بين الأشخاص الذين لعبوا في حياتي أدواراً متباينة في الأهمّية والذين كنتُ قد تحدّثتُ عنهم في كتُبٍ سابقة، صديقات رحلن عن الحياة خلال

السّنوات الماضية. أريد، هنا، التحدّث عن نهاياتهنّ محاولة، ربّما، استكمال البورتريه الذي كنتُ قد رسمتُه لهنّ.

خلال فترة شبابي، كان جمالُ «كامي» Camille، حياتها المُستقلّة، طموحها العنيف، إدمانها العمل، تلهمني إعجاباً وتحفيزاً كبيرَيْن. كانت شديدة الاختلاف عن الشّخصيّة التي فتنَتْني. لكنّها كانت تملك قدرة كبيرة على الإغواء. أبهرتْ «أولغا» Olga، كان لـ«ماركو» معها صداقة مُدهشة. كانت السيّدة «لومار»، المختلفة عنها كثيراً، سُرّت للغاية بالأمسية التي أُقيمت في شارع «نافاران» Navarin. أحبّها بعمق صحافيّ موهوب، أصغر منها سنّاً، تعلّق بها فترة طويلة، حتّى بعد انتهاء علاقتهما. كان «دولان» Dullin، يعشقها؛ كان مؤمناً بعبقريّتها ويحترم نصائحها. شكّل لها ذوقاً ومنحها ذكاءً مسرحيّاً. نجحت نجاحاً منقطع النّظير في إعادة مسرحيّة «جول سيزار» *Jules César*، «بلوتوس» *Plutus*، «الصّانع» *Le faiseur*. كانت تلقي دروساً مُهمّة عادة. لم يكن الطّلبة يحبّونها لأنّها كانت تظهر إزاءهم غطرسة وصلابة؛ كانوا يسخرون من طريقة وضعها للأصباغ وصوتها الرّقيق. لكن من باب التّمرين كانت تُخرجُ: *مؤسف أن تكون عاهرة*. فتُبهرهم بقدرتها الاستثنائيّة على الإخراج. كنّا، أنا وسارتر، نستمتع كثيراً معها. كانت تضايقنا بحديثها عن الشّيطان وعن «الحضور» الذي يحميها؛ كما نرى أنّ لعبتها كانت متكلّفَة مع «فريدريش» Friedrich، و«ألبرخت» Albrecht (دميتان منحت تعميدهما لنيتش ودورر) اللتين كان يصل بها الأمر إلى حملهما معها أثناء رحلاتها. لكن حين تتخلّى عن أساطيرها، كانت تجيد الملاحظة، والوصف ورواية الأحداث؛ محاكاتها السّاخرة وتقليدها كانا يسلّيانا كثيراً.

زيّنت ورشة شارع «نافاران» بشكل مُذهل، ثمّ البيت الجميل في شارع «لاتور-دوفيرن» d'auvergne-La tour حيثُ كانت تعيش مع «دورلان». كانت تحبّذ الحفلات وكانت تعتبر لقاءاتنا حفلة في حدّ ذاتها. في باريس، في رووان وتولوز، في بيت «فيرول» الجميل، أمضينا معها أوقاتاً ممتعة حقّاً. كنّا متأكدَيْن من أنّها تكتب بمثابرة ورغم فشل مسرحيّة *الظّل* فإنّنا كنّا نثق

بإمكاناتها. كان من المؤثّر أن نقرأ في دفترها الكلمات المقتبسة عن «إميلي برونتي»: «ربّاه، لا تجعل ذاكرتي تذبل أبداً».

بردت علاقتنا بداية الاحتلال. انضمّت كامي إلى النازيّة، موافقة دون أن يهتزّ لها رمش على الحركة المعادية لليهود. ثمّ من جهة أخرى جعلتنا نقرأ *حكاياتها الشّيطانيّة*؛ كانت صبيانية وخاوية إلى درجة أنّنا لم نعرضها على أيّ ناشر، ولقد آخذتنا على ذلك: كيف نهتمّ بكتابات «مولودجي» ولا نكترث لكتاباتها؟ كنّا أقلّ نزاهة في شأن «*أميرة أورسين*»؛ لكن كان عليها أن تشعر بأنّنا لم نحلّق مع «هذا اللّفت الحُلوِ»، كما وصفهُ أحد النُقّاد. مساء العرض الأوّل، كانت القاعة متجمّدة؛ خلال العرض، تعطّل أحد المشاهد، كان لابدّ من قفز لوحة، لم ينتبه الجمهور، خلف السّتار كان دولان يبكي. كانت مسرحيّة متعبة. حينها فقط عرفنا أنّ كامي لن تصير كاتبة أبداً. لم تكن للرواية المستوحاة من حياتها، التي كانت قد حدّثتنا عنها في تولوز. كان موضوع المسرحيّات مُزرياً. أرادت أن تصف طوفاناً يغرق كلّ القيم القديمة؛ ستُعلن الأرباب عن القِيَم الجديدة: طلبت من سارتر تعريفها. في *الحب عن مصلحة* كانت تودّ البرهنة على أنّ حبّ المال والطّموح في استطاعتهما أن يفضيا إلى الحبّ الحقيقيّ: سيكون بطل الحكاية «بيير لو غران» والبطلة كامي، مُقَنَّعة. كنّا مندهِشَيْن. كانت كامي ناضجة، وذات تجربة ثريّة، ساخرة بل وقحة، تتحدّث بواقعيّة عن النّاس والأشياء؛ كانت قارئة ذكيّة، تعلّق بصورة مُهمّة على الكتّاب الذين تميل لهم وتسخر بعقلانيّة من الأدب الرّديء: كيف تنقاد وراء ابتكارات طفوليّة في مظهر خالٍ من روح النّقد؟

دون شكّ لقد أسلمتها نرجسيّتها إلى العمى. ثمّ ونحنُ نعتقد أنّها تواظب على الكتابة، كانت في الواقع خاملة إلى أبعد حدّ: كانت تتظاهر بالعمل فيما لم تكن تعمل. لم تكن مفاجأة بالنّسبة إلينا ذلك الفرق الكبير بين خطابها في حواراتنا وبين ما تحبّره ريشتها. هناك أمر ما غير متماسك. لكن ما هو؟

هل كان بسبب المشروب الذي تحتسيه؟ في البداية، كانت حكايات سُكرها تُضحكنا: كانت تقع في تناقضات أثناء التّمرين في الورشة. أثناء

عشاء مُمِلٍّ في «فيرول»، خرجت عدة مرات مع «زينا» لاحتساء أكواب كبيرة من النّبيذ الأحمر. «كنتُ مريضة، قالت بمرح. اختفيت وراء مروحة كبيرة وتقيّأت على العشب قائلة: هذا إسبانيّ جدّاً». لكن بعد فشل *أميرة أورسن*، لم تعد مبالغاتها مُضحكة. حاول دولان إنذارهم، كانت تُخفي القوارير في المسرح، كان يبحث عنها ليُتلفها. كانت تنشب بينهم المُشاجرات. حين تكون ثملة كانت تسبق المُمثّلين والطّلبة. نجح دولان، أخيراً، في إقناعها بدخول مصحة علاج ضدّ الإدمان.

شُفيَت خلال مُدّة قصيرة. استأنفت الشّرب والقيام بالفضائح. لم يعد لدولان مسرح. ذهب إلى ألمانيا في جولة؛ رافقته وأبدت عدائيّة تجاه كلّ الفريق. روت لنا هي بنفسها أنّها ذات ليلة في فندق على ضفاف نهر الـ «رين» Rhin، كان الممثّلون جالسين في الشّرفة، يغنّون ويضحكون فيما بينهم: من شرفتها، طلبت منهم أن يصمتوا لأنّهم يشوّشون تأمّلها. روت لنا أيضاً الحادثة لمّا ثملت في حفلة رسميّة، مهمّة جدّاً بالنّسبة إلى دولان، كيف أنّ أقوالاً مفزعة ندّت عنها. خلال أمسية أخرى، رُوِيَ لي، خلال نوبة حادّة، ألقت في النّار حزمة نقود كانت مُعدّة لتسديد نفقات الفريق. كانت تشرب، قالت لنا، لأنّها على علم بأنّ دولان مريض ولأنّ فكرة موته ترعبها. إلّا أنّها في الوقت نفسه، كانت تجعل من حياته قطعة جحيم بمواقف في غاية العنف تتعلّق بعمله الفنّي، بمسائل ماليّة، بكلّ شيء ولا شيء. جعل منها، في فترة ما وريثته الشّاملة. ثمّ بعد ذلك غيّر حكمه. عيّن منفّذ وصيّة طلب منه الاعتناء بمن بات يسمّيها في الوقت الحاضر بـ «طفلي المسكين».

لم تكن، تقريباً تزوره في المستشفى قط ولم تكن بجانبه حين مات. يوم الدّفن، لا أحد من أصدقاء دولان دعاها: جاءت وحدها، ولا أحد وجّه لها الكلام. في فبراير سنة 1950، نظّم أصدقاؤه وتلاميذه تكريماً لدولان في الورشة. رويتُ كيف أنّنا وجدنا كامي ثملة حين وصلنا إلى بيتها، كانت تبكي، بوجه متورّم، بجوار «أريان بورغ» المذهولة. بكت طوال المراسيم ولا

أحد ألقى عليها نظرة، ولا يد امتدّت إليها. لستُ متأكّدة من أنّ هذا النّبذ كان الطّريقة المُثلى لإثبات الوفاء لذكرى دولان.

بدا أنّ كامي أصبحت الأعلى. فقد وضّبت في غرفتها محراباً صغيراً لتخليد ذكرى دولان: صوراً فوتوغرافيّة، زهوراً بلاستيكيّة في جمجمة. قالت إنّه كان يقدّم لها النّصيحة في أعتى الظّروف. كتبت لنا في شهر مارس: «لقد عشتُ الأسابيع الأخيرة فترة هي الأكثر تميّزاً في حياتي، ربّما الأجمل. في هذا الشّأن بالذّات، بدا لي رسم حياتي ومعناها مخطوطاً ومنتهياً (غير مكتمل لكنه واضح كما لو كان في الأمر تنبؤ حتّى الموت). أنا أتطوّر بخطورة هادئة يرافقها مرح ونوع من الشّيطنة (لا أحبّ هذه الكلمة كثيراً، لكنّه يتضاعف في معنى قويّ وغامض يسمه بشكل مُختلف)».

كانت ستجد نفسها دون مورد لو أنّ سارتر لم يساعدها؛ اعتبرت نجدته نوعاً من المنحة التي ستساعدها على إتمام مشروعها. ولتستحقّ هذا الفضل كانت تحدّثنا كثيراً عن أعمالها التي ستشرع في إنجازها: حبّ *المصلحة* كانت مسرحيّة أخرى، حول سحرة «لودن» Loudun؛ متتالية روائيّة في أجزاء عديدة، حيثُ كانت ستروي حياة والِدَيْها وحياتها الخاصّة؛ وخصوصاً كتاباً عن دولان: حياته، أعماله، أفكاره. كانت تبحث عن إعانة كي تُحوّل بيتها الفسيح إلى «متحف شارل دولان»: كانت تملك بدلات رائعة، مُجسّمات ديكور، إخراجاً كتبه دولان بخطّ يده. لم نكن نصدّق أنّها كانت تعمل كثيراً لأنّها كانت تتنقّل باستمرار بين باريس وفيرول، حيثُ كانت تحيط بها سمعة مدمنة الشّراب: كانت تثمل مع موزّع البريد. كانت تقضي وقتاً طويلاً في ترتيب الأغراض. كنّا نراها بوتيرة كبيرة. كانت تذهب إلى السّينما، المسرح، أروقة العرض، الحفلات، وكانت تقرأ؛ كان كلامها مُهمّاً، ما عدا حين تُضطرُّ إلى الحديث عن أعمالها.

تعيش زينا بمفردها. كانت متزوّجة من ميكانيكيّ وهي منذ فترة طويلة تعيش في برج أوفرنيْ. استقرّ الزّوج في بالفيل، واقتسمت هي وكامي شقّة

واحدة. لكن، خلال نوبات السُّكر يحدثُ أن تضربها بعنف: ذات يوم فتحت لنا الباب بعين متورّمة. أخيراً غادرتها.

جمعت صداقة بين كامي وفتاة تُسمّيها «الكورسيكيّة» وكانت نسبيّاً مُتيّمة بها. لكن سرعان ما تحطّمت علاقتهما. وسقطت في عزلة قال إنّها لا تُعذّبها كثيراً. كتبت في يوليو 51: «أنا في حالة لا تشبه حالتي في السّنة الماضية في نفس الفترة. صرتُ قريبة من نوع من السّيطرة على تصرّفاتي وصرتُ متّزنة ومُعتادة، وإن كانت هناك بعض المرارة أحياناً بسبب الوحدة المُحتّمة. وحدة وجود، لا وحدة أعماق، إذ بفضلكما لا أشعر بأنّي وحيدة في العالم؛ ثمّ... هناك «التجلّي». لا شيء يربكه ولم يكن يوماً عطوفاً كما هو الآن. ثمّ هناك أيضاً من أسمّيهم «نصفَ الأحياء» مثل فريدرش وألبرخت ونيل (كلباتها). أخاطب الأولى والثانية بصوت عالٍ. أمّا نيل فنحنُ في خصام دائم تقريباً [...] إنّها غيورة جدّاً من الصّغار [...] لا شيء يشبه الحياة - الحقيقيّة، لا تلك التي يشاركنا فيها الأهل - التي عشتُها عندما كان لي ستّ، سبع، ثماني سنوات، قبل ذلك أيضاً، وطبعاً بعد ذلك لكن مع بعض التخوّف من خوض الحياة الفعليّة (لا تنسوا أنّ قصّة حبّي الأولى عشتُها في التّاسعة) وهي لا تُشبه ما أعيشه الآن... ربّما خطر لكم أنّي سأعود إلى الطّفولة، في معناها السيئ. لا أعتقد أنّ الأشياء ستسير على هذا النّحو، لو استثنينا الجانب «القارّ» الذي ما انفكّ يرافقني والذي سيظلّ يرافقني حتّى الممات لو جرت الأمور على ما يُرام». بعد فترة، في ذلك الصّيف بالذّات، كتبت لنا رسالة متفائلة جدّاً: قبِلتْ فكرة العيش الزّهيد. كانت صحّتها تبعث على الرّضا وقدّرت أنّها تحسّنت كثيراً على الصّعيد النّفسي؛ أظهرت، إضافة إلى ذلك، «تكيّفاً مثاليّاً مع الوحدة».

لابدّ أنّ تلك الوحدة كانت ثقيلة للغاية، فبعد ثلاث سنوات، عندما أقنعها أحد الأطبّاء الذين تثق بهم بدخول مصحّة علاج ضدّ الإدمان، قالت لسارتر الذي تنقّل لزيارتها، كم كانت تجد المكان مُريحاً: ممرّضات يعتنين بها؛ كانت تهتمّ بالمرضى في الغرف المجاورة: عاينت من بعيد احتضار شيخ طاعن في السنّ؛ كانت تُسلّيها مراقبة الخادمات وهنّ يتنقّلن بأواني الغسيل.

سقطت في الإدمان فور مغادرتها. فسّرت لنا أنّ هناك دائماً قارورة نبيذ أحمر فوق منضدة سريرها؛ في الصّباح، حالما تفتح عينَيْها كان من الضّروري أن تشرب كوب شراب كبيراً وإلّا تقيّأت ولن يعود في إمكانها النّهوض. كانت حريصة على أن يبدو عقلها صافياً حين نلتقي لكنّنا أحياناً كنّا نشعر أنّها تتحامل على نفسها كي لا تنساق وراء نوبتها. في رسالة سنة 1956، كتبتْ: «هناك أوقات، حيثُ لا أستطيعُ ولا يجب حتّى أن أحاول القيام ببعض الأشياء. هذا ما أنا مُضطرّة إلى القبول به... في ذلك المساء، لأنّي أردتُ رؤيته بأيّ ثمن، لم أظهر لكِ سوى الوجه الآخر من حقيقتي والجانب السّلبي لكلّ ما قمتُ به أو فكّرتُ فيه منذ آخر حوار لنا». أنا آسفة لأجل هذا «الشّجن الشّامل» الذي لم يكن سوى طفح، جداولَ مبتهجة، لا تُغيّر العوائق ولا الحجارة مسارها بل تجعلُ منها شلّالات فرح. بالكاد ذكرتُ ما أراه مهمّاً حقّاً (كتابي مثلاً) صدفة تقريباً.

لم تكن كامي موهوبة قط إذا تعلّق الأمر بالتّبادُل: كانت تطرحُ أسئلة سريعة، كنّا نجيب عليها باقتضاب، كانت تقريباً في مونولوج مع نفسها. في الأوقات التي كانت ترى العالم كثيراً وتقرأ وتجمع الأخبار، كانت مسرحيّاتها غنيّة. لكن لا يمكن بحال العيش في انغلاق دون عاقبة. الذّكاء يصدأ، الاهتمامات تخبو: كان في وسعها أن تُمضي ساعات في شرح أعراض السُّكّري لديها والعلاج الذي تتّبعه. كانت دائماً تعرّج على عملها الفنّي: ترتّب أوراقاً قديمة لمصلحة المتتالية الرّوائيّة، كلّ ذلك كي تبرّر المنحة التي اختصّها بها سارتر كلّ شهر. خطرت لها فكرة ساحقة فيما يتعلّق بنصّها حول دولان: ستعوّض الكتابة بالصُّوَر الفوتوغرافيّة. كان لديها إحساسٌ بأنّ أقوالها لم تكن مُقنِعة. كانت لقاءاتنا ترهقها. لذا راحت تباعد بينها.

ذات يوم، وقد كنّا في انتظارها في بيتي سمعنا خطوات في الشّارع تقتربُ ثقيلة ومرتبكة، ثمّ تبتعد: استغرقت ربع ساعة لتقع على باب بيتي. كانت تترنّح وتغمغم. أكثر خجلاً من أيّ وقت مضى، دخلت الحمّام وسمعناها تبول بصخب. شرعنا في نزول شارع راسپاي لتناول العشاء

في مونپارناس. تهاوت على مقعد، وراح سارتر يبحث عن سيّارة تاكسي. استطاعت بجهد كبير أن تتماسك أثناء العشاء. شيئاً فشيئاً تعدّدت العوائق التي تحول بيننا وبين اللّقاء. لم تكن ترغب في رؤية أحد. بعد صدور *سلطة العمر*، تلقّيتُ رسالة من طبيب في تولوز كان مُغرماً بها أيّام الشّباب: طلب منّي عنوانها. استقبلَتْه مرّة واحدة، ثمّ أخلفت المواعيد الأخرى. كانت تذهب إلى زينا من حين إلى آخر. هي أيضاً كانت تشرب من دون ضوابط؛ ألمّ بها المرض وتعكّرت حالتها نحو الخطورة وبعد شهر من التنقّل على المستشفى ماتت سنة 1964. أمضينا أمسية في بيتي بصحبة كامي، آنذاك. كانت مضطربة للغاية جرّاء هذا الموت. أحسّت بـ «أكثر من الأسى» كتبت لنا لاحقاً؛ مرّت بفترة «وسواس» ومرّ بها شهر «فظيع».

لم تعد تدعونا إلى بيتها، ولم نعد نخرج معها إلى المطعم. حافظت دائماً على شعرها الطّويل المُلقى على ظهرها والمائل إلى الحُمرة وكانت ترتدي فساتين قديمة شفّافة جدّا: كانت لافتة للأنظار. بقينا في شقّتي حيثُ لم تشعر بالرّاحة للحديث. أسرّت لنا أكثر من مرّة أنّها تنوء بحمل عفّتها. يوماً ما شربت، روت لنا، نزلت إلى الشّارع للبحث عن رجل. صحبتْ شخصاً إلى بيتها، لكنّها شعرت بالقرف فطردته. بعد تلك الحادثة التقته فصفعها ورمى بها في الأرض.

كانت حاجبة المبنى تسهر على مشترياتها وترتيب بيتها. كان جُلُّ البيت مهجوراً: كانت تعيش في غرفة وفي الصّالون المُستدير. لم تطأه قدماي منذ سنوات إلى أن جاء يوليو 1967 عندما رجتني باستعطاف، عبر الهاتف وعبر الرّسائل أن أزورها في البيت. أخطأتُ الباب، رننتُ جرس الجارة قبالتها. «اطرُقي بقوّة فجرسها لا يعمل وهي عادة لا تسمع»، قالت لي وهي تنظر لي بطريقة غريبة.

طرقتُ، بعنف: عبثاً. عدتُ إلى الحاجبة فانهالت على الباب بالضّربات: عبثاً. ألقينا الحجارة من الشّرفة، على النّوافذ المُغلقة: عبثاً. حاولتُ الاتّصال. «آه! ظننتُ أنّ الموعد في بيتِك»، قالت كامي بصوت حازم. كان ذلك غريباً،

إذ لم يكن عليها أن تكون هناك. أكّدت لي أنّها ستترك الباب مُوارباً. دخلتُ، جستُ ببصري بارتياب في قاعة الطّعام والصّالون: بدا لي وقد انتُزِعَ من الحقيقة وسقط في قصّة خرافيّة. بين الماضي القريب بعدُ، وبين الوقت الحاضر، هناك مسافة أكبر ممّا بين فتاة صغيرة وبين امرأة في المائة. ديكور كامي الجميل تحوّل إلى فوضى عارمة. غبارٌ يُغطّي المرايا المُصفَرّة، الجدران رماديّة، والأرضيّات. أقمشة من كلّ نوع، من حرير وشيفون وملابس مُبهرجة غريبة كانت ملقاة على الأثاث والرّفوف. كان متوقّعاً أن يلاحظ المرء نسيج عنكبوت في الزّوايا. «اجلسي»، صرخ صوت. رفعتُ الأوراق والأغطية من فوق الكنبة، وجلستُ. رأيتُ ساق سرير من خلال الباب الموارب للغرفة المجاورة. سمعتُ عُواءً غريباً، خطوات ثقيلة، غمغمة، صوت جسم ثقيل يسقط. بعد لحظات، ظهرت كامي في مدخل قاعة الأكل: كانت شفتاها ملطّختين بالأحمر. كانت تحمل بيجامة من حرير أسود وبدلة مفتوحة على حمّالة نهديْن قطنيّة ورديّة. لفاع كان يُغطّي شعرها الأحمر. كانت تمصّ شفتها السُّفلى، وكلمات غير مفهومة تسقط من فمها. فهمتُ أنّها كانت تحدّثني عن مؤسّسة أصدقاء دولان، عن معرض دولان، عن فيرول التي لم تكن تذهب إليها قطُّ لأنّ البيت كان مرهوناً مقابل مبلغ ضخم. شيئاً فشيئاً، راح كلامها يزداد نقاء وتماسُكاً. حدّثتني عن *«بال إيماج (صور جميلة)» Belles images*، *«والتر سكوت» Walter Scott*. لكن سرعان ما بدت عليها علامات التّعب؛ كان جسدُها يتأرجحُ إلى الأمام والخلف: غلبها النّعاس. نهضتُ. عند المدخل، قالت لي إنّها تتمنّى الحصول على شعر أبيض، فقد كان الرّجالُ، منجذبين إلى جسدها ذي البدانة المُروّعة، يجدون صعوبة في إخفاء خيبتهم كلّما تطلّعوا في وجهها. قبل أن تصافحني، سألتني، على نحو خبيث نوعاً ما: «ما رأيُك في التنانير القصيرة؟»

عندما عدتُ من كوبنهاغنن، خريف سنة 67، وجدتُ كلمة من كامي، كُتبت قبل عشرة أيّام، تُخبرني فيها أنّها مُهدّدة بمُصادرة؛ لتتجنّبها، يجب أن أرسل لها مبلغاً زهيداً من السّهل أن أقرضها إيّاه كتسبقة: كنتُ في

الدانمرك. في اليوم التّالي، هاتفتني، تلتمس التدخل بينها وبين «الحاجبة الصّغيرة»، السيّدة س. روت لي الأخيرة أنّ كامي لم تدفع الإيجار ولا الضّرائب منذ زمن، وأنّ المُصادرة قد تمّت في ظروف تعيسة. جعلت كامي المحافظ ينتظر عشرين دقيقة، دخلت إلى الصّالون على أربع، يلُفّها فستانٌ تفوح منه رائحة الخمر. تشقلبت على ظهرها باكية صارخة. بعد المُصادرة، ساعدتها السيّدة. س على النّوم؛ كانت الغرفة التي لا تدخُلها أبداً مليئة بالقوارير الفارغة والأوراق التي يُخشى أن تحترق في كلّ لحظة، فكامي كانت تتدفأ بواسطة مدفأة كهربائيّة. لم يكن هناك من لحاف على الحاشية،السّوداء جرّاء الوسخ. في الحاويات التي كانت كامي تُلقي بفضلات الأكل، احتشد الدّود. لم تكن كامي تسمح بلمس أيّ شيء. كانت تشرع في الشّراب بدءًا من السّاعة التّاسعة صباحا: تتّصل بالبقالة التي كانت ترسل إليها بعض القوارير الجيّدة، الباهظة. لم تأكل منذ المُصادرة. كانت السيّدة س تضع الصّحون على الطّاولة وتنادي كامي: في اليوم الموالي كانت تجد الأكل على حاله. كانت كامي تُسمَع أحياناً تُغنّي. «لا أريد أن أقول شيئاً لمتساكنات المبنى الأخريات، قالت الحاجبة، النّاسُ أشرار، سيهزؤون بها. لم يكن سوءًا، بل تدهوُراً». كانت تحبّ كامي التي كانت في أوقات الصّحو تبدي أدباً، وثقافة عالية، وكانت تتحدّث معها بطيبة ولطف. قلتُ إنّه من الضّروريّ إرسالها إلى المصحّة؛ طلبتُ من السيّدة س، أن تلحّ في إقناعها للموافقة. هاتفتُ كامي لإقناعها: سيتكفّل سارتر بدفع الرّسوم. رفضت بعناد. لم تكن ترغب في رؤية أحد، خصوصاً الطّبيب. رفضت مغادرة غرفتها.

أرسل سارتر إلى السيّدة س. كي تدفع ديون كامي كي تستمرّ في الإقامة في شقّتها. كانت تتّصل كلّ يوم. أكلت كامي الطّعام خلال أربعة أيّام ثمّ تفاقمت حالتها: كانت تشرب كلّ يوم ستّة قوارير نبيذ أحمر. «لكن، أنتِ تنتحرين! قالت لها السيّدة س. – لمَ لا؟ ما دمتُ لا أجد قوت يوم». لم تعد تخرج من فراشها وكانت تقضي حاجتها في الأواني. أشرتُ على الحاجبة

أن تعلم مصلحة الصحّة الاجتماعيّة وأن تنقل كامي إلى المستشفى: «لا. سأستمرّ في علاجها». اتّخذت القرار بعد ثلاثة أيّام. كانت كامي تتبرّز وتتبوّل تحتها وكانت هناك فضلات في الغرفة، بل كان حتّى في شعرها. كانت تنام على الأرضيّة، يحيط بها المحار الذي طلبته والذي تركته يتعفّن. في ذلك الصّباح، أمكنها أن تطلب «الكافيار» الذي رفضت السيّدة س. اقتناءه. طلبت سيّارة إسعاف. لم يرض الدّكتور الدّخول إلى غرفة مليئة بالقاذورات. «لم نرَ شيئاً مماثلاً في حياتنا! قالت الممرّضات. هذه ليست امرأة، إنّها روث». كانت غارقة في نصف إغماء واستسلمت دون اعتراض. كان لابدّ من قصّ روب نومها الذي التصق بجسدها لأنّها كانت مُتقرّحة. في مستشفى «لاريبوازيار» Lariboisière، قصّوا شعرها، وحَمّموها. كانت نحيلة كلاجئة ببطن منتفخة.

رحتُ إلى المستشفى في اليوم الموالي. كان المقيم مُتغيّباً. قالت لي مشرفة إنّ كامي «تحت المراقبة» بسبب السُكّري. سألتُها إن كانت ترغب في رؤيتي؛ قالت نعم، ودلّتني المُشرفة على غرفة بها ثمانية أسرّة. لم أرَ كامي. أقصيتُ مرضى كثيرين: الصّغار، العجائز ذوات الشّعر الأبيض وبقيت امرأة سمراء، ذات شعر قصير، ووجه كبير لا شكل له. اقتربت، كانت تتحدّث إلى ممرّضة، وعرفتُ صوت كامي. كانت ترتدي قميصاً نظاميّاً، ذا قماش خشن؛ كان معصمها نحيلاً جدّاً، ووجهها متورّماً. اعتذرت عن قصّة شعرها: «قصّوا شعري، ولم أجد القوّة كي أمشّطه». سألتُها إن كانوا يعاملونها بلياقة: «إنّه السّجن. إنّهم لا يقدّمون إليَّ ما أريد. – ماذا تريدين؟ – حليباً، إنّه الأمر الوحيد الذي ينفعني. ثمّ إنّ الممرّضات قاسيات: يدعينني بالزبل. – كيف يعقل؟ – أوه! لا أدب لهنّ»، أجابت بكثير من عزّة النّفس. قالت أيضاً إنّ يديها تتقلّص أحياناً وأنّها حين تمسك كأساً، فإنّها تعجز عن أن تمدّها إلى الممرّضة: فتنهرها. اقترحتُ عليها الانتقال إلى مصحّة. فكّرتْ: «لا. أفضّل البقاء هنا»، قالت. سألتُها إن كانت تنامُ: «أنام طوال الوقت. أنا في غيبوبة». كانت تريد من الحاجبة أن

تحمل إليها أغطية وجوارب «ليست باهظة، من سوق سان-بيير». لم تكن تشكو من كونها انتُزِعَت من غرفتها. لم تكن تبدو واعية بأنّها في خطر.

تلقّيتُ عنها أخباراً بعد أيّام من طرف الحاجبة التي ذهبت لزيارتها والقيام ببعض المُشتريات لفائدتها: كان وضعُها مُستقرّاً. ثمّ ليلة 11 إلى 12 ديسمبر رنّ الهاتف الرّابعة صباحاً. كان مُستشفى «لاريبوازيار»: كامي ماتت للتوّ. صباح الـ 11، طلبت قارورة نبيذ «بورغونْيْ»، ولم يُلبّ طلبها. في اللّيل اختنقت. مارسوا التنفّس الاصطناعي لكن عبثاً. دُفنت بعد أربعة أيّام. لم نكن سوى خمسة حول قبرها: منفّذ وصيّة دولان، سكرتير أصدقاء دولان، السيّدة س.، سارتر وأنا. كانت عينا السيّدة س. وحدها مُحمرّتين.

نظّفت الشقّة: أنزلت من الغرفة 450 قارورة. وجدت تحت الحاشية المُتعفّنة بالكامل، بدلتا مسرح رائعتين، متعفّنتين هما أيضاً. جميع ذكريات دولان الأخرى اشترتها مكتبة أرسنال.

أعطتني أوراق كامي: كانت قليلة. لا أثر للعمل، ولا حتّى ورقة مُسودّة: لم يدهشني ذلك. لكن ماذا بشأن رسائل سارتر القديمة؟ لم يبقَ منها سوى عدد قليل. وأين هي رسائل دولان؟ وجدتُ بعض الرّسائل من أناس لا أعرفهم ومُسودّات أجوبة كامي. كانت ترفض عروض اللّقاء التي يقدّمها بعضهم في رسائلهم متحجّجة بـ «عقوبتها الرّوحانيّة الغامضة». كانت تتحدّث عن عملها الفنّي وعن كتابها الضّخم عن دولان. ليلة موتها جاءت رسالة: بيع منزل فيرول المرهون لمزارعين في القرية.

تركت كامي دفتر مذكّرات. كانت مجموعة أوراق غريبة منفصلة، بنفسجيّة وشفّافة، في أحجام مُختلفة ومُغطّاة بعناوين ذات خطّ عريض وغير منتظم؛ كان الحبر أخضر وبنفسجيّاً وأحمر. شطب يجعل قراءة النصّ متعذّرة تقريباً. كتبت تلك الملاحظات من سنة 1960 إلى غاية موتها. من معتقد الشّيطان، مرّت كامي بعدد من رجال الدّين المُنتَقين بعناية: عبّرت عن أسفها لأنّ النّاس لا يولون اهتماماً لمجتمع القُدّاس ولأنّ عيد الموتى أهملَ عيد الشُّكر. في أعلى كلّ صفحة، كانت تشير إلى تاريخ اليوم واسم القدّيس الذي نذرت له

يومها. كتبت بأحرف كبيرة: ابتهال، وأشارت إن كان رديئاً أم جيّداً. إضافة إلى القُدّاس، كانت تذكر الأب والمسيح، ملتمسة حمايتهما. كانت تُكثر من الحديث عن «التجلّي». كانت تكتب: «سيُسعد ذلك أمّي كثيراً». كانت تشعر بأنّها «مُلهَمة»، و«متورطة» من طرف قوّة في أعماقها تأمُرها بالنّزول إلى البقالة قبل أن تُغلق بثوان، أو أن تخرج إلى المطعم فتجد دجاجة خرجت للتوّ من الفرن. فاهتماماتها كانت في مُجملها غذائيّة وصحيّة. كانت تُدوّن وجباتها والمياه المعدنيّة التي شربتها، المُخدّر الذي تعاطته ومقدار النّوم وجودته. تحدّثت مرّتَيْن أو ثلاث مرّات عن القراءة: والتر سكوت، ميشلي؛ وعن الموسيقى: برليوز وقد سمعته في الرّاديو. لم تُلمّح تقريباً إلى مبالغتها في الشّراب: حدث أن عرّجت على فترة «مغامرة» أو فترة «مُظلمة». كانت بين الحين والحين تنتبه إلى القذارة التي تعيش فيها. سنة 1964 تحدّثت عن تنظيف «منضدة السّرير». في يوم آخر، قرّرت أن تعهد بحاوية النّفايات للحاجبة كي تُفرغها. محتوى الحاوية كان يُنبئ بأنّها مرّت بفترة «ظلام». إفراغها، كان يُشعرها بأنّها تلقّت نوعاً من «الغفران».

لم أنتظر أن تكون أوراقها طفوليّة بهذا الشّكل. ما زلتُ مندهشة. هذا الفراغ الذي اكتشفناه لدى كامي عندما قرأنا كتاباتها كان يلفّها بالكامل: الكحول، والوحدة التي انتهت بتدميرها، لقد سقطت في الإفلاس. لكن كيف السّبيل لتفسير هذا الضّعف الجوهري؟ بالتّأكيد، وحدها طفولتها القادرة على ذلك. لقد روتها على نحو أسطوريّ، لكنّنا نجهل الحقيقة. من دون هذا المفتاح النّفيس، ستظلّ حياة كامي، وسنوات غرقها الأخيرة لغزاً بالنّسبة إليَّ.

منذ موت «بورلا» Bourla، لم تعد ليز قادرة على العيش في فرنسا. قرّرت الزّواج من رجل جذّاب (ج.إ). كان مخرجاً مُساعداً في هوليوود. لم يكن يرغب في الزّواج، لكنّها اكتشفت حملها واستطاعت إقناعه بالقيام بترتيبات التحاقها بالولايات المُتّحدة. التحقت به وأنجبت ابنتها سنة 46. عندما حللتُ ضيفة عليهم في كاليفورنيا سنة 1947، لاحظتُ أنّ الأمور لا تسير على ما

يُرام. كان وضعهما الماديّ سيّئاً: كانت تتحجّج بذلك لتسرق من المحلّات الكُبرى، الأمر الذي كان يُغضب زوجها. كان الاعتناء بالبيت وبالرّضيع يُنهكها. قرّرت إهمال نفسها: كانت في المنزل ترفل في خرق بالية. لقد حافظت على طبعها المُستفزّ في هوليوود كما كانت في باريس. عندما كان «جاك» يصحبها إلى حفلة كانت تتعمّد ارتداء ملابس كما اتّفق، أحذية كبيرة أو صنادل مشي. كانت تهاجم منتجين لهم صيت، ومُخرجين مشهورين: كانت تنقدهم، تعارضهم أو تسخر منهم. في البوفيه كانت تسرق شرائح اللّحم والسندويشات فتملأ حقيبتها؛ فُتِحت الحقيبة مرّة: ضحكت كثيراً، فيما ظلّ جاك واجماً. يحدث أيضاً أن تسطو على قلم، ساعة، مشبك. عبثاً حاول جاك إقناعها بالإحجام عن السّرقة. كان دائماً يتعامل بلباقة معها. كان على أدب عالٍ، لكن أحياناً كان يسيطر عليه انزعاجه فيخرج عن طوره. كانت تتّهمه بالانحناء بكثير من التّنازل إلى رذيلة هوليوود مُصدّقاً أنّها جادّة. كان لديها اندفاع عاطفيّ صاخب؛ كانت تمسك بذراع جاك وتحمله في الهواء، قائلة إنّها تعشقه. لكن من أجل نعم أو لا، يتحوّل صوتُها إلى تذمّر لا يُطاق، كانت تعربد وتنكّد وتردّ بقسوة. كانت تنتقل إلى الأفعال. في رسالة تلقّيتُها لدى عودتي إلى فرنسا، روت لي أنّ جاك عاد متأخّراً أكثر من العادة، وبأنّها دلقت دلو ماء فوق رأسه؛ قالت إنّها نادمة على حركتها غير «الروتينية».

لم أفاجأ، إذن، عندما علمتُ سنة 1949 أنّ علاقتهما قد فسدت بالكامل: «سأكتُب لك رسالة حزينة حقّاً. يطول الحديث عن أسباب يأسي. أظنّ، في كلمات، أنّ علاقتي بجاك تحتضر... أنا بائسة، وأتألّم لمجرّد الفكرة... قال إنّه كان مُكرهاً على الزّواج بي، وأنّه لم يشأ أن يرفض لي ذلك الطّلب لأنّه يُحبّني وأنّه تمنّى من كلّ قلبه ألاّ يحدث ذلك... كانت حياتنا منذ البدء فاسدة بسبب المال... كنتُ دائماً أشعر بالإهمال من قبَلِ جاك.

«عشتُ فترة صعبة بعد رحيلك. لقد ضاق العالم وساد الفراغ، كان الرّضيع في سنّ لا تُحتَمَل، وكانت سعادتي الوحيدة أن أرى جاك في المساء وأحبّه. تنتابني أحياناً نوباتُ يأس... كانت تتّخذ شكل المرارة، حقداً ناحية

جاك الذي كان ينفجر بسبب أشياء تافهة... يؤاخذني جاك لأنّي عجوز سليطة لكنّه لم يُساعدني يوماً بحبّ على ألاّ أكون كذلك..».

كانت ليز تُخمّن أنّ أحداً لم يكن يُساعدها وأنّ أحداً لم يُعطها كفاية؛ وحدها بورلا استُثنِيت من اللّوم: لكن ما الذي كان سيحصل لو أنّ علاقتهما استمرّت؟

مع جاك، لم تكن الأشياء تُسوّى على أيّ حال. كتبت لي في أكتوبر: «إنّه ماضٍ ميّت، اختيار للأجدى، علاج ضدّ الوحدة المُطلقة في هذا البلد. لقد مرّ جاك بفترة مُضنية. عبّر لي عن كرهه الشّديد لي، إلى أيّ درجة لا يُطاق العيش معي. «أنا مُضطرٌّ للعيش معكِ، ليس عليَّ فوق ذلك أن أحبّكِ». (وردت العبارة بالإنجليزيّة). سيّان الآن، إن كنتُ سأخسر جاك أو أحتفظ به».

قرّرت متابعة دروس جامعيّة. كانت موهوبة جدّاً فكريّاً، نجحت فوراً وبامتياز. كان الجوّ الجامعي بالنّسبة إليها أكثر لطفاً من عالم السّينما. كانت مُعجَبَة بمِثليّيْن جنسيّيْن، ويلي، أستاذ إنجليزيّة وبرنارد طالب شاب. كانت تريد مشاركتهما حياتهما، تعقّبتهما وتجسّست عليهما. نجحت يوماً في الاختباء في دولاب ملابس في غرفتهما لتحضر ليلة من لياليهما. أضحكهما ذاك وأصبح ولي خصوصاً صديقاً لها. تركت جاك أيّاماً لتعيش تحت سقفهما. في رسائلها كانت تحدّثني مطوّلاً عن ويلي بحرارة.

كانت تتلقّى دروساً بنظام عشر ساعات في الأسبوع وابتداء من سنة 1950، درّست الفرنسيّة في الجامعة عشر ساعات في الأسبوع. قامت بصداقات، لم يُحبّ جاك أصدقاءها بنفس القدر الذي لم تكن فيه تحبّ أصدقاءه. عادت للعيش معه، لكنّها لم تكن على يقين من أنّ علاقتهما ستدوم طويلاً. كانت تصرّفاتها متناقضة إزاء ابنتها. في بداية رسالتها تحدّثت بحماس عن سحرها؛ كانت مُشفقة على الصّديقات اللاّتي لم يعرفن الأمومة. في الصّفحة الأخيرة، وصفت لي بشراسة التّعب والهموم التي تُخلّفها تربية طفل؛ اتّهمت جاك بأنّه يُرهبها. أمّا ويلي، فقد كان سرورها يتحوّل أحياناً إلى حدّة: لقد خيّبها. كانت ترغب في ممارسة الحبّ معه، لا لرغبة جسديّة لكن كي يكون لها عليه

سلطة. فسّرت له أنّ المِثليّة ليست أمراً وجوديّاً وأنّ في وسعه البرهنة على حرّيته بممارسة الحبّ مع امرأة. لم تُقنعه. غضبت لذلك، صرخت في وجهه ووصل بها الأمر إلى ضربه.

تحدّثنا عن هذه المشاكل، عندما رأيتُها في بيت «ألغرين» Algren، صيف 1950. هوّة حالت بينها وبين جاك. غادرته في نوفمبر. «لقد عشتُ أسوأ أسابيع حياتي على الإطلاق، لو استثنينا تلك التي تلت القبض على بورلا... قطعتُ علاقتي بجاك، بإرادتي بعد أسبوعيْن قضيتُهما معه بعد عودتي من لوس أنجلوس. قرّرتُ العيش بمفردي. أجّرتُ شقّة صغيرة فظيعة. حسناً! لوس أنجلوس حزينة جدّاً. ارتبك ويلي، ظنّ أنّي قطعتُ علاقتي بجاك لأجله فقطع فوراً علاقته بي... في المساء، كنتُ أصرّ أسناني من اليأس، وأنتظر حتّى تمرّ موجة القلق. كان جاك يزورني من وقت إلى آخر، لكن كان ذلك أبشع بكثير ممّا لو لم أره البتّة».

كان جاك يمنحها القليل من المال، لكنّه لم يكن يملك شيئاً. عاد ويلي لرؤيتها، إنّما ليشكو إليها كم كان برنارد يقسو عليه. كانت تشعر بمرارة الحياة فعلاً. ربطت علاقة بصديق آخر، «برتي» Bertie، الفيزيائي الذي أعجبها كثيراً: لكنّه لم يرغب في دخول مغامرة غراميّة معها. كانت جذّابة بالنّسبة إليه، لكنّها تُخيفه. كانت تعرف الأسباب. كتبت لي بصراحة آنذاك: «امتلكتُ تقنية أخرى للتّعامل مع النّاس؛ لن أكسر نظّاراتهم؛ لن أهدّدهم باللّكم. تظلّ السُّخرية أكثر تهذيباً».

مع ذلك، وبفضل برتي، أحسّت بأنّها أقلّ تعاسة. كتبت قصّة رائعة بالإنجليزيّة - لم تنجح في نشرها - حول علاقتها بابنتها. لكنّها اضطربت عندما أعلن جاك عن رغبته في الطّلاق: «لقد تقوقعتُ داخل نفسي، لم أعد أنجح في التّواصل مع أحد. كما لو أنّي، من ناحية، اكتشفتُ أنّي لم أعد قادرة على أن أحبّ شخصاً، ومن ناحية أخرى كما لو كنتُ فعلاً لا أرغب في ذلك. أنا خائفة من أن أخسر نفسي. يجب أن يكون هذا ردّة فعل جرّاء فشل قصّتي مع جاك، أو ربّما أعمق من ذلك بكثير... ولأسباب لا تُصدّق، طلب منّي جاك

الشّروع في القيام بالإجراءات، أحسستُ بوحدة قاتلة وكدتُ أنهار. لم يكن لما فعلتُه معنى قط. بدت لي السّنوات الثّلاث الماضية خسارة عابثة للوقت، إذ لن يكون من الممكن أن يمنحني كوني أستاذة فرنسيّة الرّضا المطلوب وأنا لا أملك زوجاً إلى جانبي».

كي تكسب حياتها، كان عليها المثابرة في العمل: «في روضة أطفال في الصّباح، بعد الظّهر تقدّم دروسها في الجامعة إضافة إلى دروس خصوصيّة؛ عند المساء ويوم الأحد، أجدني متوتّرة في صيدليّة. أعمل حوالي خمس وخمسين ساعة في الأسبوع لأصل بالكاد إلى تلبية حاجاتي الضّروريّة. عندما يكون لديّ وقت شاغر، فإنّي أعتني بطفلَيْ جارتي لأنّها تهتمّ بـ «ماري» لدى غيابي. لو دام هذا، فأظنّ أنّي سأجنّ في الآخر».

لن يدوم ذلك بفضل برتي. دفعها حبّها لـ «ليز» إلى التوجّس. «أنا من عليه أن يُقاضِيَ برتي، كتبت لي ليز، لكن أظنّه سعيداً، مهما اعترف بأنّه مرعوب من فكرة ابتلاعِه حيّاً. لكنّه يثق بي كثيراً ويعتقد أنّي سأصبح كاتبة عظيمة. وأنا أظنّ أنّه سيصبح فيزيائيّاً كبيراً. هذا يعني أنّ كلّ شيء يسير على ما يُرام في عالم مثاليّ». بعد ذلك استقرّت في بيته. لدى عودتها من باريس صيف 1954، كتبتْ لي أنّ برتي اقتنى منزلاً رائعاً، في قلب الرّيف، أعلى تلّة تكسوها حديقة. بدت سعيدة جدّاً. لكن بعد سنة من الصّمت تلقّيتُ منها رسالة أذهلتني:

«بدأت رُكبتاي تغادرانني. لم أعد أستطيع الوقوف وأشعر بآلام رهيبة في المفاصل. أجريتُ عمليّتيْن على الرّكبة، قصّوا اثني عشر سنتيمتراً من عظام الفَخذيْن وزرعوا العظم في السّاقين؛ وأعادوا تشكيل الرّضفتين؛ استغرقت العمليّة خمس ساعات خرجتُ بعدها في الجبس، في قالب حتّى الوركين مدّة شهرين ونصف الشهر... عندما عدتُ أخيراً إلى بيتي بقيتُ في الجبس شهراً إضافيّاً. كنتُ أنام على الأكثر ساعتيْن متتاليتيْن باستعمال المُخدّر وأستيقظ على صداع وآلام رهيبة على مستوى السّاقَيْن... بعد ساعتين على صدور مرسوم الطّلاق، تزوّجتُ من برتي، في كرسيّ متحرّك وساقاي في الجبس. الآن تعافيت، مارستُ اليوم ركوب الدرّاجة للمرّة الأولى».

شُفيَت وقرّرت استغلال حقّها في أن تصبح محامية. هل كانت سعيدة؟ جميعُ رسائلها تبدأ بحديث متحمّس عن حياتها: برتي ملاك، والحديقة رائعة. ثمّ تهاجم ماري، متّهمة إيّاها بتعكير صفو حياتها وجعلها مُستحيلة؛ كانت تنتقد وضعها: أن تتحوّل إلى خادمة أمريكيّة، ليس هذا ما حلمت به.

في علاقتها بي، كانت ممزّقة بين المودّة والضغينة. كانت رسائلها حارّة، إلّا أنّها كانت تصعد منها ملاحظات مُزعجة. عندما حُزتُ جائزة «غنكور» Goncourt، آخذتني كوني لم أنزّه نفسي عنها تاركة إيّاها لمن هم أصغر منّي سنّاً. تجاهلتُ كلامها. لكن عندما علمتُ أنّها تحمل عنّي أحكاماً سيّئة ومغلوطة، توقّفتُ عن مراسلتها. لم أعرف عن أخبارها شيئاً سنوات ما عدا كونها أنجبت ولداً. كان أصدقاؤنا المُشتركون يحملون لي عنها بعض الأخبار. كانت تُحبّ ابنها فيما أظهرت نوبات غضب واستبداداً إزاء ماري، ما جعل الصّغيرة تُصابُ بنوبات عصبيّة. طلب الاختصاصي النّفسي إبعادها عن أمّها. وافقت ليز وعُهدَ بالصّغيرة لأبيها. رأيتهما لاحقاً في باريس: بدت الطّفلة مراهقة متّزنة.

في نهاية سنة 60، التقيتُ ويلي في باريس. أخبرني أنّ ليز رغبت في طفل آخر؛ لكنّها أصيبت بحُمّى خلال الولادة فمات الطّفلُ مُختنقاً. كانت يائسة خصوصاً عندما منع عنها الأطبّاء الإنجاب. كتبت لي بعد ذلك بقليل لتُحدّثني عن موت رضيعها. أضافت: «لديّ مرض غريب في الدّم، أمر ما ينقص، البروتين، ولديّ مشاكل صحّية طوال الوقت، ما عدا ذلك، نحنُ سعداء جدّاً». أرسلت لي صورة لها ولابنها. كانت لا تزالُ تحافظ على نسبة من الجمال، لكن من دون الرقّة والقسوة اللتين تُميّزان وجهها واللتين تمنحانها جاذبيّتها: لقد تأمركوا وقسوا نوعاً ما. أجبتُ برسالة ودّ قصيرة ومن ثمّ توقّف تراسُلنا.

علمتُ بعد فترة قصيرة أنّ ليز أُصيبت بنوبة ربو. لم تكن حبوب اللّقاح تلائمها. اقتلعت النّباتات من حديقتها وغطّت التلّة بالإسمنت. في الدّاخل لم تكن تتحمّل من الموادّ سوى الخشب والحجارة: كانت الغرف عارية بشكل مُتجمّد. رصّفت عدداً مُهمّاً من الأغراض من كلّ صنف ولون: من آلات

كتابة، أقلام، أقلام رصاص، ساعات. لكنّ الرّبو تفاقم. قرّرت أنّها لا تتحمّل هواء لوس أنجلوس، المشحون بالغبار والضّباب: قبل برتي بالاستقرار معها في سان فرانسيسكو. هناك، كي لا يُعاني مايكل من الوحدة، تبنّت طفلة صغيرة. لم يعد الرّبو يزعجها كالسّابق. لكن أصبح لديها اضطرابات من عائلة الصّرع، كما يقولون، تظهر في شكل رعشة، أو صداع رهيب.

قال لي اختصاصي نفسي إنّ ربوها ورعشتها وصداعها تعود حتماً إلى عوامل نفسيّة. لقد تأثّرت بطفولتها وبظروف الاغتراب وبالصّدمة التي تركها موتُ بورلا في نفسها. أضاف انفصالها عن جاك صدمة أخرى إلى ذلك كلّه. لم يكفِ إخلاصُ برتي لتلتئم جروحها. كانت تحلم بالسّعادة وبإسعاده: لكنّ السّوء تسلّل من ناحية جسدها.

بداية أبريل 1967، تلقّيتُ من ليز برقيّة تخبرني فيها أنّها قادمة إلى باريس. طلبت منّي الاتّصال بفندق «سكريب» Scribe. فعلتُ. لم أتعرّف إلى صوتها: كان صوتاً ذكوريّاً خشناً. هل كانت الإنفلونزا؟ أبداً، أجابتني بنبرة متفاجئة. سيكون مروراً بباريس لترافق زوجها إلى موسكو حيثُ سيكون عليه حضور مؤتمر علمي. اتّفقنا على تناول الغداء في اليوم الموالي.

في الغد، حوالي السّاعة الواحدة، راقبتُ الشّارع المُقفر بقليل من التوجّس. إلى أيّ مدى قد يكون العمر والمرض غيّرا ليز؟ هل سيكون هناك مجالٌ لنتّفق حول شيء ما؟ من الغريب أن ينتظر المرء عودة الماضي في شكل مجهول. لبثتُ طويلاً أمام النّافذة: بعد طول انتظار توقّفت سيّارة تاكسي، على بعد أمتار من المبنى. نزلت امرأة؛ كانت تحملُ نظّارتَيْن ذواتي إطار حرشفيّ، تنّورة طويلة في لونٍ أزرق صارخ، جزمة عالية، سترة من قماش منشفة تغطّي ذراعيْن ضخمتيْن؛ كانت تحمل في يدها مشطاً وكانت طوال مسيرها تمسح به شعرها الأشقر المنطفئ بحركات هوس. كان هناك رجل يحمل حقيبة وآلة تصوير يقفز خلفها: كان زوجَها. صرخات تردّدت في المدخل: «كاستور! كاستور!» نادت ليز بصوتها القويّ. فتحتُ الباب. قبّلتني ضاحكة متحدّثة بتعجّب. كانت تُشبه الأربعينيّين الأمريكان الذين عصف بهم الكحول والتوتّر

والذين كنتُ قد شاهدتُ أمثلة منهم في أفلام كثيرة. كانت الجزمة والتنّورة تخفيان ساقين وركبتين متورّمتين. «تعمّدتُ الوصول متأخّرة كي أعرف ماذا ستقولين»، قالت متحدّية. ثمّ بحماس صاخب أخرجت من حقيبتها الهديّة تلو الهديّة: مشبكاً بشعاً، ساعة حائط مُستديرة تُغيّر بطّاريّتها مرّة في السّنة، علبة ملصقات، ورقاً لاصقاً فسّرت لي بجدّية مجالات استخدامه المُختلفة، سلسلة صور لساعات، كُتبت عليها أسماء رجاليّة ونسائيّة: كانت تقهقه وهي تريني إيّاها وخمّنتُ أنّ مرضها جعلها حمقاء.

«أهديتُ السّاعة لبرتي في عيد ميلاده، قالت لي... أراد الاحتفاظ بها، لكنّنا تشاجرنا: لهذا وصلنا متأخّرَيْن». منزعجة جدّاً، أردتُ أن أعيد لبرتي حاجته. يمكنه شراء أخرى من سان فرانسيسكو، قالت معترضة وأيّدها بإيماءة من رأسه. لم يكن قد فتح فمه بعدُ.

ألقت نظرة حولها: «وماذا أصبحتِ؟ ماذا تفعلين؟ – الأمر ذاته دائماً: أكتب. – لكن، لماذا؟ قالت مُشفقة. ذكرتُ لها السّبب الوحيد الذي في إمكانه أن يُسكِتَها: «لأنّ الكتابة تدرّ عليَّ المال. – آه! هكذا إذاً، هذا سبب يُسمَع» قالت مُقتنعة.

ذهبنا إلى المطعم، كان برتي يحمل حقيبة ليز، وهي تحمل المشط في يدها، طلبت حلزوناً، مُبدية شراهة صاخبة: «را–ئع!» بدت كأنّها تُشوّه المرأة التي كانت فيما مضى. كان تعبيرها يدعو إلى التّجاهل، وكانت إيماءاتها مبالغاً فيها؛ بدا كأنّ حركاتها خرجت عن سيطرتها؛ كانت تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، والعكس بحدّة.

أكلت القليل: «لا يحقّ لي أن أشرب أو أدخّن أو آكل كثيراً وبما أنّ هذا غيور جدّاً، فلن يظلّ شيء»، قالت ضاحكة، بتأنّق حوّله جسدها البشع إلى أمر صادم. من جهة أخرى، فقد تكلّمت كثيراً: تقريباً لم تتطرّق سوى إلى الحديث عن أطفالها. كانت تحبّ ابنها الصّغير وقرّرت لمصلحته ألاّ يظلّ وحيداً. في الواقع، عندما تبنّت ليلي، أصبح مايكل مجنوناً جرّاء الغيرة: بدأ يسمن، كان يُكسّر كلّ شيء، ويرمي في حاوية القمامة كلّ الأغراض التي

كانت ليز متعلّقة بها، ويحرق السّتائر. لم تنجح في كبح جماحه؛ فعهدت به إلى مدرسة عسكريّة، تلميذاً داخليّاً. «في البداية، لم يكن برتي متحمّساً لذلك. كان يقول لي: «أوه لا! لن تعيدي قصّة ماري». ثمّ بعد ذلك فهم»، ختمت مبتسمة لزوجها، الذي لم يعلّق. فكّرتُ في أنّه اختار أن يفهم أشياء كثيرة. تحدّثت بعطف عن ليلي: «طفلة، يا له من أمر رائع!» لكن سرعان ما راحت تشكو الثّمانية عشر شهراً التي قضتها منذ الصّباح حتّى المساء ملازمة للطّفلة تُعلّمها ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعلُه. حين سألتُها إن كانت قرأت كُتُباً مُهمّة، تعجّبت: «القراءة! ماذا تعتقدين! أنا لا أقرأ صحيفة! أنتِ لا تعرفين ماذا يعني أن تُربّي طفلاً!» مثل مايكل، ليلي انتقمت من فرط الاهتمام بالتّكسير وبرمي الأشياء وحرقها. «لكنّها تعقّلت الآن»، قالت لي ليز. وأرتني صورة طفلة جميلة يمكن أن يُقرأ في عينيها «زيغ الحيوان المُدرّب». ثمّ حدّثتني عن كلبتها، حيوان ضخم تُحبّه؛ قالت لي بفخر: «علّمتُها قضاء حاجتها في مكان خصّصتُه لها، مثل الكبار. استغرق الأمر مدّة طويلة لكنّي درّبتُها أخيراً». كانت هواية التّدريب هذه أمراً جديداً لدى ليز وبدا لي مُرعباً.

تحدّثت ليز طويلاً حتّى إنّي وبرتي احتسينا القهوة قبل أن تُنهيَ كريمة الفراولة خاصّتها. «سأحملها»، قالت. اعترضتُ: يمكننا المكوث مزيداً من الوقت على الطّاولة. لكنّها أصرّت على الأكل في الشّارع. من جديد، استأنفت مهزلة الطّفولة. كانت تكرّر آليّاً عاداتها القديمة كي تُخفي أثر المُخدّر الذي تحشو به جسدها. بعد ساعة أخذت تاكسي، كانت تشكو صداعاً عنيفاً. علمتُ أنّها نامت حال وصولها إلى الفندق.

لدى عودتها من موسكو كانت ترتدي فستاناً من قماشٍ رماديّ، قصيراً وبشعاً، مزخرفاً بشرابة زرقاء. «في العمق، ليس عليَّ أن أشكو، قالت لي. نجوتُ من الأسوأ: كنتُ مهدّدة بكرسيّ متحرّك». كانت سعيدة برحلتها لكنّها في الحقيقة لم ترَ شيئاً: إذ لم تغادر غرفتها تقريباً. أفرغت على الأرض كيساً بلاستيكيّاً كبيراً وأعطتني ظروفاً متأتّية من النزل في موسكو. ثمّ، وبحركات غليظة وصوت صارخ، وصفت لي الحياة التي تعيشها في سان فرانسيسكو:

كانت وحدة مُطبقة، لا روح فيها. كادت ألاّ تسافر لأنّها لم تجد من تعهد إليه بـ «ليلي»: وافقت أمّ بيرتي في الدّقيقة الأخيرة على أن تتكفّل بها أثناء غيابها. سألتني ليز قبل أن تودّعني: «بالمناسبة، لماذا تشوّشت علاقتنا؟ – بسبب أشياء قلتِها. – آه! هذا ممكن! عندما أشرب، فإنّي أقول أشياء لا معنى لها». كنتُ على علم بأنّها لا تشرب أبداً، لكنّي لم أُصرّ.

عندما عادت إلى الولايات المُتّحدة كتبت لي. وضعت رسوماً مُلوّنة وملصقات على الظّرف: كانت أشياء تهوى القيام بها فيما مضى: كانت رسالة طريفة. كانت تجهّز لآخر امتحان في الحقوق وفي ذلك الوقت كانت تدرس مسألة الوصيّة: «لو حكمنا من زاوية الوصيّة فإنّ جنس البشر جنس غريب حقّاً»، استخلصت. إن كانت قادرة على مواصلة الدّراسة، فهي إذًا، أقلّ إصابة عقليّة ممّا يبدو؛ دون شكّ، في باريس، زاد التّعبُ وعاطفيّة السّفر من تردّي حالتها.

بعد ذلك بسنة، طُرق بابي ذات صباح. لم أتعرّف للوهلة الأولى على الشابّ الذي يضع على رأسه قُبّعة مُستديرة ويحمل علبة مُكعّبة كحزام حول خصره: بدا كأنّه صيّاد. خلفه ظهرت ليز، ارتمت عليَّ بهدير اشتياق. أخرجت هدايا جميلة: ساعة معصم إلكترونيّة، قلم «پاركر» Parker، آخر صيحة، قمصاناً لسارتر. كان على بيرتي التنقّل إلى «پواتيي» لحضور مؤتمر. يقومان، عادة، بجولة في إيطاليا. ضربنا موعداً.

رأيتُ ليز ثلاث أو أربع مرّات خلال عشرة أيّام قضتها في باريس. بدت لي أقلّ انتفاخاً مقارنة بزيارتها الماضية. في الأثناء، كانت قد عانت ثماني وأربعين ساعة متواصلة من صداع شديد. كانت تفوح منها رائحة أدوية مُزعجة: كانت كلّما شعرت بالتّعب تفصّد جسدُها عرقاً وأخذت ساقاها في الارتعاش وكان عليها تناول دواء مُستحضر من الميثيل. كانت تتحرّك كثيراً أكثر من العادة. كانت تلبس بذوق رديء جدّاً. كانت تحمل طوق شعر أخضر على رأسها، فُستاناً أبيض مُنقّطاً بالأخضر ومعطف مُخمَلٍ برتقالياً. أصبحت علاقتها ببيرتي أقلّ ودّية. في بيتي، كانت تُجلسُه على ركبتيها وتُدلّكه، الأمر الذي كان

يتحمّله مُتضايقاً. لكنّها كانت تردّد في الآن نفسه، وفي حضوره، مواقفه الأكثر سوءًا والأكثر مدعاة للخجل: لم يكن يُعلّق. «ماذا فعلتُ أيضاً؟» تمتم مرّة، عندما قرّعته ليز على نحو حقود. ادّعت أنّه عاملها بسوء إلى درجة ضربها؛ ولتدافع عن نفسها تعلّمت الكاراتيه: هو أيضاً. في الشّارع حاكا القتال بفرح مُزيف أزعجني. كانت ليز وقحة أكثر ممّا مضى. عند نهاية العشاء، أخرجت من جيبها كيساً عازلاً وتظاهرت بإفراغ ما تبقّى من صحنها فيه. «أكّدت لي أنّه أمر مألوف هناك. يُقال إنّه للكلب، لكنّ النّاس لا ينخدعون». علمتُ أنّها لم تحمل سوى الفواكه. افترقنا بعد الفطور لشراء دبّ لليلي من رواق لافيات ومكانس لليز: ما يُباعُ منها في الولايات المتّحدة لا يُلائمها. ليلة قبل رحيلهما، لم يعثرا على المكانس التي تحلم بها ليز: كانت لديهما نيّة استئناف البحث صبيحة اليوم الموالي قبل موعد الطّائرة.

كانت ليز طيّبة معي على غير عادتها. زوجة الـ«الوصيّ» التي تُدير دروسها كانت تُحبّ كتُبي وتجدها مؤثّرة. هنّأتني بحرارة عن *المرأة المُحطّمة* التي قرأتها مع ليز بصوت مُرتفع. صوّرنا معاً في الشّارع. حملتني عن الأرض وأخذت تدور. قهقهت: «كاستور المسكينة، انزعجت!» تحدّثنا عن صحّتها وعن أمّها قليلاً التي أخذتها إلى الولايات المُتّحدة والتي حزنت كثيرا لأنّها لا تعرف كلمة إنجليزيّة واحدة. تعكّر مزاجهما: حسب ليز، كانت أمّها مُخطئة. ماتت بسرطان في المُستشفى دون أن يراها أحد.

من فينيسيا، أرسلت لي ليز بطاقة صغيرة كئيبة؛ لم تكن سعيدة مع بيرتي، شعرت بالملل. لم نتراسل فترة الصّيف. في أواخر شهر نوفمبر، تلقّيتُ رسالة من بيرتي: «لديَّ أمر رهيب أخبرك به». فكّرتُ: طلّقا. ثمّ قرأتُ الجملة التّالية: «ماتت ليز». أُصيبت بزكام يوم الإثنين. يوم الخميس اقترح بيرتي استدعاء ممرّضة بينما كان يقوم بجولة مع الأطفال. رفضت. أثناء العودة، دخل بيرتي غرفتها فوجدها ميّتة. لم أعرف أكثر من ذلك.

بعد شهر، تلقّيتُ علبة في الزّاوية المُخصّصة للمُرسل قرأتُ اسم ليز. بقيتُ مذهولة بغباء أمام هذه الهديّة القادمة من تحت قبر. كانت حلوى

بالغلال تُصنَع في أمريكا فترة «نويل» ويجب أن تُطلَبَ مَسبَقا. أرسلتها لي قبل مرضها بيومين.

منذ سنة 1960 و«جياكوميتي» Giacometti، ليس على ما يُرام. كانت لديه آلام رهيبة في المعدة، أدخلته في دوّامة من القلق. طمأنه الدّكتور ب.، طبيبه وصديقه، بأنّه يعاني من مجرّد التهاب في المعدة. لم يكن «جياكوميتي» أقلّ انشغالاً بهذا الخبر الجديد. كان يعمل بمثابرة أكبر من أيّ وقت مضى وأدّى جهدُه المضني إلى تداعيه: يحدُثُ أحياناً أن يُغمى عليه في ورشته. كان أقلّ مرحاً وأقلّ انفتاحاً على العالم من السّابق بسبب شعور عدم الرّضا بما أنجزه في منحوتاته، ولأنّه كان قلقاً على صحّته. لم تعد للقاءاتنا نفسُ الحرارة: بدا لنا بعيداً.

بداية سنة 1963، قال المُختصّون لـ«جياكوميتي» إنّ لديه قرحة في المعدة وإنّ عليه الخضوع إلى عمليّة. رأيناه في المصحّة، أيّاماً بعد الجراحة التي تمّت بنجاح. كان وجهه مُسترخياً؛ كان يشعر بالانعتاق وكان يتوق إلى العودة إلى العمل.

بعد فترة قصيرة، أرادت زوجته «آنيت» رؤية سارتر. كان في نظرها مشابهاً لـ«جياكوميتي» في نقاط كثيرة، وكان الرّجل الأنسب للإجابة على السّؤال الذي ما انفكّت تطرحه على نفسها: هل عليها أم لا إخباره بأنّه يُعاني سرطاناً؟ تحدّثت مع الجرّاح الذي سألها بنبرة جافّة: «هل هي مسألة مُهمّة؟ هل تريدين أن يتّخذ بعض التّرتيبات؟ - لا، أبداً. - هل أنتِ مؤمنة؟ - أبداً. - لِمَ قد تُخبرينه إذًا؟»». استولى عليه الغضب. معنويّاً، أكّد، لا شيء أسوأ بالنّسبة إلى رجلٍ يعاني السّرطان من أن يعرف حالته. لو أنّ «آنيت» أخبرته فإنّه والدّكتور ب. سيُكذّبانها. أرادت سماع رأي سارتر. «أنا أخذتُ وعداً على كاستور ألاّ تُخفِيَ عنّي شيئاً»، أجاب. بالنّسبة إليه، حين يُكرّس المرء حياته كي لا يكذب على نفسه، فإنّ من حقّه مواجهة موته وأن يستعدّ لذلك بتبصّر، ما بقي له من أيّام. المسألة، أساساً، لا تعني نطق حُكم عنيف بالموت على «جياكوميتي». لعلّهُ شُفيَ. على أيّ حال، السّرطان في مثل سنّه يتقدّم ببطء كبير.

أثناء الحوار تحدّثنا عن وضع مُختلف تماماً: زوجة پانييز. «ستموت بعد سنة»، قال الطّبيب. وافقنا پانييز على إبقاء الأمر سرّاً. لم يكن لديها ترتيبات تُجريها؛ كانت طريحة الفراش وضعيفة وضبابيّة، فلماذا نضطرّها إلى أن تعيش احتضاراً معنويّاً سنة بأسرها؟ كان دائماً لديها أمل في شفاء وشيك، حتّى انطفأت بهدوء. كان پانييز يعرف أنّه بذلك قد تصرّف لمصلحتها لكنّه تألّم من كذبه الذي باعد بينهما فيما كان كلاهما شفّافاً أمام الآخر.

كانت آنييت تعيش إحساساً مشابهاً. انتهى سارتر بإقناعها. عندما غادرتنا كانت تقريباً قد قرّرت الإفصاح.

لم تفعل فوراً. تناولنا العشاء مع «جياكوميتي» مرّتيْن أو ثلاثاً، لم يكن يشكّ في شيء. كنّا متضايقين، ولدينا تقريباً شعور مُخجل بأنّنا نعرف أمراً يخصّه فيما كان يجهله. كان مُخزياً أن نتركه يسبح في الأوهام. كانت آنييت تعيش عذاباً حقيقيّاً. بدت لنا الكوميديا التي نلعبها نوعاً من الخيانة.

سافرا إلى «ستامپا» Stampa (مقاطعة سويسريّة). ذات مساءٍ، تلقّينا مكالمة من سويسرا: «جياكوميتي» يشكر سارتر على النّصيحة التي قدّمها إلى آنييت. عرف الحقيقة. أرسل جرّاحُه رسالة إلى الطّبيب الإيطالي الذي كان يُعالجه في سويسرا. بلا مبالاة غريبة، طلب الأخير من «جياكوميتي» ترجمة الرّسالة لأنّه لم يكن يفهم الفرنسيّة جيّداً. إنّه سرطان، كتب الجرّاح، لكنّ العمليّة نجحت تماماً، ولن يشكّ المعنيّ بشيء. لم يعلّق أحد على الفور. عندما وجد «جياكوميتي» نفسه على انفراد مع آنييت، تكلّما من دون حواجز: لم يكن يعرف أنّها على علم مُسبق بمرضه، ولا إن كانت قد فهمت الرّسالة جيّداً؛ سألتْ إن كان المعنى بدا له واضحاً. انتهى بهما الأمر إلى التحدّث بصراحة وبدا «جياكوميتي» سعيداً في الهاتف. هل كان جهلُه بالأمر مُطلقاً حتّى ذلك الحين؟ ربّما لا. كانت لديه شكوك وكان يُواجهها دون أن يُسعفه أحد. الآن لم يعد وحيداً. ثمّة من الشكّ إلى اليقين، مسافة أقلّ ممّا بين الفراق والتّفاهم. لهذا شعر آنذاك بالرّاحة. عندما عاد إلى فرنسا، كانت لنا لقاءات وحوارات أكثر هدوءًا ومرحاً مقارنة بالماضي.

من جهة أخرى، تعكّرت علاقته بالدّكتور پ، لا لأنّه اختار أن يكذب عليه فحسب، بل لأنّه اعترف له بأنّه لاحظ على جهاز الأشعّة، سنوات مضت، علامات دالّة. «سكتتُ، لأنّي لم أحبَّ أن تعيش حياة مريض»، قال مُفسّراً (لاحقاً أحسَّ بالنّدم على صمته الذي ربّما يكون قد تسبّب في موت «جياكوميتي». مات بعده بقليل).

يناير سنة 1964، مرضت أمّ «جياكوميتي» وماتت. اضطرب كثيراً لذلك. لقد أحبّها من أعماقه. أحسَّ بفرح كبير، قبل سنين من موتها، يوم استبدلت صورة والده فوق سريرها بصورة له. رسم لها بورتريه رقيقاً جدّاً سنة 1958.

لم نره كثيراً في تلك السّنة. ولدهشتنا، عندما عُدنا من الاتّحاد السوفيتي في يوليو، قالت لي أولغا إنّه يعاتب سارتر بسبب مقطع في *الكلمات*، حيثُ كان هو موضوع الحديث. في حانة بمونبارناس، سمعته يقول لصديقه «لوتار»: «أنا سعيد لأنّ سارتر لن يعود قبل يوليو. سأكون قد رحلتُ آنذاك ولن أراه سوى في الخريف: سيكون لي مُتّسع من الوقت لأنسى». كان غامضاً، أضافت. حين سألته إن كان عمله يسير على ما يُرام، أجاب بحزن: «أحتاج إلى عشرة أعوام». كان من المُفترض أن يلتئم معرض في نيويورك السّنة المُقبلة سيضمّ عدداً كبيراً من أعماله الفنّية، وسألته لوتار: هل ستذهب؟ «السّنة المُقبلة؟ أظنّ إن كانت غداً»، تمتم. واستدرك: «حتّى لو كان غداً، فلن أذهب إلى نيويورك».

شرح لسارتر في أكتوبر: «لم أكن غاضباً، لكن فاقداً لكلّ اتّجاه». في *الكلمات*، روى سارتر حسب حوار دار بينه وبين «جياكوميتي»، أنّ الأخير، وقد صدمته سيّارة في ساحة إيطاليا، فكّر في لمح البرق: «أخيراً يحدث لي خطب ما». وعلّق سارتر: «أنا مُعجَبٌ بإرادة تقبّل كلّ شيء. إن كنّا نحبّ المفاجآت، يجب أن نُحبّها إلى هذه الدّرجة» إلّا أنّ المسألة كان لها اتّجاه مُختلف تماماً. كان «جياكوميتي» يستعدّ للسّفر إلى زوريخ ويأسف على فراق امرأة كان يُحبّها؛ عندما خرج من بيتها في ساحة الأهرام، وصدمته السيّارة، سُعِد في سيّارة الإسعاف التي أقلّته لأنّ الحادث سيجعله يمكث

أكثر في باريس. لو شكّل سارتر من هذه الحادثة رواية أخرى فإنّه لن يعود ما اعتاد أن يكون. «لكنّي رويتُ قصّتك»، اعترض سارتر. إن كانت ردّة فعل «جياكوميتي» مُشوّشة كما ينقلها اليوم، فبالكاد كنّا سنُسجّل عنها ملاحظة بسيطة، وفي الواقع، لن يبدو لنا ذلك سبباً يجعله يشير إلينا بذلك. بين الرّوايتيْن كانت الفجوة متأتّية منه، طبعاً، لكنّنا لم ننجح في تفسير ذلك. على أيّ حالٍ، بدا لنا غريباً أن يوليَ الموقف اهتماماً بالغاً. صحيح أنّه كان يجد صعوبة في استرجاع ماضيه. كان من طبيعته العودة بإرادته إلى طفولته ومراهقته؛ في الوقت الحالي لم يعد يرهقه الحديث عن تلك الفترات.

سنة 1965، فتحت معارض كثيرة أبوابها لعرض أعماله الفنّية، في لندن، ونيويورك وفي ضواحي كوبنهاغن. حضر المعارض الثّلاثة مع آنيت هو الذي يكره السّفر. مع ذلك - قالت لنا لاحقاً - كان القلق ينهشُه وكانت تعتريه كآبة من أتفه الأمور. أثناء قطع الأطلسي، عندما دخلت حجرته صباحاً، وجدته جالساً على سريره ونظراته مُتسمّرة. «ابقَيْ إن أردتِ، لكن الزمي الصّمت»، قال لها: لا يبدُر عنه ذلك عادة. ظلّ يُفكّر طويلاً. في صُوره بنيويورك، بدا أكبر سنّاً وأصبحت ملامحه قاسية. ليس من قبيل الصّدفة أنّ في تماثيله النّصفيّة لصديقه «لوتار»، ما يثير الخوف: لقد عكس في العيون المرتاعة شروده الخاصّ.

في الخريف، نصحه طبيبه بتمديد عطلته السّنويّة، لمّا لاحظ أنّ قلبه بات مُتعباً منذ العمليّة الجراحيّة التي أجراها في مصحّة بسويسرا. ذهب وحده. أخبروا آنيت بواسطة تلغرام: أُصيبت رئتاه، إنّ حالته تسوء. وجدته مُتغيّراً. كما لو أنّ جسده كفّ عن المقاومة منذ لزم الفراش. هل فهم أنّ نهايته باتت وشيكة؟ كان يكتُب التّقارير: «لقد نجحتُ في مُنجَزي»، تمتم. طمأن هذا الكلام أصدقاءه الذين اعتادوا رؤيته مُتشكّكاً في نفسه. لبث يوميْن تحت نصف غيبوبة قبل أن يلفظ نفسه الأخير، غرّة يناير 1966.

لم أكن حزينة تماماً. لقد فقدناه برمّته، مغموراً بهوسه وذكرياته. لقد أصاب كلّ المجد الذي تمنّاه لنفسه. وخُيِّلَ إليَّ أنّ مُنجَزَه قد اكتمل. وربّما

بدا ما كان يتوق إلى تحقيقه متناقضاً: الإبقاء في الوجه البشري على ملامحه العامّة مع إضفاء التّجريد منتزعاً منه كلّ خصوصيّة.

سنة 1968، عُرِضَت أعمالُه في معرض كبير في متحف «دفيئة البرتقال» L'Orangerie. في المدخل كُتب بخطّ كبير اسمُه وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته. تأمّلتها بنوع من عدم التّصديق. لقد سقط في التّاريخ، مُحنَّطاً، بعيداً كـ «دوناتِلّو»: ألفيْتُ حياتي ملقاة في أعماق الأزمنة. لم تكن القاعات مُرتّبة كما ينبغي: تلوح أوّلاً أعمالُه في فترة نُضجه الفنّي؛ ثمّ نعود إلى فترة السُّرياليّة ثمّ إلى النُّضج. حسب رأيي، لقد تطوّرت رسوماته وصُورُه وتحسّنت على مدى السّنين. أمّا النّحت، فالحقبة الأكبر هي تلك التي عمل فيها بعد الحرب، من 1945 إلى 1952. ثمّ تلت ذلك نجاحات، لكن عموماً لم يُفضِ بحثُه إلى شيء. آخر تمثال نصفيّ أنجزه لصديقه «لوتار»، كان عملاً قويّاً بشكل رائع. كان الجمهور مرتبكاً: دون شكّ لأنّ «جياكوميتي» لم يبدُ له عصريّاً تماماً ولا تقليديّاً كي يُبهر. من جهة أخرى، كان زُوّارُ منظّمة «مايت» Maeght، في «سان-بول-دي-فانس» مُعجبين مُفعمين بالحفاوة. تماثيل الرّجال بدت في هذا الجوّ أكثر رونقاً. ثمّة الآن منحوتات ولوحات عديدة لـ «جياكوميتي» في معارض مُختلفة، ومازال إلى اليوم ينتابُني شعور بالصّدمة كلّما لاحت لي إحداها.

منذُ انفجرت عُبُوّة بلاستيك تحت سقيفة عمارته، غادرت السيّدة «مانسي» البيت؛ لم تعد تسكُنها، عندما اجتاحها انفجارٌ ثان. استقرّت في نزل شارع «راسپاي». لم يشقّ عليها تغيير مسكنها. كان لها في شارع «بونابارت» ستّة طوابق عليها صعودها، ومع أنّ هناك من يُساعدها فإنّ أعمال البيت كانت مُضنية بالنّسبة إليها. لقد خلّصها الفندق من العبوديّة. أمكنها أن تحيط نفسها بأثاثها الحميم وتحفها وكُتبها المُفضّلة. كانت تجد السّلوى بصحبة الخادمات. لم يعد سارتر يعيش معها، إلّا أنّه عثر على شقّة قريبة منها وكان يراها بانتظام. أمضت ثلاث أو أربع سنوات سعيدة. كانت تستقبل الضّيوف

وتقرأ وتشاهد التّلفزيون وخصوصاً، كانت تستمع إلى الموسيقى. تمنّت أن تصير مُغنية، فقد كانت تنحدر من عائلة موسيقيّة وكانت تعزف البيانو جيّداً ولديها صوتٌ جميل؛ أمّا الرّسم فلم يكن يروقها ولم تكن تقرأ سوى مؤلّفات سهلة، كانت تُحبّ الموسيقى بشغف؛ لم تكن الموسيقى العصريّة تُرعبها فعندها استمعتُ إلى الـ «ووزيك» *wozzeck de Berg*. حين يكون الطّقسُ جميلاً، كانت تتنزّه في الحيّ أو تستقلّ تاكسي إلى حديقة «تويلري» Tuillerie. مساءً، عندما تخلد إلى النّوم كانت تُناجي نفسها برواية مغامرات الصّبا والشّباب: «أنا لا أسأم أبداً»، كانت تقول. كانت جميلة، مُعتنية بنفسها، مُرتدية الأزرق الدّاكن تقريباً، مع لمسة بياض؛ كعبَيْن عاليَيْن يُظهران جمال ساقيْها. كان قوامها ممشوقاً وأنيقاً حتّى سنّ الثّمانين، ولمّا كانت قبّعة تُغطّي دائماً شعرها الأبيض فيحدث مراراً أن يسير أحدهم خلفها في الطّريق.

كانت وهي طفلة، مُضطهدة من قِبَل السيّدة «شفاتزير» Schweitzer، التي أصبحت سيّدة مُسنّة جذّابة، لكن أمّاً مُتسلّطة وأنانيّة: كانت تبدو الطّفلة آن ماري شاردة في الصُّور. تزوّجت غير سعيدة، ثمّ ترمّلت وعادت للعيش تحت سقف والِدَيْها، كانت تستعدّ لدخول مناظرة متفقّد شغل؛ كانت لديها رغبة مُلحّة في الاستقلال؛ لكنّها ظنّت أنّها أحسنت عملاً لفائدة ابنها بقبول الزّواج من مهندس ظلّ طويلاً يطلب منها ذلك. حتّى ذاك الارتباط تمّ دون سعادة: «تزوّجتُ مرّتيْن وصرتُ أمّاً ومازلتُ عذراء إلى الآن»، قالت في أيّامها الماضية. وبما أنّه كان مُتغطرساً وقاسياً مع الآخرين كما مع نفسه، مُجسّداً بإخلاص قيم البورجوازيّة، فإنّ العمّ «جو» كان مثاليّاً لتربية ابن زوجته: لكنّ الأخير لم يكن يشاطره أيّاً من أفكاره وعندما كبُرَ حدثت بينهما مشاحنات متكرّرة. بعد قراءته لـ: *طفولة قائد*، أرسل إلى سارتر نسخته من *الجدار*. لم يجمع بيننا أيُّ لقاء. كانت السيّدة مانسي مُذعنة وممتلئة عرفاناً لأنّه قبِلَ الاهتمام بها وبابنها، وكانت تمنحه ثقتها وتراه على صواب دائماً. كانت تشعر بالحسرة على الحميميّة الرّقيقة التي عرفتها مع ابنها فيما مضى؛ أرادت أن تظلّ قريبة منه. مرّات عديدة، دعتنا إلى صالونات الشّاي دون إخبار زوجها. رأيتُها

بمفردي خلال الحرب. لكن فقط خلال السّنوات الأخيرة شعرت كلانا تجاه الأخرى بالتّعاطف والودّ. كانت تؤنبني على نمط عيشي. كنتُ أقلّ تضايقاً من أحكامها المُسبقة مقارنة بلينها المُتكلّف. كانت تتكلّم مُستخدمة جُملاً قصيرة مبتورة، مبالغة من استعمال كلمة «صغيرة»، كي تلطّف المعاني فيما تقول. مثلاً، في صالونات الشّاي، كانت تسأل النّادلة: «أين الحمّام الصّغير؟» كانت نبرتها دائماً نبرة شكوى. تقول إنّها فريسة آلام صغيرة ولم تكن قط تعترف بمتعة. كان الوجود بالنّسبة إليها حزمة واجبات مُملّة. لم تكن تجرؤ على إبداء رأيها في أيّ موضوع: كان زوجها لا يزالُ يتحكّم في أفكارها حتّى في غيابه.

لكنّي مُعجبة بتكتّمها عندما مات الأخير بسكتة قلبيّة. كان سارتر في أمريكا. لم تعلمه السيّدة مانسي بالخبر: لم ترغب في أن تقطع سفره. كانت تريد العيش معه ولدى عودته وافق. عثر على بيت في ساحة سان جرمان دي پري. وضعت مكتب سارتر في أجمل غرفة، تاركة لنفسها الصّالون وحجرة صغيرة حيثُ تنام. كانت «إيجيني» العجوز الألزاسيّة التي تُساعدها في العناية بالبيت تنام في غرفة بالعمق. «إنّه زواجي الثّالث»، قالت السيّدة مانسي بمرح.

لكنّ تلك المُعايشة منحتها سعادة أقلّ ممّا توقّعت. كانت متأثّرة بآراء زوجها، التي غالباً لم يكن ابنُها يقبلها، ما أدّى إلى اختلاف لم يقف عنده لكنّه ضايقها. عندما كان يعترض عليها صدفة، كانت تغضب بحدّة لكن فترة وجيزة، لأنّها كانت «حساءً بالحليب». وكانت هي من يبادر بمهاجمته. كانت ترى الحياة الأدبيّة بنظرة أكثر رُقيّاً منّا: كانت تحلم بحفلات تترأّسها. كانت تفضّل لو أنّه بحث لنفسه عن الألقاب والدّعاية. كانت هي من وقّعت ورقة تطلب له فيها حزمة من التّشريفات سنة 1945. استقبلت يوماً شاباً يقول إنّه أمريكي؛ كانت أخته الطّالبة في معهد أمريكي تراه مُقدّساً وكانت تتقاسم ذلك مع زملائها: وعد بأن يعود إليهم بصورة عن مثلهم الأعلى. فخورة، أعطته السيّدة مانسي صوراً لسارتر رضيعاً، طفلاً، مراهقاً: صدرت الصّور في الصّفحة الأخيرة من صحيفة *السّبت مساءً*، يرافقها مقال سامّ. دعتنا في ذلك المساء باكية بسبب ندمها على

هفوتها. واساها سارتر. لكنّه طلب منها قطع كلّ صلة مع الصّحافة، إذ كان يحدث كثيراً أن تُسهب في الكلام. ونتيجة لوعيها بعدم تكتّمها فقد آخذت سارتر على لومه الذي لم يوجّهه إليها إلّا عن طريق الصّمت.

كانت مُخلصة لابنها كما كان حالها مع زوجها، لذا فقد تمسّكت دائماً بكونها لعبت دوراً في مساعدته. كانت حريصة على رفاهيّته المادّية لكن ودّت أيضاً لو أنّه أخذ بنصائحها. ولأنّها كانت تحترم الرّتب والنّظام والقيم المعروفة فإنّ سلوكه كان مصدر قلق بالنّسبة إليها. كانت، وككلّ النساء «الحازمات» فقد كانت تعيش في قلق دائم. كانت تحزن كلّما هوجم سارتر في الصّحافة. وكانت تفزع حين يكون عليه القيام بمؤتمر صحفيّ أو تكون لديه مسرحيّة. عادة ما تكون البروفة متوتّرة، كانت تصلها الأصداء، فينهشها الضّيق. كانت تخشى من أن يزعج سارتر مدير المسرح والمخرج والجمهور. مساء العرض الأوّل، كانت تعيش عذاباً حقيقيّاً لو أنّها سمعت نقداً أو أنّ التّصفيق بدا لها فاتراً. في فترات أخرى كانت تسألنا إن كانت الأمور قد جرت على أحسن ما يُرام. كنّا نجيب دائماً نعم، وكان الأمر كذلك فعلاً. كانت تتّهمنا بـ «القيام بحماقات»؛ كانت تستجوب هذا وذاك. كانت مواقف سارتر السيّاسية على وجه الخصوص تبدو لها مؤسفة وخطيرة. تفاقم سوء التّفاهم والتوتّر مع مرور الوقت، ثم زالا. انتهى بها الأمر إلى الإعجاب باختيارات ابنها. لم يكن ذلك بدافع إذعان: لقد تمرّدت على الأحكام المُسبقة التي لقّنها إيّاها شبابها وضدّ الأفكار التي فرضها عليها زوجُها وقرّرت أن تنتقم من كلّ الذين أرهبوها. سنة 62، أحسّت بالتحرّر التام: «الآن فقط، في سنّ الرّابعة والثّمانين، عُتِقتُ من أمّي»، قالت لنا. كانت تخشى الخوض في الشّأن السياسيّ، لكنّها أظهرت انحيازاً مع ابنها في قضيّة الجزائر. ساندت الانفجارَيْن في عمارتها والأضرار التي لحقت بها شخصيّاً.

سُرَّت كثيراً بصدور *الكلمات*. صدمها وصف ابنها للسيّد «شفتزر» ولم تتعرّف على الطّفل الذي كانت تمشّط شعره بيديْها. «لم يفهم شيئاً من طفولته»، قالت لإحدى صديقاتها. لكن لامست قلبها الطّريقة التي وصفها

بها وبذكره لماضيهما المُشترك. وتوقّعت في المقابل أنّ وصفه لزوج أمّه لن يكون حسناً في كتابه المُقبل. لم يكتبه: فكّرت أنّه سيفعل بعد موته. تعرف جيّداً أنّ زواجها الثّاني قد كسر شيئاً ما بينهما؛ أحياناً كانت تفسّر لي دوافع إقدامها على ذلك؛ طمأنتُها بأنّ سارتر يتفهّم اختيارها، ظلّت قلقة.

انشغلت بشيء جديد: كي تُكمّل *الكلمات* قرّرت رواية قصّتها الخاصّة وطفولة سارتر كما عاشتها. حبّرت صفحات على مدى أشهر: «غريب، اعتقدتُ أنّنا عائلة متّحدة، قالت لنا. أرانا نجتمع مساءً حول لمبة، والِدَاي، إخوتي وأنا. لكنّني اكتشفتُ أنّنا لم نكن نتحدّث. كان كلّ منّا وحيداً».

كانت يائسة طوال الوقت تقريباً. تراكمت مشاكلها الصحّية مع تقدّمها في السنّ: الروماتيزم، الصّداع، ضغط الدّم وأصبح قلبها ضعيفاً. فيما كانت قديماً تشكو صارت تتجنّب ذلك الآن. اعترفت لسارتر ذات مرّة: «إن كان لابدّ أن أتألّم طوال الوقت كما تألّمتُ بالأمس، فأنا أفضّل الموت حالاً». بكت من شدّة الألم. باتت حياتها فقيرة. منعها الطّبيب من الخروج في الطّقس القاسي؛ حتّى حين يكون الطّقسُ جميلاً، كانت تنتابها هواجس السّقوط مغشيّاً عليها في الطّريق؛ كانت ترفض أن يرافقها أحدهم في نزهاتها: بدافع كبرياء وخوفاً من الآخرين، لم تكن ترغب في أن تثقل كاهل أحد. لزمت غرفتها إذًا. القراءة ومشاهدة التّلفزيون ترهقان نظرها وتسبّبان لها آلاماً في الرّأس. تُحرّك الموسيقى في داخلها مشاعر تُتعب قلبها العليل: أوشكت على الأزمة مرّات عديدة. كانت مرحة حين نراها. بمناسبة «نويل» ورأس السّنة، كانت تشرب الشّمبانيا معنا وتضحك من الأعماق. لكن عندما قرأت *سنّ التكتّم*، مُلمّحة للشّيخوخة السّعيدة لوالدة البطلة، قالت لي: «لستُ مثلها أبداً: لا أرى أنّ الشّيخوخة أمر ينطوي على بهجة». كانت دائمة التّفكير في الموت. وزّعت في مُحيطها بعضاً من جواهرها وتُحفها: «أحبّذ تقديمها وأنا على قيد الحياة»، قالت. لم تكن تقبله، فقد مثّل ابنُها سبباً لحياتها، لكنّها لم تكن تخافه.

سنة 1968، تكرّر إغماؤها بشكل متواتر: يحدث أن تسقط في غرفتها.

تابعها طبيب القلب عن قرب، الدّكتور م.، فضلا عن طبيب في الحيّ. كانا يقاومان ضغطها المرتفع ويُحاولان، دون جدوى، التّخفيف من آلامها.

احتسينا الشّمبانيا معها، يوم 25 ديسمبر. يوم الخميس 2 يناير، عندما ذهبتُ لرؤيتها قالت لي إنّها مرضت البارحة واللّيلة التي قبلها؛ تقيّأت. يوم الجمعة مساءً، كنتُ أعمل في بيت سارتر حين رنّ الهاتف؛ كان دكتور الفُندُق: لقد تعكّرت حالة السيّدة مانسي كثيراً. أسرع سارتر. اتّصل بسيّارة إسعاف: أُصيبت السيّدة مانسي بذبحة قلبيّة وهي تعاني كثيراً. نصحها طبيب الفُندق بالذّهاب إلى مستشفى «فرناند ويدال» في صورة تعرّضها لمكروه، حيثُ سيعتني بها خصّيصاً. كان متغيّباً عن باريس لكنّهم بذلوا جهوداً قيّمة فهدأت. عندما زارها سارتر في اليوم الموالي، كانت سعيدة لأنّها لا تتألّم، يقظة ومتحمّسة للغاية، دون شكّ تحت تأثير مُستحضر ما.

صُدمتُ لمّا دخلتُ غرفتها يوم الأحد: لم يكن طاقم أسنانها موجوداً، ولم يكن شعرها مُصفّفاً، كانت أكبر بعشر سنوات من العادة. كانت تخونها بعض الكلمات؛ فكانت تُغيّرها بأخرى: «إن كان لابدّ من البقاء مِتْرَيْن هنا، فسأمرض». كانت منزعجة: «أصبحتُ امرأة خرفة». لكن في الواقع كانت محافظة على مداركها وذاكرتها. لمّحت إلى طرفة حدثت قبل سنة. كانت في طريقها إلى الشّفاء حسب ما يبدو.

تحدّثت من دون صعوبة خلال الأيّام التّالية لكنّها أظهرت القليل من الهذيان. اختفت المريضة التي تُجاورها يوم الثّلاثاء السّاعة السّابعة لتعود بعد الظّهر. يوم الأربعاء، روت السيّدة مانسي لسارتر أنّ تلك المرأة «تبيع الجُثث». ذهبت يوم أمس إلى كورسيكا لتشتري جثّة أمريكي كي تجلبها بعد الظّهر. «لعلّهم يتربّصون بجُثّتي»، قالت؛ سألت إن كان من الضّروريّ إبلاغ الشّرطة. بدت لي مُتعبة في اليوم الموالي لدى زيارتي لها. كانت تشكو آلاماً تحت ذراعها: في اللّيل، فتحت جارتها النّافذة فأُصيبت بنزلة برد. لم تُقنعنا تلك الحُجة. «ليس هذا المكان المُناسب لأناس متقدّمين في السنّ»، قالت. فريق مُكوّن من ستّة أطبّاء اهتمّوا بها منذ السّادسة صباحاً؛ راحوا يحقنونها

طوال اليوم، أدوية: كان ذلك مُنهِكاً... «إن بقيتُ هنا شهرَيْن فلن أتعافى أبداً». قالت أيضاً بنبرة غريبة: «لم أكن لأصدّق أنّ الأشياء تحدث على هذا النّحو». *الأشياء*: النّهاية، الموت؟ أو أنّ أملها قد خاب في الحصول على غرفة منفردة كما وعدها الدّكتور م.؟ كانت التّجربة تُذهلها وتثير اهتمامها في آن؛ لم تدخل يوماً مصحّة أو مُستشفى من قبل. في آخر زيارة لنا، زاغت قليلاً. كان الحديث المُتداول آنذاك هو إرسال أناس إلى القمر وقالت: «إن ذهبتُم فلا تُخبروني لأنّي سأكون قلقة عليكم كثيراً». كانت مزحة، وطريقة لسؤالنا إن كنّا سنذهب في سفر، لكنّ نبرتها كانت جادّة. لمّحت لنا إلى رغبتها في النّوم. انطبع في ذهني يومها أنّها كانت شاردة. مكتبة سر من قرأ

يوم الجمعة صباحاً، اتّصلوا بسارتر لإخباره بأنّ أمّه قد نُقِلَتْ إلى مستشفى «لاريبوازيار» Lariboisière، هناك كانوا مُجهّزين كفاية للعناية بها بشكل أفضل. لدى وصولها أُصيبت بالشّلل: إنّها نتيجة مألوفة في حالات الذّبحة. آلام الذّراع التي اشتكت منها البارحة، كانت علامة تعكّر في الدّورة الدمويّة. وجدها سارتر نائمة في ركن من قاعة الإنعاش، غائبة عن الوعي، موصولة بآلات تساعد القلب على النّبض، ذراعها موصولة بأنبوب مُعدّ لتقطير الأمصال.

نُقلت السيّدة مانسي إلى مستشفى فرناند ويدال، وحيدة في غرفة منفردة. آلات تُبقيها الآن على قيد حياة اصطناعيّة. كانت في غيبوبة. كان جانبها الأيمن مشلولاً وشفتها السُّفلى مائلة قليلا؛ لم يُفسد ذلك من ملامحها، لكنّ وجهها كان وجه مُحتضر: العينان مُغمضتان، والأنف مقروص. ظلّت أسبوعيْن في ذلك الوضع. رأيتُها مرّتين تفتح عينيْها، لكن لم يُخيّل إليَّ أنّها ترانا. أخرجت يدها السّليمة مرّتين من تحت الغطاء في غيابي، أمسكت معصم سارتر وضغطت عليه؛ حاولت أن تبتسم لكنّ شفتيها لم تطاوعاها؛ أشارت له بالذّهاب. عرفته دون شكّ: لكن من أيّ مسافة؟ من قلب أيّ ليلة؟

كنّا كلّما سألنا عن أخبارها، لدى وصولنا، تجيب الممرّضة: «ليست أسوأ من البارحة». لكن على اللاّفتة دُوِّنَ: «حالة غيبوبة». الخميس 30 يناير، قيل

لي صباحاً في الهاتف: «الوضعُ سيّئ»؛ ولسارتر: «حالة مُستقرّة»، الأمر الذي لم يكن متناقضاً في الواقع. عندما وصلنا أمام المستشفى، اندفعت امرأة ذات عيْنَيْن مُحمَرَّتيْن – قريبة – نحو سارتر: «رأيتُ أمّكَ للتوّ. لقد ماتت على نحو جيّد». انتفض سارتر: «ماتت؟ – نعم، قبل نصف ساعة؛ بهدوء. أسرع إن كنتَ تريد رؤيتها. سينقلونها إلى «لاريبوازيار» حسناً فعلت بإخبارنا: لم نلتقِ أحداً في الرّواق. فتحنا باب الغرفة ورأينا السيّدة مانسي، بيضاء تماماً، الفم مفتوح قليلاً، لكن غير مُعوَجّ؛ لقد استعادت وجهها الطّبيعي. أكّدت المُمرّضة أنّها «عبرت» دون أن تشعر. رآها سارتر اليوم الموالي في «لاريبوازيار». صدمته القسوة التي على وجهها. خطر له أنّ الحياة قد سحقتها وأنهكتها، من دون أن تكسرها، امرأة مُركّبة من الصّبر والحنان والصّمود وحتّى العنف. رأيتُها للمرّة الأخيرة صبيحة الدّفن: كانت قسماتها خالية تماماً من التّعبير.

«لا أريد المرور عبر الكنيسة»، كانت تقول دائماً. كانت ربّانيّة بشكل عام، لكنّها لا تنتمي إلى أيّ دين ولا تؤمن بالخلود. نقلناها مباشرة من المُستشفى إلى المقبرة حيثُ اجتمعت عائلتها وأصدقاؤها. في اليوم الموالي أخلينا غرفتها بالفُندق. كانت تقريباً فارغة لأنّها كانت قد تخلّصت من جميع ما تملك وهي تغادر بيتها. ترك سارتر للخادمات في الفندق التّلفزيون وجلّ الملابس. وضعنا في الحقيبة الأغراض التي كانت لدينا نيّة الاحتفاظ بها أو توزيعها. كانت ساعة من الزمن كافية لتمحو أثر وجود بأكمله.

قال الدّكتور م. لسارتر في اليوم الذي تلا الشّلل: «بصفتي طبيباً يجدر بي إبقاء والدتك أكثر وقت على قيد الحياة. لو كنتُ ابنها لتمنّيتُ موتها». هذا يعني أنّها لو عاشت فإنّها ستُقضّي بقية حياتها مشلولة عن الحركة. كان ذلك المصير الذي كرهته أكثر من الموت. عانت أمّي من آلام رهيبة من أجل أيّام إضافيّة. ما هو، إذًا، منشأ هذه الأدبيّات المتوحّشة التي توجب إنعاش شخص بأيّ ثمن؟ يبدو أنّ الأطبّاء يجيزون لأنفسهم إخضاع البشر إلى أيّ نوع من التّعذيب والمُصادرة تحت ذريعة احترام حقّ الحياة: هذا ما يُسمّونه القيام بالواجب. لكنّ لِمَ لا نتّفق على مُحتوى هذه الكلمة *واجب* ونراجعها؟ مراسلة

قديمة كتبت لي مؤخّراً: «يحرص الأطبّاء على الحفاظ على حياتي رغم أنّي مريضة ومُقعَدَة. لكن، لماذا سيّدي؟ لماذا؟ لا أطالب بقتل كلّ المُسنّين، لكن أولئك الذي يرغبون في ذلك. يجب أن يكون لدينا الحقّ في موت حُرّ كما نملك حقّ الحبّ بحرّية». صحيح: لماذا؟ لماذا؟ طرحتُ السّؤال على عدد كبير من الأطبّاء لكن ما من إجابة أرضتني.

خلال السّنين الأخيرة من حياتها، قرّبنا تطوّر حالة السيّدة مانسي. عكس موقف السيّدة «لومار» الذي أبعدني عنها. تضارب آرائنا السيّاسيّة الذي بدا تافهاً في البداية اكتسى أهمّية كبيرة خلال الحرب على الجزائر. لقد أوجدت وجهات نظر متضاربة عن العالم على نحو استحال معه إيجاد أرض مُشتركة. بعد العشاء الكئيب، صيف 1962، حيثُ أظهرت السيّدة لومار نوعاً من الجفاء، لم أرها فترة طويلة. هاتفتُها ذات مساء وصعدتُ إلى شقّتها في شارع فافان لرؤيتها، إثر إحساس بالنّدم تملّكني؛ كان شارع فافان ينتمي إلى حقبة متقدّمة من حياتي وبدا لي حزيناً: ماضٍ ميّت ومُحنّط حيثُ لا وجود للحاضر.

استقبلتني السيّدة لومار بحفاوة؛ حاولتُ التحدّث معها عن سارتر، عنّي؛ سألتُها عن نفسها. لكنّ المحادثة زاغت. لم تكن مُهتمّة قط بنشاطي؛ تحدّثت معي باقتضاب عن شؤونها. تواعدنا للّقاء ثانية، لكنّ كلينا كان على يقين من أنّ تلك اللّحظات لن يكون لها مُستقبل. بعد سنتيْن أخبرتني جاكلين عبر الهاتف أنّ أمّها ماتت للتوّ: كُسر فخذها قبل سنة، ومنذ ذلك اليوم وهي تكافح من أجل البقاء؛ ورغم حُزنها، فإنّ جاكلين كانت متأكّدة من أنّ أمّها قد انطفأت دون ندم على أيّ شيء. لذلك لم يُحرّك الخبرُ عاطفتي.

لم تتحرّك مشاعري أيضاً ربيع 71 عندما تلقّيتُ خبر موت پانييز. لم يعِش سوى أشهر بعد إحالته على المعاش. لم نعد نراه، قط، منذُ فسدت، ولأسباب طفوليّة في ظاهرها، علاقته بسارتر، لكن لأنّه اتّخذ درباً عكس التي كنّا نمضي فيها. لقد عارض بشدّة بيان الـ 121 وكنّا نعرف أنّه، حين يتحدّث عنّا، فإنّه يفعل بلوم أكثر من الودّ. من جهتنا، فقد حوّلهُ نمط حياته إلى شخص غريب.

في الواقع، بخصوص كلّ الموت الذي حدث في مُحيطي خلال السّنين المنقضية، موتٌ واحدٌ هزّني في الأعماق: موتُ إيفلين. لكن لا رغبة لديّ في الحديث عن ذلك.

كيف استطعتُ قطف كلّ ذلك الموت بهدوء؟ أرى سبباً أوّلياً. بيولوجيّاً، يمكننا الحديث عن برمجة لدى الكائنات الحيّة التي ترتبط بطبيعة كلّ منها وبعوامل وراثيّة وخاصّة. بيّن سارتر في *فلوبير* أنّ هذا المبدأ يمكن تطبيقُه على عموم الوجود الإنساني: مات البعضُ في حادثة قبل إتمام البرنامج، البعضُ الآخر عاشوا له، دون أن يكون لديهم ما يفعلون على الأرض. في الحالة التي نقلتُها للتوّ، من ضربهم الموت بدوا لي ناجين: كامي، ليز بسبب تدهور صحّتيهما، السيّدة مانسي والسيّدة لومار بسبب تقدّمهما في العُمر، جياكوميتي لأنّ المرض قد غيّره كثيراً. إلّا أنّ هذا التّبرير لا يكفيني: عندما انطفأ دولان سنة 1949، كان رجلاً منتهياً؛ لم تكن تربط بيننا سوى صلات سطحيّة وأحسستُ بالاضطراب. «تهاوى جانب كبير من ماضِيَّ وانطبع لديّ أنّ موتي قد بدأ»، سجّلتُ. بدأ موتي منذ زمن طويل واعتدتُ رؤية ماضِيَّ يغادرني. ربّما لأنّي متصالحة مع نهايتي فإنّي أقبل نهاية الآخرين. حتماً، سيُحطّم موت أناسٍ مقرّبين منّي هذه اللّامبالاة: ستترك في وجودي فراغاً سيشقّ عليَّ حتّى تخيُّلُه أو تحمّلُه.

***

قبل أن أُسوّي مسألة النّشاط الذي شغلني طيلة السّنوات الأخيرة، أريد التكلّم عن مجال لم أخض فيه من قبلُ قط: أحلامي. إنّه من بين أفضل الأشياء التي أموّه بها عن نفسي. أحبّ فيها غير المتوقّع وخصوصاً المجانيّة. إنّ لها مكاناً في قصّتي، إنّها تنفتح على ماضِيَّ، لكن لا امتداد لها في المستقبل: أنا أنساها. كما تتراءى لي، ليست الأحلام على صلة بالتّجربة، أي بالتقدّم في السنّ: إنّها تنبجس وتتفتّت، من دون أن تتراكم، في شباب دائم. لذلك أكابد أحياناً في الصّباح كي أجمع شتاتها من خلال تلك اللّوحات الطّافية خلف جَفنَيَّ، اللذين يرمشان لكنهما ناعسان. أحاول العودة إلى النّوم، أتقلّب من

جانب إلى آخر؛ نُعاسي والرّؤى التي يعُجّ بها تتبدّل حسب إحساسي ببرودة المخدّة أو دفئها. لكن أحياناً تكون يقظتي حادّة. في لحظة واحدة، أُنتزَعُ من هذا العالم وسحره ومن الطّفولة حيثُ الرّغبات هادئة، والخشية مُعلَنَة، والقمعُ غائب؛ لقد سارعتُ إلى عالم حافل بالمُتطلّبات العمليّة، حيثُ يملي عليَّ الماضي بتسلّط القيام بأعمال مُعيّنة: يحدث أن يُسبّب لي ذلك الانتقال المُفاجئ صدمة وتسارعاً في نبض قلبي.

كتبتُ سنة 69 و71 بعض أحلامي؛ لم أكن أرويها كثيراً ولا أحاول أن أضفي عليها تأويلاً فرويديّاً: فقط، عندما يتمّ تناولها ضمن عمليّة علاج فإنّ بمقدورها حينئذ أن تدلي ببعض المؤشّرات المُهمّة والعميقة. أكتفي بوصف أحلامي واستخراج محاور تعترضني بشكل مُتكرّر.

كثيراً ما أنتقل سيراً على الأقدام. المنظر جميل لكن هناك عقبات لابدّ من تخطّيها وأتساءل إن كنتُ سأنجح في الوصول إلى هدفي. أشعر بأنّي مبتهجة، بفضل سحر النّزهة، وقلقة قليلاً. هكذا تمّ الأمر في أحد أحلامي وهذا سجّلتُه سنة 69. كنتُ مع سارتر في إسرائيل، لكن كنّا نسير في ريف أخضر ووعر يُذكّر بسويسرا. تركنا متاعنا في النّزل بقرية حيثُ علينا العودة إليها: لمحنا من أعلى تلّة مرتفعة قليلاً، ويقطعها خطّ تلفريك. مضينا في طرقات ومسالك، فجأة وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع منزل، رحتُ أبحث عن مخرج لكن عبثاً، لم يكن من حقّي أن أكون هناك، فزعتُ، وكان هناك من يتعقّبني أحياناً. في تلك اللّيلة، وجدتُ باباً يفتح على ساحة من حيثُ عدنا أدراجنا. توقّف الحُلم هنا.

أتأثّر غالباً بالأحداث السّياسيّة. مثلاً ليلة 7 نوفمبر 1969. كنتُ في بيتي، (في بيت لا يشبه البيوت التي أعرفها) وكنتُ أشاركُ سارتر إيّاه. تلقّيتُ تليغراماً أزرق، بنصّ كُتب بخطّ اليد بواسطة حبر أسود: «لتكن لديكِ فكرة دقيقة ومرعبة عن الرّقص». لم أفهم. قرأتُ الجملة ثانية: بدل كلمة رقص كانت هناك كلمة *اليونان*. أناسٌ كثيرون كانوا هناك. كان لابدّ أن أجهّز حقيبة وأن أتخلّص من حزمة ملابس. بينما أنا أفعل إذ بالبيت يمتلئ على آخره: ألمانيّ نازي، يونانيّون، وبينهم فتاة ليست جميلة لكنّها لطيفة جدّاً كانت تتحدّث

مع سارتر. رحلت وراح سارتر يراقب ابتعادها من النّافذة كي يودّعها. ملتُ على النّافذة بدوري. في السّاحة كان هناك حشد من النّاس وسيّارات بوليس؛ اندلعت مشاحنات؛ هرب النّاس ولحقهم البوليس بعصيّهم في أيديهم. امتلأ البيت من جديد، رأيتُ الفتاة ثانية. طلبتُ من اليونانيّين المكوث وأغلقتُ على نفسي وانهمكتُ في العمل. لبثتُ طويلاً. ثمّ مررتُ إلى الحمّام في ثوب نوم حيثُ وجدتُ الفتاة قد علّقت حمّالة صدر مزهرة وبيكيني. وجدتُ سارتر في الشقّة وقلقت: عاودَته آلام أسنانه (شعر بآلام في ضرسه اللّيلة السّابقة) ومنعته من الكلام. خرج النازيّ من غرفة مُجاورة: كان يريد التحدّث مع سارتر الذي رفض. رحل الجميع. بعد نصف ساعة من يقظتي رأيتُ التّليغرام الأزرق.

غالباً، أنا التي قليلاً ما أميل إلى البهرج والتّرف، أرى في أحلامي أنّي امرأة مجتمع راقية: مجتمع ودود يُحيط بي، أناس لطفاء يكنّون لي المحبّة. 9 نوفمبر ألفيتُني في جماعة مثليّين جنسيّاً، مع جون ماري وكوكتو وجمعت بيننا العلاقة الأكثر حميميّة. يوم 11 نوفمبر، عندما بدأ الحُلُم كنتُ في رفقة رائعة وأحسستُ بسعادة كبيرة. كنتُ سأخرج مع سارتر في السيّارة. جهّزتُ حقيبة واتّخذتُ مكاني في السيّارة، الأمر الذي لم يتمّ دون مشقّة: تنّورة زرقاء مُطرّزة - اشتريتُها فيما مضى من اليونان - تمزّقت نصفيْن على المقعد. انتهى بي الأمر إلى إغلاق الحقيبة. ثمّ وجدتُني مع سارتر، نسير على الأقدام من دون متاع؛ كنّا في تلّ شديد الانحدار، في لون مائل إلى الحُمرة، يرفرف فوقه علم أبيض. بدا من المُستحيل تسلّقه لكنّي اكتشفتُ مدرجاً منحوتاً في الصّخر وصعدنا بسهولة. من فوق كان منظر الصّحراء بديعاً. لكن من الجانب الآخر لنفق قصير جدّاً (في شبه جزيرة كريمي شمال أوكرانيا، من فوق البحر، باب طبيعي: نرى من الجانب ناحية بيضاء، جافّة، منحدرة، ومن الجانب الآخر بانوراما شاسعة متموّجة وأكثر جمالاً)، اكتشفنا منظراً مُختلفاً يُشبه ركناً في سويسرا أو ألمانيا. فنادق تحفّها شرفات في شكل طوابق أعلى من مُستوانا. نزلنا واتّخذنا طاولة. رفضوا تقديم الطّعام لنا، لكنّهم قدّموا لنا ما نشرب.

يوم 17 نوفمبر، كنتُ رفقة نزر من الأصدقاء. اشترينا لأجل التّخييم، أكلات باهظة جدّا. جُبنا حدائق جميلة خضراء حيثُ يلعب الأطفال وفكّرنا في أن نرتاح على العشب: يُمنع الوقوف أكثر من خمس دقائق، قيل لنا، وتساءلتُ على نحو غامض: «هل نحنُ في الاتّحاد السّوفيتي (في الاتّحاد السّوفيتي اصطدمنا كثيراً بموانع من هذا النّوع).؟» فكّرنا، إذًا، في الذّهاب إلى مطعم، كنّا قد أسرفنا في الإنفاق. ثمّ غاب عنّي مرحلة. رحتُ بمفردي في تاكسي للبحث عن شيء ما، من مكان ما؛ كانت الرّحلة طويلة ومُضنية. عندما وجدتُ نفسي أمام باب بيتي، ميّتة من النّوم، انتبهتُ إلى أنّي نسيتُ أو لعلّي فقدتُ مفتاحي. وكان لابدّ من العودة وأحبطني ذلك جدّاً. لكنّ امرأة جذّابة، لم تكن سيلفي، كانت ترتدي معطفاً من الفرو، تعرض عليَّ أن أرافقها. استقللنا سيّارة تاكسي من وسط أرض فسيحة وشعرتُ بالرّاحة.

اللّيالي التّالية، رأيتُ أحلاماً كثيرة وجدتُني فيها محوطة برفقة دافئة. كان سارتر دائماً حاضراً تقريباً وكنّا نتنزّه أغلب الفترات. ذات مرّة هاجم رجلٌ شرّير وضخم أصدقاءنا وغرزتُ سكّيناً في رقبته؛ أصابني الغثيان وأنا أفكّر في ذلك: «لقد قتلتُ! هذا مُستحيل!» عندما صحوتُ، تساءلتُ بقلق إن كانوا سيهنّئونني أم أنّهم سيحاكمونني: أحسستُ بالإحباط لأنّ شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

تُدهشني الأهمّية التي تكتسيها الملابس في أحلامي والتي لا أعبأ بها في حياتي. بين عديدين، أشير إلى حُلُم يتميّز بدقّة وحسّ نقديّ مُذهلَيْن. كنتُ أستعدُّ لتقديم دروس في «رووان» Rouen، فجأة أُصبتُ بثقب في الذّاكرة: لم أعد أذكرُ تلاميذي، ولا المعهد، ولا الموضوع الذي سأناقشُه معهم، ولم أعد أعرف ما الملابس التي في دولابي. رأيتُ في المرآة أنّي أرتدي ميدعة صفراء وتنّورة إيكوسيّة: لا أتعرّف إليهما. انتابني الخوف. اتّصلتُ بـ «رووان» هاتفيّاً وقلتُ إنّي أعتذر عن المجيء وطلبتُ طبيباً. تحلّق بي أناسٌ كثيرون وكنتُ لا أزالُ أشعر بفراغ الذّاكرة في رأسي: من المُستحيل أن أتذكّر ما الملابس التي

في دولابي. قلتُ للطّبيب: «لا أفهمُ شيئاً. *إلّا إذا كنتُ نائمة*». واستدركتُ: «لكن هذا مُستحيل؛ عندما نكون في حلم، فإنّ كلَّ شيء يتغيّر طوال الوقت، وها أنتم هنا لم تبرحوا المكان فترة طويلة».

رأيت أحلاماً كثيرة رائعة حافلة بالجولات، مع سارتر أو في مجموعة؛ من بين أجملها الذي دار في لندن وفي الرّيف الإنجليزي. هذا أحدها، الأكثر إزعاجاً والذي حصل في 18 ديسمبر. كنتُ مع بعض الأصدقاء؛ كانت بينهم أختي وزوج من الكُتّاب؛ شعرتُ بأنّي سعيدة جدّاً آنذاك. فجأة كان عليَّ الذّهاب، بأقصى سرعة؛ كان ذلك أقلّ مأساويّة من التّرحيل، لكن كان شاقّاً جدّاً. جمعتُ ملابسي في كيس أزرق؛ كان صغيراً، فـ «هناك» الطّقسُ بارد جدّاً ويجب أخذ أغراض عديدة. صديقتي الكاتبة (غير معروفة. فكّرتُ ربّما في إيلزا تريولي التي لم تكن صديقة يوماً). قدّمت لي حقيبة ضخمة لزوجها، حقيبة شفّافة، لونها كالظّلال وأفرغتُ دولابي: أخذتُ فساتين صوفيّة -أملكها حقّاً- وكنزات توقّفتُ عن ارتدائها منذ زمن. قالت لي أختي: «لكن، لن تغادري حالاً». أجبتُها: «بلى، يجب»، باكية.

يوم 10 ديسمبر، حلمتُ بأنّي أتناول فطور الصّباح مع شخصَيْنِ أحدهما كانت أختي رغم أنّها لا تُشبهها وكانت فتاة صغيرة. أنفُها، وذراعها المُستقيم كانا غصنَيْ شجرة مُحروقة. لم يبدُ أنّها متضايقة، وقلتُ في نفسي: «لن تتمكّن من الزّواج أبداً. حروقها بشعة جدّاً (وأنا أستعرض الحُلُم، فكّرتُ في الانطباع الذي تركته لديّ أمّي في احتضارها: حزمة حلفاء جافّة).»

حُلُم أراه بشكل متكرّر (ليس فقط منذُ وقع لي حادث السيّارة قديماً) وهو أنّي كنتُ أقود سيّارة واكتشفتُ فجأة أنّي أجهل مكان الفرامل، لم أنجح في العثور عليها، تساءلتُ بقلق كيف سأتوقّف: عادة ينتهي بي الأمر إلى الارتطام بهدوء بجدار؛ أخرج سالمة، لكن بعد أن يكون قد انتابني خوف شديد. نهاية ديسمبر، صعدتُ إلى سيّارة ليس فيها مقود، لكن مقود درّاجة؛ يوجد على اليمين، كنتُ راكبة في المقعد اليساري عندما انطلقت السيّارة؛ حاولتُ التحكّم في اتّجاهها من مكاني لكنّ الأمر كان في غاية الصّعوبة وطبعاً لم

يكن فيها فرامل. أخيراً ركب أحدهم على اليمين وقام بالمُهمّة. ليلة أخرى، كانت السيّارة كنبة فقط؛ قدتُها بالدّوس على ذراع أو على الأخرى؛ كانت تسير بسرعة، وكانت تقوم بمنعرجات كثيرة - نوعاً من التّزحلق على الثّلج - ولم أنجح كذلك في إيقافها.

سنة 1970، عدلتُ عن تسجيل أحلامي بما أنّها كانت كثيرة تلك التي سافرتُ خلالها مع الأصدقاء؛ وجدتُ صعوبة في حزم أمتعتي وخشيت أن أخلف موعد القطار لكن نجحتُ أخيراً في اللّحاق به، وجدتُني برفقة أقاربي وسُررتُ كثيراً. في شهر مايو دوّنتُ كابوسَيْن. كنتُ قد تلقّيتُ قبل ثلاثة أيّام خبر القبض على صديقنا الجزائري «لوفتي الخُلّي» Kholi-Loufti el. وجدتُني في القاهرة مع سارتر، كنّا نتجوّل مع لوفتي وزوجته، في جوّ مُزعج. كانت هناك غوغاء بشر توحي بأنّ هناك اختناقاً وكنّا نلاحظ في الأكشاك الصّغيرة المُغبّرة حيوانات محشُوّة تسقط متحلّلة، بينها كان هناك كركدن. أحسستُ بقلق لا يُحتَمَل؛ كان الهواء مشحوناً بالتّهديد.

ليلة أخرى، لمحتُ أمّي - شابّة وجميلة القوام، من دون وجه - حيثُ كانت تقف على ضفّة مياه مضيئة وكان عليَّ اللّحاق بها. فكّرتُ في البحيرة التي تمتدّ في حديقة «ألغرين» Algren: لكن لم يكن ثمّة زورق لعبورها. كان هناك مضيق بحريّ أيضاً ولم يكن مُتاحاً الالتفاف من حوله إلّا بمشقّة: كان لابدّ من القيام بمغامرة دخول الماء أين سيكون من المحتمل الغرق. في الآن نفسه، كان عليَّ تحذير أمّي بأنّ هناك خطراً يُحدق بها.

في يونيو، رأيتُ مشهداً غريباً يخصّ شارع الـ «رين» Rennes التي كانت جادّته مكسُوّة، من محطّة مونبارناس إلى الـ: سان-جرمان-دي-بري، ببساط أحمر مُذهل. في الأعلى كانت السّماءُ داكنة بشكل مأساويّ. حدّثتُ نفسي: «كم هذا جميل! يجب أن أسجّل هذا في دفتري»، وسرعان ما فكّرتُ: «لا طائل من ذلك، لن يكون هناك تعقيب». إنّه الاحتلال، أحياناً كنتُ أعي الأمور فجأة. كان سارتر في الحُرّية، لكن تراءى لي محكوماً عليه بالإعدام.

في سبتمبر رأيتُ حلماً يحوم حول مشهد. كنتُ بعيدة عن باريس

أشهراً عديدة، بعيداً عن سارتر، في مدينة غير معروفة، لم أكن أعرف ما يتوجّب عليَّ القيام به ورحتُ أتأمّلُ خريطة بنيّة السّفر. اتّخذتُ شارعاً فسيحاً وفجأة أوقفني صوت من الخلف: انتظري! أضاءت الجدران واجهة المباني من الجانبيْن، أو لعلّها لقطات انعكست عليهما، بألوان برّاقة حيثُ إجمالاً لابدّ أنّها شكّلت معاً فِيلمًا. «لا فائدة من التقدّم، قلتُ في نفسي بغموض. سيكون هذا كافياً ليشغلني». شخصٌ ما – عرفتُ لاحقاً أنّه خطيب جيّد، لأنّه كان زعيم المقاومة – عرض عليَّ: «ظلّي هنا. سنكلّفكِ بعمل مُزيّف تقومين به – طلاء دبابيس أمان بالأزرق أو شيئاً من هذا القبيل – وسيكون لكِ مُتّسعٌ من الوقت لمتابعة العرض». كان عرضاً دائماً، يكفي لملء حياة بأكملها. ثمّ حدثت تحقيقات بوليسيّة مُشوّشة. انتهى بي الأمر في سيّارة برفقة مجهول؛ اصطدمت بربوة، أحسستُ بصدمة عنيفة أغمضتُ عينيَّ إثرها. عندما فتحتُهما كانت السيّارة قد اختفت وكنتُ وحيدة وسط منظر مُدهش: الشّارعُ ذاتُه الذي بدأ به الحُلم، لكنه مكسُوّ بالثّلج. كان العالمُ مكسُوّاً بالثّلج؛ كانت هناكَ أشكالٌ رماديّة تُلطّخ ذلك البياض – ربّما كانوا آدميّين. كان هناك دخان رماديٌّ يملأ السّماءَ وآلة تتخبّطُ على الأرض. كنتُ أراقبُ كارثة دون أن تتحرّك مشاعري. (لدى يقظتي، تذكّرتُ مشهد *الاعتراف* حيثُ كان رجالُ الشّرطة يبعثرون رماد «سلنكدي» Slankdy وآخرين شُنقوا في سهل شاسع مكسُوّ بالثّلج).

خلال خريف سنة 1971، دوّنتُ أحلاماً كثيرة أخرى. هذا حُلمُ 20 أكتوبر. كنتُ مع سارتر في مدينة صحراويّة، غير معروفة تماماً، وغادرناها سيراً على الأقدام، عند حلول المساء، للنّوم في واحة تحملُ اسماً لا أعرفُه لكنّي فكّرتُ في أنّها «ورغلة» بالجزائر. على امتداد طريق واسع، في لون الرّمل، تجاوزنا رجلاً وامرأة، يرتديان زيّ تنكّر منقّطاً، يسير أحدهما خلف الآخر. سألتهما إن كنّا في الطّريق الصّحيح إلى «ورغلة»: لا، هذا الطّريق مسدود. عُدنا إلى المدينة التي رحلنا عنها، كي ننام. وخامرني فجأة أنّني لا أعرف أين نحن.

«توغورت» Touggourt[10]؟ لا. طلبتُ من سارتر أن يناولني الدّليل الأزرق: أجابني بلهجة ساخرة نوعاً ما بأنّه أرسله إلى باريس. فهمتُ فوراً أنّه لم يكن مُهتمّاً بالرّحلة وأحسستُ باليأس. تحدّث مع أناسٍ لا أعرفهم ثمّ اختفى. رحتُ أتسكّعُ تائهة في المدينة المليئة بالسُيّاح: لا أحد يعرفُ اسمَه. اكتشفتُ أنّ اسم المدينة «ميرسيبوليس» Mersépolis (تردّد الحديث كثيراً عن ميرسيبوليس في تلك الفترة). لكن أين تقع؟ وجدتُ خرائط في أحد الأدراج: كانت خرائط لفرنسا. كان هناك أسهم على الجدار وأسماء غريبة بدت لي تركيّة أو سويديّة. انخرطتُ في البكاء. تراءت تحت سماء زرقاء للغاية وشمس كبيرة معالم رائعة، حمراء بالكامل، على الطّراز الأفريقي واستمرّ بكائي. لماذا لم يكن سارتر معي؟ فجأة وجدتُ نفسي معه في سيّارة: سُيّاحٌ لطفاء أخذونا في نزهة. لكنّي أردتُ أن نفترق كي أتمّ سفري مع سارتر. عندما مررنا أمام فندُق، قال سارتر إنّه جائع ونزل من السيّارة حيثُ بقينا ننتظره. نزلتُ أيضاً يتملّكُني غضب مفاجئ، دخلتُ فندقاً كبيراً ورحتُ أبحث عنه في قاعات أكل لا حصر لها: كان نوعاً من القصور ومنزلاً عائليّاً في آن واحد. عثرتُ عليه، أخيراً، في ركن، جالساً وأمامه صحن. «أريد أن آكُل أيضاً»، قرّرت. كان هناك مُقبّلات شهيّة وحلوى لذيذة بالكستناء. «أكلتُ ما فيه الكفاية، لقد أنهيتُ»، قال سارتر بانتشاء وعُدنا إلى السيّارة. توقّف الحُلُمُ هنا.

6 نوفمبر. أنا في مكان رائع – سيُصبحُ روما – برفقة العديد من الأصدقاء. كنتُ نائمة ونام سارتر في الغرفة المُجاورة. فُتِحَ بابٌ يُقبِل على الممرّ وقبّلتني فتاة صغيرة جدّاً لإيقاظي: تذكّرتُ أنّ ذلك حدث البارحة. نهضتُ، ارتديتُ ثوب النّوم عندما دخلت ليز، شابّة ومُتجبّرة جدّاً. طردت البنت وجلست على كنبة. طلبتُ منها الرّحيل: كنتُ أرغب في دخول الحمّام، والذّهاب لإيقاظ سارتر. رفضت، بدت لي هستيريّة. لا أعرف كيف انتهت القصّة. وجدتُني

10- توغورت Touggourt: أحد أهم محاربي الغازي أرطغرل وأقربهم له وأشجعهم وأقواهم استخداماً للفأس، وأحد أهم السادة المقربين من عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية.

في ملابسي في الخارج متسائلة أين يقيم سارتر (ما من مجال ليكون معي في نفس البيت). أعرف أنّي أعرف وأنّه غير بعيد لكنّ ذاكرتي لا تُسعفني. قرّرتُ نزول السُلَّم الذي يبدأ من فُندُقي وفي الأسفل وجدتُ النّافِذَتين وباب المنزل الصّغير. أردتُ تناول فطور الصّباح معه لكنّها كانت الحادية عشرة، كان قد أكلَ. في مكان ما كانت ليز تترصّدني. فجأة ألفيْتُني وسط الأصدقاء على مرتفع يُطلّ على منظر خلاّب: أنا في روما لكنّني نسيت عنوان فُندُقي، أعرف فقط أنّه يُسمّى نُزل مدريد. دخلتُ قصراً كان في الآن نفسه وكالة أسفار على أمل أن يُرشِدَني أحدهم، إلّا أنّ أحداً لم يكن يُجيب على أسئلتي. في الخارج كانت هناك سيّارات تاكسي قديمة جدّاً؛ ليس بينها واحدة شاغرة: كانت تصلُحُ حافلات للسُيّاح. ولم يكن السُوّاق يجيبونني بدورهم. قرّرتُ الرّحيل على القدميْن: كانت هناك ضيعة يجب عبورها، من الجهة الأخرى فكّرتُ في أنّي وجدتُ روما وفُندُقي. كان الطّقسُ رائعاً والهواءُ خفيفاً، ولا شيء يضغطني؛ قلتُ في نفسي إنّه لا ضير من قضاء الفترة الصّباحيّة في التنزّه. سألتُ ليز - التي لم تكن تُشبه نفسها البتّة - إن كانت ترغب في مرافقتي وقالت بجفاء: «لقد تأخّر الوقت». قمتُ بخطوات إلى اليمين، دفعتُ باباً، وجدتُني في قاعة مُستشفى كبيرة ومليئة بالمرضى والرُضّع: لاحظتُ بين يدَيّ المُمَرّضة رضيعاً له رأس شخص بالغ وجسد ضئيل. خرجتُ؛ مسلكٌ ينزل إلى الضّيعة: قطعتُه ركضاً، الطّقسُ كان ساحراً، تعثّرت، وتعثّرت وراح قلبي يخفق بشدّة لشدّة الفرح. مررتُ بمنطقة حافلة بمعالم وآثار مزخرفة من عصر الباروك، استمتعتُ برؤيتها، لكنّي تعجّلت. أعرف الآن عنوان النُّزل: بجوار فُندق مينرفا. توقّف الحُلُم قبل أن أصل.

حلُمتُ أيضاً اللّيلة التالية. وجدتُني في قاعة محاضرات، قاعة كالمُدرّج الجامعي، رفقة بها العديد من المُتعاونين. التقيتُ امرأة بودّ كبير - لم أتبيّنها - كانت لقاءاتنا قد انقطعت منذُ زمن؛ كان لديَّ احمرار في زاوية العين ما جعلها تقلق بشأني بكثير من الحنان. دخل رجُلٌ وجلس في أعلى المُدرّج. كان يضعُ قبّعة ويحملُ نظّارتَيْن وكان وجهه غير واضح. قيل لي: إنّه «سولجنيتسين»

Soljenitsine. بجواره كان يجلسُ شابٌّ رغم لحيته الرّماديّة والبيضاء: مُترجم. قال الجمهور لسولجنيتسين إنّهم يعرفون أعماله جيّداً وإنّهم يُحبّونها. سأل – عن طريق الوشوشة للمترجم: «ذنبُ من أن يكون أبي قد مات؟» وكلّنا رفعنا أيدينا: «إنّه ذنبي. كلّنا مسؤولون عن ذلك». ثمّ سأل: «في أيّ منطقة من الاتّحاد السوفيتي وُلدتُ؟» وأجبتُ عشوائيّاً تقريباً: «في الشّمال»، كان ذلك صحيحاً. في تلك الآونة غادرت: كانت أمّي في انتظاري على العشاء في بيتها القديم، في الطّابق الخامس، شارع «رين» (يتكرّر دائماً في أحلامي). وجدتُ نفسي في قرية اسمُها «مدينة-مومبل» momble-Ville (دون أن أربط الاسم بالضّاحية التي درّسَتْ فيها سيلفي). كانت تبعدُ مائة كيلومتر عن باريس، أجهلُ كيفيّة وصولي إليها ولا كيف سأعود منها. لمحتُ حافلات، أوتوبيسات: لكنّها كانت مركونة في الموقف مُعَطّبة. دخلتُ محطّة: كانت كلُّ الشّبابيك مُقفلة، ما من قطار. انخرطتُ في الطّريق على أمل العثور على تاكسي؛ وعثرتُ على حافلة فركبتُ؛ أقلّتني إلى نقطة الانطلاق. تسكّعتُ على هُدى. دخلتُ المقبرة. هناك رأيتُ مشهداً غريباً: إنّه يُشبه الأحلام التي تُصوّرها السّينما والتي تبدو لي خاطئة للغاية. كان هناك على الأرض عدد مهول من التّوابيت المُغطّاة بالأقمشة السّوداء؛ رجالٌ في بدلات سوداء يضعون قبّعات عالية كانوا مُصطفّين في شكل حواجز من الجانبين، فيما آخرون في الخلفيّة يجوبون المكان كأنّه استعراض: تحت القُبّعات كانت رؤوس بعضهم رؤوس أموات. كان مشهداً موحياً وجميلاً جدّاً. عاد لي صوابي فوراً تقريباً: لا يملك الرّجالُ رؤوس موتى، كانت منحوتات حجريّة. طلبت منّي امرأة متديّنة كانت بجانب قبر إن كنتُ أرغب في مرافقتها إلى «رين»: كان في إمكاني أن أستقلَّ، يوم غد، قطاراً إلى باريس. رفضتُ: يجب أن أكون في باريس هذا المساء. لم أشكّ في عدم إمكانيّة ذلك، لم أكن قلقة في هذا الشّأن. أيّدتني: جمالُ هذه القرية يجعل المرء سعيداً بقضاء أكثر وقت ممكن فيها. غادرتُ المقبرة للتنزّه. لمحتُ في قمّة تلّ مكسُوٍّ بالعُشب قلعة عالية، تُشبه دون-جُوان-دو-جيزور واتّجهتُ نحوها...

بعد يومين رأيتُ حُلُماً آخر مُتعلّقاً بالسّفر. كنتُ أرافق زوجين من الأصدقاء (لم أتعرّف إليهما) إلى المحطّة. كانت المحطّة مُقفرة ولم يكن ثمّة قطارات. انتظرنا على الجادة، دون أمل كبير. فجأة توقّف القطار، أسرعت المرأة، راح الرّجُل يجلب الحقائب جرياً، كي يصل في الوقت المناسب ويستقرّ بجانبها على مقعد مُزدوج غريب. وها أنا دون أن أركب وجدتُ نفسي في ممرّ القطار الذي انطلق. فكّرتُ بنوع من الانزعاج: «لا يهمّ: سأنزلُ في المحطّة التالية». انطلق القطار من رووان في اتّجاه باريس، لكنّه سيتوقّف في منتصف الطّريق. رأيتُ من خلال النّافذة منظراً رائعاً، جافّا وذهبيّاً كالصّحراء وأحسستُ بالغبطة. أثناء أوّل وقوف، نزلتُ دون القيام بإشارة لأصدقائي الذين نسيتُهم تماماً خلال الرّحلة. كانت الثّامنة مساءً، كانت المحطّة خالية، كانت المدينة اسماً روسيّاً. هل سأُضطرُّ إلى قضاء اللّيلة فيها؟ سألتُ امرأة عن مواعيد القطارات: تعذّرت عليها إجابتي. كانت ساحة المحطّة مُظلمة. هل ثمّة فُندُق، وكيف سأقضي ليلتي؟ لا أملك كتاباً واحداً ولم يعد الوقتُ يسمحُ بذلك. كان معي المال: عشرة آلاف فرنك، في شكل ورق ورديّ اللّون، شبيه بذاك الذي تمّ استدعائي به لدى حاكم التّحقيق. تساءلتُ لماذا، ما دامت لديَّ مشاغل كثيرة، لم أصل بعدُ إلى باريس، لكنّ فكرة الحبس هذه، تركتني على الحياد؛ لم يكن لديَّ أمر متعجّل للقيام به في هذا المكان.

بعد ليلتَيْن، دخلتُ مع سارتر وأصدقاء إلى حانة. كانت هناك مأدبة في الطّاولة المُجاورة: نازيّون قدامى راحوا يكيلون لنا الشّتائم. ثمّ صمتوا، وتناولنا الفطور. فجأة وجدنا أنفسنا في الخارج، وسط حشد من الفاشيّين العدائيّين. انتظرنا طائرة كان على سيلفي أن تحملها على متنها إلى الباحة: لم تأتِ. كان«ماهو» Maheu هنا، كنتُ بصدد الحديث معه عندما اكتشفتُ أنّ سارتر قد اختفى: لقد غرق وسط حشد الفاشيّين، أدهم كان يشدّه من ياقته، ويضغطُ كأنّه يريد خنقه. أسرعتُ إلى الرّجل صارخة فتركه. «لم يكونوا قادرين حتّى على القتل»، قال سارتر. أخذتُه من ذراعه، وركضتُ إلى حدّ أنّه لم يكن يلامسُ الأرض. مررنا أمام رجال

شرطة، بدوا مُتهكّمين لكنّهم ليسوا أشراراً: لم يشتهوا أن يُقتَلَ سارتر. وصلتُ إلى شارع محفوف بمقاهٍ مُظلمة: فكّرتُ في مقهى «كوپول» La coupole، و«غيوم تال» Guillaume Tell، لكنّهما كانا مُختلفَيْن كثيراً. ولجتُ أحدهما، كان فارغاً تقريباً، مُضاء بالشّموع، وكان سارتر في زاوية. خرجتُ راكضة للّحاق بسيلفي وماهو. كانا قد اختفيا. قلتُ في نفسي: «ماهو معروف جدّاً إلا أنّه لن يصعب عليَّ العثور عليه». سألتُ أشخاصاً أجابوا بشكل غامض. عدتُ لرؤية سارتر. لكنّ المنظر تبدّل، لم أعد أتبيّن مكاني؛ كانت شوارع كبيرة، معالم ومبانٍ جديدة؛ إنّه «هافر» Havre[11]. أخيراً دلّني أحدهم على اتّجاه «غيوم تال». استيقظت قبل أن أصل إليه.

بعد ليالٍ وجدتُني مع سيلفي على متن درّاجة ناريّة أعارني إيّاها أحدهم. كانت في مُستودَع قريب من محطّة وقود حيثُ ملأتُ الخزّان قبل الانطلاق. (كنت أنا من يجب عليه أن يقودها وكنتُ قلقة بعض الشّيء لفكرة القيادة طوال اللّيل: سيلفي تجد ذلك طبيعيّاً للغاية ومُسلّياً). لكن كان علينا حزم أمتعتنا أوّلاً؛ لابدّ أنّها خفيفة، لأنّنا كنّا نسكن في الأعلى، وكان علينا النّزول سيراً سالكين طريقاً مُلتَوِياً. رتّبتُ أغراضاً في صندوق كرتوني وملابسي في حقيبة، بينها بذلة سمراء فاتحة، مع لمسة حمراء، تفتّقت بعض الغرز وقلتُ في نفسي إنّ أمّي ستخيطها لدى عودتي إلى باريس. وكي أرتاح خرجت واتّخذتُ مكاناً في قارب؛ كان هناك أناسٌ آخرون معي، مُمدّدون هم أيضاً. أكلتُ سندويشاً وأنا أقرأ. جلست بجواري امرأة ترتدي ملابس صيف متبرّجة زرقاء: «لا شيء يستحقّ التأمّل في هذا البلد (صدمني في إيطاليا أن أسمع فرنسيّين يعلنون: «أوه! باليرمو: لا شيء يستحقّ النّظر. - بصورة عامّة، لا شيء يستحق النّظر في صقلّية»)،. قالت: ما عدا..». وهنا ذكرتْ أسماء غير معروفة. فكّرتُ في أنّها كانت حمقاء: وغرناطة، وإشبيلية؟ قلتُ في نفسي. نهضتُ كي

11- هافر Havre: مدينة تقع في النورماندي، شمال غرب فرنسا، وتطل على القناة الإنكليزية، وبالقرب من السين.

أرحل؛ سألتني بانشراح: «هل أنا من يُزعِجُك؟ - لا. يجب أن أذهب». عدتُ إلى حقيبتي.

ليالي بعدَ ذلك، رأيتُ حُلُماً، فيه محاورُ عديدة مألوفة لدَيَّ تحوّلت بعض المواضع إلى كوابيس. بدأ الأمر بحوارٍ مع سارتر، كما جرت العادة في نومي. كان عليه تناول بعض الأدوية، لكن لم يبق منها لديه ومكانها كان يشرب سائلاً أصفر لم أتبيّنه. ذكّرتُه بأنّ عليه العودة في أقرب وقت إلى الطّبيب. كان يقولُ إنّه قد سئم، وإنّه لم يعد يريد الذّهاب إليه. هاجمتُه بعنف، ذكّرتُه بآلامه الأفظع: لم يُعلّق. عندها انخرطتُ في البكاء (قمتُ بمجهود كي أبكيَ بجدّ؛ اللّقطة كلّها كانت خارجة عن نطاق الحقيقة). لم يُعلّق. لمتُه لأنّه يعاند في قضيّة ميئوس منها؛ لم أكن لأفعل إزاءه. ظلّ بارداً.

فجأة، وجدتُ نفسي مع سيلفي التي هي أختي في الآن نفسه وسط فناء قصر: في إسبانيا ربّما. كان هناك أصدقاء بيننا، حجزنا ثلاث غرف كنّا قد حملنا إليها أمتعتنا، لكنّنا نسينا الغرف. كان هناك طابور طويل أمام مكتب الاستقبال لكنّ امرأة عجوزاً ذات وجه مُجعّد كانت تتكلم مع الموظّف الذي أمدّها بالمفاتيح بلغته؛ فتحت لنا غرفة في الطّابق السُّفلي. لوهلة لمحتُ حقيبة لا أعرفها؛ وفي ركن آخر، رجلاً ملتحياً ينامُ على سرير ومن دون قصد لمستُ ساقه العارية. كان رسّاماً أرسله والداه هنا ليُعيد ترتيب حياته. لكن أين هي غرفتنا؟ سمعتُ ضوضاء في البهو، لم يعد أحدٌ يهتمّ بنا. ثمّ صرتُ مع أختي سيلفي على جادة محطّة؛ سمعنا رسالة مع عدد كبير من المُسافرين: كان ميترو أو قطارَ ضاحية. توتّرت، كان علينا اتّخاذ الخطّ الآخر؛ يُفتَرَضُ أن تكون الرّحلة قصيرة، لكن لا شيء يسير على ما يُرام. انتظرنا في حجرة صغيرة حيثُ وُضع متاعنا. أُعلِن عن قطار وكان التّهافت. صعدنا: نسينا حقائبنا. ركضنا نحو الحُجرة الضيّقة: وجدت أختي حقيبة يد، ثمينة جدّاً، لكنّ الحقائب كانت قد اختفت. «لا بأس، قالت، ستلحق بنا الأمتعة». انطلق القطار ولم نُفلح في اللّحاق به. جُبنا الجادة. تحت نفق كانت هناك نساء يُزلن الثّلوج. قاطرات سِلَعٍ مرّت، شاحنات وحتّى قطيع أبقار. سألتُ موظّفاً عن

موعد القطار القادم: على السّاعة الواحدة صباحاً. تهاويت. خرجنا. حلّ المساء في مدينة ريفيّة، كان الطّقسُ لطيفاً. لعلّنا على مقربة من باريس، في هذه الحالة هل يُمكننا إيجاد تاكسي؟ لكن لا. كانت باريس بعيدة. أحدهم اقترح أن يدلّنا على مطعم حيثُ يمكننا العشاء. توقّف الحُلُم هنا. أحسستُ بضيق يشبه الحزن.

بعد أيّام، رأيتُ حُلماً مُختلفاً جدّاً عمّا سبق. كنتُ في بيت أناسٍ أثرياء جدّاً وسط شرفة مليئة بالأشجار، شرفة تُشرف على نهر: «السّين»، بما أنّنا كنّا قادرين على رؤية باريس من بعيد. كنتُ أتنزّه بصحبة فتاة شابّة حمقاء: كان لي عُمرُها تقريباً. قلتُ لها إنّ هذا المُتنزّه يُذكّرني بمُتنزّه «لاغريار» La Grillère لكن أضفتُ، حتّى لا أبدو مغرورة، أنّ هذا أجملُ بكثير لأنّه يُشرف على المدينة. سألتُها إن كانت مسرورة بوجودها في باريس؛ أجابت بأنّ الأهمّ بالنّسبة إلى «امرأة» هو أن تكون الحضانة قريبة منها. أزعجتني لأنّي وأنا أتحدّث إليها كانت تقول دائماً «امرأة». دخلنا منزلها الذي كان قصراً حقيقيّاً. رافقتني إلى غرفتي، مُغلّفة بالمُخمَل البنفسجي وفُرِشت بسجّاد رمادي: كان ذلك رائعاً؛ لكنّ الصّالونات الكبيرة الذّهبيّة اللّون بدت لي دائماً مُملّة. اكتشفتُ أنّ المرأة مُتزوّجة، وأنّ لها ابناً. كان أناسٌ يتجوّلون في الصّالونات. فجأة برز «كورشاي» Courchay مُلتَحياً، ذا شعر، يرتدي معطفاً طويلاً أبيضَ كان يحمله قبل البارحة، خلال احتجاجات حرّية الإجهاض. سُعِدتُ برؤيته. كان على إحدى الطّاولات بيض مسلوق ومُقشّر. أحدهم تناول شوكة وغرزها في البيض. صرختُ: «لا تفعل ذلك!» إنّها أجنّة، ولو فعلتَ فإنّها ستولد مُعاقة. دون شكّ، تأثّرتُ في هذا الحُلم بما خُضتُه من نقاشات خلال المُظاهرة.

حُلمٌ آخر كنتُ فيه أجري مع سيلفي خلف القطارات. كان علينا اللّحاق بسارتر لنقوم برحلة إلى لندن وكنتُ خائفة جدّاً من ألاّ أتمكّن.

حُلُم يراودني بشكل متواتر، *السّقوط*. أنتبه فجأة إلى أنّي أقف على قمّة سقالة – أو جدار، أو سُلّم – أوشك على السّقوط. هذه المرّة، حسمتُ أمري،

«سأقتل نفسي»، قلتُ لنفسي قبل أن ينقذني أحدهم بهدوء. كنتُ خائفة، لكنّه خوف عرضيّ. إحدى اللّيالي الأخيرة، وجدتُني في مدينة غير معروفة، جميلة جدّاً، محفوفة بالصّخور؛ كان في وسطها صخرة كبيرة ومعالم مُدهشة. كانت تدور حفلة هي الآن نفسها مُظاهرة. كنتُ أتنزّه مع نزر من الأصدقاء، تُهتُ قليلاً فوجدتُني مع سارتر وآخرين على قاعدة فسيحة منصوبة وسط ساحة. جرى نوعٌ من الخطاب والاحتفال السّياسي. بغتة، اكتشفتُ أنّي على الحافة، على بعد ثلاثين متراً من الأرض؛ كنتُ مُمدّدة على غطاء، كما لو أنّي على سرير، وأحسستُ بأنّي سأسقط؛ حاولتُ التشبّث بإحدى الدّعامات المنصوبة أبعد فأبعد والتّقهقر زحفاً، لكنّ أقلّ حركة كانت خطيرة. في تلك الآونة، سقطت امرأة تلبسُ الأبيض - فستان زواج ربّما - وهي تدور وتحطّمت على الأرض. قلتُ في نفسي: «إنّها أمّي»، لكن لم أكن أنا تماماً من يقول ذلك: بل شخصيّة أجسِّدُها. تأنّيتُ، ونهضت، وجدتُ سارتر وبعض الرّفاق، أعلنتُ: «أمّي قتلت نفسها للتوّ»، دون أدنى شعور كأنّي أجسّدُ دوراً. أحدهم صرخ: «سئمنا هؤلاء الأوغاد الأمريكيّين!» ومضيتُ نحو وسط المدينة، كما لو أنّ هذا الحادث سيصلح لي كي أثير شغباً. ثمّ وجدتُني في المحطّة. كان على جميع المتظاهرين ركوب القطار كي يعودوا إلى ديارهم. لكن لم تكن حقائبي في حوزتي؛ كان على خادمة الفندق أن تجلبها لكنّي كنتُ أجهل أيهنّ وبدأتُ أقلق. «لدينا مُتّسعٌ من الوقت، قال سارتر. لن ينطلق القطار قبل الثّالثة والنّصف». لكن كم السّاعة الآن؟ نودي عليَّ وأُعطيتُ تذكرة عليها اسمي: لكن أين أمتعتي؟ هل تمّ شحنُها؟ هل عليَّ صعود القطار من دونها؟ استيقظتُ في تلك اللّحظة.

في الفترة الماضية القريبة كنتُ في إيطاليا، مع جمعٍ كبير من النّاسِ. كنتُ أرقص في إحدى السّاحات مع شابّ إيطاليّ عامل، يرتدي الأخضر، كانت ياقته ملفوفة؛ كان شاعراً موهوباً، مثل رامبو Rimbaud، قلت؛ لكنّي استدركت: لا يجب اعتبار كلّ الشّعراء الموهوبين رامبو. كان ذلك الشّابُّ مُختلاً عقليّاً، قال شخصٌ ما. «مثل ديشانال». أجبتُ: «لكنّه أهمّ من ديشانال».

تفرّق الجمع، لكن كي يجتمعوا لاحقاً. وجدتُ نفسي في غرفة، مع اثنيْن أو ثلاثة أشخاص، تجمعني بهم حميميّة، وقرّرتُ تغيير فستاني. سحبتُ فُستاناً من بين الملابس - كنتُ حقّاً أملكه - أردتُ ارتداءه مع إحساس بالاحتشام. «لِيكن»، قلتُ ولبِستُ زيّ شغل، الأمر الذي لا صواب فيه. لكنّي لم أكن قد أدخلتُ سوى يدٍ واحدة، عندما، في السّاحة حيثُ كنتُ موجودة، واقفة على منصّة، وصلت سيّارات كثيرة: أمّهات مساجين جئن لطلب المُساعدة من هيئتنا. كنتُ منزعجة جدّاً من استقبالهنّ نصف عارية.

ثمّة حُلم مُزعجٌ نوع ما يتكرّر باستمرار. في مدينة غريبة أو حيّ غير معروف، أبحثُ عن دورة مياه، ولا أجد. أصعدُ وأنزلُ السُلّم، أنا في ردهة: أجد، لكنّ الباب موصدٌ بالقفل. أستمرُّ في البحث. أجد هذه المرّة وأدخل. لكن حين هممتُ أن أثبت، اكتشفتُ أنّ الحجرة مليئة بالبشر أو أنّ أناساً يغدون ويروحون. أحياناً أتّخذ وضعاً فيبرزون؛ تضايقتُ كثيراً أو أنّي كنتُ غير مبالية.

قبل أيّام قمتُ بنزهة كبيرة على متن مروحيّة مع سارتر وسيلفي. أو أنّ المروحيّة كانت سارتر ذاته؛ كان يُحلّق على مسافة من الأرض وكنّا متشبّثين بسُترته. مررنا فوق بُحيْرة رائعة وهبط بنا على ضفافها: «اذهبا لرؤية الجزيرة»، قال لنا. تبعنا الضفّة إلى غاية قاعدة حيثُ لاحت لنا طبقة الماء. في وسطها كانت هناك جزيرة على سطحها بناية، قلعة، دون شكّ. عُدنا ورغبتُ مرّة أخرى في استنشاق الهواء. لكنّ سارتر قال إنّه مُتعَب؛ بدأ يتسلّق جبلاً، سرنا إثره. غاصت أقدامنا في طين رطب. أعلم أنّ هناك تتمّة لكنّي نسيتُها.

بين الأحلام التي سبقت 69 والتي لم أدوّنها أذكُر أنّي حلمتُ بأنّي أحلّق في الجوّ أو أسبحُ في الماء. في أحلام السّباحة كنتُ خائفة قليلاً. كان عليّ دائماً اجتياز امتداد مائيّ كبير. كنتُ أفكّر في أنّي سأقطعُ معبراً ثمّ فجأة زلّت قدمي فما عادت تلامسُ القاع. كنتُ أخشى الغرق؛ ثمّ تصرّفتُ، نجحتُ في الحفاظ على توازني في الماء حتّى الضفّة. كانت أحلام التّحليق مُثيرة. وأنا أنزل سُلّماً، كان يكفي كي أهرب من أحدهم أو إذا أردتُ الإسراع، أن

ألمس بإصبعي الدّرابزين وأن أنزل حلزونياً دون أن ألمس الأرض. أو أن أطير فوق الشّوارع، فوق الطّوابق الأرضيّة، أو في الأرياف مع انطباع بالرّاحة والسّرور. جعلتُ كثيراً ممّن رويتُ لهم أحلامي يرون مثل أحلامي. تجوّلتُ في مُدُن غير معروفة، ركبتُ المصعد، سرتُ على الأقدام، باحثة عن شخص لا أجده أبداً. تهتُ في الأقبية، عبرتُ أنفاقاً اختنقتُ داخلها، تسلّقتُ مدارج لا تنتهي أبداً. ركضتُ خلف قطارات وكنتُ ألحق ببعضها أحياناً، وأفقد أثرها غالباً. تجوّلتُ بفرح أمام مناظر فاتنة. كانت لي أيضاً مشاهدُ كثيرة مع سارتر، أبعد ممّا رويتُ إلى حدّ الآن. كنتُ أرغب في الحصول على شيء ما منه: ألّا يذهب في رحلة من دوني مثلاً. كان يرفض؛ أرجوه، يصل بي الأمر إلى الإغماء، مع ذلك لم يكن يلين أو يكترث.

لاحظتُ أنّي عرفتُ في نومي أوقاتاً من النّشوة، كما لا أشعر بها في اليقظة لأنّها تتطلّب استسلاماً كاملاً؛ ربّما بعضُ المُخدّرات تبلغ بالمرء إلى ذلك الشّعور. قلقي لم يصل قط إلى الخوف الذي أحسستُ به في نومي. على أيّ حال أنا أحفظ الفرق. أحياناً يبدو لي أنّي أمثّل دراما ذاتيّة على أنّي أعيش فعلاً.

بعض المحاور اندثرت. أحد كوابيس فيما مضى، كان سقوط أسناني داخل فمي: لم أعد أراه. لم أعد أحلُم بتلك الكائنات المعدنيّة والحيّة في آن والتي كانت آلامُها لا تُحتَمَلُ بالنّسبة إليَّ، وقلتُ قبل هذا إنّه لم يحدث أن مِتُّ في أحلامي. كان سارتر في جميع الأوقات رفيق حياتي حيناً أو رجلاً له قلبٌ من حجر فلا عتابي أو رجائي أو دموعي أو إغمائي تجد لديه صَدى؛ طبعاً، لابدّ أنّ الإغماء يُمليه عليَّ وضعي المُمَدّد؛ وفي هذا الوضع تحديداً، مع بعض الفروق البسيطة، أعاني من تصرّف سارتر؛ كان هناك شيء ما حقيقيّ وخيالي في آن، كما لو أنّي أبني فرضيّة: فرضاً لو أنّه لا يعيرني اهتماماً، كيف سأتصرّف؟ إلى أيّ حدّ يمكن للأمور أن تتطوّر؟ أمّي، قلتُ في *موتٍ هادئ جدّاً*، كانت تظهر في أحلامي فيما غاب عنها أبي؛ فيما مضى كان غالياً عليَّ لكنّي كنتُ أغلب الوقت أشكّ في أنّي سأسقط في جبروتها. الآن، يحدُث أن نضرب موعداً في بيتنا القديم في شارع «رين». أشعر بالكآبة، ثمّ إنّنا على أيٍّ

حال لم نكن نلتقي: أو أنّي لا أصلُ إلى المنزل، أو أنّها غائبة. عندما تظهر لي فإنّها غالباً ما تكون شابّة وبعيدة. أمّا أختي، وصديقاتي، فإنّهنّ لم يكنَّ يلعبنَ في أحلامي سوى أدوارٍ لا تتغيّر أبداً، فترة مُحدّدة.

كان محورُ السّعادة مُتكرّراً: اجتماعات بين الأصدقاء يكون خلالها قلبي مشحوناً، ونزهات في أماكن غاية في الجمال؛ يتكرّر كذلك الحُلم الذي تنتصب فيه أمام طريقي عراقيل أنجح في تفاديها؛ أحلامُ الفشل أيضاً متواترة: قطارات أخلف مواعيدها، محطّات فارغة، أمتعة مفقودة. لا أفهم كثيراً ما الذي تعنيه أحلام الثّياب، والحقائب والقطارات. دون ريب، ثمّة في قصص السّفر تلك حدس بموتي، لكنّي لا أتبيّنه مباشرة. عموماً إنّها لمتعة أن أنام وأمضي في مغامراتي اللّيليّة، وإنّه لمن المؤسف أن أودّعها صباحاً.

الفصل II

مكتبة
t.me/soramnqraa

ظلّت الكتابة هي أكبر إنجاز لي في الحياة. كيف كانت علاقتي بالأدب خلال السّنوات الأخيرة؟

أتممتُ *سلطة الأشياء* في ربيع 1963. صدر الكتاب بعد عودتي من العطلة بقليل، أي في الخريف. استُقبِل بحرارة وقُرئ كثيراً. مع ذلك أحسستُ بالضّيق بسبب بعض التّعاليق التي أثارها الكتاب هنا وهناك.

في كتابته، زعم بعضُ النُّقّاد، بأنّي عدلتُ عن كلّ همّ جماليّ وبأنّي اخترتُ تقديم وثيقة خام للقرّاء. كان ذلك خاطئاً تماماً. ليس موكولاً إلي أن أقرّر ما الذي سيساويه كتابي على الصّعيد الأدبي؛ لكنّي لم أنسَ أن أنزّله منزلة أدبيّة ما. رفضتُ أن تُوسَمَ سيرتي الذاتيّة بالـ «التّحفة الفنّية»، شرحتُ لماذا: إنّها تسمية استهلاك وأجد صادماً أن تُطَبَّقَ على كتابات أيٍّ من المؤلّفين. هذا لا يعني أنّي قرّرتُ القيام بالعمل كما اتّفق.

حسب بعض المُنظّرين، لا ينتمي الحِوارُ إلى الأدب لأنّه يطوي في جمل قصيرة ذات دور أدائي، مضموناً مصنوعاً سلفاً. لن يكون كاتبه، حسب تمييز لرولان بارت، سوى *شخص بصدد الكتابة* وليس *كاتبًا*. صحيح، كما يقول فاليري، أنّه لا وجود لعمل أدبيّ مهمّ إلّا إذا كانت اللّغة ضمن الرّهان، ولا معبر للمعنى سواها، مُحدثة ابتكاراً في صُلب الخطاب نفسِه. لكن لمَ قد تمنع نيّة التّحاوُر كلَّ بحثٍ لفظي؟ كي تسيل الفكرة جيّداً من دون تردّد داخل الرّموز، يجب أن يكون هناك نظامٌ مُحكمٌ يصل الفكرة بالرّمز؛ في الكيمياء، الماء =H_2O، لا أكثر ولا أقلّ. المُصطلحاتُ شفّافة،

الشّيء المقصود ليس حقيقة بل مفهوماً. لكن عندما تسمُ الكلماتُ الأشياء نفسها، فستكون لها معها علاقات مُعقّدة وتُؤدّي احتمالات المزج بينها إلى نتائج غير متوقّعة. ذكّر جاكوبسون في مقالٍ له حول الواقعيّة الفنّيّة (صادر سنة 1921. مترجم في الأزمنة المعاصرة عدد شتاء 1966). بأنّ غوغول كان يجد شعريّاً تعديد الأشياء النّفيسة التي امتلكها أمير موسكو ووليّ العهد كروتشنيلك Kroutchennylk عملاً يتّخذ مرجعيّته من العالم لا يجب أن يكون مجرّد نسخ لأنّه لم يُمنَح موهبة الكلام. الأحداث لا تُلمّح إلى تعبيرها، إنّها لا تُملي شيئاً: من يعكسُها سيكتشف ما يجدر قولُه، من خلال عمليّة القول. إذا اكتفى بالأماكن العامّة، والمُتّفق عليه، سيسقط حتماً خارج الأدب؛ لكن أبداً عندما يُسمِع صوتَه الحيّ.

إن كان الأمر يتعلّق برواية، بسيرة، بنصّ، بكتاب تاريخي، أو أيّ عمل إبداعيّ آخر، فإنّ الكاتب يحاولُ ربط صلة مع الآخر من خلال فرادة تجربته المعيشة؛ على عمله الفنّي أن يكون حافلاً بوجوده وبعلامته الخاصّة: وأنّه من خلال أسلوبه ونبرته وإيقاع الحكاية سيتسنّى له التّأثير. ما من نوع مُميّز بالأساس، وما من نوع محكوم عليه بالزّوال. العملُ -لو نَجحَ – فإنّه يُعرّفُ عموماً كمنجز كونيّ فريد في عالم مُتخيَّل. من خلال العمل الإبداعي، يمنحُ الكاتب نفسه موضعاً فعليّاً: نوّه سارتر بهذه العمليّة حين أعلن أنّ الكاتب مسكون «بمصّاص دماء (جرذانٌ ورجال).». الـ*أنا* التي تتكلم تتخذ مسافة من الـ*أنا* المعيشة مثلما هو الحالُ بالنّسبة إلى كلّ جملة تنبع من تجربة. إن لم يخلط الجمهور بينها وبين غيرها، فإنّ *سلطة الأشياء* لم تكن لتكون موضوع سوء تفاهم مؤسف في نظري أكثر من الخطأ الذي شرحتُه للتوّ.

تمنّيتُ لو أنّ هذا الكتاب لم يعجب. تلقّيتُ تهاني كثيرة على تفاؤلي فيما كان قلبي يكادُ ينفطرُ سخطاً. نفثتُ ذلك الغضب، ذكّرتُ بفظائع الحرب على الجزائر: تمنّيتُ لو أنّي أزعجتُ قرّائي. لكن لا. في أكتوبر 63، كان التّعذيب والمجازر تاريخاً قديماً لم يعد يزعج أحداً. لم أعجب، لكن لسبب مغاير تماماً: تحدّثتُ دون الإبقاء على الشّيخوخة. لم أكن

أعلم قبل ذلك أنّ هذا الشّأن هو تابو وأنّ نزاهتي غير لائقة. تلقّيتُ بدهشة لوماً بدل النّقد، والبعضُ ممّن كان يراسلني لطمني حقّاً. كلّ الأماكن المُشتركة التي ذكرتُها في نصّ *الشّيخوخة*، قيّدتني: كلّ الفصول لها سحرها؛ «الخمسون»، هو ألق الخريف، ثماره العذبة وأوراقه الذّهبيّة! صحافيّة أكّدت أنّ عمليّة شدّ وجه جيّدة ستحُلّ جميع مشاكلي. أخرى ضربت لي مثلاً بامرأة في سنّي، مازالت ترتاد الحانات، والعلب اللّيليّة ودور الأزياء آخر صيحة؛ سرّ هذه «القاطرة الباريسيّة» هو أنّها «مؤمنة في سرّها». لم أكن لأشير إلى هذه الحماقات لو لم تجد صدى عند قرّاء أثبتوا تبصّراً يوماً ما؛ كي لا أخيّبهم، كان عليَّ، حسب رأيهم، أن أزعم شعوري بحيويّة الشّباب وأنّ الحال سيظلّ كذلك حتّى آخر نفس في حياتي.

شرحتُ ردّة فعلهم لنفسي. كثير منهم شيّدوا لي قالباً انضووا تحته. يريدون التّفكير في أنّي وبشكل ثابت منذورة للهدوء، رغم أنّي من خلال نموذجي برهنتُ على أنّه من المستحيل الحفاظ على ملامح فكريّة واحدة في مواجهة كلّ ذلك التعدّد الذي يزخر به الوجود، ومنه على وجه الخصوص الشّيخوخة التي لا تُشكّل حادثاً بل مصيراً جماعيّاً مُشتركاً. إن كانت ترعبني فلأنّها مُرعبة، إلّا أنّهم نفروا من استيعاب ذلك. المسألة إذن، باستثناء الموت المُبكّر، هو أنّ آونة في وجود الإنسان ستأتي حيثُ يتشكّل لديه وعيٌ ذو اتّجاه واحد بأنّ هناك حدوداً قد تخطّاها. قد يحدث ذلك مُبكّراً في حال مرض خطير، حادث، فقد عزيز؛ أو متأخّراً جدّاً، إن أتيح للمرء استكمال مسيرته في ظروف مريحة. بالنّسبة إليَّ، لقد صدمتني شيخوختي بين سنة 1958 و1962. متأثّرة بالجرائم التي ارتُكِبَت باسم فرنسا، عدتُ بحنين إلى ماضيَّ وخلصتُ إلى أنّي، على مستويات عدّة، يجب أن أودّعه الوداع الأخير. إن كنّا حقّاً قد أحببنا الحياة، إن كنّا مازلنا نُحبّها، فما من استسلام يأتي من تلقاء نفسه. لم آسف لأنّي قلتُ ذلك. خطئي كان، وأنا أصمّم مستقبلي، عكستُ عليه سأمي المتراكم خلال السّنوات الأخيرة: كان أقلّ عتمة ممّا تنبّأت له أن يكون.

أسيء فهم الجملة الأخيرة من كتابي ومازالت إلى اليوم تثير تعاليق ساخرة، ساخطة، عدائيّة أو مُشفقة. إنّه في جزء منه خطئي. لقد أسأتُ بناء الخاتمة. بعودة سريعة إلى حياتي، تحدّثتُ أوّلاً عن الأشخاص الذين يعنون لي الكثير: علاقتي بسارتر، الأدب، دروس العالم. ثمّ لمّحتُ إلى سنّي. لكن ليس على الصّفحات الأخيرة أن تنطوي على هذا الاستنتاج: «لقد شُوِّهتُ». لقد انسحب ذلك على مُجمل التّقرير الذي صُغتُه. إنّه لا يُفسَّرُ بلقائي مع صورتي في المرآة لكن من خلال ثورتي القلقة ضدّ فظاعة العالم: مقارنة إيّاها بأحلام مراهقتي، لاحظتُ كم كانت مُغالطة. «لم نتلقّ وعداً بشيء»، قال «ألان». هذا خطأ. الثّقافة البورجوازيّة وعد: بوجود متآلف حيث يمكننا أن ننعم بخيرات العالم؛ إنّها تضمن قيماً أكيدة تندسُّ في وجودنا فتضفي عليه سحر الفكرة. لم أنتزع نفسي بسهولة من أمل كبير كذاك.

كان لخيبتي، أيضاً، أبعادٌ أنطولوجيّة. كتب سارتر في *الكائن والعدم* (ذكرتُ هذا النصّ في *الشّيخوخة* لكنّي عند ضرورة التّذكير به هنا، إضافة إلى بيت مالارمي الذي يقول: عطر الشّجن هذا / الذي، حتّى دون حسرة ودون نكسة يترك / ما جناه من حُلمٍ في القلب الذي جناه).: «يأبى المُستقبل الانضمام، إنّه ينزلق في الماضي كمُستقبل قديم... من هنا تنشأ الخيبة الأنطولوجيّة التي تنتظر الاعتماد على النّفس في كلّ إسفار صوب المُستقبل. حتّى لو كان حاضري متطابقاً بصرامة في مضمونه مع المُستقبل الذي أعكسُ عليه نفسي من خلال ذاتي، فإنّه ليس الحاضر الذي أعكسُ نفسي عليه، لأنّي إنّما أسقط ذاتي على المُستقبل بما هو أمر لاحق، أي بما هو نقطة التقاء مع كياني».

اكتشاف بؤس النّاس، الفشل الوجودي الذي أرعبني من المُطلق الذي ألهم شبابي: تلك هي الأسباب التي أملت عليَّ هذه الكلمات: «لقد شُوِّهتُ».

خلال حوار (نُشر في آخر الكتاب الذي خُصّص لي)،. سألني فرنسيس جونسون إن كنتُ قد استسلمتُ وأنا أصوغ «نوعاً من الدّرامية

الأدبيّة». أجبتُ بأنّه من زاوية ما، نعم. ثمّ جعلني سؤاله أفكّر في العلاقة التي تربط بين حقيقة أدبيّة بحقيقة معيشة. بما أنّ اللغة ليست ترجمة لنصّ مبنِيّ بل تُشتقُّ من تجربة غير واضحة المعالم، كلّ كلام ليس سوى «طريقة كلام»: يمكن أن يوجد العديد منها. لهذا يكره الكاتب أن يُحسَب عليه الكلام لفظيّاً. تقول التّجربة ما تريد قوله: مأخوذة، موثوقة، مُكمّمة بالعبارات المكتوبة. إنّهم يُجمّدون تفكيري الذي لم يتوقّف يوماً عن الحركة. الدّراميّة الحقيقيّة هي أن تضع بعد كلمة شُوّهتُ نقطة نهاية. أنا لا أتبرّأ منها؛ لكنّها ليست «الكلمة الأخيرة» لتجربة استمرّت بعدها. أقيس امتداد تلميحاتي القديمة، أرى الواقع بعين متبصّرة: لكن هذه المواجهة لم تعد تغوي صبياً بالذهول.

أشرتُ إلى هذا من قبل: إنّ سوء الفهم الأخطر متأتٍّ من كون القارئ قد أنكر المسافة التي تفصل بين الكاتب لحماً ودماً وبين الشّخصيّة التي مُنحت شكلاً فعليّاً بفضل فعل الكتابة. إنّه يسمو على الوقت؛ وتحت ريشته، يصبح الحاضر مساوياً للأبديّة: إنّ لهذه التّصريحات طبيعة غير قابلة للتّجاوز وهي نهائيّة. الفرد الذي يعيش عكس ذلك يتغيّر؛ اللّحظاتُ عابرة بالنّسبة إليه؛ يتغيّرُ مزاجُه باستمرار. ومن الخطأ الزّعم بأنّ أحداً قادر على الإحاطة به، في عرضيّته الفوريّة، من خلال ما اختار قوله حول نمط الحاجة. لأنّي أكتب كلاماً مُحبَطاً فإنّ قسماً من جمهوري رأى أنّي امرأة مُحطّمة بسبب السنّ والخيبات. بل إنّ هناك اختصاصيين نفسيّين رجّحوا أنّ الجزء الأخير من كتابي يُعزى إلى نوبة اكتئاب وأصرّوا على مساعدتي كي أتخطّى الأزمة. مع أنّها منطقة مُشتركة حتّى إنّ كتّاباً مازحين كثيرين هم في الحقيقة أناس حزانى والكثير من كتّاب الشّجن والمرارة هم في الحقيقة أناس يطفحون حيويّة ومرحاً. بداية حكايتي، حيثُ استعرضتُ مسرّات التحرّر، لا تبعد كثيراً عن الفترة التي كُتبت فيها الخاتمة. فردٌ مكسور نفسيّاً – مهزوم، يائس – لا يكتب شيئاً على الإطلاق: يأوي إلى الصّمت.

يُوجّه هذا التّفسير إلى القرّاء ذوي الضّمائر الحيّة ممّن عرفتُهم. لكنّي أعلم جيّداً أنّ الأسباب الحقيقيّة التي تقف وراء هذا التّأويل الخاطئ، هي مصلحة خصومي في نشره: يلائمهم أكثر أن يأخذوا تلك الصّفحات على أنّها خلاصة فشل وتنصّل من حياتي، رغم كلّ الجُمل التي ترفض قطعاً هذا المذهب. في هذا الشّأن تحديداً، سأعود في آخر هذا الكتاب لأفصّل مواقفي اليوم.

لم أهتمّ، في حينه، بمصير كتابي. كانت أمّي قد نُقلت للتوّ إلى المصحّة: استحوذ على كياني مرضها واحتضارها. لاحت لي فجأة فكرة روايتهما بعد الدّفن مباشرة، عنوان الكتاب وفقرة الإهداء أيضاً. أمضيتُ الشّتاء أكتب. كنتُ أرى أمّي تقريباً كلّ ليلة في الحلم. كانت حيّة وأحياناً كنتُ أفرح لأنّهم نجحوا في إنقاذها؛ غالباً ما أراها محكومة بالموت فيتملّكني الخوف.

ادّعى أحد الجرّاحين، ذكرتُ اسمه، أمام واحدة من صديقاتي - بأنّه هو من أجرى العمليّة لأمّي: لم يقترب منها قطّ. سمح لنفسه من خلال هذه الكذبة كي يؤكّد أنّي لم أقض كلّ تلك السّاعات إلى جانبها إلّا لهدف وحيد هو أن أجمع ما يكفي ممّا قد يُقال. ناقدان أو ثلاثة غضبوا لأنّي تجرّأتُ على «تدوين ملاحظات» عند وسادة مُحتضرة. نظرة كهذه على الأدب تفيض عفويّة متخلّفة. لم أفكّر قط في «تدوين ملاحظات» حول الأحداث أو الوضعيّات التي أثّرت فيَّ كي أحبّرها لاحقاً على الورق. لم أخطّط لكتابة *موت هادئ جدًّا*. خلال الفترات الصّعبة من حياتي، أن أخربش على الورق جملاً - قُرئت أم لم تُقرأ فيما بعدُ - يمنحني راحة كتلك التي تمنحها الصّلاة للمؤمن: أتجاوزُ وضعي الخاصّ عبر اللّغة، وأتواصل مع الإنسانيّة جمعاء؛ لكنّ الخطوط التي رسمتها إذًا، إن كانت قد ساعدتني على العثور على بعض التّفاصيل، فإنّها لم تكن ضروريّة كي أتحدّث عن الأيّام التي عشتُها: لقد نُقشت في داخلي إلى الأبد. إن لم أكن سوى مُلاحظ مُحايد، لم أكن لأوقع لدى القرّاء أثراً أو أحرّك عاطفة.

عدا بعض النُقّاد النمطيّين، فإنّ الصّحافة قد خدمتني كثيراً. وتلقّيتُ العديد من الرّسائل المُفعمة بالحرارة الإنسانيّة. يقول أصحاب الرّسائل إنّه، رغم الحزن، فإنّ كتابي قد ساعدهم على تحمّل احتضار عزيز عليهم، إن في الوقت الحاضر أو عبر الذّكريات. كانت مكافأتي هي تلك التّعليقات. كلّ ألم يُمزّق صاحبه؛ لكن ما يجعله لا يُحتَمَل، هو شعور المتألّم بأنّه معزول عن بقيّة النّاس؛ لكن عندما نتقاسمها فإنّها تكفّ عن أن تكون منفى. إنّه ليس من باب المرارة، أو الاستعراضيّة، أو الاستفزاز أن يروي الكُتّاب تجارب مؤسفة أو رهيبة: إنّهم يجعلون ألمهم داخل صدورهم أمراً كونيّاً عن طريق الكلمات، كأنّها عمليّة مواساة أخويّة. إنّها من وجهة نظري أحد أهمّ أدوار الأدب وهو بالتّحديد ما يجعلُه أمراً لا غنى عنه: أن نتحمّل الوحدة التي تجمع بيننا والتي، من المُدهش، أن تكون سبباً في اغترابنا بعضنا عن بعض.

كان لذلك الكتاب أيضاً طبيعة السّيرة. عندما أتممتُه، تواعدتُ مع نفسي بألاّ أكتب شيئاً عنّي مدّة طويلة. بدأتُ أحلُم بشخصيّات ومحاور بعيدة جدّاً عن وجودي الخاص؛ أردتُ إقحامهم في رواية حيثُ سأتحدّث أيضاً، لكن من خلال أبطال مُختلفين عنّي كثيراً، عن مواضيع تهمّني مباشرة: التّقدّم في السنّ. قبل الشّروع في العمل، وجدتُ متعة لا تُضاهى وأنا أكتب مُقدّمة *اللّقيطة* لفيوليت لودوك. أحببتُ كلَّ كتبها، وهذا بالذّات أكثر من البقيّة. قرأتُه مرّات، حاولتُ أن أفهم السرّ الذي يمنحه قيمته. عدا المُقدّمة التي خصّصتُها لـ«ساد» Sade، لم أكتب نصوصاً نقديّة أخرى: أتساءل لماذا. أن تغوص في عمل أدبيّ، جاعلاً منه عالمك الخاص، محاولاً اكتشاف أوجه انسجامه وتنوّعه، متغلغلاً في النّوايا، أن تضبط منهجيّة كتابته، هو أن تخرج من جلدك وكلّ سفر يُسعدني.

لا سارتر ولا أنا، كنّا ميّالين إلى المشاركة فيما يُسمّونه بالـ«التّظاهرات الأدبيّة». مع ذلك خرقنا القاعدة خريف 1964. استلطفنا كثيراً مجلة وضوح، التي حرّرتها مجموعة من الشّباب الاشتراكيّين في نيّة إذابة الجليد

عن مُثقّفي الحزب. طلب منّي مُديرها، السيّد «بران»، أن أساهم في نقاش مفتوح للجمهور، حيثُ يلتقي كتّاب «ملتزمون» وكتّاب من تيّار الرّواية الجديدة المُتحزّبين؛ سيكون الدّخول بمقابل وستصلح العائدات لتجديد موارد المجلّة. وافقت. دافعتُ أنا و«سومپران» عن فكرة الالتزام مُخالفين بذلك «كلود سيمون»، «إيف برجي» والنّاقد «جانفي». في محاورة لاحقة، جعلني «بران» أسمعُ أنّ الأمر بالنّسبة إلى «برجي» و«سيمون» كان مُجرّد «تصفية حسابات مع سارتر»؛ كانا قد عبّرا عن تحاملهما في حوار نُشر في صحيفة *الإكسبرس*. في مثل هذه الحالة، على سارتر وحده أن يُجيبهما: لن أحضر إلّا إذا حضر أيضاً. اتّفق سارتر و«بران». سرعان ما حدثت أشياء تدعو إلى الفضول! ينسحب «جانفي» مُحتشماً، إذا تكلّم سارتر، تاركاً مكانه لـ«أليكسوس». كان «أليكسوس»، المُفكّر الماركسي، قد كتب حول جائزة نوبل الممنوحة لسارتر، أنّ الأخير كان سيعيش تحت نظام هتلر عن طواعيّة وبسهولة، كما كان سيفعل تحت نظام ستالين: لم يكن ممكناً أن يجرّنا معه. «للأخذ أو للتّرك، قال لي بران – لقد تركنا»، قلتُ. رفض بران، المُتشبّث بمشروعه، مشاركة أليكسوس. انسحب كلود سيمون غاضباً وانهال على سارتر بالشّتائم في مقال نشرته له *الإكسبرس*. ضغط على كتّاب «الرّواية الجديدة» كي يقفوا على الحياد فلا يحضرون الاجتماع. إلّا أنّ «فايي» و«ريكاردو» أصرّا على المجيء والتحدّث.

كان هناك ستّة آلاف شخص في مُدرّج «قاعة التّكافل» وفي مختلف القاعات المُجهّزة بمُضخّمات صوت. كان التّلفزيون الألماني حاضراً وكنّا كأنّنا نُطهى مُختنقين تحت نار الأضواء الكاشفة. كان من حقّنا جميعاً الهتاف والتّأييد. افتتح بران، الذي ترأس الحوار، الجلسة، ثمّ تحدّث «سومبران» عن مسؤوليّة الكاتب. قرأ ريكاردو بنبرة مُثمِّنَة وحادّة، صفحات عرض فيها بارت الفرق بين «من يكتب» écrivant وبين «الكاتب» écrivain: وحدهم كتّاب «الرّواية الجديدة» جديرون باللّقب الأخير حسب رأيه. ارتجلتُ إجابة قبل أن أشير إلى بعض أفكاري حول

الأدب. ثمّ تحدّث «فابي» بعدائيّة وتحدّث «بيرجي» بهيجان. تدخّل سارتر في الأخير. عند القراءة، كان نصّه هو الأهمّ؛ لكنّه كان مُنهكاً بالحرارة والتّعب وقال أشياء بطريقة صعبة. لا أحد أقنع الآخر؛ إنّها القاعدة: باسم ما يُزعَمُ بأنّه «تبادُل آراء»، احتفظ كلّ منهم بآرائه. لكنّ الجمهور بدا راضياً وعاشت مجلة وضوح بعض الوقت.

كتبتُ روايتي على امتداد سنة، بمثابرة لكن دون اقتناع كبير. عندما عُدتُ من العطلة في أكتوبر سنة 1965، قرأتُ المُسودّة، ووجدتُها رديئة وفهمتُ أنّه من المُستحيل تطويرها. إنّها تحتوي على فقرات طويلة ميّتة يمنع عنّي البناء حذفها وأنّه ما من حلّ آخر سينجح لإنعاش النصّ. دفنتُ المخطوط في خزانة دون أن أريها لسارتر.

بدأتُ في مشروع آخر: التحدّث عن المجتمع التكنوقراطيّ الذي وقفتُ دائماً على أبعد مسافة ممكنة منه والذي، مع ذلك، أعيش داخله؛ لقد استثمروا في شخصي، من خلال الصُّحف والمجلاّت والإشهار والإذاعات. لم يكن هدفي أن أصف التّجربة الاستثنائيّة لبعضهم: أردتُ أن أُسمِعَ ما أصبح اليوم يُسمّى «الخطاب» خاصّته. تصفّحتُ المجلاّت والكُتب. وجدتُ تحاليل ونظريّات صدمتني بجمودها؛ أخرى جعلتني فرضيّاتها وأفكارها المُشتركة أنتفض. لم يعلق في ذاكرتي سوى النّصوص التي كان لأصحابها «نفوذ»، استمتعتُ كثيراً.

لا أحد في هذا الوجود الذي أخلصتُ إليه، يملك الحقّ في أن يتكلّم نيابة عنّي؛ مع ذلك، عليَّ، كي أقدّمه، أن أتّخذ منه مسافة. اخترتُ كشاهدة امرأة شابّة شريكة لمُحيطها كي لا تحاكمه، نزيهة كفاية كي تعيش هذا التّواطؤ بنوع من الانزعاج. قرنتُها بأمّ «في الرّيح» وأبٍ رجعي: فسّر هذا الانتماء المزدوج شكوكها. بفضل والدها شكّت في القِيَم التي يؤمن بها وسطها: النّجاح والمال. سؤال طرحته عليها ابنتها ذات العاشرة، جعلها تتساءل بجدّية؛ لم تجد إجابة واضطربت في ظلمات عبثاً حاولت الخروج منها. كانت المُشكلة، دون تدخّل منّي، أن تبدو أعماق ليلها شفّافة كي تسمح

برؤية بشاعة العالم الذي تختنق داخله. في رواياتي السّابقة، كانت وجهة نظر الشّخصيّة مُعلنة بوضوح ومعنى الكتاب يصعد من خلال المواجهات التي تخوضها. في هذه الرّواية كان التحدّي هو أن أجعل الصّمتَ ينطق. كان المأزق جديداً بالنّسبة إليَّ. هل توصّلتُ إلى حلّه؟ عندما صدر الكتاب في نوفمبر 1966، رجّح عدد كبير من النّاس بأنّي فعلت. حافظ اثني عشر أسبوعاً على بقائه في قائمة الأفضل مبيعاً، بيع منه ما يقارب الخمسة والعشرين ألف نسخة. أحبّه نُقّاد كثيرون وجميع أصدقائي وأغلب من كان يراسلني. شباب على وجه الخصوص قالوا أو كتبوا لي: «نعم، إنّها حكايتنا؛ نحنُ نعيش تلك الظّروف؛ مثل لورونس، نشعر بأنّنا وقعنا في الفخّ، نحنُ مساجين». هنّأني قرّاء لأنّي جدّدتُ أسلوبي وتقنياتي.

آخرون، وبعضُ النقّاد، عتبوا عليَّ ذلك: «إنّه عالم فرنسواز ساغان وليس عالمك. إنّه لا يشبه سيمون دو بوفوار». كما لو أنّي بعتُهم بضاعة مُختلفة عمّا هو مشارٌ إليه في العلامة. الأمر الذي خيّب بعض القرّاء هو أنّهم لم يجدوا أنفسهم بين الشّخصيّات. لم يكن الوسط الذي أصفه مُهمّاً، اعترض بعضُ الاشتراكيّين. تأسّفوا على غياب «بطل إيجابي». لقد تمنّوا، دون شكّ، لو أنّ لورونس مرّت من الخطأِ نحو الحقيقة عبر «صحوة ضمير» متبصّرة.

في تقرير كتبه «فرنسوا نوريسي» في صور بديعة، أدلى بملاحظة لم أفهم إلا لاحقاً مدى ذكائها. ماذا كان رأيُ النّاس الذين ذكرهم الكتاب والذين يشكّلون الجمهور الأكبر؟ بعضهم لم ير سوى النّار. تسلّوا وتضايقوا دون أن يشعروا بأنّهم معنيّون بما يقرؤون. آخرون اتّهموني بالقسوة الشّديدة على البورجوازيّين: إنّهم ليسوا حمقى إلى ذلك الحدّ، وليسوا سيّئين أيضاً إلى ذلك الحدّ.

بالنّسبة إلى الحماقات، فإنّ كلّ الجمل التي جعلتها تبدر من الشّخصيّات، استُقبِلَت من قبل «المُفكّرين» الذين كان إداريّونا يجلّونهم أكثر من غيرهم، «م. لويس أرماند» مثلاً. أمّا بالنّسبة إلى الانحطاط

الأخلاقي، وقبل أن أُتّهم به أيضاً، بقيتُ أعلى من الحقيقة: من حيثُ إنّهم منسجمون مع ذواتهم بأريحيّة، المحظوظون ليس لديهم وعي بالأنانيّة، والجشع والأصوليّة والقسوة التي لمستُها بذهول عند بعض الأمثلة. نادراً ما عتبوا عليَّ العكس: وهو أنّي تعاملتُ بتسامح كبير مع أبطالي البؤساء. لم أمنح لورونس العزوف الذي يوحي به الأبطال لكن من خلال كلامهم وتصرّفاتهم، لا يمكن إلّا أن نكنّ لهم الكراهية. إلّا إذا كانوا يُشبهوننا.

خلّفت شخصيّة الأب في أحيان كثيرة سوء فهم: احترمتُ طريقته في العيش، وأشاركه أفكاره. كانت في نظر لورونس مثار إعجاب أعمى؛ لكن شيئاً فشيئاً، أثناء رحلتهم إلى اليونان، ثمّ عودتهم إلى باريس، زاغت عيناها. أراد هذا الحكيم المُزيّف أن يغفل عن مآسي النّاس: استخدم ثقافته كي يكفل لنفسه راحة أخلاقيّة يفضّلها على الحقيقة. كان أكثر ميلاً للثّروة والمجد ممّا كان يدّعي، ولم يكن يتراجع أمام التّنازلات. زواجه الثّاني من طليقته يُجسّد التّواطؤ بين البورجوازيّة التّقليديّة والبورجوازيّة الجديدة: إنّها طبقة واحدة. خيبة أمل لورونس لم تُعبّر عنها الكلمات بل خُطّت على جسدها: فقد أُصيبت بنوبة فقدان شهيّة.

كيف نسبوا إليَّ اللّغو المنبعث من أنايَ القديم حول سعادة الفقراء وجمال البساطة؟ كان جون جاك سرفان-شريبير هو أوّل من اقترف هذه الغلطة (في *التحدّي الأمريكي*. في شأن هذا النصّ، آخذني على ماضويّة ليست من طينتي).؛ آخرون لم يشكّوا في نفاذ نظرته فتبعوه: أعيد نشر النصّ المقصود في دوريّة مُستلهمة من فلسفة «لانزا ديل فاستو» Lanza del Vasto[12]. باندهاش، أبلغني أحد الأساتذة الذين يعرفون آرائي بأنّه اقتُرح في الباكالوريا كواحد من بين المُفكّرين المُعبّرين عن أفكاري: كان على المُترشّحين التّعليق بإعجاب!

12- لانزا ديل فاستو Lanza del vasto: شاعر وفيلسوف وكاثوليكي إيطالي وهو تلميذ غربيّ للمهاتما غاندي، عمل من أجل الحوار والتسامح بين الأديان، والتجديد الروحي، والنشاط البيئي، ونبذ العنف.

أمر خطير أن تطلب من الجمهور القراءة بين الأسطر. أكّدتُ ذلك مُجدّداً. تلقّيتُ منذ فترة قريبة شهادات نساء في الأربعين هجرهنّ أزواجهنّ إلى أخريات. رغم تنوّع الظّروف والطّباع، فإنّ في حكاياتهنّ أمراً مُشتركاً مثيراً للاهتمام: إنّهنّ لا يفهمن شيئاً ممّا يحدث لهنّ، بدت لهنّ تصرّفات أزواجهنّ متناقضة وشاذّة، ومنافساتهنّ غير جديرات بحبّ رجالهنّ؛ تهاوى عالمهنّ، وانتهى بهنّ الأمر إلى عدم معرفة من هنّ على وجه التّحديد. على نحو قريب من لورونس،كنّ يضطربن داخل الجهل ولاحت لي فكرة إخراج ليلهنّ إلى النّور. اخترتُ بطلة جذّابة لكن ذات انفعاليّة رهيبة؛ مُعرِضَةً عن مسيرتها المهنيّة الخاصّة، لم تُوفّق في معرفة كيفيّة الاهتمام بمسيرة زوجها. توقّف الأخير عن حبّها منذ زمن لأنّه متفوّق عليها معرفيّاً. مال بجدّية كبيرة إلى مُحامية منفتحة، أكثر حيويّة من زوجته وقريبة منه. رويداً، كان على مونيك أن تبدأ حياة جديدة.

لم تكن غايتي رواية الأحداث بشكل سخيف، لكن أن أظهر من خلال دفتر مُذكّراتها، كيف حاولت الضحيّة التهرّب من الحقيقة. كانت الصّعوبة أكبر ممّا في الـ*صور البديعة* لأنّ لورونس كانت تبحث على نحو مُحتشم عن الضّوء، فيما صبّت كلّ محاولات مونيك في التّعتيم، من خلال الكذب على الذّات، النّسيان، ارتكاب الأخطاء؛ من صفحة إلى صفحة، كان دفترها يطعن مضامينه: لكن من خلال اختلاق آخر وعمليّة إخفاء أخرى في كلّ مرّة. كانت تحيك بنفسها الظّلمات التي ستلجأ إليها إلى حدّ تفقد معه صورتها الخاصّة. أردتُ أن يطّلع القارئ على تلك الرّواية تماماً مثل رواية بوليسيّة؛ جنيتُ من هنا وهناك إشارات منحتني إمكانيّة العثور على حلّ اللّغز: لكن شرط أن نقتفي أثر مونيك كما نقتفي أثر الآثم. ما من جملة تحمل معنى مُستقلاً راسخاً، ما من تفصيل يحمل قيمة إلّا عندما يوضع في سياق الدّفتر إجمالاً. لم يُعلن عن الحقيقة أبداً: كانت، إذا نظرنا إليها عن قرب، تخون نفسها.

إلى جانب *المرأة المُحطّمة*، نشرتُ أيضاً روايتيْن أخريَيْن. في

مونولوج كان المحور هو العلاقة، أيضاً، بين الحقيقة والأكاذيب في الخطاب: بعضُ الرّسائل التي وصلتني أظهرت لي كيف أمكنها أن تنفجر من خلال جُملٍ صاغتها بنفسها كي تتخفّى. شجبت مراسلتي جحود الابن، ولا مبالاة الزّوج؛ من منطلق أنّها تسقط الأحداث على وضعها: وضع امرأة متعسّفة، وسليطة لا تُحتَمَل. اخترتُ حالة قصوى: امرأة تعي أنّها المسؤولة عن انتحار ابنتها وأنّ مُحيطها بأكمله يدينها. حاولتُ بناء مجموعِ المغالطات، والتنبّؤات، والثّغرات التي من خلالها حاولت أن تمنح نفسَها الحقّ. لم تنجح في ذلك إلّا عندما دفعت بفصامها الهذياني إلى حدّ تمزّق الحقيقة. وكي تدحض حكم الآخر، طوت العالم بأسره تحت حقدها. أردتُ من خلال هذه المرافعة المُزيّفة أن يكتشف القارئ وجهه الحقيقي.

في سنّ *التكتّم* استدعيتُ أحد محاور الرّواية التي تخلّيتُ عنها: التقدّم في السنّ. صدمتني كلمة من «باشلي»، أدان بها جدب العلماء الشّيوخ: كيف لكائن فاعل أن يتحمّل الحياة عندما يشعر بالعجز؟ تخيّلتُ زوجيْن مُثقّفيْن، ملتحميْن إلى حدّ ما، يجدان نفسيهما منقسميْن لأنّهما لا يتحمّلان ثقل السّنين بنفس الطّريقة. اندلعت الأزمة بينهما انطلاقاً من نزاعٍ مع ابنهما؛ لكن ما كان يهمّني هو العلاقة بين الزّوجَيْن. كانت تلك أقلّ رواياتي الثّلاث أهمّية بالنّسبة إليَّ. لم يكن بناؤها مُعتمداً على الصّمت: بل كُتب بوضوح، بأسلوبي القديم. ثمّ إنّ الموضوع كان أكثر امتداداً من نصّ قصير، ما جعلني بالكاد ألامس جوهر المسألة.

ثمّة محور مُشترك بين الحكايات الثّلاث: الوحدة والإخفاق. في الأخيرة، تمّ تجاوز الفشل، وعاد الحوار، لأنّ البطلة حافظت على تعلّقها بالحقيقة حتّى في قلب المحنة. لكن باختيار لورونس، وميريال أكثر، الكذبَ اليائس، امتنعت عن كلّ تواصل مع الآخرين؛ ربّما أمكن للأولى يوماً، أن تجد الشّجاعة الكافية لتواجه الحقيقة وتربط صلات مع مثيلاتها. أمّا الثّانية، فلا أرى مخرجاً عدا الجنون أو الانتحار.

عندما صدر الكتاب أواخر يناير 68، لقي نجاح *الصّور البديعة* ومبيعاته؛ تلقّيتُ عدداً كبيراً من الرّسائل كتبها كتّابٌ وطلبة وأساتذة فهموا جيّداً مقاصدي وهُنّئتُ لأنّي جدّدتُ نفسي مرّة أخرى. مع ذلك، وفي المُجمل، أسيء فهم الكتاب تماماً كالذي سبقه وهذه المرّة أضناني أغلب النُقّاد.

منذ زمن، ونحنُ، أنا وأختي، نتمنّى أن يُوثّق لي أمر لم يسبق نشرُه: لم يكن ثمّة ما هو أقصر. الحكاية التي وسمت الكتاب بعنوانها، *المرأة المُحطّمة*، كان له القدرة على إلهامها ولقد أوحى لها بأفكار موجعة. أردتُ أن أظهر للجمهور هذا الكتاب، ذا الطّبعة المحدودة، موقّعاً من طرفنا نحن الاثنتَيْن، ورضيتُ أن يُنشر كتابي ضمن أجزاء في مجلة هي *Elle*. سرعان ما غُمرتُ برسائل من نساءٍ مُحطّمات، أو يعشن التمزّق. عرفن أنفسهنّ في البطلة، ألصقن بها كلّ الفضائل وذُهلن لأنّها ظلّت متعلّقة برجل غير جدير بالحبّ؛ يثبتُ انحيازُهنّ إزاء أزواجهنّ، ومنافساتهنّ وإزاء أنفسهنّ، أنّهنّ يتقاسمن عمى مونيك. ترتكز ردود فعلهنّ على مغالطة كبيرة.

قرّاء عديدون آخرون، قرؤوا الرواية بنفس البساطة، اعتبروها مُبهمة. اعترف أغلب النُقّاد بأنّهم أساؤوا قراءتها. اكتفى برنارد بيفو بالفصل الأوّل الذي نُشر في مجلة هي، فسارع إلى التّصريح في صحيفة «لو فيچارو الأدبيّة» Le Figaro Littéraire، قائلاً: بما أنّ *المرأة المُحطّمة* قد ظهرت في مجلّة نسائيّة، فإنّ الرواية بلا شكّ رواية سيّدات، رواية مغمّسة في ماء الورد. اقتُبست العبارة في أكثر من مقال، فيما لم أكتب شيئاً أكثر سواداً من تلك الحكاية: الجزء الثاني منها هو عبارة عن صرخة ضيق وكان انهيار البطلة أكثر وحشة من الموت.

لم يفاجئني تهوّر مُراقِبِيّ. ما لم أفهمه، لماذا شحن هذا الكتاب الصّغير هذا الكمّ الهائل من الضّغينة. كادت «كلير إيتشيرلّي» Claire Etcherelli، تغادر الأستوديو وهي تدافع عنه في برنامج أمام الجمهور من إعداد برنارد بيفو. «ما تقومون به لا علاقة له بالنّقد الأدبي»، قالت له بصوت

مرتعش من شدّة الغضب: كان يثير ضحك الحضور بدعابات بلهاء. هاجمني «كانتر» بضراوة خلال نقاش مع «بيير هنري سيمون»: قال بدم بارد إنّي لم أكتب عملاً أدبياً منذ *موت هادئ جدًّا*. أعلن أحد نُقّادي في الرّاديو: «ندمتُ لأنّي كتبتُ ذلك المقال منذ صادفتُ سيمون دو بوفوار، في شارع «ران»، اليدان تتأرجحان، ضالّة، ذابلة. يجب أن تأخذنا الشّفقة بالعجائز. لأجل هذا تستمرّ غاليمار في نشر كُتبها». بعد دقيقة، من دون أن ينتبه إلى تناقضه، تبادل الغمز مع زميله: «روايتها، هي من بين الأكثر مبيعاً. – آه صحيح! نعم إنّها من بين الأكثر مبيعاً». لم يكن ناشري من أتباعه إذًا. ومع أنّي أعرف مدى كره «ماتيو غالي» للنّساء، فإنّ خوارَه أثار فضولي: «حسناً! سيّدتي، إنّه حقّاً أمر مُحزن أن يتقدّم المرء في السنّ»، كتب في مقال ساخر. كثيرون يعلمون تأسّفوا لأنّ الكتاب لم يكن في الحجم الأدبي لـ:«المثقّفين» ولا لـ:«الجنس الثاني». أيّ نفاق! في فترة ما، هاجموا كتاب «*المثقّفون*» ومرّغوا «*الجنس الثاني*» في الوحل. ربّما لأجل مواقفي آنذاك، فإنّهم ظلّوا يكنّون لي الضّغينة.

باستثناء مناسبات نادرة، فإنّي لا أبالي كثيراً بالنّقاد: أعهد بأعمالي عادة إلى بعض الأصدقاء الصّارمين والمُتطلّبين جدّاً. لكن ما يؤسفني هو أنّ قسماً كبيراً من الجمهور عزف عن قراءتي بسبب إضمار النقّاد للسّوء وأن يتعامل البعضُ الآخر مع رواياتي بخلفيّة مُسبقة. تلهّفوا على تصديق ما قالوه في شأني واستغلّوا الأمر كي يفرضوا نوعاً من التفوّق. «انتظرت حتّى تبلغ الستّين كي تعرف ما تعرفه كلّ امرأة صغيرة»، قالت إحداهنّ؛ لم أعرف أيّ اكتشاف كانت تلمّح إليه. آلمتني ردود فعل بعض النّساء ممّن يناضلن لأجل قضيّة المرأة عندما خيّبتهنّ الرّواية لأنّها لم تنطوِ على أيّ نضال. «لقد خانتنا!» قلنَ وبعثن لي برسائل لوم. لا شيء يمنع من استخلاص عبرة نسويّة من *المرأة المُحطّمة*: مُصيبتها هي استقلالها الذي كُتبت به. ثمّ إنّي لم أكن مرغمة على اختيار بطلات مثاليّات. أن تصف الفشل، والزلّة، والنيّة السيّئة، لا يبدو لي أنّ فيها ما يجعلني خائنة.

سأل محاورُ أختي في التّلفزيون حول أحد معارضها قائلاً: «لماذا صمّمتِ غلاف الكتاب الأكثر رداءة في مسيرة أختك؟» دافعت عنه بقوّة وأضافت: «ثمّة صنفان من النّاس يُحبّونها: البسطاء الذين رقّ قلبهم أمام مأساة مونيك؛ والمثقّفون الذين فهموا مقاصد الكتاب. الذين لا يحبّونها هم أنصاف المُثقّفين، من غير الأذكياء كفاية لكي يفهموها، المُتبجّحين كفاية لكي يقرؤوها بعين ساذجة». حتماً، لم يكن ذلك صحيحاً تماماً. لقد فهموا المقاصد وخلصوا إلى فشل. لكنّ الأهمّ هو أنّي لقيتُ المُساندة من قِبَل أناسٍ أقدّرهم والذين هاجموني لم يُقدّموا في المقابل حُججاً مُقنعة.

مثلما هو الحالُ بالنّسبة إلى *الصّور البديعة*، أحد الاعتراضات التي وُجّهت إليَّ هو: «هذا لا يُشبه سيمون دو بوفوار؛ ولا هو عالم سيمون دو بوفوار؛ إنّها تتحدّث عن أناسٍ لا يعنينا أمرهم». مع أنّ كثيراً من القرّاء يرون أنّي حاضرة في جميع شخصيّاتي النّسائيّة. لورونس التي في *الصّور البديعة*، المُشمئزّة من الحياة إلى حدّ فقدان الشهيّة، هي أنا. الجامعيّ السريع الغضب في *سنّ التكتّم*، هو أنا. «لكن، جميعنا نعلم ذلك، قالت لي صديقة. إنّها أنتِ وسارتر وأمّ سارتر. بالنّسبة إلى الابن فهناك ما يدعو إلى البحث عن اسم». لا يُعقَلُ أن تكون المرأة المُحطّمة امرأة غيري. «لكي تُكتَبَ حكاية كهذه، على الكاتب أن يكون قد مرّ من هناك. فيما لم تروِ كلّ شيء في *المُذكّرات*».، قال آخرون. غيرهم ابتعد كثيراً. مراسِلة سألتني إن كان صحيحاً، كما تزعم رئيسة أحد النّوادي الأدبيّة، أنّ سارتر قد قطع صلته بي. لاحظت صديقتي «ستيفا» إلى بعض المُحاورين بأنّي لستُ في الأربعين، بأنّ حياتي لا تُشبه حياة مونيك؛ استسلموا للاقتناع. «لكن، قال أحدهم مازحاً، لماذا تجتهد كي تبدو كلّ كتاباتها سيرة ذاتيّة؟
– إنّها تحاول إضفاء واقعيّة على قصصها»، قالت لهم ستيفا.

في ربيع 66، طلب منّي كاتب شابّ اسمُه «ستينر»، أن أقدّم كتاباً انتهى من تأليفه: *«تريبلنكا» Treiblinka*. لم أره من قبل قط، لكنّ الـ*أزمنة*

المعاصرة، كانت قد نشرت عنه ريبورتاجاً مُهمّاً عن مسيرته كمظلّي. قرأتُ *تريبلنكا*، وشدّتني. أعرف تقريباً كلّ الكُتب التي صدرت في فرنسا والتي تحدّثت عن معسكرات الموت؛ لكن هذا لا يُشبهها. اعتمد ستينر في تأليفه على جملة من الوثائق النّادرة وشهادات نزر من النّاجين؛ كان مُحايداً، حريصاً على عدم إظهار عاطفته إزاء التّجارب المرويّة: في أسلوب متجمّد، بنوع من الدّعابة المُتوحّشة، تحدّث من زاوية التّقنيّين كي يفهم كيف نجحوا في إبادة ثماني مائة ألف إنسان واحداً واحداً. ما أثار فضولي بشكل خاصّ، هو أنّ الأحداث تتّحد بصورة مُذهلة مع نظريّات سارتر في شأن التّعداد البياني (ثمّة تعداد بياني للأشخاص، حين يكون هناك أحياء يعيشون في شتاتهم ظروفاً واحدة، يصبح أحدهم عدوّاً للآخر: يحدث ذلك أيضاً في اضطراب أو ازدحام ما).، في المُخيّمات كما في المُعسكرات، رقّم النّازيّون ضحاياهم بدهاء «مكيافيلي» Machiavélique، على نحو يجعل أحدهم عدوّاً للآخر ويرزح به تحت العجز. وكما لو كان هبّة أخيرة ومقابل تضحية عظيمة، نجح المُحوّلون إلى «تريبلنكا» في تأسيس جماعة، عندها شكّلوا قوّة واندلعت الثّورة عندئذ. عندما التقيتُ ستينر، فاجأته عندما سألته إن كان قد فكّر في *نقد الدّوافع الجدليّة* وهو يكتب روايته: لم يقرأ سطراً واحداً منه. اكتفى بنقل الأحداث. توقّعتُ ألاّ تلامس روايته ذائقة الجميع، وفي مُقدّمتي، حاولتُ الدّفاع عن ستينر من تهمة عداء اليهود التي لن يتأخّر بعضهم في إلصاقها به. ذكّرتُ بأنّه ما من صنف من المُحوَّلين إلى المعسكرات قاوم الألمان؛ خصوصاً بين الرّوس الاشتراكيّين المُنتمين والسياسيّين الذين عُزلوا قبل أن يتمّ إعدامهم: رغم استعدادهم الفكري والعسكري، لاقوا مصيرهم. رغم كلّ تلك الاحتياطات، فقد اتُّهم ستينر بإظهار اليهود على أنّهم جبناء. حملة بأكملها أقيمت ضدّه. ولكي يدافع عن نفسه قدّم حوارات غائمة أيّدت سوء الفهم. حاول «روسي» Rousset، أن يحرق الكتاب فادّعى في صحيفة «نوفو كونديد» Nouveau candide، أنّ حكايته ليست دراسة

بل رواية. كنتُ معنيّة مباشرة بهذه الهجمات. ولكي أدافع عن «تريبلنكا» كان لي مع لانزمان Lanzmann وماريانسراس Marienstrass، نقاشٌ جُمِع ونُشر في صحيفة *الملاحظ الجديد Le nouvel Observateur*. أشرتُ إلى أنّ المُحوَّلَ القديم - ديكس Daix، مارتان شوفيي Martin-chauffier، ميشلي Michelet- قد أكّدوا الطّبيعة التّوثيقيّة للكتاب، كذلك المؤرّخ فيدال-ناكي Naquet-Vidal الذي درس المسألة بجدّية. فسّرتُ كيف أنّ عدم مقاومة ستّة ملايين يهودي مثّل مُشكلة أمام الجيل الشابّ الذي لم يعش الحرب: تلقّيتُ رسائل عديدة من شباب يهود قالوا لي إنّهم صاروا يتنفّسون بشكل أحسن بفضل ستينر، منذ فهموا المأساة التي حصلت والتي ظلّت مُعتمة. بعث «روسي» إلى *الملاحظ الجديد* برسالة يردّ فيها. العديد من مراسِلِيَّ تبنّوا وجهة نظري. بينهم من استنكر فكرة تقديمي «تريبلنكا»؛ بل لقد طلبوا أن أسحب الصّفحات من التّرجمات التي ستلحق: رفضت. ورغم العدائيّة التي بدرت من بعض ردود الفعل، فإنّ ستينر حاز في فرنسا على جائزة المقاومة.

مايو سنة 1967، انتهيتُ من الرّوايات الثّلاث المُجمّعة تحت عنوان *المرأة المُحطّمة*. تساءلتُ ما أنا فاعلة. فوراً تقريباً لمعت في ذهني فكرة: المسألة التي فشلتُ في صياغتها في رواية، التقدّم في السنّ، سأدرسها في نصّ يلامسُ كبار السنّ، المماثل لـ*الجنس الثاني*. شجّعني سارتر بحماس.

لمَ قد أتشبّث بهذه التّيمة؟ أوّلاً، لأنّي صُدمتُ بالضجّة التي أثرتُها بحديثي عن الشّيخوخة في الجزء الأخير من *سلطة الأشياء*. انتابتني الرّغبة في أن أفكّك المناطق المُشتركة التي رُميتُ بها على وجهي. وجدتُها أكثر تأثيراً لأنّي أعرف الوضع الذي يهمّ، اليوم، أكبر فئة من كبار السنّ. في هذه الحالة أيضاً، فكرة كشف الغموض هي ما أغراني. لكن بما أنّي اتّخذتُ قراري فذلك يعني أنّي أُبدي حاجة إلى معرفة وضعي الخاص في عمومه. أيّتها النّساء، لقد أردتُ أن أحلّ لغز الوضع الأنثوي؛

بالنّسبة إلى الشّيخوخة، أردتُ معرفة الكيفيّة التي بواسطتها يمكن تحديد مفهوم لوضع المُسنّين.

حول المسألة النّسويّة، قبل دراستها منهجيّاً، قرأتُ عدداً كبيراً من الكُتب، كانت لديّ تجربة واسعة وفوراً وجدتُ وثائق وافرة. عندما طرحتُ مُعضلة الشّيخوخة، كانت يدَاي خاويتَيْن. نزلتُ إلى صالة القوائم في المكتبة الوطنيّة، عدتُ إلى أحدث القوائم المُجمّعة تحت خانة: الشّيخوخة. عثرتُ أوّلاً على نصوص «إميرسون» Emerson، و«فوچي» Fuguet، ثمّ على مراجع أكثر جدّية منحتني بيوغرافيا شاملة. من قريب فقريب، أغنيتُ مراجعي؛ قرأتُ تقريباً كلّ الدّوريّات المُهتمّة بعلم الشّيخوخة والصّادرة في فرنسا خلال السّنوات الأخيرة. جلبتُ من شيكاغو ثلاثة مجاميع ضخمة خصّصها الأمريكان لهذا المبحث. خلال رحلة بحثي، تشكّل الكتاب في رأسي وحرّرتُ بنوع من الصّعوبة مُختلف الفصول.

بعض النقّاد اعتبر *الشّيخوخة* كتاباً منسوخاً: هذا غير عادل بالمرّة. الكتاب المنسوخ أو الكتاب المنقول هو الكتاب الذي يكتفي مؤلّفه بتجميع المراجع حول الموضوع الذي اختاره. وهو حالُ فصلي الأوّل: حول البيولوجيا، جمعتُ بعض الدّراسات واكتفيتُ بتلخيصها. لكن بالنّسبة إلى بقيّة الكتاب، قمتُ بعمل أصلي. استخدمتُ، طبعاً، كُتُبا ووثائق: لم يكن عملاً مُتخيّلاً كما هو معلوم. لكن كان عليَّ أوّلاً العثور عليها، اختراع المنهجيّة التي سأتوسّلها كي أستفيد منها، لأنتهي بكاتبة خلاصة جديدة. لم أجد مُقنعاً الكتاب الذي تحدّث عن الشّيخوخة لدى الشّعوب البدائيّة: بالكاد عدتُ إليه. استخدمتُ طريقة عمل مُذهلة، كان قد مكّنني منها، كرهاً، كلود ليفي ستروس: مخبر الأنثروبولوجيا المقارنة الذي يؤويه معهد فرنسا Le Collège de France. أطلعني مُساعدوه في دراسات أفراد مُختلفة، عن مقاطع تُعرّج على وضع المُسنّين: قرأتُ ما طُرِحَ أمامي، محاولة ربط صلة بين ما قرأتُه وبين مُجمل الحضارة

الموصوفة. تحليل الأدوات والأفكار التي استلهمتُها منها، الخلاصة التي انتهيتُ إليها، لا أحد قام بهذه المقاربة قبلي.

حول مصير الشّيوخ في المُجتمعات التّاريخيّة القديمة، لا يوجد كتابٌ واحدُ تجدر الإشارة إليه: لقد مرّوا في صمت. الإشارات النّادرة التي قد ننجح في العثور عليها هي عادة عسيرة على التّأويل والفهم، غامضة ومتناقضة ظاهريّاً على الأقلّ. ثمّ علينا أوّلاً أن نعرف أين يمكن إيجادُها. خضتُ مغامرة بحث عن الكنز بمعنى الكلمة. بشكل عامّ، كانت بحوثي مُوجّهة على نحو موثوق وكنتُ أحصل دون كبير عناء على أجوبة على الأسئلة التي أطرحُها للبحث. كان الحظّ يخدمني أحياناً: أقع على نحو غير مُتوقّع على منجم ذهب. ويحدثُ أيضاً ألاّ يقدّم لي الكتاب المأمول أيّ إضافة معرفيّة. آنذاك، أسأل المُتخصّصين: بعضُهم أفادني بشكل كبير.

حول الوضع الحاليّ للمُسنّين، استطعتُ، بسهولة، تجميع مراجع مُهمّة للغاية. وكانت لي حوارات مع أناسٍ لديهم دراية بالأمر بفضل مهنهم.

أمّا بالنّسبة إلى القسم الثّاني من نصّي، فإنّه عمل شخصيّ تماماً.

المؤكّد في عمل من هذا النّوع، هي الإشكالات التي يتساءل عنها المؤلّف؛ وحدهما تجربتي الخاصّة وتأمّلي جعلاني أحدّد أسئلتي: ما صلة المُسنّ بصورته، بجسده، بماضيه، بمُحيطه؟ كي أجيب، اعتمدتُ مُراسلات، ومُذكّرات، ويوميّات أناسٍ مُسنّين؛ عدتُ إلى التّحقيقات والإحصائيّات؛ قمتُ شخصيّاً ببعض المحاورات لجمع الشّهادات، سألتُ نفسي. أن تعالج هذه المُعطيات، وتضعها تحت المجهر وتصوغ من خلالها خلاصة، كان عملاً أصيلًا تماماً. الأفكارُ التي عبّرتُ عنها، الزّوايا التي تبنّيتُ النّظر من خلالها، كانت عكس العديد من الآراء المتداولة.

صدر الكتاب أواخر يناير من سنة 70، قبله بقليل، نُشرَ تقرير التفقّديّة العامّة للشّؤون الاجتماعيّة حول الأشخاص المُسنّين. أبرزت الدّراسة أنّ حالة المُسنّين تدهورت خلال السّنوات العشر الأخيرة، لم تقع تغطية

ارتفاع الأسعار مقارنة بمبلغ الزّيادة الزّهيد في الجرايات. خصّصت مسائيّة فرنسا Soir-France صفحتها الأولى للتّقرير المُفصّل لتلك الدّراسة. تقاطع السّؤال إذاً مع أحدث القضايا. ظهر كتابي في وقت كان فيه الجمهور مُستعداً لاستقباله: لكنّي بدأته قبل سنتيْن.

أردتُ أن يلامس أكبر قدر ممكن من النّاس وعلى نقيض عادتي قبلتُ القيام بحوارَيْن في راديو لكسمبورغ: كانت مكافأتي رسالتيْن مؤثّرتين من مُسْنّيْن محرومَيْنِ، سمعا مداخلاتي. أكّدا بحزن شديد، ما خلصت إليه من نتائج قاتمة؛ ما زالت الأرقامُ متفائلة مقارنة بالحقيقة؛ قصور الإدارة (في نهاية 1970، انتحرت امرأة عجوز، السيّدة «كوكاني» لأنّها، ومنذ أشهر، لم تتسلّم جرايتها التي يكفلها لها القانون)، الإجراءات المُعقّدة، الصّدف البائسة في الوجود، أحالت غالبيّة المُسنّين على اليأس. حتّى المراسلون القادرون على شراء كتابي رسموا لي لوحات مظلمة عن حياتهم: كثير منهم طالب بموت «حرّ»، أي القتل الرّحيم. بما أنّهم لا يتركون لنا ما نعيش به. ليسمحوا لنا على الأقلّ بأن نختار موتنا، قالا لي. فيما أكّد لي ثلاثة أو أربعة أشخاص محظوظين في الثّمانين من العمر، أنّ السّنين لا تثقل كاهلهم: إنّه عدد محدود جدّاً مقارنة بالرّسائل الحزينة التي تلقّيتُها.

إجمالاً، كان النّقدُ مُحتفياً؛ يميناً ويساراً، اعترفوا بأنّ الشّيخوخة هذه الأيّام، تُعدُّ فضيحة كبيرة. لكنّ نقد اليسار أكّد على تسليط الضّوء على الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمشكلة؛ نقّادُ اليمين يفكّرون بأنّه من البيولوجي والمتافيزيقي، أن يكون دور المُجتمع ثانويّاً. كان هناك، أيضاً، اختلافٌ بين الذين قدّروا أن أكون قد كتبتُ معارضة لـ: «دي سينيكتيد» *De Senectude*[13] وبينهم من اعتبر أنّي عدتُ إلى «سيسيرون» Sicéron. أو «سينيك» Sénèque. أنحاز إلى الرّأي الأوّل. أعترف بأنّ الشّيخوخة،

13- دي سينيكتيد De senectude: نصّ قديم كُتب سنة 44 قبل الميلاد من قبل سيسرون مهدى إلى صديقه أتيكوس.

في ظروف مُعيّنة، قد تمنح نوعاً من الانفتاح، لكنّ أغلبيّة المُسنّين حُكم عليهم بالتّدهور.

الشّهادات التي شجّعتني أكثر من غيرها هي تلك التي أدلى بها بعض المتخصّصين في الشّيخوخة. عموماً، لا يُحبّذ المُتخصّصون كثيراً أن نغامر باقتحام حصونهم. هؤلاء، على العكس، هنّؤوني على كشف المستور عمّا يُسمّونه أيضاً «مؤامرة الصّمت» وكثير منهم عبّروا عن استعدادهم للتّعاون معي.

كان من الطّبيعي أن تتسلّل بعضُ الأخطاء إلى هذا العمل الضّخم الذي أنجزتُه دون مساعدة من أحد (في الأثناء، لقد خلطتُ بين «سيغونيْ» Sigogne، الشّاعر الفرنسي الذي عاش في «دياپ» Dieppe، وبين الإيطالي القديم الذي عاش في «مودين» Modène. نسبتُ إلى «ماريفو» Marivaux، زواجاً متأخّراً لم يحدث. كان لـ «ماكس» خمسون عاماً وليس ثمانين، عندما قام بدور «نيرون» شابّا).. ثلاثة أو أربعة مراسلين أشاروا إلى ذلك بنوع من الحدّة. لكن حول النّقاط المُهمّة، لم يكذّبني أحد.

رواية حول موت أمّي، كتابان من صنع الخيال، مُقدّمتان، بحث ضخم: لم أكتب القليل بين سنة 63 و70؛ دون الحديث عن مسودة الرّواية المُهملة. مع ذلك، مررتُ بفترات حيثُ تكون فكرة الإمساك بالقلم تضايقني. أحسستُ، بعد انتهائي من *موت عذب جدًّا*؛ بأنّي عاجزة؛ دُفعتُ على نحو لا يُقاوَمُ لأكتُب هذه الحكاية؛ لكنّ الأدب بدا لي بعد ذلك ضرباً من العبث: لقد انتقلتُ إلى ضفّة الموت وصمته. شلّني سوء الفهم الذي قوبل به كتاب *سلطة الأشياء*: خانتني الكلمات، لم أعد أثق بها. انتزعتُ نفسي من هذا الاشمئزاز عندما لاحت لي مواضيع جديدة مُهمّة. لكنّ علاقتي بالأدب أصبحت أكثر تضارباً من ذي قبل. تظلّ ضروريّة بالنّسبة إليّ، لكنّي صرتُ أجد لذّة في هجرها: خلال إقامتي في روما، مثلاً، حيثُ تُحيط بي كلّ أسباب الرّفاهية لأعمل. لم أقدر على الكتابة قط، عندما

أكون قلقة أو سعيدة، أكون مشدودة إلى الأحداث. الآن، حتّى في ذروة استعدادي للكتابة، لا أجد غضاضة في منح نفسي عطلة.

لكن مع مرور الوقت، يزعجني الكسل؛ فتبدو لي أيّامي رتيبة. لم أعد أشعر بأنّي في مُهمّة. وأعلمُ أنّه لن يكون لي كتاب في المُستقبل قد يقلب مُجمل أعمالي: سيكون كتاباً كغيره، كتاباً إضافيّاً. أشعر، كما قلتُ في *الشّيخوخة:* حتّى التطوّر، له في آخر العمر شيئاً مُخيّباً؛ نحنُ نتقدّم، ليكن، لكن ونحنُ نتعثّر دون أمل كبير في تجاوز ما أنجزناه من قبل. غير أنّي أحتفظ برغبة في الاستمرار في التّعبير عن العالم وعن حياتي. لا أريد العدول عن هذا الانطباع المُبهج الذي تمنحني إيّاه فترات الكتابة: وأنا أخلق كتاباً، أنا أخلق نفسي في بعدٍ خيالي.

تابعتُ الاهتمام بدوريّتنا، *أزمنة معاصرة. لم أنسَ المقال. أصدرتُ فقط اثنتَين من رواياتي:* موت عذب جدّاً، سنُّ التكتّم. تخيّرتُ وقرأتُ عدداً كبيراً من المخطوطات التي وصلت الدّوريّة. كنتُ أحضر بانتظام في اجتماعات المُحرّرين لنقاش الخطوط التي علينا اتّباعها في العدد القادم. تُعقد عادة كلّ أسبوعيْن. وبما أنّنا كنّا أصدقاء فإنّ العمل يمتزج بمتعة النّقاش.

مايو سنة 1962، عوّض «فرنسيس جونسون» «مارسيل يجو» في هيئة الإدارة؛ لم يتغيّر اتّجاه الدّوريّة. فقد تبدّل المُحرّر. بعد موت «ريني جوليار»، آلت داره إلى «نلسِنْ»، مدير *صحافة المدينة Presses de la cité*، الذي يريد جمع المال قبل كلّ شيء: لم تكن *الأزمنة المعاصرة* تهمّه. عرض «كلود غاليمار» أن نعود إليه. وضع تحت تصرّفنا قسماً من فندق شارع «كوندي» Condé الذي آوى قديماً «بومارشي» Beaumarchais والذي تشغله الآن منشورات «ميركور دي فرانس» Mercure de France. هناك تحديداً نُقلت السّكرتارية.

ثمّة في الدّوريّة ثغرة نودّ سدّها. لم يكن في وسع الهيئة القيام بالأعمال،

لكثرة مشاغلها ولعدم توفّر الوقت، فقد كانت الكتابة عن الأدب والفنّ ومراجع التّاريخ والاقتصاد تمريناً شاقّاً وغير مُجزٍ. فكّرنا في أنّ الشّباب الطّموحين قد يقومون بهذه المُهمّة خصوصاً أنّ فرصة للتّعبير ستتاح لهم. اجتماع تألّف من عدد كبير ومُتنوّع الأصوات في بيتي بداية خريف سنة 64. كان هناك روائيّون واعدون: آني لوكلارك، جورج بيريك (أصدرت هي لاحقاً جسر *الشّمال*، وأصدر هو *الأشياء* الذي تلته أعمال أخرى).؛ شعراء: «فلتر» و«سوتيرو» اللذان كتبا عملاً شعريّاً مُشتركاً؛ أستاذ حقوق، نيكوس پولانتزاس الذي كان بصدد إعداد برنامج سياسي اقتصادي مُهم (ثمّ أصدر *فاشيّة* ودكتاتوريّة *السّلطة السّياسيّة والطّبقات الاجتماعيّة*)؛ طلبة، وخصوصاً طلبة فلسفة: جانين روفي، سيلفي لوبون، دولي، بيريتز، بينابو، ريجيس دوبراي. كثيرون بينهم كانوا تلاميذ الفيلسوف «ألتوسير» Althusser[14]، وبدل أن يقدّموا التّقارير التي نأملُها، أرادوا تحويل *الأزمنة المُعاصرة* إلى عشيرة يطرحون من خلالها أفكارهم. اتّسم النّقاشُ الأوّل بالضّبابيّة: «أرادوا معرفة أيّ نقطة مُشتركة تجمعنا»، وسألوا عن منظّري الفريق.

ظلّ السّؤال مُعلّقاً. لكن في الجلسة الثّانية بدا حضورها الأقلّ عدداً -ريجيس دوبراي لم يعد مثلاً -، مُستعدّين للتكفّل بالمهام التي كلّفناهم بها. عُقد اجتماع كلّ أسبوع، كنتُ وسارتر نواكبه مرّة واحدة بين اثنين: كان يُقدّم للدّوريّة ملاحظات ونصوصاً حول بعض الكتب والأفلام والمعارض. تعود الجلسات لتلتئم بعد العطلة التي كانت تفرّق الجميع. نشر الـ«منظّرون» في الدّوريّة مقالات عميقة وتعهّدوا بنشر «عمود ماركسي» قارّ. بعد عدد واحد، أُجهِض المشروع. كان بينهم وبين أعضاء الهيئة نزاعٌ فكريّ جادّ. أيّدوا الثّورة الصّينيّة دون احتراز رغم أنّهم كانوا

14- ألتوسير Althusser: نشر ألتوسر كتابه «إجابة موجهة إلى جون لويس»، وهو زعيم عمالي أمريكي. وقد أدت هذه النظرة إلى الماركسية بألتوسير إلى مخالفة خط الحزب الشيوعي الفرنسي.

يجهلون عنها كلّ شيء؛ طلبنا قبل النّشر أن يكون لنا علم بما يتمّ تحريره: اعتبروا هذا القرار ريباً عابثاً من جِهتنا. من ناحية أخرى، آخر السّنة الجامعيّة، كانوا جميعاً تقريباً يستعدّون للامتحان ولم يكن لديهم مُتّسع من الوقت للقيام بعمل آخر. انفصلنا في 26 يونيو 66 وقرّرنا بالإجماع عدم مواصلة التّجربة.

جنسون المشغول تماماً بالتّنسيق في *دار الثّقافة*، غادر هيئة *الأزمنة المُعاصرة* سنة 67. لم يتمّ تعويضه. لم تعد الهيئة تعدّ أكثر من ثمانية أعضاء ولم يعد يجمع بيننا انسجام كبير. في عدد 64 و65، عندما طالب «كرافيتس» وآخـرون بعده بـ«السوربون للطّلبة» وهاجموا قاعات المُحاضرة بعنف، أبدى «پونتاليس» و«پينغو» عدائيّة ناحية الأطروحة. لم يُصرّحا بذلك علناً، لكنّهما لم يُخفيا في أحاديث خاصّة أنّ بعض مواقف الدّورية قد صدمتهما. عبّرا عن استنكارهما، عندما نشر سارتر الـ«حوار النّفسي التّحليلي» الذي شرح فيه لماذا وجد النصّ رائعاً - الرّأي الذي شاركه إيّاه كلّ أعضاء الهيئة. ذاكَ الحوارُ كان قد سجّله مريض لدى الدّكتور X، كان قد زار العيادة مُجهّزا بآلة تسجيل، بعد ثلاث سنوات من انتهاء علاج نفسي طويل. قلب الأدوار وطلب من الطّبيب الإجابة على أسئلته: أبدى الأخير أمام الآلة رعباً حقيقيّاً. أيّد سارتر لدى «المريض» مطالبته بمعاملة بالمثل.

احتجّ «پونتاليس» في نصّ قصير، على الأمر الذي بدر من «سونسيي» Censier: «انهض أيّها المُحلِّل»، لأنّ ذلك كان في نظره رفضاً قاطعاً للتّحليل النّفسي. اعتبر «پينغو» Pingaud أنّ «المرور إلى الفعل» الذي قام به «رجل آلة التّسجيل» لم يكن مناسبة جيّدة لتقييم التّحليل النّفسي. اشترك هذا وذاك في نفس النّزعة التي من منطلقها دافعا عن تقاليد المُحاضرات.

توقّفت المسألة عند ذلك الحدّ. لكن - بإيحاء من سارتر وغوتز خصوصاً - تبنّت الدّوريّة رُويداً منحى يساريّاً متحرّراً، غادرها پونتاليس وپينغو سنة 70. مقالُ غوتز في أوّل صفحة من دوريّة أبريل، *تدمير الجامعة*،

هو الذي قرّر ذلك. «من موقعه، وتوقيعه وصياغته بدا مفهوماً أنّه قرار من هيئة *الأزمنة المُعاصرة*. غير قادرين على القبول بهذا الطّرح، قرّرنا، بأسف شديد، مغادرة هيئة الإدارة»، كتبا. نحنُ أيضاً تأسّفنا لرحيلهما لكنَّ خلافنا الفكري والسّياسي كان أكثر عمقاً من أن تكفي الصّداقة بمفردها لتجاوزه. نحنُ نشكّل -حاليّاً فريقاً محدوداً، لكنه منسجم، وإن كنّا لا نلتقي في جميع النّقاط. تابعنا العمل على الخبر والتّحليل.

الفصل III

لم تكن القراءة خلال طفولتي ثمّ مراهقتي ترويحاً عن النّفس فحسب، بل النّافذة التي كنتُ من خلالها أرى العالم. كانت تضيء لي مُستقبلي: محاولة التّعرف على نفسي في بطلات الرّوايات، وكنتُ من خلالهنّ أحدسُ مصيري. لقد انتشلتني من الوحدة فترات قاسية من شبابي. لاحقاً، ساعدتني على توسيع معارفي، فهم وضعي كإنسان ومنحتني معنى لعملي ككاتبة. حياتي اتّضحت اليوم، أنجزتُ عملي، حتّى إذا كان فيه بقيّة: ما من كتاب سيحمل لي إضافة مُذهلة. مع ذلك، أستمرّ في القراءة، كثيراً: في الصّباح، في الظّهيرة قبل الشّروع في العمل أو عندما أكون مرهقة من الكتابة؛ لو صادف أن قضّيتُ الأمسية وحدي، أقرأ؛ قرأتُ ساعات بأكملها خلال الصّيف في روما. ما من انشغال يبدو لي طبيعيّاً أكثر. غير أنّي أتساءل: إذا كان حقّاً لن يحدث لي شيء مصيريّ من خلال الكتب، فلماذا هذا التعلّق بالقراءة؟

متعة القراءة: لم تُمحَ. ما زلتُ أندهش لتحوّل الرّموز السّوداء إلى كلمة قد تقذف بي في قلب العالم، مُختزلة العالم بين أربعة جدران. قد يكفي النصّ الأكثر سوءًا ليقوم بهذه المعجزة. *فرنسيّة شابّة، أبلغ من العمر 30 سنة، راقنة، التّجربة. أبحث عن عمل ثلاثة أيام في الأسبوع.* أتابع بعيْنَيَّ هذا الإعلان وتعجّ فرنسا بالرّاقنات على الآلات الكاتبة وبالشابّات العاطلات عن العمل. أعرف: أنا صانعة المُعجزات. إن بقيتُ ساكنة أمام الأسطر المطبوعة، فإنّها تصمت؛ كي تدبّ فيها الحياة، يجب أن أضفي

عليها معنى وأمنحها إيقاعاً من عندي، عافية عن الماضي، مُقبلة على المُستقبل. لكن ما دمتُ مُختفية أثناء هذه العمليّة، فإنّها تبدو لي تجربة سحريّة. أحياناً، يُخيّلُ إليَّ أنّي أتعاون مع الكاتب كي يوجِد صفحة أفكّ شفرتها فيما بعد: يمتعني أن أبتهج بأمر خلقتُه. لا يتسنّى ذلك للكاتب حتّى وهو يقرأ أعماله، عندما تولد الجملة في ريشته فإنّها فوراً تُسرَقُ منه. وضعُ القارئ أفضل بكثير: هو فاعل وسرعان ما سيغرقه الكتاب وسط ثرواته غير المتوقّعة. يبعثُ الرّسم والموسيقى سروراً مُشابهاً في داخلي لنفس السّبب؛ لكنّ المُعطيات الحسّاسة تلعبُ دائماً الدّورَ الأهمّ. في هذه المجالات، ليسَ متاحاً الانتقال من الرّمز إلى المعنى الذي يشدّ انتباه الطّفل الذي بدأ ينطق كلماته الأولى، تلك المُعجزة التي ما انفكّت تُدهشني. أسحب ستائر غرفتي، أتمدّد على كنبة، يمّحي الدّيكور، أتجاهل حتّى نفسي: وحدها في الوجود الصّفحة البيضاء المكتوبة بالأسود التي تجوس فوقها عيْناي. وها أنذي أعيش المغامرة التي يرويها بعضُ الحكماء الماويّين: مهمِلين خلفهم أبدانهم ساكنة، كانوا مُحلّقين؛ ظلّوا يتنقّلون، قروناً بأسرها، من قمّة جبل إلى أخرى عبر الأرض نحو السّماء. حين يجدون أجسادهم، فإنّ الأخير يكون قد عاش ما يكفي فقط لأخذ نفس. هكذا أبحر، دون أن أبرح مكاني، تحت سماوات أخرى، في حِقَبٍ ولّت وقد تمرّ قرون قبل أن أستعيد نفسي، على مسافة ساعتيْن أو ثلاث، في هذا المكان الذي لم أغادره. ما من تجربة تضاهي هذه التّجربة. نظراً لفقر الصّورة فإنّ الأحلام مُتّسقة، ينتهي إفراغ الذّكريات بسرعة. أن تبني الماضي من جديد بجهد مُوَجّه، إنّه عملٌ لا يمنح أكثر من الخلق وتحريك الموضوع. إمّا عفويّاً أو بتأثير خارجيّ، فإنّ الذّاكرة لا تمنحني أكثر ممّا أعرفه. ما زالت أحلامي تُدهشني أكثر فأكثر؛ لكن شيئاً فشيئاً، مع كلّ حلم جديد يتراءى، تتكشّف الرّؤية ويصبح الأمر مُخيّباً. وحدها القراءة، مع تحكّم جيّد في الوسائل -يكفي هذا الكتاب الذي بين يدَيَّ - ما يخلق علاقات جديدة ودائمة بين الأشياء وبيني.

كي أقرأ، أفضّل التخفّي. لكن، يحدث أيضاً، في الصّيف، أن أقرأ في الهواء الطّلق. تأخذني الحكاية بعيداً جدّاً؛ مع ذلك أشعر فوق جلدي بالشّمس والنّسمة، أستنشق رائحة الأشجار، من حين إلى آخر، ألقي نظرة على زُرقة السّماء: أبتعد دون أن أغادر مقعدي. ولا أدري ما الذي يعني أكثر في تلك اللّحظات: الطّبيعة المُحيطة بي أم الحكاية التي أقرأها. تعجبني القراءة في قطار. أتلقّى بعينين لا مباليتين تقريباً المناظرَ التي تتعاقب خلف زجاج النّافذة، لأعود إلى النصّ واهبة إيّاه الحياة من جديد: بهذا التّناوب، تتّحد المتعتان المُحبّبَتان إلى قلبي بلذّة. في حالات، أقرأ للذّة القراءة، لا لأكون قد قرأت: أنا نهمة فيما يتعلّق بالقراءة. ينجرُّ عن لهفتي على القراءة أن أقرأ الكتاب بسرعة، ما يضطرّني إلى إعادته من البداية حتّى النّهاية.

مع ذلك، أنا لا أقرأ أيَّ كتاب. إلّا إذا كان لابدّ من دراسة نصّ اجتماعي أو لغويّ، صفحة الإعلانات لا تشدّني أبداً. أيّ شرط يجب أن يتوفّر اليوم كي تشدّني القراءة؟

الفائدة التي أحصّلها متنوّعة جدّاً. في بعض الحالات، أمرّ على كتاب دون أن أبرح وضعي الوجودي الخاص الذي لا شيء يهمّني أكثر من سدّ ثغراته. عندما أغلق الكتاب، ألاحظ أنّي حصّلتُ بعض المعارف الجديدة. تقابل هذه القراءة الخبريّة القراءةَ التّواصليّة. لا يدّعي فيها الكاتب أنّه يمدّني بمعارف مُعيّنة، بل ينقل إليَّ من خلال فرادة عمله المعنى الذي توصّلت إليه روحه في علاقتها بالعالم. تنهل تجربته الوجوديّة، دون شكّ، من جملة مفاهيم ومبادئ: إنّها لا تُعلّمني شيئاً. لكن أثناء فترة القراءة، أنا أعيش في جسد إنسان آخر. وقد يطرأ تحوير عميق على نظرتي للظّرف الإنساني، وللعالم، وللوضع الذي أشغله. ثمّة شرط واضح ما يكفي ليُميّز بين مُختلف أصناف الكُتب. الوثيقة الخبريّة، يمكنني اختزالها انطلاقاً من لغتي الخاصّة، مانحة معرفة كونيّة؛ في الأعمال الأدبيّة، تكون اللّغة في المِحكّ، لأنّها هي التي ستعطي للتّجربة فرادتها: من غير المعقول أن

تُصاغ باستخدام كلمات أخرى. لهذا يخون نصّ الغلاف الرّواية الجيّدة وهو يحاول اختزالها؛ لهذا السّبب أيضاً ينزعج الكاتب عندما يُسأَلُ عمّا بين يديْه من عمل: إذ لا يمكنه الإخبار عمّا لم يتحوّل بعدُ إلى معرفة.

يحدث أيضاً أن أقرأ، لا لأتعلّم أو أتواصل مع الغير، بل لغاية إضاعة الوقت لا غير: قراءات تسلية، مثل الرّوايات البوليسيّة، كتب الجاسوسية أو الخيال العلمي.

أقرأ كثيراً لأعلم: كانت دائماً لديَّ رغبة في المعرفة وفضولي لا حدود له. أردت أن أظلّ على دراية بكلّ ما يثير اهتمام أبناء زمني. لكن، للأسف، هذه أشياء تحكمها القدرة المحدودة والعجز وهي مرتبطة باستعدادي. أُقفل باب العلوم أمامي. فيما ظلّت هناك مجالات مفتوحة للتعلّم مثل اللّغة والاقتصاد السّياسي.

أحرصُ على عدم معرفة كلّ شيء. حتّى في المجلات المُتاحة لي، لا أقرأ كلّ ما يُنشَر. تتدخّلُ الصّفة في اختياري -يرسلون لي الكثير من الكتب، أحتفظ بها- لكن عموماً هي مُوجّهة: من أيّ ناحية؟ بأيّ كيفيّة؟

بدايةً، الكتاب الذي يجذبني هو الكتاب الذي يجيب عن أسئلة أطرحها على نفسي. عندما أجهّز نفسي للسّفر، أسأل عن البلد الذي سأراه وأحاول جمع ما يمكن جمعه من معلومات حوله. حين اشتغلتُ على الشّيخوخة، قرأتُ بكثافة كتباً متخصّصة في هذا الشّأن، كانت ستصيبني بالملل لو أنّي قرأتُها قبل سنة من المشروع. لكن، أيضاً، مثلما يصنع الموضوع الحاجة والرّغبة، فإنّ اكتشاف حدث غير متوقّع يبعث في داخلي الرّغبة في معرفته عن قرب. أحياناً حين تتّخذ المجرياتُ منحى غير متوقّع فإنّها تجلب انتباهي حتّى لو كانت في أصلها مألوفة ولا تستدعي الاكتراث لها.

قبل كلّ شيء، أحاول فهم زمني. قرأتُ خلال السّنوات العشر الأخيرة الكثير من الدّراسات عن الاتّحاد السّوفيتي، الولايات المُتّحدة، أمريكا اللاّتينيّة، كوبا، الطّبقة العمّاليّة الفرنسيّة، البروليتاريا الإيطاليّة. عندما تقع أحداث مُهمّة -حرب السّتّة أيّام، مايو 68، احتلال تشيكوسلوفاكيا، الثّورة

الثّقافيّة الصّينيّة - أقرأ تقريباً كلّ ما يُقالُ في ذلك الشّأن. لستُ أقلّ اهتماماً بالكتب التي تتحدّث عن حقبتي تحديداً. خلال هذه العشريّة، جرت أحداث مُهمّة جدّاً في إسبانيا فرانكو، المقاومة اليونانيّة والفشل المأساوي للحرب الأهليّة (أفكّر في كتاب الدّراسات الرّائع، الكاپتانيوس).، حول الرّايخ الثّالث، الميليشيات والغستاپو الفرنسيّة، حول إبادة اليهود، حرب الأندوشين، والحرب على الجزائر. عندما أقرأ كتباً مماثلة، أشعر بأنّي أستعيد تاريخي. أنعش ذاكرتي وأتمّم معلوماتي، إنّها تحرّك مخاوفي وغضبي، تحيي ماضيَّ، منتشلة إيّايَ بعض الوقت من تيّار الزّمن.

حول بعض الوقائع التي حدثت بعيداً عنّي، أرى من الرّائع أن تُضاء لي بعض الجوانب. أقول بعيداً عنّي من زاوية أنّي قرأتُ *الاعتراف* لـ «لوندن»، حيثُ وجدتُ إجابة عن عديد الأسئلة التي راودتني. أعرف قدراً لا بأس به من المعلومات حول المُعسكرات السّوفيتيّة (قرأتُ في الأثناء *يوم من أيّام إيفان دينيسوفيتش* لـ «سولجينيتسين»).؛ *الـدُّوار Le Vertige*، لـ «أفغينيا غانزبور»، جعلني أطّلع من قريب على المُعسكرات. تسرّبت هذه المُذكّرات في الاتّحاد السّوفيتي خلسة بين النّاس، قبل وصول فرنسا. حدّثنا عن ذلك «إيرمبورغ» باحترام كبير. تمّ إلقاء القبض على أفغينيا غانزبور-أمّ الكاتب الشابّ المعروف في الاتّحاد السّوفيتي، أكسيونوف- سنة 1937، في وقت لم تكن فيه التّحقيقات مقترنة بالتّعذيب. لم تُوقّع أيَّ اعتراف ولم تُحاكَم جماهيريّا. لم تقضِ أقلّ من سنتيْن في السّجن وسبعة عشر سنة في المُعسكر. لمحاصرتها، استخدموا الطّرق التي كشف عنها لوندن فيما بعد: «عرفت التروتسكي فلان، ولم تُبلّغ عنه. - كان كذلك فعلاً. وقّع إذًا: عرفتُ التروتسكي فلان». فقدت أفغينيا غانزبور الشّيوعيّة الحديديّة، كلّ ثقة في ستالين، لكنّها لم تشكّ يوما في الشّيوعيّة. قاومت ببسالة وبكلّ ما أوتيت من جهد كي تعيش وكي تساعد رفاقها، في أحلك الظّروف. بفضل مثابرتها وبفضل امتنانهم، خرجت من معاركها المنهكة سالمة.

أعرف أنّ شبكة التجسّس السّوفيتي قد أدّت خدمات مُهمّة خلال

الحرب، لكنّي لم أتساءل عن تفاصيل نشاطها. *الأوركيسترا الحمراء* لـ «جيل پيرو» كانت من بين الكتب التي تحرّك الفضول في ذات الوقت الذي تشبعها فيه، رغم أنّه يزعجني أحياناً، يروي الكاتب، على نحو مُشوّق، مغامرة «تريپر» Tripper ومُعاونيه: مغامرة هزليّة في بعض الأحيان، لكن تراجيديّة في أغلبها. وأنا أكتشفها، انتبهتُ تدريجيّاً إلى عملي كقارئة: أنا من أوجدَ مُختلف الشّخصيّات المُبعثرة في كامل أوروبا، الشّبكة البرلينيّة التي ضُربت بوحشيّة -عُذّب أعضاؤها ونُكّل بهم-، الأوركيسترا (جاء هذا الاسم ممّا يُسمّى بـ «عازفي البيانو» Pianistes الجواسيس الذين يستخدمون لاقطات سرّية لإرسال المعلومات).، الباريسيّة، «عازفو البيانو» البلجيكيّون. رافقتُ الكاتب في تحقيقاته؛ وقمتُ بتمحيص شامل للنّتائج التي تحصّل عليها.

فيما يتعلّق بمُختلف هذه الكتب، تساءلتُ: حين تعكسُ أحداثاً فظيعة أو ثوريّة، كيف يمكن أن تحصل لذّة القراءة؟ الشّرطُ الأوّل هو أن يكون سقوطهم في قاع الماضي قد أحالهم إلى العدم. عندما تصف الصّحف احتضار أطفال «بيافرا» جنوب نيجيريا، عندما تُخبرني بالمجازر المرتكبة في فيتنام من قِبل الأمريكان، ما من مجالٍ للحديث عن متعة فكريّة: يخنقنا العجز. بأثر رجعي، بعضُ الاعترافات قد تثير الحنق، والارتباك؛ أعرف أناساً يتهرّبون من الاطّلاع حتّى لا يشعروا بالكآبة: اشتراكي إيطالي، رفع فتح *الاعتراف*. يحدث أن أقفز وصفاً لتعذيب جسديّ. لكن غالباً في الحكايات التّراجيديّة ينقبض القبض ويرتخي مثل -*كبتانيوس*، *الدُّوار*، *الأوركيسترا الحمراء*- مشاهد بطوليّة مُشوّقة: أكنّ للإعجاب والصّداقة مشاعر فرح. ثمّ إنّ مذاق المعرفة متجذّر في الاكتشاف أكثر من الكشف عن الحقيقة، مهما كانت رهيبة، فإنّها تمنحني نوعاً من السّعادة.

يحيلني الماضي القريب إلى ماضٍ أقدم واهتممتُ بالأعمال التّاريخيّة التي قد تُساعدني على فهم أعمق لفرنسا، لأوروبا والعالم اليوم. لكنّي لم أقرأ خلال السّنوات الأخيرة ما يهمّ العهود البعيدة. في المقابل أحبّ

الابتعاد في المكان. أقرأ الريبورتاجات وكتب الطّائفيّة: صدر منها الكثير في فرنسا مُؤخّراً. أحبّ بشكل خاصّ مراجع التّحاليل المُعمّقة. مثلما يحدث في روما، إذ يمكن اكتشاف مدينة بأسرها من خلال ثقب في قفل حديقة، مُركّزة انتباهي على زاوية من الأرض، قد ألمحُ من بعيد، بلداً بعلاقاته المُتشعّبة مع العالم. حازت اهتمامي كثيراً دراسة «موران» عن رواية *پلوديميت Plodémet*، ودراسة «ويلي» لـ: *قرية في فرنسا*، ولـ«دوفينيو» عن رواية *شبيكة Chebika*، ومولود ما قال عن *قرية في الأناضول* وخاصة التّحقيقات المُشوّقة لأوسكار ليويس: *أبناء سانشيز، بيدرو مارتيناز، لافيدا*.

بين كتب الطّائفيّة، أفضّل تلك التي تفسّر، في وضع مُعيّن، كيف يستبطن «البدائيّ» واقعه. إنّها كتب نادرة. في فترة ماضية، كانت هناك «شمس هوپي»، ذاك العمل المُذهل. شدّتني خلال السّنوات الماضية حكاية الهنديّ *إيشي Ishi*، آخر النّاجين من قبيلة أُبيدت عن آخرها، وأيضاً حكاية *يانواما* التي أملتها برازيليّة بيضاء، اختطفها هنود في سنّ العاشرة وأمضت جزءًا كبيراً من حياتها معهم.

بصورة عامّة، أعلّق اهتماماً كبيراً على الأعمال التي تُظهر لي الإنسانيّة تحت ضوء نهار جديد. شغفتُ في شبابي بعلم النّفس. أتابع، اليوم، بانتباه كبير جهود «مناهضي علم النّفس» لكسر دائرة «الانغلاق الكبرى». قرأتُ مراجع «زاسم» Szaszm، كوپر Cooper، دو لينغ De Laing، ومدرسة *الإنكار* حيثُ تصف «بازاليا» *Basaglia*، تجربتها في مقاطعة «غوريزيا» Gorizia الإيطاليّة. أحببتُ ضراوة هزليّة «جونتيس» Gentis، *جدران المنفى*. صرتُ أهتمّ أكثر من ذي قبل بمشاكل الطّفولة، لأنّي كلّما تقدّمتُ في المعرفة، أصبحتُ أقيس بشكل دقيق الأهمّية التي تكتسيها السّنوات الأولى في تطوّر الكائن البشريّ. شدّني كتاب «بتلهايم» Bettelheim، *الحصن الخالي*. يؤكّد فرويد على الفترة التي تتوسّط الثّالثة والرّابعة من عمر الإنسان. يبيّن «بتلهايم» (ما أيّدته دراسات وسلسلة تجارب أنجزت

في إسرائيل بين سنة 70–71) أنّ في السّنة الثّانية، هناك أشياء اكتُسبت وأشياء فُقدت إلى الأبد: خلال الأشهر الأربعة والعشرين الأولى تتّضح المواهب والعيوب لدى الفرد. وهو السنّ الذي يكتسب فيه الطّفل حسَّ التّواصل والاندماج في المُحيط؛ إذا كان السّلوك العائليّ لا يضمن له ذلك فإنّه سيكون مُهدّداً بالفصام (الشيزوفرانيا)، التوحّد أو يصبح ما يُسمّى بالـ «طفل البرّي»، «الطّفل الذّئب». الحالات التي ذكرها الكاتب مُدهشة، إنّها تتطلّب كمّاً هائلاً من تسليط الفكر وتساعد على فهم العديد من المسائل. بين كلّ الكتب التي اهتمّت بعلم النّفس، الأكثر متعة وسحراً فيما قرأت، *الشيزو واللّغات* لـ «لويس وولفسون». شابّ أمريكي يعاني الشيزوفرانيا يصف الأساليب اللّغويّة التي من خلالها دافع عن نفسه ضدّ لغته الأمّ، الإنجليزية – خصوصاً عندما تتكلّمها أمّه – وضدّ الأطعمة – مسمومة في نظره وقذرة– التي كانت تقدّمها له أمّه. حول هذا الموضوع الهَوَسي تتألّف حكاية حياته: علاقته بأمّه، بزوج أمّه، بأبيه. عاملها بهوس جادّ وتعلّق مثير للضّحك، ما منح جاذبيّة استثنائيّة لرواية «طالب اللّغات الشيزوفرانيّة»، كان يُلقّب نفسه. مقدّمة رائعة لـ «جيل دولوز» أضاءت هذه الشّهادة المتفرّدة.

صنف يسحرني لأنّه يقع بين الحكاية وبين علم النّفس، إنّها البيوغرافيا. وكما في كلّ دراسة تحليليّة، أُحالُ من خلال حالة معزولة إلى بقية العالم. لديَّ فضول لمعرفة المكان الذي يعتقد كتّابٌ مثلي أنّهم يشغلون. لم تُساعدني بيوغرافيا بروست أو بينتر على فهمهما بشكل أفضل: أتاح عمله الاقتراب منه. لكن وهو يضيء الجوانب التي ألهمته فكرته من مناظر ووجوه وأحداث. عرفتُ سرّ خلقه. هذا ما يثير فضولي: أيّ صلة –وهي تختلف من شخص إلى آخر– توجد بين الحياة اليوميّة لكاتب وبين الكتب التي عبّر من خلالها. هذا ما حاولتُ البحث عنه، وكنتُ أنجح أحياناً وأخفق أحياناً، في كتب «لانو» حول موباسان، «مرويّات» حول «غوغول»، «جوليان» حول «دي أنّونزيو»، «باكستر» حول «همنغواي».

كيف تتعامل امرأة مع وضعها كامرأة، هذا أيضاً سؤال يؤرّقني. تابعتُ بشغف مغامرات إيزابيل إيبرهارد، ترويها فرنسواز دي أوبون، مغامرات السيّدة هانو التي كتبتها دومينيك ديسانتي. من خلال الكتاب الرّديء (أختي، زوجتي. لـ هـ. ف. پيتر). الذي قرأتُه عنها، أحسستُ بتعاطف كبير مع هذه المرأة اللّطيفة «لو أندريا سالومي».

لكن يحدث أيضاً أن أتعلّق بمصير شخصيّة غريبة عنّي تماماً. هكذا خلال شتاء سنة 1970، سُعدتُ بقراءة *تاليراند البغيض*. مُلبّياً نداء زمنه، عبّر فيها *تاليراند* عن نفسه. بخطى واثقة، رأينا بوضوح كبير من خلال عموميّات، كيف استقرّ سيّد عظيم في المجتمع نهاية القرن الثّامن عشر؛ أمكن أن نفهم يوماً بيوم، تغيّر نظام الحكم الذي وسم تلك الفترة. لكن، ليس العمل فقط تجسيداً لقرن من الزّمن عاش فيه الكاتب: إنّه رجل مُمَيّز. رأينا، مثلاً، بشكل أخّاذ، الدّور الذي تلعبه الطّفولة في حياة المرء: في حالته، إنّها تلتمس العذر للكثير من عيوبه. لا تعجبني بعض الجوانب من طبيعته: بينها الجشع. وبينها ما يعجبني: ذكاؤه الحادّ، سخريته اللاذعة، لا مبالاته، وفاؤه لأصدقائه ومدرّساته اللاّتي أحبّهن؛ أرى حدثاً روائيّاً علاقتَه الطّويلة بابنة أخ أصغر منه بأربعين سنة. تابعتُ بفضول قصّة علاقته بنابوليون.

ثمّة سيرٌ لا تكادُ تُميّزُ عن تلك التي كتبها عن أصحابها آخرون: إنّها تُخبر أكثر ممّا تمدّ جسر تواصل. في كتبه المختلفة حول مُذكّراته، يروي «هان سيوين» Han Suyin تفاصيل الأحداث التاريخيّة التي رافقت حياته؛ ارتبطت أيضاً بقصّة فريدة من نوعها، خاضتها الأوراسيّة التي ولدت في حقبة «تشانغ كاي-شيك». رواية مُشوّقة جدّاً، لكنّها لا تُشرك القارئ في خصوصيّاتها. كتاب مثل «فراشة» Papillon لا تُشركُكَ في التّجربة التي عاشها صاحب الحكاية؛ إنّها تكشف لنا فقط عن جوانب خفيّة في السّجون؛ خصوصاً بقيّة الأحداث التي تراوحت صحّتها بين واقع ومُتخيَّل، لكن مرويّة بشكل جيّد جدّاً وغير مُحرّف.

في الواقع، من العشوائيّة أن تُقسّم القراءة، بوضوح، إلى ثلاثة أصناف كما فعلتُ. جميعُها «مُسلّية» بما أنّها جلبت انتباهي. عندما أقرأ *الأوركيسترا الحمراء* أو حياة «لو أندرياس سالومي»، كنتُ في أحيان كثيرة أتقمّص شخصيّة الأبطال أو أرى العالم من خلال عيونهم. ثمّ إنّه من جانب آخر، من النّادر جدّاً ألاّ تُضيف لي رواية شيئاً لم أكن أعرفه من قبل. غير أنّي، في الكتب التي سردتُها حتّى الآن، تمنّيتُ إثراءً لمعارفي، وحصلتُ عليه.

أتعامل بشكل آخر مع الكتب عندما أبحث عن التّواصل: عندها أنكر ذاتي لمصلحة شخص آخر؛ أحاول تحقيق حلم «فانتازيو»: «لو أمكنني أن أكون هذا السيّد الذي يعبر!» في هذه الحالات، ليس الأمر كما كتبه «مونتينْيْ» Montaigne، أن أخاطب نفسي فقط، بل أن أخوض مونولوجًا غريباً عنّي. ثمّة مُذكّرات ورسائل ودفاتر تهيئ الأرضيّة لهذا التطفّل. بعض الرّوايات أيضاً. رواية تتّخذ الواقع مرجعاً ورواية تنهل من الخيال، تضعان الكاتب في مُشاكل عديدة: فيما يظلّ دور القارئ واحداً. على العالم الذي سيقذف بنفسه فيه أن يكون مُهمّاً ومنسجماً كي يُحرّضه على إقامة العلاقات بين عناصره وفتراته: لا يهمّ إن كان هذا العالم متطوّراً، جامداً أو مُتحرّكاً. على أيّ حال، سيُسلّط عليه القارئ منذ اللّحظة الأولى ما يُسمّيه سارتر «معرفة مُصوِّرة»: حيثُ ستصلح الكلمة مُشبّهاً للشّيء. وُجد أم لم يوجد أو سوف يوجد. سجنُ جوليان سوريل، ليس موجوداً أكثر أو أقلّ من سجن أوسكار وايلد. تكمنُ الفجوةُ في مكان آخر: يكمن بين الكتب التي لا تُغيّر من وجهة نظري إزاء الموضوع وبين الكتب التي تقتلعني من نفسي. أنفر من أولئك الذين يزعمون القدرة على وضعي في الجانبَيْن معاً: لا تُعلّمني الرّواية التّوثيقيّة، أو السّيرة الرّوائيّة شيئاً.

في أيّ ظرف وبأيّ شكل قد ينجح كاتب ما في تحويلي، فترة من الزّمن، إلى شخص آخر لا يُشبهني؟ تخطر لي أوّلاً الحالات التي يقوم فيها بذلك مباشرة: مُذكّرات، رسائل، يوميّات. ثمّ التي يعيد فيها خلق عالمه داخل رواية.

تحدّثتُ عن صلتي الخاصّة بكتب سارتر، وفيوليت لودوك: لن أعود إلى ذلك هنا وإن كان لم يشدّني كتابٌ خلال السّنوات الأخيرة أكثر من *الكلمات*، و*اللّقيطة*. أحببتُ أيضاً *الخيطان*. ولجتُ الحكاية بسهولة لأنّ حياة لايريس تتقاطع مع حياتي في جزء كبير. نقطن المدينة ذاتها، أعرف عدداً من أصدقائه، الموسيقى والكتب التي كان يُحبّذها. قمتُ برحلة إلى الصّين في نفس الفترة التي قام فيها برحلته إلى هناك. أعرفه شخصيّاً كما أعرفه من خلال كتابه. سحرني الكتاب بولع لايريس الشّديد بحياته، بالعالم، بنفسه من خلال المسافة التي تركها بينه وبين الوجود. ثمّة طرافة في صدقه، وهوس بالدقّة في مزاحه. إنّه لا يحاول تغيير شكله ولا تحويل نفسه إلى حشرة تحت عين باردة لعالم حشرات. متآمراً ومحايداً، إنّه من أولئك الذين لديهم ما يضيفونه إلينا: رجلٌ فريد، قادر على أن يكون نفسه. في رواية *الخيطان*، لعبة التدوير في المرايا لا تحيل على اللاّنهائي كما في *الخردة والشّطبة*؛ جُمَلٌ ليست طويلة، ليست متوهّجة، وتحدّ من المعنى: التّجربة التي ترويها مؤلمة أكثر من الكتب الأخرى. هزّت مشاعري كثيراً تلك الصّفحات التي تتحدّث عن الصّراع بين الحبّ الوفي والحبّ المُدوِّخ، صراع أدّى بها إلى تخوم الموت؛ وأقسى من ذلك وهو يروي كيف كان عليه أن يتجاوز محنة التقدّم في السنّ: من ذلك الإحباط الذي يُسبّبه التّضاؤل الوحشي للمُستقبل أمام أعيننا، عرف كيف يستعيد حبّ الحياة وحبَّ الأدب.

يُمتعني أيضاً أن تسوقني عاطفتي إلى عالم مختلف عن عالمي. الأمر الذي حصل معي وأنا أقرأ مراسلات فرويد Freud. حتّى وإن كنتُ أرفض بعض نظريّاته – خصوصاً تلك التي تخصّ المرأة – فإنّه يظلّ إحدى القامات التي أكنّ لها التّقدير والإعجاب بحرارة. عرفتُه من خلال البيوغرافيا التي كتبها عنه «جونس». لكن ما قرّبني منه هي رسائله. فقد جعلتني أكتشف حياته في عائلته وبين أصدقائه وأتابع أسفاره. شاركتُه مغامرة التّفكير؛ رأيتُه يقاوم بجسارة لا تُقهَرُ كلّ العراقيل التي اعترضت

سبيله. رغم اتّزان كلماته، أحسستُ في أحيان كثيرة أنّ المرض، الألم، فقدان الأقارب، والتخلّي قد وضعته على شفا اليأس؛ لكن لأنّه يحبّ الجنس البشري فقد اجتهد بألم بصمت وعجز: ثمّة جانب بطولي في مثابرته.

لا أعرف تمام المعرفة أفكار غرامشي، لكنّي على الأقلّ أعرف ما تدافع عنه من قِيَم. تعلّقتُ به وبالمحن المؤثّرة التي مرّ بها، من خلال كتاب عن حياته تُرجِمَ حديثاً إلى الفرنسيّة. أشفقتُ عليه أكثر لمّا قرأتُ رسائله من السّجن. تركته زوجته وحُرم من أبنائه وأسيء فهمه من قِبَل أقاربه، وعانى مشاكل صحّية وهو يقضّي أسراً كان بمنزلة القتل البطيء.

أجهل كلّ شيء عن *جاكسون* حتّى وقعت رسائله بين يَدَيَّ. إنّها تستحقّ الثّناء الذي جاء في مُقدّمة جينيت. تمّ إيقافه في سنّ الثّامنة عشرة بتهمة الانحراف، لم يكن واعياً بالأزمة السّياسيّة والعنصريّة آنذاك، اكتشف الشاب الأسود ذلك تدريجيّاً وأمكنه أن يتفوّق عليها فكريّاً فيما بعد. لاحظنا خلال السّنوات العشر الأخيرة كيف تشكّلت شخصيّته وتولّدت أفكاره ونضجت. تتضامن مع إخوته في ثورتهم، الفهود، وبقوّة فسّر دوافعه. تمرّد داخل سجنه على التّفرقة العنصريّة المجانيّة. كان على أهبة المثول أمام المحكمة هو واثنان من أصحاب السّجن، بتهمة قتل أحد الحُرّاس: كان على يقين من أنّ حياته مُهدّدة. في نهاية مراسلاته، كان قد حصّل تعليماً مُهمّاً وتجربة وقبّعة زعيم. تابعت هذا التطوّر بسعادة، لكن أيضاً بقلق. أحسستُ بأنّي مرتبطة به على نحو ما، فقد كان عليَّ أنا وسارتر أن نشهد في قضيّته. وكنتُ أحدس نهايته التي كان ينتظرها: قتلوه.

إلى أيّ مدى قد أذهب في التّفاهم مع شخص كي ينجح في اقتيادي إلى آخر صفحة؟ حتّى لو لم يكن يحظى بنفس القدر من الاحترام من جهتي على غرار فرويد وغرامشي، وجاكسون، قد يوحي إليَّ بالكثير من التّعاطف كي أفهم ما يروم الوصول إليه انطلاقاً من ماضيه ووضعه الحالي، كي أفرح لفرحِه، وأحزن لحزنه.

هذا ما حدث لمّا قرأتُ مراسلات أوسكار وايلد. أحبّ مسرحه وكُتُبه. قرأتُ رسائله بشعور حقيقيّ بالصّداقة. في جزئه الأوّل، ضايقني طيشه، وسواس الجمال لديه، اختيالُه، ونرجسيّته. رغم ذلك أحسستُ بألفة فكريّة معه؛ إنّه يتحدّث عن الفنّ والفنّانين بتشدّق مزعج، لكن ما يهمّ هو أنّ الفنّ والأدب هما ما يعيش لأجله. أحياناً، أشاركه الذّوق: في شأن بعض الكتب، بعض اللّوحات، إيطاليا؛ أشاطره، أيضاً، رفضه للمُتّفَق عليه والتزمّت. يحسن النّظر والتأمّل، أحبّ حضوره الحادّ إزاء مباهج الحياة، وإن كان يقحم فيها متعة التّفاخر، والأبّهة، والمال الذي لا أطيق ذكره. يعرف كيف يهاجم ويدافع، ككاتب، «نابه حادّ»؛ في حياته الخاصّة، يلامس قلبي كرمُه ولطفُه وانعدام الضّغينة لديه. إنّه يدمج المازوشيّة في العجز إلى حدّ الإزعاج لكن، أيضاً، الكثير من الطّيبة وخيالاً يسمح له ببناء علاقات حيّة مع أناسٍ مُختلفين جداً عنه مثلما هو الحال مع عمّال مناجم في كاليفورنيا. نجد طبيعة الكاتب في رسائله، يروي بإغراء. يتقاطعُ تناقضه مع الحقيقة، أحياناً، فيغطّيها. «الحياةُ ليست رواية؛ لدينا ذكريات روائيّة ورغباتٌ روائيّة. - هذا كلّ شيء. أوقاتُ نشوتنا العارمة هي، ببساطة، ظلالُ ما أحسسنا به في مكان آخر، في فترة أخرى، ما تمنّينا أن يساورنا ذات يوم». يبيّنُ هذا النصُّ الفكرة الوجوديّة التي تقرّر استحالة الالتحام بالذّات.

حيّرني وايلد، عندما نصب للّورد كوينسبيري محاكمة؛ لكن عندما مثل أمام القضاء، أُعجبتُ بالجرأة التي تحدّى بها المجتمع وأبهرتني أجوبته الخطيرة على التّهم المُوجّهة إليه. قرأتُ بسرور «دي بروفنديس» *De Profundis*. صفّى خلالها وايلد حسابه مع دوغلاس على نحو سيئ: لكنّ الوضع كان يحرّض على ذلك التّصعيد الخفيّ والمرير؛ أدان بشراسة العقم المُضرّ للحقد الذي قابله بثراء الحبّ. عندما آخذ «بوشي» على سطحيّته نلاحظُ أيّ عمق في أفكاره تحت غطاء الطّيش. حين اكتشف الواقع الإنساني من خلال البؤس، تفاخر بهزيمة كبريائه الخاصّة. لم

يُخفِ عجرفة نفسه وعرضيّتها. سما إلى منزلة عالية، عندما نزل إلى قاع الهوان. لم يخرج من التّجربة متعجرفاً، بل أكثر إنسانيّة من ذي قبل. بدلَ أن يقضّي فترة سجنه في صمت، قرّر التّعبير عن سخطه على التّعذيب الإداريّ الذي يرزح تحته المساجين، خصوصاً الأطفال والمراهقين. في رسالة لمدير *الوقائع اليوميّة Daily chronicle* احتجّ لعزل حارس مُتّهم بتقديم بسكويت لأطفال مُهدَّدين بالغيبوبة تحت وطأة الجوع. ليس الشرُّ نتيجة إرادة شيطانيّة، لاحظ؛ إنّها محض حماقة، «فقر في المُخيّلة». أمّا هو، فبدل الانطواء على مأساته الخاصّة، فقد عرف كيف يتعاطف مع الفزع المهول الذي يُذوِّبُ فوق طفلٍ وحيد قابع في غرفته، وأن يعاني في بدنه المضايقات والضّربات التي قد تقود مراهقاً إلى حافّة الجنون. كي يتكلّم عنهم، كان ينجح في إيجاد كلمات صادمة، تجبر القارئ على بذل الجهد نفسه لكي يفهم، إنّه يحفّز صداقتنا واحترام أحدنا للآخر.

ثمّ، هل يجب أن نستغرب لكونه دخل السّجن بسبب حبّه لـ «بوزي»، وسرعان ما يقع في حبّه ثانية بعد إطلاق سراحه؟ عكس مشيئة زوجته، وأصدقائه وجميع مصالحه، فيعيش معه ونتابع من خلال رسائله انحطاطه المثير للشّفقة. لم يعد قادراً على الكتابة. كي يبتزّ الأموال من أصدقائه، كان يلجأ إلى حيل بالية، وإلى أكاذيب لا يُكلّف نفسه عناء تهذيبها. لم يفقد الرّجلُ، السّمعة والأقنعة فقط، بل هاجس الأخلاق وأدنى مقوّمات الكرامة. إنّه يذكّر بـ «لير»، وهو يُلقي بزخرفه كاشفاً عن وحشيّة الجنس البشري.

كان من الطّبيعي أن أحبّ عمل وايلد بعد أن أضاءت الرّسائل الطّريق أمامي. ثمّة وضعيّات أكثر إرباكاً. أنا معادية، سياسيّاً، لـ «كليمونسو»، خادم البورجوازيّة الذي سمّى نفسه: «أولّ شرطيّ فرنسيّ»؛ الفلسفة التي تصعد من كتبه غائمة ومملّة. لماذا كرّستُ وقتاً لقراءة رسائله لإحدى صديقاته؟

في الثّانية والثّمانين، كان قد أُلغِيَ سياسيّاً. لم يكن له تأثير، بل مجرّد آراء، كانت في حدّ ذاتها تمنحه الثقة بتبصّره في شأن المستقبل. لم يكن يتحدّث عن ذلك في رسائله تقريباً. ما تذكُره، فقط، يوماً بيوم، هو حياة

عجوز عرف المجد السّاحق قبل أن يُحالَ على «التّقاعد» بقسوة، وها هو ذا يكابد كي يملأ ما بقي له من سنوات أخيرة.

كتب خاصّة عن منزله في «فوندي بيليبا»: رأيتُه معزولاً على ضفاف البحر في شاطئ رملي. نبت فيه الورد وكلّ أصناف الزّهور. ما شدّني إليه، من خلال حكاياته اليوميّة، هي رقّته ونزاهته المتعلّقة بانتباهه للأشياء. كان يُحافظ على نفس الاهتمام بالعالم، نفس الحماس كما في سنوات مضطربة خلت. كان يجهل الكُتّاب الجيّدين في عصره، لكنّه فهم ودافع عن «رودان» و«موني»؛ كان يُحسنُ النّظر. كان حسّاساً إزاء الشّمس والرّيح، كان، كلّ يوم، يُلقي نظرات جديدة مُبتهجة، على السّماء والسّحب وأمواج البحر: كان بكلمات بسيطة جدّاً قادراً على تصويرها. كان أبعد ما يكون عن الجمود، كما هو حالُ من هم في مثل سنّه، كان مُتعلّقاً بأصدقائه بحرارة، أخواته، خادمته «كلوتيلد» وكان مُهتمّاً بسكّان قريته. لكن، خصوصاً، ما يضيء صفحاته ويُكسبها قيمتها هي علاقته -الأفلاطونيّة دون شكّ مع امرأة في الأربعين. «سأساعدكِ على الحياة؛ وستساعدينني على الموت»، قال لها في خضمّ حبّهما. أعرف جيّداً مقدار السّعادة التي قد تمنحها صداقة شابّة لإنسان يشيخ، بإمكاني تخيّل مشاعر هذا الثّمانيني وهو يتلقّى نظرات متوهّجة، والضّحك المسرور للسيّدة ب. كانا يتبادلان الرّسائل كلّ يوم، وكان يقاسمها أدقّ تفاصيل حياته، ثمّ بعد ذلك خيّبته قليلاً: عندما بدت له طائشة بعض الشّيء، مُشتّتة وميّالة إلى الشّكوى. كانت غالباً ما «تؤنّبه»، ربّما بدافع قلق؛ كانت تعلم أنّ موته بات وشيكاً. عموماً لم تُخطئ في حقّه وظلّ يحبّها حتّى آخر ساعة من حياته. إن كان بطلا القصّة غريبيْن عنّي، فأنا منبهرة بعلاقتهما الاستثنائيّة. أعتقد أنّي كنتُ سأبقى على الحياد لو لم أكن أُكنُّ لهما الحدَّ الأدنى من الاحترام. بين كائنيْن مُشوّهَيْن لا يمكن للحبّ إلّا أن يكون مُشوّهاً. في رواية *الأوركيسترا الحمراء*، حبّ مارغريت المعتوه لـ «كانت» لا يوحي لي إلّا بالنّفور.

إن لم أوافق كاتباً الرّأي، فإنّي أتكاسلُ في القراءة وهذا لا يُجدي كثيراً. الأجزاء الثّمانية لمراسلات «جورج ساند» المنشورة حديثاً من طرف «لوبين» Lubin: إنّها تحيي حقبة بأسرها. شاهدتُ خلال الفترة القريبة الماضية «نوهان والضّيعة السّوداء»: قراءة «مُصوّرة» هذه المرّة. لكنّ جورج ساند أغضبني. شابّة، أحببتُ إرادة الاستقلال لديها، نهمها للقراءة، للتعلّم، للرّكض في الرّيف، وصرامة قراراتها. وقعت في فخّ زواج أحمق، فتجرّأت على الرّحيل إلى باريس كي تعيد حياتها وتنفق على احتياجاتها.

ثمّ بعد ذلك، احترمتُ طاقتها وقدرتها الجبّارة على العمل. لكنّي تضايقتُ من قناع الفضيلة الذي تضعه على وجهها. تعديد العُشّاق، وخيانتهم، الكذب عليهم، لمَ لا؟ لكن ليس عليها أن تخمد شغفها بالحقيقة، الافتراء والادّعاء بأنّها قدّيسة. كانت تشيع بين عُشّاقها إحساساً بـ «الأمومة»؛ كانت تنام في فراش «باجيلّو» ويزعمان معاً أنّهما يتّخذان «موسي» كـ «ابنيْهما». رغم أنّ الأمومة ليست نقطة قوّتها: جعلت ابنتها تكرهها؛ فقد كانت تهينها في طفولتها، كانت تدعوها «سمينتي» وتعاملها كبلهاء؛ أحبطت اندفاعها بوعود متحذلقة جوفاء، دون أن تكنّ لها سوى الحبّ «المشروط»، ما يرعب الأطفال الذين لا شيء قد يفيدهم مثل الشّعور بالأمان. في الثّلاثين، كانت امرأة مُحطّمة لا تكترث للعواقب: فيما كانت في حاجة مُلحّة لمُحيطها. ما أغفره لها أقلّ من غيره، هو التّزوير المُستمرّ للغتها الدّاخليّة التي كانت تُحوّل جميع تصرّفاتها إلى أمثلة بنّاءة. إنّها كذبة جوهريّة، حتّى إنّ الموقف الذي بدر منها سنة 1948 (توقّفت المنشورات سنة 1848) كان مشكوكاً في مصداقيّته.

في جوّ من التّناقض أيضاً، قرأتُ الأجزاء الثّلاثة ليوميّات «أناييس نين». أسلمتُ نفسي لبعض المقاطع: عندما تحدّثت عن ميلر وزوجته «جين» June، عندما ذكرت «أرتو» Artaud، عندما رسمت بعذوبة أناساً عرفتُهم، عندما تعسّفت على نفسها بنزاهة كي تتعرّف على ذاتها في ماضيها. لكن

ها هي تقع ضحيّة غواية مُخادع أعرفه جيّداً: سأتوقّف عن ذكره. يزعجني حسُّ الجماليّة لديها، نرجسيّتها، ضيق العالم المُزيّف الذي أحاطت به نفسها، الاستخدام المُفرط للأساطير، وافتتانها بالتّنجيم. يغضبني مفهوم الأنوثة لديها. راوحتُ على امتداد قراءتي لها بين الإقبال والارتياب.

القراءة لكاتب نختلف معه جذريّاً في شأن اختياراته، أمر عويص حقّاً؛ كي يتمتّع نصّ ما بمعنى، يجب أن نمنحه الحرّية، أن نحسن الصّمت في أعماقنا، وأن نسمح لصوت الكتاب الغريب عنّا بأن يصدح. يستحيل عليَّ القيام بذلك، إن كان تضارب القيَم لدى الكاتب عميقاً، إن بدت لي نظرته للعالم بغيضة أو صبيانيّة. وأملت التمكّن من القراءة عندما خضتُ تجربة الاطّلاع على *المُذكّرات المُضادّة* لـ «مالرو» Malraux. كان لديّ فضول لمعرفة الكيفيّة التي بها برّر الرّجلُ ما تحوّلَ إليه بعد الحرب، لمعرفتي به قبلها. ماذا يُفكّر بشأن تحصين نفسه ضدّ الحرب على الجزائر: «سنُحوّل الجزائر إلى ضيعة تينيسي... كان التّآخي حقيقة»؟ كيف يُفسّر إحساسه بالإطراء عندما، كما قال موريالك Mauriac، قلّده ديغول «وزارة ليُرتّبها»؟ هل يعتقد أنّه خدم الثّقافة كثيراً بتبييض الواجهات، وطلاء الأسقف، وفي مصلحة دار فيليبس، حين فرض *«أصواتٌ وأنوار»* على يونانيّين مُستائين؟ لم آمل إيجاد ندم في كتابه بل أجوبة على أسئلتي.

كم كنتُ مُخطئة! نسيتُ أنّي وإن كنتُ منذ 45 بدت لي مواقف مالرو تافهة ومُزرية، فإنّ تصوّره حول الإنسان، الحياة، الفكر، والأدب هي على النّقيض تماماً ممّا أراه. حذّر الجمهور منذ البداية بأنّه سيختار الموقع الأعلى: لا على مُستوى الأفراد، بل على مستوى الحضارات، لا على مُستوى النّاس بل مواقعهم وأربابهم، لا في صفّ الحياة والموت اليوميّ بل القدر؛ أي ما يعني في مصلحة البلدان والمفاهيم المُخادعة. أخيراً، يقف مالرو في صفّ نفسه. ما عدا فصليْن أو ثلاثة -المقاطع الوحيدة التي استطعتُ متابعته فيها والتي اعتبرها من قبيل الطّرفة أو المسائل الثّانويّة- لم يكن حاضراً مطلقاً. «ماذا قد يعنيني ما يعنيني وحدي؟»

قال. هذه الجملة الرّائعة قادته رغم كلّ شيء للقول إنه مأخوذ بـ «العدالة الاجتماعيّة»، العبارة التي سيحبّها القدّيس والدّكتاتور.

في نهاية *الخيطان*، أعلن لايريس عن المبادئ التي حاولت احترامها -دون جدوى، قال- في عمله ككاتب. ألاّ يكذب أو يبيع كلماته؛ أن يرفض التضخّم اللّفظي؛ منع مقاطع البطولة من أن تتسلّل إلى نصّه؛ ألاّ يتكلّم عشوائيّاً جاعلاً من الأدب الحاوية التي تُلمّ بكلّ شيء؛ أن يكتب كشخص يعرف تماماً ماذا يعني أن يتحدّث المرء وألّا يستخدم اللّغة إلّا بدقّة صارمة ونزاهة عالية. اتّخذ مالرو الاتّجاه المُعاكس تماماً لما سطّره لنصّه. أن يزعم اليوم بأنّ التّآخي كانت فكرة هزليّة، هو بمنزلة الكذب المُخجل إن كان الكذب والصّدق لهما معنى بالنّسبة إليه؛ لكنّه لا يُميز بينهما؛ ليست الكلمات بالنّسبة إليه سوى ضرب من الهذيان (وردت الكلمة باللاّتينيّة *Flatus vocis*)، ما لم يمنعه من اعتبارها أفكاراً والاعتقاد بأنّه ابتكر إضافة حين ظنّ أنّه اكتشف معادلة. إنّه نشاط متواضع أن يرى شيئاً ويقول بنزاهة ما رأى: كان يهرب بدل أن يواجه. إنّها ملاحظة سرعان ما تخطر على بال القارئ وهذا لا يُحتَمَل: عليه دائماً أن *يُفكّر* (هو من *كان يستخدم هذه الكلمة*) في أمر آخر. فيمَ يُفكّر؟ لا يجيب عن ذلك أبداً: هذا الأمر الآخر يجعله يُفكّر في غيره وهكذا، حتّى إنّه لا يُفكّر في شيء مُطلقاً. شلاّلٌ من النّوايا الفارغة: لا شيء واضحاً بالمرّة؛ تنصُّلٌ دائم. حين يكون في القاهرة فإنّه يُفكّر في المكسيك، في غواتيمالا، في أنتيغا حيثُ فكّر في المدينة الجميلة على الطّراز الباروكي نوتو Noto. أمام «ماو» كان يُفكّر في تروتسكي، في الأباطرة الصّينيّين، في «الدّروع المكسُوّة بالصدأ للقادة العسكريّين». أمام السّور العظيم كان يُفكّر في فيزلي Vézlay. في دلهي كان يُفكّر في حدائق بابيلون وفي جنود كورتيز، في زهرة اللّوتس الخاصّة بعاصمة الرّيف الصّيني Hang Tcheou. بعد أن حضر جنازة «جون مولان»، كتب: «أفكّر في معارك جارناك Jarnac وشاتينيري Châtaigneraie حسب وصف «ميشلي» Michlet». يمكنني الاستمرار

في تعداد صفحات كاملة. ينصحُ بولهان بعدم الدّخول إلى حدائق الأدب بزهور في اليد. يدخل مالرو مُحمّلاً بباقات من الزّهور والأكاليل ويُخفي تحت أكوام البلاغة ما يريد إظهاره. إنّه لا يُظهر أحداً في لقائه بنيهرو وماو. نحنُ نعرف ما يُساوي هذان حتّى لو تصرّفا بشكل جيّد. إضافة إلى ذلك، فإنّ مالرو عاجز عن الإصغاء: إنّه يتحدّث؛ إذا تساءل فتحت كثير من الإلحاح يجد القارئ نفسه مُوجّهاً نحو أفكار مُسبقة الصّنع. لا نسمعُ صوته الحقيقي، بل صوت مالرو الذي يفرضه عليه عنوة. لا همّ له في أن يسوق معرفة للقارئ بل في أن يُربكه، أن يجعله يفهم كم أنّ ثقافة الكاتب واسعة، كم سافر وكم احتك بمشاهير عن قرب. لم ينتهج التّنميق والتّمويه في أسلوبه إلّا ليُخفي فراغ قصصه. ربّما أعطت شطحاته في حواراته انطباعاً بالبراعة؛ ونحنُ نقرأ له، نلاحظ كم أنّ خطابه أجوف: إنّها تنطوي في أحيان كثيرة على بداهات. على امتداد *المُذكّرات المُضادّة*، ما انفكّ مالرو يسرد علينا محاور استهلكها من قبل –حول الواقعيّة في الفنّ، مثلاً– وعن نقاط مُشتركة في التّفكير اليميني: فكراً متواطئاً مع الاستغلال، يُروّج لقيم وخرافات المُرفّهين على أنّها الحقيقة المُطلقة للوضع الإنساني. إنّه يُحدّثنا بحرارة عن فرنسا لكن ليس عن الفرنسيّين.

الإخفاء هو الوجه الأقبح للكذب. لم يتحدّث مالرو عن فترات حياته وتصرّفاته وأقواله التي تُزعجه. ليس في إمكانه الإنكار بأنّ حكومة ديغول قد عذّبت وقتلت بشكل ممنهج أناساً بالآلاف في المُعسكرات. أذكر لقائي بميشلي Michelet (حول قضيّة جميلة بوباشة) وذلك الضّيق الذي قال به حول مسألة التّعذيب: «أعرف، أعرف... إنّها الغرغرينا». لم يكن مالرو يجهل ذلك. بدءًا من سنة 59، تفاقمت علاقته بالمُعسكرات (أبريل 59، قُدّر عدد المُحوّلين إلى المُعسكرات بمليون ونصف المليون ووُصف وضعهم بالفظيع، ما أكّده صحافيّون من اليمين وحتّى جنرالات في الجيش). وهو يساند النّظام، على نحو غير مشروط، مؤيّداً الجلاّدين. لقد برهن عن صفاقة غريبة وهو يصف ويتأمّل التّعذيب في آخر كتابه،

المُعسكرات وطرق إذلال الإنسان، من موقع الضّحايا. كان من بين هؤلاء، مثل الكثير من أصدقائه، بين سنتَيْ 40 و45؛ سجيناً لدى الألمان، خشي أن يُمارَسَ عليه التّعذيب. لم يجعله ذلك ينسى تواطؤه مع مُعذّبي الجزائريّين. ينتهي هذا الكتاب المُلفّق برمّته، على خدعة كبيرة. «لا يُفشي التّاريخ سرّه أبداً»، قال. لكنّه أذاع أسرار كثيرة سنة 62. لم يعمل مالرو حساباً لذلك قط. أعفاه هوسُه بالكذب من كلّ تبرير.

قلتُها من قبل: قد تتيح لي الرّواية خوض تجربة غريبة، مثلها مثل المُذكّرات والرّسائل واليوميّات. لن أتحدّث عن تلك التي شدّتني خلال السّنوات العشر الأخيرة؛ سأحاول انطلاقاً من بعض الأمثلة فهم ما أبحث عنه، ما يمكنني العثور عليه في رواية.

كتابٌ شكّل اكتشافاً حقيقيّاً في حياتي، *وولف سولنت Wolf Solent* لـ «كوپر پووز» الذي لا أعرف عنه شيئاً حتّى السّنوات الأخيرة. إنّه في آن، تصوير للعالم ولمغامرة رجل؛ هذا الرّجل الذي نجح الكاتب في تجسيده والذي ظلّ بعيداً عنّي: بولعه بالدّين وبروحانيّته. مع ذلك ولجتُ عالمه واقتفيتُ أثره خطوة، خطوة.

أيقظ المكان الذي تدور فيه الأحداث بعض الخواطر في داخلي رغم أنّه غريب عنّي. يمكنني تخيّل تلك القرى الإنجليزيّة، حقولها المُزهرة حيثُ يحتسي النّاس الشّاي ويأكلون شطائر العسل، تلك السّهول الخضراء، تلك المياه العذبة، تلك البحيرات النّائمة. برقّة، دخلتُ الغرف الريفيّة، وجدتُ الأباريق والشّمعدان والأواني التي عرفتها في طفولتي. تتحرّك في هذا الدّيكور شخصيّات قُدّمت للقارئ في هيئات مُختلفة بصورة مرتبكة في البداية؛ تساءل عنهم كما لو أنّه التقاهم حقيقة، لحماً وعظماً. يتأثّر القارئ لفشلهم وسعادتهم وأملهم وخيباتهم. ينأى الواحد منهم بحمل سرّ مرهق، سرّ جنسيّ غالباً؛ كان كلّ منهم ضحيّة هوس، ووسواس شيطاني مُخجل. (يُرمَزُ إلى لغز قلوبهم بالحكاية المأساويّة،

التي لم تتّضح قط، لشابّ ألقى بنفسه في بحيرة). رغم العزوف الذي تُسبّبه له بعض طبائعهم، فإنّ وولف سولنت كان يكنّ لهم التّعاطف لأنّه يجد في قلقهم قلقه الخاصّ.

كان سولنت قلب الحكاية، تدور الأشياء حوله ويرى القارئ النّاس بعيْنيْه. يمكنه، رغم أنانيّته العميقة، أن يكسوه وجهٌ حزين يقفز إلى المُخيّلة فوراً وكان يملك موهبة أن يكون طيّباً ما يجعل من پووز كاتباً عملاقاً. فيه جانب من روسو؛ أوّل صلة ربطت بيني وبينه عشقه للرّيف، كما أحببتُه في طفولتي ومراهقتي، عندما بدا لي أنّ قدري مرتبط برائحة الأرض ولون السّماء. تعقّبته في نزهاته المنفردة، يسحرني حجر هنا وتجذبني وعود بعيدة هناك. ينطبع في الذّهن فوراً أنّه يقاسم روسو ميوله؛ كان، مثله، يرفض حياة الآلات، والأدوات، والنّظام؛ يكره قوالب الكلام الجاهزة، نشاط الكبار وعمليّتهم: طُردَ سولنت من المدرسة التي كان يُدرّس فيها، بسبب نوبة صراحة لفظيّة انتابته فهاجم القيم الموروثة. كان يحلم بحياة ليس فيها تعاليم، حيثُ الروتين يلعب دور السّفينة المؤدّية إلى الكرامة، والحرّية، حيثُ في الإمكان ودون شرط، الانسياق إلى الوهم والهوس الجنسي: شكّل الجنس المحور الذي يدور وجوده حوله. كسّر أصفاد واجبه اليومي بفضل ضوء منحته إيّاه الطّبيعة: كان يُسمّي أوقات حضوره وغيابه الرّائعة بـ «الأسطورة». كانت تحمل إليه سعادة قصوى.

منذ بداية الكتاب حتّى آخره، كان ما يشغله هو بحثه عن حقيقته؛ وبفضل تتابع مونولوجه الدّاخلي دون انقطاع، فقد جعلنا نشاركه إيّاه؛ كانت في تلك الرّحلة أوقاتٌ من النّزاهة الخالصة، لكن أيضاً بعض التوقّف، الهروب والكذب عن الذّات. أحد نجاحات پووز هو أنّه جعلنا ندرك ناحية ظلّ فيه، كانت حتّى ذلك الوقت مخفيّة.

أدّت المغامرة إلى تحطّم أسطورته، عندئذ آن له أن يرتاح، ثمّة سؤالٌ يهمّنا جميعاً انطلاقاً من تلك التّجربة: «كيف يستمرّ الإنسان في العيش حين يتحطّم وهمه الذي يعيش بفضله؟ كيف يُصلح صدعه، كيف يعيد

تركيب أجزائه كي يُرمّم ذاته، كيف يستمرّ في الوجود حين يتوقّف مصدر حياته عن منحه الطّاقة؟» تُطرح هذه القضيّة على الكاتب المُتقدّم في السنّ، ذاك الذي فقد وهم الوصول بكتابة هذا الاعتراف الذي يمضي إليه كلّ وجود؛ كان عليه، إذًا، أن يعثر في الوجود نفسه – في التعايش مع الآخرين – أسباباً كافية للعيش وربّما أيضاً كي يكتب المزيد. وولف سولنت له ستّة وثلاثون سنة، فرّ من اليأس معتمداً على قيمة الحياة ذاتها، متعلّقاً بمستواه الحيواني الصّرف. في الواقع، لقد وجد الكاتب «أوهاماً» أخرى، من بينها متعة الكتابة في الثّالثة والخمسين من العمر: كتب، إذًا، كتابه الأوّل. كان له من العمر سبع وخمسون سنة عندما انتهى من إنجاز *وولف سولنت*. كان ثراء الأسلوب واحداً من بين الأشياء المغرية في الكتاب، خصوصاً أنّ التّرجمة لم تؤثّر فيه، وفنّاً قد تستوعبه القصّة، كما لو كانت نزهة رائعة. تستوقفنا اللّوحة التي ترسمها الجملة في كلّ لحظة، لتفضي بنا إلى بقيّة الحكاية. إنّها واحدة من الحالات التي تكون فيها الرّواية وسيلة تواصل مميّزة. في مُذكّرات پووز التي كتبها بعد سنوات من *وولف سولنت*، وجدتُ فنّه وغالبيّة شخصيّته ومحاوره، مع تركيز أكبر على فرادته. أُصبتُ بملل ناجم عن أنانيّته ورضاه المُطلق عن «عيوبه» وثقافة ممارسة العادات السيّئة بتبجّح وهوس. لا أدري أيّ شيء يُرضيه في أسلوبه. سجين الحدود التي سطّرها لنفسه، كانت قصص رحلاته فقيرة بشكل مُزرٍ. كانت هناك مقاطع معتمة في الحكاية: بينها الصّمتُ عن النّساء في مُحيطه؛ أمّه، زوجته وصديقاته.

أحببتُ *جميلة الربّ*، لألبير كوهين من أجل دوافع مُختلفة تماماً. إذ لا وجود للطّبيعة بالنّسبة إليه؛ ما يعنيه هو المجتمع الذي يستغلّنا. وهو ينصف تجسّد إحدى أساطيره، سلّط ضوءاً باهراً على حبّ كبير.

1936. في شوارع برلين، يُسمَعُ وقع جِزم النّازيّين. في جانب المُجتمع الدّولي، مُوظّفون مُتخمون يتثاءبون أمام ملفّاتهم، غير مُبالين

بما يجري في العالم. سؤال البطل الذي يُشبه الكاتب كثيراً والذي يعمل في مُنظّمة المجتمع الدّولي S.D.N، كان يُراقبهم بذهول، باستياء، يدعو إلى الضّحك والبكاء معاً، عندما جعلنا نشاهد المزيج، ضُبّاطاً سامين وعسكريّين بُسطاء ورُتباً متوسّطة بنوع من الحدّة في التّسلسل الهرمي، بحذرهم وحيلهم التي لا تُمهلهم لحظة. تشريفات، ترقيات، نجاحات اجتماعيّة، أليس غريباً أن يُعَلَّقَ هذا القدرُ من التّكريم لهذه الألعاب الآدميّة مع علم مُسبق بأنّهم جثث مؤجّلة؟ لقد سكنت كوهين فكرة أنّ كلّاً منهم ميّتٌ مع تأجيل التّنفيذ. ودون شكّ، لا أحد سيفرّ من القبر. لكن عندما نفهم كيف نستخدم اعتراف اللّحظة - في ظلّ حبور الحركة والثّورة - فإنّ الموت يتراجع؛ تؤكّد الجثّة القادة، الآن، بأنّها كائن حيّ. نادرون هم هؤلاء المُنتَخَبون. ولقد جسّد كوهين غباء الطّموح الأجوف من خلال مُوظّف في المجتمع الدّولي، «أدريان دوم». وبدقّة قاسية راح يقتفي أثره في اهتماماته السّخيفة، سعادته التّافهة، وجنونه العقيم. كان من الممكن أن يكون أدريان إنساناً لو لا أنّ النّظام سلب إنسانيّته. إنّه يتمتّع بطيبة كبيرة في العمق. كان حين ينتابه الحزن - هجرته زوجته - أعاره كوهين، بأخوّة، ردود فعلٍ رحيمة ومثيرة للشّفقة كانت قد ندّت عنه عندما فقد أمّه (روى ذلك في *كتاب أمّي*).

نادراً ما قرأتُ في الكتب صفحات أكثر إمتاعاً - وانتقاميّة - مثل تلك التي أقحم فيها مشاهد لوالدَيْ أدريان. كان مُشفقاً على «الأب الصّغير دوم» الذي كان يُمضي تحت سلطة زوجته حياة شيخ عديم الجدوى، لكنّه يكره الأمّ «دوم»، روحانيّتها المُزيّفة، غرورها الأبله، قسوتها، شموخها الخشن، بخلها. كانت نموذجاً صارخاً للبورجوازيّة الجشعة، الأنانيّة، الانتهازيّة والعنصريّة التي تجعل «سولال Solal» يشعر على الدّوام بأنّه مُطارد.

يقابل كوهين هذا المُجتمع العابث والمُتصنّع بالحياة الصّاخبة، الحيوانيّة، المُتهوّرة ليهود «كافالونيا Céphalonie». يزعجني الشّجعان

بجانبهم الفلكلوري، لكنّ حضورهم كان ضروريّاً لتفسير «سولال». إنّ له جذورهم، لكنّه استسلم لعدوى العالم الغربي، ذاك العالم الذي كان يُدينه عاجزاً عن التملّص منه.

وراء تلك الخلفيّة تدور قصّة حبّ ستُمثّل محور الرّواية. أحبّ سولال «أريان» زوجة أدريان دوم، شابّة جميلة، نبيلة العائلة والمظهر، كانت بمشقّة تتحمّل رداءة مُحيطها. أغواها فتركت كلّ شيء لتتبع خطاه. عرف كوهين كيف يجعل البؤس ونضارة الحبّ وجهين لعملة واحدة. عرف على نحو ساحر كيف يمرّر نفاد صبرهما في انتظار اللّقاء، توهُّجَ لقاءاتهما، ثمالته وهو يحتضن وجهها بعيْنيْن عاشقتين؛ مع ذلك ستبدو تلك السّعادة ونشوة كل منهما، إضافة إلى أنّها فريدة ومُبهجة، حدثاً متوقّعاً وعاديّاً. تمضي أريان في أسطورة عشقها بسذاجة جعلت سولال يبتسم مُتأثّراً بذلك ويغضب في آن واحد. ينساق هو الآخر وراء هذا الحبّ ليس بغير حماس لكن بتشاؤم حادّ. لم تُخلّصه من وحدته. كان وحيداً عندما طلب من المجتمع الدّولي إيواء اليهود الألمان؛ كان وحيداً عندما خنقه رفضهم؛ أدان غياب العدل فوجد نفسه مطروداً من جينيف: تحوّل إلى منبوذ ينوء بحمل أمواجٍ هائلة من الخزي والشّكوك. كان وحيداً بشكل مأساوي عندما وجد نفسه في باريس الموبوءة بمناهضة اليهود، فتنكّر واضعاً على وجهه أنفاً مُزيّفاً بشعاً.

لم تفهم أريان لماذا اختار الانتقال من فرنسا وإيطاليا التي كان يعيش فيها الرّغد - لأنّهم أثرياء - إلى خارج عن القانون. كان عليه البحث عن وسائل لكسب العيش بعد أن أصبح مقطوعاً عن المجتمع؛ أحاطته أريان بالضّحك والحفلات حتّى إنّها فقدت الجانب الرّقيق لديها. بدت لسولال الصّورة المثاليّة التي يحرص كلاهما على إظهارها للآخر كوميديّة؛ أصابه الكذب بالسّأم، ليتحوّل إلى غضب أفضى به إلى اقتراف الشرّ. واجههما الزّواج على الطّريقة اليهوديّة: ذلك الحبّ المبني على العطاء ونكران الذّات، بوعي مُشترك بالبؤس الإنساني، بمجهود جبّار مُشترك لتقبّل عواقبه؛ حبّ لا

تخمد البشاعة توهّجه ولا يقتله المرض. إنّه أيضاً الحبّ الذي عرفته ماريت Mariette الخادمة، التي بدا لها تصنّع أريان غريباً؛ تذكُرُ العلاقة الطّبيعيّة التي جمعتها بزوجها، لا أحد منهما كان يُقنّع نزعته الحيوانيّة. لِمَ يستسلم سولال للعبة أريان بدل أن يعيش معها الحقيقة؟ لعلّه كان يعتقد أنّ بيئته وتربيته ستجعلانه عاجزاً عن ذلك. انعكس عداؤه للمُجتمع الفاسد عليها وعليه هو ذاته. استمرّ، إذًا، في رعاية شغفه السرّي بأريان التي ما انفكّت تسجنه وإيّاها داخله. لكنّ شعوراً بالخواء استقرّ بسرعة؛ لأجل العيش كان لابدّ له من اتّباع طريق الانحراف الذي لو أراد أن يكون مُخلصاً لنفسه لأدّى به إلى الموت. هنا أيضاً نجح كوهين ببراعة. إنّه يصنع تحت أعيننا من الحبّ الجارف كاريكاتوراً قاسياً ويمنحه في الآن نفسه منحى مثيراً للشّفقة. سولال يكنّ لأريان عاطفة عميقة. وإن كان يعاملها بقسوة أحياناً - مسبّبا الألم لنفسه - فإنّه يكون سعيداً وهو يعتني بها عندما تمرض، ولم يكن لديه نفور من ترهّل جسدها. وإنّه برقّة متناهية هدهد جثّتها قبل أن ينتحر كما فعلتْ.

من السّهل عليَّ الانسياق وراء رواية يكون أبطالها قريبين من قلبي: مثلما حدث لي مع *زمن الآباء* لـ «فيتيا هيسل». كان من الممكن أن تكون دوريس صديقتي، المُثقّفة اليساريّة التي كانت تحاول خلق توازن بين علاقتها بزوجها وأبنائها وعملها والسّياسة، وأن تجمع بينهم في دوّامة وجود مُفكّك. ملتحمة بزوجها، تجاوزا معاً فترات مُهمّة بالنّسبة إليَّ: ما بعد حرب الجزائر. أحياناً ينتابني شعورٌ بأنّه يستعيد ذكريات مع أصدقاء قدماء. يبدو لي الإطار الذي تدور فيه الأحداث مألوفاً: الحيّ اللاّتيني، اللكسمبرغ، محال شارع سان-ميشال، المرافئ. يحلو التنزّه مع الكاتبة التي تصف المدينة كأنّها مناظر طبيعيّة: السّماء، أوراق الأشجار، بقعة بياض على الجدار، لون منزل. لا تمتُّ لي العائلة التي تتحدّث عنها بصلة مع ذلك فإنّها تجعلني أحلم بطفولتي. إنّها بيت أيضاً، دائرة مغلقة حيث يعيش الكبار والصّغار في نوع من التّكافل.

قلتُ من قبلُ كم أنّي مهتمّة في الوقت الحاضر بحداثة السنّ، الشّباب. تحدّثت «فيتيا هيسل» عن ذلك جيّداً. أظهرت كيف تأثّر الكبار بطفولتهم وكيف أثّروا في أطفالهم؛ بتعاطف القارئ مع الوالديْن اللّذين يحاولان وهما يُكرّسان أنفسهما لأبنائهما الحفاظ على حياتهما الخاصّة - أحياناً دون أن يشعرا، كان ذلك مؤذياً للأطفال؛ كانا يتعاطفان مع الأطفال الذين يفعلون عكس إرادتهما خلال فترة التعلّم العويصة؛ تمكّنت فيتيا هيسل - وهو نجاح نادر - من جعلنا نسمع مونولوجهم الدّاخلي، بل لقد جعلتنا، أيضاً، ندخل أعصاب طفل صغير، مُطالِبا بواسطة الكلمات بما لا اسم له في الواقع: العدم، ما لا يوصف، الشّيء؛ فنعيش معه قلقه والتحطّم الوئيد لمقاومته ثمّ شفاءه. ترسم الكاتبة أيضاً، ارتباك المراهقة؛ تعلم جيّداً ثقل الصّداقة والحزن النّاجم عن الفقد في تلك السنّ؛ إنّها توقظ في داخلنا كآبة تلك القلوب الصّغيرة التي لا تعرف ما يكفي من الكلمات للتّعبير عن نفسها، فزعهم من أن يكشفوا عمّا يدور في خلدهم، حتّى لو كانت النّظرات التي تخترقهم ذكيّة وحنونة؛ تنعكس الحياة الخاصّة لشخصيّاتها على العالم الخارجي فيُعبّر عنها هذا الأخير: في أحيان كثيرة كانت وهي تشير إلى لون السّماء تريد أن ترمز إلى حالة نفسيّة ما.

جميعُ شخصيّات الرّواية لها طابعها الخاصّ، خصوصاً «دروس» التي كانت في نظر زوجها فريدة. مع ذلك فهي واحدة من بين كثير من ربّات البيوت اللّاتي يهرعن بعد الدّوام إلى اقتناء أحذية لأطفالهنّ. للكتاب بعدٌ اجتماعيّ: يمكن اتّخاذه مبحثاً للعائلة البورجوازيّة الفرنسيّة خلال القرن العشرين. لكن بمنزلة إعادة فهمها: له أيضاً بعدٌ ميتافيزيقي. ليس الأمر حكراً على معرفة - كما يظنّ العديد من النُقّاد - كيف نُربّي لكن أيضاً: لماذا؟ يحلم أغلب الآباء بالحصول على ذريّة استثنائيّة؛ وتجدهم بعد ذلك يُخفّضون مطالبهم: تكوين إنسان عادي مهمّة صعبة في حدّ ذاتها. هل يستحقّ العناية التي نُحيطه بها؟ وماذا تعني فكرة العادي؟ الوضع الإنسانيُّ برمّته يُساءل في هذا الكتاب.

لكنّ هذه الرّواية لا تُتاحُ ثرواتها إلّا من خلال قراءة متأنّية؛ بين الأسطر. إذ لا يُغطّي الخطاب الصّريح حقيقة التّجربة المعيشة: الأحاسيس، الحوافز، التردّد. إنّ العلاقة بين الشّخصيّات ماكرة، لأنّه غالباً من خلال اللّغة المكذوبة نوعاً ما، كانوا يسمعون حديثاً واضحاً، لكنّهم يُؤوّلونه على طريقتهم بنوع من الطّيبة. بين فكرة غموض البعض إزاء بعض وبين فكرة أن يتمّ بينهم التّفاهم، فإنّ فيتيا هيسل لا تتدخّل البتّة. بل تشير إلى أنّ التواصل لم يحدث وإنّما هم دائماً يلاحقونه: يتطلّب هذا المدخل الكثير من الإرادة والحبّ. توحي إليَّ أيضاً بطلات كلير ايتشرلي Claire Etcherelli، رغم أنّ عالمها يظلّ غير مألوف بالنّسبة إليَّ بالكثير من الصّداقة. ذكرتُ سابقاً ما يُعجبني في رواياتها.

عندما قرأتُ *انتصار الوغد* لإيني Ehni، أحسستُ بصداقة الكاتب بدل الإحساس بصداقة الشّخصيّة. ليس ثمّة نقاطٌ مشتركة تجمع بيني وبين الشاب المغرور المثلي الجنسي نوعاً ما، الذي كان يُسافر عبر أوروبا لاقتناء الملابس والحقائب والحليّ بشغف. لا يكفي أن أعيد زيارة أماكن أعرفها – ميونيخ وبشاعتها وجزيرة هيليغولاند – كي أفسّر متعتي بالكتاب. ما استوقفني حقّاً هي السّخرية الرّائعة لإيني التي أدانت بواسطتها بؤس حياة برمّتها منذورة للاستهلاك. «ماني» Mani هو المستهلك الذي يحسن الاستهلاك بصفاقة. ثريّ وحيويّ وأنيق، يستهلك الويسكي والحرّية والمعاطف والمناظر الطّبيعيّة، النّكت والأطعمة المرهفة، الأدب والموسيقى والشبّان. كان مرهف الإحساس إذا ما تعلّق الأمر بالفرق بين التّبغ الجيّد والكونياك الجيّد. يعرف كيف يجد على جسد غضّ لوحة مُعلّم، فكّ شفرة لوحة من خلال جسد مرّ به، أن يسرد أبيات الشّعر المناسبة في الأوقات المرغوبة. يحلُم بالتّماثيل والأثاث الباذخ. طيّب السّريرة بسبب رُهابه من كلّ شيء بشع، أي متعجرف وحيواني. وأيضاً لأنّه يقيس، بسفاهة وقحة، تفاخره الضّعيف بكلّ رفاهيّته التي كان غارقاً فيها: يترك هذا التغذّي الفاحش على الأطعمة والأحاسيس طعماً

مريراً. كي ينتهي من اضطرابه المجنون، طرح السُّؤال الجوهري: ما الذي يمكن فعله على الأرض؟ لماذا نعيش؟ «ها هي حياتي ماذا يمكن أن أفعل بها؟ وجّهوني، أنا لا أملك ميزة واحدة». اختارت إيني لشخصيّتها الإجابة الأسهل: يوماً ما امتدّت يده إلى مسدّس.

أحببتُ كتب سولجتسين Soljetsyne، الأولى: *يوم من أيام إيفان إيفانوفيتش* ومنزل *ماتريونا*. إن كان قد أثارت اهتمامي *الدّائرة الأولى*، فإنّي لم أجد صوته فيها؛ كثير من المقاطع كانت خاوية. لكنّي صُعقتُ فوراً بـ*جناح مرضى السّرطان* (كُتب بين 63 و73 ولم يسبق له مثيل في الاتّحاد السّوفيتي).

لم يُضف لي الكثير لأنّي أعرف جيّداً حياة السّوفييت؛ لكنّها معلومات مُجرّدة؛ جعلني سولجتسين أشاركه تجربة خاصّة جدّاً. تبنّيتُ انزعاجه، ثورته؛ معه عرفتُ الشّفقة، الرقّة، الأمل؛ شاركتُه بحثه عن حقيقة لم يُزعزعها الموت. الجناحُ عبارة عن مُجسّم مُصغّر. اختُزل فيه الواقع السّوفيتي اجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً. تجري أحداث الرّواية سنة 1955 عند بداية الانفتاح السوفيتي. على الأسرّة كان ينامُ عمّالُ مهن شاقّة، طلبة، مُزارعون، مُهجّرون قدامى ومُوظّفون سامون في الدّولة. حولهم وعلى مدار السّاعة كان يتحرّكُ دكاترة وممرّضات وخادمات. مُشكّلين عالماً لا اشتراكيّة فيه سوى الاسم؛ الفرق بين الأجور ونمط العيش صارخ. لم تتحرّك النّساء ضدّ الاستبداد الذّكوري. دونتسوفا Dontsova، دكتورة جراحة من أعلى رتبة – ما يُعادل لدينا رئيس عمل كبيراً – ليست في منأى عن ذلك، فحال عودتها إلى البيت سيكون عليها القيام بالأشغال المنزليّة المُضنية. ردود الفعل الفرديّة إزاء هذا المُجتمع شديدة التنوّع: هناك ستالينيّون عنيدون، لا مبالون وانتهازيّون؛ كوستوغلوتوف المنفيّ السّابق الذي منحه الكاتب الكثير من شخصيّته، تنصّل من مجتمعه إلى حدّ الشكّ في الاشتراكيّة. النّقطة المُشتركة الوحيدة بينهم هي مرض

السّرطان؛ للوهلة الأولى يبدو أنّ الجميع يتعاملون بنوع من تفاؤل ينهلونه من الإحساس بالتفرّد. «لن يحدث هذا معي»، قال عامل الأشغال الشاقة پودويف، مثله مثل الموظّف السّابق روسانوف، حتّى الدّكتورة دونتسوفا المُتبصّرة والشّجاعة، تردّدت في التّصديق بأنّها أصيبت بالمرض. كان تفاؤلاً عنيداً من جانب روسانوف: فهو محكوم بنظرته إلى العالم التي توجّهها الأفكار التي يحملها. ستالينيّ مُخلص، وصولي، واشٍ – تسبّب في نفي عدد كبير من الأبرياء بدافع التّسلية أو الانتقام أو الشرّ الأعمى –، مشحوناً بالغطرسة؛ بل لقد استغلّ الوضع الصحّي الذي يمرّ به جسده كي يجني فائدة من ورائه: كان من التّدنيس أن يتجرّأ السّرطان على المساس به. وجه مركزي في الرّواية؛ هاجم سولجتسين من خلاله كلّ الأشياء التي يبغضها في نظام ستالين، مُشفقاً عليه في الآن نفسه بوصفه جسداً مُهدّداً بالموت، يقرضه المرض والألم. يتفاخر روسانوف بأصوله البروليتاريّة ويزعم حبّاً كبيراً للشّعب، لكنّه لا يحتمل التّواصل مع النّاس؛ وبفضل امتيازاته أمكنه القطع معهم جذريّاً. يعتقد أنّ لكلّ سؤالٍ جواباً جاهزاً ويقرّر أن كلّ فكر حرّ هو عمل تجريبي. الفترة المُفضّلة لديه هي ما بين 37 و38، حيثُ، بفضل «التّحقيقات» التي كُلّف بإجرائها، كانت هناك فرصة لتطهير الأجواء الشعبيّة. فزع عندما أخذ التّاريخ في التقدّم فعاد المنفيّون إلى ديارهم وأُعيد تأهيلهم: أرعبه أن يعترض أحد ضحاياه سبيله فيثأر لنفسه منه. ابنته أفيات وزوجته التي كانت تزوره في المستشفى مُغطّاة بفرو الثّعالب الرّماديّة، كانتا تشاركانه استياءه. ورغم حداثة سنّ ابنته، فإنّها كانت تحمل حقد والدها، وتقف في صفّ مصالح عائلتها الإيديولوجيّة. صدمتها المراجعات «الفظيعة» للمحاكمات؛ كانت تزدري انحطاط العادات وقصائد إيفتوتشنكو، رغم ابتهاجها بالتقدّم المادي الذي أحرزه مجال السّكن والتّأثيث والملابس. تريد أن تكون كاتبة وعلى لسانها سُخْر المؤلّف من الأدب السّوفيتي الرّسمي. يثير الموضوع اهتمامه كثيراً وذلك بيّن في بداية الرّواية، عندما أظهر لنا ديومكا الذي يلتهم الأعمال الأدبيّة

المتوّجة بجائزة ستالين والأعمال الاستثنائيّة المعروفة التي سيكشف عن تناقضها اللاّفت. شكّل الامتياز الذي يحظى به الكتّاب المنخرطون في الاتّحاد مثار إعجاب إيفيات؛ فهم أثرياء، يثيرون الإعجاب وبالكاد يعملون: كانوا يبيضون رواية واحدة كلّ ثلاثة أشهر. يكفي القليل من التّرتيب – معرفة كيفيّة القيام بمنعرج، العيش في صميم الزّمان – كي ينجز المرء مسيرة رائعة. يسألها ديومكا عن النّزاهة في الأدب، فتشرح له أنّ *النّزاهة الموضوعيّة* هي تهديد بالمُضيّ نحو حقيقة مُشوّهة: *الحقيقة هي ما يجب أن يكون، هي ما سيكون عليه الغد.* استمتع سولجتسين بتعرية الانحطاط، الأنانيّة والشرّ الذي يسكن روسانوف؛ أن يبدو الأخير مؤذياً. لكنّه أظهر تسامُحاً وصل إلى حدّ التّعاطف مع الانتهازيّين الذين لم يفعلوا سوى الرّكوب على الأحداث. هكذا اعترف شولوبين: «أمضيتُ حياتي أخاف». ويتساءل كوستوغلوف إن كان من الأفضل تحمّل محنة المُعسكرات على أن يعيش المرء في رعب دائم وازدراء للنّفس.

المُعسكرات: عرّج عليها سولجتسين مُجدّداً. لقد أظهر أيّة سفالة تباعد بين الأحرار والمساجين: في تلك اللّيلة التي بكى فيها هؤلاء ستالين، غمرت المنفيّين فرحة عارمة لم ينجح الحُرّاسُ في خنقها. ظلّت التّجربة التي مرّ بها كوستوغلوف تسجنه حتّى بعد تحرّره. لم يُذهله أن تقول إيفيات إنّ لدى كلّ المساجين ما يتلاومون من أجله؛ لكن حتّى النّساء صاحبات النّوايا الحسنة – الذكيّة دونسوفا، اللّطيفة زووي – لم يفهماه وهو يُلمّح إلى ماضيه. مع ذلك انسجاماً مع خادمة هُجّرت مع عائلتها كلها، عندما رُحّل ربع سكّان لينينغراد سنة 1935. تعرّفا بعضهما على بعض فوراً.

على تلك الخلفيّة التّاريخيّة والاجتماعيّة صوّر الكاتب الحياة اليوميّة في المستشفى. أغلب الدّكاترة كانوا نساء، وكان المؤلّف يتحدّث عنهنّ بمودّة كبيرة؛ كان عليهنّ القيام بواجبات مرهقة بسبب نقص في الإطار الطبّي؛ كنّ يجابهن الأعمال المُنهِكة بكثير من المهنيّة والتّعاطف

الإنساني. إلّا أنّ الكثير من المرضى كانوا يدخلون معهنّ في مشاحنات حادّة، ومن بينهم كوستوغلوف. فكّر في أنّهنّ لا يتعاملن مع المرضى كأناس أحرار، إنّ ما يحدث هو التعسّف بدل إخبارهم بالحقيقة؛ مع ذلك لم يجرؤا على إحباط رفيقٍ محكوم بموت مُحقّق، يغادر المُستشفى ظنّاً منه أنّه قد شُفيَ. كان يؤاخذ الأطبّاء، أيضاً، على عدم درايتهم بما يفعلون؛ يعي هؤلاء الأمر ما يزيد من حجم المأزق: الأشعّة تشفي الأورام لكنّها تتسبّب أخيراً في التّلف والضّمور. لكن عليهم الامتناع عن المعالجة لاستحالة توقّع نتائج العلاج؟ ثمّة مصدر آخر للخلاف. يريد الأطبّاء الشّفاء بأيّ ثمن لكن هل تستحقّ الحياة أن تُعاش تحت أيّ ظرف؟ تساءل كوستوغلوف «هل علينا أن ننقذ حياتنا مقابل التخلّي عن كلّ ما يمنحها قيمتها، نكهتها، أحاسيسها؟» عندما علم أنّ بعض الحقن تؤدّي إلى العجز، وهي تقدّم نتائج مرضية في طريق التحسّن، بدأ برفضها؛ ثمّ انتهى به الأمر إلى الإذعان لها. ظلّ الكاتب على الحياد إزاء السّؤال المطروح. إنّه يتفهّم الأطبّاء كما يتفهّم المرضى أيضاً. ما يبيّنه هو أنّ كلا الفريقين على طرفيْ الحاجز. بدت هذه المسافة واضحة ببداهة مأساويّة عندما علمت دنتسوفا أنّها مُصابة بسرطان. «ينقلب كلّ شيء سافله أعلاه». انقلبت علاقتها بجسدها وحياتها وبالموت رأساً على عقب.

إنّ أغلب المرضى يحدوهم الأمل: قد تطمئنهم كلمة أو ابتسامة من طبيب. يحلمون بعلاج مُعجز. لكنّهم يشعرون أحياناً بأنّهم وجهاً لوجه مع الموت. وحده روسانوف ظلّ يرفض مواجهة المصير، يسحقه، يظهر ذلك من خلال كوابيسه، لكنّه يتمسّك بفكرة الشّفاء ويقرّر أنّ نقاش رفاقه سقيم ويحاول دائماً مقاطعتهم. «لِمَ قد يُمنَعُ إنسان من التّفكير؟» يردّ كوستوغلوف. «مجموعة، أم ليست مجموعة، موته يخصّه وحده».

إنّه معنى حياته الذي يرى الجميعُ أنّها المسألة الكبرى. يعتقد كثيرون أمثال يودويف أنّهم يعرفون جدوى حياتهم: العمل وكسب المال. لا تصمد هذه الأسباب طويلاً أمام السّرطان. يبحث يودويف في

كتاب تولستوي عن دافع أفضل للتعلّق بالحياة: «ما الذي يجعل النّاس يعيشون؟» ورضي بالإجابة: «الحبّ». نسب سولجتسين ذلك لنفسه.

إنّ أفظع نكبة على الأرض هي الشرّ الذي تسبّب في عمى القرد رسيوس عندما ذرّ التّبغ في عينيه. العالم السّعيد هو العالم المبني على طيبة الإنسان إزاء الإنسان. يمكن لكلّ فرد أن يستمتع بجمال الحياة: عمل يُعجبك، الأصدقاء، الحيوانات المنزليّة، شجرة مشمش مُزهرة. «إنّ ما يصنع سعادة النّاس ليس مستوى العيش، بل تعلّق قلوب بعضهم ببعض ووجهة نظرهم عن الحياة». يقدّر الكاتب أنّ التنسّك يلائم الإنسانيّة أكثر من البحث عن رغد العيش.

ثمّة في المغزى الذي يُلمّح إليه الكاتب تديّن يُزعجني. ولا أقبل القاعدة – التي يمكنه الإيمان بها كليّاً – «الإنسان سعيد دائماً إذا أراد ذلك». لكنّي أتّفق معه عندما ينصح: «التّعامل مع الحياة بما نملك»، وهو يرفض التّقليد، التصنّع والأكاذيب التي تسلب الإنسان إنسانيّته. إنّنا نعيش الحياة في أقصى منازلها عندها نكون حاضرين في العالم ومنشغلين بمساعدة الآخرين. أتّفق تماماً مع خلاصته.

في رواية درس *الألماني*، جعلنا لانز Lenz (روائي ألماني من جيل غونترغراس وغالباً ما يوضع أدبه في خانته) نرى وجهاً من وجوه النازيّة: النازيّة كما عاشها ملايين الألمان، في نصف جهل وتأييد جماعي تامّ، من خلال قطار الحياة اليوميّة. تبدأ الحكاية سنة 1943 وتنتهي بعد انتصار الحلفاء. تجري الأحداث في ركن مهمل من شمال ألمانيا: سهل عظيم تعصف به الرّياح، كثبان رمليّة، سدّ، نوارس وبحر يلوح في الأفق من بعيد، الحرب حاضرة: الهجومات الجويّة، الأخبار الزّائفة التي تُذاع في الرّاديو، تناسل قوى النّظام، ضحاياه. اختار لانز أن يكشف لنا عن ذلك من خلال عينَيْ طفل، أكبر بقليل من بطله سيغي Siggi، عندما عاش الحرب وما بعدها في مركز المنحرفين الأحداث حيثُ سُجن، طُلِبَ من سيغي حين بلغ العشرين أن يكتب عن «سعادة أداء الواجب». قفز عشر

سنين إلى الوراء في محاولة لتذكّر ماضيه، لأنّ كلمة واجب سرعان ما جعلت صورة والده تلوح أمامه.

هذا الأب جيبسن، شرطيّ يشتغل في مخفر حدودي. غير بعيد عنه، يقطن الرسّامُ نانسن الذي اعتُبِرَ من قِبَل القيادة «مُنحطّاً»: لاقى التّمجيد في البداية ثمّ سُحب منه بعد ذلك؛ صادروا لوحاته وأغلقت الأروقة التي عرض فيها أعماله. استمرّ في الرّسم.

اعتبر جيبسن أنّ مهمّته هي مُصادرة لوحات الرسّام الجديدة ثمّ منعه من مزاولة نشاطه. كانا صديقَي طفولة، بل إنّ نانسن أنقذ حياته ذات مرّة: لكنّ الأوامر هي الأوامر. «لا ذنب لي ولا قدرة لي على تغيير أيّ شيء»، قال الرسّام. «أتلقّى أوامر وعليَّ تنفيذها»، قال مرّة أخرى. أما التّعليمات فكان يبتدعها من داخله إذا لم يتلقّها من الخارج: «يشعر بأنّه مُضطرٌّ إلى جلد سيغي من أجل زلاّت تافهة؛ عندما أتى ابنه الأكبر – الذي شوّه نفسه كي لا يلتحق بالجبهة – لاجئاً إلى بيت والده بعد هروبه من المستشفى، قرّر الأب أنّ «عليه القيام بما يجدر القيام به» أي أن يُسلّمه للبوليس. لم يكن سيّئاً تحديداً: مال وجهه إلى الرّمادي عندما رفع السمّاعة ليتّصل بالشّرطة. لكنّه لا يرى طريقة للعيش أكثر جدوى من الطّاعة العمياء لما يعتبره القانون. خاملٌ وخاوٍ، يمكنه قضاء أيّام دون عمل أيّ شيء أو التّفكير في شيء، متأمّلاً الجدار. لكنّه يكون في ذروة السّعادة حين يُكلَّفُ بمهمّة مُحدّدة. عندها يشعر بأنّه صالحٌ ومُهم وتتّخذ صورته الهيئة العسكريّة ويصبح لحياته معنى. لمّا باغت نانسن بصدد الرّسم، أخبر القيادة فوراً: «أنا أقوم بواجبي»، أعلن. «حديثك عن الواجب يجعلني مريضاً»، قال الرسّام. قال أيضاً: «الواجب، إنّه زعم أعمى. لا يمكن تجنّب الأشياء التي لا يتطلّبها». وفعلاً: لا أحد طلب من جيبسن التجسّس على نانسن دون هوادة، أن يراقب تفاصيل حياته الصّغيرة. نلاحظ أنّه ابتعد كثيراً عمّا يحدث في البلاد، جاعلاً من الأمر قضيّة شخصيّة. من ناحية ما هذا خطأ: لم يكن يكترث لنانسن ولا لرسومه؛ لكن صحيح من جهة

أخرى أنّه «مُنفّذ أبدي»، فإنّ القيام بـ «الواجب» ينتزعه من فراشه ويمدّه بانطباع مريح بأنّ له وزناً على الأرض.

إنّ هذا الوهم ضروريّ بالنّسبة إليه إلى درجة تحوّلت معها فكرة الواجب إلى هوس. غطّت الأوسمة نانسن في نهاية الحرب. بعد ثلاث سنوات قضاها في السّجن، عاد جيبسن إلى وظيفته، لكنّه استمرّ في عناده راغباً في تحطيم اللّوحات. فتّش حجرة الرسّام وأحرق كرّاسات مُخطّطاته في الهواء الطّلق. مُرَوَّعاً من شدّة الازدراء تجاه «الضّمير المُتّقد» لأبيه، احتجّ سيغي للمرّة الأولى: «أنت لا تملك الحقّ!» صرخ. ضربه أبوه. «علينا القيام بواجبنا حتّى لو تغيّر الزّمن»، ردّ. لكنّه تائه، ومن خلال موقف التحدّي نشعرُ بيأس مجنون. كان سلب الإنسانيّة التي بذل حياته من أجلها أمراً غير قابل للانعكاس؛ لم يفتح تحطّم القيم التي دافع عنها عينيْه على الحقيقة، بل دفعه إلى الهروب القسري إلى الأمام؛ تحوّل إلى فريسة سُعار أعمى: أحرق الطّاحونة التي خبّأ فيها سيغي بعض لوحات نانسن.

لم يجهر سيغي بصوته إلّا عندما دفعه تصرّف والده إلى حدّ لا يُحتَمَل. كان هو نفسه مُعتاداً على الطّاعة؛ كان يقبل بسهولة ما يُلَقّن إيّاه من تصحيح لمساره. حين طلب منه أخوه إخفاءه، أجاب: «من حقّ أبي أن يعرف». إن كان قد كتم السرّ فلأنّه اعتاد أن يطيع أخاه الأكبر. مع ذلك لم يسمح لنفسه، بدافع الحذر، أن يُصدر حُكمَه الخاصّ على ما تراه عيناه. لم يكن لنظراته السّذاجة التي يُقدَّر أنّها لدى الأطفال. كان موهوباً وسابقاً لسنّه حتّى إنّ الرسّام منحه ثقته وبنى معه علاقة صداقة حقيقيّة، لكن سيغي الذي كان نتاج مُجتمع مريض، عانى التوتّر العصابي؛ لوحظ في سلوكه الميّال إلى المبالغة أعراض المُصابين بانفصام الشّخصيّة: ثمّة أربع مائة نافذة في بيت الرسّام ويسع صالونه ثماني مائة ضيف، طول الكنبة ثلاثون متراً؛ ثمّة ما يُشبه الهوس في الدقّة المتناهية في وصفه. لم يُعبّر قط عن أحاسيسه تقريباً. مع ذلك رغم الحياد الذي يبدو في جمله، فإنّنا نحدس

الشّعور الصّامت الذي يهزّه من الدّاخل، التّجربة المُشوّهة التي جعلته يقوم بتصرّف غير متوقّع: جمع أجزاء من لوحة مزّقها أبوه، الاستيلاء على بعض المُخطّطات المحجوزة، إخفاء مجموعته في طاحونة قديمة. بعد الحريق الذي نشب في البناية العتيقة، خشي أن يرى أعمالاً فنيّة أخرى للرسّام تلتهمها النّار. سرق من مرسم نانسن ومن الأروقة رسوماً وأخفاها. دون شكّ، ينطوي تصرّفه الذي أملاه عليه الاكتئاب على الاحتجاج في وجه المشروعيّة التي جعله والده يحقد عليها. ورغم وقوف الرسّام إلى جانبه فقد وجد سيغي نفسه في مركز تأهيل مرة ثانية.

إلى جانب التصحّر الجحيمي الذي يصارعه جيبسن، فإنّ الكاتب يجعلنا نرى مسرّات قادرة على أن تضيء الأرض، إن لم يُطفئها التزمّت الذّميم: ثمّة الصّداقة، الحبّ، المودّة؛ كان سيغي ونانسن مُعجَبَيْن بالحياة، ممتلئيْن بجمال العالم واتّحدت لدى الرسّام سعادة النّظر مع كبرياء الخلق.

جرم جيبسن وأمثاله هو إعدام الزّخم القادر على منح معنى للحياة الإنسانيّة. سردُ القصّة بتلك البساطة، هو بحدّ ذاته فنّ عظيم. ماضي سيغي وحاضره المنفَتِحان بعضهما على بعض ببراعة، أضاءا بعضهما بعضاً. إنّ الأهميّة التي نوليها للطّفل لتنعكس على السّجين ذي العشرين والعكس بالعكس. رفع لانز التحدّي الأصعب: أن يجعلنا نشاهد رسّاماً بصدد العمل. عادة ما يفشل الروائيّون وهم يدعون تسليط الضّوء على كاتب أو فنّان يعمل.

في رواية *درس الألماني*، عندما يرينا لانز الفنّان نانسن بصدد رسم لوحة، نراه ونُصدّق إلهامه وتردّده. فيغدو فنّه حقيقيّاً بالنّسبة إلينا.

إنّ الأسلوبَ ناجع وحيّ في اتّزانه وحياده. من أوّل القصّة إلى نهايتها، يدع الكاتب الأحداث تجري ممتنعاً عن التدخّل. ما من تعليق يظهر على ذُلّ جيبسن عدا جملتين أو ثلاث للرسّام وصرخة سيغي؛ يبدو تصرّفه روتينيّاً وفي ناحية منه عاديّاً. إنّه لا يتسبّب في كارثة: لكنّه يُفسّر تسلسل الكارثة.

أن تمنع رسّاماً من أن يرسم: هو أن تضرب المؤسّسة في دناءتها؛ لكن عندما هتف الشّرطيّ: «أتلقّى أوامر وعليّ تنفيذها»، فإنّنا نفهم أنّه كان سيقول نفس الشّيء لو أنّه كُلّف، مثلاً، بإبادة آلاف النّاس. كانت الهتلريّة أمراً ممكناً، بصوت عالٍ أو بصوت خافت، تعلّل ملايين الألمان بنفس الذّريعة: «لا ذنب لي، ولا يمكنني تغيير شيء». يشجب لانز كذب هذه السلبيّة المزعومة؛ تنفيذ التّعليمات هو في جانب منه تجاوزها؛ كلّ سلبيّة هي تواطؤ؛ ككلّ النّاس تساءلتُ أحياناً، إزاء، النازيّة والستالينيّة والمجازر المُرتَكَبة في فيتنام من طرف الأمريكان: كيف يوافق شعب بأسره، جيش برمّته على وحشيّة كهذه؛ لم تحمل رواية لانز إجابة جديدة. لكنّه يشير بالإصبع إلى ما تُسمّيه «حنّا أرنت» Hanna Arendt، بخصوص محاكمة إيشمان Eichmann «ابتذال الشرّ»، إنّه يبدي فهماً أكثر عمقاً من كلّ المفاهيم المألوفة حتّى ذلك الوقت.

لا أقرأ الشّعر أبداً: مع أنّه وسيلة تواصل مُمَيَّزة. لقد أعانني كثيراً في شبابي: أحبّ سرد الأبيات على نفسي. بينها ما ظلّ إلى اليوم يجول في خاطري، ويحدث في أحيان كثيرة أن أفتح كتاب بودلير، رامبو، مالارمي. أعثر على كُتّابٍ رافَقوا شبابي في العشرين من العمر: لافورغ، أو سان ليجي ليجي. لكنّي أجهل لماذا – ربّما لجهل المجهود الكافي لاستنباطه – لا يوقظ الشّعر الحديث صدى في داخلي. ربّما لوجود حلقة مُفرغة: ولأنّي أشكّ في إعجابي به من عدمه فإنّي لا أحاول معرفة السّبب. أظنّ أنّي مُخطئة. لكنّ أعمالاً أدبيّة أخرى شدّتني بقوّة. وهذا في حدّ ذاته يمنعني من خوض التّجربة.

يحدث خاصّة أثناء العُطَل، أن أفتح كتاباً لغاية التّسلية فحسب. قديماً كنتُ أجد متعة في روايات الخيال العلمي. أمر مُسلٍّ أن يحلُم المرء بالتحوّل الممكن لمُستقبلنا وواقعنا، أن نسافر في الفضاء والزّمن. لكن ما من كتاب لفت انتباهي خلال السّنوات الأخيرة. ربّما لأنّ سِجِلّ

الوضعيّات الخياليّة صار محدوداً أو لعلّه نضب. الكُتّابُ الذين قرأتُ لهم مُؤخّراً تنقُصهم الصّورُ ويخونهم الخيال. إنّهم يُطوّرون، على نحو عشوائيّ وفي عوالم قريبة من عالمنا أو مبهمة جدّاً، مخلوقات تتقاطعُ فرادتها مع نماذج مُستهلكة. لم أُفلح معها قط في الابتعاد عن عالمنا.

غير أنّي أسلم نفسي بسهولة إلى رواية بوليسيّة أو رواية تجسّس أو مغامرة. لماذا تحديداً؟ وتحت أي ظرف؟

أوّلاً، ينبغي أن يكون فضاء الحركة منسجماً كي أتعلّق به: يتحقّق ذلك بمحاكاة لعالمنا الذي نعيش فيه. مثلاً، في الرّواية الجذّابة لـ جاپريسوت، *المرأة في السّيّارة ذات النظّارتين والبندقيّة*، تمتدّ الحكاية طوال الطّريق المؤدّية من باريس إلى مرساي؛ وجدتُ متعة في تذكّرها مُستسلمة للحبكة. تبدأ پاتريسيا هايسميث بابتداع جوّ عام، مكان، شخصيّات حقيقيّة حتّى أقبل بوجودها؛ تستمدّ بقيّة القصّة استمرارها من تلك القاعدة. لاحظتُ أنّ من بين رواياتها، لم تكن تشدّني سوى تلك التي تُرتَكَبُ فيها جريمة قتل؛ وإلّا فإنّ نفسيّة الشخصيّات ستبدو لي مألوفة وسرعان ما أسأم الكتاب. ولا أقبل بهذا النّقص إلّا عندما يكون التّشويق عالياً. أريد اكتشاف مفتاح اللّغز أو معرفة نتائج أحداث ثقيلة التّهديد؛ إنّ ما يحدث لي يكون شبيهاً بالتقيّد بالعالم الذي يبنيه الكاتب؛ أقبل المشاركة في اللّعبة. لو أنّ رواية بوليسيّة شدّتني منذ البداية – من خلال حوار صادق، لغز مُثير متقن الصّنع، تحدّ – فإنّ الحبكة ستكون باذخة. يكفي أن تكون بارعة كي أصدّقها؛ لو تملّكني الفضول لمعرفة الفاعل، لو نجح السّطو، وكيف تصرّف الضّابط السرّي للقيام بمهمّته، فإنّي أوافق ضابط المخابرات الأمريكيّة البطل واعتبر، حينها، الصّينيّين أو السّوفييت أو الكوريّين ذرّية الشّيطان. دائماً، وكي أنسجم مع الحكاية، يجب أن أجد نفسي في البطل وأن أرجو له نهاية جيّدة. كان ذلك سهلاً مع «السيّدة» مع جاپريسوت، ومع المجرمين الجذّابين لپاتريسيا هايسميث. أتبنّى بسهولة أهداف المُحقّق الشّجاع أو الماكر الذي يشرف على القضيّة. أكون

متضايقة عندما يحرص الكاتب على توجيه انتباهي للشّرطي، حينها غالباً ما أعجز عن دخول اللّعبة.

قد يُقال إنّه إهدار للوقت: لكنّي لستُ بخيلة في منح الوقت. ألعب الدّاما بمتعة، أحلّ الكلمات المتقاطعة، أحاول البحث عن حلّ للغز مُعقّد. لماذا لا أقرأ سلسلة سوداء أو أشاهد فِيلماً بوليسيّاً؟ عادة ما أختار الكتب لأنّها إضافة إلى المتعة فإنّها تثري خيالي، لكن ليس دائماً. يدفعني التّعب، أحياناً، إلى اختيار قراءة سهلة. ثمّ إنّ كتاباً جادّاً يستغرقني فلا أشعر بالوقت ناسيةً نفسي؛ يتركني التعلّق الخادع الذي يبدر عنّي تجاه رواية بوليسيّة، واعية بهويّتي ومكاني: بعضُ الأوقات تكون نفيسة بالنّسبة إليَّ حتّى إني أرغب في الإحساسِ بها ولو كنتُ مشغولة. تترك لي تلك الكتبُ الكثير من الحضور الذّهني من خلال مجانيّة التّسلية التي تقترحها: أمّا إذا كنتُ مشغولة أصلاً، فإنّها لا تنجح في شدّ انتباهي. فهي تحتاج إلى قراءة مُستمرّة: فيما عدا بعض الحالات، فإنّ همّتي تفتر ولا أفلح في إنعاشها لو أنّي أغلقتُ الكتاب وعدتُ إليه ثانية.

من النّادر أن ألتفت إلى كتب قديمة لم أقرأها من قبل؛ إنّ إهمالي لها حتّى ذلك الوقت يجعل من قيمتها تخبو في نظري: لِمَ قد تثير اهتمامي فجأة؟ أجهل ما جاء في عمل پول لويس كوريي، إنّه في متناول يدي لكن شيئاً لم يُشجّعني على خوضه. عموماً، في باريس، لا أملك الوقت لدخول عالم ظلّ غريباً عنّي أو أنّ شيئاً لا يربطني به. خلال العُطل، أغامر بقراءتها. يُحفّزني كوني سأزور بلداً لا أعرفه وأودّ أن تنشأ بيني وبينه ألفة. بمناسبة السّفر إلى اليابان، سُررتُ بقراءة رواية جينجي، المترجَم إلى الإنجليزيّة ترجمة رائعة واكتشفتُ عمل تانيزاكي، ويحدث أيضاً، في العُطل، أن أفتح كتب مؤلّفين فرنسيّين مغمورين أو منسيّين. إحدى السّنوات، شغفتني *حكاية الثّورة الفرنسيّة*، لميشلي؛ حملتها معي إلى روما إثر طبعة أخرى. ورغم أنّي درستُ قديماً «مدام دي سوفيني Madamme de Sévigné»، فقد عرفتها بشكل سيّئ. استمتعتُ، من خلال، الأجزاء الثّلاثة لمراسلاتها

المنشورة في سلسلة پلېياد، باكتشافها. ونزولاً عند نصيحة متحمّسة من صديقة، قرأتُ الفترة الأخيرة، باربي دوتروفيلي Barbey d'autrevilly، الذي بالكاد كان موجوداً بالنّسبة إليَّ. وجدتُ لديها مشكلة كنتُ قد تحدّثتُ عنها؛ كيف أُسلمُ نفسي لكتابات إنسان أتعارض مع أفكاره؟ قلتُ إنّ ذلك مُستحيل غالب الوقت. لكن باربي دوتروفيلي أغراني من خلال أسلوبه وحرارته وجسارة قلمه وقدرته على الابتكار. لستُ مسكونة بأشباح الماضي مثله، لكنّها تحوم حولي أحياناً وبإمكاني أن أفهم هوسه بها. أنا حسّاسة إزاء الشّفق أو بحيرة مُهملة: وجدتُني متعاطفة معه، متأثّرة، عندما أشار إلى كوتينتان Cotentin وتحدّث عن وحدته وعن الغيوم. كان في صفّ سكّان شبه الجزيرة والقساوسة بشغف وقناعة حرّكت فضولي، وجعلتني، خلال حصّة قراءة، أتبنّى زاويته. بدت لي بعض قصصه بطيئة النّسق. لكن عندما قاده خياله إلى المجازر، أسلمتُ نفسي إليه بمتعة. قرّر أحد النّبلاء الشُبّان مدفوعاً بحبّه لابنه القسّ «المتزوّج» أن يُقنعه بالموافقة، فراح يفتعل حادثاً مُدهشاً تحت أنظاره. ربط جوادَيْن جامحيْنِ بعربة، وأسكرهما، فأفسدا كلّ شيء في طريقهما قبل أن ترتطم العربة بشرفة الشابّة: لا أنسى ذلك الرّكض أبداً. لقد كان أكثر ذهولاً من كلّ الخدع السّينمائيّة التي قام بها سُوّاقُ السيّارات الأشدّ براعة وجنوناً.

لا أرغب، عادة، في إعادة قراءة الكتب القديمة التي قرأتها. أمرّ ببصري على سلسلة پلېياد Pleiade التي في مكتبة سارتر وأشيح عنها. طبعاً أنا أبعد بكثير من أن أحفظ بلزاك عن ظهر قلب، أو زولا وديكنز ودوستويفسكي، لكنّي أعرف سلفاً أنّهم سيأخذونني إلى عوالم فتر مذاقها. بل إنّي أتردّد في فتح كُتب ستندال وكافكا اللّذين أكنّ لهما تقديراً خاصّاً. أعرف جيّداً أنّي لا أحتفظ عنهما إلّا بذكريات شحيحة، إلّا أنّ الكسل ينتابني إزاء فكرة التعرّف على ما سأجد صعوبة في وصفه: نذكرُ رويداً ما نحنُ بصدد فكّ شفرته أو على الأقلّ ما نعتقد أنّنا فاعلون؛ فنُحرَمَ ما يُسمّى بـ «متعة القراءة»: هذا التّشارُك الحرّ مع الكاتب الذي هو في

الأصل خدعة. غير أنّي وجدتُ سعادة كبيرة وأنا أعيد قراءة رسائل ديدرو لصوفي فولان Sophie Volland. وثمّة كاتبان أرغب في العودة إليهما بشكل دائم تقريباً.

اعترافات روسو، وبروست. أنتظر بعض جُمَلِهما. مثل سوان Swan الجُملة الصّغيرة لفانتويْ Vinteuil، وعندما تنبجسُ فإنّها تمنحني انطباعاً لذيذاً بالمعجزة والحاجة إليهما. أجد نفس المتعة مع بعض الشّعراء؛ قلتُ ذلك من قبل: إنّ علاقتي بالشّعر تنحصر تقريباً في إعادة قراءته.

يحدث أن أنسى كُتباً قرأتها من قبل، أكتشفها كما للمرّة الأولى دون أن توقظ خواطر في داخلي، كان ذلك هو حالي خلال السّنوات الأخيرة مع ليرمانتوف، غونتشاروف، شتشدرين. لقد سُررتُ من قبل بمذكّرات سان سيمون Simon–Saint: أعدتُ قراءتها ولم أذكر سوى بعض الجُمل. وجدتُ في الأجزاء الثّلاثة الأولى بعض المقاطع المُضجرة خلاف ما توقّعت: الكثير من المعارك وعلم النّسب. دون أن أندهش، أعجبني الأسلوب وإيقاع الجُمل ولوحات التّقاليد الرّائعة وبعضُ الطّرائف اللاّذعة. لكنّي، في المقابل، ذُهلتُ بالوصف المُعقّد للشخصيّات؛ فهو يبدأ عادة بالثّناء ثمّ ينقلب بعد ذلك إلى نقد يتخلّله تملّق في بعض النّواحي: يجب تفحّص الرّسوم من جديد لاستيعاب خصائصها المُختلفة؛ فنلاحظ أن الشخصيات، بعيداً عن التّصادم، تضيء بعضها بعضاً مُشكّلة شخصيّة حيّة واحدة.

غالباً ما ينسجم حكمي على كتاب قرأتُه من قبل مع ما راودني في شأنه مُجدّداً. أحياناً أفهمه بصورة أفضل لأنّ مقالات نقديّة قدّمت مفاتيح جديدة عنه.

بيّنتْ لي بيوغرافيا جويس التي كتبها إيلمان Ellman، مترجمةً حديثاً إلى الفرنسيّة، أيّ علاقة تربط بين الماْضي والكاتب، من خلال أماكن مُختلفة من دبلن وضواحيها؛ اكتست بعض المقاطع معاني أكثر عمقاً. ويحدث أيضاً أن يصطبغ نصّ، ظننتُه ذابلاً، بانتعاش غير مُتوقّع تحت

أنظاري. على ذلك النّحو اكتشفتُ التّوراة مثلاً. فقد ذُهلتُ لدى رؤية وقائع مُكثّفة في ثلاثة أسطر، كنتُ في السّابق أعتقد أنّها مُفسّرة بإسهاب، لفرط ما ألهمت الشّعراء والرّسّامين والمسرحيّين: أُعجبتُ بقدرة قصص قصيرة جدّاً على التّواتر في المُخيّلة البشريّة. أفزعتني بعض الشّخصيّات التي اعتبرتها ذاكرتي شخصيّات عاديّة بسلوكها، الصّاعق: من بينها إبراهيم الذي استغلَّ زوجته بتباهٍ. أعرف عن يهوذا أنّه صارم وعصبيّ لكنّي لم أتصوّر أنّه دنيء. أذكرُ جيّداً أن العبريّين كانوا عدائيّين ومتزمّتين. لكن صدمني حجم الجرائم التي ارتكبوها. باختصار تأكّدتُ من أنّي لا أعرف هذا الكتاب الذي ألفتُ وجوده أمامي خلال فترة طفولتي.

أحياناً، تُغريني القراءة مرّة ثانية. اختزلت ذاكرتي قاعدة قويّة واعتبارات مثيرة للجدل. أو أنّي نسجتُ معانيَ لا وجود لها من خلال بعض الكلمات العالقة في وجداني. يحدث خلال قراءة أولى أن نفسح المجال لبعض الكلمات كي توقظ هوساً خاصّاً بنا، وأحلاماً ما انفكّت عقولنا تُغذّيها، بدَلَ تبنّي المسار الحقيقيّ للكاتب. هكذا كنتُ أتصرّف في سنّ العشرين. أحاول اليوم أن أكون أكثر موضوعيّة. لكنّ بعض المواقف تُظهر لي أنّي لم أنجح في ذلك. ومثل ذكرياتي التي أحملها عن الحقيقة فإنّ بعض الكتب التي أحتفظ بها في ذاكرتي، تظلّ ناقصة ومُشوّهة. لا ينحصر نشاطي كقارئة، فقط، في تجميع اللّحظات الرّائعة في كتاب، لكن أيضاً، في إقامة علاقة بين مُختلف الكتب التي تصحّح بعضها بعضاً، تتكامل وتتواصل. يساعدني *درس الألماني* على فهم الموظّف السّامي في *جناح مرضى السّرطان* ويمكننا أن نلصق مقولته التي تقول إنّ الشرّ ليس سوى «خلل في الخيال». وهكذا يطفو أمامي عالم من الكتب يتطابق مع آخر، يتجاوزه، يثريه ويُضيئه. إنّه بالنّسبة إليَّ أكثر توهّجاً من الحقيقة ذاتها وهو كالنّقش في وجداني وشخصيّتي: إيمّا بوفاري أو السيّد شارلوس، حاضران في حياتي أكثر من أشخاص عرفتهم حقيقة. حاضران أيضاً بالنّسبة إلى آخرين، ينظرون إليهما من زاوية مُغايرة، لكنّهم

يتواصلون معي عبرهما. قيل، بكثير من الرّصانة، إن الأدب هو حقل المُشترك وتقاطع التصوّرات. وحيدة في غرفتي مع كتاب، لا أشعر، فقط، بأنّي قريبة من الكاتب، بل وقريبة أيضاً من عموم قرّائه.

***

لا توقظ القراءة لديَّ سوى صورٍ غامضة؛ قد تأسرني الصّور أيضاً في الأحلام، لكنّها متناقضة هي الأخرى وهاربة. النّظرة التي ترى بها السّينما الأشياء تقترح الامتلاء والإدراك: إنّها مُدركات مُشبَّهَة لحقيقة غائبة. إجمالاً، باستثناء الأشرطة الوثائقيّة فهي تنتظم على نحو يجعل منها قادرة على صنع عالم متحرّك؛ يروي المُخرج حكاية مبتكرة، تحدث في زمن ما، ولا تقبل السّير في الاتّجاه المُعاكس، تماماً مثل الموسيقى. فحضوري، مثلما هو الحالُ بالنّسبة إلى القراءة، هو الذي يمنح العمل معنى ووحدة. غير أنّ دوري يكون فيها أقلّ جدوى؛ ليس عليَّ تأويل الإيماءة، بل أن أتقبّل بسلبيّة وقع اللّقطة المعروضة. لهذا السّبب، لا تتطلّب عمليّة مشاهدة فِيلم مجهوداً مماثلاً لقراءة كتاب. يكفي أن أكون منتبهة كي يعتريني التّعاطفُ أو النّفور أو القلق أو البهجة. تصل مشاعري، أحياناً، إلى حدّ أنّها قد تقلب كياني: يحدث أن يُصاب المشاهدون بالغثيان أمام مشاهد دمويّة، الأمر الذي لا يحدث أثناء القراءة. (أُغمِيَ على كوليت Colette، في عمر الرّابعة عشرة وهي تقرأ قصّة ولادة لـ «زولا»، لكنّ الحادثة كانت معزولة واستثنائيّة). إنّنا نبكي للقطة بأكثر سهولة ممّا قد يحصل مع رواية. إلّا أنّ المخرج الذي يرغب فعلاً في مدّ جسر تواصل بينه وبين المشاهد، يتفادى التسبّب له في إزعاج ملموس، ربّما شوّش عليه الاستمرار في المتابعة: سيجدر به، إذاً، أن يتصرّف كالكاتب الجيّد، أن يُعوّل على حُرّيته.

تكمن سلطة الصّورة في كونها تمنحني وهم الحقيقة، وهْمًا أتقبّله بسلبيّة تكاد تكون تامّة. حتّى خلال الأوقات التي أكون فيها متفرّغة فإنّ هناك دائماً مشاريع تزدحم في رأسي، وذكريات تسكنني وأعمالاً تراودني. أغادر نفسي عندما أدخل إلى السّينما؛ من الطّبيعي أن أخلّف ماضيّ ورائي

وأنا أتفاعل مع شريط، لكنّه لا يقع على كاهلي: إنّ مشروعي الوحيد هو تأمّل الصّور التي تتواتر أمام عيْنَيَّ. فأعتبرها حقيقة دون أن يكون هناك تدخّل خارجي؛ هذا الشّلل الذي يُصيب خبرتي، هو ذاته الذي يُهيّجها في بعض الأحيان فيُصبح لديها طابع لا يُحتمَل، ويجعل منها أمراً آسراً في أحيان أخرى. إنّي أسلّم نفسي أمام الشّاشة كما في أحلامي. إنّها تشدّ انتباهي بواسطة الصّورة: لهذا السّبب، توقظ السّينما في كلّ منّا صدى أحلامنا الدّفينة. أن يتمكّن منّي شريط في العمق، يعني أنّه أيقظ في داخلي ذكريات مُبعثرة أو أنّه أنعش شوقاً صامتاً. يحدث أن اختلف مع بعض الأصدقاء الذين أشاطرهم الرّأي في المجالات الأخرى، فيما يخصّ أحد الأفلام. لأنّه لامس لديَّ ولديهم أو لدينا منطقة حميمة فريدة.

أولي اهتماماً كبيراً لوجوه المُمثّلين. تنأى الوجوه عن التّحليل، عن التصوّر والكلمات: ما من كاتب تقريباً أحسن عرض وجوه أبطاله؛ ينجح بروست في تقريبها من القارئ لكنّ الأخاديد والمنحنيات تبقى موكولة إلينا. على الشّاشة يمكن للشّخصيّات الظّهور لحماً وعظماً تحت أعيننا. إنّه حضور غامض: فهو ظهور المُمثّل والشّخصيّة التي تُمثّلها في آن واحد. إلّا أنّ العلاقة بينهما تظلّ متفاوتة. إذا كانت الشّخصيّة ملتصقة بالمُمثّل، فهذا يعني أنّه موجود بالنّسبة إليَّ حينما أكون على استعداد لتصديق حكايته على نحو مشروط. فيما أرتبك حين ألاحظ من خلال حركات البطل وإيماءاته عمل المُمثّل. يحدث ذلك حين يكون الممثّل معروفاً لديَّ جيّداً أو عندما يكون هناك تنافر بين جسد المُمثّل ودوره.

أفسد عليَّ سوء التّوزيع للأدوار العديدَ من الأفلام، وأغرتني في أخرى رغم ضعفها الهيئة الجسديّة لرجل أو امرأة.

الاستثناء هو الممثّل الذي اقترن كُلّياً بالشّخصيّة التي يؤدّيها فتوحّدا إلى الأبد: لا فرق على الشّاشة بين شارلي شابلن وشارلو.

تفتحُ السّينما عيْنَيَّ على أرياف ومناظر طبيعيّة لا أعرفها: إنّها تُثري فكرتي عن الأرض. وتجعلني أتنقّل وسط ديكور مألوف؛ إنّي أجد متعة

كبيرة في إيجاد أماكن أحببْتُ عرضيّتها وكونها طارئة بالنّسبة إليَّ، في عمل يوليها عناية كبيرة: شوارع لندن، ساحة رومانيّة. أحياناً تستجيب السّينما لرغبة طفوليّة في داخلي تتمثّل في أن أجد نفسي في مكان لا يؤثّر حضوري في هدوئه: الرّغبة في رؤية غيابي بعيْنَيَّ. يبدو لي ذلك قابلاً للتحقّق عندما أحلّق فوق جزيرة صخريّة صغيرة في قلب البحر. يمكنني أن أحصل على وهم مماثلٍ من خلال مشاهدة فِيلم. أنا لا أنتمي إلى تلك الجزيرة التي تظهر على الشّاشة؛ إنّها تلبث مُقفرة رغم نظراتي التي تجوبها.

أنا لا أباغت الطّبيعة فحسب. أنا أنزلق وسط المنازل خلسة، أشهد وقائع لا ينبغي أن يراها مخلوق. أجلس على حافّة سرير يضمّ عاشقيْن، أدخل غرفة رجل لجأ إليها كي يُخبّئ وجهه الذي عصفت به الكآبة. أحظى بامتياز آخر: أن أجمع عناصر كثيرة مُشتّتة في لقطة واحدة. أمسحُ بعيْنَيَّ، دون عناءٍ، حشداً راح أفرادُه يتفرّقون. إنّ لديَّ قدرات خارقة تجعلني أطير في السّماء وأخترق الجدران.

مثلما هو حال الكتب، ما تحمله السّينما متنوّع جدّاً. عموماً هي تسلية وأنا لا أطالبها بأكثر من التّرفيه. يكفي أن أضحك. لا يُثير الكاتب الأكثر طرافة سوى الابتسامة لأنّ الضّحك سلوك جماعي (سارتر، *أحمق العائلة L'idiot de la ville*). في قاعة السّينما حيثُ المُتفرّجون متراصّون وغرباء بعضهم عن بعض، فإنّ شرط الضّحك متوفّر. هل على الشّريط، كي أشاطر النّاس فرحهم به، ألاّ يثير لديَّ ردود فعل تعيق إعجابي به. أتجنّب الأفلام الفرنسيّة التي تدّعي بأنّها مُضحكة لابتذالها.

استمتعتُ، خلال السّنوات الأخيرة، وبشكل خاصّ، بالأفلام القديمة لبوستر كِياتون Buster Keaton: *الكاميرامان*، *بحّار المياه العذبة*، *الخطيبات في هستيريا*، *الكمبارس*، *رحلة الملّاح* (الذي أفضّله على البقيّة). يكمن الهزل عادة، كما أوضح سارتر في *أحمق العائلة*، في التّناقض بين التّجربة الشّخصيّة للمرء ووضعه الجديد كغرض ماديّ. يُعبّر وجه بوستر كِياتون عن توتّر رجل مُفكّر ومُسيطر على ذاته، يدّعي

الكفاءة والعمق: يصطدم هذا الحُلم دون هوادة، بالعوائق الشرّيرة التي تضعها الأدوات والأغراض في طريقه والتي ظنّ أنّه أحكم ميكانيزماتها (آليّاتها)؛ ضحيّة خيباته المُتكرّرة جرّاء ردود الفعل العكسيّة غير المتوقّعة، فَقَدَ كرامته الإنسانيّة التي مازالت هيئته الجسديّة تصرّ على إبدائها. تحدّث عن «حسابات رياضيّة لابتكار مقلب» آلات صغيرة رائعة ذات تروس منتظمة بإحكام. ثمّة أقلّ صرامة في أفلام هاري لاندون، التي أُعيدت صياغتها مُؤخّراً، لكنّها لا تخلو من اكتشافات مُسلّية: *ترامپ ترامپ ترامپ*، *الرّجل القوي*. أسرتني جاذبيّة الشّخصيّة: وجهه الطّفولي، وحركاته المُؤثّرة.

كانت سعادتي كبيرة بإعادة رؤية *شارلو في السيرك* ثم في *الأزمنة الحديثة*، التي لم تفقد شيئاً من سحرها. في الفيلم الثّاني عثرتُ على ما أحبّ أن أعثر عليه في شريط سينمائي. وسرّني أنّ الجمهور المؤلّف من سباب فحسب، قد أعجبه مثلي. حبستُ أنفاسي وأنا أتابع بعض الأفلام المُشوِّقة: *رجُل الرّيو*، الذي أدّاه بلموندو مبتهجاً؛ أفلاماً قديمة لـ والش: *المرأة التي يجبُ أن تُقتَل*، *الجحيم ملكٌ له*، حيثُ حقّق جامس كايني تجاوزاً لنمطه المألوف؛ أفلام ويسترن، من بينها تلك التي صّورها الإيطاليّون، مثل *الجيّد*، *السيئ والقبيح*؛ مغامرات جيمس بوند في فِلم *قُبُل روسيّة رائعة*، و*الإصبع الذّهبي*.

يحدث في السّينما أن تشدّني أفلام قد تبدو لي غريبة لو أنّي قرأتُها في روايات: أُسقطت مغامرات جيمس بوند من يدي في شكلها المطبوع. الفِيلمُ أسرعُ من الكتاب بكثير: بنظرة واحدة أمسحُ مشهداً من الصّعب وصفُه باقتضاب؛ في المقابل يفشلُ الكاتب فشلاً ذريعاً في الإقناع لو تعجّل في نيّة خلق سرعة في الأحداث. الصُّوَرُ على الشّاشة أكثرُ إقناعاً. ثمّة فجوة غريبة بين راهنيّة النّظر - وهم الحقيقة الذي لا شيء يُبطله - وبين خياليَّةِ الأحداث. لو عرف المُخرج كيف يُدير ذلك لجنى أفضل النّتائج. هذا ما يمنح الويسترن الإيطالي روحه الخفيفة ويُكسِبُ سين

كونري جرأته السّاحرة. إذا كانت الحبكة غير مُنسجمة والإيقاعُ بطيئاً وأداء الممثّلين خاطئاً فمن الصّعب عليَّ الانسياق مع الأحداث. يحبطني أن يكون الإبداع منقوصاً من الخيال والجسارة.

غالبا ما يُوَفَّقُ المخرجون الإيطاليّون في الجمع بين الواقعي وما لا يُصدَّق. ثمّة مقالبُ مُضحكة جدّاً في فِيلمِ *زوجة القِسّ* التي تلعب دورها صوفيا لورين ويشاركها ماسترورياني، وإنّه أيضاً هجوم على نفاق القساوسة ومكر الكنيسة.

مأساة الغيرة، شريط يطلق العنان للضّحك. مع أنّ الشّخصيّات صُوِّرت بكثير من الاتّزان: امرأة، رجلان ضعيفان جدّا إزاء عاطفتهما المُعقّدة، مُهمَلَان من طرف المجتمع حين يتعلّق الأمر بتخطّي الكوارث التي ستلحق. تبدو اللّقطات التي تنقل فيها مونيكافيتي إلى المستشفى بعد كلّ عمليّة انتحار مُضحكة جدّاً، لكنّها في الواقع قاسية ومُثيرة للشّفقة. على الشّاشة، نرى الشّعب الرّوماني يتطوّر: ديكور، وحياة، عملة وترفيه وحفلات. تختلف المدينة التي يسكنها الرّومان عن روما التي يعرفها السُيّاح: فبدل أن نرى صحراء أثريّة، تبدو أوستيا Ostie، ملتقى للمومسات.

ثمّة مُخرجون طموحون، يسعَوْنَ إلى تقديم وجهة نظرهم للعالم. إن نجحوا فإنّهم يثرون وجهة نظري. تحقّق ذلك مع ميديا Medée لبازوليني. أجاب على سؤال طالما راودني: كيف أمكن لبعض الحضارات أن تُوفّق بين أعلى درجات الثّقافة وبين أوضع شعائر التّضحية بالنّفس البشريّة؟ ليس هناك جيد من حيثُ الوثائق في ميديا. لكن بفضل عمل مُضنٍ وطويل، استطاع إعادة إنشاء العالم المُقدّس مُعوِّلاً على اختيارات صائبة من بينها المناظر الطّبيعيّة المدهشة والممثّلة ماريا كالاس. شابٌّ رائعٌ يُعدَمُ ويُلتَهمُ أمام أعيننا: لا نشعُرُ أمام جمال الاحتفال بأنّنا إزاء مشهد رعب. لم تُدنّس صورة ميديا عندما قطعت رأس أخيها ورمت خلف عربتها بأجزائه المرتجفة، وهي تمضي إلى البحر، لكن عندما نُقلت إلى اليونان فقدت قدراتها السّحريّة: وجدتُ هذا الجزء أقلّ نجاحاً.

شدّني فِيلمٌ يعيش *الموت* *Viva la muerte* حيثُ يتناولُ أرابال Arrabal معالجة إسبانيا فرانكو. أحبّ مسرحه كثيراً – الذي لم أشاهده بل قرأتُه – حتّى إنّي لم أقاوم فضولي لمشاهدة فِيلمِه الأوّل. في اللّقطات ذات الأبعاد الحالمة ورغم تحقيقه نجاحات باهرة، فإنه استسلم في بعض الأحيان إلى قليل من السّهولة. غير أنّ المشاهد التي يُعهَدُ إليها كشف الحقيقة فقد تميّزت بشعريّة وحشيّة تُذكّر بكابوس تحت السّيطرة؛ ديكور مُذهل، وممثّلون متطابقون مع أدوارهم وصور، على العكس، متباعدة تُفضي بالمتفرّج إلى عالم حقير وهمجيّ، من زاوية نظر طفل ساذج ومرعوب. سيكتشف رُويْداً أنّ أمّه – الجميلة في ثوبها الأسود – قد سلّمت أباه إلى الفاشيّين: مات ببطء ثورةً وحقدًا.

هارا–كيري kiri–Hara لماساكي كوباياشي، سعى إلى تدمير نمط أسطوري للحقبة الإقطاعيّة اليابانيّة. لا يُمثّل النّبلاء طبقة بطوليّة: فهم انتهازيّون ولا مبالون ببؤس الشّعب وعوز السّاموراي. كان الحاكم السيّد الكبير ذا قسوة فظيعة: جاءه أحد السّاموراي الذين ضاق بهم الحال – كان تقليداً في ذلك الوقت – ليطلب مساعدته، أقسم أنّه لو لم يحصل عليها فإنّه سيفتح بطنه في بيته؛ حكم عليه بالـ«هارا–كيري»[15] بوحشيّة على نحو استثنائيّ لأنّ السّاموراي باع سيفه: كان سلاحُه الذي في غمده خشبيّاً. وكان للضحيّة، منتقِماً، أن يهين الجلاّدين قبل قتل الكثير منهم خلال معركة يخوضها ضدّ فيلق بأسره. صور بسيطة وواقعيّة للفقر باستخدام مشاهد ملحميّة حماسيّة.

عُرضت في باريس، خلال السّنوات الأخيرة، أفلام هنغاريّة رائعة. *عديمو الأمل* لجانسكو، علّمني ما لا يمكن أن يفعله كتاب، كيف اندلعت

15- هارا–كيري Harakiri: طريقة الساموراي في قتل نفسه وكان قيام الساموراي بهذا العمل يعدّ تكفيراً عن خطئه ودليلاً على النبل والطاعة. في كثير من الأحيان كان الساموراي يعين أحد المقربين له ليقطع رأسه بضربة سيف بعد أن يقوم ببقر بطنه بنفسه.

الثّورة في هنغاريا في القرن التّاسع عشر. لم تستسغ ذائقتي *الأحمر والأبيض*، حيثُ أغرق المُخرج في الجماليّة. عشتُ الإصلاح الزّراعي في بوادي هنغاريا مع فِيلم *عشرة آلاف شمس* لـ «زابو» Szabo: هنا أيضاً جعلتني صورة الأراضي والضّيعات والوجوه أفهم الحكاية أكثر من أيّ نصّ مكتوب.

أراد فيسكونتي Visconti من خلال شريط *الملعون* أن يُوثّق صفحة من التّاريخ: خلق الفيلم برودًا من جهتي رغم سُمُوِّ قضيّته. يمكن للمُستبعَد، غير القابل للتّصديق لو أُحسِن استخدامُه، أن يضحك أو أن ينتزع من المُتفرّج ابتسامة. إنّه يُدمّر البعد المأساوي. ورغم الموهبة العالية للممثّل، فإنّي أصدّق شخصيّة مارتن: لقد جمع بين كثير من العيوب. حفلة الفحش التي سبقت الاقتتال بالسّكاكين، وصول سفينة مُحمّلة بالزّنوج عند الفجر، كلّها كانت مشاهد رائعة، لكنّها بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة التّاريخيّة. كانت المراسم الجنائزيّة الأنيقة الجامدة التي انتهى بها الفِيلمُ، قطعة جمالٍ بلاستيكي. أستشعر كثيراً وجود المُخرج؛ ألاحظ طاقاته من بعيد دون أن أوليها اهتماماً.

عمل آخر ضاجٌّ بالحقيقة هو «زاد» Z الذي صوّره كوستا عن رواية فسيليكوس Vassilikos. غيّب عنّي إيف مونتون ذي الملامح التي ألفتُها، لومبراكيس، لكن سرعان ما توحّدا. أعرف أنّ الأحداث التي أتابعها حقيقيّة: كانت تجربة جديدة بالنّسبة إليّ أن أرى نسخة سينمائيّة خياليّة وفيّة لثقل المأساة التي تجري على أرض الواقع.

أهتمّ بالأفلام التي توقظ في داخلي وقائع تاريخيّة. وتلك التي تجعلني أكتشف نواحي في المجتمع الذي أنتمي إليه. جعلني لانز Luntz، من خلال حبكة مُشوّقة في فِيلمِ *القلوب الخضراء* أعرف شباباً يلعبون أدوارهم الخاصّة؛ قاسموني سأمهم، اضطرابهم، مرارتهم؛ وبسخرية أظهروا أحاسيس لا قِبل لهم بالتّعبير عنها: تألّمتُ لألمهم.

من النّادر أن تُسلّط السّينما الضّوء على الكادحين. بعض الأفلام

الإيطاليّة وصفت المقاومة وأدانت جرائم الرّأسماليّة: شاءت الصّدفة ألاّ أشاهدها، لكنّي شاهدتُ سنة 1965 شريطيْن إنجليزيّيْن رائعيْن يدور محورهما حول ثورة شباب مُستغَلّ. كاتب السيناريوهات، كان آلان سيكيتو Allan Sikkitoe، ابن بائع الجلود، الذي ما إن أصبح كاتباً حتّى حافظ على صلة متينة ببيئته الأصليّة. أدّى الأدوار ممثّلون أجهلهم، ما أتاح لي سانحة نسبهم إلى الشّخصيّات. في *مساء السّبت، صبيحة الأحد*، يتمرّد عامل شابٌّ على وضعه؛ عبثاً راح يسعى إلى الهرب من واقعة نهايات الأسبوع؛ يخرج مع رفاقه، يتسكّع، يشرب، يتشاجر: حين يكون العملَ مخبولاً فإنّ التّرفيه أيضاً يكون كذلك. لم يستطع التحرّر من الطّيش. أخيراً، استسلم لفخّ الحبّ. ثمّ رويداً، بعد أن أصبح ربّ عائلة وأباً لأطفال، كفّ عن الشّجار. في *وحدة عدّاء الأعماق*، رفض البطل مهانة الاستغلال، ذاك الاضطهاد المتنامي الذي اسمُه العمل في المصنع. سرق مخبزاً وها هو الآن في مركز للتّأهيل. شجّعه مديره على التمرّن لمّا لاحظ أنّه عدّاءٌ جيّد: كان يُرجى افتكاك الكأس التي ستتنافسُ عليها الشّركة مع معهد خاصّ. فعلاً، تقدّمَ خصمَهُ، كان قريباً من النّصر، عندما عاد إليه وعيُه بأنّهُ مُستَغَلّ: ستستفيد مؤسّسة فاسدة من فوزه. توقّف تاركاً منافسه يتجاوزه مندهشاً. يتّضح صراعُ الطّبقات جليّاً وبشكل مباشر في الشّريط السّويدي الرّائع «أدالان 31» للمخرج «بو ويدربرج».

صيف 1931 في السّويد: واحد من فصول الصّيف المُؤثّرة حيثُ تتفجّر كالمعجزة، الأوراق والزّهور الوارفة وحيثُ الشّمس لا تغيب سوى بضع ليالٍ قصيرة. «أيَّ يوم جميل سيكون، لو أنّه يوم أحد!» قال توماس، العامل الذي جعلتنا الكاميرا نلج إلى الفيلمِ عن طريقه. لكنّه يوم عادي: إنّه الإضراب الذي يتواصلُ منذ أسابيع، حيثُ العُمّالُ يطالبون بزيادة في الأجور. كانوا يعملون في مصانع مغلقة في الوقت الحاضر، لكنّهم في الوقت ذاته ريفيّون؛ يقطنون مساكن منتشرة في الرّيف. يسكنُ توماس مع زوجته في أحدها – فاتنة، بإشراق في عيْنَين زرقاوَيْن، بابتسامتها الجميلة،

لكن ببشرة قاسية ويَدَيْن منهكَتيْن - وابنيْن وسيمَيْن، أحدهما في الرّابعة عشرة والآخر في السّابعة عشرة، كان هو ذاته يمنح انطباعاً بالقوّة والمرح. الأطفال في عطلة ويبدو أنّ الرّجال أيضاً في عطلة: يصطادون في البحيْرة المجاورة، يتنزّهون، يتحاورون فيما بينهم، يلعبون الورق؛ لكن لا شيء يُؤكَلُ في البيوت تقريباً. ربّما تحقّقت مطالبهم: على أيّ حال، ما يطلبونه من زيادة ليس أمراً مجحفاً، قال أحد الأعراف بأبوّة، ربّما رضخنا. لكن لا، قرّر أرباب العمل تشغيل الصُّفْر. عندها انقلب الوضع: اندلعت المأساة، وتسارعت وتيرتها. هاجم العمّال الصُّفر وضايقوهم دون قتل: لم تكن هبّة ضغينة؛ ولم يشُكّوا في أنّ رؤساءهم يكنّون لهم منها مقداراً.

خرجوا في موكب حاشد على طول الكورنيش المحاذي للبحيرة، واضعين الأعلام على رؤوسهم. كانت الغاية من المسيرة التحدّث إلى رؤسائهم. لكنّ جنوداً كانوا مختبئين في الحقول المحيطة بالفيلا: لقد استدعى القُوّات. حاول عساكر خيّالة قطع الطّريق على المتظاهرين، لكنّ هؤلاء استمرّوا في التقدّم صادحين بالأناشيد. سُمِعَ طلقٌ ناري: لقد أعطى الضّابط الأمر بإطلاق النّار. «إنّها طلقاتٌ بيضاء»، قال، بثقةٍ، عاملٌ في الصفّ الأوّل للموكب. سقط عدد من الجرحى وثلاثة قتلى. مات توماس. في المساء عاتب الرّئيس الأبوي الضّابط على أمر إطلاق النّار: «الجنود هم الذين أطلقوا النّار، لكنّ الرّصاصات، أنت من سيدفعُ ثمنها»، قال الضّابط. أن تستدعي القُوّات، إنّه بمنزلة المخاطرة بإطلاق النّار، بل إنّه تحريض مُبطّن على ذلك: هذا ما فهمه ابن توماس. لم يكن هو ورفاقه مُغفّلين. لقد استبدّ الحقد بالقلوب.

اليوم الموالي، كان إضراباً عامّاً في السّويد. سقط النّظام.

فِيلمٌ فائق الجمال دون السّقوط في الجماليّة. صادمٌ ومقنع، دون ظلال لمنهجيّة أو نزوع. النّجاح الكبير الذي يُحسَبُ لـ«بو ويدربرچ» هو أنّه أبرز، على نحو يدعو إلى الإعجاب، صلة الحياة العامّة بالحياة الخاصّة. نهتمّ بحبّ توماس وزوجته - حُبّاً يحترق بهاجس إنجاب طفل جديد لن

يجدا سبيلاً لتربيته. نشعر بعاطفة خاصّة تجاه المودّة التي نشأت بين ابن توماس وابنة ربّ العمل - كان المشهد الذي اكتشفا فيه جسديْهما للمرّة الأولى رقيقاً وحارّاً، ما جعل منه مشهداً استثنائيّاً لا شبيه له في السّينما. الإضراب هو واحد من الأحداث اليوميّة للعُمّال: هم لا يطمعون في أكثر من تحسين وضعهم المادي قليلاً. لكنّه سرعان ما اتّخذ منحى سياسيّاً، أفضى إلى العنف والموت. ربّما تقنع تناحر الطّبقات - لكنّه قائم، وقد يندلع عند أوّل شرارة. كان البورجوازيّون الذين يظهرهم الفِيلم - دون تشويه، أو تجميل - آباءً جيّدين، أزواجاً جيّدين، رجالاً مُثقّفين: لكنّهم قتلة إذا تعلّق الأمر بالعُمّال الذين يستغلّونهم. أحببتُ، أيضاً، *«جو هيل» Joe Hill* لنفس المخرج، في جزء، بسبب الممثّل الرّائع الذي جسّد دور البطل. يروي الشّريط الثّورات العُمّاليّة التي كان «جو هيل» مُحرِّكَها في الولايات المُتّحدة، بداية القرن. نشعُر بالثّقل السّاحق للاستغلال ووحشيّة العقاب. لكن هناك الكثير من الطرافة والظّرف في طريقة جو هيل في التمرّد والكفاح: في الأحداث التي يبتكرها، خطاباته وأغانيه. كان مشهد إعدامه المُنظَّم بمكر تحت ذريعة جريمة لم يقترفها، مشهداً في غاية الكآبة. لكن بما أنّ الحبكة امتدّت على سنوات، فقد فَقَدَ الشّريط الوحدة، التّكثيف الرّصين الذي في *أدالان 31.* كان أكثر ظرفاً وإيغالاً في الجماليّة. من بين العديد من الأفلام الأمريكيّة المُوزّعة في فرنسا، اهتممتُ خاصّة بتلك التي تصف أمريكا. أحببتُ النّزهة التي يهديها *الفارسُ السّهل*، برفقة الشّابين الدرّاجَيْن، عبر المناظر الخلّابة، الصّداقة، بعض اللّقاءات السّعيدة، القليل من العشب في المساء: حياة جميلة، حرّة ومرحة. شعرهما الطّويل، لباسهما الزّاهي يثير الحقد لدى الأمريكيّين المُمنهجين، النمطيّين، الحافلة قلوبهم بالأحاسيس والخواطر المُتشابهة، المُستعدّين على الدّوام لقتل كلّ من يختلف عنهم: الفيتناميّين، السّود، الهيبي Hippies. ضُربَ الشابّان المسافران، طُعنَ أحدهما وقتلا في آخر الفِيلم.

الكراهية والعنف، إنهما أيضاً محور «جو» *Joe*، إنّ البورجوازي

والعامل سِيّانِ في الظّروف المُستقرّة، كلاهما متعصّب ويكنّ الضّغينة لمن يعارضهما: الصُّفر، السّود، الشّباب. وجد البورجوازي نفسه في بداية الشّريط مُتّهماً بالقتل غير المُضمر لواحد من الهيبي، فشجّعه «جو» العامل البروليتاري على قول الحقيقة: كان كلاهما عنصريّاً وعنيفاً. انضمّا إلى المذبحة التي ارتُكِبَت ضدّ جماعة من الهيبي والتي قُتلت فيها ابنته.

يظهر صراعُ الأجيالِ بأقلّ تركيز في فِيلمِ *الإقلاع Taking off*، الذي صوّره مُخرجُه فورمان Forman في أمريكا. فِيلمٌ قاسٍ بما أنّ كلّ شخصيّاته قد تاهوا في طرق مسدودة، الكبار الذين تجمّدوا في دور الآباء والأبناء الذين سعَوا إلى الهرب منهم دون أن يجدوا موطئ قدم على الأرض. نهشتهم الوحدة والملل، بقلوب جافّة ورؤوس فارغة. مع ذلك نضحك من الطّرف إلى الطّرف. مرّة أخرى، هنا أيضاً، ينشأ الهزل من التّناقض بين دواخل الشّخصيّات وحقيقتهم الخارجيّة. يتحدّثون عن أنفسهم وعن حياتهم بجدّية: الحقيقة التي ستُكذّبها الشّاشة. يسخر الشّريط بمهارة من العادات والتّكنولوجيا والكليشيهات ومزاعم فئة من الأمريكيّين. حتّى عندما يطغى شعور نبيل فإنّه سرعان ما ينطمس تحت تأثير الآليّة. دعامة الفِيلمِ هي الحفلة التي دخّن خلالها هؤلاء الماريجوانا، تحتّ ذريعة فهم ذهنيّةَ أبنائهم: مُتضخّمين ومغمورين بإحساس بالمسؤوليّة، لم يقوموا، في الواقع، سوى بالاستمتاع بلعبة طاولة.

مثّلت الحياة الأمريكيّة لوحة الخلفيّة في شريط *خمس أجزاء سهلة*، حيثُ يبدو لنا البطل محكوماً بالوحدة. في المؤسّسة الفوضويّة التي يعمل بها، كان يجهل كلّ شيء عن رفاقه ويجهلون عنه كلّ شيء. لم يكن مُهتمّاً قليلاً سوى بالنّادلة التي تعملُ معه ولم تكن تفهمه. الموسيقار المشهور الذي بات اليوم يُعاني من الشّلل: كان منجذباً لزوجة أخيه لكنّه لم ينجح في كسب حُبّها لأنّها كانت تشُكُّ في أنّه قادر على أن يُحبّ. رحل وحيداً، بائساً، خالي الوفاض، نحو غابات الشّمال المُتجمّدة، حيث سيموت حتماً. تُفَسّرُ وحدتُه بطبيعته التي ورثها عن طفولته. لكن أيضاً، بسبب

نمط الحياة الأمريكيّة. لم يكن مأزقه وحده، بل العديد من الشّخصيّات الأخرى - خصوصاً تلك المسافرة الحرّة المُتوتّرة التي كانت تهرب من التلوّث صوب ثلوج ألاسكا. لم تكف آليات العلاج لشفائها من مشاكلها النّفسيّة كما زعمت مُتشدّقة كبيرة. إنّها ثمرة مُرّة لحضارة ما.

ما يُكسِبُ الفِيلمَ قيمته هي العلاقات المبنيّة بين الشّخصيّات. خلافاً لما ساد قديماً، فإنّ السّينما برعت في إبراز النّواحي ذات الصّبغة النّفسيّة، ولقد وجدتُ العلاقة بين الخادم وسيّده الشاب، علاقة حابسة للأنفاس في شريط «الخادم» The Servent لـ «لوزي» Losey؛ علاقة الأخويْن فيما بينهما وبين حاميهما في الفِيلم الذي يحملُ اسم «الوكيل» Carretaker؛ علاقة «بيتوليا» Petulia بالرّجل الذي كان يُحبّها دون أمل؛ علاقة «ميا فارو» Mia farrow و«إيليزابيت تايلور» Elisabeth Taylor في فِيلمِ *المراسم السّرية*؛ علاقة الشابّ الإنجليزي بالجامايكي في فِيلمِ «النّبيلان»؛ العلاقة بين الشّخصيّات في «ليلتي عند مو»، وتلك التي جمعت بين أبطال «يوم أحد كالبقيّة». لو أنّ كتاباً هو الذي يروي هذه القصص فسيكون عليه أن يُقدّم لنا الأبطال أوّلاً، ربّما بإسهاب، وربّما بدت سخيفة. على الشّاشة، تحضرُ كلُّ شخصيّة دفعة واحدة من الوهلة الأولى، الوجوه، الدّيكور، وبالإمكان اتّخاذ موقف ممّا يحدث فوراً. إيماءة، تعبير، إشارة، قد تقول أشياء وأشياء أسرع بكثير من أوراق مطبوعة.

أفلام كثيرة تلعب على نفس الأوتار التي جئتُ على ذكرها بنوع من العشوائيّة في الاختيار، إنّها تستعيد حقبة أو تروي قصّة مُجتمع أو تحكي مغامرات، وتُبيّن إلى أيّ مدى ارتبط النّاسُ فيما بينهم. وثّق «بوني وكلايد» حقبة من الزّمن: 1929، الرّكود الكاسح؛ كان سرداً مُشوّقاً؛ كانت أيضاً حكاية حُبّ دافئة بشكل مُدهش، جمعت بين رجلٍ شابٍّ وعاجز وبين شابّة. فِيلمُ «مور» - الذي رافقته موسيقى تصويريّة رائعة - يسبحُ في خلفيّة من المناظر الطّبيعيّة الآسرة، الطّبيعة في «إبيزا» Ibiza، نازيّون قدامى، هيپي يُدخّنون الحشيش، مُخَدَّرين؛ يروي الشّريط قصّة ولد

مُتعطّش لكلّ ملذّات الحياة، بطريقة مُثيرة للحنق، وبغيضة إلى حدّ نشعر معه بأنّه تائه منذ البداية؛ أقنعته امرأة مُدمنة أحبّها بأن تحقن الهيروين؛ تحوّل إلى عبد للمُخدّرات ومات بها: حقّق هذا التّصعيد من بداية الفِيلمِ حتّى نهايته «تشويقاً» مُعذّباً.

يُظهرُ «قتلَةُ شهر العسل» Honey moon Killers، بشاعة الجريمة: كان احتضار الضّحايا مقيتاً، كان القتلة يتأخّرون في قتلهم؛ كوّنا زوجاً مُتوحّشاً؛ المغزى من الشّريط هو أن يُبيّن لنا أنّ الوحش يختلف تماماً عن الوحش الذي نتخيّله: «إنّه شبيهي وأخي». أُلحِق العار بجسد البطلة: كتلة ضخمة من اللّحم يعلوها وجه جميل. حسّاسة ونهمة وقاسية جدّاً ومعادية لليهود، لكنّها تأسرنا بشغفها الجارف تجاه «راي» Ray، من خلال الثّقة السّاذجة التي تمنحه إيّاها. قتلتْ مرّتيْن على نحو مسعور ومرّة بدم بارد، لكن لم تكن حياتُها في نظرها أكثر أهمّية من حياة الآخرين. كانت مُستعدّة لإنهائها لو أنّها أخفقت في امتلاك «راي» وحدَها دون أحد يُشاركها إيّاه وفي انسجام تام: اختارت الموت معه على القبول بأيّ تسوية. يجعلها تطرّفها أسمى من الكائنات الحقيرة التي استطاع «راي» ان يُسقطَهم في شراكِهِ؛ مثلها؛ سنكرههم من أجل تصنّعهم العابث أو بخلهم الدّنيء أو كذبهم على أنفسهم. مع ذلك، كان «راي» الأكثر سوءاً وطيشاً، قادراً على أن يُحبّ هذه المرأة البشعة برقّة. لا أدري إن كان المجرمون الذين ماتوا على الكرسي الكهربائي في سينغ سينغ Sing Sing يشبهون هذين الزّوجَيْن: لكنّهما استطاعا جعلنا نتعلّق بهما دون أن يفصح الفِيلمُ عن القسوة الغاشمة التي في الأحداث. نادرون هم المُخرجون الذين يُغوونني بعالمهم الخاصّ. اثنان فقط من بينهم، خلال العشريّة الأخيرة استطاعا ملامسة وجداني بعمق: برغمان Bergman وبونوال Buňuel. تأسرني القيمة التي يمنحها برغمان للنساء، لسنَ بالنّسبة إليه أشياء بل كائنات ذكيّة وحسّاسة؛ رسم، بفرح، علاقاتهنّ فيما بينهنّ. صداقة، تواطؤ، ضغينة؛ يكمن ضعفهنّ الوحيد، في نظره، في ميلِهنّ الذي يدفعهنّ

نحو الكائنات المُثيرة للشّفقة، الرّجال. وجدتُ العالم الأنثوي بعنفه وغيومه وهيجانه في *الصّمت Le silence* وأسرني حقّاً. إلّا أنّ الجانب الغامض في برغمان وهوَسَه بالبشر أزعجاني كثيراً. كان هناك مناظر خلّابة في *شغف Une Passion* وشخصيّات جذّابة ناضجة بألم في صمتها الدّاخلي؛ لكن النّواحي التي اتّجه نحوها المؤلّف كانت واضحة ومباشرة جدّاً: وجود الشرّ في العالم - سفالة الإنسان من خلال قتل الخراف أو إدانة إنسانٍ بريء. لم أنجح في الولوج إلى حكايته.

يزعجني «بونوال»، الذي أحببتُ أعماله كثيراً، بدوره عندما يأخذه الحماسُ إزاء محاور دينيّة. رغم الصّور الرّائعة والمشاهد الأخّاذة، لم أهتمّ كثيراً بشريط «الدّرب الأبيض». لكنّي أحببتُ *تريستاناTristana*، وحدها السّينما يمكنها الاحتفال بالعلاقات الغريبة التي قد تجمعُ بن امرأة كسيحة وزير نساء تقدّم به العمر. برع «بونوال» في فضح ما يرتكبه البسطاء بعنوان الخير: التعصّب، والنّفاق. يكفي أن يُظهر لنا رهباناً بوجوه مطمئنة يلعقون الشوكولاتة، كي يجعلنا نكرههم. تجلّى «مكر» الرّجل العجوز أكثر حقيقة وإنسانيّة، في تريستانا وفي الأصمّ الأبكم الصّغير.

هناك فِيلمٌ أعتبره رائعة فنّية - وقلتُ ذلك في أوانه - إنّه: «الهاوية»، الذي تمّ إنجازُه سنة 1963 من طرفِ نيكوس پاپاداكيس Nicos Papadakis، اعتماداً على حوارات لـ «فونتي» Vantier. الفِيلمُ مُستَلهَمٌ من حكاية الأخوات پاپان، مع حرصٍ كبير على عدم التّلاعُب بأعصاب المُتفرّجين، دفع بالعنف إلى الذّروة.

تجري الدّراما في المنزل الرّيفي المعزول، حيثُ السيّد والسيّدة والآنسة يعيشون حياة دنيئة لبورجوازيّين صغار ونصف مُفلسين: إنّنا نستشفّ ذلك من خلال الكراهية التي تُكنّها الأختان، المُجسَّدَتان بشكل مُذهل، من طرف الأختَيْن «برجي» Bergé، لأرباب العمل؛ أن تدخل معهما إلى المطبخ يعني أن تدخل إلى غرفة تعذيب: دون تكلّف، يكتفي پاپاداكيس بعرض السّكاكين وشوك الطّعام والمفرمة، الخطاطيف وموقد

الغاز وكلّ الأدوات المألوفة التي بدت مُرعبة. الحقد الذي يترعرع مع الحُبّ الذي تحملُه الأختان بعضهما لبعض، يوحي بحياة «مغايرة»، حيثُ السّعادة والشّاعريّة والحرّية أشياء ممكنة. حاولت الأختان مُضايقة العائلة، فترة، بسبب اضطهادها لهما وعدم دفع أجرتيهما منذ زمن، لكن أخيراً، هزمهما الائتلاف البورجوازي، المُقنّع بلباقة هزليّة، فما كان منهما إلّا أن عادتا إلى تقديم القهوة في الصّالون. علمتا أنّهما ستُطرَدان وسيُفرَّقُ بينهما: جُنَّ جنونهما فقتلتا السيّدة والآنسة بضربات من المكواة.

قيل إنّ پاپاكاديس فكّر في الحرب على الجزائر وهو يروي هذه الثّورة البربريّة. احتفظ سنة 63 بذكرى حارقة وصورة ما عن مقاومة الاستعمار ظهرت في هذه التّراجيديا الخاصّة. إنّها واحدة من تلك الوضعيّات القُصوى التي وصفها «فانون» Fanon (الملعونون في الأرض)، حيثُ لا حيلة للمُستضعَف من الهروب من مُضطهديه سوى باقتراف جريمة، بالإرهاب. لدى السيّدة والآنسة ضمير مُطمئن، أي انعدام تامّ للضّمير وجهل مُطبق، مُستوطنون، يعتقدون أنّهم مرغوبون ومحبوبون من قِبَل العرب. حيثُ من الصّادم أن يتّضح عكسُ ذلك.

تُجسّد الآنسة الوصاية التي كُنّا قديماً نُسمّيها «اليسار المُحترَم» الذي كان يزعم منح المُستعمَرين ما يُريد هؤلاء الاستيلاء عليه. إنّها هي التي تسبّبت في اندلاع التّراجيديا عندما بدا لها أنّ روحها الجميلة مُبتَذَلة. (الفِيلمُ زاخرٌ بالإحالات إلى درجة أنّ الآنسة تُذكّر برؤساء الجامعات مثلها، مُتفهّمين وحريصين، إلى حدّ تحمّل جميع المصائب، الذين ينتهي بهم المطاف إلى استدعاء البوليس لضرب الطّلبة) عندما شاهدتُ الشّريط، كُنّا كُتّابا كثيرين، نصحنا الجمهور بمشاهدته (صوّر پاپاكاديس شريطاً آخر في الأثناء، «رعاة الشّمس» الذي قيل لي إنّه رائع، لكنّ الظّروف حالت دون مشاهدتي له).

من النّادرِ أن أشاهد الأفلام الوثائقيّة. إنّه يُلقّنني معارف خارج كلّ

سياق، في أوقات لا رغبة لي فيها بابتلاعها. خلال السّنوات الأخيرة، واحدٌ منها فقط حاز انتباهي: ريبورتاج بالألوان عن بِناريس Bénarès. إنّها كلمة كنتُ قد حلمتُ بها، حيثُ الصّورُ توقظ في داخلي فضولاً قديماً.

في المُقابل، يهمّني المونتاج الذي يُحاولُ إحياء حقبة ما.

دون تردّد شاهدتُ *36، المُحوّل الكبير*، الذي يُحْيي مُغامرة الجبهة الشّعبيّة. أغضبتني التّعاليق؛ لكنّ انطباعاً حيّاً انتابني بأنّني أستعيد جانباً من وجودي. كنتُ شاهدة، سنة 36، على بعض الأحداث، لكن في المُجمَل عرفتها من خلال الصّحافة والحوارات. إنّ الشّاشة تمنحني شموليّة لا أجدها في محمل آخر. أجد نفسي بفضل الصّورة قد تحوّلتُ إلى الماضي وقادرة في آن على جمع تفاصيله وجوانبه تحت أنظاري.

لم يمنحني *الحنين والشّفقة* نفس الانطباع. لم أجد جو الاحتلال كما عرفتُه: كان هناك قلقٌ أكثر في الهواء. حتّى إنّ صوراً قليلة جدّاً فقط تُحلحلُ الماضي بشكل مُباشر: ناجون من الحرب، يتحدّثون عن حقبة أصبحت بعيدة وحيثُ ألغى الفاصلُ الزّمني كلَّ تمزّق. أعتقد أنّها مسألة عقيدة أن تكون مُقاوماً أو متعاوناً مع العدوّ: فيما أكوامٌ من الجثث كانت تفصل بين المتنازِعيْن. مع ذلك كان هناك مقاطع بديعة: مُحاورات مونديس فرانس Mendès France، المواقف المقيتة والتّافهة للكونت «شمبران» Chambrun، رواية المزارع المقاوم. كانت *أحاديث الألماني* أكثر تطابقاً مع ما نتوقّع سماعه من أن نجد متعة فكريّة مُزعجة قليلاً.

منذ سنة 62، استمتعتُ بمشاهدة أفلام أخرى غير التي ذكرتُها. مع يقيني أنّه قد فاتني منها الكثير. لم أعد أذهبُ إلى السّينما إلّا نادراً. أبغض أن أتضايق والوقوف في الطّوابير وأن أُضطَرّ إلى تلقّي الدّعاية والأخبار من هنا وهناك. ثمّ إنّه من السّهل مقاطعة القراءة أو الاستماع إلى أسطوانة؛ في السّينما، خصوصاً عندما أكون برفقة صديقة، ما إن أتّخذ مكاني حتّى أشعر بأنّي مُجبَرَة على مُتابعة الشّريط ولو كان مُملّاً.

لم تكن هذه المساوئ لتُساوي شيئاً لو أنّ السّينما كانت تُمثّل وسيلة

التّعبير الأفضل: لكن ليست هذه هي الحقيقة. إنّه جلاء الصّورة ما يمنح الأفلام القُوّة والإغواء: لكنّ الفوتوغرافيا تضعُ حدّاً لحلمي بامتلائها الحتمي. إنّها واحدة من بين الأسباب - قيل ذلك عديد المرّات - التي تجعلُ اقتباس رواية للسّينما أمراً غير مرغوب. وجه إيمّا بوفاري، مُتعدّد وغيرُ مُحدّد، ويتخطّى مأساتها ووضعها الخاصّ. على الشّاشة، أرى وجهاً مُحدّداً وهذا يُقصّر من أبعاد الحكاية. لا أشعر بهذه الخيبة لو أنّ الحبكة، أصلاً، مُوجّهة إلى العرض على الشّاشة. أعجبني أن يكون لـ «*تريستانا*» ملامح «كاترين دونوف»: ذاك أنّي قرّرتُ أنّ الحكاية لن تتعدّى في مُخيّلتي حجم النّكتة. أحياناً، أيضاً، يُصيب الاهتمام بالصّورة المرئيّة الأماكن بالفقر والخواء. على الورق، «الغائبة عن كلّ باقة»، هي كذلك بفضل عطرها، بطول سيقانها وبتلاتها كما بلونها وشكلها: مُجمَلُ الوردة مقصود بالوصف عبر الكلمات.

في منظر طبيعيّ تُقدّمه السّينما، أرى وأسمع الهمسات: لكنّي لا أشتمّ الرّائحة المِلحيّة للبحر، لا يرشّني الرّذاذ. يعزل الإطار الفوتوغرافي هذه الأمور عن باقي العالم. حين أقرأ كلمة «توليدو» Tolède، فإنّ كلّ إسبانيا تحضر في ذهني دفعة واحدة؛ في «*تريستانا*» لم تمنحني المشاهد المُصوّرة في توليدو انطباعاً أكثر من أنّها صور لشوارع. رغم براعة الصّورة الفوتوغرافيّة. أحياناً يمنح فنّ الإخراج الفرصة لتخطّي الحدود: ذاك الرّيف الحيّ، الذي أكاد أشعر به مُنعشاً فوق جلدي؛ لم أكن أتجوّل في شارع، لكن في لندن وكلّ بريطانيا حولي. عموماً وفي أقصى الحالات، ليس مُتاحاً لكلّ فِيلم أن يصل إلى هذا الحدّ من الإتقان المُعقّد. أقلّ تعبيراً من الصّورة - وأقلّ سرعة ربّما -، تظلّ الكتابة مميّزة جدّاً حين يتعلّق الأمر بتمرير معرفة. عندما يكون العمل غنيّاً فإنّه يمرّر لنا تجربة معيشة تدور أمام خلفيّة من المعارف المُجرّدة: خارج هذا السّياق، تبقى التّجربة مُشوّهة أو غير مفهومة. غير أنّ الصُّور البصريّة لا تكفي للقيام بالتّبليغ على أحسن وجه: إذا أرادت أن تفرض المعارف فسيكون ذلك بفضاضة وصفاقة. بدا

ذلك واضحاً عندما صوّر «كوستا غافراس» *الاعتراف*. نجح فيلم «زاد» Z، لأنّ الحبكة بسيطة، والسّياق معروف: ماكينة بوليسيّة كغيرها. لكن «*الاعتراف*» لا يكتسب قيمته إلّا من خلال سرد الوقائع التّاريخيّة لما بعد الحرب في الاتّحاد السوفيتي ودول الشّرق. لم تكن الشّخصيّات موجودة فقط وقت المحاكمة: كان لكلٍّ منها حياة سياسيّة وخلفه تجربة برمّتها. في الكتب، نحنُ نعرف تحديداً مع من نتعامل ونعرف تماماً دوافع ردود الفعل. فقدت دراما «لوندن» بريقها ومعناها عندما تحوّلت إلى عرض. أظنّ أنّي أفضّل الكتب لأنّي استثمرتُ وقتي في الكتب خلال طفولتي. أنا مُرهفة تجاه الكلمات أكثر من أن أتعلّق بالصّورة. واحدة من الأفكار التي يُثرثَرُ بها في الأماكن العامّة، هي أنّ الأدب لم يعد يلعبُ سوى دورٍ ثانويٍّ؛ وأنّ المستقبل للسّينما والتّلفزيون: للصّورة. لا أصدّق. بالنّسبة إليَّ، أنا لا أملك تلفزيوناً ولن أملكه. تخدعنا الصّورة الحينيّة؛ ثمّ تأخذ بالشّحوب وتندثر. للكلمات ميزة عُظمى؛ نحنُ نحملها معنا. حين أقول: «تموت أيّامنا قبلنا».، فأنا أعيد خلق الجملة التي كتبها «شاتوبريان» Chateaubriant.

حضور النّاسِ في حياة النّاس يُصبح ملموساً من خلال اللّغة، هذا ما يجعلني متأكّدة من أنّ الأدب لا يُعَوّض أبداً.

أرتادُ المسرح بندرة. في السّينما هناك انسجام في الأدوات المُستخدمة: صور مرئيّة تلوح كمحاكاة لواقع ما، قادرة على الإقناع بحقيقيّتها إلى حدّ كبير. يمكنني الاستمرار في الخيال من دون الشّعور بالغربة. أمّا في المسرح فتبدو علاقة الخيال بالواقع عرجاء. من المستحيل أن يلعب الممثّلون أدوارهم بصورة مثاليّة: أرى الممثّل من وراء الشّخصيّة. تبدو الملابس والديكور والإكسسوارات حاضرة بصورة مادّية طارئة. إنّها تحيلني بشكل أو بآخر على واقع يحاول النصّ انتزاعي منه. يجرّني المسرح إلى عالم حقيقي لحظة، ثمّ سرعان ما أجد نفسي في هذا الفضاء: العرض. أشعر دائماً بأنّي في وضعيّة مزيّفة، مهما كان الإخراجُ جيّداً

والمسرحيّة زاخرة بالمعنى (أتحدّث هنا عن المسرح الغربي، ثمّة نوع من المسرح أنزّهه عن هذا النّقد. سأتحدّث عنه لاحقاً).

رغم هذه التحفّظات، شاهدتُ عدداً لا بأس به من العروض. في *حياة آي La vie d'Aï، وجياي Geai* لـ «غاتي» Gatti، التي تمّ تمثيلها في «أوديون» Odéon سنة 1964، كانت هناك فكرة مسرحيّة رائعة: أن يُقدّم لنا نفس الشّخصيّة في أربع أعمار مُختلفة. حاول الأدب القيام بذلك من قبل لكنّ أثر التّزامن يكون آسراً عندما أرى بعَيْنَيَّ على ركح واحد، المراهق والشابَّ والرّجل النّاضج والمتقدّم في السنّ وهم شخص واحدٌ. عند رفع السّتارة، نرى عامل النّظافة الأربعيني، طريح الفراش في المُستشفى بعد أن خرج خلال المُظاهرات. رأى ماضيه ورأى المتقاعد الذي يحلم بأن يكونه يرجوه ألّا يموت – دون جدوى -. إن لم يُحرّك مصيرُه مشاعرنا فإنّ المسرحيّة برُمّتها ستتحوّلُ إلى تتابع فقير ومتكلّف للمشاهد. لكنّ غاتي عرف كيف يجعلنا نتعلّق بالعامل أوغست جياي، الذي اختزل في شخصيّته، برقّة وثورة، حياة الحرمان التي عاشها والده.

كانت *الألعاب*، لجورج مايكل، مهزلة قاسية ومُضحكة عن مُجتمع الاستهلاك الذي هو مُجتمعنا، عن البيئة التي فُرضَت علينا، وعن شعارات مصلحة الإذاعة والتّلفزيون الفرنسي التي تُصيبنا بالعدوى. إنّ نجاح العرض مُتأتٍّ من انسجام النصّ – المبني بصلابة حول أماكن مألوفة – إضافة إلى أداء الممثّلين وإيماءاتهم. ساعد الدّيكور والإخراج على إظهار التّباعد الذي من خلاله ستتّضح الحقيقة اليوميّة. المباعَدة: إنّها، وهذا معروف، من اختصاص بريخت؛ عادة يبدو النصّ باهتاً ولا يتوهّج إلّا على خشبة المسرح. تأكّدتُ من ذلك مرّة أخرى وأنا أشاهد *السيّد بانتولا وخادمته ماتي* التي كنتُ قرأتُها دون حماس. كان إخراجاً مُذهلاً وأداءً رائعاً من قِبل ويلسن، دينر، جوديث وماغر. إنّها مسرحيّة تُثير الكثير من الضّحك وتترك مذاق المرارة.

شاهدتُ أيضاً في المسرح الوطني الصّغير T.N.P، *سنديان وأرانب*

أنغورا، لـ «والسر» Walser (روائي وكاتب دراما ألماني)؛ أحببتُ فيها الرّصانة في إثارة الشّفقة. كانت الشّخصيّة الشاعريّة والمؤثّرة التي لعب «دوفيلهو» Dufiho، دورها، قد هُجّرت بتُهمة مناهضة النازيّة وهناك أُجريت له عمليّة تحويل لدماغه، عقبتها إعادة تأهيل واستمرّ في الصّراخ: عاش هتلر! فيما كان رفاقه يصرخون ملء حناجرهم: عاشت أمريكا! فريسة يأسٍ كبير، لاح أنّه فقَدَ ما كان يراه عذباً في الحياة؛ في المقابل، كان النازيّ القديم الذي لعب ويلسون دوره، يزدهر يوماً بعد يوم. كانت كثيفة ومتوترة دون السّقوط في الرّمزيّة أو المجاز. أضاء العمل ألمانيا بنور قاتم ما بعد الحرب، حيثُ عوقب الطيّبون وتمّت مكافأة الأشرار.

في سِرْكٍ تمّ تحويله إلى مسرح، أخرج «منوشكين» Mnouchkine مسرحيّة *المطبخ* لـ «وسكر» Wesker. تمّ توضيب الدّيكور بدقّة عالية: يُخيَّلُ إلى المُتفرّج أنه قبالة مطبخ حقيقي وأنّ خلفه قاعة أكل. إلّا أنّ الأطعمة وأغلب الأوعية كانت ناقصة: سدّت حركات المُمثّلين النّقص. كانوا يطهون على نحو لا يُرى، ويعجنون الخبز ويُنظّفون أسماكاً غير موجودة. أكسبت الإيماءات الصّادقة مع التّعبير الواقعي العرضَ أصالة وقُوّة. إنّنا نشعر بأنّنا متعاطفون مع أولئك الرّجال والنّساء المنهكين جرّاء عمل يُشبه الجحيم. كان بالإمكان إدراك اتّساع الهُوّة التي تفصلهم عن ربّ العمل، غيرَ القادر على فهم ثورتهم. تحسّرتُ فقط عندما انقلبت الحبكة إلى مأساة. عندئذ ابتعد الإخراج كثيراً عن النصّ المكتوب. لاحقاً قدّم منوشكين في نفس الفضاء مسرحيّة *حلم ليلة صيف*. لم تكن كوميديا شكسبير ما أفضّل، إضافة إلى أنّ أغلب المُمثّلين كان قد تمّ اختيارهم وفق خاصّيات بلاستيكيّة: الرّقص، والإيماءات الصّامتة التي أدّوها بكثير من البراعة، لكن اقتباس النصّ كان رديئاً. ما نجح فعلاً هو الدّيكور: فرو غطّى الرّكح بالكامل، سميك ويبدو مُضاءً بنورّ السّماء اللّيلي، المُتسلّل من خلال الأغصان. تمّ إخراج مسرحيّتين لسارتر في المسرح الوطني سنة 65. أخرج كاكوياني *الطّروادّيات*، التي اقتبسها سارتر عن يوريپيد

Euripide، محترماً النصّ، مُضيفاً إليه مسحة عصريّة. عبّر «پرودوميدس» الذي أنجز موسيقى العرض في نيويورك، عن استيائه من عدم انسجام الكلمات مع الإيقاع. كان سارتر مُصاباً بالإنفلونزا آنذاك فلم يتمكّن من حضور البروفا. خلال الأيّام التي سبقت العرض الأوّل، أزعجنا كثيراً أن تُغطّي الموسيقى الصّاخبة أصوات المُمثّلين الذين مثّلوا ببراعة. كانت «جوديت ماغر» كاسندرا حقيقيّة. لكنّ الكورال كان سيئ التّنظيم. عندما قال «هيكوب» Hecube: «اضرب رأسَك!»، قام كلّ الكمبرس بالضّرب على صدورهنّ بحركة توحي بدرس في الجمباز الإيقاعي. «خطأ في التّشريح»، همس مهندس الدّيكور، وكان يونانيّاً مُسنّاً ومُضحكاً جدّاً، قام بديكورَيْنِ رائعَيْن. نال سارتر الموافقة على حذف بعض المؤثّرات الكارثيّة. مساء العرض الافتتاحي، صفّق الجمهور طويلاً للمسرحيّة، لكنّنا وأصدقاءنا كنّا أقلّ حماسة.

غير أنّ إخراج ويلسون لمسرحيّة *الشّيطان والربّ الرّحيم*، سنة 68 كان مُتميّزاً. استُبدِل الدّيكور بالتحرّك بحرّية أكبر. كان اختيار المُجسَّدين مُوفّقاً. أدّى «پيري» Perier دور «غوتز» دون تجاوزه، خلال الفصل الأوّل، الفصل الثاني كان أكثر أمانة. كان العرضُ في مجمله أكثر تفوّقاً من ذلك الذي أداره «جوفي» Jouvet. منحت الظّروف للمسرحيّة وقعاً مُعاصراً: كانت الدّروس التي يتلوها سُكّان مدينة الشّمس، تُذكّر بالقراءة الجماعيّة لكتاب «ماو» الأحمر. كان الشّبابُ الذين ملؤوا القاعة يكتشفون في النصّ كمّاً هائلاً من الإيحاءات والتّلميح للأحداث الرّاهنة ما جعلهم يصفقون للعرض بإعجاب كبير. تظلّ هذه العروض كلاسيكيّة رغم التّجديد. شاهدتُ بعد ذلك عروضاً أخرى قطعت بشكل حاسم مع التّقاليد.

في أكتوبر من سنة 1968، حضرتُ في قاعة السّيف الخشبي، تمثيليّة «أكروپوليس». أراد كاتب مسرحي بولوني إنعاش ثقافتنا الإنسانيّة في القرن التّاسع عشر، فتخيّل أبطالاً مَلحَميّين أو شخوصاً من التّوراة ليُقدّمهم فوق سجّاد قصر ينزل من الحائط في عرض يجري أمام أعيننا.

استلهم المُخرج البولوني «غروتوفسكي» من المسرحيّة، عرضاً يحوّل فيه الإنسانيّة والثّقافة التّقليديّة إلى مسخرة. افترض أنّ العرض يدور في مُعسكرات الاعتقال من طرف منفِيّين يرتدون الزيّ المُخطّط. كانوا يقومون بأشغال شاقّة وعابثة، حاملين خراطيم طويلة، رابطين سقالات ثقيلة. ثمّ فجأة، أشار، من خلال حركاتهم، إلى الوجوه المنقوشة في ذاكرتنا: وكان هناك تناقض شاسع بين ذلّ ونبل الأبطال الأسطوريّين الذين يُجسّدونهم. كان، في الحقيقة، يُمرّغ ذلك النّبل في الوحل. تحوّل «هيلين» و«بارِس» إلى ضرب من الشّذوذ بما أنّ رَجُلَيْن يلعبان أدوارهما. المشهد الأكثر إثارة، كان زواج «راشيل»؛ لم يكن متناغماً مع القصّة في التوراة؛ عوض أن يرضخ يعقوب لمشيئة «لابان» (خاله) فإنّه يركله ويختطف «راشيل». جُسّدت الأخيرة بقناة تلبس غلافاً بلاستيكيّاً أبيض للدّلالة على أنّها كانت ترتدي فستان زواج. قام يعقوب بالطّواف حول المسرح متأبّطاً إيّاها، متبوعاً بمُحتَفِلين يُنشدون الأغاني. كان المُتفرّجون جالسين على المدرّجات حول الموقع وكان الممثّلون يختلطون بهم أحياناً. ما حزّ في نفسي هو أنّي لم أفهم النصّ. حدّثنا صديقنا التشيكي «ليام» Liehm عن المعنى باقتضاب لأنّه كان يُجيد البولونيّة وقال إنّ النصّ جميلٌ جدّاً. إنّ الإدماج المُزدوج – مُعتقلون مُزيّفون يلعبون أدوار أبطال أسطوريّين – حطّم قيود المسرح جوهريّاً، لاغياً الحدود بين عالم الخيال والحقيقة.

سنة 1970، قدّم «رونكوني» في ساحة الـ «دوم» بميلانو عرضاً شعبيّاً مجانيّاً، مستلهماً من *«رولان الغاضب»*. نقله إلى باريس في شهر مايو، في واحد من المنازل المهجورة بـ «هول» Halles: كانت الأماكن محدودة وبمقابل. أسعدني الإطار في ذلك المساء الذي حضرتُ فيه العرض. هندسة معدنيّة، متناسقة مفتوحة على السّماء. شارك المُتفرّجون وقوفاً، في المشهد؛ لقد جسّدوا الحشد الذي سيخترقه المُحاربون على خيولهم الحديديّة؛ كانوا يطاردون بعضهم ويتقاتلون فوق رؤوسنا لأنّ جيادهم

كانت مرفوعة فوق أقفاص خشبيّة؛ كانت تلك الأقفاصُ مُجهّزة بعجلات وداخلها كان رجالٌ يدفعونها من الدّاخل. كانت كلّ الآلات مصنوعة بشكل مُتقن وذكيّ للغاية وبسيط في آن: كان باستطاعتنا أن نظنّ أنّنا في القرن السّادس عشر في واحد من تلك الاحتفالات حيثُ سحرُ البساطة وفظاظة الآلات. انتصبت أعمدة وما يوحي بأنّها أشغال على جانِبَيْ الباحة. أحياناً كانت لقطة واحدة كافية لجلب الانتباه؛ فيما تجري مشاهد أخرى في نفس الوقت. كان بالإمكان الاختيار بينها وبين المرور من أحدها إلى الآخر أو أن نسترخي مُدخّنين سيجارة. مزيج المغامرات هذا الذي عادة ما يُزعجني في رواية، سرّني هنا لأنّ الحكاية تستدعي التّزامُنَ، فيما تُصيبني القراءة بالضّجر في وضع مماثل.

لم أُلِمَّ بالنصّ لأنّي لا أتقن اللّغة الإيطاليّة، لكن كان من السّهل فهم الحبكة وتجاوز عائق الكلمات. حماس المُمثّلين وجمالُهم - رجالاً ونساءً - تألّق الأزياء، المرح وسرعة التحرّك، ساهمت جميعها في سعادتي بالعرض: سعادة شبيهة بتلك التي عرفتها في طفولتي عندما كنتُ أقرأ حكايات خرافيّة، حيثُ تأخذني الصّور بعيداً. أحسستُ بالامتلاء أيضاً، سنة 1971، عندما حضرتُ مسرحيّة *1978*، التي أخرجها «منوشكين» ولعب أدوار الشّخصيّات فيها بضعة وأربعون مُمثّلا من مسرح الشّمس. هنا أيضاً كان اختيار الإطار رائعاً: وسط صمت غابة «فانسان»، في مصنع للخراطيش حيثُ يتمّ تصنيعُ غاز الفنسينيت القاتل. مُستودع كبير تنتصب بداخله خمسُ منصّات مُتّصلة بالأسلاك. في إمكان الجمهور الجلوس على المُدرّجات لصق الحائط أو الوقوف وسط القاعة، أو أن يتّخذوا أماكن على المعابر حيثُ تكون شاغرة. إنّ دواعي المسرحيّة - المكتوبة جماعيّاً من قبل الفرقة بأكملها بعد دراسة جادّة للثّورة - هو أنّ مقاتلين سيُجسّدون وقائع السّنتَيْن اللّتيْنِ تلتا معركة «شان-دي-مارس» سنة 1971: لقد قدّموها كما يمكن أن يتخيّلها الشّعب، ما يسمحُ بكلّ المبالغات والتّهريج والتّأويل الحرّ للأحداث. كانت أحياناً تدور مشاهدُ متزامنة

فوق المنصّات الخمس. وأحياناً يملأ مشهد واحد المسرح بأسره. تلعب الممرّات دور المعابر التي ستسمح للمُمثّلين بالانتقال من مكان إلى آخر وسط الحشد المُتمثّل في الجمهور المُتفرّج. بعد بداية بطيئة نوعاً ما، وُصف خلالها بؤس البلاد، اتّخذ العرض منحى سريعاً لن يتراجع نسقه أبداً حتّى النهاية؛ طرق كثيرة استخدمت في الإخراج. يشير المقاتلون إلى الطّبقات الاجتماعيّة الثّلاث بدمى مكشوفة الوجه، تدبّ فيها الحياة تدريجيّاً. رقصت ماري أنطوانيت وپولينياك ولمبال المشوّهون حول كاغليوسترو Cagliostro[16] المغامر المُخضرم. فجأة خيّم صمتٌ رهيب. ثمّ راح الممثّلون المنتشرون في أرجاء المسرح يتهامسون حول واقعة سقوط حصن لاباستي La Bastille.

لم يكن سوى همس ترافقه موسيقى رائعة، همس مُتقن الفوضى، ما يسمح بسماع نفس الكلمة تُتداوَل، «نيكر»، في أوقات مُختلفة، في أماكن مُختلفة. بدا كأنّ الكلمة تطير في أرجاء المسرح والأصوات تتضخّم، وتطابقت محافظة على الكلمة واضحة في الأسماع، كان ذلك صوت الشّعب المنتصر، صادحاً عبر الأزمنة والأماكن؛ كانت شائعة مُدَبَّرة بمهارة، ناجعة ومُؤثّرة كمقطوعة لباخ Bach؛ هتفت كلّ الأفواه بنبرة ثقة وحماس معاً وتباعاً: لقد أخذنا الباستي! كان من بين أجمل الأوقات التي أُتيحَ لي أن أعيشها. كان في داخلي صدى حميم لأنّي تعرّفتُ في هذا السّرد على القصّة التي تحدّثنا حولها بين الأصدقاء خلال الأمسيات التي تلت المُظاهرات الكبرى، تلك التي ظنّنا أنّها ناجحة وزاخرة بالوعود. انفجر كرنفال عظيم جدّاً، إذًا:

تحوّلت السّقالات إلى أكواخ للّهو، حيثُ تجري مشاهد مصارعة وألعاب ورقص وإيماءات صامتة ترافقها الموسيقى التي تُعزَفُ في الحانات الصّاخبة.

16- كاغليوسترو Kagliostro: رواية بوليسية من تأليف موريس لوبلان ظهرت فيها شخصية أرسين لوبين، نشرت لأول مرة مجزأة على 42 جزءاً.

يُخشى بعد هذه الذّروة من أن ينتهي العرض. لكن لا. بعد اللّوحة الإبداعيّة الجميلة تأتي لوحة غيرُ متوقّعة وجميلة أخرى. كان هناك رقص الإغواء لليلة 4 أغسطس، حيثُ دخل النّبلاء في نوبة كرم مجنونة فخلعوا قبّعاتهم المصنوعة من الرّيش، وملابسهم الأنيقة وتعرّوا بالكامل تقريباً؛ ثمّ، مذهولين، بعد أن انتبهوا إلى هول ما ضحّوا به، سرعان ما حملوا أغراضهم الملقاة على الأرض. شقّت النّساء الباريسيّات الحشد مُلوّحات بفساتينهنّ البيضاء لجلب الملكة التي كانت مُلوّنة الوجه بالأصباغ. بإيماءات هزليّة يُرافقها صوت مسيرة زفاف، راح الأثرياء ينهبون أملاك الكهنة. مشهد أخير مستوحى من المُهرّجين. يجلسُ البورجوازيّون على مصطبة لمراقبة مقلب؛ قبالتهم في مشهد آخر، الحاكم والكاردينال مُرتدين ملابس مُضحكة، كان هناك هرج كبير: مقاتل يخرج النّاس الذين كانوا يحاولون النّيل، بخفّة حركة، من الشّرف والخرافات. صفّق البورجوازيّون وزادوا من التّصفيق أكثر عندما أغلق المُقاتل على النّاس داخل صندوق؛ جزع لمّا رأى الغطاء يُفتَحُ فوق رؤوسهم وصرخ مثل الأطفال: «حذار! حذارِ!» لكنّ الشّعب خنق المُقاتل من الخلف. نجاحٌ غيرُ مسبوق. بعد هرب الملك – الذي تمّ تجسيدُه بمتتالية متألّقة – وفيما كان الشّعبُ يُطالبُ بسقوط النّظام، راح الحُرّاسُ يطلقون النّار على الحشد وانتصر الأغنياء. كان في هذا العرض تكرار مُزدَوج بما أنّ الممثّلين قدّموا أنفسهم على أنّهم مقاتلون وهم أنفسهم لعبوا أدواراً. بفضل هذه الحيلة لم يبدُ أيّ كاريكاتور أو تقليد ساخر خارجًا عن السّياق. في الواقع، خدم ذلك الحقيقة الوحيدة: الحقيقة الشّعبيّة. لم يكن افتراءً أن يتمّ إظهار الملكة والملك يملآن بطنَيْهما ويسكران ويتعثّران فيما كان الشّعبُ يموتُ جوعاً؛ في ذلك الوقت كان الأكلُ لسدّ الرّمق يُعتبَرُ التِهاماً. كانت حكاية تراجيديّة رواها منوشكين وفرقته تحت أنظارنا بكثير من الحرفيّة والمرح والمقالب والأعباء التّاريخيّة: إخماد لهيب الثّورة من قبل الطّبقة الصّاعدة التي لم تُطح بالنّبلاء إلّا لتحلّ محلّهم، حيثُ استبدَلَت أرستوقراطية الثّراء

أرستقراطية النّشأة. لقد تلاعبت تلك الطّبقة بالشّعب الذي لم يفز بشيء على الإطلاق. تمّت البرهنة على ذلك دون أن نشعر، تقريباً، بدقّة كبيرة في سرد نُمُوّ الأحداث. طعن بعضُهم في أن يكون للعرض نزعة ثوريّة بما أنّه يشترط دفع مقابل لمشاهدته؛ مع ذلك، كان هناك من أثار المسألة بغضب وانفعال كبيرَيْن.

يونيو 71، أمكننا، في باريس، أن نتابع عرضاً مُختلفاً تماماً: *نظرة الأصمّ* لروبرت ويلسون. لوحاتٌ قتاليّة تتعاقبُ خلالها صُوَرٌ جامدة وأخرى مُتحرّكة؛ إنّه استحضار كالحُلم لخيال طفل أسود أصمّ وأبكم: ألقى الممثّل بعالمه الخاصّ على الدّور. مثل كلِّ النّاسِ تقريباً – رغم التّكرار والإعادة – فرضها هذا الوهم. لكنّي سرعان ما تأكّدتُ من أنّي لم أُحصّل شيئاً.

امّحت الصّور دون أن تترك في ذهني معنى يجعلني أتذكّر العمل. «شلّالُ الصّمتِ» هذا، كما وصفهُ ريني سوريل، انهمر دون فائدة بالنّسبة إليَّ.

***

تحتَلُّ الموسيقى حيّزاً مُهمّاً في حياتي. لا أذهبُ أبداً إلى الحفلات: أكرهُ الصّرامة الاحتفاليّة. أنتظر حتّى يتمّ تسجيلُ الموسيقى التي أحببتُها. مع ذلك ذهبتُ إلى الأوبرا في مناسَبَتَيْن. أحببتُ منذ زمن «ووزيك» Wozzeck، لـ «بيرغ» Berg، ولم أشأ أن أُفوّت حضورها بقيادة «بوليز» Boulez؛ وجدتها مُذهلة وأعجبني الدّيكور الرّائع الذي أنجزهُ «ماسون» Masson والإخراج الفنّي الرّائع لـ «باروت» Barrault، الذي استوحى عمله من بريخت. من النّادر أن تنجح الأوبرا في الوصول إلى الخلاصة المرجوّة التي يزعمها هذا النّوع. شاهدتُ أيضاً سنة 69 بوريس غودونوف الأوبرا التي أدّتها فرقة موسكو. عمل فنّي أعرفه جيّداً. كان الكورال مُثيراً للإعجاب ولم يكن الممثّلون يغنّون فحسب، بل يعزفون برُقيّ كبير. فخامة الأزياء تُنسي الجانب المتعارف عليه في الدّيكور. لكنّها استثناءات.

إنّ علاقتي الحقيقيّة بالموسيقى هي يوميّة بالأساس. فأثناء الأمسيات التي كنتُ أقضيها مع سارتر، كُنّا نسمعُ الأسطوانات. في الوقت الحاضر، لم تعد الموسيقى تبوح بأسرار مُلهمة، لأنّي معتادة على كبار الموسيقيّين. لكنّها سعادة حقيقيّة أن أستمع إلى عمل قديم أحبّه، أن أعيد اكتشافه، وهكذا استطعتُ سنة 1970 الاستماع إلى موسيقى «مادريغو» Madrigaux السّاحرة لصاحبها «جيزوالتو» الذي نسيتُ اسمَه. أعيدُ إحياء معلوماتي، أحصّل أخرى، أسمع مقطوعات في أيّام جديدة، تتغيّر أحكامي ويتطوّر ذوقي مع مرور الأيّام إمّا قليلاً أو بشكل ملحوظ. إنّها من بين اهتماماتي، وقلتُ هذا من قبل، أن أحوصل ماضِيَّ وأتفحّصهُ بتبصّر.

أمر آخر قلتُه أيضاً، أن أظلّ على اتّصال بما يجري. أتابع باهتمام ما يُنجزه معاصِرِيَّ. أدين بمشاعر سرور لذيذة وجديدة لـ «ستوكوسان» Stockausen، «بيريو» Berio، «نونو» Nono، «هانز» Hanz وآخرين. أمر رائع أن تستمع إلى مُلحّنين في مقتبل العمر علماً أنّ الأعمال العالميّة الكبيرة أنجزها أصحابها في سنّ النّضج أو حتّى في الشّيخوخة. من منهم سيبتعد كثيراً في مسيرته؟ من منهم سيُشار إليه عند نهاية القرن بأنّه الأكبر؟ يثير مُستقبلهم فضولي. إبداعات أخرى - يعرفونها ولا أتوقّعها بالضّرورة - ستُغيّر مسارَ أعمالهم.

على ضوء «كزيناكيس»، أفكّ على طريقتي مقاطع من موسيقى بتهوفن، رافيل وباتوك.

كنتُ، أحياناً، أغامرُ بإدارة زرّ الرّاديو كي أستقطب موجة فرانس موزيك musique-France. ويحدثُ أن أقع على مقطع أحبّه فعلاً: لكنّ ذلك نادر وليس هذا ما أبحث عنه - قالت لي صديقة من قبل إنّ ضريبة الكوكتيل العصري، هي أن نلتقي أشخاصاً لا نرغب في رؤيتهم؛ مع الرّاديو، يُسلّيني أن أستمع إلى موسيقى لا رغبة لي في سماعها. لكنّها متعة لا تدوم طويلاً. أفضّل العودة إلى أسطواناتي.

***

أخشى الخصومة بين أروقة العرض الكبيرة. ثمّ إنّ الأشياء تفقد جُزءاً كبيراً من قيمتها إذا انتُزِعَت من أماكنها. كان معرض الفنّ الزّنجي سنة 66، في القصر الكبير غنيّاً جدّاً، كان بالإمكان تأمّل القطع الرّائعة لكنّها كانت موضوعة بشكل عشوائيّ أفقدها روحها ومعناها. كان ذلك أيضاً خطأ معرض أوروبا القوطيّة (في اللّوفر سنة 67). كانت القاعة مُضاءة جيّداً وكان حُضور الجمهور ضعيفاً ما سمح لي بالتجوّل بحرّية.

أعطت القطع القادمة من جميع أنحاء أوروبا الانطباع بالفوضى. كانت القطع الرّاقدة ممدّدة وسط الباحة وأقلّ تعبيراً من سان-دينيسيس وبورج وديجون، حيثُ كانوا ينامون في الكنائس مُستغرقين في صلاة أبديّة. كانت غالبية المنحوتات تشبه تلك التي أعرفها وكانت تُشبه بعضها بعضاً. كانت هناك قطع مُختلفة من الخشب المصبوغ. أدهشني: كانت جميعها بشعة جدّاً. ما شدّ انتباهي هو مسيح ضخم، أسود، مصلوب على ألواح شنيعة، كان قادماً من «ويستفولي» Westpholie بألمانيا. كان له وجه قطّاع الطّرق وجسم لا ينتهي. ذكّرني بكلّ أولئك التّعساء الذين عذّبتهم ألمانيا وسمّرتهم إلى جذوع الأشجار أو شُنقوا عليها أثناء ثورة المُزارعين. عموماً، أنا أُفضّل، على هذه التّظاهرات الكبيرة، تواضُعَ المتاحف الرّيفيّة التي تمنح رؤية شاملة، متناسقة: پروفان Provins، أوتان Autun، ديجون Dijon وأخرى كثيرة.

سُعدتُ أيضاً بإنعاش عاطفتي في القصر الكبير (لم أكن مُضطرّة إلى زيارة معرض توت عنخ آمون حيثُ اصطفّ الباريسيّون في طوابير طويلة: كنتُ في القاهرة ولم يُرسل المتحف إلى باريس سوى القليل من الأغراض التي عُثر عليها داخل القبر)، سنة 71، بذكرياتي في يوغسلافيا. ذكّرتني صورة فوتوغرافيّة بالألوان مُسقطة على الجدار بالمعالم. وجدتُ نسخاً للوحات بيزنطيّة جميلة، واكتشفتُ تحفاً أجهلها: تماثيل حجريّة وُجدت على ضفاف الدّانوب، ترمز بملامح غليظة إلى رجال أسماك، تعود إلى الحقبة ما قبل التّاريخ؛ عربة بديعة من الفخّار، يجرّها بطّ وتعود

إلى العصر البرونزي؛ رأسُ فتاة شابّة من المرمر، ذات وجه صافٍ وشعر مضفور ببراعة، منحوتة في القرن الثاني لزمننا. سحرتني أيضاً تماثيل سلوفينيّة من الخشب المطلي. قدّيسات ذات ملامح ساذجة، ثابتات في مواقف غير متوقّعة.

أتجنّب الافتتاح رغم تعلّقي بالرّسم وكلَّ سنة كنتُ أقضي بعض الوقت في المعارض أو في المتاحف. سنة 64 حضرتُ معرضاً لنيكولا دي ستايل، الرسّام الكبير الذي فتح فنّه على العديد من المسالك والذي لم يُرضه أيٌّ منها: كان أقلّ ثراءً من ذاك الذي حدّثني عنه قبل سنوات لكنّه كان زاخراً بلوحات رائعة.

أعرف دوبوفي Dubuffet، جيّداً. أحببتُ فنّ التّشكيل الذي ميَّز سنوات 50-60 حيثُ جرّب على القماش الموادَّ عارية: حجارة، جصّ، حمّص، عشب، رمل. مع *باري سيركوس Paris circus*، عاد إلى ثيمات قديمة.

انتقلتُ أوّلاً لرؤية الهورلوپ Hourloupe[17]: أراد من خلال لوحاته المتلاصقة أن «يخدع» الجمهور باللّعب معه لعبة «كوميديا الأخطاء». كانت كلّها مُكوّنة من طبقات مُسطّحة ذات ألوان حاسمة، حيثُ يطغى الأحمر والأزرق وتُحيط بها حدود دقيقة جدّا كحدّ الزّجاج ومليئة بالظّلال السّوداء عادة. أعطى تراصفها للفضاء صبغة تجريديّة. كان المجموع لافتاً وغامضاً: كان يبدو غمّاً تصويريّاً أو لا يبدو كذلك بحسب الزّاوية التي ننظر منها. رغبة في خداع البصر تجعلُ هذا العالم بعيداً عن الواقع؛ مع ذلك، ومن خلال المقاطع الزّرقاء والحمراء للفضاء المُسطّح، كان بالإمكان أن نلمح أطيافاً تتحرّك، رقصات، تموّجات فاتنة ومرحة تتضارب مع السّخافة المؤسفة للوجوه والأجساد. كان عالماً آخر، تافهاً وسعيداً.

بعد فترة، أي سنة 66، أحببتُ اللّوحات البارعة والصّبورة لـ «بيسيار» Bissière؛ التّشكيل الخارق للحمام؛ رسوم «سانجيي» Singier، غير

17- الهورلوپ hourloupe: مجموعة أعمال تشكيليّة قام بها الفنان جان دوبوفي بين 1947 و1974.

التّعبيريّة، لكن ذات الألوان الآسرة، وصفت الشفافيّة والقتامة المياه الزّرقاء والشّعاب المرجانيّة والأعماق البحريّة.

سنة 67 عُرِض قسم كبير من أعمال «بونار» Bonard في سرادق البرتقال Orangerie. أعرف مجمل أعماله الفنّية. هذه المرة أيضاً، فضّلتُ تلك التي أنجزها، كما يقول الرّسامون، «لحظاتٍ متّصلة». بعضها، وقد دفع بها إلى أقصى حدود التّجريد، شكّلت لعبة غامضة بين الأصفر المُضيء والأبيض الشفّاف. مع ذلك فإنّ الطّبيعة كانت حاضرة إمّا في وحدتها الصّامتة أو في خصبها.

تعزّز تعلّقي الشّديد بالخلاصة، عندما أتيحَ لي مرّة أخرى أن أحضر معرضاً لمُجمَل أعمال بيكاسو منذ بداياته حتى اليوم. لم يزد ذلك سوى تأكيد إعجابي واحترازي. إنّ براعة بيكاسو استثنائيّة وآسرة فهو يفعل ما يشاء: لكنّي لا أوافقه مقاصده دائماً. في تقديري، لقد وصل ذروة عبقريّته، عموماً، بين 1930 و1950. كان في ذلك الوقت يعيش ملء عطائه وبحثه وابتكاره. ثمّ صار يُكرّر نفسَه ما عدا بعض النّجاحات الباهرة أحياناً، لكنّها تحوّلت رُويداً إلى فعل ميكانيكي. سُعدتُ أيضاً برؤية أعمال «شاغال» في القصر الكبير Le Grand Palais. رتيبة أحياناً وأحياناً شاحبة، اكتسبت عُمقاً مع مرور الزّمن. «كان عليَّ الانتظار حتّى أصبح شيخاً... كي أفهم أهمّية القماش»، قال. إنّ الأمر يُصبحُ مؤثّراً حقّاً، عندما نُقارن أعماله الفنّية القديمة بلوحاته الأخيرة. كانت الشّاعريّة نفسَها، لكنّ المادّة غنيّة وبات هناك بحثٌ في الألوان واستعمال نفيس للقُماش. إنّ أصالة الأعمال متأتّية من طابعها البيوغرافي الذّاتي. رسم شاغال مدينته التي وُلِدَ فيها، ومنازلها وثلجها وحيواناتها التي ألِفَها في طفولته: أسماكاً، ديكاً، أبقاراً، خيولاً؛ رسم باريس بحبّ كما اكتشفها: المراسي والأسطح وبرج إيفل. مُتشبّعا بثقافته، راح يُجسّد أمثالاً عبريّة ولقطات فولكلوريّة، مناظر طبيعيّة، باقات ورود، حيوانات مُذهلة، فنّاني شوارع وعُشاقاً كأنّهم قادمون من الحلم؛ أحياناً يحلّق النّائم عبر نافذة تُركت مفتوحة. يدعونا الرّسام إلى دخول

عالم أحلامه حيثُ السّمك أزرق والشّعر أخضر وعازفو كمان فوق الأسطح والعرائس مستلقيات في السّماء.

ثمّة رقّة شاعريّة في هذا العالم ذي الأشكال السّاذجة والألوان الصّارخة.

كنتُ على موعد مع سعادة أخرى، عندما حضرتُ، في ستراسبورغ سنة 1968، معرضاً «استِرجاعِيّاً» للرّسوم بين 1918-1920، إنّها الفترة التي رأيتُ فيها هذه الرّسوم للمرّة الأولى بفضل ابن عمّي «جاك».

أذكُر جيّداً تلكّئي وحماسي، في العشرين من عمري أمام لوحات لرسّامين سيصبحون مألوفين لدَيَّ. سرّتني رؤيتهم من جديد لكنّي لم أفاجأ. ما أدهشني هو أنّي بالكاد أعرف رسّاماً أضعه الآن في خانة الكبار: روبرت ديلوناي Robert Delaunay. كان لديْه تأثير كبير على فنّاني فترته ومن بينهم «كلي» Klee. لأشكاله المُعقّدة بألوان سخيّة مُريحة، متوهّجة تبعثُ على البهجة والأمل.

أحبُّ كثيراً لوحات فييرا دي سيلفيا؛ انتظم معرض كبير لأعماله خريف سنة 69 في معرض الفنون المعاصرة. ما زلتُ أحسُّ بعاطفة حميمة تجاه رسومها خلال الفترة الثّانية: لوحاتٌ بيضاء ناصعة أو أنّها رماديّة جدّاً ترمز بخطوطها المُستقيمة والقاسية إلى كآبة المناظر في مدن اليوم.

سمعت كثيراً عن ديلفو Delvaux، لكنّنا لا نعرفه جيّداً في فرنسا؛ لم أرَ سوى بعض النّسخ للوحاته. كان معرض أعماله سنة 69 في متحف الفنون التّشكيليّة اكتشافاً حقيقيّاً بالنّسبة إليَّ. وجدتُني وجهاً لوجه مع عالم من الأحلام، عالم بعيدٍ عن أحلامي وأحياناً قريب منها بشكل مُلغز: عالم يتميّز بهدوء مُقلق، حيثُ الصّادم يبدو مألوفاً، والعالمُ اليومي مُزعجاً. حافلاً بأجساد نسائيّة فاتنة: تحت فساتينهنّ الضيّقة أو أوشحتهنّ البيضاء، كُنّ عاريات أيضاً أو مُحتشمات، يرتدين قُبّعات كبيرة، عقداً، فراءً أو ربطة من شريط حريري. إنّها تُذكّر برسوم «لوكراس دو كراناش» أو التّماثيل النّصفيّة الرُخاميّة الطّافحة بالحياة والجمال في آن واحد. في الضّواحي حيثُ الطّرقات ممهّدة بحصى داكن صغير، تتخلّلها السّكك

الحديديّة: تهتزّ فوقها قاطرات عتيقة؛ جالسات، عاريات في المحطّة الكبيرة تراقبن القطارات. إحداهن جالِسَة، عارية، وسط ممشى، أمام طاولة مكسُوّة بغطاء أخضر مُضاءة بمصباح بترولي يشبه ذاك الذي عرفتُه في طفولتي. رجالٌ يحملون نظّارات، ويضعون قُبّعات على رؤوسهم، يُجاورونهنّ دون النّظر إليهنّ، في شارع تخفقُ فيه شعلات الشّموع أو من خلال الآثار. ففي عالم ديلفو، تُحاذي القرى المُدخّنة مناظر مرمريّة فيها سروٌ أبيض ينمو تحت سماء زرقاء صافية. هنا أيضاً نساءٌ من مرمر أو لحم عاريات أو كاسيات يحلمن بعمق تحت قُبّعاتهنّ فيما يمرّ رجالٌ غير مبالين، رجالٌ قصيرو النّظر أو أعماهم إحساسهم بالأهميّة.

ما انفكّ ديلفو، مثل العديد من الرسّامين، يتطوّر. كانت لوحاتُه المفضّلة لَدَيَّ هي من بين تلك التي رسمها بين 60 و69: لم تكن ألوانه جريئة يوماً. كانت الحقيقة التي يشير إليها قريبة وبعيدة في آن. من بين *أصيلات أثينا* التي أنجزها في الثّانية والسّبعين: نساء عاريات أو نصفُ عاريات، أو واقفات أو مُمدّدات وسط طبيعة عتيقة حيثُ قاطرة تمرّ. ثمّة الكثير من الصّور التي انتزع منها الزّمن ثراءها لكن لم يخلع عنها سحرها، وأخرى ما زالت تسكنُ مُخيّلتي. لقد دُهشتُ لمّا رأيتُ رسومه. أساساً أنا أعتبره أكبر الرسّامين المُعاصرين. أبهرتني أعمالُه. بالنّسبة إليَّ، الرّسمُ هو الألوانُ أوّلاً. «أنا والألوان واحد. أنا رسّام!»، قال يوماً ما بحماس. إنّ لوحاته عبارة عن حفلة ألق وتدرّج بارع. مدن، منازل، حدائق، طبيعة، كلّها في خدمته وكلّها ذريعة كي يحوّل قوس قزح إلى رذاذ: إنّ ما يمنحنا إيّاه في إبداعاته وبسخاء هو سعادة البصر. يستوحي أعماله من الواقع لكنّه يُضيف عليه ويُجدّده. يُحبّ صور الأطفال: «ثمّة حكمة في منابعهم»، قال ذات مرّة. لقد حافظ على تلك الحكمة. لن تنجح تصوّرات الكبار ومفاهيمهم المتصلّبة في تحريف النّظرة. إنّه قبل كلّ شيء النّظر إلى العالم المُتحرّك، الذي ينشأ من الرّسائل والأعاصير. «مغامرة الخطّ»، قال «ميشو» في هذا الشّأن. يكفي خطّ مرسوم ببراعة كي يُخلَق أمام أعيننا

الشّيخ المُفكّر. إنّ ما يسحرُ في *مهرّج المدينة* هو *المجنون الرّاقص، الخالق*، ولوحات عديدة أخرى. إنّها حزمة الخطوط المجنونة والألوان. حتّى اللّوحة المُسمّاة *دواخل* ليست سوى لعبة خطوط، لا يحتلُّ فيها الإنسانُ مكانة مميّزة. القيمة كلّ القيمة للحيوانات والأشكال الحيّة والنّباتات. هناك دائماً معابر تواصُل بينها. قد يُرسَمُ الوجه بالأصداف، بالحشرات والزّهور كما هو حال «الشّادية في دور فيورديليجي». عندما تنتزع من الإنسان مطامعه ويعود إلى حقيقته البسيطة فإنّ ناحية منه تصبح كوميديّة، تافهة ومثيرة للشّفقة، ومُلغزة أحياناً: سينيشيو مثلاً، الذي يذكّر اسمُه بالشّيخوخة وبزهرة القرّيض والذي يظهر لنا وجهاً طفوليّاً قمريّاً.

يمكننا أن نحلم بشأن هذا الاسم، ذلك لأنّه لو كانت رسوم «كلي» تفتقر إلى الأدبيّة فإنّ الكلمات تلعب دوراً كبيراً في فنّه: فهو يقحم في لوحاته رموزاً مطبوعة، صوراً، ويختار العناوين بعناية فائقة؛ تساعد تلك الكلمات على إضفاء المعنى للّوحة. هذا التّبادُل بين اللغة المكتوبة والرّسم، بين كلّ المخلوقات الأرضيّة، بين الطّبيعة والهندسة، هو ما يُكسب عالم «كلي» شاعريّته. ذلك أنّ منهجه هو نقيض منهج بيكاسو الذي تُحلّل ريشته الواقع وتُفكّكه. يستخدم «كلي» الرّيشة كحضور شامل يُحطّم حدوده الظّاهرة؛ كلّ الأشياء مرتبطة بالكوسموس(الكون) ويحقّ للفنّان جعل هذه العلاقة مرئيّة وهو يظهر أوجه التّشابه بين مُكوّناته.

لا نجد في لوحات «كلي» الأخيرة الحبور والظّرف والطّرافة التي في أعماله الأولى؛ لم يعد يتحدّث عن السّعادة قط. مرض سنة 39-40، يعلم أنّ أوقاته باتت معتمة. إنّنا نشعر بوجود الموت في *إنبات بائس*؛ كان الموت مرتبطاً في أعماق كلّ قماش يرسُم عليه. لكنّه مغلوب وجميل بفضل جمال الإيحاء.

قال لي جياكوميتي إنه يكون سعيداً بعد كلّ معرض يخرج منه. لأنّه غرق في الاحتمالات المتنوّعة للحقيقة: يسحره تناقض ذلك مع الضّرورة المحدودة للفنّ. يجعلني «كلي» أشعر بنقيض ذلك. لم يكن شاعراً بحتاً

أو رسّاماً فحسب بل كليهما معاً، ما منحني فرصة تخطّي حدود النّظر إلى العالم المحسوس: ما أعرف عنه، ما أجهل عنه، ما له اسم وما لا اسم له على الأرض. كلّما غادرت معرضاً له أحسستُ بالأرض باهتة. عُرِضت في نفس الفترة مئات اللّوحات لـ «غويا» Goya في سرادق البرتقال Orangerie: لم تكن موجودة في پرادو Prado، إنّها المرّة الأولى التي أراها فيها. غويا هو واحد من بين الرسّامين الذين أحبّهم والذين يُسعدني أن أكمّل ما أعرفه عنهم. قرأتُ الكثير من المؤلّفات حوله وتأمّلتُ نسخاً للوحاته الأخيرة وأنا أشتغل على كتاب *الشّيخوخة*: كان بالنّسبة إليَّ من قبيل الحظّ أن أرى رسومه الأصليّة الرّهيبة لنساء عجائز. لكنّ الكثير من رسومه منحتني بهجة مباشرة: أسرني جمالها. في سرادق البرتقال أيضاً، اكتشفتُ أعمال ماكس إرنست Max Ernest، كنتُ قد تفرّجتُ على لوحات له في نيويورك سنة 1947. ظلّ عالقاً في ذاكرتي السّريالي الموهوب المُجرّب ووجدتُني وجهاً لوجه مع رسّام كبير متأثّر بالسّرياليّة.

فاتني سنة 1969 حضور معرض ريبيرول Rebayrolle، *المُحاربون Les Guérilleros*. كان سارتر قد حدّثني عن لوحاته بحرارة وأتيح لي رؤية نسخ جميلة عنها. زرناه بصحبة بعض الأصدقاء في مرسمه الكائن بـ «مونتروج» Montrouge. أطلعنا على رسومه القديمة ورأيتُ *«المحاربون»* أخيراً. عُلّقت على الجدار لوحاتٌ حديثة. وجدتُها في رواق «مايت» Maeght حيثُ عرض ريبيرول سلسلة جديدة، «تعايُش»، التي كتب عنها سارتر مُقدّمة.

سنة 69، أدان ريبيرول جرائم الإمبريالية؛ لكنّه هاجم الاشتراكيّة هذه المرّة، لكونها مسؤولة عن الجرائم المُرتَكَبَة ليس في براغ أو موسكو فقط، بل تلك التي اقتَرفَت في البرازيل واليونان والفيتنام بما أنّه باسم التّعايُش لم تُحاول الاشتراكيّة منع وقوعها. اختلط الأحمر الذي يوَشّي العلم بلون الدّم الذي أريق من الأجساد الممزّقة. لم يعالج ريبيرول تلك الأجساد المطحونة بشكل إيحائي: لقد فرض على أنظارنا صورها الماديّة بكلّ الرّعب الذي قد يتصاعد منها وبكلّ الغضب الذي في صدره.

إن كانت كلّ هذه الأحاسيس تُعتبَرُ مُحتملة، فذلك بفضل ما يُسمّيه «حيويّة» تلك اللّوحات؛ الفرح الذي استطاع ريبيرول تمريره إلينا من خلال الخوف.

لم نكن نعرف فرانسيس باكون Francis Bacon في فرنسا وكنتُ أجهلُه. نوفمبر 71، ذهبتُ إلى القصر الكبير لرؤية المعرض الذي خُصِّص له. وتلقّيتُ صدمة. «نحنُ جثث مُحتَمَلة. أفكّر في كلّ مرّة أذهبُ فيها إلى الجزّار بأنّه من الغرابة بمكان ألّا أكون مكان الحيوان المُعَلّق». قال باكون في أحد الحوارات. وجدتُني محوطة بكمّ من اللّحم النازف والهياكل المُعذّبة. كانت الأجسادُ على اللّوحات المُسمّاة «صلب» خاضعة إلى بتر وتشويه لا يُحتَمَل. لوحات أخرى أكثر هدوءًا في ظاهرها؛ رجلٌ وامرأة مستلقيان أو جالسان على كنبة: أعضاؤهما متشنّجة ولحمهما يتحلّل، الكنبة هي آلة تعذيب والجدران زنزانة. رسم باكون البورتريه: تكاد تكون صُورُه حيّة؛ أفواهٌ مفتوحة على صرخة. بعضُ اللّوحاتِ هي أكثر هدوءًا: مصارعا ثيران جميلان، منظر عشب رمادي. لكن المجموعة تقدّم صورة مأساويّة ومرعبة عن الإنسانيّة؛ إنّه جسد يتعذّب، سجين يختنق داخل قفصه، يعيش في رعب ويريد أن يصيح. يُعزّز اختيارُ الألوان – الخمري، الرّمادي، الأصفر الباهت – انطباع القلق. «لم أحاول قط أن أبدو مُروِّعاً، قال باكون. أعتقد أنّه ليس علينا سوى أن نرى الأشياء وأن نفكّر في الحياة في عمومها كي نتأكّد من أنّ كلّ ما أنجزتُه لا يُضخّم من أمر الحياة شيئاً».

تكفي قراءة صحيفة كي نعي أنّه مُحقّ. في هذه الدّقيقة بالذّات، آلاف الأفواه تصرخ والأجساد تنزف وتحتضر. المُدهشُ ونحنُ نكتشف، دون رحمة، الحقيقة المرعبة، يصدر عن اللّوحات فرح سببه جمالُ الفنّ مجرّداً من كلّ المواضيع الإنسانيّة.

نادراً ما كنتُ أفوّتُ فرصة حضور معرض مُهمّ للرّسم. لكنّي لا أعرفُ الفنّانين المُعاصرين معرفتي بالموسيقيّين أو الكُتّاب. يعوزني الوقت

كي أحضر كلَّ الأروقة. وغالباً ما أشعر بالملل. أنا مُعجَبَة بـ«الشّادية البصريّة» لـ«فساريلي» Vasarely، لكن ليس مئات اللّوحات المُستلهمة منه. مضى وقتٌ طويل على ابتكار «الصّنع الجاهز» made-ready، من قبل ديشان Duchamp: لا أجد أي أصالة لدى من يتهافتون عليه اليوم. يهمّني الفنّ الثّوري في حالات مُعيّنة. إلّا أنّه آخذ في الازدهار بينما أصبح الرّسمُ بمعنى الكلمة نادراً.

***

هكذا، أستمر في تثقيف نفسي. هل صرت متعلّمة أكثر ممّا مضى؟ لا أكف عن التعلّم، لكنّ معارفي آخذة في التطوّر في نفس الوقت الذي راح فيه جهلي يتفاقم. يتسرّب من ذاكرتي قسمٌ كبير من المعرفة المُخزّنة بداخلها. خسرتُ الكثير، خصوصاً، بين الخامسة والعشرين والخمسين: تقريباً كلّ ما أعرفه في الرياضيّات، اللّاتينيّة، اليونانيّة. لم أعد أذكُر من المناهج الفلسفيّة التي درستُها قديماً سوى الخطوط العريضة فقط ولم أقرأ المؤلّفات التي خُصّصت لها خلال العشرين سنة الأخيرة. في الأدب، أشعر دائماً بأنّي لا أزالُ قريبة من الكُتّاب الذين أحبّهم. بالنّسبة إلى الموسيقى والرّسم، ما أنفكّ أطوّر معارفي وأجذّرها: تعلّمتُ الكثير من خلال السّنوات الأخيرة. عموماً أنا أتموقع في العالم أفضل ممّا كنتُ عليه في الأربعين من العمر. صرتُ أفهم بنية المجتمع ومجرى التّاريخ بشكل أفضل؛ وصرتُ أقرأ المقاصد وردود أفعال الأفراد بشكل أفضل أيضاً.

لكن، في نظري، ما قيمة الثّقافة التي حصّلتُها اليوم؟ أعترف بأنّي لستُ من أولئك المُثقّفين الذين هزّتهم أحداثُ مايو 68 في العمق. وأنا أنهي كتابة *سلطة الأشياء* سنة 62، كنتُ واعية تماماً بالتّناقُض الذي أدانه سارتر (في حوار مع صحيفة *الأحمق الدُّولي* الهجائيّة وأعادت نشره *أوضاع VII*) بين مقاصد المُثقّف ومراميه الكونيّة وبين الخصوصيّة حيثُ يغلق على نفسه. من جديد، أربكني ذلك، وأنا أشرع في هذا الكتاب. أنا أستخدم أداة كونيّة، اللّغة، يفترض إذًا، بأنّي أوجّه خطابي إلى كلّ الناس:

لكن جمهوراً ضيّقاً فقط يسمعني. إنّ عدداً كبيراً من الشّبان، هذه الفئة التي أتمنّى الوصول إليها، يجدون في القراءة عمليّة لا فائدة منها. لم تعد الكتابة تبدو لي مُميّزة للتّواصُل مع الآخرين، مع ذلك وصلتُ بهذا الكتاب إلى منتهاه وسأفعل مع مؤلّفات أخرى دون شكّ: قد أطعنُ في الكتاب الذي في داخلي لكنّي لن أتخلّص منه أبداً. لا أقدر على إسقاط ماضِيَّ وإنكار ما أحبّ. لقد تعلّمتُ خلال حرب الجزائر أن أحذر الموسيقى والرّسم وكلّ الفنون التي تخفي آلام النّاس بتجميلها؛ إلّا أنّي أحتفظ لها بمكانة هامّة في حياتي، لا أومن بالقيمة المُطلقة والأبديّة للثّقافة الغربيّة، لكنّي منها نهلتُ معارفي وبها سأظلّ متعلّقة. أتمنّى ألّا تزول وأن تمرّ في أبعادها الكبرى إلى الأجيال الصّاعدة. أتفهّم أن يرفض أغلب المراهقين بعضاً من جوانبها وأن يشعروا بالثّورة تجاه المناهج المتّبعة في تلقينها. لكن، هل من طريقة لمدّهم بما ظلّ وجيهاً منها، وبإمكانه مساعدتهم على الحياة؟

هذا صعبٌ، أعلم ذلك. العديد من أصدقائي مُدرّسون: بيانكا، سيلفي، كورشاي، وآخرون، وكثيراً ما ناقشنا مشاكلهم. تختلف أوضاعهم عن وضعي الخاصّ سنوات الـ30. هذا إيجابي في بعض النّواحي. يُخوَّلُ للأستاذ أن يعالج المواضيع التي تهمّه بحرّية أكبر وأن يلامس الأحداث الرّاهنة. لم يعد هناك تابوهات جنسيّة عليه احترامها. كان تلاميذي في الرّابعة يهزأون بضحك مكبوت عندما يقرأون في نصّ لاتيني عبارة «فخذ» وأذكر انزعاجي عندما يكون علَيَّ أن أشرح لهم في الفلسفة بيت فاليري الذي يقول فيه «الصّراخ الحادّ للفتيات المُداعَبات». أُجبرتُ كي أشرح لهم التحليل النّفسي، على القيام ببعض التّحريف. تُناقَشُ تلك المواضيعُ، اليوم، بوضوح وبساطة أكبر. لكنّ الفائدة ضعيفة، قال لي بعضُ أصدقائي، أخذاً بعين الاعتبار المقاومة التي يجدها المُدرّسون من قبل تلاميذ المعاهد لتلقّي العلم، خصوصاً الفلسفة.

بات الفصلُ ممتلئاً أكثر من ذي قبل، وهذا يجعل مهمّة التعرّف على كلّ

تلميذ أكثر تعقيداً لأنّ إثارة النّقاش سُرعان ما تحوّله إلى صراخ وفوضى. عندما يكون أمامي من عشرين إلى ثلاثين تلميذاً فإنّي أتركهم يُعبّرون كما يشاؤون؛ يفتكّون الكلمة بعضهم من أفواه بعض، يتواجهون صاخبين: لكنّي لن أجد صعوبة في بسط سيطرتي عليهم؛ مع أربعين تلميذاً يُصبح الأمر مُضنياً جدّاً. لكنّ العامل الرّقمي ليس هو المحدّد الوحيد. المسألة أبعد من ذلك.

حدث أن درّستُ في فصول ممتلئة لكنّهم كانوا مُنضبطين وحيويّين. إنّ طريقة الخطاب هي التي تغيّرت جذريّاً وحالت دون إنجاح الحوار.

ما يُعجبني، عندما أدرّس الفلسفة، هو أن أجد أمامي عذريّة عقول في هذا الحقل؛ أراهم رُويداً ينتبهون، ينفتحون ويثرون زادهم وإذا حدث أن عارضني أحدهم أو بعضهم فمن باب ما علّمتهم إياه. اختلف الأمر اليوم. لكنّ تلاميذ المعاهد أصبحوا أكبر من زماننا وهم يتابعون التّلفزيون منذ سنوات ويقرأون الصّحف، لذا فهم يعتقدون أنّهم يعرفون كلّ شيء أو – والأمر سواء – يعتقدون أنّهم لن يتعلّموا أشياء جديدة عن أيّ شيء. على أيّ حال، الإنسانُ هو ظرفُه، يقول البعض: ما الجدوى من التعلّم والتّفكير، إذًا؟ إنّهم يحترسون من الكبار ويبدو لهم أنّ كلّ ما يقوله الأستاذ لا قيمة له. لا يخطر لهم أنّ البداهات التي يقابلون بها أساتذتهم، الكِبارُ هم من علّمهم إيّاها عبر الهجوم الإعلامي، دون شكّ. وكردّة فعل أصبح لا يهمّهم من هذا المجتمع التكنوقراطي سوى العلوم الغامضة والمخلوقات الفضائيّة. لكنّهم عموماً، يفتقرون إلى الفضول. حسب المعاهد، ما يصفه لي أصدقائي أكثر أو أقلّ خطورة. لكن كانوا جميعاً يشتكون من قلّة المشاركة في الفصل. الذين يدرسون في مُستويات السّادسة والخامسة يتحدّثون عن علاقة أفضل مع التّلاميذ؛ إنّهم ينجحون في شدّ انتباههم وحثّهم على ردّ الفعل؛ لكن شرط عدم الانغلاق على البرامج التي لا تلائمهم وابتكار علاقات جديدة معهم دون احترام التّراتيب واللّوائح المُقرّرة. يقود هذا إلى تصادم مع الإدارة والأولياء.

بات التّعليم الذي كان بالنّسبة إليَّ متعة خالصة، عملاً شاقّاً وغير مثمر. ذاك أنّ هناك تضارباً صريحاً بين حاجة الشاب والغذاء المُقدّم إليه؛ لقد تحوّل المعهد إلى مكان للإكراه، يُلزَمُ فيه المُدرّس والمُتعلّم على حدّ السّواء على المعاناة. إنّ الوضع متعفّن أكثر من أن يُحسّنه أيّ إصلاح؛ ستكون ثروة حقيقيّة، أكثر من ضروريّة، يمنح فيها الشاب فرصة الرّغبة والوسائل كي يندمج في المجتمع: يجب أن ينشأ مجتمع مُختلف حيثُ يخضعُ تكوين الأجيال الجديدة من قِبَلِ القديمة إلى تصوّرات جديدة.

في الواقع الحالي، أفهم ألّا يعلق اليافعون رهاناً يذكرُ على المعرفة: مع ذلك يؤسفني ما آلت إليه الأمور. بالنّسبة إليَّ، وقلتُ هذا سابقاً، يظلُّ فضولي حيّاً. أشرتُ إلى أغلب مجالات تدخّلها. سأتحدّث عن مجال آخر: السّفر.

الفصل IV

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحبّ السّفر، تماماً كذي قبل. فقدتُ رغبتي في ذلك سنة 1962، لكنّي استعدتُها. زرتُ وعدتُ إلى زيارة أماكن عديدة خلال السّنوات الأخيرة. ماذا أضافت إلي هذه الرّحلات؟

بداية إنّها ضمن المشروع الكبير الذي تعلّقت به همّتي: المعرفة. إنّ مجرّد النّظر لا يكفي، بطبيعة الحال؛ قد نعبر مُدناً أو أريافاً دون أن نفهم شيئاً. كي أستوضح عن بلد، لابدّ من القراءة والمحادثات حوله، لكنّها لم تكن لتمنحني حضور الأشياء وحرارتها. حين أنخرط في المشي بين النّاس، في الطّرقات والشّوارع فإنّ المدينة وسُكّانها يُصبحون موجودين بامتلاء تعجز عن وصفه الكلمات. ثمّ بعد ذلك أهتمّ أكثر بالأماكن التي ارتبطت بها حياتي من تلك التي لم أعرفها سوى من خلال الجُمل. عموماً فإنّ الرّحلات العلميّة تخضع إلى برامج مُعدّة سلفاً، من طرف أشخاص وَجّهوا إليَّ دعوة أو لعبوا دور الدّليل؛ ويحدث أحياناً أن تمثّل النّشاطات المُقترحة عليَّ عبئاً ثقيلاً.

لكن غالباً ما أشعر بأنّي أتلقّى هدايا لن يكون عليَّ سوى قبولها. في حالات أخرى، أختار التنزّه على التعلّم، حينها، عادة، أقرّر وجهتي بنفسي؛ عندها أشعر بنفس المتعة التي كنتُ، قديماً، أجدها في تجوالي على القدمَيْن. متعة الخلق. ومازلتُ سعيدة بمصادفة مواقع أو معالم لم تكن على الخريطة سوى رموزٍ مُجرّدة.

السّفر هو أيضاً مغامرة شخصيّة: تغيير في علاقتي بالعالم مكاناً

وزماناً. يبدأ عادة بنوعٍ من التّسلية: تملؤني الأماكن والوجوه الجديدة بالإثارة وأشعر بأنّي أُسرَقُ من نفسي أمام حجم الرّغبات التي تجتاحني وأسارع إلى إشباعها. أحبّ هذا الالتباس. لديَّ أصدقاء يجعلهم اللّقاء الأوّل مع مدينة كبيرة يدخلون في نوبة من قلق؛ أنا أشعر بالحماس. أنا يقين، بفضل عادة التّفاؤل من أنّي سُرعان ما أنجح في التغلّب على الحقيقة الجديدة التي تغمرني. تنتزعني الوفرة من نفسي وتمنحني وهناً بالمطلق اللّامتناهي: لوهلة يتقوّض وعيي بأنّ بيني وبين الأشياء حدوداً. لهذا السّبب تُعَدُّ تلك اللّحظات نفيسة.

إنّ السّاعات المُميّزة هي تلك التي أسير فيها بسيّارتي – أو نادراً – في القطار. يكشف لي كتابٌ أو فِيلمٌ خفايا العالم دون أن أتدخّل أو أبرح مكاني: أنسى وُجودي الخاص. في السيّارة أنا هناك ولديَّ انطباعٌ بأنّي أُحفّز نفسي عن طريق الانتقال الجسدي والمشاهد التي أراها: ثمّة في الحركة أمر ما مبهج حين يتّحد مع مرور الوقت وتغيّر الفضاء الزّاخر بالمعنى. إنّها ذكرى الماضي والمستقبل الواعد الذي يمنح الكائن وهم معانقة ذاته. حين تنزلق سيّارتي في الطّرقات أشعرُ بأنّي على تخوم الذّكرى واليقظة؛ أحتفظ بآخر صورة فيما يقودني فضولي إلى اكتشافات جديدة؛ أنا ذاكرة وترقّب، حاضرة بقوّة إزاء ما يُفلت منّي وما يلوح لي. مع مرور الزّمن، يصبحُ هذا الهروب الدّائم إلى الأمام أمراً مُتعِباً. أتمنّى الوقوف مع السّعادة التي يمنحها السّفر: سعادة التأمّل. إنّ التّحديق في الأشياء يتيح لي وهم معانقة ذاتي: أنا أنصهر مع الشّيء الذي أراه؛ أستعير منه استمراره وواقعيّته. أنا أعيش لحظة تختزل الأبديّة.

حين أقف أمام تمثال أو محراب في كنيسة – ما نُسمّيه تحفة فنّية – فإنّي أحاول أن أفهم مقاصد مبدِعِه ومعرفة الأدوات التي استخدمها لإنجازه؛ عندئذ يتوجّب عليَّ أن أُنَسّب العمل في سياقه التاريخي والاجتماعي وعلى دراية بالتقنيات المُستخدمة: أستدعي ثقافتي التي ستثرى دون ريب بعد هذه التّجربة الجماليّة الجديدة. إنّه بطريقة غامضة أو صعبة التعريف،

عادة، ما تتاح لي المشاهد المُحتملة: الطبيعة، الشوارع، الحشود، والأعمال الفنّية ذاتها عندما أعاملها كعناصر ضمن الدّيكور تماماً مثل السّماء والأشجار. في هذه الحالة، ما من مقاصد مُسبقة رتّبت مجمل ما أدهشني: أنا من زوّده بالمعنى وأنا أتّخذ منه شبيهاً لشيء آخر. على المرء أن يكون لا مبالياً بأبناء نوعه أو حتّى يكرههم كي ينعم بجولة تكون فيها ذائقته حرّة تماماً. ستكون رحلة رتيبة كئيبة، إن نحنُ لم نُحاول فكّ الرّموز والإصغاء إلى التّلميحات والرّسائل التي تعيدنا إلى تاريخنا وأنفسنا وإلى الفنّ والأدب، إن لم توقظ بداخلنا توارداً للأفكار، إن لم تقترح علينا الهرب، إن لم تُطالبنا بالخلق.

أحياناً أرى ضرورة نشوء عمل فنّي، فقط، لمجرّد تأمّل احتمال معطى ما. يبدو لي، مثلاً، من خلال يوم شتوي جميل يتأخّر فيه الفجر حتّى المساء، أنّي إزاء واحدة من لوحات «بروغيل» Breughel. أو أبتكر، انطلاقاً من هذه الباقة لوحة لم تُرسَم قطُّ. هذان الرّجلان اللذان يمشيان فوق العشب على طول مصبّ السّين Seine، أتبعهما بعَيْنيَّ، مائلة على نافذة غرفتي بالنّزل، أنا أتابع فِيلمًا سينمائيّاً رائعاً جدّاً. في اللّيل خلف الزّجاج المُشع بالأضواء الحمراء، البرتقاليّة، الصّفراء، وفي حميميّة السّتائر الثّقيلة، ينتهي يوم شخصيّات الرّواية. تأتيني صافرة القطار المارّ عبر دروب جبليّة مُظلمة من عمق عالم حقيقي. لهذا في وسعي أن أكون سعيدة من بعيد، بالأماكن والأشياء التي لا أتمنّى امتلاكها. ساحة في مقاطعة: لحظة، أجد متعة في التنزّه تحت أشجار الكستناء، أن أرتاد المقاهي؛ سأكون مذعورة جدّا لو كان عَلَيّ أن أُنفَى فيها. حين أمرّ، في سفري، أمام منازل جميلة - فيلات ريفيّة على الطّراز الفرنسي، مزارع، شاليهات على منزلق جبلي - فإنّي أشعر بالحنين؛ أرغب في الجلوس في تلك الحديقة، أن أسند مرفَقَيَّ إلى تلك الشّرفة وأن أشعر بأنّي في بيتي؛ أرغب في ذلك، لكنّي لا أتمنّى أن يتحقّق. لا أريد أن تتحقّق لذّة الحلم تلك.

هذا ما يُغريني في السّفر: الحياة الحالمة التي تطغى على الحياة الحقيقيّة. أروي لنفسي قصصاً وألعب لعبة الخروج من جلدي. مع ذلك، ومنذ زمن، لم أكن أجد متعة في وميض المظاهر. أحبّ أن أعرف حقيقة كل مكان أمرّ به، قبل كلّ شيء.

ثمّة، بشأن هذه النّقطة، فرق كبير بين صِنفَيْ السّفر اللذين ذكرتُهما قبل قليل. أنا فقط أستمتع بالملذات التي تحدّثتُ عنها. لكن حين أقرّر معرفة كلّ شيء عن بلد ما فإنّي أزوره، ألتقي أناساً كثيرين، أسأل عن مشاكله السياسيّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة؛ حيث أتجوّل فعادة يكون ذلك في بلدان أعرف عنها معلومات نظريّة لا بأس بها. يهمّني اغتنام حقائقها حول نقاط مخصوصة. فمثلاً، لَشدّ ما تعلّقتُ بالمواقع والمعالم. سأتحدّث أوّلاً عن هذه الاكتشافات المُبهجة.

قديما كنتُ شديدة النّهم لكلّ ما قد يُلهِمُني. اليوم – ومنذ سنوات خلت – باتت سعادتي تكمن في النّظرة الثّانية. النّظرة الثّانية: على حساب الجديد، هي أن أمزج العذوبة الذّاوية لذكرى الماضي المُستَحضَر بالبريق الذّهبي للاكتشاف. لم تكن الأشياء مطابقة قط للفكرة التي أحتفظ بها عنها؛ أو أنّها تمنحني صورة مُختلفة. أحياناً يحزنني هذا التّصادُم: أتحسّر على سلام القرى القديمة، عزلة المواقع الأثريّة الصّامتة التي غزتها مبانٍ بشعة، هدوء المعالم الرومانيّة التي تحوّلت إلى مواقف سيّارات، النّعومة المريرة للأرياف التي زحفت عليها الخرسانة. لكن الوقت ليس هدّاماً دائماً؛ رأيتُ في فرنسا وإيطاليا ويوغسلافيا لوحات جداريّة تُرمَّم ولاحظتُ عناية بمعمار أخفاه أو دمّره الإهمال أو الكوارث. عرفتُ، في السّفر، متعة التّصالح مع شخص عزيز: عادة سارتر، أحياناً سيلفي. في الصّفحات القادمة سأقول دون اكتراث *أنا* أو *نحنُ*؛ فعلاً، باستثناء فترات قصيرة، فأنا عادة مرافقَة.

استمررنا أنا وسارتر في قضاء جزء كبير من الصّيف في روما. جهّز نزل البرغو ناشيونالي، الواقع في عمق ساحة مونيشيتوريو Montecitorio،

بمحاذاة مجلس النوّاب، غرفة بُمكيّفات الهواء: هناك كنّا ننزل. أحببتُ العيش على أطراف المدينة، لكنّي أفضّل السّكن في قلبها. كنّا نتناول فطور الصّباح قبالة الپانتيون Panthéon ونحنُ نقرأ الصّحف. من تلك السّاحة انطلقنا في اكتشاف روما ما قبل أربعين سنة. نزلنا في العديد من فنادقها أو في فنادق قريبة منها. لم يتغيّر الدّيكور، وكان الشاب نفسه هو الذي يقدّم لنا القهوة: استحال شعرُه الأشقر أبيضَ. غير أنّ بعض التّفاصيل كانت تطرأ على وجه المدينة. سنة 64 كان برج مونيشيريو مُغطّى بالسّقالات ومحوطاً بالحواجز. كان مُهدّداً بالانهيار وكانوا يقومون بترسيخه. افتُتِحَ بارٌ جديد اسمُه نافونا في السّاحة التي تحمل نفس الاسم: مساءً، تُضيء مصابيحها من خلف السّتائر الحريريّة. بعد الظّهر نخرجُ للتنزّه قليلاً. نزور أماكننا المُفضّلة، نعيدُ اكتشاف البعض الذي بدأنا ننساه. قصر «سانت-أونج» من الدّاخل؛ المنزل الذّهبي، الطّلاء والزّينة التي أوحت لكبار الرسّامين في عصر النّهضة ليرسموا ما سنُسمّيه فيما بعدُ بالـ«غريب»؛ سانت-أنياس وسانت-كونستونس التي أسرنا فسيفُساؤها السّاذج طويلاً. رأينا من جديد السجّاد في كنائس مُختلفة وبتنا نُحبّها أكثر من ذي قبل. أحياناً كنّا نستطلع الضّواحي التي اجتاحت البادية الرومانيّة بسرعة، حتّى وصلت إلى جبل ألبان Albain. «حزام إسمنتي: حتّى مناخ روما تغيّر»، قال لنا باچيتا. أو أن نبتعد حتّى نبلغ «أوستي» Ostie، «تاركينيا» Tarquinia، «سيرفيتيري» Cerveteri، القصور الرّومانيّة Castelli romani، سنة 64، اتّخذنا الطّريق السيّارة التي تعبر «لا صابين» La Sabine، أسفل القرى الجاثمة في الأعلى التي كانت تشرف أحياناً على بعض البيوت الواطئة.

تناولنا الفطور في أورفيتو Orvieto وشاهدنا أعمال سنيوريلي Signorelle ثانية. كم أنّ الذّاكرة قاصرة! من تلك الجداريّات، التي رأيتُها مرّات عديدة، لم أعد أذكر سوى *انبعاث الأجساد*؛ طبعاً هو عمل أخّاذ؛ لكن ليس أكثر سِحراً من *الجحيم* بكلّ تلك الشّياطين ذات المؤخّرة الزّرقاء، الذين يُعذّبون المحكومين بغبطة، كبار الملائكة المسلّحين

الذين يُشبهون الفرسان الهمجيّين لألكسندر نيوسكي. الملائكة المُجنّحة التي تنزل من السّماء كالقذيفة فتبدو كأنّها تخرج من فِيلم خيال علمي. وكيف نسيتُ المسيح الدجّال بوجهه المُزيّف الشرّير وهو يخطب أمام جمهور مخدوع؟ مفاجأة أخرى: كنتُ قد زُرتُ، قديماً، هذه البئر التي ينزل منها سُلّمان حلزونيّان، باستطاعة أحمرةٍ النّزولَ عبرهما لإحضار الماء، من عمق يصل إلى ثلاثة وستّين متراً. من الأعلى، هناك منظر آسر لم تعد ذاكرتي تسعفني منه شيئاً.

إلّا أنّنا، مع ذلك، كنّا نقضي ساعات طويلة في غُرَفنا. عادة لم أكن أعمل. كنتُ أسبح في روما، كالكثيرين مُستمتعة بالحرارة والبحر. من نافذتي، كنتُ أرى الأسقف القرميديّة والأجمات والشّرفات المتخمة بأصص الزّهور التي كانت متديّنةٌ تسقيها كلَّ صباح. كنتُ أحياناً أتأمّل هذا المنظر الحضري الجميل. كنتُ، أغلب الوقت، أجلس على الأريكة مُستمتعة بهواء المُكيّف اللّطيف، أرنو إلى زرقة السّماء بين صفحَتيْن من كتاب. أقرأ كثيراً في روما. أحمل معي المؤلّفات التي فاتني أن أقرأها لضيق الوقت والتي أرى من الضّروري الاطّلاع عليها؛ أو كتباً قديمة أهملتُها أو نسيتُها. وأيضاً كنتُ ألتهم الرّوايات البوليسيّة بالفرنسيّة والإنجليزيّة وخصوصاً بالإيطاليّة. إنّها طريقة كي أشغل نفسي دون أن أغيب تماماً. لم أكن أصدّقها كثيراً حتّى لا أبتعد عن روما؛ مع ذلك فإنّ مجريات الأحداث تملأ الوقت. الأوقات الأكثر قيمة لديَّ هي الأمسيات التي تمتدّ إلى وقت متأخّر من اللّيل. كُنّا نتناول العشاء، ثمّ نحتسي بعض الكؤوس في الأماكن التي نُحبّها. نترك نافورة «بيّاع الرُضّع» في ساحة سان-أوستاش حيثُ أحاط بها الضّحك والصّراخ. كُنّا نُفضّل ساحة نافونا، ساحة سانتا ماريا. للأسف أصبحتْ – حتّى سنة 67 – تجتاحُها السيّارات وحافلات السُيّاح وتُجّار الكُرات الحمراء ورسّامو البورتريه والكاريكاتور. كانت ساحة بانتيون حيثُ فُتح بارٌ جديد، أكثر هدوءًا وكنّا غالباً ما نرتاح هناك. يحدث أن تختنق حنجرتي لجمال اللّيالي الرومانيّة رغم أنّ مشاعري تعقّلت بفعل

السّنين. كانت هناك عربتان رابضتان على طول الجادة، في ساحة نافونا، بين النّوافير الحجريّة والمنازل الحمراء؛ انعكس اللّون الأحمر للعجلات بقعاً عنيفة على الهيكل الأسود اللّامع وأحسستُ بسعادة لا تفسير لها، حادّة كالقلق: «إنّها كآبة معكوسة»، قلتُ لسارتر. إنّ حضور العالم، وهو يبهرني، قادر على أن يظهر خواء غيابي في المستقبل.

أحياناً، عندما نكون على الشّرفة، يُحيّينا أناسٌ أو يطلبون منّا توقيعاً. يفعلون ذلك بعفويّة كبيرة. في شارع قريب من الفندق – حيثُ يقدمون أفضل مثلّجات في روما، لكنّه ضيّق إلى درجة أنّ السيّارات تكاد تلامس الطّاولات – فجأة توقّفت سيّارة حمراء. اندفعت منها امرأة شابّة أنيقة تلبس الأحمر: «أنتِ هي أم لستِ هي؟» ابتسمتُ دون إجابة. عندها قالت بالفرنسيّة: «أنتِ سيمون دو بوفوار؟ – نعم». أمسكت معصمي وحرّكته ضاحكة وانطلقت راكضة نحو السيّارة. أحياناً كان شباب يطلبون من سارتر مواعيد، خاصّة ثوّار أمريكا اللّاتينيّة. عندما يمرّ أصدقاء فرنسيّون من روما، نمضي معهم بعض الوقت. وكنّا نرى إيطاليّين أيضاً. انتقل كارلو ليفي إلى مكان آخر. أصبح يسكن وسط متنزّه نصف عمومي، ورشة كبيرة مليئة بالكتب واللّوحات: دعانا مرات عدة للغداء. كنّا، أيضاً نلتقي مسؤولين اشتراكيّين: پاچيتا؛ إلى غاية السّنة التي مات فيها، وأليكاتا؛ روزانا روساندا الذي أشرف على السّياسة الثّقافيّة في زمن توغلياتي Togliatti، والذي كنا نتّفق معه جيّداً. كنا نودّ لو أنّ الثّقافة في فرنسا داخل الحزب الاشتراكي كانت بين أيادٍ حكيمة.

انطبع صيف 64 بموت توغلياتي. قبل موته بأيّام كتبت الجرائد عن خبر تعرّض سيغني Segni ورئيس الجمهوريّة وتوغلياتي إلى هجوم. لم يكن هناك حديث حول الأوّل الذي تعافى، لكن، خلال أيّام، كانت العناوين العريضة والمقالات الطّويلة تتحدّث عن توغلياتي. سقط أثناء رحلة للاتّحاد السوفيتي ودخل في غيبوبة. ذات صباح غطّت اللّافتات جدران روما: *توغلياتي مات*. التقى به سارتر الكثير من المرات؛ كان يجده

مُثقّفاً حقيقيّاً بالإضافة إلى كونه رجل ميدان، خصوصاً أنّه استطاع ضمان استقلاليّة الحزب الاشتراكي الإيطالي عن موسكو. كان الشّعب يُحبّه. كادت محاولة الاغتيال التي تعرّض لها بعد الحرب أن تأذن بعمليّات انتقام دمويّة. هو من همس من فراشه بكلمات تهدئة: «لا مغامرات، أيّها الرّفاق، لا مغامرات». اضطرب لموته العُمّال الإيطاليّون. نُقل جثمانه إلى روما؛ سُجّيَ في مقرّ الحزب تحت أعين الرّفاق. أُغلِق الطّريق وكانت حشود هائلة تتوافد لتمرّ من أمام التابوت: كان هناك رجالٌ كثيرون يبكون. يوم الدّفن لفظت حافلات عدداً من القرويّين في ساحة پانتون؛ كان أغلبهم يُمسكون في أيديهم بقوارير من النّبيذ الأحمر وكانوا يحتسونه بجرعات كبيرة. وصل كلود رويْ ولوتي پيلون من سان جيمينيانو؛ احتشد مئات الفلّاحين في حافلاتهم يُغنّون «العلم الأحمر» Bandiera rossa، بينهم من كان يزور روما للمرة الثانية في حياته، في المرّة الأولى، جاء ليُشارك في احتجاجات محاولة الاغتيال التي راح ضحيّته توغلياتي. ثمّ سرعان ما رأينا جماعات يتظاهرون في الطّرقات مُرتدين الأعلام الحمراء. علّقوها على الجدران فيما راحوا يحتسون القهوة في شرفات المقاهي أو قاعدين على حافّة الرّصيف كأنّهم يُخيّمون. كثير منهم تجمّعوا في ساحة فينيسيا تحت الشرفة التي كان يخطب منها موسوليني. شمسٌ كبيرة أضاءت الكرنفال الجنائزي. صعدنا مُدرّجاً، أسفل عمود «تراجان» Trajane في انتظار موكب الدّفن. قافلة هائلة سارت إلى الكوليزي ومن هناك رفرفت الأعلام الحمراء. وراء النّعش، مشت زوجة توغلياتي وابنته بالتبنّي، أعضاء مُهمّون في الحزب يتبعهم حشد كبير. دامت المسيرة حتّى حلول اللّيل، لكنّنا غادرناها قبل النّهاية. كانت كلّ شوارع روما وطرقاتها تعيش الجَيَشان وامتلأت شرفات المقاهي برجال يلبسون الأسود.

السنة التي تلتها، وخلال إقامتنا، اجتاحت إيطاليا فيضانات عنيفة. غمر السّيل الطّريق السريعة الرابطة بين أوفيتو وفلورانسا؛ جرف السّيل سيارات بأكملها: غمر ثمانية سُيّاح. في روما، إن كنت تتجوّل في قلب

المدينة فلن تشعر بما يدلّ على كارثة. لكنّ جزيرة «تيبر» Tibre، كانت نصف غارقة. مُنِعَ المرور من فوق جسر ميليفو Milivo: كان يمر تحت قوسه نهر مَطرب. دُمّرت ضاحية پورتا پريما بالكامل تقريباً: فَقَدَ السكّان أملاكهم ووجدوا أنفسهم دون سقف يؤويهم. في ذلك الصّيف زُرتُ بومارزو Bomarzo للمرة الأولى. أدهشت الوحوش الباروكيّة التي ابتدعها نحّات سادي خلال القرن الثامن عشر مُكتشفيها، في طبيعة لا يتوقّع أن يُعثَر فيها على شيء. وجدتُ المنحوتات غريبة؛ لكن حاليّاً، وُضعت في متنزه مهيّأ للسُيّاح؛ رومانيّون كثيرون يتنزّهون فيه وأدهشني أنّ أحداً لم يُحدّثني عنه.

من روما وقبل العودة إلى باريس، قمنا بجولات بالسيّارة، زرنا خلالها بعض مُدُن إيطاليا. كانت خلاصة ختاميّة وإعادة اكتشاف في آن: تتطابق الحقيقة مع بعض ذكرياتي عنها لكنّ إعادة رؤيتها تضيف أشياء جديدة. في بيروز Berouse، جلسنا في الشرفة التي استمتعنا فيها بمثلجات المشمش ثلاثين سنة خلت حيث طبيعة مُذهلة امتدّت تحتنا. لكنّي نسيتُ قناة الماء الغريبة التي تشقّ المدينة؛ ولم أكن أعرف الطريق تحت الأرض. ومنازل القرن السادس عشر على جانِبَيْ روكا پاولينا Rocca Paolina. زرتُ بولونْيْ Bologne التي أعرفها جيّداً؛ لكنّي كنتُ أجهل واحداً من أجمل اكتشافاتي يومها: ساحة س. ستيفانو، المحفوفة بالقصور والكنائس؛ تعود اثنتان من الكنائس إلى القرن الحادي عشر. كنيسة «المحنة» Calvaire، المبنيّة على شكل قاعة مُستديرة تعود إلى القرن الثاني عشر، وهي ذات تصميم معماري مُؤثّر وصافٍ جدّا. في پادو Padoue، كانت لوحاتُ جيوتو مألوفة عندي، لكنّي لا أذكر أعمال مونتينيا Montegna. إنّ مانتو، فيرون، وكريمون تتشابه: لكنّ ثراءها ونضارتها وحضورها تطغى على الصّور القديمة التي أحتفظ بها عنها.

سنة 66، مكثنا في إيطاليا فترة أقل من المعتاد فقد كان علينا الذهاب إلى اليابان؛ في مُخيّلتي، كنتُ هناك فعلاً؛ كنتُ أقرأ كتباً عن هذا البلد منذ

الصباح وحتى المساء وباتت روما أقل حضوراً بالنسبة إليَّ. خلال السنة التي تلتها ذهبنا إلى فينيسيا. أعشق تلك اللّحظة التي يشرع فيها الزورق بشق طريقه في القناة: تُسلم المدينة نفسها فوراً بزهورها المُعفّرة وألوانها الرمادية المزهرة وتهالك طوبها وحجارتها. أمضيتُ أوقاتاً سعيدة في معرض فيدوتيستي Vedutisti: فيما كنتُ أتنزه في فينيسيا مرسومة، أحسستُ بأنّ فينيسيا الحقيقيّة تمتد حولي بكامل ألقها. استمتعتُ بلوحات كاناليتو Canaletto وكما هي العادة دائماً بلوحات غاردي Guardi. أحالتني لوحات كاناليتو التي ساعدت على إعادة إعمار فارسوفيا، على ألمانيا والنمسا. تذوّقت أيضاً رسوم فانتاسيا أو كابريشيو، حيثُ جمع الفنان معالم متناثرة حسب مشيئته، بينها ما هو غير موجود؛ عمود مجاور عليه قوس نصر وجدار نصف منهار، وسط أوراق غزيرة؛ وُلِدَ هذا المعلم في خيال الرسّام، لم يُصادفه في أي مكان. أذكر من روما، في تلك السنة، الرعود العنيفة. أحدها دوّى في إحدى ليالي سبتمبر بينما كنت في ساحة نافونا. من الطابق العلوي، كنتُ أحتضن بعيْنَيَّ الصفاء الباروكي لساحة الناس المهملة التي كان أسفلتها يلمعُ تحت زخات المطر.

عُدنا إلى فينيسيا من أجل المهرجان: أراد سارتر حضور عرض *الجدار* لأنه كان يحترم كثيراً الفِيلمَ الذي استلهمه سيرج رولي Serge Roulet من إحدى رواياته. حلقت فوق المدينة بالطائرة للمرة الأولى: عندما وصلنا إلى مستواها اخترقنا سقف السّحاب. كان بالإمكان رؤية رصيف الميناء والبحيرة والجزر، ثمّ اقتربت الطائرة ولفّت، ميّزتُ القناة الكبيرة والأخرى الفرعيّة والطّرقات كما لو كانت مرسومة في مُجسّم: لمحتُ فينيسيا بأسرها في نظرة واحدة. كان رولي في انتظارنا في المطار؛ قطعنا البحيرة بالزّورق. كان هناك صيّادون مُصطفّون في شكل نصف دائرة. غائصة أرجلهم حدَّ الرّكب في الماء، كانوا يمدّون سلّة شبكيّة كبيرة مربوطة إلى زوارق مقابلة: كانت حركاتهم متناغمة مع السّماء والماء حتّى لكأنّ مخرجاً عبقريّاً يصوّر المشهد.

تناولنا العشاء في فينيس Fenice مع رولي جيستيزولو. كان الأخير يواكب المهرجان منذ أيّام. كان منزعجاً من كمّ الأطفال الهائل في الأفلام، ومن كلّ تلك المضاجعات المتشابهة، المُتّفق عليها في حجم وقاحتها التي لا حدّ لها ولا طائل من ورائها. أثناء عرض *الصّينيّة La chinoise* لـ «غودار»، كان جالساً بجوار الناقد السوفيتي. «عندما أخذت الفيتناميّة الصغيرة بالصّراخ: النّجدة سيد كوسجين، كنتُ قلقاً عليه إلى درجة أنّي تجنّبتُ النّظر إليه»، قال لنا. لكن السوفيتي ظلّ جسوراً. لاقى شياريني Chiarini مدير المهرجان، هجوماً شرساً لأنّه كان قاسياً في الاختيار فقد راهن على القيمة الفكريّة للشّريط على حساب وقع خطوات النّجوم. صحبنا إلى اللّيدو بواسطة زورق سريع. حالما وصلنا إلى الرّصيف، ركبنا عربة أقلّتنا إلى «ماهو» Maheu، مدير اليونسكو: رفيق سابق لسارتر لم يلتقيا فترة من الزمن، ثمّ عادا يلتقيان باستمرار. كان نزيلاً في فندق «بان» Bains، الذي اختاره توماس مان فضاءً لروايته *موتٌ في فينيسيا*، الذي أسرنا جانبه القديم. احتسيْنا كأساً في الشّرفة المُطلّة على حديقة. أثار اهتمامنا كثيراً وهو يُفسّر لنا كيف أنّ فينيسيا مُهدّدة بالتدهور. دُمّرت السّدود التي كانت تحميها في القرن الثامن عشر، وعندما كانت الرّياحُ تهبّ فإنّ البحر يجتاح البحيرة. إنّ المدينة مبنيّة على ركائز متينة وهي قائمة على طبقة من مادة إسفنجيّة ينفخها الماء عندما يضغط على الأساسات؛ عندها تنفلق الأرض: هكذا كان يُفسّر الينابيع التي تنبجس خلال الأيّام الماطرة في بلاط ساحة سان مارك. من ناحية أخرى، تراكمت القاذورات والغبار المتأتية من مصانع ميستر Mestre، وزحفت الأرض على البحيرة. ثمّ إنّ كمّا هائلاً من النفايات يجتمع في القنوات، حتّى إنّ القاع بات يعلو من سنة إلى أخرى: يجتاح الماء الأقبية والمستويات الأرضيّة عند أوّل فيضان. قد تكون هناك تدابير لمواجهة الخطر: من بينها إعادة بناء السّدود. لكن ثمّة خطراً آخر لا يُعرَفُ له علاج؛ إنّ غازات المصانع تضرب الطوب، والحجارة مهما كانت جودتها عالية

فالمرمر يتفتّت بفعل الغازات؛ ما دُمنا لا نعرف الأسباب فسنظلّ أبداً عاجزين عن مجابهة هذا التهديد.

بعد الظّهر، شاهدنا فِيلمَ *الجدار*. كان أداء الممثّلين مُمَيّزاً، خاصّة كاستيو الذي قضى طفولته في معسكر للمُهجّرين والذي لم يجد صعوبة في تقمّص شخصيّة السّجين. أدّى دور الطّبيب البلجيكي ممثّل قامّ بالتعامل بعفويّة مع شخصيّة لم يتبادر إليه كم هي بغيضة. كان الإخراج ناجعاً ورصيناً. أزعجتني، فقط، نهاية الفِيلم؛ قد تبدو لنا خاتمة الرواية المؤلّفة من عشرة أسطر حيلة أدبيّة لا تفضي إلى عواقب وكان بالإمكان استساغتها؛ في السينما تدوم الخواتيم طويلاً ما يجعلُ الصّور ثقيلة.

أيّ كرنفال هي باحة الإكسلسيور Excelsior، عند الثامنة مساءً! في الحشود، يختلط مُسنّون وشُبّان في مقتبل العمر ونساء متبرّجات وأخريات كأنّهنّ متنكّرات في فساتين طويلة ضيّقة جدّا أو مشقوقة على نحو مبالغ فيه. لمحتُ كريستين روشفورد ضاحكة وودودة؛ مورافيا الذي ابيَضَّ شعره تماماً؛ أوديت جوايو التي ظلّت رشيقة ونضرة على نحو مُذهل. تناولنا العشاء مع «باسو» وزوجته اللذين كانا يحضران المهرجان كلّ سنة. كانت طاولتنا محاذية للحاجز وكان بإمكاني تأمّل صفحة الماء التي زاد اللّيل من رقّتها.

قبل ذلك بأيّام قليلة، كنّا جالسين بعد العشاء في ساحة نافونا عندما اقترب منّا شاب: «أنا ميشيل دِل كاستيو» نحيف ومُبتسم وشديد الاختلاف عن شخصيّة پابلو التي أدّى دورَها بشكل لافت للغاية: «كان من السهل عليَّ أن ألعب هذا الدور، قال لنا، كان كافياً أن أُعمِلَ ذاكرتي». حدّثنا باقتضاب عن طفولته التي أشار إليها في كتابه الأوّل تانغي Tanguy: قضى مع أمّه سنوات الاعتقال في مُعسكرات بفرنسا وألمانيا، إثر وشاية من والده البورجوازي لأنّها كانت اشتراكية، ثمّ بعد ذلك انتقل إلى مركز إسباني للتأهيل من حيث هرب في سنّ السادسة عشرة. كان بصدد تأليف كتاب عن إسبانيا: نشرنا منه لاحقاً في *الأزمنة المعاصرة* فصلاً مُهمّاً:

كيف ارتبط مفهوم الشّرف في إسبانيا بالمسيحيّين الكبار (كتب بعد ذلك عن غابريال روسي كتاباً جميلاً حضرته عائلة الشاب).

لم نبرح روما خلال الصّيفيْن اللاحقين ولم تبدُ لنا أكثر جمالاً من تلك الفترة. أقمنا في الطابق الأخير من النزل، في غرف تفتح على شرفة؛ من هناك تسنّى لنا رؤية أسطح روما وروابيها. وكانت أصواتُ المدينة بالكاد تصلنا. كنا نتناول فطورنا صباحاً في الشّرفة: خمسة أو ستة فِرَق من البنائين كانوا يصلحون المداخن وقنوات التصريف والأسطح. يبدون متوقّفين عن العمل، لكنّ الأشغال تتقدّم. خلال النهار لم يكن بالإمكان الخروج بسبب الحرارة العالية. لكني كنتُ كلّ مساء تقريباً أخرج لمراقبة غروب الشمس خلف «سان-پيير» في سماء ناريّة. كُنّا غالباً ما نعود إلى غرفنا بعد العشاء. كان لدينا ثلاجة مليئة بالمُؤن والمثلجات والمشروبات: نتأخّر في السهر في الشرفة بين شراب وحديث. في اللّيل تتألّق المعالم المُضاءة: معلم فيكتور إيمانويل، حسرتي عليه! لكن أيضاً الكاپيتول والكيرينال وقصر سان-أونج وسان-پيير. كنّا مُقلّين في التجوّل مقارنة بالسنوات الماضية لأنّ لدينا انطباعاً بأننا في كل شوارع روما وساحاتها في آن واحد مع ذلك كان يطيب لنا التأخّر ليلاً في ساحة نافونا. لقد أصبحت ممنوعة على السيّارات بفضل إجراء جديد. في ذات المساء الذي وصلنا فيه، التمس منّا صاحب حانة نافونا - شاب وسيم أشقر، يرتدي بنطلوناً مُخملياً مُضلّعاً بالأخضر الزمردي، وقميصاً بنفسجيّاً وحزاماً جلديّاً عريضاً - التمس منّا التوقيع على عريضة مطالبة بتأجيل اتّخاذ التدابير؛ بعض التجار طعنوا في العريضة؛ ودّ البوليسُ لو عارض: لكنّه خشي في ذلك الصيف من سنة 68، أن يحتلّ الشباب المُخرّبون الساحة. أمّا نحنُ فقد كنّا مسرورين: ما من ضجيج، لا روائح بنزين، ما من سيّارات تسدّ الطّريق على طول الرّصيف. كان هناك شبابٌ كثيرون في الساحة المركزيّة. كان هناك هيپي وبنات ومثليّون جنسيّون، عازفو قيثارة؛ وبمحاذاة نافورة أخرى، كان هناك رسّامون ينشرون على الأرض قشوراً

أكاديميّة فظيعة. كانت الفتياتُ يلبسن تنانير قصيرة، لكن خصوصاً كان ثمّة ذكور يختالون مُشكَّلين في الحرير والساتان والخيوط البرّاقة: كما لو أنّ الزّمن عاد بهم إلى بينتوريتشو Pinturicchio. كانت المُخدّرات تروج دون شكّ، ليس أكثر مما هو الحال حول نافورة تريفي أو مُدرّج ساحة إسبانيا. أمطرت ذات ليلة. من شرفة مقهى مغطاة، لمحنا فتيات وأولاداً حافي الأقدام، يحملون قيثارات وحقائب ظهر وأكياس نوم. (بالمناسبة، أين ينامون؟) تمدّد آخرون مقابل جدار، تحت شرفات: حمراء، ورديّة، برتقاليّة، وبنفسجيّة. وخلف ستارة من المطر، انعكس لمعان ملابسهم على اللّون الرملي للحجارة.

كانت لنا في ذلك الصّيف حوارات عديدة مع أصدقائنا الإيطاليّين. لم تعد روسانا روساندا المسؤولة عن الحزب الاشتراكي الإيطالي؛ بات لديها، الآن، الوقت الكافي للاهتمام بالعمل النظري. علّقنا معاً على تحرّك مايو، تحرّك الطّلبة في إيطاليا وبقيّة العالم: كانت على دراية بالمسألة جيّداً. ناقش معنا باسو، الذي كان أحد زعماء الحزب الاشتراكي لوحدة البروليتاريا، سياسة الحزب الاشتراكي الإيطالي. حدّثنا عن قضيّة تشغل الرأي العام آنذاك: اعترف مِثليٌّ جنسي باقترافه جريمة «بولدين» وحُكِم عليه بالسجن تسعَ سنوات. في إيطاليا، يُعتبر پلاجيا Plagia – أي سِحراً – أن يستحوذ أحدهم على إرادة شخص آخر لغايته.

حين تهرب فتاة مع حبيبها حتّى لو كانت راشدة، أو تغادر امرأة متزوّجة بيتها من أجل اللّحاق بعشيق، فمن حق العائلة رفع دعوى ضدّ الأخير بتهمة الغواية «پلاجيا». أراد باسو إلغاء هذا القانون لكنّ الهيئة القضائيّة رفضت بالأغلبيّة. بعد 21 أغسطس شغلنا مصير تشيكوسلوفاكيا.

تشابه صيف 69 مع الذي قبله، حتّى إنّي شككتُ في أنّ سنة مرّت. غير أنّ بعض التحوّلات قد حدثت. قام البوليس بحملات تطهير ضدّ متعاطي المخدرات ومروجيها في ساحة نافونا. كان الشُبّان أقلّ عدداً وحيويّة. جانبٌ كبير من السّاحة اجتاحَه الرسّامون الذين كانوا يحاولون بيع

لوحاتهم، إضافة إلى باعة الكرات الحمراء: بل حتّى بهلوانيّو النّيران كانوا هناك. لحسن الحظّ فقد ظلّ نصف الساحة منذوراً للصّمت والهدوء. أصبحت ساحة سانتاماريا مكاناً مُخصّصاً للمُترجّلين: كان في وسع السيّاح تأمّل النافورة الباروكيّة وذهب الفسيفساء على واجهة الكنيسة. ورغم الحرارة afa، في تلك السّنة، فإنّ الرومانيّين لم يغادروا روما. الـ 12 من أوت، وتحت سماء بيضاء، وحرارة رطبة، كانت الشّوارع مُزدحمة. التقينا بروسانا روساندا كثيراً، كانت قد فرغت للتوّ برفقة أصدقاء من تأسيس مجلّة المانيفستو Il Manifesto، كانت منشغلة كثيراً بأزمة العلاقة بين الكُتل وبين إدارة الحزب الاشتراكي الإيطالي. ولم يكن الحزب يرى وجهة نظره الأرثودوكسية. كانت تخشى الإقصاء الذي سيتعرّض له لاحقاً بالفعل.

تشابه صيفُ 70 مع الصيف الذي جاء قبله. تقرّر أن تصبح ساحة فارنيس Farnèse، مكاناً مُخصّصاً للمترجّلين وكان في مستطاعنا الاستماع بحرّية بجمال النّوافير والقصور. لكنّ الرسّامين والسيّاح غزوا ساحة نافونا فأصبحت مزدحمة كساحة تيرتر Tertre. الشّأن الكبير في تلك السّنة هي حملة الطّلاق. شاحنة رابضة في مداخل ساحة نافونا مُغطّاة باللافتات والكاريكاتور والشعارات لمناشدة أعضاء السيناتور على التصويت لقانون الطّلاق. رجالٌ ونساء يتنزّهن أمام المجلس الأعلى حاملين يافطات كُتب عليها: «تشجّعوا أيّها السيناتور، لا ترهبوا القساوسة. صوّتوا لقانون الطّلاق».

ناشطون قاموا بإضراب جوع. آخرون أداروا اجتماعات أو راحوا يجمعون التواقيع. اعتقد كلّ من باسو وليفي أنّ القانون سيمُرّ في أكتوبر لكن في الواقع سيكون من الصّعب الحصول على الطلاق؛ فيما ألغت الكنيسة الزواج الديني مقابل مبلغ مالي زهيد. إن كان من الضّروري ترك باب للخروج فمن مصلحة الناس الزّواج دينيّاً بدل الزّواج المدني.

قمنا برحلة قصيرة إلى فارا Fara، الجاثمة فوق تلّة: إنّها قرية قديمة

جدّاً تُشرف على طبيعة رائعة مُمَوّجة. رأيتُ «رياتي» الذي لم أكن أعرفه ورأيتُ «أكيلا»من جديد. كان في نيّتي اتّخاذ الطّريق السّريعة لدى عودتي لكن لم يعد يوجد منها سوى جزء ضئيل. كنّا نرى عمالاً وجرافات يشتغلون فوق رؤوسنا فيما كنا نقطع طريقاً صغيراً في عمق الضّيعة.

سنة 71، كانت شرفتنا قد تحوّلت إلى حجرة يفصلها باب زجاجي عن بقيّة الشقّة: كان ذلك أفضل بكثير إذ كان في وسعنا الجلوس فيها حتّى في الأوقات التي تكون فيها الحرارة مُرتفعة. كنّا نقضي هناك أو في البيت أغلب أوقات النّهار. لم أعرف شيئاً أجمل من هذه المدينة. مساءً عندما تستيقظ النّجوم فوق الأسطح وتغرق أطراف «سان-پيار» في غيوم ملتهبة فتبدو كشبح مُحاصَر.

أثناء حرب الجزائر، لم يعد بإمكاني التجوّل في فرنسا. الآن ودون كبير تعاطف مع أبناء بلدي، لم يعد وجودهم يزعجني، هذا البلد الذي تمتدّ فيه جذوري، ها أنا أكتشفه من جديد وأرغب في استعادته. جبتُ أحواز باريس بالدرّاجة الهوائيّة خلال الحرب وبالسيّارة عندما تعلّمتُ السياقة. لكنّ طُرقاً أبعد امتدّت اليوم بفضل السيّارة. من خلال نزهات تدوم يوماً أو يومين، اكتشفتُ جزيرة فرنسا L'ile de France، والأقاليم المُحيطة بها. لم يعد في تلك الأراضي المُدمّرة بالحرب قرى قديمة كثيرة ولا في المدن أحياء قديمة. كان بالإمكان رؤية منازل عتيقة هنا وهناك بنوافذها المُزيّنة والمُزخرفة بالخشب المنقوش: في «ترواپي Troyers» كانت ثمّة طرق تعود إلى العصور الوسطى بواجهاتها الضّيقة العالية، التي أوى إليها الحمام، أسراباً تجتمع وتتفرّق فوق الأنهج ذات الأسطح القرميديّة. قاومت الفنادق والمنازل المُشيّدة بالطّوب أو بالحجارة الزّمنَ بشكل أفضل. في سانس Sens، شارت Cahrte، ومُو Meaux، كانت هناك طرقات استمتعتُ كثيراً بالتنزّه فيها. لكن – على مسافة تقلّ عن ساعتيْن من باريس – فإنّ المنظر الحضري الوحيد الذي أسرني في آراس Arras هو الساحة الكبرى والساحة الصّغيرة المرمّمتانِ بشكل ممتاز. إنّها واحدة

من بين الحالات التي يجدّد فيها الزّمن ما دُمّرَ. صغيرةً، عندما كنتُ أذهبُ إلى آراس، حيثُ كان لوالدي أقارب، أطلعوني على صورٍ فوتوغرافيّة للمدينة قبل سنة 1914: لم يكن في مركزها سوى حجارة متفحّمة. عدتُ إليها منذ فترة قريبة. رأيتُ برج الساعة، الساحات ذات الأقواس المُشيّدة من طرف مُهندسين فلمنديّين تحت نفوذ إسبانيا: نتج عن هذا الائتلاف روائع معماريّة.

مع ذلك فإنّ جلّ معالم الجزيرة وما جاورها التي نجت من الدّمار، هي القصور والكنائس. يتركني الديكور الداخلي للقصور على الحياد؛ يهمّني المبنى ومُحيطُه أكثر. ليس من السّهل دائماً إشباع فضولي ولو أنّه تقلّص مقارنة بذي قبل. يُمنَع الدّخول إلى المتنزّه عادة. لذا حدث أن تسلّلتُ على أطراف الأصابع نحو الأرض الممنوعة متخفّية أو مُندَسّة وسط وفد من السُيّاح المسموح لهم بالدّخول. ذات مرّة، أطلق حارسُ قصر مزرعة بلينو، الذي كان يسكُنه لافايات، كلباً ذميماً، متأخّراً لحسن الحظّ. في الحالات العاديّة الأخرى يكتفي الحارس بتلقّي الرشاوى. أخيراً أصبحت الزّيارة متاحة بشكل رسمي أو على الأقلّ بتساهلٍ معها. على أيّ حال، نجحتُ في رؤية الكثير من القصور التي كنتُ أجهلها: قصر ماري Marais، المُشيّد خلال القرن الثامن عشر، الذي ترتفع واجهته العظيمة على حافة حوض مائي مُستطيل؛ أقام فيه بوني دي كاستيلان حفلات مشهورة. قصر فو Vaux، الذي صمّم له «لو نوتر Le notre» حديقته المُدهشة والذي أنفق لأجله فوكي Fauquet 18 مليوناً. قلاع وحصون سيتمون Septmonts، المهملة في أعماق حديقة نباتات القرّاص والطفيليّات. جدران فيفي في «بري Brie»، حيث أُعيد تعيين شارل السادس، اجتاحتها نباتات اللبلاب على مساحات كبيرة. كان قصر مزرعة الملك المُشيّد بالطّوب والحجارة أواخر القرن السادس عشر محفوفاً بالخنادق والعشب والأشجار ذات الأوراق السّميكة. لكن بين كلّ هذه القصور التي ذكرتُها والتي لم أذكر ما زلتُ أفضّل قصر شا-دي-

باتاي (ساحة المعركة)، المبنيّ أيضاً في القرن السادس عشر بالطّوب والحجارة. منزلان متقابلان وسط سهل أخضر؛ إنّهما يحدّان باحة الشّرف التي تنتهي من جهة بسور عتيق ضخم يتضمّن بوّابة رائعة، ومن الجهة الأخرى ما يُشبه قوس النّصر. عندما تغرب الشّمس فإنّها تكوّن الخطوط الطّويلة للواجهات الورديّة مع اتّساع الفناء المحفوف بالحواجز المُشبّكة. مشهد فائق التّأثير.

تُعتبر زيارة الكنائس أقلّ إشكالاً؛ ثمّة دائماً باب صغير ينتهي به الأمر إلى أن يُفتَح. نغوص في البرد وفي رائحة الشّمع والبخور؛ الأجنحة مُزخرفة بأزهار ذابلة وأخرى صناعيّة مُغبَرَّة. المعمار بسيط وجميل كالعادة. أحببتُ من بينها الكنائس المُحصّنة التي كانت تشيخُ جنوب «لاوون Laon» والتي كانت تتشابه لولا أنّ بعض التّفاصيل تختلف. دائماً، حتّى في البنايات المتواضعة، كان هناك ما يشدّ انتباهي: المقصورات، الرّحمة، منبر، تماثيل خشبيّة أو حجريّة، أسقف منقوشة. في «هودان Houdan»، لوحة ساذجة وجذّابة يظهر فيها دجاجٌ في مسيرة نحو دير بعيد. في بلمار، قبّة الجرس مكسُوّة بألواح صغيرة من شجر السّنديان: تبدو كأنّها حيوان ممّا قبل التاريخ، مكسُوّ بالحراشف على أرضيّة الكنيسة الجماعيّة الجميلة في «إيكوي Ecouis»، قرأتُ هذه الكتابة: «هنا يرقُد الطّفل، هنا يرقد الأب، هنا ترقد الأم، هنا يرقد الأخ، هنا ترقد المرأة وزوجُها؛ ليس هنا سوى جسديْن. 1502».

أتساءل من ابتكر الحكاية الخرافيّة التي يشير إليها هذا النص: تزوّجت بيرتا ابنة الكونت شاتيونشاتلان دي إيكوي. أنجبت منه طفلاً مشى في إثر شارل السابع بإيطاليا. في «بورج Bourges»، التقى بأمّه دون أن يعرفها وأنجب منها طفلة. بعد ثماني عشرة سنة شاءت الأقدار أن يتزوّج تلك الفتاة التي هي أخته. اكتشفوا الحقيقة وماتوا حسرة!

أحد أكثر الأضرحة غرابة هو سرداب «جـووار Jouarre» الذي يعود إلى القرن السابع. يضمّ مُصلَّيَيْن للدّفن، أحدهما منذور للقديسة

ثيلشيلد، والآخر للقدّيس إبريجيزيل. الأوّل هو أجمل معلم ماروفنجي موجود. تنتصب الأقبية على ستّة أعمدة عتيقة، مصقولة من المرمر المُزَوّق ومُزخرفة بتيجان بيزنطيّة. يحفظ تابوت مُزخرف بأوراق الزّنبق بقايا رفات القديسة ثيلشيلد. فيما يرقد القديس أجيلبار والقديسة أوزان وقديسات صغيرات أخريات تحملن أسماء غريبة – الجليلة ساند-بالد – في توابيت أخرى.

كان فاليري مُحقّاً عندما شبّه الهندسة المعماريّة بالموسيقى. ونحنُ ندخل كاتدرائيّة «سواسون Soisson» المُشيّدة بعد حرب 14-18 أحسستُ ببهجة، تمنحني إيّاها الموسيقى عادة. كم هي متناسقة تلك القاعات وتلك العارضات! سرّتني رؤية المصابيح المتدلّية في «نويون Noyon». وجدتُ كاتدرائيّة «رامس» التي أعرفها من خلال الصّور مُكتَنِزة؛ لكنّي ذُهلتُ لاكتشافي «سانت ريمي». أعجبني الفضاء الداخلي لكاتدرائية لاوون المشهورة – التي مثلت نموذجاً –؛ لكنّ الواجهة بدت لي مبالغاً في رونقها. (رأيتُها عندما كان سارتر أستاذًا في لاوون: لم أعد أذكر منها شيئاً). زُرتُ ديراً تناثرت البنايات في مساحته هنا وهناك: «بيك هيلوين» الذي ظلّ مركزاً فكريّاً غربياً منذ القرن التاسع حتّى القرن الثالث عشر. «ريومون Rayaumont» الذي طالما سمعتُ عنه. أحبّ أن تمتزج أسوارها وحجارتها وأبراجها بالعشب والأشجار وجداول المياه.

أعرف المناظر الطبيعيّة – غابات، ضيعات، روابي ومرتفعات – من خلال التنزّه مشياً على الأقدام. مع ذلك اندهشتُ، وأنا أسير على متن سيّارتي وسط غابة «سان-غوبان» الجميلة، عندما لاحت لي فجأة بحيرة حزينة مُحاصَرَة بالأشجار: رهبان تورتوار. كان مشهداً يقع خارج العالم: ما من طريق قد تُؤدّي إليه. أطلعني حارسٌ يعيش فيه وحده، على حجرات النُسّاك، معبد صغير ومستشفى مُخرّب. كان المكان قديماً وجهة حجّ تستقبل العديد من الزُوّار. سيُرمّمونه على ما يبدو. لن يكون أكثر تأثيراً أبداً مما هو عليه في تلك الحالة مُهمَلاً. قمتُ بجولة طويلة في «ليزاردين

«Les Ardennes». غابة أردان: كنتُ بسبب شكسبير أحلم بمكان ساحر. كان ذلك المكان ساحراً. ذات صباح أزرق بهيج، غطّى فيه الثّلجُ الأرض وكسا ببلّوراته اللّامعة لحاء الأشجار والأجمات والعشب تحت الجذور. سارت السيّارة وسط الهدوء والصّمت. نزلتُ وسمعتُ خشخشة الدّرب المؤدّي إلى فتحة عانق من خلالها بصري بياضاً سحريّاً. عند خروجي من هذا المكان الأسطوري، صعدتُ إلى ضيعة «موز»، لمحتُ مياهها الداكنة وصخورها الورديّة المائلة إلى البنفسجي، شارلوفيل وساحة الدّوق التي لا تقلّ بهاءً عن ساحة فوچ.

وودِدْتُ أن أعرف شامپانيْ Champagne. فيردان، حيثُ عاشت أمّي طفولتها هي مدينة حزينة، زاخرة بالذّكريات التي روتها لي. بالجوار، زرتُ الأماكن التي طالما أيقظت أسماؤها كآبة في قلب الطّفل الذي في داخلي: «أپرمون»، الجبل الميّت، قمّة إيپارج. في الوقت الحالي، الأشجار مكسُوّة بالأوراق والأدغال خضراء؛ لكن حيثما اتّجهت، فهم يبيعون صوراً قديمة لطبيعة متفحّمة وأشجار مكسورة وبساتين بشعة: صورٌ جعلت منها أفلام الحرب مشهداً مألوفاً. نصوص قديمة ما زالت تُشير إلى وجود قرى لم يعد لها أثر. أرى «رموزاً» و«تلالاً» تُذكّرني ببيانات قديمة: كم رجلاً مات دفاعاً عن هذه المقاطعات والأراضي المتروكة! قلعة «فو Vaux»، قلعة دوامون، مقبرته وباحة العظام الهائلة، الخنادق التي دفنت فيها فصيلة بروتونيّين: لم يعد يُرى منها سوى نتوءات صدئة تبرز من الأرض. الأماكن البطوليّة لطفولتي: روزالي، بواسلَنا الكثيفي الشّعر، قفوا أيّها الموتى. أماكن قلبت كياني فترة مراهقتي، عندما كنتُ أبكي وأنا أشاهد الأفلام وأقرأ الكتب التي تروي تلك المذابح.

ما زلتُ إلى اليوم مهزوزة من شدّة الاشمئزاز والثّورة وأنا أفكّر في الـ 500.000 الذين ماتوا في فيردون.

كانت الأيّام الموالية أكثر اطمئناناً. رأيتُ تحت شمس «دومريمي»، «فوكولور»، دروباً غابيّة، كنائس ذات تفاصيل بديعة، تضمّ أهمّها تماثيل

للعذراء ومُختلف القدّيسين. في أفيوت، ذات الطّراز الذي يتوسّط القوطي العائد إلى القرن الرابع عشر والمتوهّج، ثمّة معلم صغير «لا ريسيفريس La Recervresse»، أين كانت تُجمَعُ صدقات المُريدين. تجوّلتُ في المدينة العالية «بار-لو-دوك» حيثُ كلّ البيوت تقريباً قديمة ومحافظة على شكلها؛ في كنيسة «سانت-إيتيان» تأمّلتُ تحفة، أخجل لأنّي لبثتُ وقتاً طويلاً أجهلها: *الهزيل* لـ«ليجي ريشي». نصف مسلوخ- نصف هيكل عظمي. إنّها جثّة ما زالت تحرّكها الرّوح، إنّه رجلٌ حيّ ومُحنّط. ينتصب شامخاً مانحاً قلبه إلى السّماء (رأيتُ في لاوون، في المُصلّى الروماني بين فرسان المعبد فارساً يرقد حيثُ الجثّة في طريقها أيضاً إلى التحلّل. كان ذلك مُذهلاً لكن أقلّ إبهاراً من هذه الجيفة الواقفة). عاينتُ في المنطقة منحوتات أخرى لليجي ريشي. هناك كنيسة سان-ميهيال، حيث وُلِد ثلاثة عشر تمثالاً أكبر من الأبعاد الحقيقيّة، تحيط بـ القدّيس «سان-سيپولكر»، مزيج أصيل شمبانْيّ المتأثّر بإيطاليا، بين الذّائقة القائمة للقرن الخامس عشر وواقعيّة عصر النّهضة.

توقّفتُ في «لونغر»؛ من خلال الأسوار، تأمّلتُ المنظر الشاسع لضيعة «موز»؛ أحببتُ بروجها الضّخمة، فنادقها الجميلة والاستثنائيّة: كاتدرائيّة سان-ماميس، حيث تمتزج الرواية البورجينيّة بالقوطي، الكلُّ متأثّر بالآثار الجالورومانيّة المنتشرة في الأنحاء القريبة. مررتُ بـ«شاتو-فيلان». كان يُشبه تماماً الصّورة التي أحتفظ بها في ذاكرتي، بمنازله الصّغيرة، وصادّات الرّياح المُلوّنة، الكلاّبات التي في شكل شخصيّات صغيرة. وجدتُ بيت جاك، صندوق الرّسائل، بوابة المتنزّه الكبير حيثُ تركضُ الغزلان. لكن، أبداً البرج المزهو بالورود.

حثّني سحرُ تلك الجولات على القيام برحلة حول فرنسا، خلال صيف 69. ثمّة منطقة لا أعرفها جيّداً: الجهة الممتدّة من الغرب، من «لوار Loire» حتّى جبال الپيريني. وقع اختياري عليها. استمتعتُ بهدوء الطّبيعة جنوب لوار، أنا التي طالما أهملتُ السّهول؛ حيثُ ظلال الغيوم تنافسُ

الشّمس على تلوين الحقول الخضراء والمروج الذّهبيّة؛ كانت السّماءُ الهائلة والقلقة فوقي مشهداً مُتغيّراً كالبحر؛ نجوم تسبحُ في عرضها، تتشابه وتنسج الأشكال معاً؛ تختفي الأنوار وتومضُ في دفقات. لا أكلُّ من مراقبة هذه اللّعبة أبداً، هذا الحفل. أحببتُ هيجان النباتات الفونديّة، دروبها الصّغيرة المنصرفة بين الأسيِجة التي ستفتَحُ فجأة عند أعلى التلّة على بانوراما مُذهلة فسيحة. ما زال بالإمكان عند قمّة هضبة ألووات Alouette رؤية طواحين الرّيح التي يستخدمها الفونديّون لمعرفة حركة البحر. انزلقتُ بسعادة ناحية المياه الهادئة لبحيرة پواتفين: من الصّعب تخيّل القوارب المُكدّسة التي كانت تزدحم في القناة أيّام الآحاد.

في الصّباح كنتُ وحدي مع ربّان المركب ونحنُ نبحر على طول الطّريق المائي المحفوف بشجر الحور، وسط أسراب الذّباب الأزرق. بقرات - تُنقَلُ في قوارب، مُرتعشة من الخوف - تجترّ في البراري التي يحيطُ بها الماء من كلّ جانب.

تلتقي القنوات من بعيد لبعيد، مُشكّلة، إذًا، تقاطعات مائيّة شاسعة. أيّ صمت لا يُسمَع فيه سوى طقطقة الماء المتكسّر تحت المجداف! تبدو اليابسة بعيدة.

زرتُ «نوهان». كنتُ قد فرغتُ من قراءة رسائل جورج ساند، التي عرّجت فيها على حقبة كاملة وهي تتحدّث عن حياتها، الساحة الصّغيرة الجذّابة، وخصوصاً الكنيسة التي تُشبه لعب الأطفال، بسقيفتها المُظلّلة. المُثير للاهتمام في المنزل هما المسرحان: خصوصاً مسرح العرائس، الذي صنعه «موريس» وكسته جورج ساند. رأيتُ بعض المواقع التي كانت الرّوائيّة تُحبّها: تلك الصّخور الرماديّة المُسمّاة «پيير جوماتر»، «غارجيلاس» حيثُ كانت تمتلك بيتاً، قصر «كروزون»، ضيعة «لا كروز». جُبتُها قبل عشرين عاماً بالدرّاجة ولم تُحرّك في ماضِيَّ أيّ صدى. نحو الجنوب كان عليَّ التوقّف، من أعلى قلعة «بلاي» أمام مقاطعة «لا جيروند» ذات اللّون الرّصاصي الطاغي على مرمى البصر. لكن إضافة

إلى الأنهار والمروج والغابات وأسرارها والبحيرات، حبست الكنائس الرومانيّة أنفاسي. كنتُ أجهلها. اكتشفتُ كنيسة مونوار، كنيسة في كدي لافردين وغارجيلاس؛ بدت الشّخصيّات في قبو تافان، لابسة الألوان الحيّة كأنّها ترقص فوق الأعمدة. الرّسوم الأجملُ هي تلك التي تُزخرف مدفن المهد لـ «سانت-سافان»؛ إنّها تعود إلى القرن الثاني عشر؛ وتُروي بمقاطع شعريّة ساذجة، حكاية الخلق، حكاية ابراهيم وموسى.

من خلال «بواتو Poitou»، «لا سينتونْج La Saintonge» «لانغوموا L'Angoumois»، اكتشفتُ كنوز الهندسة المعماريّة التي لم أكن أعرفها جيّداً. ولكي يؤكّد أصالتها مقارنة بالشّمال حيثُ الفنّ المعماري القوطي بدأ بالتفتّح، ظلّ الجنوب وفيّاً للروماني حتّى أواخر القرن الثالث عشر. لكنّ المهندسين أرادوا لكنائسهم أن تنافس الكاتدرائيّات القوطيّة العملاقة: كان عليهم ابتكار تقنيات جديدة تمنح الفنّ الروماني القدرة على التسامُق هو أيضاً، مثلما هو الحال في «سان سافان»، «بواتيي»، «أنغوليم» و«أولناي». يوجد أيضاً سراب لكنائس صغيرة - ستّ مائة في سانت-أونج وحدها - بينها ما يُذهل بفضل عفويّته الرّقيقة، بوّاباتها المُكتنزة المتناغمة، مُطرّزاتها الجنائزيّة، أصالة تيجانها. أُعجِبتُ بأنّ المقارنة بينها، انطلاقاً من نقاط بسيطة وصارمة، قد تُفضي إلى كشف اختلاف بينها؛ بدت لي الصّلة بين الوظيفيّة والجماليّة بديهيّة عندما لاح لي الفرق - في الدّور الذي تلعبه والنتائج التي تقود إليها - بين الأقبية المُهدّمة وتتابع الأقواس. أثارت المقارنة اهتمامي أكثر فأكثر كلّما تعدّدت أوجه الاختلاف. تعلّمتُ التّمييز بين الروماني الفوتفيني عن الروماني البيريغورديني، والتعرّف على البدائل القدسيّة بينها؛ سجّلتُ الفرق بين الأقبية المتدلّية والأقواس ذات القباب، بين قبة الجرس على شكل كوز صنوبر وقبّة الجرس الكلاسيكيّة، بين سقيفة على شكل قوس النّصر والسقيفة ذات الواجهة الخشبيّة المنقوشة. اتّضح لديّ القوسُ المُعلّق والقوس المنخفض والعالي والمتكسّر والمُضلّع والمتجاوز.

صرتُ أراها بشكل أفضل منذ عيّنتها. صادفتُ هذه الكنائس في المدن، والضيعات والقرى النائمة وأحياناً في العزلة التامّة في نهاية درب يشقّ غابة صامتة. من بين المُفضّلة لديَّ الكنيسة المُستديرة في «نوفي سانت سيبولكر» التي تحتجز في داخلها تقاطُعاً متكاملاً، أي مجموعة أعمدة تشكّل دائرة مثاليّة. في أخرى، ثمّة تقاطعات أماميّة. أحسستُ بعاطفة قويّة في «سالينياك». نجح المُهندسون، بفضل نظام الأقواس المتتالية، في بناء كنيسة ذات قبّة واحدة عريضة عالية جدّاً.

عندما دخلتُ كنيسة سالينياك وجدتُ نفسي عند أعلى سُلّم من اثنتيْ عشرة درجة، يُشرف على قبّة مهيبة. في أعماق هذا الفضاء الفسيح، كان رهبان بأثواب سوداءَ جالسون على شكل نصف دائرة يستقبلون المدخل بوجوههم؛ قبالتهم كان هناك قسٌّ يترنّم. أحسستُ بأنّي قد قُذفتُ في أعماق القرون الغابرة: بدا المشهد مشهد محاكمة.

رأيتُ تماثيل ممطوطة رائعة كأنّها لـ «غريكو»، منتصبة عند مدخل «پوليو» في «مواساك». وكان هناك الكثير من المُجسّمات المألوفة والحميمة، من الخشب المُزوّق في العديد من الكنائس؛ أسرتني، مثلاً، تماثيل العذراوات الصّغيرات المُلوّنة، وخصوصاً الفاتنة «سانت-بارب». على التّيجان، يُضطَرُّ النحاتون أحياناً، أمام ضيق الفضاء لابتداع أفكار عبقريّة؛ كانت أحياناً مُزخرفة بمسوخ مُستوحاة من الشّرق أو من رموز وأحياناً من وقائع حقيقيّة: مثلاً «داليلا» وهي تقصّ شعر شمشون Samson. وأحياناً يُبالغ الفنّان في المزاح فيصل فنّه إلى درجة من الهزل؛ من بين النّقوش المُنخفضة المُدهشة في رواق «كادووين»، نرى دعامات تُظهر «أرسطو ممتطياً غانية».

انتصب في بعض القرى معلمٌ بجانب الكنيسة، لم أكن قد رأيتُه من قبلِ: قنديل للأموات. برج مدبّب وأجوف ينتهي بفانوس توضعُ فيه منارة كلّ مساء. وفي «فرنيو Fernioux»، قرية صغيرة ضائعة وسط طبيعة خضراء وتبدو كألق ظريف لقبّة جرس كنيسة. لم أسمع من قبل، أيضاً، «بكنيسة

القالب الواحد»، تلك المنحوتة في صخرة منحدر. إحداها محفورة وسط حائط صخري كان في «شارونت» في وقت مضى، وها هو الآن تفصله البراري عن النهر؛ يمرّر النُسّاك الذين سكنوا هذا الكهف المعزول تجربته إلى الحجيج الذين يأتون إلى «سانت-جاد-دي-كومبوسال» (كنائس عديدة ودير مُوزّعة على طريق كومبوسال؛ نُقِشت الأصداف على سقائفها). في سانت-إيميليون، هناك أخرى أكبر، حيثُ خُبّئ زجاج «شارت» الملوّن خلال فترة الحرب. فيما استخدم زجاج «أوتبار» المُخبأ في القرن الثاني عشر حتّى القرن الثامن عشر. إنّها بنايات عجيبة حقّاً. كما لو كانت مغارات طبيعيّة، رغم أن يد الإنسان صقلت الصّخر القاسي والمدافن والمحاريب.

تأثّرتُ يوم دخلتُ «ليموزين». وجدتُ في سفوح «مون بلان» و«أمبازاك» التي أعرفها جيّداً، الكستناء والسّرخس والصّخور الرماديّة والبرك البعيدة الزّرقاء، وكلّ روائح طفولتي. في ذلك الوقت لم تكن «لاسوتيرين»، «سالينياك»، «لوفيغان»، «سان سوبليس لورير» تشير سوى إلى أسماء محطّات: أربكني أن ألاحظ أنّها سُمِّيَتْ كذلك نسبة لمدن موجودة مثل «أوزيرش» و«سان جرمان ليبيل». ثمّة كنائس قاتمة، مبنيّة بحجارة داكنة. ذهبتُ إلى «پوليو» من جديد، «كولونج الحمراء» التي ظلّت مُحافظة على جمالها، «أوزيرش» التي لم تتغيّر لكنّ ضواحيها امتدّت مترامية الأطراف حتّى أنّ اللّافتة التي تحملُ اسم المدينة أصبحت في شارع «ميرنياك».

زرتُ «أورادور». ظلّت الحالُ على ما هي عليه كما تركَتْها المَذبحة؛ المحطّة الصّغيرة، السّكك الحديديّة ما زالت هناك؛ ترقد في ساحاتها هياكل سيّارات مُهمَلَة، درّاجات قديمة؛ في المخابز والمجازر والحدّادين، نرى أدوات مألوفة ومداخن وقدوراً محترقة وصدئة. وكما هو الحال بالنّسبة إلى بعض زوايا «پومپيي Pompei» فإنّ الحياة اليوميّة حاضرة متحجرة بسبب الموت.

نزولا نحو الجنوب، لاحظتُ ظهور مدن قرب المدن «الماضية»: صالات عرض ذات دعامات خشبيّة مُسقّفة بالقرميد، تُحيط بساحات

حيث توجد أحياناً باحات قديمة، من الخشب والقرميد. أجملها في تقديري هي التي في «مونپازيي Monpazier»، لكنّي أحبّ تلك الأكثر ريفيّة في «أوفيلار» بباحاتها المُستديرة؛ والسّاحة الحمراء في «مونتوبان».

لم تكن المنطقة حافلة بالكنائس، بل بالقصور الجميلة! صادفنا قصوراً رائعة في «ليموزين»، من بينها قصر «روشـوارد» الذي ازدان بلوحات أنيقة جدّاً تعود إلى القرن السادس عشر وتُظهِرُ مشاهد صيد. زرنا غرفة «شارل مونتسكيو» في قصر «لاپراد»، المحوط من كلّ الجهات بخنادق مائيّة عذبة. لكنّ القصر الذي لا شيء يُضاهي فتنته فهو حصن الإقطاعي «بوناغيل»: ببرجه الحاد وقلاعه الثلاث عشرة الذي كان يُشبه القصور المرسومة على مسجّمات «ساعات حافلة» لدوك بيري.

في مقاطعة «جير»، قاومت قرى عديدة زحفَ الزّمن: احتفظت بخصوصيتها وباحاتها ومنازلها العتيقة. وفي كاستر أيضاً، حيٌّ بأكمله لا يزال على حاله: اصطفّت المنازل على ضفّتَيْ الماء من جهة «تورن Torn».

مُجدّداً، زرتُ الكاتدرائية الكبيرة الرائعة في «ألبي»، ثمّ «تولوز»، «مون لويس» وأماكن أخرى عديدة كنتُ قد اطّلعتُ عليها. لكن لم تسنح لي الفرصة قط كي أصعد إلى الكنيسة الفاتنة في سيرابون. كان عليَّ اتّخاذ الطّريق الأكثر رعباً. كان درباً مفاجئاً وناتئاً بالحصى وذا منعطفات مُدوّخة وضيّقة حتّى إنه لم يكن يسمح بمرور سيّارتيْن إلّا في أماكن نادرة: سبعة كيلومترات؛ وحالما يتوغّل المرء في الطّريق فيعود من المستحيل عليه العودة أدراجه. في الأعلى، مُشرفاً على منظر بديع، ينتصب دير «سيرابون» المُشيّد في القرن الحادي عشر والمُهمَل في القرن الرابع عشر. كنيسة صارمة من الصّخر الزيتي لكنّها تؤدّي طائفة ذات «بركة خارقة»: تقف الكنيسة على دعامات مرمريّة ورديّة حيثُ الأقواس مُزخرفة بالزّهور والحيوانات ورؤوس البشر.

ليس في فرنسا كلّها مناظر طبيعيّة أجمل من تلك التي تعترضك في

سفوح «لاكون» على طريق «إيسبينوز». «مينرفوا»: قضيتُ فيها ليلة منذ أربعين سنة أثناء رحلتي على القدمَيْن؛ القريةُ مُشيّدة عند ملتقى سَيْلَيْن مائيّين. فوق منبسط لا تربطه بالمنصة سوى قطعة من الأرض. ظلّت هذه البلدة تشبه نفسها. تذكّرتُ طرقات مينرفوا ورائحة الأحراش الصّخريّة، تلك الرائحة الحارقة والذّهبيّة. تسكّعتُ وسط طبيعة «كوربيير» الصّخريّة، رأيتُ ﭙيرينيون ثانية، أين زرتُ صرح ملاك مايوركا الذي كان ممنوعاً من الدّخول إليه عندما كنتُ صغيرة. فرحتُ إلى إيطاليا.

لاروشال، ﭙولتيي، سانت-بيريغو، أنغولام، ليموزين، بوردو، ألبي، تولوز: زرتُ أماكن أعرفها. أحياناً أذكرها جميعاً، أحياناً لا شيء. تمتزج الخواطر بالرؤى الجديدة لكن أبداً هذا الغدو والرواح على الماضي. اكتشفتُ، أيضاً، العديد من المواقع التي سمعتُ عنها والتي كنتُ أشكّ في وجودها. لم أذكر منها سوى عدد قليل. سكتُّ عن بحيرات كثيرة، وبرك وُمستنقعات وقنوات وأنهار ووديان وجداول لا أحد منها يشبه الآخر، حيثُ الكلمات تخون تنوّعَها. رأيتُ غابات وضيعات وجبالاً لا تتكرّر ملامحها. لا تتشابه ألوان المدن. فأحمر مونتوبان لا يشبه أحمر ألبي. كنتُ أفاجأ على الدّوام.

عرفتُ متعة التذكر والتعلم من جديد أواخر سنة 70، عندما أخذتُ معي سيلفي إلى بورغونْيْ: بات البلد بأسره على أبواب باريس منذ انتهاء أشغال الطّريق السيّارة المؤدّية إلى الجنوب. مضى زمن طويل لم أتوقّف في «ديجون». إنّها مدينة لائكيّة: الهندسة الدينيّة مُهمّة جدّاً، لكنّها أقلّ قيمة من الفنادق المُشيّدة بين القرن 13 والقرن 18، والبيوت ذوات الدعامات الخشبيّة؛ إنّ قلب المدينة معلم أثري في حدّ ذاته، قصر الدّوق حيث الفناء يفتحُ على بلاط أرض يعود إلى القرن الـ 17. زرتُ الصّالة الفسيحة للحُرّاس حيث وُضعت قبور فيليب لوهاردي، وجون سونيور ومارغريت بافيير. من جديد، رأيتُ تماثيل كلود سلوتر، المُجمّعة تحت اسم آبارموسي. لكنّي سُررتُ خصوصاً بالتجوّل في المتحف

الأركيولوجي الذي لم أدخُله من قبل قط. عُرِضَ في الطّابق السّفلي الذي تنبعث منه رائحة الأقبية العتيقة، «كنزٌ» اكتُشِف عند منبع نهر «السين» بين سنة 1933 و1963. تماثيل برونزيّة صغيرة جميلة وخرقاء،تُذكّر بتماثيل سردانيا؛ والأخرى من الخشب والحجارة. تُمثّل مُريدين، ورؤوساً بشريّة وحيوانات. الأغرب بينها هي النُذُر الموضوعة على ضريح الربّة «سيكانا» من قبل المرضى الذين أعادت لهم صحّتهم: تماثيل نصفيّة لمرضى، أعضاء بشريّة كانت قد شفتها، قلوب، رئات، كبد. ثمّة أيضاً رسومٌ نُذُريّة. رأيتُ «أودان» ثانية، والعرش الرّائع الذي يجلس عليه المسيح بسُمُوّ. في الصّالة المُقدّسة للكاتدرائيّة، يمكن رؤية التّيجان عن قرب؛ إنّها هديّة نادرة ففي الكنائس، على المرء أن يلوي عنقه كي يُميّز عن بعد وبشكل سيئ، تفاصيل المنحوتات. هناك، كانت مُتاحة على مرمى البصر. أحببتُ من بينها الملوك المجوس المُتوّجين الثّلاثة والنائمين تحت غطاء كبير مطوي حيثُ يوقظهم ملاك.

من «بون Beaune»، أذكُر «فندق الربّ»: أسقف القرميد المشهورة والرّسوم الخضراء والحمراء على خلفيّة ذهبيّة؛ والمطبخ والصيدليّة أيضاً. شككتُ في ذاكرتي عندما دخلتُ القاعة الكبيرة ذات السّقف الخشبي الپوليكرومي على شكل مركب مقلوب: من الجانِبَيْن اصطَفّت الأسِرَّة المُظلّلة ذات السّتائر الحمراء تفصل بين ملاءات بيضاء. كيف أمكنني أن أنسى هذا الدّيكور الأخّاذ؟ في الواقع كنتُ أجهلُه: لم تكن القاعة مفتوحة أمام الجمهور قبل الحرب.

زُرنا الكنيسة الرومانيّة الصّفراء الجميلة في «پاري-لي-مونيال»، بقبّتها العالية المُقوّسة كالمهد والممشى المهيب المُسَمّى «فناء الملائكة». ثمّ رأينا سلسلة من الكنائس الرومانيّة الصّغيرة؛ على إحداها لافتة صغيرة، تقول بفخر: هنا حافظت جميعُ الشّخصيّات على رؤوسها. وفعلاً، كانت التماثيل مقطوعة الرّأس خلال الثّورة، في جميع المداخل الأخرى. كانت خسارة كبيرة لـ «كلوني» التي كان رُهبانها مكروهين جدّا من قبل الناس

بسبب استغلالهم الفاحش لهم: كان في مقدور الدّير أن يكون مُذهلاً؛ الأخرى ما زالت تُحافظ على سحرها.

تحرّك مناظر بورغوني مشاعري، بهدوئها وخرابها، باتّساعها وحميميّتها. صعدنا نحو سفح بوفراي، الذي ما زال يُحافظ على أرضه المُمَوّجة. لمحنا من سفح «دان Dun»، من جهة سهولاً شاسعة وأفقاً أزرق، ومن جهة أخرى سفوح «ليوني» التي بدت كأنّها جبالٌ عالية بسبب الثّلوج التي كانت لا تزال تكسوها.

ما أسرني أكثر هما القريتان المُحصّنتان والطّريق الذي لم يفسده تعاقب القرون. في «برانسيون Brancion» المُعلّقة على جرفٍ هائل، المُشيّدة عرضة للرّياح، ثمّة قصر منيع وكنيسة رومانيّة سليمة؛ نلمحُ منظراً غابيّاً يبدو كأنّه برّي. وحافظت «شاتونوف Château neuf» على قصرها وبعض المنازل العتيقة المُجاورة. أسفله تمتدّ براري تقطعها قناة بورغوني بخمول محفوفة بالأشجار من الضّفتيْن.

أتممنا رحلتنا، بعد سنة، من خلال إقامة صغيرة في مدينة «ليون». مضت أربعون سنة منذ أطلعني عليها أبناء العمّ سيرميون، وثلاثون سنة مرّت على رحلتي إليها بالدرّاجة مع سارتر. بعد ذلك، قطعتها كثيراً بالسيّارة. مشيتُ على طول الميناء، تسكّعتُ في الشّوارع التجاريّة، وتوقّفتُ عند ساحة بالكور الجميلة؛ في ساحة تيرو، تأمّلتُ بإعجاب نُزل المدينة.

أحببتُ كثيراً الكنيسة الرومانيّة في سان-مرتان-ديناي وأقواسها المنقوشة. من أعلى التلّة، حيثُ تنتصب البازيليك البشعة لـ«فور فيافر»، تأمّلتُ الأسطح الدّاكنة للمنازل وأنهار المياه الرماديّة.

زرتُ ليون القديمة التي كان يسكنها أثرياء المدينة فيما مضى. تمّ تجديد الواجهات: تعرّت حجارتها القديمة المُزخرفة بالنّقوش والكتابة والحلقات. تفاجأتُ - مأخوذة بالكتابة: ساحة، قلعة، أزقّة - فتجاوزتُ المدخل. قادني خرطوم قاتم بسقف واطئ إلى باحة؛ ارتفعتْ فيها قلعة

بداخلها سُلّم حلزوني؛ كانت الهندسة أنيقة وبسيطة، لكنّ طبقة من الأدران عفّرت الجدران الصفراء العالية حيثُ نوافذ ذات زجاج مُتّسخ: يحدس المرء أنّ خلفها فضاءً مُعتماً ورطباً. لكن مع ذلك ورغم تدهور حالة هذه المساكن فإنّها تظلّ قصوراً بجانب منازل «لاكروا-روس». نزلتُ من أعلى إلى أسفل الهضبة متّخذة الأنهج منسابة مع الأنهج. في أماكن أخرى، تكون هذه المعابر التي تربط طريقاً بآخر، مُحاصَرَةً بين البيوت هي ممرات بكلّ بساطة، مجرّد ممرّات؛ لكن هنا، بسبب فارق الارتفاع فقد كان نظاماً مُعقّداً من الأروقة والسلالم المفتوحة، تحيطُ به شرفات تفتح على غرف. من خلال عُلُوّ الواجهات وعدد الشّرفات فإنّ واحداً من هذه البيوت يذكّر ببعض سجون *بيرانيس*؛ لكنّ الانطباع الطاغي هو تلك القذارة التي لم أصادفها في فرنسا داخل مدينة. رأيتُ ساحات مليئة بالقاذورات، أناساً يملؤون ماءً صالحاً للشّراب من المراحيض: ما من دورة مياه في تلك المساكن ولا في الطّوابق. كانت الجدران أكثر اتّساخاً من جدران ليون القديمة. عُلّق الغسيل الذي يجفّ تحت حاملات مُظلّلة من البلاستيك: تراكم فوق هذا السّطح ترسّبات الأدخنة والغبار وكلّ أنواع النفايات. في هذه الأحياء الفقيرة التي كان يسكنها عُمّالُ النّسيج. أصبحت اليوم مُكتظّة بالأفارقة الشماليّين.

قمتُ بجولة في متحف الفنون الجميلة، دير قديم، ضمّ عدداً من اللّوحات المُهمّة واللّوحات المُملّة. راقني أكثر متحفُ أوسبيس Hospice: إنّه يتيح تصوّر مُستشفى بين القرن السّادس عشر والقرن التاسع عشر. إنّه مشهد يبعث على قشعريرة في البدن. رأيتُ واحداً من تلك الأسرّة حيثُ كان ينام مرضى وجثث، جنباً إلى جنب، وبشكل ضيّق. رأيتُ المُعدّات والأدوات التي كان يستخدمها الأطبّاء في الجراحة، لقد كانت تشبه وسائل مُعدّة لحصص التّعذيب: الحقنة المعدنيّة، المنظار، الملاقط، المثقاب، كمّاشات ضخمة مُخيفة. كانت طاولات العمليّات وكراسي التّوليد توحي بوجع رهيب. تراجعتُ مشدوهة أمام صورة عجيبة، معروضة في الواجهة: مانيكان في حجم طبيعي، يلبسُ الزيّ

الذي كان يضعه الأطبّاء عند زيارة مرضى الطّاعون؛ كان يرتدي ثوباً طويلاً أسوَدَ، قبّعة سوداء عريضة على الجانبيْن وقناعاً: قرصيْن زُجاجِيّيْن مكان العيْنين ومنقاراً طويلاً معقوفاً حيثُ يجب أن توضع العطور التي ينبغي أن تحميهم من العدوى.

موقع ليون مُمَيّز: فهي تقع بين تلّتَيْن يقطعها نهران: ثمّة تآلف هندسي كبير: مرافئ سارون. لكن، رغم السّماء الزّرقاء، تركت المدينة في أعماقي انطباعاً بالحزن: إنّها بالية ومهملة إلى درجة تبدو معها موبوءة لا تصلح للعيش. مكتبة سر من قرأ

استأنفنا عادة قديمة خلال السّنوات الثلاث الأخيرة: أمضينا أسبوعَيْن في پروفانس Provence. كانت المرة الأولى في أنتيبي والمرّات اللّاحقة في سان-پول-دي-فونس. من سان-تروپي إلى سان-ريمو، من ساحل الثّلج إلى فالبارج ومن عنق توريني، شاهدتُ هذا البلد الحافل بالذّكريات بالنّسبة إليَّ. بعضُها لم يكن يتطابق مع الحقيقة: في جوان-لي-پان، تحوّلت فيلا رئيس البلديّة إلى مصحّة وخضعت إلى أشغال جديدة وبشعة. مبنى ضخم يُلمَحُ من كلّ مكان، يجثم على حافة البحر كدودة عملاقة، شوّه خليج الملائكة. لكنّ من حصون الأنتيب، ومن أعلى التلال، وجدتُ الطّبيعة الجبليّة الخلابة محافظة على ملامحها، نزولاً إلى زرقة البحر: كانت تتألّق بياضاً تحت كسائها الثّلجي، وفي ذلك الفصل. طريق القمّة المؤدّي إلى راماتويل من غاسان والذي جُبتُه كثيراً، هو الآن مُعبَّد: لكنّه لا يزال صامتاً ووحيداً وصورة شبه الجزيرة لم تتغيّر تقريباً. وجدتُ مضيق «سيان» و«دالوي» ذا الألوان الحمراء الجميلة، على حاله، وتلك الطّريق الجوّية - حسب تعبير الدّليل الأزرق - التي مشيتُ فيها مع أولغا: تمتدّ حتّى كورنيش فار على ارتفاع ألف متر، مُشرفة من الجانبيْن على بانوراما آسرة. قدمت غوردون امتيازاً للسياحة بموقعها فوق حدبة أعلى من مضيق - الذّئب -؛

تراصّت على طول الشّوارع محـال لبيع القصدير. ازدحمت شرفات المقاهي بالزوّار في كانيي Cagnes وكابريس Cabris؛ لكنّ قلب المدينة الصّغيرة ظلّ سليماً.

وجدتُ ماضِيَّ في «بروك»، على كورنيش فار؛ وفي سانت أنياس، حيثُ امتدّت بساتين البرتقال حتّى مونتون؛ عند المساء، حين يغادر السُيّاح سان-پول-دي-فانس فإنّها تعود لتشبه نفسها؛ غامضة، صامتة، جميع محالها مُغلقة، ولا يُسمَع المرء فيها سوى وقع خطواته وهمس النافورة. في الجهة المُقابلة تلّة مُضيئة؛ فُتِنتُ في اللّيلة الأولى بتلك الحفلة المتألّقة: إنّها دفيئات زراعيّة مُضاءة بكهرباء قويّة.

كنتُ كلّما استحضرتُ أزمنة بعيدة أو قريبة، قمتُ ببعض الاكتشافات: كان في «لي مور Les Maures»، طريق كرنيش يمتدّ أفعوانيّاً خلال أشجار باسقة؛ طرق جبليّة بين سان-ريمو وفينتيمي تتخلّلها قرى رائعة. قرب «توند Tende»، ثمّة مكان معزول فيه مُصلّى صغير غمرَهُ رسّامٌ إيطاليّ، من الدّاخل، بلوحات ساذجة: يُعبّر عنها الدّليل بـ «واقعيّة» لكنّها تعويذات غرائبيّة عن الجحيم وعذابه.

زرتُ أيضاً رواق «مايّيت Maeght» الذي لا أعرفه. أمكنني كما لم يحدث من قبل قط، أن أتأمّل بشكل أفضل *مسيرة الرّجال* لـ «جياكوميتي» والعديد من اللّوحات الأخرى.

لكن غالباً ما أكتفي بالمكوث جالسة في الشّرفة، أقرأ تحت السّماء الزّرقاء مُستمتعة بالمنظر المألوف.

أحد الأمور المُسلّية والمزعجة أحياناً في السّفر، الدّليل الذي يأخذك لزيارة المعالم. نتجوّل وحدنا في الكنائس بحرّية؛ لكن في الدّير والقصور فعادة لا نتمكّن من ذلك. أحياناً نصادف دليلاً رائعاً؛ القروية الشابّة، مثلاً، تلك التي أطلعتني على دير فيلسالم Villesalem الواقع في ضيعة نائية. كانت ساخطة بسبب الإتلاف الذي تسبّبت فيه الثّورة، بل القديسات اللاتي جعلن من المبنى مساكن لهنّ فيما بعد. دليل قصر «روشوار»،

قدّم تفاسير مُثيرة للإعجاب كان دائماً يُذيّلها بجُملة: «على الأقلّ، هذا ما يؤكّده الخبراء». كلمة من قيّمة مُتحف پروفانس (لا غرونج-أو-ديم) كانت ستُسعدُ بروست كثيراً. كما يؤسفني أن تعلو الكنيسة – الرومانيّة الجميلة – قبّة جرس قبيحة من القرن الثامن عشر. أجابتني بيقين: «صحيح أنّه غيرُ جذّاب، لكن من الأعلى يُمكنُك مشاهدة منظر يحبس الأنفاس».

تُقدِّم لي الشّرح، عادة، امرأة هرمة؛ تلك المسؤولة عن صومعة الكهف في مورتاني، كانت عجوزاً لطيفة، أنيقة وذات شعر أبيض: كانت تردّد الحديث الذي تحفظه عن ظهر قلب، بطريقة ميكانيكيّة؛ كانت تُعيدُه حالما تنتهي منه، بنفس الألفاظ ونفس النّبرة؛ راحت، طيلة الزّيارة، تُكرّره دون توقّف.

كانت مالكة دير فلاران (يناير 72، حُكِمَ على خمسة أشخاص تورّطوا في حرق الدّير، من بينهم ابن المالكة: كان طامعاً في أموال التّأمين) التي كانت تستقبل السُيّاح بنفسها، جلفة مجنونة: كانت عرجاء وكانت تضرب الأرض بعصاها مسعورة وتتكلّم بحنق؛ كادت تدخُل في نشوة حماس لو لا أنّها رأت بُقعة مُتفحّمة على الأرض فأكّدت أنّ الرهبان قد أُحرقوا هنا في هذا المكان بالذّات خلال الثّورة.

تجري في «شارو Charroux» حيثُ الدّير مُهدَّم بالكامل، أشغال تمنع الاقتراب من أنقاضه. دليل واقف في ممرّ أمام خريطة للمكان، يصف لزوْجَيْن عابِسَيْن وبالتّفصيل ما كان يجدر به أن يشرح لهما لو لا أنّه لا يقدر. تفادَيْتُهُم. لكنّي غضبتُ حقّاً في بوناغيل؛ كان علينا انتظار دليل متنكّر في هيئة فنان مونمارتري، نصفَ السّاعة: شعرٌ أبيض طويل، قلادة، بنطلون مُخمَلي؛ أعلن أنّ محاضرة الزّيارة تدوم ساعَتَيْن؛ تجاوزتُ الباب خلفه كي أرى القصر من الدّاخل، بعد عشر دقائق انصرفتُ أمام دهشة المُستمعين.

ثمّة متعة أضعُفُ أمامها وأنا أتجوّلُ في فرنسا: الطّاولة. يُعبّرُ المطبخُ والنّبيذ – عادة – بطريقتهما عن الإقليم الذي أنتجهما؛ إنّها طريقة بديعة لاستكمال الاكتشاف. الأطباق الأصليّة المُقدّمة على عين المكان، أفضلُ

بكثير من التّقليد في باريس: كنتُ أجهلُ ما هي فطيرةُ الكيش قبل أن آكل واحدة في فيردون، إنّها دسمة مثل التورتة وخفيفة مثل المُقرمشات؛ كنتُ أجهلُ معجّنات الـ «كينيل» قبل أن أفطرها في ديجون. إنّه في فنادق الرّيف فقط ما نجد سلومون الأنهار وفائضاً من جراد البحر.

يكون قلبي في حفلة وأنا أجلس على الطّاولة بعد الظّهر مُشبعة بالعروض، جائعة لأطعمة الأرض؛ أُسَرُّ كثيراً وأنا أبحثُ في القائمة عن طبق فريد أو على الأقلّ تقليدي.

أحبّ العودة إلى المنزل مساء تلك الأيّام التي تمضي سريعاً والتي تبدو طويلة لامتلائها. يكون المنزل، عادة، منزلاً جميلاً قديماً في أعماق ساحة أو في حديقة أو في شارع هادئ؛ أو بعيداً عن المدينة وسط مُتنزّه قصر قديم، أو طاحونة على ضفاف الماء.

أتقدّمُ وسط الصّمتِ الدّافئ للممرّات، من خلال الأبواب الموصدة على حيوات غريبة، ويخالجني شوقٌ كبير لأفتح غرفتي الخاصّة. أرى الدّيكور غير المُتوَقّع، الجذّاب، الذي سأستقرّ فيه، كما لو كان قوساً في حياتي؛ أنا في بيتي وسط صمت وعزلة جدران تحميني، تؤنسني أشيائي الخاصّة؛ مع ذلك فإنّ بيتي الحقيقي بعيد عنّي، وأنا في مكان آخر. أرى من نافذتي ساحة ريفيّة، جدراناً مُغطّاة بنبات اللّبلاب، أو بلاطاً، أو نهراً لا ينتمي إلى حياتي. أستيقظ في مكان مألوف سأهجره عما قريب. سيُفتتح موسمُ الرّحيل يوماً وينتهي في غاية أخرى: يُخيّل إليَّ أنّي أنا التي أتحكّم في مرور السّاعات بدل أن أخضع إليها.

لم أتجوّل في فرنسا فقط خلال السّنوات الأخيرة؛ عدتُ أيضاً إلى بلدان أعرفها. بينها بلد تغيّر كثيراً منذ أوّل زيارة سنة 1953 وزيارتي الثّانية: إنّها يوغسلافيا التي رأيتُها من زاوية مُختلفة هذه المرّة.

سنة 53 لم أعرف دوبرونيك Dubrounik، حيثُ هبطتُ أنا وسارتر مارس 68 وكان في انتظارنا صديقنا ديديجي. حجزنا غُرفاً في فندق ساحلي غير بعيد عن المدينة: إنّها فرحة حقيقيّة أن تطالعني القلاع البيضاء

العالية الشامخة على جرف صخري سابح في مياه زرقاء. تحيط الأسوارُ الحصينة بدوبروفيك من كلّ ناحية. اتّخذنا الطّريق المُتعرّج المُشرف على الأسقف الذهبيّة للمنازل، مُستمتعين برؤية الشّوارع والساحات والباحات والحدائق. يُمنَعُ على السيّارات دخول السّاحة، أين يُمكن التجوّل بهدوء كما في فينيسيا. ثمّة معالم مُهمّة؛ لكنّ جمال المدينة يكمن في شوارعها. لا شيء في العالم يُضاهي «پلاكا» الذي يقطعُ المدينة العتيقة من الطّرف إلى الطّرف.

دمّرت سنة 1667 بفعل زلزال قوي، لكنّ مهندسين موهوبين أعادوا إنجازها بوحدة صارمة. أرضيّة الممشى من البلاط المصقول بمرور الزّمن، وهي نفسُ الحجارة المُستَخدَمة في واجهات المنازل، وهي مُشيّدة بنفس الأسلوب مع اختلاف الزّخرفة.

من جانب، ثمّة طُرُقٌ مُدرّجة تصعد التلّة. تقف عند شريان موازٍ لپلاكا. شيّقة هي الأخرى ومُبلّطة بالحجارة ذات شرفات مُسيّجة. ليلاً، عندما تكون الأمكنة صامتة ومُقفرة، يخال المرء أنّه في مدينة من عصر آخر، مُضاءة بالأنوار بفعل مُعجزة. نُحبُّ الجلوس في رصيف الميناء القديم الملاصق للأسوار، حيثُ ترسو زوارق الصيّادين. كُنّا نتناول وجباتنا في المطاعم الصّغيرة للمدينة أو في شرفة فندقنا، ونحنُ نتأمّل جزيرة لوكروم القريبة جدّاً. قمتُ وحدي أو بصحبة سارتر وديديجي بجولات كبيرة على متن سيّارة مُستأجرة. ذهبنا معاً إلى شبه بُحيرة كوتور وهي نوع من أنواع المضيق البحري العميق، تحيط بها منحدرات صخريّة عارية: تسلّقتها السيّارة. اكتشفنا على ارتفاع ألف وأربع مائة متر صحراء صخرية، تمتدّ خلفها سلسلة جبال ثلجيّة. نزلنا صوب سيتينجي Cetinje، وهي مدينة بائسة تؤوي ألفَيْ ساكن، يصعب التّصديق أنّها كانت عاصمة يوماً ما. لدى عودتنا رأينا كوتور و«بودفا»؛ أقلّ حجماً وتنظيماً من دوبروفيك، محوطتَيْن بالأسوار أيضاً؛ يُمنَعُ دُخول السيّارات؛ طرقاتها المُسطّحة المُبلّطة تتخلّل المنازل ذات

الواجهات الحجريّة. كان السّاحلُ الذي تبعناه في ذهابنا وإيّابنا مغروساً بالسّرو والزّيتون.

عدتُ إلى سارابيفو، في هذه المرة، لم أصدّق أنّي في أوروبا لأنّي دخلتُها من جانبها التركي: من جديد، رأيتُ المسجد، خان كاراوانسرا، السّوق الشّعبي المُزدحم، محلّات الكباب والأخرى التي تبيعُ شرائح اللّحم والأخرى التي تبيعها مُوَرّقة بالجُبن؛ احتسيْتُ قهوة تركيّة في حانة صغيرة. تغيّر الفندق: استُبدِلَ أثاثُه الثّقيل بديكور إيطالي. جدّدتُ عهدي بـ «موستار Mostar»: قبابها وأقواسها، مآذنها ومنازلها، جسرها المُقَوَّس كظهر الحمار، بياض البيوت التركيّة، المقاهي الصّغيرة ذات الأطباق النُّحاسيّة. أكلتُ، على حافة الطريق، الخروفَ المُحَمَّر في الهواء الطّلق: آليّة عبقريّة تستغلّ شلالاً صغيراً لإدارة «البروش». زُرنا صحبة ديديجي مقبرة بوغوميل التي حدّثنا عنها كثيراً. البوغوميل هم مانويّون ممّن هزم «كُفّارُهم» جيش مقاطعة جنوب فرنسا خلال القرن الثاني عشر. الجزء الأكبر من مقبرتهم هو الذي زرناه. راحوا منذ القرن الخامس عشر يزخرفون توابيتهم بنقوش خرقاء، لكن غريبة؛ أسلحة، معارك، رقصات وابتهالات للشّمس.

السّاحل الدالماسي في كرواتيا هو واحد من أجمل السّواحل في العالم. إنّه عقد من الجزر الذّهبيّة المتألّقة في الأفق اللازوردي. لم أر منها سوى جزءٍ بسيط سنة 53، لأنّ الطّريق كان غير صالح للاستخدام. الآن صرنا نرى كورنيشاً رائعاً حيثُ الحركة على أشدّها، فيما لم نكن نلتقي بشريّاً واحداً فيما مضى. انتهى عهد الحُرّاس الذين يُمسكون بمفاتيح مضخّات الوقود والغرف. أصبحت محطّات الوقود والفنادق غزيرة في يومنا هذا. كانت دهشتي في أوپاتيجي Opatije. سنة 53، لم يكن هناك سوى مطعم واحد في الميناء الصّغير لضيافة سائح. الآن، كلُّ النّزل القديمة مفتوحة، بل لقد أُنشئ عدد من الفنادق الجديدة، إنّها استراحة فاخرة تُذكّر بـ «مونتون» لاحتوائها على حدائق وفيلات تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر.

إن كانت ألمانيا تبدو مُزدهرة فإنّ الفضل يعود بقسم كبير إلى الدّولة التي قامت بجهود سياحيّة جبّارة. لكنّي لاحظتُ في البلدات والقرى اليوغسلافيّة أنّ القرويّين باتوا يلبسون بشكل أفضل مما كانوا عليه سنة 56 عندما قطعنا البلاد قاصدين اليونان. آنذاك أشفقنا حقّاً على بؤسهم الشّديد. اليوم، يرتدي الأطفال معاطف صوفيّة مريحة ذات ألوان زاهية. كانت الأطعمة عموماً مُقتصدة في أغلب المطاعم. والمغازات فقيرة من المؤن؛ الملابس والأقمشة والأحذية رتيبة ولا شيء مُغرياً فيها. نحنُ بعيدون كلَّ البعد عن الوفرة الإيطاليّة. مع ذلك حصل تطوّر هائل.

كتبتُ في أحد كتبي أنّ المرء لا يلحظ ما يتغيّر في العالم كلّما تقدّمت به السنّ: ذاك أنّ وجهه الجديد يبدو لنا تحصيلاً بديهيّاً. ينطبق هذا على الأماكن والوجوه التي نراها دائماً. لكن في بلد أجنبي، بين رِحلَتَيْن، عادة ما تكون مواجهة الماضي بالحاضر أخّاذة. عندها يصبح تعاقب الزّمن حقيقة ملموسة مثل المكان، عندما تقود سيّارة وتأخذ الطريقُ من خلفِكَ بالهرب. من هذه الوجهة، أعتبر أنّ شهر مارس ذاك في يوغسلافيا كان تجربة لافتة.

إحدى مُتعي الكبيرة هي التّرحال في السيّارة. أعشق السّياقة على مراحل صغيرة أو أحياناً على محطّات متباعدة مسافات طويلة. كثيراً ما رحتُ بالسيّارة من باريس إلى روما، الرّحلة التي تُضجر سارتر كثيراً: كان يلحق بي بالطّائرة. ذات مساءٍ، عندما كان مسموحاً للسيارات بأن تربض في ساحة نافونا، رأيتُ سيّارة دي-اس D.S تحمل رقم التسجيل 75 وكانت مُعفّرة بالوحل. نزلت منها امرأة بدت مُتعبة. جلستُ في إحدى الشّرفات وفتحتُ كتاباً عن ميشيل لايريس. خُيّل إليَّ أنّي أرى صورة مُشوّشة لي في المرآة. كثيراً ما أصل إلى روما، وحيدة، منهكة بعد سياقة يوم كامل فأجلس إلى إحدى شرفات نافونا وأقرأ.

أحبّ ذلك الشّعور بالحرّية والخضوع إلى شروط مُعيّنة، وأنا أقود السيّارة مسافات بعيدة: كان وقتي مضبوطاً، لكنّي أملك الكثير منه. كنت

أتّخذ طرقات مُختلفة في كلّ مرّة، لكنّها تتقاطع: كنتُ مُستمتِعَة بسحر التّكرار والجديد معاً. حتّى في الطّرقات المألوفة، ثمّة دائماً مفاجآت في انتظارنا. السّياقة عملٌ مُلزِم، يتطلّب منّي البقاء منتبهة، لذا كنتُ أسترق من الطّبيعة من حولي مترات كالوميض، خلسة تقريباً.

أذكُرُ بالتّفصيل إحدى تلك الرّحلات. كانت أختي في انتظاري في تريبيانو، وهي قرية صغيرة قريبة من لاسپيزيا La Spezia، حيثُ تملك بيتاً. لم أزرها فيه من قبل. انطلقتُ يوم الخميس عند السّاعة الثّانية بعد الظّهر سالكة الطّريق السّريعة التي توقّفت قبل «فونتين بلو»؛ كانت الطّريق سوداء بالسيّارات؛ كنتُ أتجاوز، أُخفّضُ وأتجاوز: كان عليّ الانتباه إلى الخلف من خلال المرآة العاكسة. لم تكن الطّريق أقلّ اكتظاظاً. لحسن الحظّ فُتِحتْ طريق سيّارة بين أوكسر، وأفيون وأنّ أغلب مُستخدمي الطّريق ينفرون من دفع فرنكَين رسم عبور. سرتُ في طريق خالية، واكتشفتُ لأوّل مرّة منظر مورفان المُتموّج، الجافّ والذّهبي في نهاية يوليو. أمر جديد آخر: أُنشئت على أبواب ديجون بحيرة صناعيّة تحدّها الشّطآن من كلّ جانب، حيثُ ازدَحم المُصطافون للسّباحة. قمتُ باستراحة في أحد مقاهي المدينة ووصلتُ مُطمئنّة إلى پونتارلي Pontarlier، حيث قضيتُ اللّيلة.

خرجتُ في الصّباح الباكر كالعادة. أحبّ هذه السّاعة من النّهار، حيثُ لا تزالُ القرى نائمة والشّمسُ تبدأ بدفق نورها الوردي على الرّيف. أصبحت حركة المرور مُزدحمة من السّويس حتّى لوزيان على طول البُحيرة. نصحني بعضُ الأصدقاء باتّخاذ النّفق الذي فُتِحَ تحت «غران-سان-برنار»؛ كانت غلطة: فقد كان عليَّ المسير صعوداً خلف طابور من السيارات في طريق شديد الانحدار. كانت الشّمسُ حارقة وسماءُ الرّيف مُغشّاة بسراب من الحرارة.

من الجهة الأخرى للنّفق كانت طريق «فال داووست» مُزدحمة بمقطورات السيارات الخاصّة والشاحنات. كنتُ أريد الوصول إلى بيت أختي كي لا تقلق من ناحية وكي لا أُضطرَّ إلى السياقة تحت أضواء الطّريق

في طرقات جبليّة مُتعرّجة لا أعرفها؛ كان عليَّ، إذًا، التقدّم بأيّ ثمن؛ التّجاوز وتخفيض السّرعة فالتّجاوز دون إهدار أيّ فرصة للقيام بذلك؛ كان ضغطاً خطيراً زاد من تعبي الذي منعني بدوره من الرّاحة: كنتُ في حاجة إلى طاقة أكبر كي أتوقّف ممّا لو تابعتُ المسير. واصلتُ. مروراً أمام «إيفريا»، قرابة السّاعة الواحدة ظهراً، قمتُ بمجهود إضافي، فقد دخلتُ المدينة. سرتُ فترة خالية الذّهن تماماً في تلك الطّرقات الملتهبة. ركنتُ السيارة حالما لمحتُ مقهى. استمتعتُ بالراحة وأنا جالسة وأمامي سندويش وقهوة: كانت خطوات المارة وجمود الحجارة كافية لأشعر بالغبطة. استمرّت راحتي عندما سرتُ في طريق سريعة مُقفرة. لكن كان عليَّ القيام باللّف حول ميلانو، قبل الوصول إلى طريق «الشّمس» السيّارة. غادرتها كي أتوغّل في الطّريق الملتوية التي تصعَدُ إلى مضيق «سيزا» وتنزل فجأة والتي كانت طريقاً تسلكها العربات الثّقيلة بكثافة. كنتُ متعبة لكن متأكّدة من أنّي سأصل قبل حلول الظّلام وقمتُ باستراحة في إحدى القرى أمام كأس بيرة. عُدتُ إلى المقود. في پورتوميلي، تعطّلت حركة المرور عشر دقائق بسبب موكب دفن: رجالٌ يلبسون بذلات سوداء، كانوا يحملون في أيديهم مشاعل تُضيء المساء الآخذ بالحلول. أخيراً وصلتُ إلى الضّيعة التي سأعرج منها نحو تريپيانو: في الأسفل، لاحت القرية مهيبة بقصرها وكنيستها الباروكيّة وجدرانها المرتفعة. لكنّي تُهتُ قليلاً قبل أن يُرشدني أحدهم إلى الوجهة الصّحيحة. عند مدخل المدينة كانت هناك سيّارات رابضة في ساحة مُعَشّبة؛ تركتُ سيّارتي وتابعتُ المسير على الأقدام نحو الباب المُقوّس. أيّ مكافأة أن أجد نفسي جالسة مع أختي في شرفة نتأمّل الرّيف والبحر! لم أكن لأستلذّ طعم الثّبات والصّمت وخشخشة الثّلج في كأسي لو لا الجهد المبذول الذي خلّفتُه ورائي. تناولتُ العشاء ونمت سعيدة بقيامي بمهمّة ناجحة.

تنزّهتُ مع أختي طوال الفترة الصباحيّة في الأنهج الملتوية بين الجدران البيضاء: لم تكن تلك القرية المجهولة مسكونة سوى من أهلها. كما يجدر أن تكون «إيز Eze» وسان-پول-دي-فانس، في الأزمنة الغابرة.

انطلقتُ نحو روسا بعد تناول الغداء، اتّخذتُ الطّريق الساحليّة. كان هناك أمواجٌ من الأجساد نصف العارية على رمل الشّاطئ وقوافل سيّارات على الطّريق. تستغرقني السّياقة بالكامل لكنّ دفقاً من السّعادة المفاجئة يغمرني من حين إلى آخر. تسرّب تيّارٌ هوائي بحري رطب من نافذتي، كانت نسمة حافلة بالخواطر المُشوّشة. (في كوپا-كابانا، كان للهواء والصّباح رائحة مماثلة. بعيداً، بين أشجار صنوبر داكنة اللّون تعانقت على قمّة منحدر زرقاء تخترق البحر. في أورليا، وسط حركة مرور قصوى، لمحتُ في الأعلى، أعلى من رأسي، جدران «تاكينا» وقلاعها، بيضاء كالسّماء البيضاء. عندما لاحت لي قبّة سان-پيار البيضاء، رأيتُ على حافّة الطّريق سيّارتين مُحطّمَتَيْن بدتا لي أيضاً شديدَتَيْ البياض: لم يلامس قلبي جمال قبّة كتلك. اجتزتُ روما ووصلتُ إلى النّزل مُتعَبَة، والتحقتُ رغم ذلك بساحة نافونا، كنتُ مُرهَقَة لكنّ قلبي كان في حفلة.

أذكرُ مجيئاً آخر إلى روما في يوم عاصف: نزل مطر غزير، يحجب الرّؤية دام يوماً كاملاً تقريباً. مساءً، قبل بلوغ أنيسي Annecy، كنتُ وسط السيّارات أسلُك طريقاً جبليّاً. كانت الرّيحُ هوجاء، فجأة توقّفت السيّارة التي تسير أمامي: غصنٌ كبير سقط على غطاء مُحرّكها. نزل كلّ مُستعملي الطّريق؛ سائقو شاحنات قصّوا الجذع بفؤوسهم: أُجلِيَ الطّريق في دقيقتَيْن.

تعرّضتُ لمغامرات ثقيلة الظّل مرّتَيْن، وأنا عائدة من روما. كان ذلك ذات يوم أحد، وكنتُ في طريقي لزيارة أختي في ألزاس Alsace، سلكتُ طريق كولمار. سمعتُ خلفي زعيق الإنذار لكنّي لم أعلّق اهتماماً كبيراً: بعد قليل وقفتُ عند إشارة واصطفّت بجانبي سيّارةُ شُرطة؛ كانت تتعقّبني من قبل عشرة كيلومترات وكنت مُتّهمة بثلاث مُخالفات خطيرة. الأولى لم أرتكبها: كي أتجاوز، انتظرتُ حتّى أصل إلى حدود الخطّ الأصفر. البقيّة - تجاوز سرعة الـ 40 داخل قريَتَيْن - اعترفتُ بخطئي طبعاً: لكنّها لم تكن لتوجد لو لم يكن ثمّة شرطة تتبعني. (سائق في الستّين من العمر

لم يرتكب مُخالفة واحدة في حياته، يُطاردُه البوليس، من السّهل إقناعُه بأنّه قام بعشر جُنَح). حاولتُ نقاش المُخالفة الأولى، لكن عبثاً ووقعت المحضر. على بعد خمسة كيلومترات من هناك، وأنا أقطع قرية نظاميّة، طلب منّي شرطي أوراقي. فهمتُ سبب تعقّب البوليس لي؛ كانت سيّارتي من نوع سيمكا وكانت زرقاء أيضاً: وكانوا يُفتّشون عن امرأة وحيدة تقود سيّارة سيمكا زرقاء، كانت للتوّ قد اختطفت طفلاً.

الاستنفار الثاني كان أكثر خطورة: حادث مرور سنة 65. بعد جولة مع سارتر في شمال إيطاليا، افترقنا صباحاً في ميلانو، بعد أن تواعدنا على اللّقاء في باريس اليوم الموالي على السّاعة السّابعة. كان الطّقسُ رائعاً. تجاوزتُ مضيق مون-سينيس، قطعتُ شومبيري، وتناولتُ الغداء في شرفة مُطلّة على بحيرة بورغي، تناولتُ العشاء ونمتُ في «شالون-سور-شالون» في واحد من الفنادق المِضيافة التي تُمثّل أحد الأشياء الجذّابة في القرية.

صباحاً، كان الضّبابُ كثيفاً حتّى أنّي تردّدتُ في الذّهاب: كان لديَّ مُتّسع من الوقت. لكنّ المدينة كانت مملّة وفكّرتُ أنّ الغيوم ستنقشع خلف النّهر. في الواقع، كان عليَّ السّياقة ساعَتَيْن وسط ضباب يمنع الرّؤية، كانت جميعُ الأضواء تشتعل. كُشف لي عن جزء من المنظر بين الحين والحين، ذهبيّاً من أثر الشّمس، وبدا لي جميلاً فقط، لأنّه كان مرئيّاً. ثمّ أشرق الجوّ. اتّخذتُ الطّريق السيّارة من أفالون إلى أوكسر التي تجاوزتُها. كان الوقتُ مُبكّراً ولم أكن أسير بسرعة، كنتُ سعيدة بالعودة ورتّبتُ ظهيرتي: فجأة استدرتُ واصطدمتُ بالحافّة، فقد رأيتُ شاحنة-صهريج لونُها أحمر فجٌّ قادمةً نحوي: كنتُ على يسار الطّريق. بالكاد وجدتُ الوقت للتّفكير: «سيحدثُ شيء»، عندما وقع الارتطام ونجوتُ نزل السّائق مُسرعاً واستطاع أن يميل إلى أقصى اليسار وإلّا كان سحقني. تجمع الناسُ من حولي. لم يكن في رأسي سوى فكرة واحدة: «حتماً سأجد قطاراً يُقلّني إلى باريس قبل السّابعة». جاء مُمرّضون يحملون

نقّالة؛ رفضتُ الاستلقاء عليها، أصرّوا؛ كانت لديَّ آلام في ظهري وفكّرتُ أنّه سيكون من الأفضل التأكّد من الإصابة عبر الفحوصات؛ لن يطول ذلك طبعاً. حملوني. اكتشفتُ أنّ رُكبَتي ويديّ مدماة. بدأ رأسي يدور حالما تمدّدت. قاموا بصورة أشعّة: كان لديّ أربعة ضلوع مكسورة على مستوى الظّهر. قام الطّبيب بخياطة جرح في جفني وجروح أخرى في ركبتي بعد تخدير موضعي. أحسستُ بالتّعب وتقيّأتُ قليلاً. لم أعد أفكّر في العودة إلى باريس فوراً لكنّي عزمتُ على إخبار سارتر كي لا ينشغل بالُه. أخبرتني ممرّضة بأنّ لانزمان وسارتر اتّصلا بالهاتف: علما بالحادث من التّلفزيون وجاءا. كانت لديَّ عينٌ مُغمضة تماماً. رويتُ لهم الحكاية بلذّة تدلّ على أنّي تعرّضتُ لصدمة. قال المُذيع إنّي أُصبتُ فقط برضوض. لكن لانزمان سار بسرعة 160 كيلومتراً في الساعة. جاء مُحافظُ الشّرطة بينما كنّا نتحدّث، أعاد لي حقائبي وأوراقي المسلوبة. قال إنّهم ينقلون يوميّاً إلى المُستشفى مُستعملي طريق تقع معهم حوادث في نفس المكان تقريباً؛ أحياناً يكون هناك أموات. إنّه منعطف خطير لأنّه مسبوق بخطّ مُستقيم طويل وإنّه مُباغت أكثر مما يبدو. أعتقد أنّي خُضتُه دون حذر لأنّ سرعتي كانت منخفضة، لو كنتُ أسرعُ لتعاملتُ معه بتوتّر وانتباه أكبر.

عرفتُ فيما بعدُ، أنّ أختي وبعض صديقاتي قد صُدِمنَ لدى سماع الخبر في الراديو: كان عليهم البدء بالقول إنّ الضحيّة قد تعرّضت إلى إصابات خفيفة قبل الكشف عن اسمها.

في اليوم التالي نقلني سارتر إلى باريس في سيّارة إسعاف تسير بسرعة 140 في السّاعة. لم أكن أتألّم مُمدّدة أو جالسة. كنتُ في حاجة إلى مساعدة فقط عند التنقّل من موضع إلى آخر. لزمتُ الفراش ثلاثة أسابيع، كنتُ أقرأ وأتلقّى الزّيارات، ولم أضجر. يبدو أنّ الحادث هو حدثٌ راقٍ: لم أتلقَّ قطُّ رسائل وتلغرامات ومكالمات هاتفيّة وباقات ورود مُرسلة من أشخاص لا أعرفهم إلّا من أصواتهم، كالتي تلقّيتُها آنذاك.

بعد تفكير، كتبتُ لسائق الشّاحنة كي أشكره لأنّه أنقذ حياتي. كانت مُجازفة حقيقيّة من جانبه أن يميل إلى اليسار، إذ لو كانت هناك سيّارة من ذلك الجانب لوقع في ورطة فظيعة. ورغم بداهته، فإنّ مُقدمة السيارة – 404 قويّة – قد تهشّمت: عندما رأيتُ الصّور، أُعجِبتُ بواقع أنّي خرجتُ سليمة من تلك الفوضى المُرعبة.

في الوقت الحاضر، يُعتبَرُ الذّهابُ والإيّاب بين باريس وروما أمراً هيّناً. لقد قاموا بتوسيع الطّريق السّريعة المؤدّية إلى الجنوب. انتهت أشغال نفق «مون بلان» ومن الجانب الآخر، نجد مباشرة – تقريباً – الطّريق السريعة بـ «فال داووست» التي تربط بين تورينو وميلانو ومن ثمَّ نوغل في طريق -الشّمس- السيّارة دون صعوبة.

لستُ من أولئك الذين تُضجرهم الطّرق السّريعة. أحبّ التجوّل في الطّرقات الصّغيرة، وفي أماكن أختارُها مُسبقاً. لكن حين يتعلّق الأمر بالانتقال من مكان إلى آخر فأنا أحبّذ السّرعة. سُعدتُ للغاية عندما «أنجزتُ» ميلانو-بولوني في ساعتَيْن ونصف الساعة. ثمّ بعد ذلك فُتِح الجزء الذي يربط بولوني بفلورانسا عبر «أبينان». انتظرتُ بفارغ الصّبر انتهاء الطّريق الرابط بين فلورانسا وروما ثمّ فتح طريق «فال داووست». إنّها من بين مسرّاتي الكبيرة أن أتوقّف وأنا عائدة من فرنسا، عند الثانية، في محلّ «پافيسي» فأجد الجمبون والمُعجّنات والنّبيذ الإيطالي.

نادراً ما أركبُ القطار؛ لأنّه أصبح غريباً عن عاداتنا، تأسرني وسيلة النقل تلك؛ الرّوائح، إيقاع العجلات، صخب المحطّات التي يعبرها ليلاً والتي تحيلني إلى طفولتي. لكن حين أسافر إلى بلد أجنبي فإنّي غالباً ما أركب الطّائرة. مضى زمنٌ طويل على أوّل مرّة ركبتُ فيها الطّائرة: سنة 45؛ لم أتعب من النّظر إلى الأرض من السّماء. أحبّ اكتشاف الجبال والبُحيرات والأنهار بدقّة جغرافيّة. لكنّي أيضاً مأخوذة بمنظر السّحب التي تتشكّل تحت قدَمَيَّ. سهول قطبيّة شاسعة محفورة بصدوع سوداء؛ إنّها طبقات جليديّة مأهولة بأكوام من الثّلج، تعجّ بشجيرات مُبرعمة

بيضاء. تبدو نباتات كفّ العذراء كأنّها تطفو بين الصّخور: جبالٌ مُدبّبة كالإبر، هضاب قاسية، يُخيّلُ إلى المرء، لحظةً، أنّ الطائرة سترتطم بها. حين تطير فوق الأراضي الثّلجيّة القاحلة، يبدو لي أنّها أصبحت بطيئةً وثقيلة جدّاً إلى درجة أنّها توشك على السّقوط.

تُحلّق فوق اليابسة، تقطعها، ودفقٌ من أشعّة الشّمس يضرب أجنحتها. ألمحُ، بشكل خاطفٍ، سهلاً ذهبيّاً وقصراً خشبيّاً منيعاً على ضفاف بحيرة. فيما مضى، لم أكن قادرة على تخيّل أشياء كهذه. كنتُ دائماً أجد سعادة في اكتشاف الكوكب الذي أسكنُه، ومن هذه الزّاوية، يمكنني القول إنّ الزّمن قد منحني أكثر مما أخذ منّي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل V

بعضُ الرّحلات التي أقوم بها مع سارتر هي ذات طابع سياسي؛ يقتضي منّا النّشاط السياسي السّفر في بعض الأحيان. سأتحدّث لاحقاً عن المساعي المُعقّدة التي ارتبطت بالتنقلّ إلى الاتّحاد السوفيتي، وتشيكوسلوفاكيا ومصر وإسرائيل وإقامتنا في استوكهولم وكوبنهاغن بمناسبة محكمة روسال Tribunal Russel. لكنّي سأروي أوّلاً حكاية رحلتنا إلى اليابان.

جمعنا معلومات جادّة عن مظاهر هذا البلد، التقينا بمُثقّفين من اليسار وكان بيننا تبادل مُهم. لكنّنا كنّا فقط معنيّين بمشاكله بشكل غير مباشر. كانت الزّيارة، خصوصاً، من أجل تعميق معرفتنا بالعالم ولم تُفضِ إلى اتّخاذ موقف سياسي مُعيّن. لذلك فأنا أضعها في خانة رحلات الاستمتاع.

دعانا ناشرنا الياباني، السيّد «واتانابي» وجامعة «كيو» للمجيء إلى اليابان خريف 66 لزيارته والقيام ببعض المؤتمرات. جهزتُ لهذه الرّحلة بعناية فائقة. كان السيّد واتانابي قد حمل إليَّ في الرّبيع كُدساً من المراجع والمجلّات والكتب المكتوبة بالإنجليزيّة والتي تتطرّق إلى تاريخ اليابان، خصوصاً مشاكله الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي فُرضت على هذا البلد منذ الحرب. أمّنتُ تقريباً كلَّ الأدب المُترجَم إلى الفرنسيّة أو الإنجليزيّة قديمه وحديثه – من بينها، بالإنجليزيّة رواية جنجي Genji – الرّائعة. واكتشفتُ الروائي الكبير تانيزاكي الذي لم يمضِ على موته وقت طويل. أفادتني روايته *الأخوات الأربع* في التعرّف على العادات اليابانيّة. طلبتُ أيضاً مُساعدة مُترجِمَتي «توميكو أزابوكي»، التي كانت صديقة أختي ومن ثمَّ صديقتي. وُلِدَت ونشأت في عائلة أرسطقراطيّة تملك منزلاً جميلاً محفوفاً بمتنزّه كبير

في قلب طوكيو. تعمّقت في دراستها - خصوصاً في الآداب الفرنسيّة - قبل أن تتزوّج. أمضت قسماً كبيراً من حياتها في طوكيو التي عصفت بها الحرائق والقصف. سنة 45، وجدت نفسها حاملاً ومُفلسة مثل كل العائلة. اضطرّت إلى بيع الكيمونو خاصّتها كي تشتري القليل من الطّعام من السّوق السّوداء. أشرفت على قاعة شاي بعد ولادة ابنتها. كانت ماهرة في الأعمال اليدويّة ما جعلها وهي تخيط فساتينها بنفسها تُفكّر في كسب عيشها من الخياطة. طلّقت والتحقت بباريس يُراوِدُها حلمُ تعلّم تصميم الأزياء الباريسيّة. كانت الرّحلة طويلة ومُهمّة عبر بلدان خرّبتها الحروب. روت ذلك في شهادة لاقت نجاحاً ومتابعة كبيرْين. صرفت النّظر عن الحياكة من أجل الصّحافة ثمّ الترجمة. أقامت في باريس خمسة عشر عاماً وتزوّجت رجلاً فرنسيّاً؛ لكنّها حافظت على اسم عائلتها. كانت في الخامسة والأربعين وكانت تُجيد الفرنسيّة تماماً. ستكون هي المُترجِم والدّليل في رحلتنا. كانت تعرف بلدها جيّداً وكان لديها عدد كبير من الأصدقاء. عادت إلى اليابان عند بداية الصّيف.

ركبنا طائرة يابانيّة 17 سبتمبر على السّاعة الثالثة ظهراً، بعد تأخير دام ساعَة من الزمن. ساعدتنا مُضيفتان فاتنتان تلبسان الكيمونو الجميل. كانت الكراسي مُغلّفة بإستبرق مُزركش، يماثل حافظة الوثائق حيثُ وُضعت تذاكرنا. شغل عُضوان من مجلس شيوخ الاتّحاد الديمقراطي من أجل الجمهوريّة المقاعد المُجاورة. بعد فطور متأخّر قليلاً، لكنه ممتاز، نزلنا للاستراحة في همبورغ التي أعيد إعمارُها بالكامل والتي بدت مع ذلك كئيبة تحت سماء رماديّة. من هناك طِرنا إلى ألاسكا ووزّعت علينا المُضيفات أثواب استحمام جعلها الرّجلان وراء رأسَيْهما كالمساند مُقهقِهَيْن؛ كانا يمزحان مُحدِثَيْن ضجّة ويُجرّبان فرنسيتيْهما مع المُضيفات اللاتي تركن مسافة احترام تجاههما. لم أكن قد تبرّمتُ بعد: بدا لي أمراً فوق الوصف أن أحلّق فوق القطب الشّمالي؛ لم أرَ تحتنا مدّة ساعات سوى هالة من البياض تتخلّلها صدوعٌ سوداء. بعد عشاء لذيذ، نزلنا في أنشوراج: جبالٌ ثلجيّة عالية تُهيمِنُ على سهول محفوفة بهضاب داكنة وشُجيْرات هزيلة ذهبيّة اللّون.

نشعُر بأننا خارج الكوكب، بعيداً عن كلّ حضارة. (عرفتُ منذ ذلك الحين أنّ جميع سُكّان أنشوراج تقريباً يملكون طائرات تصلهم ببقيّة العالم). كان المطارُ عبارة عن مبنى دائري كبير غيرِ مُرحِّب كثيراً، زُجاجي بالكامل تقريباً، حيثُ تتسنّى رؤية المنظر الطّبيعي المُذهل والمُختلف تماماً. هناك، كانت تُباعُ الهدايا والتّحف من العاج وجلود الفقمة. انطلقنا عند الخامسة صباحاً بتوقيت فرنسا، وسُرعان ما قدّموا لنا فطوراً مُكوّناً من رقائق اللّحم: ازدرده العُضوان بشراهة. احتسينا كأسيْن فقط من الويسكي. كم هو مُدهشٌ أن تتدافع السّاعات وتتداخل وتتقاذف. لم يحلَّ ليلٌ منذ انطلقنا. إنما غسق طويلٌ يتبعُه طلوع خاطف للشّمس. فجأة فيما كانت السّاعة تُشير في باريس إلى الحادية عشرة صباحاً، جاء اللّيل. نزلنا في العتمة.

يقرأ اليابانيّون كثيراً. بفضل إجباريّة التّعليم التي فُرِضت سنة 1871، فإنّ 98% من السكّان يذهبون إلى المدارس سنة 1910. سنة 1966، يتلقّى الأطفالُ بنسبة 99% تسع سنوات من الدّراسة على الأقلّ؛ لم يكن ثمّة أمّيون تقريبا؛ كلُّ الطّبقات الاجتماعيّة كانت مُتعطّشة للمعرفة. يلتهم اليابانيّون الصّحف والمجلّات وهم يُشغلون المرتبة الثانية عالمياً في مجال صناعة الكتاب: بلغ عدد الكتب المنشورة سنة 65 خمسة وعشرين مليون كتاب، بعد الولايات المُتّحدة والاتّحاد السوفيتي. تضاعفت سلاسل كتب الجيب. كانوا يرحّبون بالأدب الأجنبي بشكل كبير. خصوصاً للدّفاع عن أنفسهم ضدّ هيمنة أمريكا، التي تبنّت اتّجاهاً سياسيّاً وأهملت الجانب الشّعبي، لدى المُثقّفين بشكل خاص، وكانوا يفسحون مساحة واسعة للثّقافة الفرنسيّة. جميعُ كُتبي وكتب سارتر تمّت ترجمتها. سنة 65 حقّق *الجنس الثاني* الصّادر في سلسلة كتب الجيب أفضل المبيعات. نعرف ذلك لكنّنا لم نتخيّل ترحيباً مُشابهاً. أكثر من مائة مُصوّر فوتوغرافي كانوا في انتظارنا أمام مدرج الطّائرة. نزل العُضوان ثمّ سارتر وأنا. «لا شيء يخصّنا؛ إنّهم فقط يُمطرون سارتر وسيمون دي بوفوار بالصّور»، قال أحدهما حانقاً، تحت استمتاع كبير من طرف السيّدة أزابوكي.

آوتني تحت مطريّتها لأنّ المطر كان يهطل بغزارة. كان الفوتوغرافيّون يسيرون أمامنا متراجعين إلى الوراء مُصوّبين ناحيتنا وابلاً من الوميض: كنّا نتخبّط في برك الماء بسبب الأضواء المُعمِيَة. من الجانب الآخر للدّيوانة. يُشكّل مئات الشّباب حاجزاً بشريّاً. في البداية اكتفوا بالابتسام في صمت؛ ثمّ راحوا يصرخون بأسمائنا، مُمسكين بأيدينا وأذرعنا في جذب ودفع خانق. أدخلونا قاعة صغيرة، ازدحم فيها مئات الصحافيّين وأمطرونا بالأسئلة وسط العرق فيما وجّه إلينا المُصوّرون والكاميرامان أضواءهم البيضاء السّاطعة.

سلكنا طريقاً سريعة تشقّ طوكيو مروراً فوق الطّرقات. باتت هذه السّبل السّريعة أكثر عدداً منذ سنة 1964؛ وتواصلت التجربة بعد ذلك. فصار بالإمكان التنقّل فوق الأسطح أو في الأنفاق التي عوّضت القنوات القديمة. ثمّ أوغلت السيّارة في الشّوارع والطرقات حيثُ حركة المرور مُزدحمة ووصلنا إلى فندق جميل على الطّراز الغربي. كان مُؤثّثا على النّمط التقليدي الياباني: استرعت انتباهي في الرّدهة والممرات، تلك الباقات المُشكّلة على نحو فنّي خالص ومُلغز. تناولنا العشاء بهدوء مع توميكو أزابوكي وأخيها الذي عمل طويلاً في باريس باليونسكو، والذي ترجم العديد من كتبنا وكان يتكلّم الفرنسيّة بطلاقة. كان الأكلُ غريباً، لكنّني احتسيتُ «الساكي» وهو نبيذ الأرزّ الذي يُقدّمُ دافئاً في وعاء. إنّه يُشبه نبيذ الأرزّ الصينيّ قليل نسبة الكحول. صعدنا للنّوم عند منتصف اللّيل - فيما لم يكن التوقيت في باريس قد جاوز الرّابعة مساءً - لم أجد صعوبة في النّوم.

في اليوم الموالي أخذتنا توميكو بصحبة أخيها في جولة على الأقدام وعلى متن السيّارة حول طوكيو: تضمّ المدينة أحد عشر مليون نسمة. تُذكّر أحياء المدينة العصريّة جدّاً بالولايات المُتّحدة: ناطحاتُ سحاب، مبانٍ ضخمة، شوارعُ مُكتظّة بأناسٍ يلبسون على الطّريقة الغربيّة وحركة مرور قصوى. جانبنا سور القصر الملكي الذي كان بصدد إعادة البناء والذي كان مُغلقاً أمام الجمهور. في عمق مُتنزّه مترامي الأطراف، يعبق برائحة الخريف، رأينا معبداً «شنتويّاً» مهيباً. إنّه معبد الإمبراطور مايجي Meiji. مشينا في

شوارع «جينزا» الضّاحكة والمُلوّنة. وهو الحيّ التجاري الأنيق. ثمة محال كبيرة، شبيهة باللّوفر والرّبيع. لكن أكثر ترحيباً لأنّه بالإضافة إلى البائعات المُتعجّلات، هناك مُضيفات يقدّمن المعلومة ويحرصن على الإرشاد؛ توجد أشياء عصريّة جدّاً، وبضائع تقليديّة من بينها الكيمونو الرّائع. لكن على طول الرّصيف، اصطفّ عدد هائل من المتاجر الصغيرة التي تُذكّر قليلاً بتلك المتراصّة في ضاحية «سانت أونوري». لاحظتُ أطباقاً وأطعمة غريبة على واجهات بعض المطاعم. أمّا نحنُ فقد تناولنا الغداء في قاعة صغيرة جدّاً لا تحتوي سوى على ثلاث أو أربع طاولات خشبيّة نظيفة للغاية: أكلنا أسياخ الدّجاج المشوي.

عند السادسة كان لنا موعد مع عشاءٍ دعانا إليه عميد الجامعة في أكثر مطاعم طوكيو شهرة. استقبلتنا صاحبة المطعم والنّادلات اللاتي ركعن حتّى لامست جباههنّ الأرض. نزعنا أحذيتنا قبل أن تطأ أقدامنا الحصيرة ذات اللّون القمحي: تبدو الضّفائر المتعامدة والمتوازية والأرضيّة أحاديّة اللّون كأنّها لوحة تجريديّة؛ كان ذلك ملائماً للسُمرة الحارة للجدران: خُيّل إليَّ أنَّ الغرفة سابحة في شمس صيفيّة.

دعا العميد أساتذة وكُتّاباً ومُخرجين وأحضر فتيات غايشا geichas. جلسنا جميعاً على الأرض أمام مائدة طويلة. جلست النّساء اللاّتي تلبسن الكيمونو - زوجة العميد والغايشا - على الطّريقة اليابانيّة الأصيلة، على كعوبهنّ وهي حركة شاقّة جدّاً، قالت لي توميكو التي اختارت أن تلبس على النّمط الغربي: غطّوا ركبتي وركبتها بالقماش. كان كلّ ضيف محوطاً باثنتين من الغايشا، لا جميلة ولا شابّة، فقط منتدبة لأنّها الأفضل ثقافة. بعضهنّ عزفن الموسيقى وغنّين، لكنّ دورها كان يتلخّص في ملء كأس جارها بالساكي والتحدّث إليه، ما يجعل من النّقاش المفتوح أمراً مُستحيلاً. سألتني جارتي بفرنسيّة أكاديميّة إن كنتُ أفضّل الفنّ الحديث أم الفنّ القديم. أخرى جعلت سارتر يكتب لها على كومة من كُتُبه التي كانت على ملك زوجها. وتناوبت على الطّاولة أطباقٌ يصعبُ تمييزها. كان السّمك المقلي رائعاً؛

لكنّني عانيتُ كلّما كان عليَّ أكلَ التونة الطّازجة: أحمر كالدّم وأكثر وأنا أبتلع شرائح بيضاء ولزجة، أعتقد أنّها مرجان طازج. بدا أنّ سارتر - الذي يزدري السّمك النّيء مثلي - متأقلماً تماماً مع الأطعمة المُقدّمة إليه. كان يبتسم ويضحكُ بأريحيّة.

دام العشاءُ ثلاث ساعات. وجدنا أنفسنا في النّزل منهَكَيْن بعد ازدراد أطعمة غريبة والمشاركة في حوارات حمقاء. حملنا معنا قارورة الويسكي الياباني. كان لذيذاً للغاية. لم يلمس سارتر كأسه. فجأة شحب لونُه؛ وتحسّس نبضه الذي بلغ 120: ضعُفَ على غير العادة. ماذا حصل له؟ لم يشعر بضيق مماثل من قبلُ قط. كانت كارثة إذ يُفترض أن يُشارك في مؤتمر في اليوم الموالي. قفز فجأة إلى الحمّام: لم يعرف أعراض الغثيان، لم يُصَب به من قبل، لغرابة المُفارقة. عاد عليه اشمئزازه من الأكل بأثر عكسي، هو الذي قبل به مُجاملة من باب الأدب. لم يُبقِ مما أكل شيئاً. كان غير قادر على ابتلاع أيّ شيء يومين على التوالي. لم يمنعه ذلك من المقاومة والتحقنا في الغد بالجامعة.

هل كان ما قُمنا به وسيلة لنضمن نفس العدد من الحضور؟

كانت مداخلتي دائماً إمّا بعد سارتر أو قبله. استقبَلَنا الطّلبة في الساحة بنفس الحفاوة التي لمسناها في المطار: كانوا يُلوّحون بلافتات ترحيب. أحاطوا بنا هاتفين بأسمائنا.

مع ذلك، عندما انتهى سارتر من كلامه ولمّا انتهيتُ بدوري أيضاً من محاضرتي، كان التّصفيق متواضعاً وخافتاً للغاية: فسّروا لنا أنّ الأدب لم يقتضي هذا التّقدير. وفعلاً صُدمنا في مناسبات كثيرة من التناقض القائم بين العفويّة العنيفة لليابانيّين وبين تحفّظهم المتصنّع قليلاً حين تكون تصرّفاتهم مُضمرة ومتعارفة. كانت الأيّام التي أمضيناها في طوكيو حافلة. سألنا رجال سياسة وفكر عن وضع اليابان، تحدّثنا مع كتّاب وأساتذة، فأكملنا بذلك ما حصّلناه من قراءة تخصّ هذا البلد. درسنا ثورة مايجي Meiji، وكنّا نعرف أيّ ظروف سمحت لليابان بالإفلات من سطوة الغرب، لكنّنا مُهتمّون أيضاً

بيابان اليوم، هذا المجتاح سنة 45 على نحو مؤسف والذي تحوّل اليوم إلى ثالث قوّة اقتصاديّة في العالم.

بداية هذه القصّة متناقضة. كان همّ أمريكا هو أن تحوّل اليابان إلى بلد ديمقراطي، لذلك أخرجت مُعارضي النّظام العسكري من السّجون - الاشتراكيّين والشيوعيّين - وعوّلت عليهم، فرضت إصلاحات زراعيّة وحلّت صناديق الائتمان وشجّعت على تأسيس النقابات. لكنّها سرعان ما قلبت الموازين: 1947، مُنع الإضراب العام الذي أراده العُمّال. سقطت السّلطة السياسيّة في يد الحزب المحافظ الذي لم يتركه قط. أنشئت صناديق الائتمان من جديد، واستطاعت النقابات جمع أكبر عدد من العُمّال - السوهيو Sohyo - الذي استلهم مناهجه من الماركسيّة لكنّه يستبعد الاشتراكيّة ويضمّ 4 ملايين، إلّا أنّه لا يؤثّر أبداً في الحياة الاقتصاديّة للبلد.

كان أوّل هموم اليابان، باعتبار مساحته الضيّقة، هو الحدّ من نسبة الولادات المتزايدة. أطلقوا حملات واسعة للتّشجيع على منع الحمل، كما شرّعوا الإجهاض الحرّ. مع ذلك فإنّ النموّ السكاني كان بمعدّل مليون في السنة. يضمّ اليابان حسب آخر تعداد سكني سنة 65، 98211935 ساكناً.

كيف استطاع بلد تبلغ عائداته الوطنيّة الخام عشرة ملايين دولار سنة 1950، تحقيق مائة مليار سنة 1966؟

تُفسّر هذه «المعجزة» في قسم كبير منها بخيال المُستثمرين الجدد وجرأة هؤلاء الذين حيّدوا صناديق الائتمان التي فرضتها أمريكا. لم يتأخّروا في الاقتراض: ولم تتردّد البنوك في إقراضهم رغم المخاطر. وسرعان ما استثمروا مرابيحهم خالقين ما يُسمّيه الاقتصاديّون اليابانيّون بـ«الدّائرة المُثمرة». لم يُعلّق بلد آخر أهمّية على الاستثمار مثلما فعل اليابان. حقّق ذلك تقدّماً كبيراً للبنوك، فقد كان ادّخار السكّان عالياً، ربّما لأنّه بلد في مقتبل العمر: 8.5% فقط من السُكّان أعمارهم تفوق الستين سنة. لم يُسمَح بالاستثمار الأجنبي. يعود «البوم» أيضاً إلى حجم الأشغال وجودتها وإلى الأجور المنخفضة التي يتقاضاها العُمّال رغم جهودهم وانضباطهم.

بهذا نصل إلى أهمّ خصائص الاقتصاد الياباني، في اليابان لم تُبنَ الصّناعة على أنقاض الهياكل الإقطاعيّة. السّاموراي هم الذين قاموا بثوة مايجي؛ إنّهم هم الذين حافظوا على القيم والسّلوك والعلاقات الاجتماعيّة الإقطاعيّة بفضل تحوّلهم إلى إداريّين؛ لقد فرضوا على العُمّال أخلاق الإيثار والتفاني: فكان هؤلاء يبدون الولاء لمؤسّساتهم كما يبدي الخادم الطاعة لسيّده.

في الواقع، لم تكن أمامهم وسيلة للهرب؛ إنّهم ينتمون إليه روحاً وجسداً. إنّ الدّيمومة في العمل قاعدة عليا في اليابان. حيثُ يدخل العامل مزرعة فإنّ ذلك يعني التزاماً بالبقاء فيها إلى آخر يوم في حياته. إنّهم يرتقون السُلّم تلو السُلّم حتّى بلوغ سنّ التقاعد. إذا طُرِدَ أحدهم فإنّه لن يجد عملاً: لا يوجد سوق شغل تقريباً. ولا يحدث أن يُفصَل واحد من الموظّفين تقريباً: لكنّ هذا التهديد يظلّ يُثقل كاهله ويُضطرّه إلى الإذعان التام.

يُكلّفُ العامل بساعات إضافيّة؛ لا يُطالبُ بإجازته وإلّا قد يُنظَرُ إليه كأنّه أتى عيباً ما يعني أنّه مُهدّد في مكانه: بالكاد يتمتّع بعطلة يومين أو ثلاثة على أقصى تقدير من فترة إلى أخرى. حتّى «زنغاكورين» (أعضاء منظّمة الطّلبة) المعروفون بشراستهم وثوريّتهم خلال شبابهم، ينضوون تحت هذه العادات حالما يتقلّدون وظائف.

يتقاضى العُمّال رواتب سيّئة للغاية، خصوصاً في المؤسّسات المُتوسّطة والصّغرى. إذ يتميّز الاقتصاد الياباني بخاصّية أخرى وهي «الهياكل المزدوجة». في القطاع الصّناعي 30% من اليد العاملة تنتمي إلى مصانع تُشغّل أكثر من 300 شخص؛ 33% يعملون في مصانع تُشغّل أقلّ من ثلاثين شخصاً. وإذا أدرجنا التّجارة والأعمال في المُعادلة فإنّ 90% من المؤسّسات تُصنَّفُ، إذًا، من فئة الأقلّ من ثلاثين عاملاً ومُوظّفاً؛ 6.04% من تلك التي تُشغّل من ثلاثين إلى مائة شخص؛ 2.9% فقط من بين تلك التي تضمّ بين مائة وبين ألف وخمسمائة وخمسين، أي 0.1% يُشغّلون أكثر من ألف شخص.

المؤسّسات الصّغرى والمتوسّطة نوعان. ثمّة منها ما ينتج الموادّ الاستهلاكيّة التقليديّة: حصر، جوارب بيضاء، كيمونو، قبقاب، صلصة

الصّوجا، القناديل، الشّمسيّات والمراوح، الخ. وهي مؤسّسات ذات طابع عائلي. يبدأ يوم العمل باكراً وينتهي متأخّراً: حوالي العاشرة والنّصف أو الحادية عشرة ليلاً؛ المرابيح ضئيلة جدّاً. مؤسّسات أخرى هي عبارة عن وكلاء عن شركات، وهي شركات تعمل لمصلحة أخرى عملاقة؛ إنّ عددها مهول فهي تُساعد على تخفيض كلفة الإنتاج.

لا يستفيد الشغّالون من المزايا التي تمنحها الشّركات الكبرى، غير أنّها تُعدِّلُ قليلاً رداءة الأجور. مطاعم عمل، تسهيلات سكنيّة، منح، الخ. أحياناً لا يتمتّعون بيوم إجازة في الأسبوع؛ إنّ الظّروف الصحيّة سيّئة جدّاً؛ أجور ضعيفة للغاية وإحاطة اجتماعيّة معدومة. الأجور هزيلة حتّى في المؤسّسات الكبرى؛ ثمّة فئة مُهمّشة للغاية: النّساء و«الظّرفيّون» المنتَدَبون لتأمين فترات عمل قصيرة.

عموماً فإنّ سكّان اليابان يرزحون تحت مُستوى عيشٍ متدنٍّ جدّاً؛ أكل سيّئ ومنقوص، سكن غير لائق، وبرامج إعمار غير كافية. إن كانت اليابان تُصنَّفُ بين الدّول الثلاث الأولى من حيثُ العائدات الوطنيّة، فإنّها تُرتَّبُ في المنزلة الواحدة والعشرين – مثل فنيزويلا تقريباً – من حيثُ مداخيل سُكّانه. تجدر الإشارة إلى أنّ المُعدّات الجماعيّة قد أُغفِلَت من المعادلة؛ ليس هناك طرقات كافية ولا وسائل نقل تفي بالغرض، ولا قطارات: كي تملأ القاطرات على آخرها فإنّه يُعَوَّل على أناسٍ أقوياء «للدّفع من الخلف» من لاعبي الكاراتيه.

ثمّة استياء كبير، إذاً، في صفوف اليابانيّين، يزداد تفاقُماً يوماً بعد يوم ثمّ يظهر في شكل ثورات طُلّابيّة.

حرصنا على اكتشاف اليابان انطلاقاً من هذه المعلومات القاعديّة. ثمّ إنّنا تجوّلنا في طوكيو كثيراً. المدينة ليست جميلة. يغزو سيلٌ كبير من السيّارات الطّرقات وغالباً ما يحدث اختناق مروري. رغم أنّ حركة المرور تنظّمها الأضواء وشرطة المرور. في أماكن أخرى توضَعُ أعلام صفراء في سلال على الرّصيف. إذا أردنا قطع الطّريق فإنّنا نحمل علماً نُلوّح به أمام

السيّارات التي يجب أن تتوقّف آنذاك. نضع العلم في السلّة المقابلة على الضفّة الأخرى.

تُلوّث رائحة البنزين المُحيطَ المُشبَعَ بشتّى أنواع النّفايات الغازيّة الأخرى. قناة الصّرف ضعيفة جدّاً. وخدمات جمع القمامة غير كافية إلى درجة أنّ نهر «سوميدا» الذي يقطع المدينة يدفعُ مليوناً وثلاث مائة ألف طنّ من القاذورات والفضلات.

كُنّا نتجنّب ما أمكن شرايين المدينة الكبرى. كنّا نُفضّل الأحياء الهادئة حيثُ المنازل ما زالت تُحافظ على طابعها التقليدي المُشيَّد بالخشب؛ كانت بعض الطّرقات حافلة بالحركة: كانت غاصّة بالمقاهي حيثُ لعبت الأشرطة الورقيّة والرايات المكتوبة بأحرف يابانيّة رائعة، دور اللافتات؛ تكدّست باقات ورود اصطناعيّة زاهية الألوان أمام المقاهي التي فتحت أبوابها للتوّ. ازدهرت المحلات الصّغيرة، فاليابان وإن كانت بلداً مُتحضّراً وقوّة صناعيّة ضاربة فإنّها ما زالت تحافظ على عراقة تقاليدها وجوانبها العتيقة. كان ذلك التّعايُشُ بين الماضي التقليدي والحياة الحديثة ملموساً جدّاً في السّوق المُغطّى الذي أخذتنا إليه توميكو. أعلى المدخل عُلّق قنديل دائري ضخم من الورق الأحمر؛ اختلطت في المحال المتحاذية في خطّ مُستقيم من الجانبيْن منتوجات تقليديّة وأخرى صُنعت في المعامل: أحزمة، كيمونو، شراب ليمون، سلال، وأدوات وأجهزة؛ أوعية وأغراض صُنِعَت بالجملة مُتسلسِلة. عندما خرجنا من السّوق اتّجهنا إلى معبد بوذي منتصب في قلب ملعب. زرنا خلال الأيّام التالية الساحات والحيّ الجامعي وكنيسة رائعة من الطّراز العصري الحديث ذات جدران وأسطح معدنيّة: تحفة مهندس معماري شاب كانسو تانجي، الذي بنى أيضاً مسبحاً مغطّى، أنيقاً على نحو لافت حقّاً. تسكّعنا بين الطّرقات الجميلة الهادئة بالأحياء السّكنيّة حيث يوجد متحف فلكلوري مُهمّ. أمضينا ساعات في متحف الفنون الجميلة.

مساءً، تبدو طوكيو رائعة. علامات نيون تضيء على الأسطح والواجهات. كانت تومض بألوان لم أرها في أيّ مكان آخر من قبل: بنفسجي حارّ،

برتقالي، أصفر شمسي، أزرق ليلي. كانت العلامات مركّبة كاللّوحات: أحياناً تكون مؤطّرة وسط مُحيط مُستطيل. لم تكن تتلألأ مثل نيويورك؛ كانت تشعّ وتخبو؛ أو أنّها تنتشر وتتراجع ببطء. في الشّوارع التّجاريّة إنّه كرنفال القناديل الورقيّة على شكل الكرة أو السّمكة، حمراء أو بيضاء وغالباً ما تحمل كتابة. (بعض الأمريكيّين المغرمين بفنّ الزان Zen، كانوا يشترون منها لأنّها تُعبّر عن الروح اليابانيّة في حين أنّ المكتوب عليها هو: معكرونة).

السّاعة الأكثر طرافة في اليابان هي الحادية عشرة مساءً، إنّه التوقيت الذي تتوقّف فيه الحياة، لأنّ اليابانيّين يستيقظون باكراً: السّادسة والنّصف صباحاً، 80% من سُكّان طوكيو ينهضون في هذا التوقيت. تُغلَقُ آخر الأكشاك أبوابها عند الحادية عشرة؛ تخلو المقاهي والحانات والمطاعم والكاباريهات ويمتلئ الشّارع بشابات يلبسن على الطّراز الغربي أو الكيمونو، كانت بينهنّ فتيات فاتنات للغاية. إنّهنّ مُضيفات الحانات، والراقصات وهنّ أجمل بكثير من الغايشا. ويُسمعُ ضحك وأصوات رقيقة. بعد هذه الفوضى السّريعة، يُخيّمُ الصّمتُ على المدينة.

مع ذلك فإنّ بعض الأماكن تظلّ مفتوحة حتّى وقت متأخّر وهي بالخصوص في دائرة «شينجوكي»، التي تُذكّر في الآن نفسه بسان-جرمان-دي-پري وبالحيّ اللاتيني. مركزُ الحيّ محطّة عملاقة تجمع كلَّ شبكات القطارات والمترو. يضمّ مبناها مغازة كبيرة، مكاتب، مطاعم، قاعات سينما وكمّاً من المحال.

في الشّوارع العريضة لشينجوكي، يوجد فيض من الحانات والعلب اللّيليّة وعلب الإغراء والموسيقى: بعضها شاسع والبعض الآخر ضيّق جدّاً. أذهلني عدد القاعات المُخصّصة للعب الـ «پاتشينكو Pachinko»: بلياردو آلي عمودي وليس أفقيّاً كالذي عندنا. ثمّة فضاءات يصطفّ فيها الناس بالمئات على طول ممشى ضيّق؛ ما من مكان شاغر؛ يتحكّم اللاّعبون في الفليپر بجنون هادئ. هناك أيضاً مطاعم في الشّوارع: أغلبها مُتخصّص بدقّة في أكلات مُعيّنة دون غيرها: هنا نجد السّمك، وهناك الدّجاج المُحمّر، في

الناحية الأخرى جراد بحر مقلي. تناولنا العشاء في مطعم لا يُقدّم سوى لحم الخنزير. تعرّف علينا أناسٌ من خلال الصّحافة والتلفزيون والأخبار التي أذاعت صُوَرَنا. قبّلت شابّة يد سارتر وقدّمت له علبة بسكويت: إنّها هديّة كلاسيكيّة، قالت توميكو؛ وأضافت أنّ الناس في اليابان يتبادلون الهدايا وهي غالباً أطعمة: صديقة أو جارة حملت لها طبقاً من السباغيتي؛ في اليوم الموالي أرسلت لها توميكو فواكه أو كعكة. في الطّريق، قدّم لي شابٌّ وردة بصمت. كنّا مُلاحَقين من قبل سرب من الطّلبة يريدون توقيعاً. كلّ اليابانيّين المُثقّفين يملكون ترسانة أوراق كرتونيّة مُربّعة: بيضاء من الجانب ورماديّة من الجانب الآخر ذوات حوّاف ذهبيّة اللّون؛ يكتبون عليها الخطّ أو قصائد من نظمهم. يستعملونها كذلك لجمع تواقيع الشّخصيّات المشهورة.

دخلنا حانة شعبيّة، حيث كان رجلٌ يغنّي أغاني فلكلوريّة. احتسينا البيرة. كانت النادلات يلبسن الكيمونو اللّيموني اللّون ذا الأكمام المطويّة. بطلات جسورات حقيقيّات. عندما يسكر أحد الحرفاء ويصبحُ صاخباً فإنّهن يمسكن به ويلقين به في الخارج ضاحكات. ثمّ نزلنا كهفاً يُذكّر قليلا بالأماكن المُحرّمة: شباب في مقتبل العمر يسمعون الجاز ويرقصون وسط فضاء غائم بالدّخان. تعرّفوا علينا فوراً، لكن بكلمة من السيّد أزابوكي، أشاحوا عنّا بأنظارهم برصانة. أنهينا السّهرة في علبة للمثليّين الجنسيّين، كانت مُزوّقة بشكل رائع. كانت هناك صورة لرجل عارٍ خلف الكنتوار ولافتة إشهاريّة لإحدى مسرحيّات «جينيت Genet»: طلب البارمان من سارتر أن يُوقّع اسمه عليها.

عدنا إلى ذلك الحيّ يوم الأحد بعد منتصف النّهار: أخذتنا توميكو إلى نوع من الكاباريه الشّعبي؛ كانت غرفة عارية تتوسّطها منصّة؛ كان الجمهور جالساً على الأرض؛ بعضهم كان نائماً والبعض الآخر يقاوم النّعاس، آخرون كانوا يحتسون الشاي وهم يستمعون إلى الحكواتي، حكايات فاجرة جدّاً، قالت توميكو.

ذات مساء، كنّا في مسرح موسيقي كبير بـ«جنزا». كان في البرنامج

رقصات إغرائيّة وتمثيليّات هزليّة. سخر أحدهم من الرّهبان البوذيّين بشكل فاجأني. نرى راهباً شبِقاً يرسم على الجدار رسوماً بذيئة؛ عندما اقترب منه أحد المارّة، حوّلها بمهارة؛ وحالما أصبح وحده من جديد، حوّلها بجرّة قلم إلى رسوم بذيئة.

كنّا نرغب في فهم المسرح التقليدي؛ لم يكن ذلك سهلاً لأنّه لا يجلب الجمهور: يُحبّذ الجمهور مسرحاً على الطّريقة الغربيّة كُتِبَ بأياد أجنبيّة أو حتّى يابانيّة. نظّم لأجلنا السّيد واتانابي عرضاً خاصّاً في الـ «نو» داخل مسرح صغير حيثُ دعا مائة شخص تقريباً.

كانت القاعة مُغطّاة بسقف يقف على أربعة أعمدة؛ على الفاصل، رُسِمت شجرة صنوبر عتيقة: أصبحت هذه الصّورة رمزاً للـ «نو». يمتدّ الرّكح على نوع من «الجسر» المُغطّى بسقف طويل يصل إلى غاية الحائط حيثُ السّتارة التي تفصله عن الكواليس. من هناك، كان الممثّلون يدخلون.

بدأ العرض بمدخل فكاهي: الـ «كيوجين Kyogen» الذي يرافق الـ «نو» عادة. بدا لي عديم الفائدة والطّعم. النّو في حقيقته نوع من الأناشيد الدينيّة الجنائزيّة التي بلغت ذروة اكتمالها في القرن 14؛ كان عرض بلاط، مُخصّصاً للأرستقراطيّين ومتأثّراً بالبوذيّة والزان.

اتّخذت الفرقة موقعها أوّلاً: مع ناي وآلتيْ تمبور. يلبس العازفون بذلة المدينة في حقبة توكوغاوا (من القرن 17 إلى القرن 19): روبٌ من الحرير الدّاكن يرتدون فوقه سروالا واسعا جدّا وبنطالاً دون أكمام ذي أكتاف عريضة وعالية؛ كورال يرتدي زيّا عصريّاً، جلس على يمين الرّكح.

اقتُبست المسرحيّة «أوينوي Aoinoue» من أحد فصول رواية جينجي Genji. «أوينوي» هي زوجة الأمير جينجي، وهي مريضة جدّاً. جُسّدت بكيمونو ممدّد على الأرض، في مقدّمة الرّكح. ألقت روكوجو المدرّسة القديمة على الأمير مآلاً ملعوناً. خلقت الأوركيسترا جوّاً تراجيديّاً، ورافق الموسيقيّون إيقاعات التمبور بعويل حادّ. برزت حينها روح روكوجو: الممثّل الرّئيس، الـ «شيت». غالباً ما يكون الشّيت عائداً من عالم آخر، لكن

يمكن أيضاً أن يكون تجسيداً لعاطفة: ندم، غضب، أو غيرة كما هو الحال هنا. كان يرتدي بدلة حريريّة رائعة ذات تطريز ثريّ للغاية وبنطلوناً واسعاً جدّاً في الأسفل. كان يضع قناعاً خشبيّاً مشدوداً بحبْلَيْن مربوطين خلف الرّقبة. كان قناعاً ضيّقاً على الوجه ما جعل الممثّل يبدو أكثر نحافة من الواقع. كانت فتحتا العيْنَيْن صغيرتيْن جدّاً، إلى درجة أنّ الممثّل لم يكن ليتحرّك بسهولة لو لا اتّخاذ الأعمدة التي تحمل السّقف، علامة يهتدي بها. بتأييد من الموسيقيّين، والصّيحات الحادّة التي ترافق التمبور، شكا الشّيت من كون جينجي قد أهمله. أثارت الغيرة حنقه. مال على المريضة وضربها بمروحة غاضباً. (استنتجنا مُندَهِشَيْن كما أكّدوا لنا أنّ تعبير القناع يتغيّر حسب درجة ميلان الوجه والطّريقة التي يُضاءُ بها). أطلق الكورال زفيراً دليلاً على عدم الرّضا؛ أرسل خادماً ليستدعي قِسّاً مُحترماً قادراً على طرد الروح الشرّيرة. قدم الرّاهب: إنّه بطل من أبطال الـ «شيت» الكلاسيكي، «واكي» الذي لا يضع قناعاً بل يرتدي روباً أسود فقط. (عادة، هو أوّل من يدخل المسرح وهو الذي يعلن عن قدوم الشّيت) ظلّ يُصلّي. هرب الشّيت ثمّ عاد في هيئته الأصليّة: كان يحمل قناع شيطان. اقترب من الرّاهب وراح يستفزّه لخوض مبارزة: مبارزة لفظيّة، كان خلالها الشّيطان يصرخ بانزعاج فيما كان الرّاهب مُستغرقاً في الصّلاة. أخيراً هرب الشّيطان مهزوماً.

على نقيض الحركات والإيماءات الكهنوتيّة، جاء الإيقاع مُلحّاً من قبل الأوركيسترا، وصياح الموسيقيّين حادّاً، وخلقت أصوات الكورال من الدّراما توتّراً يحبس الأنفاس. يبدو أنّ النّو كان في القرن الرابع عشر أسرع مرّتيْن من اليوم، لكنّ العرض لم يبدُ لنا طويلاً. يُقال إنّه من الصّعب على الغربيّين فهم النّو؛ لاحظنا على عكس ذلك أنّ الانسياق كان كافياً للاندماج في الحدث.

لم تكن مشاهدة مسرح العرائس، أيضاً، البونراكو Bunraku أمراً هيّناً. كانت الفرقة تقوم بجولة وكان علينا أن نقنَعَ بتمثيليّتين لهما شخصيّة واحدة لعبتها الفرقة في صالة النّزل الملكي أمام جمهور أغلبه غربيّون. خلّف لدينا

العرض انطباعاً قويّاً ولاحقاً بعد سنتَيْن قدّمت فرقة يابانيّة الـ بونراكو في «أوديون» فسارعنا لحضورها برفقة توميكو التي كانت في باريس آنذاك. إنّه فنّ خارق واستثنائي أريد التحدّث عنه هنا.

تطوّر البونراكو خصوصاً في القرن الـ18، في أوساط البورجوازيّة الصّاعدة بأوزاكا. إنّه مسرح العرائس الوحيد الذي كُتبت له أعمال فنية خالدة؛ تروي المسرحيّات التي تعود إلى القرن 18 ملاحم إقطاعيّة؛ كانت أيضاً دراما بورجوازيّة حيثُ تبلغ المشاعر الجميلة الذّروة: خادم يقتل ابنه ليُنقذ ابن سيّده؛ يقتل حبيبان نفسيْهما لأنّ زواجهما كان ممنوعاً.

تتحرّك العرائس في مسرح ضيّق. خلفها، فجوة يختفي فيها الرّجل الذي يُحرّكها. يخبر الرّسم على الخلفيّة بطبيعة أو بالفضاء الداخلي الذي تدور فيه الأحداث. يصل عازف ساميسان Samisen ومُغنٍّ ويقفان بجانب المسرح؛ يلعب المُغنّي دوراً مُهمّاً جدّاً: إنّه يؤطّر الحدث ويعير الشّخصيّات صوته. ثمّ يأتي دور مُحرّكي الدّمى التي يُفترض أنّها تمشي على أقدامها. يُمثّل حجمها ثلثيْ قامة الإنسان تقريباً لكنّ الرّأس لا يتناسب مع حجمها فهو صغير. ثمّة ثلاثة مُحرّكين للدّمية الواحدة، الرّئيس ولديه اليدان وهو الذي يُحرّك الرّأس والجسم والذّراع المُستقيمة؛ وجهه مكشوف وثابت بصرامة؛ آخر يُحرّك الذّراع اليسرى وآخر السّاقيْن. هذان يرتديان قناعين وثلاثتهم يلبسون روباً أسود. أحببتُ الدّمى دائماً، لكنّها لم تُقنعني بالكامل قط؛ أو أنّها متكلّفة جدّاً إلى درجة جعلتني خارج اللّعبة، أو أنّها أعاجيب تقنيّة لا دخل فيها للفنّ. عرف اليابانيّون كيف يُوفّقون بين الواقعيّة وبين الخيال. أمّا في القرن الـ18 فقد أصبحت الدّمى الفظّة حيّة، وأصبح بإمكانها التّعبير بالوجه واستلهمت النّصوص من الحياة اليوميّة وظهر المُحرّكون أمام الجمهور، عازف الساميسان والمُغني الذي ظلّ متخفّياً حتّى ذلك الوقت. أدخل عالم الدّمى بسرعة، إنّها تبدو عليلة وفي حاجة إلى عناية طبّية: لكنّ الرّجال حولهم لا يعود لهم أهمّية، إنّهم ينتمون إلى عالم آخر: فهم الأرباب اللا مرئيّة، قوى القدر، قفا المغامرة التي تخوضها بصبر وحرّية، تلك الكائنات التي لا وجود

لغيرها في نظر الجمهور، والتي تجهل أنّ هناك من يتحكّم في مصائرها. تعبّر الدّمى بطريقة عنيفة: فحين تكتئب شخصيّة فإنّ المُغنّي يُطلق صيحة لا إنسانيّة. مؤكّداً بالإيماءات بعض الكلمات والنّغمات. يُخيّل إلينا أنّ أحاسيس الدّمى نابعة منها وأنّها هي المسؤولة عن حركاتها. في باريس، مثلاً، لعبوا فصلاً من حكاية السبعة والأربعين «رونين» (تدوم النّسخة الأصليّة اثنتيْ عشرة ساعة). أخيراً انتحر أحدهم على طريقة الساموراي «هاراكيري». نزع جلابيبَ بعضُها فوق بعضٍ ليُظهر روبه الأبيض. عندما أخذ سيفه وفتح بطنه، تأثّرنا كما لو كان مُمَثِّلا من لحم ودم، ففي العالم الذي نقلتنا إليه القصّة، الموت أمرٌ معقول جدّاً. للمرّة الأولى رأيتُ في المسرح جثّة هي حقّاً جثّة. مُهمَلة على حافّة الرّكح، ما من أنفاس تُحرّكها.

لماذا أعشق النّو والبونراكو إلى هذه الدّرجة؟ قلتُها من قبل: تبدو لي في المسرح الغربي العلاقة بين الواقع والخيال علاقة كسيحة. أمّا بالنّسبة إلى النّو والبونراكو فنحنُ منذ البداية داخل جوّ ينتمي إلى عالم آخر مُنسجم مع ذاته. الأناشيد والأغاني والصّيحات ليست مظاهر تعبير عاديّة لغويّة. الوجوه – مُقنّعة أو منحوتة على الخشب – لا تمتّ للإنسان بأيّ صلة. لا يتمّ التعبير عن الأحاسيس بالإيماءات المُعتادة، لكن من خلال إشارات مُتّفق عليها؛ في النّو، هذه الإشارات مكتومة. كي يُعبّر البطلُ عن ألمه الشّديد فإنّه يلمسُ جبينه بسرعة، بجزء من كمّه الطّويل؛ يُضاف إلى ذلك في البونراكو، أن يُدير المُغنّي عينيْه بجنون، في كلتا الحالَتَيْن، من الواضح أنّ هناك رفضاً لمُحاكاة الواقع. حين تتلاشى الواقعيّة فإنّ الفنّان ينجح جذريّاً في توليد معنى الدّراما بصدق تامّ.

نشأ مسرح كابوكي من البونراكو: وقع تمثيل المسرحيّات التي كُتبت للدّمى في القرن 18 من طرف ممثّلين من لحم ودم. سنة 1955 مرّت فرقة يابانيّة بـ «بيكين»، فشاهدنا عيّنة أذهلتنا حقّاً. خصّصنا له في طوكيو أمسية كاملة.

دعانا المُمثّل الرئيس وهو رجل مُسنّ وبدين جدّا إلى حجرته أثناء

قيامه بالمكياج. نزعنا أحذيتنا عند المدخل – تعوّدنا بسرعة على العيش من دون أحذية أغلب أوقات النّهار – وجلسنا على الأرض، رأيناه يطلي وجهه بمسحوق الرّصاص ويضع باروكة ويلبس الكيمونو وهي ليست مُهمّة سهلة فقد ساعده على ارتدائه آخرون. إثر عمليّة التحوّل، حصلنا بدل الرّجل السّمين على عجوز قبيحة. تندرج المسرحيّة ضمن نمط من الكوميديا الخالية من البذاءة، واقعيّة مُسطّحة، عجائبيّة دون فنتازيا. أحسستُ بالضّجر كثيراً.

لا أتذوّق طمس الحقائق لدى اليابانيّين خصوصاً حين يكون مُغمّساً في السّفاهة. فقد سبّب ذلك سخطاً كبيراً، في فرنسا، نهاية القرن. لكن في طوكيو عُرضت في المتاحف أعمالٌ فنّية من نوع مُختلف تماماً عن نمط التّوازن الواقعيّ الذي يُجسّده البونراكو.

بعض الخطوط فقط كافية للإشارة إلى الجبال أو السّحب؛ في هذا الدّيكور تعيش شخصيّة مرسومة، بدقّة فائقة، حياتها اليوميّة ببساطة. ينسحب الأمر ذاته على الرّسوم الجميلة على الحرير خلال القرن الحادي عشر التي تُظهر تلاميذ بوذا؛ وعلى لفافات القرن الثاني عشر حيثُ تدور أسطورة احتراق قصر الإمبراطور. مائتان وسبع وعشرون شخصيّة مرسومة بمهارة بالحبر الصيني تهرب مذعورة في فوضى عارمة. على ورق جميلٍ، رُسمت مشاهد من رواية جينجي على خلفيّة ذهبيّة اللّون. تجرُّ عربة ذات عجلتين بقرةً نحو قلعة. على أوراق ذات خلفيّة ذهبيّة، رُسمت أيضاً بورتريهات لبعض الوزراء.

مساءً، ونحن نحضر مسرحيّة من نوع نو، قُطِعَ العشاءُ الذي تلا العرض: أُعلِن عن إعصار وسارع الجميع إلى بيوتهم. كنّا نائمَيْن عندما أخذت الرّيح تعوي في الخارج، عند الواحدة صباحاً، تقريباً. عندما استيقظنا كانت غُرَفُنا مليئة بالغبار: تسلّل من النّوافذ التي فتحها الإعصار دون مشقّة. في الخارج، كانت هناك أشجارٌ مُقتَلَعة مُلقاة على الطّريق. أمضت أمّ توميكو وبعض الأصدقاء الذين يسكنون منازل واطئة في طوكيو ليلة مُرعبة: اهتزّت الجدران

وارتجّ الزّجاج. سبّب الإعصار أمواتاً. غمر سيلٌ من الوحل قرية على سفح فوجياما. بالكاد تُعتبرُ هذه الكوارثُ حادثة: إنّها جزء من حياة اليابانيّين. كانوا خلال الاحتلال يُطلقون على الأعاصير أسماء نساءٍ أمريكيّات، الآن صارت لديها أرقام، إنّها تأتي عادة من الجنوب في اتّجاه الشّمال. تذكُر توميكو أنّها عاشت إعصاراً من قبلُ في الرّيف وأخافها كثيراً: كان طوفاناً؛ دخلت المياه إلى البيت، وتبلّل فراشُها بالكامل. اقتُلِعَت أشجارٌ ضخمة من جذورها.

تعرّفنا على قريبة توميكو، «يوشكو». ابنة وزير العدل وواحدة من أشهر المُغنّيات في اليابان: يُعتبَرُ ظهورها في التلفزيون حدثاً بحدّ ذاته. عاشت في باريس طويلاً لممارسة الغناء - «أغنّي فقط» أوضحت - في كاباريه العراة. كانت صديقة لجياكوميتي. كانت أيضاً مُتعهّدة حفلات وفي المساء الذي التقيناها فيه، كانت مشغولة جدّاً لأنّها كانت في انتظار سبعين مُغنّياً من الجيش الأحمر سيأتون في الأسبوع المقبل.

دعتنا للفطور في مطعم فاخر لا مكان فيه سوى للقاعات الخاصّة؛ جلسنا على الأرض أمام مائدة واكتشفنا أنّ هُوَّة تُفتَحُ تحت أقدامنا، هكذا بدا أنّنا مستقرّون على الأرض دون أن نُضطَرَّ إلى عيش مساوئ تلك الوضعيّة وآلامها. أعجبتنا الخدعة. قدّموا لنا شرائح لحم لذيذة. من النّادر في اليابان أكل لحم العجول لأنّها باهظة جدّاً. مع ذلك ظلّ السّمك النيء ذكرى بعيدة. في كلّ طوكيو، لم نكن نأكل سوى الأكلات الفرنسيّة الممتازة. ثمّة جعة ألمانيّة أيضاً: في تلك الحانات، نادلات شقراوات متنكّرات في هيئة جرمانِ «تيرول» الفلكلوريّة.

أراد أصدقاؤنا أن نرى الرّيف المجاور. وصلنا إلى قرية هاكون، عبر القطار ثمّ بالسيّارة، بعد ذلك اتّجهنا إلى نزل يعلو بحيرة محوطة بالتّلال. كان الغطاء النباتي وارفاً ومتناسقاً. أدهشتني نظافة القرى والمنازل والطّرقات ورقّة الأزهار التي يزرعها القرويّون حول مزارع الخضر المرتّبة للغاية. رأينا بيت توميكو الريفي ومنزل أحد أصدقائها حيث تناولنا العشاء: أحبّ هذا الدّاخل المتواضع حيثُ تضيء القناديل بهدوء،

وحيثُ الطّبيعة تُطلّ عليك من كلّ جانب. يوشكو هي التي أنجزت العشاء على الطّريقة اليابانيّة اللّذيذة.

خرجنا، في اليوم التالي، في جولة بالسيّارة أعلى البحيرة على طريق محفوف بمزارع العنب؛ تلك كانت الدّروب التي يسلكها التُجّار للذهاب من طوكيو إلى كيوطو. على الحدّ الفاصل بين المدينتَيْن تحوّل مركز الجمارك إلى متحف؛ داخل المتحف يمكن رؤية الساموراي في حجمهم الطبيعي بزيّهم الذي كانوا يحملونه في القرن الـ18، مُتّخذين وضعيّات مُختلفة تُحتّمها أعمال الحراسة.

إحدى أكبر متع اليابانيّين، هي ارتياد الحمّامات. توقّفنا في «أتامي»، هناك لا يستحمّ الناس في البحر بل في الحمّامات، وهي عديدة ومُقسّمة بين مسابح وحمّامات ماء ساخن وقاعات تدليك. أحياناً تسبح النساء والرّجال على حدة وأحياناً معاً: عموماً فإنّ اليابانيّين مُحافظون فيما يتعلّق بالجنس لكنّهم لا يجدون غضاضة في إبداء عريهم في القاعات والحمّامات العائليّة والعموميّة. ألقيتُ نظرة على قاعة مُخصصة للنساء وسارتر على قاعة للرجال. بعد ذلك زُرنا الحصن المُشرف على المدينة حيثُ الإطلالة تسمح برؤية قسم كبير من الساحل. تناولنا الغداء في نزل ينحدر في العشبُ وزهور «الرودندرون» والصّنوبر، بهدوء نحو البحر. شاهدتُ في تلفزيون بالرّدهة قتال سومو: يعشَقُ اليابانيّون هذه الرّياضة؛ المقاتلون هم عبارة عن كتل بشعة من اللّحم والشحم؛ يجري القتال بين اثنيْن عراة الجذع؛ الفائزُ هو الذي يتمكّن من إخراج خصمه من دائرة التباري. أنا، وجدتُ هذه الرياضة مملّة جدّاً لأنّ كلّ اقتتال كانت تسبقه طقوس طويلة، فيما لا تدوم المباراة سوى أقلّ من دقيقة.

لدى عودتنا إلى طوكيو ركبنا أسرع قطار في العالم، لقد كان في وسعه التهام 525 كيلومتراً في غضون ثلاث ساعات، متجاوزاً أحياناً الـ250 كيلومتراً في الساعة. كان مسارُه مُكهرباً وعالياً وهو مُخصّص فقط للمسافرين. وكان التحكّم فيه إلكترونيّاً. كدنا نُفوّت رحلتنا نظراً للازدحام

ولأنّنا فقدنا أثر توميكو وسط المحطّة الضّخمة. كان من السّهل صعود قطار آخر. ينطلق من طوكيو خمسة وخمسون قطاراً يومياً. لكن كان لدينا موعدٌ مع أصدقاء في ذلك القطار بالذات وكان علينا الرّكض للّحاق به: انتظرونا ثلاث دقائق وهي خدمة جليلة. لاحت لنا حقول الأرز الخضراء، قرى متجمّعة بوقار على سفح الهضاب؛ لكنّ فوجياما كان غارقاً وسط الغيوم. أخبرنا أصدقاؤنا بأنّ المسافرين لا يحملون حقائب في هذا القطار ولا في الذي ركبنا فيه قبله: كيس صغير يكفي لأنّهم في كلّ الأحوال لن يُغادروا وظائفهم مُدّة تفوق يومَيْن أو ثلاثة. كيوطو مشهورة بجمالها حتّى إنّ الأمريكان لم يقصفوها. لقد حافظت على أحيائها القديمة وعلى ألف وسبع مائة معبد. من نوافذ غرفنا بالنزل، كنّا نرى منازل قديمة واطئة الأسقف ذات أسطح داكنة، النّهر الصّغير الذي يقطع المدينة، طرقات محفوفة بالدّكاكين. أحببنا كيوطو منذ الوهلة الأولى. قال لنا أصدقاؤنا إنّ غابرييل مارسيل الذي سبقنا بقليل لم يحبّها. أمام النّهر تذمّر قائلاً: «بوف! هذا لا يُضاهي السّين». كان يكره اليابان لأنّها بلدٌ يُشجّع على تحديد النّسل.

قدّم كل منا مُحاضرة في فناء كبير. يولي اليابانيّون عناية فائقة للدّيكور الأنيق حتّى منصّة المحاضر التي كانت في حدّ ذاتها تحفة تسرّ الناظر. كانوا، عدا الكرسي الرائع، يضعون باقات زهور لا أحد يعرف سرّها غيرهم؛ نشروا خلفنا لافتة على شكل فاصل خشبي قابل للطيّ كُتبت عليها أسماؤنا بأحرف سوداء جذّابة.

التقينا أناساً كثيرين: كتاباً، متخصّصين في تاريخ الفنون، فلاسفة، طلبة، أساتذة. تجري المحادثات، عادة، أثناء العشاء. في كيوطو تنتشر عادة المطاعم-الحدائق: خلف حاجز بلّوري، بعض الأشجار وبعض نباتات البامبو مُوزّعة على نحو يوحي بمنظر طبيعي شاسع؛ يُقدّم الأكل على طاولات صغيرة، أطباقٌ شعبيّة نسيتُ أسماءها: لحم عجلة نطهوه بأنفسنا على مواقد صغيرة، أو بغمسه في حساء حارق.

ولأنّ سارتر كان قد صرّح لدى وصولنا إلى اليابان في مؤتمر صحافي

بأنّه يحترم كثيراً كُتُبَ «تانيزاكي» فقد دعتنا زوجته. قبل أن تتزوّج الكاتب، الذي كان في شبابه يؤلّف روايات إيروتيكيّة، كانت زوجةَ أحد أصدقائه؛ وكانت لفترة من الزّمن بموافقة زوجها عشيقة لتانيزاكي، الذي كان بدوره متزوّجاً؛ أرسل الأخيرُ زوجته للعيش مع أحد أصدقائه وتزوّج السيّدة تانيزاكي الحاليّة. راجت الحكاية في الأوساط الأدبيّة واعتبرت فضيحة غير مسبوقة.

في *«الاعترافات العاهرة»* وفي *«مذكّرات شيخ مجنون»* وصف الكاتب تجارب إيروتيكيّة خلال شيخوخته؛ في الرّواية الأولى، كانت خليلتُه هي زوجته، في الثانية، زوجة ابنه. كان لدينا فضول للقاء بهم.

كانت السيّدة تانيزاكي تقطن في إحدى ضواحي كيوطو؛ استقبلتنا لابسة كيمونو، تبادلت مع توميكو تحيّة عميقة. أخذتنا إلى المقبرة حيثُ دُفنَ الكاتب، ثمّ دعتنا لاحتساء الشاي في معبد. كالعديد من الأديرة القديمة فإنّ المعابد هي أيضاً ذات صبغة فندقيّة حيثُ كان من الممكن الحصول على الطّعام والإيـواء: بعضُها لم يكن يحتوي على ضريح مُقدّس. استقبلنا راهب فيما يُشبه الصالون؛ قدّم لنا مشروباً أخضر في وعاء كبير، كانت مرارته لا تُطاق، وقيل لنا إنّه الشاي الياباني. كان يُداعبُ مسبحة فيما راح سارتر يسأل أرملة الكاتب عن حياة زوجها الجنسيّة: هل تُشبه ما رواه؟ في الواقع، لقد أراد أن يُمارس معها بعض التجارب التي وضعها في كتابه والمتعلّقة بالعازفة العمياء؛ رفضت في البداية ثمّ بعد ذلك وافقت لأنّها كانت مُعجبة به كثيراً. لكنّه كان فنّاناً، كان يعيش الأشياء في خياله وكانت عاداته نقيّة جدّاً. كانت وهي تتكلّم تمسحُ دموعاً وهميّة بواسطة منديلها: نفسُ الحركة التي كان يقوم بها الممثل العجوز الذي رأيناه يُجسّد البطلة الحزينة. بعد أيّام دعتنا السيّدة تانيزاكي إلى «بيت غايشا»: كان هناك غناء ورقص لا قيمة له. كانت زوجة ابنها برفقتها، لكنّنا لم نتحدّث معها. تجوّلنا كامل المساء في السوق المُغطّى الشاسع، وفي أسواق مُضاءة بالنيون؛ يباع فيها كلّ شيء: بضائع تقليديّة محلّية ومنتجات

مصنعة، ملابس، مأكولات من كلّ الأصناف. تجوّلنا أيضاً في شوارع الغايشا العديدة في كيوطو التي كانت تسكن حيّاً أخّاذاً. وجدنا العديد من الحانات والمطاعم المُرحبة. دخلت حانة مع توميكو وسارتر: جثت مُضيفتان عند أقدامنا. صمتنا، وكان حضورهما ثقيلاً ومُحرجاً إلى درجة أنّنا خرجنا فوراً. حتّى لو خرجنا نساءً فقط، فنكون فريسة للمُضيفات. كان حلّنا الوحيد هو دخول قاعة شاي حيثُ ولحسن الحظ، كانوا يُقدّمون الويسكي، والمنقوع.

الفيلا الإمبراطوريّة رائعة جدّا: مبانٍ ذات طابق واحد، مُغطّاة بقرميد أخضر، متباعدة على مسافة طويلة. المتنزّه ساحر. دائماً ما تلتقي الهندسة المعماريّة بالحدائق. طبيعةٌ مُرَوَّضة: فُرض الشّكل والحجم والأشجار على الطّبيعة بحكمة ومعرفة؛ كلّ حصاة وكلّ جسر أو ربوة، هي في الأساس نتاج لدراسة سابقة شديدة الدقّة. إنّها بالإضافة إلى القناديل الحجريّة، عوالم مُصغّرة حيثُ كلّ عنصر يلعب دوراً رمزيّاً دقيقاً: مع ذلك فأنت لا تلاحظ أنّها متكلّفة أو مخادعة، بل كانت تأسر الأبصار بجمالها. تُصَمَّمُ هذه الحدائق عادة، مع الأخذ بعين الاعتبار الجبال والغابات المُحيطة بها، فتبدو، إذًا، جزءًا منها.

ثمّة أيضاً حدائق صخريّة، حيث تُجمَعُ في مكان ضيّق صخور كبيرة ذات أشكال باروكيّة. اللافتة بينها هي حديقة الزان داخل المعبد. الزان ممارسة منسلخة عن البوذيّة يرمي إلى منح الإنسان القدرة التامّة على السيطرة على النّفس والجسد من خلال الانتقال إلى الصّفاء. لقد أثّر في كلّ الفنون: رماية السّهام، المسرح، الرّسم. وهناك حدائق على منهج الزان. «حديقة الصّخور» المشهورة في ضاحية كيوطو وهي ساحة مُستطيلة الشّكل: حيثُ الأرضيّة مكسُوّة بالرّمل الأبيض؛ رُسمت عليه خطوط ودوائر وأخاديد بالمشط؛ وُضِعت على نحو هندسي لا يسمح أبداً برؤية أكثر من أربعة عشر شكلاً هندسيّاً من أيّ زاوية نظر. لفت انتباهنا المشهد في تقشّفه: تأمّلناه طويلاً. كان بالإمكان رؤية جزر صغيرة تظهر

في البحر وأخرى يبتلعها؛ أو حين نكون على متن طائرة، نرى قمماً تثقب السّحب؛ أو التخلّي عن الكائن في صميم العدم؛ أو ببساطة حجارة سوداء على خلفيّة رمل أبيض.

في كيوطو وضواحيها وفي «نارا» أيضاً، زُرنا عدداً كبيراً من المعابد. ثمّة صنفان منها: الشينتو والبوذيّ. أب واحد؛ يتّخذون من الإمبراطور تجسيداً للذّات العليا؛ ثمّة، إذًا، بين هذا الدين وبين الدّولة صلة عميقة حطّمتها أمريكا بعد الحرب.

إذ يعتقدون الشينتو مسؤولاً عن الوحدة الوطنيّة والعدوانيّة اليابانيّة وفرضت «مبادرة» سياسيّة فصلاً تاماً بين الشينتو وبين الدّولة. النّتيجة هي أنّ الرّهبان وجدوا أنفسهم محرومين من دعم الدّولة المالي فالتفتوا إلى الشّعب، عندها تفشّت موجة حماس غير مسبوقة للشينتو. هكذا ازدهر ذلك الدّين. يُعظّم الألوهة المتجسّدة في قوى الطّبيعة. أمّا البوذيّة فهو يدين بمذهب تقديس المنقذ الذي خلّص الإنسان من دوّامة الجحيم التي يسبّبها له البعث كي يُمنَحَ أخيراً فرصة تلذّذ يوم سلام في نيرفانا أو مباهج الفردوس. يُمارس اليابانيّون الدّينَيْن معاً. يعتني الرّهبان البوذيّون خصوصاً بالنّظريّة، أمّا الشينتو فهم من يهتمّ بالاحتفالات ومنها الزفاف؛ ويُعهَدُ إلى البوذيّين بالطّقوس الجنائزيّة. إنّهم يساهمون في عقيدة الشينتو والعكس صحيح أيضاً.

للمعابد الشينتويّة صبغة شعبيّة. كانت مفتوحة أمام العموم، قد تكون صغيرة كخليّة لكنّها غالباً فسيحة كقرية. للدّخول، يجب المرور تحت «توري Torri» وهي بوّابة دون باب، تسندها دعامتان أفقيّتان. في أماكن أخرى تكون «توري» عبارة عن جداول مائيّة، حواجز تحدّ فضاء المعبد عن بقيّة المناطق. المباني والتوري من الخشب، وهي غالباً ما تكون مطليّة بألوان بنفسجيّة: حمراء أو برتقاليّة فاقعة. إنّها دائماً محوطة بحدائق بحيرة وحيثُ تنتصب فوانيس صخريّة عالية. ثمّة عادة سَمكٌ أحمر يسبح في الحوض وفي متنزّه الحيوانات الحيّة: أحدها كان حافلاً بغزلان تأكل من أيدي الزُوّار.

يحتوي المعبد عادة، على العديد من الأبنية: مساكن الرّهبان، الأجنحة التي يستقبلون فيها الزُوّار، الأضرحة الموصدة أمام اللائكيّين. تحرُسُ بابَ الـ«هوردون Horden» حيوانات عجيبة. في الساحة، كان التُجّار يبيعون التمائم: خطاطات ورقيّة، أجراساً، حيوانات صغيرة. يُهدي المُريدون للأرباب أغصاناً صغيرة عُلّقت عليها قُصاصات ورق بيضاء: توضعُ خارج المُصلّى. يُؤدّي الشّينتو أحياناً، في الساحات، أو داخل الأفنية احتفاليات كبيرة تتخلّلها الموسيقى والرقص المُقدّس.

لدى المعابد البوذيّة خطوط وألوان أكثر رصانة. فضاءاتهم فسيحة فيما حدائقهم أقلّ إشراقاً وتزمّتاً. لكن في الدّاخل يملكون لوحات جميلة ومنحوتات مُذهلة: من البرونز أو من الخشب، تماثيل لبوذا: كانون Cannon، مُحاربين، وموسيقيّين. رأيتُ في «نارا» تماثيل عتيقة لبوذا جميلة مثل الكوراي الإغريق.

قصر الذّهب في كيوطو معجزة هندسيّة. يحتوي القصر القديم الذي تحوّل فيما بعد إلى معبد زان، على ثلاثة طوابق: الطابقان العلويّان مكسُوّان بالذّهب. انعكست صورته على البحيرة التي توزّعت عليها، كما هو حال بحيرات اليابان، جزر صخريّة صغيرة. شُيّد سنة 1955، بعد حريق تسبّب فيه لدوافع غامضة، راهب شاب مُكلّف بحراسته: ألهمت الحادثة رواية للكاتب الياباني الشهير ميشيما.

تضجّ المعابد بتلاميذ يضحكون ويثرثرون؛ كانوا جميعاً، على ما يبدو، مُجهّزين بآلات تصوير وكانوا لا يتوقّفون عن التقاط الصّور.

غادرنا كيوطو. صعدنا في السيّارة إلى الطّريق الجبلي «كويو» وسط طبيعة خلّابة. كان الجبل مكسُوّا بغابة صنوبر: تمتدّ على سفحه مقبرة قديمة على كيلومترات؛ يلفُّه الصّمت وغلالة كثيفة يداعبها شعاع شمس من حين إلى آخر. المعالم الجنائزيّة بسيطة جدّاً: شاهدة قبر وأعمدة. أحياناً تجتمع العناصر الخمسة: كرات بيضاء بعضها فوق بعض تُمثّل الماء، التّراب، النّار، الهواء، السّماء. كانت معزولة تارة ومُجتمعة تارة

أخرى. من بعيد يلوح الإله الضّاحك الصّغير، الذي يحرس الطّفولة: حاملاً صدريّة بيضاء أو حمراء بين ذراعيه؛ هنا، فقط، نجد اللّمسة المُلوّنة الوحيدة بين الجذوع الدّاكنة للأشجار. (عادة، ما نرى الإله الصّغير على باب المعبد: غير مسموح له بالدّخول إلى المُصلّى). تجوّلنا بين المقابر بصحبة راهب حليق الرّأس، يرتدي روباً أسود. كلّ الذين التقينا بهم كانوا مُهتمّين بأعمال سارتر بصورة أدهشتني: اجتمع الدّمع في مُقلتيْه وهو يمدّ يده ليصافح سارتر. حدّثني آخر بحرارة عن *الجنس الثاني*. هتف ضاحكاً: «لكن أتعلمين، في ديننا، لا تستطيع المرأة دخول الجنّة؛ عليها أوّلاً أن تتحوّل في صورة رجل». ظاهريّاً، لم يكن مؤمناً بما يقول.

أدخلنا الدّليل إلى قاعة من قاعات المعبد، كانت مُغطّاة وتفتح على حديقة، هناك تناولنا وجبة باردة أحضرها لنا، ثمّ عبر طريق جبليّة جديدة أشرفت في البداية على البحر من عُلُوّ شاهق، نزلنا إلى «شيما»، على ضفاف المحيط الهادي. وصلنا إليه ليلاً، وكانت مفاجأة لنا، أن اكتشفنا المنظر صباحاً. كُنّا في عُمق خليج حيثُ الساحل المتقطّع مكسُوّ بغطاء وافر وجافّ؛ على الشّرائط المائيّة التي تقطع الأرض الغابيّة، كانت هناك تعريشات خشبيّة هي في الواقع زرائب محار: أسطول مُسطّح فسيح. كنّا نشعر بالمُحيط خلف نوع من المضيق البحري. أخذَنا زورق في جولة رغم المطر. كانت هناك نساءٌ يصنعن قلائد في أكواخ عائمة: تفتحن المحارة حيّة، تضع قطعة صدف تحت لحمها وتُغلقها. ثمّ بعد ذلك يوضَعُ المحارُ في سلال مربوطة تحت عوّامات سابحة في البحر. يحصلون على لآلئ كبيرة حسب الوقت الذي خُصّص لها كي تتشكّل، لكنّ احتمال وقوع عاصفة خطيرة تُدمّر الحوض، عالٍ جدّاً: عموماً تدوم «الزّراعة» خمس سنوات. في شيما لا أحد يجمع المحار للؤلؤ من قاع المُحيط؛ لكنّنا رأينا امرأة تغوص كي تبحث تحت الماء عن تلك الرّخويّات الكبيرة ذات اللّحم المطلوب والقواقع الصّدفيّة التي تُسمّى أذن البحر obalone بالإنجليزيّة.

في النّزل تناولتُ في الغذاء جراداً تمّ اصطيادُه من الميناء واتّجهنا

نحو معبد «إيزي Isé»: إنّه الأقدم والأكثر تبجيلاً في اليابان. وهو معبد شينتو ذو هندسة معماريّة كئيبة وخشب طبيعي غير مُزخرف. من خلاله يكتمل التحام الإنسانيّة بقوى الطّبيعة وخوارقها؛ لكن ولكي يظلّ المعبد حيّاً أبد الدّهر فقد كان عليه أن يظلّ شابّاً، لذلك فهم يعيدون بناءه كلّ عشرين سنة. بمحاذاة البناية الحاليّة تمتدّ أرض ستستقبل البناية القادمة. يقع المعبد وسط صنوبر باسق، ذي جذوع عريضة، واحدة من أجمل ما تزخر به الطّبيعة في اليابان. إنّه مكان يحجّ إليه المُخلصون لذلك فهو دائماً حافل بالزُوّار. مُنعنا من الدّخول إلى المُصلّى. لكنّ راهباً نظّم لنا، في جناح مُجاور، عرضاً هو عبارة عن رقصات دينيّة.

عندما عُدنا إلى كيوطو، أصرّت توميكو على أن ننزل في خان ياباني. اختارت أفضل ما في المدينة، لكنّ الإقامة لم ترق لنا. كانت الغُرف ممتازة، خالية تماماً، تفتح على شرفة حيثُ وُضعت طاولة وكُرسيّان وثيران؛ عبر الزّجاج كان في الإمكان رؤية باقة بامبو. فقط، كان علينا نزع أحذيتنا قبل الدّخول إلى النّزل؛ أدّى المُوظّفون تحيّة ركوع لدى وُصولنا، ولدى رحيلنا؛ لم تكن الأبواب تُغلَقُ بالمفاتيح، وكانت المُدبّرة تدخل بشكل مُفاجئ وعشوائي: أصرّت في اليوم الأوّل على أن نأخذ حمّاماً عند الخامسة مساءً. كنّا نُفضّل عدم الاكتراث بنا على غرار النُزل الغربيّة. لم نلبث سوى يومين على أيّة حال؛ من جديد زُرنا زوايا كيوطو التي أعجبتنا في المرّة الأولى.

أمضينا ما بعد الظّهيرة في أوزاكا. رأينا حيّاً شعبيّاً بوجوه كالحة. تحوّلنا بعد العشاء إلى «كوبي» على متن سيّارة تاكسي، حيثُ سيتعيّن علينا ركوب البحر الدّاخلي. قطعنا أربعين كيلومتراً من شريط مصانع. طلبت توميكو من السّائق التمهّل. لم يكن مُسرعاً. لكنّ سياقته كانت مباغتة وخرقاء على نحو يبعث على القلق. السُواق اليابانيّون خطرون. فهم إذ يبدؤون نهارهم عند الثامنة ويتوقّفون عن العمل الثانية بعد منتصف اللّيل. ثمّ يرتاحون أكثر من أربع وعشرين ساعة؛ لكن، ولأنّهم لا يجنون ما يكفي من المال فقد كانوا يُضطرّون إلى العمل خلسة خلال أوقات الرّاحة. الحوادث التي يتعرّضون

إليها متواترة كثيراً. إجمالاً فإنّ نسبة الحوادث في اليابان مرتفعة جدّاً؛ حطم هذا البلد الرقم القياسي. بنسبة 3.3% حالة موت على 1000 سيّارة في حالة جولان. يعود ذلك إلى قلّة الطّرقات وضعف شبكة التنقّل البري. لكن أيضاً بسبب طريقة اليابانيّين في السّياقة التي تُسمّى كاميكاز المقود. وعلاوة على أنّهم يقودون بطيش وعنف فهم يجهلون قانون الطّرقات. شعرت بالاسترخاء لدى دخولنا إلى «كوبي» ولاح لي النّزل. مال السّائق نحو النّزل ورأيت من جهة اليمين سيّارة تتّجه مباشرة نحونا. تابع سائقنا سيره غير مبال. صرخت: «الأحمق! - إنّه يصطدم بنا!» و«بـاااان»! (صوت ارتطام): اصطدمت السيارتان. حرق سائقنا ضوءاً أحمر.

لم نتلقّ صدمة قويّة في الخلف أنا وسارتر وتوميكو. لكنّ المُساعد الشاب للسيّد «واتانابي» نزف بشدّة وبدا مرعوباً. نقلته سيّارة شرطة إلى المستشفى. لم يتضرّر كثيراً وأمكنه في اليوم الموالي الالتحاق بطوكيو. تحطّمت السيارتان. سرعان ما شاع الخبر؛ طاردنا الصحافيّون ليلة كاملة وتلقّت توميكو كمّاً هائلاً من المكالمات.

في اليوم الموالي استقللنا مركباً كبيراً مريحاً وتوغّلنا في البحر الداخلي: بحر هادئ، مرشوق بجزر صخريّة بين سواحل متقطّعة. قمنا باستراحات في بعض المراسي الصّغيرة. حمل سارتر معه للمرّة الأولى آلة تصوير واستخدمها بحماس كاليابانيّين تماماً. نمنا في «بيپو Beppu»، محطّة مياه ساخنة. من النّزل الواقع أعلى تلّة، كنّا نتأمّل المدينة تحت أقدامنا حيث البخار يتصاعد من مختلف المنابع. تحوّلنا لرؤيتها صباحاً. إحدى المحطات كان ماؤها أحمر؛ أخرى كان يتدفّق منها ينبوع حار حدّ الغليان؛ عين أخرى، كانت مُغطّاة بزنبق ذي أوراق ضخمة حتّى إنّه بإمكان المرء الجلوس فوقها. من هناك ذهبنا إلى جبل «آزو Azo»، على متن سيّارة مستأجرة - كانت السّياقة متّزنة وحذرة -: عند بداية الرّحلة، ولكي لا يُضايقنا السائق، دفع بالأدب إلى حدّ بدا معه سائقاً مُحترفاً: أخيراً، أخبرتنا توميكو بالحقيقة.

جبل آزو هو بركان ذو فوهة منتفخة، ينفث دخاناً كثيفاً ورماداً؛ كان لجداره

المُجعّد والمتصدّع ألوان جهنّمية: أخضر - رماديّ، رماديّ - أبيض، رماديّ - أسود. يحدث أن يقذف حمماً وحجارة. مُحيطه صحراء من الرّماد. نزولاً، رأينا غطاءً نباتيّاً بالكاد ينمو، ثمّ الأعشاب والأشواك الورديّة.

نمنا في المدينة الصّغيرة «كوماموتو» من نافذة غرفتي كان بإمكاني رؤية رجال جالسين على طاولات موزّعة على العشب. محوطين بالغايشا. من المعتاد ألاّ تتمّ دعوة الزّوجات إلى الولائم والمأدبات، وأن تقوم الغايشا بهذا الدّور. لم تكنّ متصنّعات كاللاتي التقينا بهنّ. كنّ يغنّين أغاني خفيفة، يضحكن كثيراً ويقبلن المداعبة ولمس أردافهنّ. في اليوم التالي قمنا بجولة رائعة حول طبيعة آسرة: أرخبيل اتّصلت جزُرُهُ بخمسة جسور ضخمة. كانت الطّريق قد فتحت للتوّ بانوراما جبليّة جميلة، حقول أرزّ وقرى: كانت الزّراعات الخضراء تُغطّي البراري وتصعد لتغزو الضّيع، لتصطدم بأرض قاسية بور. هبطنا في «فوكوكا»، مدينة صناعيّة قبيحة جدّاً، يُجمّلها اللّيل قليلاً بسيل من أضواء النيون. تناولنا العشاء مع كاتبة اختارت أن تعيش مع زوجها في قرية مجاورة قريباً من منجم كي تُساعد العُمّال في نضالهم. كانت ظروفهم بائسة للغاية. كان العديد منهم يعملون مباشرة مع المنجم ويتمتّعون بغطاء نقابي لكنّ أغلبهم هم «كوميفو Koumifou» أي عمّال زوّد بهم وكلاء الانتداب المنجَمَ، ويُسمّون «كومي». لا تعبأ بهم النّقابة. ويتقاضون بالكاد نصف الأجر ولا يتمتّعون بتغطية اجتماعيّة. إنّهم مُكلّفون بالأعمال الأكثر عرضة للخطر: كثيرٌ منهم فقدوا حياتهم أو جرحوا خلال الانهيارات. وهم يسكنون مخيّمات نصبت عليها حراسة مُسلّحة، ويكونون عادة منتدبين من السّجون من بين مرتكبي جرائم الحقّ العام. يستحيل على هؤلاء المنبوذين الهرب. حين تكون هناك في الأفق زيارة من قبل متفقّدي الشّغل، فإنّهم يخفونهم حتّى لا يخوضوا معهم في الحديث. كانت المرأة التي حدّثتنا بمعيّة زوجها يشجّعان هؤلاء على التوحّد من أجل المقاومة ونيل الحقوق.

في البداية كان عمّال المناجم المُرسّمون يتعاملون معهما بحذر، لكن، رويداً، صاروا يطلبون منهما النّصيحة. بفضل المساعدة الماليّة التي كان

مُثقّفو اليسار يقدّمونها إليهما، أمكنهما معاً بناء «بيت التّضامن». ساعد ذلك المُعطّلين عن العمل على العيش، حين تقرّر الإدارة إغلاق عدد من أروقة الإنتاج.

نظام الأعمال الشاقّة أمر منتشر كثيراً في اليابان: الصحافيّون، وعمّال الحظائر والدوكرز (عمّال الموانئ) يُمثّلون البروليتاريا الخاضعة إلى منظومة المؤسّسات الوسيطة. قدموا عادة من الريف حيثُ المكننة طردت اليد العاملة. يعيشون في نوع من المُخيّم قريباً من مراكز عملهم ويعيّن الرّئيس أيادي «غليظة» تمنعهم من الابتعاد.

في الغد، ركبنا القطار مدّة ساعة عبر مناطق صناعيّة للالتحاق بميناء حيثُ نساءٌ مكلّفات بتفريغ شحنات البضائع: كان عليَّ القيام بحوار مع إحداهنّ لمصلحة التلفزيون. نقلَنا مركب مُزوّد بمحرّك إلى سفينة كبيرة راسية بعيداً، صعدنا إليها بواسطة سُلّم. في عمق الباخرة، وسط سحابة من الغبار لمحنا أمّة نمل: نساء يملأن أكياس أسمدة كيماويّة ستحملها رافعة فيما بعد. كنّ فوق الجسر: يتفصّدن عرقاً؛ بينهنّ امرأة جاوزت السّتين من العمر. أجريتُ معهنّ حواراً. سألتهنّ. قالت واحدة منهنّ بنبرة احتجاج إنّ لديها الكثير لتقوله لو أرادت «إفراغ ما في جعبتها»؛ في الواقع، لقد عبّرن بكثير من الحياء؛ لكنّ ظروفهنّ القاسية أو انعدام العمل لم يكن خافياً؛ كنّ يعملن ثماني ساعات في اليوم، في ظروف مرهقة، كلّ يوم، حتّى يوم الأحد. (كان يومها يوم أحد) رغم القانون الرّسمي، كنّ يتقاضيْن أجوراً أدنى من الرّجال. – بالإضافة إلى ذلك كما في كلّ دول العالم – كنّ هنّ من يقمن بأشغال البيت. اشتكيْن ذلك وعدم تكافؤ الرّواتب. إنّها ظاهرة عامّة في اليابان. تُشير إحصائيّات رسميّة أُجريتْ سنة 1962، إلى أنّ مُعدّل راتب المرأة هو ستّة عشر ألف يان في الشّهر مقابل خمسة وثلاثين ألفا للرّجال. 35% من اليد العاملة في اليابان من النساء.

مساءً، هبطنا في هيروشيما. قرأتُ مطويّة سياحيّة في الطّائرة، تبدأ بهذه الكلمات: «هيروشيما مشهورة أكثر بالأنهار الخمسة التي تعبرها». ويُذكَرُ

عرضيّاً أنّ المدينة قد دُمّرت من قبل. تتقابل شوارعها في زاوية قائمة بعد إعادة إعمارها بالكامل؛ تتألّق في المساء، وفي هيروشيما بالذّات نُشاهد أكبر عدد من المطاعم والحانات والعلب اللّيليّة. دُعينا في ذلك المساء إلى مطعم جميل جدّاً، على الطّراز الغربي. حيثُ الفرقة تعزف الجاز، ووجدتُ صعوبة في إقناع نفسي بأنّي في هيروشيما.

في الحقيقة - بالإضافة إلى المطويّة السياحيّة - انطبعت لدى اليابانيّين ذكرى مُفزعة جرّاء القنابل الذرّية وهو اليوم بلد مُسالم بالكامل. سنة 1951، سمحت لها أمريكا بالتسلّح بل لقد شجّعتها على ذلك: رفضت. عاتبتها الحكومة - وإجمالي السُكّان - على ذلك، واكتفت فقط بتجهيز قوى الأمن الدّاخلي. تحوّلت بعد ذلك، سنة 66، إلى قوى دفاع، لكنّها لم تكن تعدُّ سوى مائتي ألف رجل موزّعين على شتى الدّفاعات، البرّية والبحريّة والجوّية. لا أحد في اليابان ينوي صنع القنبلة الذرّية. إنّه بفضل جزء كبير من البلاد - من بينها أهمّ النقابات، السوهيو - والقواعد اليابانية وبمساعدة اقتصاديّة من اليابان أن نجح الأمريكان في دخول حرب مع كوريا والفيتنام: لكنّ معارضة شرسة قامت في وجه سياسة دعم أمريكا في لعب دورها الإمبريالي إزاء بقيّة دول العالم. ثمّة في اليابان حركتا سلام: إحداهما تدين التسلّح الذرّي؛ الأخرى تدين فقط أسلحة أمريكا النوويّة. كلتا الحركتيْن نشيطتان جدّاً، خصوصاً في هيروشيما التي وُسمت بـ «مدينة السّلام».

صباحًا، امتلأت ردهة النّزل بأعضاء من المُنظّمتيْن: ولأنّ سارتر لم يكن ليُحرج أحداً، فقد رفض جميع الدّعوات. جُبنا المدينة بصحبة السيّد كانابي: إنّه المسؤول عن «منظّمة مساندة ضحايا القنبلة الذرّية» التي أسّسها «الأميركان موريس». أطلعنا أولّاً على الآثار التي تشهد إلى اليوم على الكارثة: مبنى كبير على الطّراز النّمساوي - بنك أو مغازة ضخمة، لم أعد أذكر - مُشيّد بصلابة، إلّا إذا تأمّلنا الفكرة جيّداً: الأنقاض الوحيدة التي رأيناها في اليابان. فهم يعيدون بناء كلّ شيء تهالك كي يحافظ دائماً على شبابه. بجانبه يقوم «النّصب» وفيه يُدفن كلّ عام ضحايا جدد: يموتون عادة

بالسّرطان. ثمّ ذهبنا إلى المتحف. رأينا على الواجهات الزّجاجيّة صوراً لهيروشيما المُدمّرة: مساحات شاسعة مُتفحّمة. صورٌ تظهر أناساً مشوَّهين، ظهور محروقة، أجسادٌ مليئة بأورام تُسمّى «شيلويد Chéloïdes». خشيت أن تحمل الأوقات القادمة آلاماً أكبر: أقلّتنا سيّارة تاكسي إلى المستشفى. في الطّريق، أوقفنا أحدهم كي يشتري لي باقة ورد. وضعها بين ذراعيَّ. استقبلنا المُديرُ في مكتبه، كان المكتب يعجّ بالصحافيّين والمُصوّرين. فسّر لنا أنّهم يستقبلون مجاناً الأشخاص الذين شملهم الإشعاع يوم إلقاء القنبلة، عندما يمرضون. في الوقت الحاضر هم مئتان وخمسون وهم غالبا مُصابون باللوكيميا سرطان الدّم. سألنا: «أتريدون رؤية المريضة، أم تفضّلون أن تنزل؟» صعدنا إليها، يتبعنا فريق من المراسلين ودخلنا غرفة ذات سريرْين؛ على السّرير الأوّل كانت تنام امرأة عجوز وضعت يدها المُرتعشة على الملاءة. كانت امرأة في الأربعين جالسة على السّرير في العمق. دفعوني نحوها وقدّمتُ لها باقة ورد تحت وابل من الصّور. تفسد تلك الاحتفاليّات السّخيفة عمليّة التعاطف الحقيقيّة. لم نقبل زيارة مرضى آخرين إلّا بشرط ألّا نكون مرافَقين من أحد، واختصرنا ما أمكن هذه التّجربة الفاشلة.

تحوّلنا بعد الظّهر إلى المنظّمة. كان منزلاً متواضعاً حيث يُمكن لضحايا القنبلة الاجتماع أو طلب المساعدة. كان من المفترض أن نلتقي بعدد منهم. فكّرنا أنّ المقابلة ستكون في كنف الحميميّة، لكنّنا لشدّ ما انزعجنا عندما تفاجأنا بأنّ علينا التحدّث إليهم من فوق منصّة فيما جثوا هم على الأرض للاستماع إلينا. في أعماق الصّالة كان هناك فريق تلفزيوني، مُصوّرون وصحافيّون. لم يكن بدء الحديث سهلاً. مع ذلك فعلنا. هنا أيضاً تفاجأنا. انتظرنا مرارة واحتجاجاً من قبل هؤلاء النّاجين: كانوا هادئين ومُذعنين. بل لقد كانوا خجلين: من مرضهم، وندوبهم وعاهاتهم وعجزهم عن العمل. بينهم من انتقل إلى مدينة أخرى كي يدفن عاره: إن قالوا الحقيقة فسيجدون أنفسهم بلا عمل. لا تدفع لهم الدّولة منحاً، إلّا للذين كانوا مُوظّفين؛ لا تتكفّل الدّولة بأيّ تعويض لضحايا الحرب من المدنيّين: كانوا في طوكيو

أكثر عدداً من هيروشيما. في هيروشيما عدد كبير من الناجين يعيشون في أحياء بائسة تحت سقف الفقر ولم يطلعنا أحد على ظروفهم.

بارتياح كبير، ركبنا القطار، مساءً، نحو «كوراشيكي»، واحدة من بين المدن النادرة في اليابان التي لم تعش الحرب أو الزّلزال. تجوّلنا طيلة اليوم الموالي. نهرٌ ضيّق يجري بين صفّين من أشجار السّرو. قناطر صغيرة وُزّعت هنا وهناك فوق النّهر. طرقات قديمة محفوفة ببيوت واطئة ذات أسقف من قرميد أخضر؛ رأينا في الدّكاكين المفتوحة، حرفيّين يصنعون المراوح والشّمسيّات والقناديل؛ علامات جميلة عليها كتابة بأحرف سوداء بديعة، خُصّت بها المغازات المُهمّة. دعانا أحد تُجّار القماش لزيارة بيته: كان به الكثير من المساحات الداخليّة والحدائق التي انتشرت فيها أكواخٌ خشبيّة. رحنا لرؤية قرية على مسافة كيلومترات من هناك؛ كانت الضّيعة التي دخلنا إليها نظيفة ومُريحة بشكل لافت.

ما زال الريفيّون فقراء جدّاً في بعض النّواحي. لكن عموماً، لقد تحسّن وضعهم كثيراً، أصبح 90% منهم مالكين بعد الإصلاح الزّراعي. تضاعفت محاصيلهم على نفس الأرض مرّتين وثلاث مرّات منذ بداية القرن بفضل الريّ، مكننة العمل الزراعي، حجم الأسمدة المُستخدَمَة: يستعملون لنفس المساحة خمس مرّات أكثر مما يستخدم مزارع فرنسي. ناهيكَ أنّ أفراد العائلة الريفيّة يتعاطَوْن في المدينة مهناً موازية: أعمالاً يدويّة، موظّفين صغاراً. تحسّن، إذًا، مستوى عيشهم مقارنة بذي قبل: فقد صاروا يأكلون جيّداً، يلبسون بشكل لائق، يتعالجون ويعتنون ببيوتهم وحدائقهم، ويقرؤون.

لدى عودتنا إلى طوكيو، شاركنا في منتدى مُوَسّع حول تدخّل أمريكا في فيتنام. كان موقف اليابان من أمريكا متناقضاً. إنّهم يجدون أمريكا خطيرة على المستوى السياسي والعسكري، لكنّهم يقبلون التّحالف معها اقتصاديّاً لأنّ في ذلك نفعاً لهم؛ ستعاملهم أمريكا كخصوم في حال نشب بينهم خلاف ولن يقف الأمر عند مُجرّد الحياد؛ احتجّوا ضدّ احتلال أوكيناوا، ضدّ وجود قواعد جوّية على أرضهم حيثُ أنّ اليسار يقف ضدّ أمريكا جذريّاً: عرف

العالم الـ «زنغاكورين» سنة 1960 من خلال مُظاهرات مناهضة لأمريكا. أغلب الطّلبة والمُثقّفين اليابانيّين يرون أنّهم معنيّون بالحرب ضدّ فيتنام: كان يربطهم تضامنٌ واسعُ النّطاق بهذا الجزء من آسيا؛ إنّ تدخّل أمريكا العسكري لا يضرب سلمهم واقتناعهم بالعدل فحسب: يعرفون أنّهم مُهدَّدون بإمبرياليّة الولايات المُتّحدة. تخرج مظاهرات مُتكرّرة ضدّ الحرب على فيتنام. سنة 65 أسّس ثمانية وعشرون مُثقّفاً حركةً تنادي بالسّلم في فيتنام. كان على رأسهم الكاتب «أودا» الذي كنّا نلتقي به باستمرار.

التأم المؤتمر الذي دعانا إليه في مُدرّج يقع في الطّابق الأخير من مغازة عملاقة. قلتُ أنا وسارتر بعض الكلمات. تحدّث أساتذة وكتّاب. كان الجمهور الغفير يُصغي بانتباه، وكما جرت العادة في اليابان، كان التّصفيق خافتاً.

قيل إنّ في طوكيو نفسها، العديد من مُخيّمات العمل التي تتعفّن بداخلها بروليتاريا الدّرجة الثانية: لم تكن زيارتها ممكنة بالطّبع. ثمّة أيضاً ضواحٍ بائسة حيثُ تتوزّع أكواخٌ من الخشب، دون ماء، دون تدفئة، دون إنارة، يتكدّس داخلها أناسٌ بحساب ثلاثة أو أربعة في غرفة واحدة: حدّثونا عنهم دون أن يعرضوا علينا زيارتهم. عموماً إنّ السّكن في اليابان سيئ جدّاً. صُدِمتُ وأنا أزور شقّة أستاذ في مشاريع الإسكان في ضاحية من ضواحي أوساكا، بضيقها وبشاعتها؛ البيوت التي أعجبتني خلال الأيّام الأولى هي على ذمّة أناسٍ ميسورين؛ هي أيضاً لابدّ أنّها غير مريحة شتاءً: كان من المستحيل تدفئتها. أكّدت لنا جميعُ مواعيدنا هذا: إن كانت اليابان غنيّة فإنّ اليابانيّين فقراء. حتّى الأساتذة والجامعيّون كانوا يتقاضوْن أجوراً زهيدة. ثمّة الكثير من الطّلبة وجميعهم تقريباً يحصلون على شهاداتهم: لكنّها لا تصلُح لهم في شيء؛ سيصبحون موظّفين صغاراً ويعيشون تحت خطّ الكرامة.

بالكاد، كان ينجحُ عشرون مليون حرفيّ يتعاطَوْنَ نشاطاً عائليّاً في دكاكين صغيرة، في كسب لقمة العيش. لم تكن الأجور لائقة سوى في المصانع الكبرى: لكن رأينا أيَّ نسبة تحتلّ هذه المؤسّساتُ في سوق

الشّغل. قسمٌ كبير من السُكّان ليسوا فقراء فقط بل بؤساء: 20% من العائلات – ما يعني تقريباً عشرين مليون شخص – كانوا يعيشون في مستوى الخصاصة أي أنّهم يعانون سوء التّغذية.

تحدّثنا أيضاً حول الظّروف الغريبة للمُهمَّشين الذين يُسمّونهم الـ «إيتا Eta» وهم ثلاثة ملايين ينتمون إلى نفس العرق الياباني ولكن مع ذلك فهم يُعتبَرون طائفة مُحتَقَرَة. لا يُعلَمُ ما هو أصلُ هذا التّمييز لكنّه صارم. عدد قليلٌ فقط من الإيتا أثرياء؛ قيل لي إنّ بينهم من يملك محال ضخمة: لا أحد من اليابانيّين يُزوّجه ابنته؛ الزّواجُ بين اليابانيّين وبين الإيتا ممنوعٌ منعاً باتّاً. وأغلبهم فقراء لأنّ اليابانيّين يرفضون تشغيلهم. إنّهم يعيشون في مُخيّمات دون ماء أو أيّ وسيلة رغد. لم أفهم شيئاً من رحلة العودة. كانت الحادية عشرة في طوكيو عندما أقلعنا وكان الليل قد حلّ؛ كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة نهاراً عندما هبطنا في أنشوراج ألاسكا: كان المنظر ثلجاً، وأكثر كآبة مما كان عليه قبل شهر، كان ليلاً عندما حلّقنا فوق القطب ونهاراً حين هبطنا في باريس.

الفصل VI

خلال رحلتنا إلى الاتّحاد السوفيتي سنة 1962، خُيّل إلينا أنّنا نحضر «ذوبان جليد» نهائيّاً أكثر من الذي حصل سنة 1954. عاد سارتر إلى موسكو يوليو 62 كي يُشارك في مؤتمر حركة السّلام. ناقش مسألة الثّقافة. انطلق من مثال كافكا ليُبرهن أنّ بلدان الشّرق قد وظّفت الثّقافة لغايات سلميّة. لكنّ الثّقافة ليست سلاحاً، قال. وبدل رفض الثّقافة الغربيّة، كان من مصلحة السوفييت هضمها. يؤكّد خروتشيف على الصّعيد السّياسي على ضرورة التعايش المبنيّ على أسس سلميّة. وهكذا دون الكفّ عن الاختلاف على الثّقافتيْن التّعايش بدل التّنافر وإنكار إحداهما للأخرى. أغوت فكرة التوحّد المُثقّفين «الليبراليين» أو التقدّميين الذين يناضلون ضدّ عقليّة الامتثال. كانوا يريدون مواصلة الحوار مع سارتر. وهي واحدة من بين الأسباب التي تجعلنا نتحوّل إلى الاتحاد السوفيتي. حتّى سنة 66، اعتدنا قضاء بعض الأسابيع هناك، صيفاً. كان لدينا فضول لمتابعة الثّورة؛ كان يسحرنا تنوّع مناظرها الطّبيعيّة، وجمال ثرواتها الثقافيّة القديمة. وخاصّة لأنّ لدينا أصدقاء هناك؛ كنّا حريصَيْن على تمتين علاقتنا بهم، في كفاحهم ضدّ الراضخين السلبيّين، إنّهم يخسرون الأرض سنة بعد أخرى. يملك سارتر في موسكو حقوق المؤلّف، فكان يسوّي جميع تكاليفنا. كنّا نحصل على التّأشيرة بفضل دعوة من اتّحاد الكُتّاب؛ ويضع الاتّحاد مُترجماً تحت تصرّفنا – هي «لينا».

إنّما لينا زونينا – التي تتكفّل من خلال وكالة إنتوريست بكلّ الترتيبات المادّية.

تجمعنا علاقة حميمة بـ«إيرنبرغ». كان هو من يُطلعنا على الحياة الثقافيّة الروسيّة ويكشف لنا عمّا خفيَ منها. كان يزور باريس باستمرار. من موسكو ذهبنا لزيارته في بيته: كان بسيطاً جدّاً، تُحيط به حديقة يستمتع فيها بزراعة الخضروات والزّهور؛ كان فخوراً جدّاً لأنّه استورد نبتة غير معروفة في روسيا، الخرشوف. كنّا أيضاً نلتقي به في شقّ، قريبة من شارع «غوركي». كانت مُتحفاً. لقد عاش طويلاً في باريس قبل الحرب، مراسلاً لصحيفة «إيزفستيا». عرف في مونبارناس كلّ الرسّامين في تلك الفترة؛ كان يملك مجموعة هائلة من اللّوحات المُهداة إليه؛ من بينها رسوم على القماش، مطبوعات لبيكاسو؛ كان على الجدران لوحات لـ«شاغال»، و«ليجي»، و«ماتيس»، وأعمال فنّية روسيّة: لـ«فولك Falk» و«تيشلر Tishler». كان عليماً بالرّسم، وكان في روسيا مُسانداً للفنانين الذين يُمثّلون «الطّليعة». وكان أقلّ انفتاحاً على الأدب. كان يدين كافكا، بروست وجويس، ولم يكن مُعجباً إلّا بالقليل من أدب سارتر رغم ذلك فقد أصبح مع تقدّمه في السنّ أكثر تسامُحاً وبات النّقاشُ في أيّ موضوع أمراً مُتاحاً معه دائماً. في الاتحاد السوفيتي كان يُدافع عن الكُتّاب الشّباب ممّن تعتبرهم بلادهم أعداء الالتزام والاصطفاف. كان الشّباب يُحبّونه. وكان أقلّ أناقة مما كان عليه في هيلسنكي، وشاخ بدنيّاً: لم يكن يملك سوى ضرس واحد. وإن لم يُركّب طاقماً فحتماً لأنّ الرّوس يخافون أطبّاء الأسنان: فقد كانوا يتسبّبون في آلام رهيبة لمرضاهم لنقص في التقنيات أو لعدم اكتراثهم بما قد يشعر به هؤلاء. فكريّاً، لم يفقد إيرنبرغ جاذبيّته. كان يروي بفنّ طرائف منتقاة بعناية.

كنّا في كلّ مناسبة، أثناء إقامتنا، نتناول العشاء مرّتين أو ثلاثاً عند آل كاتالا، زميل قديمٌ درس مع سارتر في كلّية المعلّمين. كان كاتالا من أنصار ديغول، ثمّ أصبح اشتراكيّاً سنة 45. كان مُهتمّاً بالمؤلّفات الروسيّة المكتوبة بالفرنسيّة وكان مُترجماً بارعاً. كانت زوجته روسيّة، شقراء وجذّابة؛ وتعمل في مجلّة. كانا يسكنان بيتاً رائعاً: كتبٌ كثيرة، إسطوانات،

نقوش، مجموعة غلايين مُدهشة. كان كلاهما منفتحاً وحُرّاً، وصاحب نقد وذائقة مُربكة حقّاً. كانا على دراية بما يجري في بلدهما ويعرفان أناساً كثيرين ويجعلاننا نستفيد من ذلك.

كنّا نُكنّ ودّاً كبيراً لـ «دوروش»، الذي تحدّثت عنه في *سلطة الأشياء؛* المُختصّ في تاريخ الفنون، كان مُهتمّاً بالزّراعة ويكتب في مسألة النّصوص التي تُنشَرُ في «نوفي مير Novy Mir». كان فكريّاً أكثر انفتاحاً من إيرنبرغ: أحبّ بريخت وكافكا منذ اللّحظة التي عرفهما فيها. لسوء الحظّ أنّه لم يكن يتكلّم الفرنسيّة الحوار معه بطيء جدّاً.

نعرف كتّاباً آخرين ومُترجمين أيضاً وموظّفين في اتّحاد الكُتّاب. كانت صديقتنا الحميمة لينا امرأة شقراء جميلة في الأربعين من العمر، مُثقّفة وذكيّة إلى حدّ بعيد. روت لنا أشياء كثيرة عن حياتها. كان أبوها وخالها وأمّها بوليشيفيّين صادقين: رأيناهم يجتمعون حول لينين في إحدى الصّور. كانت أمّها آنذاك في العشرين من عمرها: تبدو ابنتها بعد عشرين سنة نسخة حيّة عنها. بعد ولادتها، انفصل والدا لينا؛ كانت ترى والدها باستمرار لكنّها كانت تعيش مع أمّها. درست في موسكو، دخلت الجامعة حيثُ اختصّت في اللّغة والآداب الفرنسيّة. تنبّأ لها أساتذتها بمُستقبل باهر؛ كانت تريد أن تصبح أستاذة وأن تكتب. عندما اندلعت الحرب شاركت فيها وأُرسِلت إلى شمال لينينغراد: كانت تبدو شجاعة. عندما كنّا جالسين على مقعد في شان-دي-مارس بلينينغراد، روت لنا كيف أنّها تجاوزت الحقل، خلال رخصة؛ فجأة حدث انفجار؛ حاولت كجنديّ باسل أن تحافظ على رأسها مرفوعاً وهيئتها محترمة، مُسرعة الخطى نحو الحلّاق. أُرسلت إلى بسكوف Pskov على أمل الاقتراب من الجبهة. بعد النّصر، استأنفت دراستها الجامعيّة.

كانت، إذاً، ستالينيّة شرسة: يُجسّد ستالين في نظرها الثّورة والحزب معاً؛ لقد أنقذ البلاد. نقدتها صديقتها المُفضّلة، لكنّ لينا هدّدتها بأن تقتلها بيديها لو أنّها أصبحت معادية للثّورة، ولم ترها مُجدّداً قط. التقت بعد

شهر بأصدقاء والدها: أخبروها أنّ الأخير قد أُرسِل إلى المُعسكر. كانت صدمة قاسية جعلتها تفقد النّطق ثلاثة أيّام. بعد ذلك بفترة، أخبروها أنّ ترحيل والدها يعني غلق الجامعة في وجهها. لسبب آخر طُردت أمّها من الحزب الشّيوعي: كان أحد أصدقائها يشغل منصباً في الخارج، وهذا كاف، حسب منطق تلك الفترة، أن يتمّ إيقافه ذات يوم جميل بوصفه عدُوّاً للنّظام. وأصبحت هي بدورها مشبوهة. اضطربت لينا لأنّه كان عليها ترك الدّراسة، وأكثر من ذلك أن تذهب ضحيّة إجحاف مماثل. لم تنهض من تلك الضّربة قط. مات إيمانها بستالين.

علمتْ أنّ إيرنبرغ يبحث عن سكرتيرة: تقدّمت للعرض؛ أبلغته أنّ والدها كان في مُعسكر: عيّنها. كانت حركة شُجاعة. ظلّت ممتنّة له كثيراً. كانت تشعر بعاطفة كبيرة تجاه «الشّيخ»، كما تدعوه. عملتْ لمصلحته سنين عديده. ثمّ أوجد لها وظيفة في اتّحاد الكُتّاب.

بعد موت ستالين، فُتِحتِ المُعسكرات وعاد والد لينا إلى بيته: مات بعد فترة قصيرة. اندمجت أمّها في الحزب من جديد.

تزوجت لينا مُهندساً معماريّاً لم تنسجم معه فكريّاً. طلّقته وتزوّجت ناقداً تُقدّره كثيراً. لكنّه لم يكن قادراً على الإنجاب وبعد سنوات أرادت طفلاً. جمعتها علاقة بكاتب آخر. عندما أنجبت ابنة، طلّقت، لكنّها سجّلت الفتاة باسمها فقط – الأمر الذي كان رائجاً في الاتّحاد السوفيتي – ولم تذهب للعيش مع الأب. كانت تريد استقلاليّتها وكالعديد من النّساء السوفيت، كان لديها شعور بالتعالي على الرّجال. استقرّت مع ابنتها وأمّها في شقّة قريبة من اتّحاد الكُتّاب. لم تكن أمّها المريضة تعمل، ساعدتها على تربية «ماشا». كانت لينا مشغولة جدّاً؛ حيثُ تمضي ساعات في مكتبها؛ في القيام بالتّرجمة وكتابة مقالات نقديّة لمجلات، تحظى بتقدير كبير في الأوساط الأدبيّة.

سنة 1960، مرضت ابنتها إلى درجة أنّها خشيت على حياتها. شُفيَت الطّفلة فسافرت إلى فرنسا. اكتشفت بتأثّر هذا البلد الذي كان يُمثّل

الكثير بالنّسبة إليها. لكنّها كانت تشعر بالضيق خلال كامل إقامتها؛ كان النّظام الرأسمالي يرعبها لكنّ البذخ الغربي كان يُزعجها ويفتنها في آن. كانت على النقيض تتألم من حياة التقشف التي حُكم على أبناء بلدها أن يعيشوا دائماً تحت وطأتها. لدى عودتها إلى الاتحاد السوفيتي انتابتها نوبة سُكّري، دون شكّ، بسبب خوفها من فقدان ماشا والصدمة التي أحسّت بها في باريس؛ لزمت الفراش وتفاقم الألم لأنّ الأطباء لم يقوموا بتشخيص دقيق على الفور. أُنقِذَت حياتها في آخر لحظة. مع ذلك كان عليها أن تحقن الأنسولين كلّ صباح وأن تتخذ تدابير صحّية صارمة.

نشأ بيننا ودّ ما انفكّ يكبر مع مرور الوقت. احترمتها كثيراً وأُعجبتُ بقوّة شخصيّتها. لقد حطّموا مُستقبلها والحياة التي عاشتها ليست هي الحياة التي طالما حلمت بها: لم تشعر يوماً بالشفقة على نفسها. لم تكن تناور إذا تعلّق الأمر بتحمّل المسؤوليّة وكانت ترفض كلّ مقايضة. قبل سنة 62، عندما رافقت كتاباً فرنسيين لزيارة «موسولي Mausolée» حيثُ يوجد ستالين، لم تدخل قط. لا شيء دافئاً فيها. كانت شغوفة بالعدل والحقيقة. لكنّها لا تنساق أبداً إلى العقائديّة ولا إلى التّحذلق: كانت مرحة، ساخرة، وأحياناً مُضحكة جدّاً. ثمّة رابط بيننا لا أحسن تعريفه، تفاهم: نوع من الفهم بربع كلمة، الحكم على الناس والأشياء بنفس الذّائقة العفويّة، الحساسيّة إزاء نفس الألوان والتصوّرات، الضّحك والابتسام في نفس الوقت. كانت متعة خالصة أن أتنزّه بصحبتها أو أن نتحدّث ونحنُ نحتسي كأس فودكا في شقّتها الصّغيرة.

تواصلت محاولات تحرير الثقافة خلال خريف 1962. في أكتوبر نشرت في الـ «برافدا Pravda» بعد موافقة خروتشيف قصيداً لإيفتوتشنكو بعنوان *ورثة ستالين* التي تُدين بقاء الستالينيّة: طالب الشاعر بمضاعفة عدد الحُرّاس الساهرين على حراسة قبر ستالين حتّى لا يُبعَث من جديد.

أذنَ خروتشيف بنشر كتاب سولجتسين في مجلة نوفي مير، ذاك الذي يتحدّث فيه عن تجربته في المعسكرات الستالينيّة، يوم من *أيّام*

إيفان دينيستوفيتش. في مُذكّراته التي صدرت في نفس المجلة، تحدّث إيرنبرغ بحرية بالغة عن الفنّ الغربي. تحدّثت نكراسوف، في مقال، عن رحلتها إلى الولايات المُتّحدة وإيطاليا: كانت علاقة محايدة امتزج فيها النقد بالكثير من الثناء على العمل. أصدر فوسنيسنكي مجموعة شعريّة، *الإجّاصة المثلّثة* التي لم تكن مُلتزِمَة بالمرة. التقينا به في باريس (تعرّفنا عليه في موسكو سنة 1962)، هو ونكراسوف وپاووستفسكي وكانوا ثلاثتهم يتبادلون التهاني على المناخ الجديد الذي ساد في موسكو. انتهى ذلك بقرار اتّخذناه بقضاء عيد الميلاد هناك. إلّا أنّ الأشياء فسدت قليلاً في شهر ديسمبر. جُمِعت لوحات ومنحوتات لفنّانين حداثيّين في معرض كبير أُقيم في بناية تُسمّى «مدينة الألعاب». ولدى زيارة خروتشيف للمعرض أدان التّشكيل والتجريد بعنف. وأدلى إيليتشاف، رئيس البروباغاندا بخطاب ضدّ «التعايش الفكري»: ذرّ على خطابه ملاحظات مُعادية لليهود وهاجم خصوصاً إيرنبرغ.

لم يكن المعرض قد أُقفِل لدى وصولنا إلى موسكو فأمكننا زيارته. كانت هناك الكثير من الأعمال الأكاديميّة، لكن أيضاً لوحات لرسّامي العشرينات الذين كان إيرنبرغ يُحبّهم: فولد، تيشلر. وأعمال أخرى لفنّانين مُعاصرين يبحثون عن منافذ جديدة: الرسّام ويسبرغ، النحّات نيسفستني على سبيل المثال. بعد وقت قصير سُحبت الأعمال. تساءل إيرنبرغ إن كان الرسّامون المُحافظون هم الذين استدعوا فناني الطّليعة في حركة ميكيافيليّة ماكرة: هكذا سيُسَلّط الضّوء على «المُنحَطّ» ما سيجعله ممنوعاً أكثر من أيّ وقت مضى.

وكما أنّ روسيا كانت مزهُوّة تحت الثّلج والسّماء الزرقاء! كانت أغصانُ الأشجار وفروعها الرّقيقة تتألّق بالبياض. كان أناسٌ كثيرون يتزحلقون في الطّرقات. كان المارّة ملتفّين في معاطفهم السّميكة، حاملين علباً بين أيديهم؛ بدا الأطفال داخل ملابسهم الدّافئة الزاهية بالألوان كأنّهم ماضون إلى حفلة تنكّرية. انتصبت في الساحات أشجار صنوبر مكسُوّة

بالثلج. كانت الشّوارع مُختلفة. دعانا سمونوف وزوجته إلى قضاء ليلة رأس السنة في فضاء مسرح قريب من ساحة ماياكوفسكي. كانت درجة الحرارة 20 تحت الصّفر. لدى وصولنا رأينا شابات بدينات يُسرعن إلى حجرة الملابس متلفّعات في الفراء؛ نزعن معاطفهنّ وجِزَمَهُنّ، تنانيرهنّ الصوفيّة السميكة ليبدون نحيفات رشيقات في فساتين السهرة والأحذية الخفيفة. كان الضيوف من الشباب تقريباً؛ وكانت هناك فتيات فاتنات للغاية: ممثلات وعارضات أزياء. كنّا ونحن نتناول حساءً فوق طاولة صغيرة، نتفرّج على الأزواج يرقصون بإبداع رقصات عصريّة جميلة على إسطوانات جاز. إنّها نُخبة محظوظة. بدت لنا علامة إيجابيّة أن يُسمَحَ بارتداء ملابس أنيقة عارية والاستماع إلى موسيقى غربيّة.

بدت لنا لينينغراد كئيبة مقارنة بموسكو: لا تطلع الشّمس إلّا عند العاشرة، لتُضيء ببخل الشّوارعَ الرماديّة؛ نراها ترسم قوساً في السّماء وتختفي عند الثالثة ظهراً. لكن نهر نيفا رائع وهو متجمّد: يسيل بين قصريْن على الطراز الإيطالي، غطاء جليدي قطبي يخفق بهدوء ومن بعيد خيطُ ماء متدفّق.

تأسّست سنة 1958، في إيطاليا، رابطة الكتاب الأوروبيّين، التي كانت تُقدّم نفسها على أنّها تُيسّر التبادل الأدبي والثقافي بين كتاب أوروبا شرقها وغربها. كانت المؤسّسة متطابقة تماماً مع البرنامج الذي اقترحه سارتر في موسكو يوليو 62، والذي انخرطنا فيه عن طيب خاطر. كان رئيس الرابطة هو الشاعر الإيطالي أونغاريني، وكاتبها العام هو الكاتب الإيطالي فيغوريلي الذي كنا نعرفه منذ سنة 1946. تقرّر مُؤتمرها في لينينغراد يوليو 63. منذ مداخلة يوليو 62، اعتُبر سارتر الناطق الرسمي المُعتَمَد باسم اتّحاد الكُتّاب: تلقّينا منه دعوة. (دعا الاتحاد أيضاً، ولأسباب أخرى أندريه ستيل). وسيُمثّل فرنسا وفدٌ برئاسة فرينو، ويضمّ روب غريي، ناتالي ساروت، پينغو؛ وسيُمثّل كايوا منظّمة اليونسكو. بين الإنجليز كان أنجوس ويلسن، جون ليمان، غويان؛ من الإيطاليّين پيوفان،

فيغوريلي. حضر أيضاً انزنزبرغر ألماني شاب وسيم من المجموعة 47، الكاتب العجوز الهنغاري تيبور ديري، بولونيّون ورومانيّون؛ والعديد من السوفييت من بينهم سيمونوف، فادين، شولوخوف، ليونوف، إيرنبرغ، سوركوف، أكسيونوف، غرانين، تفاردوفسكي.

خرب الوضع الثقافي منذ الشتاء. 8 مارس 63، وأمام زعماء الحزب والحكومة، أمام الكُتّاب والفنّانين، ألقى خروتشيف خطاباً مؤلّفاً من 20000 كلمة دافع فيه عن ستالين وهاجم بشراسة التجريد والاصطفاف في الأدب والفنون الجميلة. قصف بشدّة إيرنبرغ ونيكراسوف وإيفتوتشنكو وحتّى پاووستفسكي. حدّثنا أصدقاء خيراً عن فِيلمٍ تناول موضوع صراع الأجيال. *حاجز لينين*، الذي كانوا قد شاهدوه في عرض خاصّ فتّته خروتشيف تفتيتاً. كان إيرنبرغ أكثر الكُتاب استهدافاً. في حوار خاصّ، عاتب خروتشيف إيرنبرغ لأنّ تأثيره على سارتر كان كبيراً: لقد حرّضه على ترك الحزب الشيوعي. عبثاً حاول إيرنبرغ إقناعه بأنّ سارتر لم ينتمِ إلى الحزب الشيوعي يوماً. ظلّ خروتشيف على موقفه. كان وضع إيرنبرغَ مقلقاً. لم يُسمَح له بإصدار بقيّة مُذكّراته وعُلّقت كلّ إصداراته السّابقة. كان ثمّة ما يُسليه ويُخفّف عن ألمه؛ عندما كان يذهب للتحدث مع الطّلبة فإنّهم كانوا يهتفون له. لكن مادّياً كانت الضربة قاصمة بالنسبة إليه. لم يكن لديه مورد رزق آخر عدا حقوق التأليف التي كان يعيل بها زوجة وأختَيْن مُسنّتَيْن تسكنان منزله في الريف. إن لم تُطبَع أعمالُه فإنّه البؤس حتماً.

قال لنا إنّه يُخمِدُ إحباطَه بالعمل ساعات طويلة في حديقته، لكنّه كان كئيباً حقّاً. دون شكّ، بسبب خطاب مارس وخلال الجلسة الافتتاحيّة أن أخذ المؤتمر منعرجاً خطيراً. بدأ الكتاب السوفييت يسحلون الأدب الغربي في الوحل، خصوصاً بروست، جويس وكافكا. دافعوا عن الواقعيّة الاجتماعيّة ضدّ ذلك «الانحطاط». أمام هذا التعصّب الشّديد لم نكن قادرين على أن نأمل بحوار مُثمر.

في الحقيقة، كانت النبرة ودّية خلال الجلسات الأخرى لكن لم يكن هناك تبادل بين الشّرق والغرب: كان حوارَ صمّ. في الشقّ الغربي، تدخّل الفرنسيّون ودافعوا عن الـ «رواية الجديدة»: شرقاً، ما عدا تفاردوفسكي وإيرنبرغ واثنين أو ثلاثة آخرين فإنّ كلّ المتداخلين طالبوا بأدب يصلح لـ «إبهاج حياة النّاس». ساوى «فيدين» بين الكاتب والطيّار الذي عليه تبليغ الركّاب برّ الأمان. أجابه روب غريي بأنّ الرواية ليست وسيلة نقل... في مفهومه الأصلي، لا يعرف الكاتب أين يمضي. لكنّ السوفييت تبنّوا مقارنة الكاتب بالطيّار. كان الأكثر احتداماً هو موقف ليونوف الذي لم يُوجّه اتّهامه للرّأسماليّة بل إلى الغرب المتعفّن: «وصل الغرب إلى الوقوع فعليّاً في خلاصة دوستويفسكي: كلّ شيء مُباح»، هتف. ثمّ أدان لدى الغرب فساد الشّخصيّة الأدبيّة، تفاقم الجنايات، انحطاط المبادئ الاجتماعيّة، انحلال التابوهات القديمة، التهكّم القذر. وبّخ جميعَ عيوبنا، خصوصاً شغفنا بالدّعارة. وكي لا ينتهي المؤتمر على خلاف، طلب سوركوف من سارتر، على نحو مباغت، أن يختم الجلسة بما انطبع لديه خلال القمّة. بينما كان المتداخلون يتكلّمون – دون أن يُغادرَ مكانه، لكن بعد نزع السمّاعة – عجّل سارتر بتصوّر بيان. خرج من المأزق بنجاح وصفّق الحاضرون طويلاً. لم تُغيّر تلك المُصالحة شيئاً في الحقيقة: كان موقف الكُتّاب السوفييت متزمّتاً أكثر مما توقّعنا. لابد أنّ تعليمات صارمة كانت مُسلّطة من فوق.

مع ذلك نجح سوركوف في جعل خروتشيف يوافق على استقبال وفد من رابطة الكتّاب الأوروبيّين C.O.M.E.S في إقامته بجيورجيا.

بعد يومَيْن قضيناهما في موسكو، ركبنا صباحاً، طائرة خاصّة. كان على متنها سارتر وأنا، أونغاريتي، فيغوريلي، أنغوس ولسن، ليمان أنزنزبرغر، البولوني پوترامون، روماني وعدد كبير من السوفييت من بينهم سوركوف وتفاردوفسكي. كان شولوخوف في إقامة خروتشيف. انطلقنا ببطون خاوية على السّاعة السّابعة، ولم يُقدّموا لنا في الطّائرة فنجان

قهوة. لا شيء في المطار أيضاً. وضعونا في حافلة راحت تتأرجح على طول كورنيش ذي انعطافات مفاجئة. كنتُ مندهشة من الحرارة الجنوبيّة والغطاء النباتي السّاحر الذي ينزلق صوب بحر أزرق جدّاً. رُحتُ أهذي من الجوع. توقّفت الحافلة عند الحادية عشرة: نُصبَت في قاعة أكل النّزل سفرة عليها أصناف سمك مشوي ولحوم باردة والفطائر. كنّا قد وصلنا للتوّ، سنتناول الغداء قريباً، واكتفيتُ بابتلاع أكواب من القهوة. بعد ساعة نزلنا في إقامة خروتشيف: كانت غابة فسيحة احتوت على أجمل وأندر أشجار الاتّحاد السوفيتي. استقبلنا خروتشيف بحفاوة. كان يرتدي بدلة فاتحة وقميصاً أوكرانياً ذي ياقة مرفوعة. صحبنا إلى المسبح الذي شيّده قريباً من البحر؛ كان ضخماً ويُحيط به غشاء بلّوري يمكن إخفاؤه بالضّغط على زرّ: كرّر الحركة بِرضا مرّاتٍ عديدة.

ثمّ اتّخذنا أماكن أمام طاولات صغيرة في قاعة المؤتمرات واستمعنا إلى خروتشيف باندهاش متزايد. تخيّلنا، بما أنّه دعانا، بأن يُبدي ودّاً تجاهنا. أبداً. ندّد بنا صارخاً في وجوهنا كما لو كنّا فراخ الرّأسماليّة. مدح جمال الاشتراكيّة؛ وزعم لنفسه التدخّل السوفيتي في بودابيست. بعد هذا الانفجار، انتزع من بين شفتيه كلمات كياسة: «أخيراً، أنتم أيضاً ضدّ الحرب. هذا يعني أنّه بإمكاننا أن نأكل ونشرب معاً». لاحقاً، قال له سوركوف على انفراد: «كنتَ قويّاً – يجب أن يفهموا» أجاب بجفاف.

عبر ممشى مُزهر يُحاذي البحر، مضينا إلى منزل الإقامة. كانت هناك أثواب حمّام مُجهّزة لنا: سبح فيغوريلي وسوركوف فيما كان الآخرون يتحدّثون. ثمّ صعدنا إلى الطّابق العلوي لإقامة قديمة جميلة على الطّراز الجيورجي: هناك، قدّموا لنا وجبة رائعة. ظلّ خروتشيف عابساً، ولم يُرخ أضراسه قط.

في التّحلية، وبطلب من خروتشيف، أخرج تفاردوفسكي من جيبه قصيدة وبدأ في قراءتها؛ عندها فقط ضحك خروتشيف ملء حنجرته وقلّده بقيّة السوفييت. حدّثنا جميعُ أصدقائنا عن تفاردوفسكي بكثير من

الإعجاب. كان لونُه يميل إلى الوردي، عيناه زرقاوان، وشيء ما طفوليٌّ في وجهه. كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة. كتب قصائد فكاهيّة وغنائيّة كثيرة حاز بها على جائزة ستالين؛ يدين بشهرته خاصّة لقصيدة ألّفها سنة 42 عن الجندي الشّجاع تيروكين، النّظير الروسي للجندي الشّجاع شفيك. بعد موت ستالين أتبعها بتتمّة، *تيوركين في العالم الآخر*، اعتُبِرَت غير قابلة للنّشر. فكّر بعض الأصدقاء أنّ الأوان قد حان ليقرأها على مسامع خروتشيف وأفترض أنّ هذا الأخير قد قبِلَ لعلمه المُسبق بفحواها. نقل لي صديق همساً، بأنّها قصيدة ساخرة تهجو الاشتراكيّة، وصُدِمنا حقّاً بأنّ خروتشيف استمتع بها من القلب، بعد ما صبّ في آذاننا مدحيّة عصماء للنّظام. علمتُ بعد ذلك أنّ تفاردوفسكي كان يتهكّم، خصوصاً، من بطء الإدارة؛ لكنّه يسخر مُقزِّما البروباغندا السوفيتيّة وابتذالها (نُشرت القصيدة في نوفي مير شهر أكتوبر الموالي. ونشرت *الأزمنة المعاصرة* ترجمة لها).

ينعم المُعسكر «اللّيبرالي» بصداقة خروتشيف لأنّ تأثيره في الأدب كان مُهمّاً. كان يُديرُ نوفي مير التي كانت أهمّ مجلّة وأكثرها انفتاحاً بين المجلّات الأدبيّة. كان يدعم شجاعة كلّ الأدباء الذين أحبّهم، ومن بينهم دوروش: مثله، كان هو أيضاً مُهتمّاً بمشاكل الفلّاحين. لكن كان مُدافعاً عن كلّ نصّ جيّد.

عموماً لم يكن مللُنا كبيراً ونحنُ نستمع إلى قراءة دامت ثلاثة أرباع السّاعة دون أن نفهم كلمة واحدة. ارتحنا من خروتشيف بعد الغداء مباشرة: قبَّلَ السوفييت وكافأ الآخرين بابتسامة. في الآونة التي همّ خلالها سارتر بصعود الحافلة، انبرى شولوخوف الذي لم يغادر معنا، وقبّله بطيش. لا أحد تحمّس مثله للتّنديد بالأدب «الهدّام». أمّا موهبته فيما مضى فقد تحوّلت إلى ذكرى. لم نُحبّه البتّة.

في موسكو، فسّر لنا صديق لماذا استقبلنا خروتشيف بتلك الطّريقة المتجمّدة: لقد تلقّى صباحًا، زيارة «توريز Thorez» الذي كان يقضي عطلته على بعد كيلومترات من هناك. حذّره توريز من خطورة هؤلاء

المُعادين للشّيوعيّة الذين يستعدّ لاستقبالهم؛ يجب أن يحذر جانبهم وإن كانوا يدّعون الانتماء إلى اليسار. أصغى خروتشيف باهتمام إلى هذا التّحذير. أدهشنا أمر آخر: كتبت الصّحف عن لقائنا تقريراً متحمّساً. هل طرأ أمر منذ الأمس؟ لم نفهم قط هذا التحوّل المفاجئ.

بدأت بشائر الصّيف تبدو على موسكو. أناسٌ يقفون في طوابير خلف شاحنات-صهاريج توزّع البيرة أو الـ«كواس Kwas»، يتعجّلون نحو الآلات ذات الألوان الزّاهية التي كانت تسكب لهم، مقابل قطعة نقديّة، الصّودا المُعطّرة أو الماء البارد. فتحت مقاهٍ جديدة؛ وهي عادة فضاءات زجاجيّة، مؤثّثة بطريقة خرقاء؛ لم تكن الفودكا ضمن المشروبات التي تُقدّمها: الكونياك أحياناً، وأحياناً ما من مشروب كحولي. كانت المطاعم أكثر ترحيباً؛ كنّا نستمتع فيها كثيراً؛ لسوء الحظّ أنّ المساء كان مُخصّصا للرّقص ولم تكن الأوركيسترا الصّاخبة لتسمح لنا بسماع بعضنا بعضاً بشكل جيّد.

بعد العشاء لا نعود نعرف ماذا نفعل بأنفسنا، إلّا إذا ذهبنا للقاء الأصدقاء وهذا على الأغلب ما يحدث. جدّدنا اللّقاء بجلّ الأصدقاء. كانوا متعطّشين لمعرفة ما يحدث في الغرب وكانوا يمدّوننا بآخر التطّورات في الاتحاد السوفيتي. كنّا نعلم بعض التخصّصات الممنوعة بسبب أصولها الغربيّة. حيثُ يستخدم العلماء خلسة بعض الإلكترونيّات الضّروريّة لأبحاثهم، لكنّ أطبّاء النّفس يُحجّرون التّحليل النّفسي. ماذا كانت طرقهم؟ أيّ نتائج يحصلون عليها؟ طلبنا زيارة معهد طبّ النّفس. استقبلنا فريق من الأطبّاء مُقدّرين بحرارة ما قدّمه الطبّ النفسي الفرنسي، ما قام به كرايپلان وكليرومبو. ثمّ أطلعونا على المخابر؛ كانت جميعها مُسخّرة لدراسة الشيزوفرينيا، تخاطيط دماغيّة وآلات مكّنت من الحصول عليها، رأينا قططاً موصولة من رؤوسها بأقطاب كهربائيّة؛ باحثين يقومون بتحليل مُستخدمين أنابيب اختبار. يأسف الأطبّاء لأنّهم لا ينجحون في عزل العامل الكيمياوي المُشترك بين جميع الحالات: لا يشُكّون في أنّه

غير موجود. لم يُدهشنا فشلهم في ذلك بقدر ما أدهشنا وضع قصاصة واحدة على جميع الأمراض العقليّة.

ثمّ ألقينا نظرة على المُستشفى. أعتقد أنّ جميع الدّول تستخدم المُخدّر لتهدئة المرضى: كان مرضاهم إمّا جالسين على المقاعد أو يهيمون في الأروقة أو في المبيت كالزومبي. كانت هناك امرأة تصرخ وتبكي: وافدة جديدة لم يجدوا الوقت لعلاجها. حاور أمامنا الأطباءُ مريضةً يعتبرون أنّها شُفيت وهي تستعدّ للمغادرة. كانت أستاذة سابقة في الأربعين من العمر، متزوّجة وأمّ لأطفال؛ كانت مُسرّحة الشّعر، مُرتدِية ثيابها بلياقة، وكانت عيناها شاحبتين وباردتين. بصوتٍ ميّت، شكرت الأطباء لأنّها تعافت على أيديهم: عاد لها رُشدُها وانتبهت اليوم إلى أخطائها الماضية. كانت تتكلّم عن غير اقتناع: كأنّنا إزاء مُتّهم يسرد أمام المحكمة اعترافات جاهزة مُسبقاً.

طرح عليها الأطبّاء بعض الأسئلة وبطاعة راحت الأجوبة تتدفّق من فيها كأنّها تحفظها عن ظهر قلب. بعد مرض وإجهاد راحت تشكّ في أنّ زوجها يكرهها وبدأت تبحث عن سُبل لإيذائه. كانت تحترس من الجميع ولم تكن تمنح ثقتها لأحد. كانت عندما تدخل إلى الحمّام تشكّ في أنّ والدها يتلصّص عليها من ثقب القفل. لم تكن تفعل شيئاً عدا البكاء والتوتّر. أخذها زوجها إلى المستشفى؛ شخّصوا بأنّها تعاني اكتئاباً جرّاء الإجهاد واليوم هي لا تُفكر في أنّها مُضطَهَدة: هذا على الأقلّ ما كانت تؤكّده، صدّقها الأطبّاء لكنّي لم أقتنع بما قالته شفتاها. أظنّ بالأحرى أنّها فهمت ما يجدر بها قوله حتى يُخلى سبيلها.

حين رافقنا الأطبّاء إلى باب الخروج، قالت لي لينا بصوت خافت: «اسأليهم إن كان هناك عامل جنسيّ في مرضها. – آه، لا. لا يمكنني الظّهور مظهر غربيّة متعفّنة. اسأليهم أنتِ». فعلتْ، وروت لنا الحوار لاحقاً. جعلَ سؤالها الطّبيبَ يقفز مُرتاعاً: «عامل جنسيّ! أيّ فكرة هذه! إنّها امرأة متزوّجة ولديها طفلان، حياتها عاديّة تماماً. – امرأة متزوّجة

لكنّها ليست مُكتفية جنسيّاً دائماً. – إنّها تعيش في انسجام مع زوجها. – هيّا! الأب الذي يُراقبها من القفل. – ماذا يعني؟ لقد كانت تظنّ أنّها ملاحقة، تعتقد أنّ جميع حركاتها كانت تحت الحراسة؛ لقد قالت ذلك: إنّها تشكّ في العالم بأسره. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟» لم تُلحَّ لينا في السّؤال أكثر من ذلك.

غادرنا موسكو في اتّجاه «القرم Crimée». كانت سيّارة تابعة لوكالة إنتوريست في انتظارنا ولم يكن بها سائق. «كان يحلق ذقنه»، قيل لنا، وضحكت لينا: «إنّها ميدي Midi: توريد Tauride؛ أجد صعوبة في مواءمة هذا الاسم مع الاتّحاد السوفيتي. كان الطّقس حارّاً. سرنا من خلال منازل واطئة مُسطّحة تُظلّلها بشُحٍّ شجيرات كاليبتوس وأكاسيا؛ تجاوزنا بحيرة اصطناعيّة ذات لون أزرق قاسٍ، محصورة بين حلقة من الأحجار الصّهباء؛ أمّا السّاحل: طريق جميلٌ على الكورنيش محفورٌ وسط صخر أبيض، البحر الأزرق، السّرو الضّخم. كان «ميدي» وليس المتوسّط. لم يكن هناك أشجار زيتون. يالطا: اسم ارتبط بالتاريخ حتّى أفترض له حقيقة جغرافيّة. مع ذلك ها أنذي أرى يالطا بِعَيْنَيَّ وها أنذي أتجوّل فيها. كانت أقرب إلى حديقة من كونها مدينة: تتعرّج المسالك بين البساتين وبين الزّهور الكثيفة. أحببتها منذ المساء الأوّل. كان أناسٌ يتنزّهون ببطء على طول الشّاطئ؛ وآخرون جالسين على مقاعد يتحدّثون ويحلمون. لم يكونوا يُشبهون المصطافين على ساحل كوت دازور: Côte d'Azur: كانت وجوههم المطليّة متناقضة مع ملابسهم المتواضعة، أمرٌ مُحيّر في نظري بالنّظر إلى بذخ البحر الحريري والزّهور الوافرة المُلوّنة.

زرنا المدينة في اليوم الموالي. كانت ترتقي هضبة. وتبدو القمم مُغطّاة بالأشجار، لكنّ حين نتجوّل خلالها، فإنّنا نكتشف منازل عتيقة من الخشب مطمورة داخل فوضى من النباتات الجافّة. كانت بيوتاً ذات واجهات مصقولة بطيش، محفوفة بشرفات مُزخرفة عادة بزجاج مُلوّن.

كانت قديماً على ملك أناسٍ أثرياء. الآن تتقاسمها عائلات كثيرة دون أن تفقد جاذبيّتها. كلّ واحدة منها، غير مرئيّة للبقيّة، وتبدو ضائعة في دغل. دخلنا بيت تشيخوف حيثُ حضوره ما زال نابضاً بالحياة.

بل ثمّة في يالطا شاطئ يضجّ بالأجساد العارية. ما من بوصة من الأرض كانت شاغرة. كانت النّساءُ بدينات؛ وحدها الشابات في مقتبل العمر يعتنين بنحافتهنّ.

رحنا إلى شاطئ «أينورست»؛ كان قاحلاً تقريباً (حيثُ تراءت من بعيد ابتسامات جريئة على الشّفاه، تماثيل شيوعيّة حجريّة)، ثمّ نزلنا عبر مزارع عنب. كان التاتار قديماً بارعين في غراسة العنب وكانوا يعتصرون نبيذاً لذيذاً جدّاً. كي يتعاون ستالين مع الألمان نقل قسماً كبيراً منها إلى آسيا الوسطى فمات أغلبها. اليوم، صارت كريمي تعجّ بالأوكرانيّين وهم مزارعو كروم سيّئون.

عندما مررنا بـ«سيمفيروپول» – لأنّ الطّريق المباشرة كانت ممنوعة على الأجانب – زرنا عاصمة التاتار: أصبحت اليوم قرية ذات منازل واطئة، وطرقات ضيّقة مُبلّطة بالحصى. القصر ريفيّ وجذّاب: إنّه مُشيّد بالخشب والطّوب، مزخرف بنقوش موريسكيّة؛ كانت هناك نوافذُ مشبّكة، وبه نافورة ألهمت بوشكين، وحدائق هزيلة: «قصر الحمراء» وكان على ملك أمير مفلس. عُلّقت على الجدران لوحات كبيرة تظهر معارك بين القوقاز والتاتار: هُزِمَ هؤلاء أخيراً.

قمنا برحلات عديدة أخرى. سرنا على طول الكورنيش وزرنا كلّ الموانئ العتيقة. أحبّ كثيراً هذه الجبال البيضاء العارية التي كانت تنزلق بشكل مفاجئ صوب البحر. انتصبت في موانئها قصور محفوفة بحدائق فسيحة، منازل فخمة كانت على ملك نبلاء أو تجار أثرياء: الآن يأتيها العُمّالُ والموظّفون للاستجمام. خُصّص شاطئ لكلّ منزل وعموماً هي شواطئ مُجهّزة بصفّ من المطارح: خلال هذا الفصل العذب المُسمّى «الفصل المُخملي» يُمضي النزلاء ليلهم، عادة، تحت السّماء. ذهبنا

لرؤية القصر الذي تمّ فيه توقيع المعاهدة والذي هو أيضاً منزل راحة؛ يتنزّه الناس بحرّية في المتنزّه الرّائع: بلاط، زهور، نباتات نادرة، نوافيرَ، مسالك، مدارج، تنزل من شرفة إلى شرفة حتّى البحر.

دامت إقامتنا أسبوعاً، تناولنا فطورنا في الخارج، بجوار الفندق. كان هناك تنافسٌ على الطّاولات وكان علينا الوقوف في طابور مدّة عشرين دقيقة قبل أن نتمكّن من ملء أطباقنا. جميعُ الوجبات هي ورطة في حدّ ذاتها. أكلنا بشكل سيّئ تلك السّنة: حتّى الكافيار كان طعمه كالتراب. في يالطا إن لم تحجز طاولة فلن تجد مكاناً في المطعم. ثمّة اثنان يُعجباننا. وفي المدينة مطعم نزل «توريد» بالذّات. كان تشيخوف يتناول عشاءه هناك باستمرار بعد قطع المدينة بالعربة: لا يُفترَضُ أنّ المكان قد تغيّر منذ ذلك التاريخ: من الباحة الكبيرة المُزدحمة بالأثاث نمرّ إلى فناء مُغطّى مليء بالنباتات الخضراء، تلك هي قاعة الأكل؛ سلالم داخليّة تصل الشّرفات فيما بينها، أمّا المبنى فهو مستند إلى تلّة. في قمّته حيثُ أقيمَ البارُ، كنّا نحتسي كوكتيلات غريبة ونحن نرنو إلى أضواء الميناء. كنّا أيضاً نُفضّل أن نستقلّ سيّارة تاكسي إلى مرتفع شُيّد فوقه معبد إغريقي؛ كنّا نتناول العشاء في شرفة تطلّ على كامل المدينة وأضوائها وعلامات النيون والماء الدّاكن.

أحياناً تومض أضواء كاشفة مُنتزعة مركباً من الظّلام لحظةً، قبل أن يغرق في العتمة من جديد؛ كنّا ننزل على الأقدام عبر مدرج سريع.

كلّ مساء، عند الغسق، يدخل الميناء مركب كبير بنوافذَ مُضاءة: كان يحمل أسماء مُختلفة لكن يبدو أنّه الوحيد دائماً. ذات مساء صعدنا على متنه، غادرنا يالطا في اتّجاه «صوتشي». كانت مدينة عصريّة دون أهمّية، ذات شطآن مُزدحمة فوق طاقتها. صُدمتُ حقّاً لدى رؤيتي رجلاً يمشي في بدلة سباحة بمحاذاة رصيف الميناء مختالاً بجذع عريض عليه وشمٌ للينين من جهة ولستالين من الجهة الأخرى.

أقلّنا إلى تبيليسي، قطار، عبر مناظر طبيعيّة جبليّة فاتنة. إنّها عاصمة

جيورجيا. وصف لنا نيزان Nizan، بحماس، هذه المدينة التي كان قد زارها قبل الحرب حين كان اسمُها تيفليس Tiflis. واقعة على ضفّتَيْ نهر «كورا Koura» وهي محوطة بالجبال من ثلاثة اتّجاهات، وتحافظ على معالم جبليّة وحي قديم ظريف للغاية: طرقات ضيّقة، في منحدر حاد، محفوفة بالمنازل الخشبيّة ذات الشّرفات المُتقنة. لكنّها فقدت طابعها الغريب؛ كانت الأنهج التي يعيش فيها المُسلمون ملتوية وقذرة وكانت منازلهم بائسة. لاحت لنا في مدخل تبيليسي بلدة صفيح. لم نتجوّل كثيراً في المدينة. حاول رئيس اتّحاد الكتاب إبعادنا عنها قدر الإمكان لأنّ المجاعة كانت في جيورجيا: طوابير طويلة تصطفّ أمام المخابز وينقطع بيع الخبز يومين أو ثلاثة.

ذات مساء دعانا الكُتّاب للعشاء في مطعم واقع في جبل متاتسميندا Mtatsminda الذي يُشرف على المدينة؛ أُعجِبنا بالإطلالة: الشّوارعُ المُضاءة، الكنائس والنّهر. وكان علينا الانتظار ساعتيْن قبل الجلوس إلى طاولة حيثُ قُدّم إلينا عشاء حقير: لم يقتنِ الطبّاخُ في الغداء سوى قطعة سمك هزيلة.

إن كنّا لم نتعرّف على العاصمة جيّداً، فقد قمنا برحلات مُهمّة في البلاد. الأولى في متسخيتا، العاصمة القديمة، على بعد عشرين كيلومترا من تبيليسي. تقع عند مجمع النّهريْن ومحوطة بأسوار مُشيّدة في العصور الوسطى. نرى كنائس جميلة: الأجمل هي دجفاري Djvari (الصّليب) المُشيّدة في القرن السادس في شكل صليب ومحفوظة جيّداً؛ وهي مُزخرفة بنقوش تحتفي بمؤسّسيها، شخوص عديدة ورموز دينيّة. ذهبنا لزيارة مصنع نبيذ، مرّة أخرى، عبر طريق متعرّج على سفح مزرعة مُغطّاة بالكروم – إنّها تُذكّرني بطريق في ألزاس «طريق الخمور»؛ صُدمتُ ونحنُ ندخل الفناء الكبير؛ رؤوس تبزغ من الأرض كما لو كان هناك أناسٌ قد دُفنوا أحياء؛ كانوا، في الواقع، بصدد تنظيف خنادق تصلح لتعتيق النّبيذ. بين تلك الحُفر، ما كان مليئاً ومقرفاً: طبقة دهنيّة وطينيّة تصعد إلى

السّطح. أحد مُضيفينا غمس أنبوباً داخل الرّواسب المُتخمّرة، وأخرجه مليئاً بنبيذ جميل خمريّ داكن.

في المساء الذي سبق رحيلنا، دعانا رئيس اتّحاد الكُتّاب - الذي كنّا ندعوه الأمير لأنّه سليل أمراء - إلى عشاء مرموق. لبّينا الدّعوة ترافِقُنا أليكسيا، الجيورجيّة التي عرفتُها في باريس والتي كانت تعدّ رسالة دكتوراه حول سارتر: كانت لطيفة جدّاً. لا أدري كيف تصرّف الأمير، لكنّ العشاء كان لذيذاً. وعدنا بإحضار موسيقيّين؛ في جيورجيا ثمّة كورال رجالي مؤلّف من ستّة أصوات، دون آلات وهم فعلا مثيرون للإعجاب: خشن كالفلامنكو على خلفيّة نشيد قديم. كنتُ قد سمعتُهم في إسطوانات. لم يتمكّن من جمعهم. فقط أمكنه أن يدعو امرأتين أدّتا أغاني وطنيّة. أطلقت ممثلّة قديمة العنان لفورة ضحك مكبوت وهي تلقي مقاطع من سِجلّها.

لم تكن الأمسية رديئة لكن، عادة، تغيظني الولائم. اعتاد الجيورجيّون على تعيين رئيس للطّاولة، يرفع النّخب ويسرد النّكات ويروي القصص. هذا الدّور مطلوب جدّاً، والأمير هو من يملأ الدّور غالباً. يُسمّى رئيس الطّاولة «تامادا Tamada». أرهقنا التامادا بأقواله المأثورة ونكاته وهو يسردها بغبطة، لأنّها تطلّبت ترجمة مُزدوجة، فكثير من الجيورجيّين لا يتكلّمون الروسيّة وكانت لينا تجهل الجيورجيّة. لابدّ أنّها عادة قرويّة: أناسٌ غير معتادين على الكلام ابتكروا هذا الأسلوب لتنشيط المأدبة. تجدر الإشارة إلى أنّ التقاليد قد قدّمت العديد من الخدمات حين كان الحوارُ شأناً محفوف بالخطر: قبل الحرب، جلب ستالين كلّ الكُتّاب والمُفكّرين الجيورجيّين تقريباً وأعدمهم.

سلكنا بالسيّارة الطّريق الجميلة الرابطة بين تبيليسي وإيرفان، عاصمة أرمينيا. إنّها تقطعُ حقول القطن، ثمّ مروجاً خضراء يُحيطُ بها صنوبر حزين، وصولاً إلى مضيق، انقلب المنظر فجأة: لاحت صحراء ورديّة كئيبة امتدّت فوقها بحيرة كبيرة زرقاء. ونحنُ نتأمّلها مذهولين، رأينا سيّارة سوداء تتّجه نحونا: كتّابٌ أرمن مُكلّفون باستقبالنا. ركبنا سيّارتهم

وصحبونا إلى فندق على ضفاف بحيرة سيفان Sevan. كان الطّقسُ جميلاً، حارّاً رغم أنّنا كنّا على ارتفاع ألفَيْ متر. طلبوا سمكاً كبيراً كالذّراع ووردّياً كالسومون، لذيذاً جدّاً، حتّى إني لم ألمس بقيّة الأطباق تقريباً. حدّثونا عن الاكتشافات الأركيولوجيّة التي أنجزت على ضفاف البحيرة: وجدوا الكثير من البقايا التي تعود إلى حضارات قديمة جدّاً.

حدّثونا كيف وُلدت الأبجديّة الأرمينيّة: قبل القرن الخامس من عصرنا، لم تكن اللّغة موجودة آنذاك، فكانوا يستخدمون الحروف الإغريقيّة والفارسيّة. ابتكر سان ميسروپ الأبجديّة كي يُسهّل المواعظ المسيحيّة التي ستسمح بنسخ الإنجيل. ظهرت العديد من الأعمال خلال ذلك القرن. أطلعونا على أنّ ترجمة فرنسيّة ستظهر للقصيدة الملحميّة الكبيرة، دافيد دي ساسون؛ المتناقلة شفويّاً منذ القِدَم. راحت القصيدة تثرى عبر القرون وأخذت حكاية البطل الأسطوري دافيد ساسون تتعمّق إلى أن جُمعت مكتوبة في القرن التّاسع عشر. لاحظتُ لاحقاً بعد سنة أنّ الأرمن كانوا مُحقّين باعتزازهم بها: إنّها تحفة أدبيّة تضاهي أكبر الأعمال.

كان ذاك الفطور مُهمّاً. وأردنا النّزول مباشرة إلى إيريفان؛ لكنّ مضيفينا أصرّوا على اصطحابنا إلى بيت أحد أصدقائهم كان قد انتهى من بناء منزله جاعلاً لافتة ترحيب تتدلّى من مدخله. تجاوزنا قرية مُغبَرّة، لم نلمح فيها كائناً بشريّاً واحداً، ما عدا امرأة بدت مُنهكة، جالسة على عتبة بيتها وسط أطفال هزيلين. ثمّ وجدنا أنفسنا وسط حديقة استقرّت في عمقها بناية جديدة. ما يقارب الخمسين ضيفاً كانوا جالسين حول طاولة على شكل حدوة حصان، مليئة بالأطعمة والأطباق: كانت الخامسة مساءً وكانوا بعدُ يأكُلون. كان من بينهم ممثّل رئيس جمهوريّة أرمينيا، وزراء، موظّفون سامون؛ ضايقني الصّراخ والضّحك وضوضاء الأواني، والضّجيج المُزعج، اتّخذتُ مكاناً بجوار وزير؛ بدا لي مُدهشاً أن يتمّ الاحتفال بمنزل في بلد اشتراكي بهذا البهرج الرّسمي؛ لكن، خصوصاً، استعراض الأهمّية هو ما كان فاحشاً، في وقت يعاني فيه سُكّان البلد من المجاعة. مُتخمَةً

بالأكل، رفضتُ بنفاد صبر لمس اللّحم الذي ما انفكّ جاري يملأ به طبقي بإصرار. ما نفعلُ هنا؟ أحد الكُتّاب المُكلّفين بمرافقتنا، أشار على سارتر بأن يرفع نخباً. ذكّر سارتر بالصّداقة الفرنسيّة الأرمينيّة وسقط كلامه وسط صمت مُتجمّد. عندما بادر أحد الضّيوف بثلاث كلمات. لم يكن هؤلاء النّاس يحبّوننا: لابدّ أن يكونوا قد نحوا منحى الرّوس في التّعامل مع سارتر.

إيفيان مُشيّدة كمُدرّج، على هضبة مقابلة لجبل عرفات: تقع المدينة العلويّة على بعد ثلاث مائة متر من المدينة المُنخفضة. بُنِيت البيوت بحجارة البلاد، حصى في لون السّلمون الوردي، نحاسي، لون الصّدأ، دم العجول: تُشبه الواجهاتُ شرائح اللّحم، إنّه أمر أغرب من أن يثير الإعجاب. يعود بناء المدينة إلى سنة 1924؛ تبدّل التّصميم رويداً مع تزايد عدد السُكّان؛ إنّها فسيحة وعصريّة؛ بقيت هناك بعض الأحياء الفقيرة مُعلّقة من جانب التلّة، لكنّها قليلة. بدا لنا أهلُ المدينة حيويّين: رجالٌ ذوو شوارب سوداء ونظرات مُخمليّة، ونساء ذوات شعر داكن وبشرة سمراء، جميلات على الأغلب. كانت الأسواق فقيرة، لكن ضاجّة بالنّاس. مساءً، يخرج الأزواج والجماعات للتنزّه والحديث والضّحك في ساحة لينين الكبيرة حيثُ فندُقنا. كان عصريّاً ومُريحاً لكن، مساءً، تعزف الأوركيسترا بصخب جعلنا نطلب العشاء في واحدة من غرفنا؛ كان ذلك أفضل للحديث ونحنُ نراقب عبر النّافذة غدوَّ النّاس ورواحهم.

صحبونا يوماً إلى إكمياتزين Ecmiadzin، الفاتيكان الأرميني، حيثُ يقطن الكاتوليكوس Catholicos. توازي الطّريقُ الحدودَ التّركية وتأمّلنا طويلاً جبل عرفات المهيب حيثُ ينتصب قوسُ نُووي Noé: كان الثّلجُ على قمّته يتألّق تحت سماء زرقاء. زرنا كنيستين حمراوين كالمدينة، تعودان إلى القرن الخامس والقرن السّابع؛ إنّهما ممتلئتان ومُعقّدتان مثل كنائس جيورجيا وتشبهها في جمالها. توقّفنا عند آثار زوارتنوتز Zwartnotz، مزار نصرانيّ دُمّر بسبب زلزال: بقيت منه أعمدة مُهشّمة ودعامات منقوشة ضخمة.

يضمّ ديرُ إكمياتزين الكنيسة الأقدم في العالم: كانت قد شُيّدت في القرن الرّابع؛ كانت محوطة بالسّقالات لأنّها كانت بصدد التّرميم لكن كان في وسعنا رؤية قبابها ذات الأوجه التي كثيراً ما قُلّدت. خلفها تمتدّ بناية كبيرة حيث يسكن أسقف الكنيسة الأرمينيّة. تجاوزنا ردهات، صالونات مليئة بالنّباتات الخضراء أو ثريّات الكريستال، صعدنا سُلّماً مرمريّاً. «كان ذلك باذخاً جدّاً بالنّسبة إلى قسّ»، قالت لينا مُوبّخة. كان رجل الدّين في الخمسين من عمره، يرتدي شنودة، وكانت له لحية أنيقة. كان على طاولته هاتف وإناء مليء بعنب خمريّة شفّافة: أهدى لكلّ منّا عنقوداً. شرح لنا ماهيّة المسيحيّة الجيورجيّة. عندما اعتنق الأرمن النّصرانيّة سنة 302، انشقّوا عن الكنيسة الرومانيّة سنة 374، محقّقين بذلك أوّل زلزال دينيّ في التّاريخ. رفضوا تبنّي الـ «كريدو» Credo، علامة سان-أتناس للصّليب التي فرضها قنصل نيسي Nicée البيزنطيّة: كانت لهم تصوّرات مختلفة عن علاقة الإنسانيّة بربوبيّة المسيح. كما في الكنيسة الرّوسيّة الأرتودوكسيّة، فإنّ البابا الأرمينيّ يتزوّج. ثمّ حدّثنا الرّجل الكاتوليكي عن العلاقة الحميمة بين أرمن الاتّحاد السوفيتي والأرمن الذين يعيشون في الخارج، أولئك الذين هربوا من مذابح الأتراك. قيل لنا، إنّ الأسقف، هو الرّجل الأكثر تأثيراً في الجمهوريّة من النّاحية السياسيّة، وبطبيعة الحال فهو يدعم النّظام بشكل غير مشروط وإلّا فإنّه لن يشغل المنصب الذي يحتلّه.

يُعهد إلى الرّاديو الأرميني بثّ عدد كبير من النّكات المتهكّمة على الاشتراكيّة. مع ذلك، وخلال جولاتنا، أمكننا أن نعرف أنّ ارتباطه بالاتّحاد السوفيتي كان مُثمراً إلى حدّ بعيد: مشاريع ريّ عملاقة حوّلت الأرض الصّحراويّة إلى ريف خصب. إلّا أنّ الجبال ظلّت مُهملة وبرّية. من خلال منظر طبيعيّ عارٍ، قادتنا طريق إلى دير كان فيما مضى ملجأً يأوي إليه المسيحيّون هرباً من الأتراك. جرى هناك احتفال نصف مسيحيّ نصف وثني. كانت هناك، في ساحة الكنيسة خرفان بيضاء مُجعّدة رُبط

حول أعناقها شريط أحمر: ستُذبح بعد قليل قرباناً للإله؛ ثمّ بعد ذلك يأكل المُخلصون لحومها. أُشعلت، من أعلى إلى أسفل التلّة، نيران تحت قدور ضخمة؛ عائلات مُجتمعة، كانت تتحلّق حول إناء عريض يتناولون الحساء.

بعد يومين، حلّقنا فوق بحر من السّحب من حيثُ تبرز قمم ثلجيّة حزينة: أعلاها هي قمّة جبل كازباك Kazbek. موسكو أوّلاً ثمّ باريس.

في مايو سنة 64، دُعينا إلى احتفالات يُفترض أن تجري في كييف Kiev، على شرف الشّاعر الأوكراني الكبير شيفشينكو Chevtchenko: سيُحتفل في يونيو بالذكرى المائة والخمسين لميلاده. تردّدنا. كان أستاذ في جامعة كييف، كيتشنكو، قد أصدر قبل ذلك بفترة قصيرة، دوريّة لا مثيل لضراوة أفكارها المعادية لليهود، *اليهوديّة دون كحل*، التي تحتفي بالنّازيّة. فكّرنا في رفض المجيء إلى كييف مع ذكر الأسباب.

كانت لينا يهوديّة. نفت أن يكون الأمر قد سبّب لها الأذى من قبل. مع ذلك لم يُرحَّل والدها إلى المعسكر دون سبب بعد الحرب. تثبت لنا حادثة صغيرة، خلال إقامة جئتُ على ذكرها، بأنّ عداء اليهود ليس أمراً مُهملاً. تناولنا العشاء في سوفياتسكايا Sovetskaïa، نزل كبير نادراً ما نذهب إليه لأنّه بعيد عن المركز. كان أناسٌ إلى طاولة مجاورة يصغون إلى حوارنا. أحدهم نادى لينا. «أصدقاؤك يتكلّمون اليهوديّة، أليس كذلك؟» هزّت كتفيها: «تعرفون الفرنسيّة؟ - لا. - كيف عرفتُم، إذاً، أنّهم يتكلّمون لهجة خاصّة؟» لم يُجب الرّجل. ثمّة احتمال أن يكونوا قد حدسوا أنّ لينا يهوديّة، لأنّها سمراء وداكنة العينيْن. على أيِّ حالٍ، ثمّة دائماً في هذه الملاحظات الحمقاء ما يبعث على الضّيق.

ماطلنا. ثمّ عرفنا لاحقاً أنّ الاتّحاد السوفيتي قد حظر دوريّة كيتشكو Kitchko (استأنفت الدّورية سنة 1969)؛ أصرّ أصدقاؤنا الرّوس في رسائلهم على مجيئنا، كذلك صديقنا الشّاعر الأوكراني باجان Bajan الذي كان لطيفاً معنا: قبلنا.

بعد الوصول إلى موسكو عبر الطّائرة، أخذنا قطاراً سوفيتياً اهتززنا فيه بعنف ووصلنا إلى كييف في ليلة. كانت غرّة يونيو. من بين الكتّاب الذين كانوا في استقبالنا، الكاتب الذي ألّف *زواج بالزاك*، قصّة رومانسيّة تروي قصّة حبّ بالزاك والسيّدة هانسكا: تصرّف في الصّفحات الأولى على نحو يسمح له بإظهار عدائه لليهود. كان «باجان» يستنكر عنصريّة الأوكرانيّين. «إنّه لمن المُحزن أن يشعر المرء بالخلاف مع وطنه وألاّ يقدر على حبّه»، قال لنا. إلّا أنّه لمس لدى الشّعب الأوكراني حسن ضيافة وكرماً خلال الاحتفالات التي انتهت للتوّ، جعلاه يحسّ بسعادة كبيرة).

كييف من جديد، شوارعها القديمة وبيوتها الواطئة المظلّلة بالكستناء ذات الأوراق السّميكة؛ كان الفصلُ ربيعاً، من الحدائق تدلّت عناقيد اللّيلك. مساءً أقيمت مأدبة عظيمة؛ طاولات متوازية امتدّت على طول الباحة؛ طاولة وُضعت عموديّاً، خُصّصت لرئاسة العلاقات العامّة: كلّ الوجوه تنزّ عناداً. نساء شابّات بزي وطني يقمن بتقديم الخدمات. مُغنّون غنّوا بشكل رديء جدّاً. غيفيك Guillevic – المُذهل بلحيته المُستديرة وربطة عنقه – قرأ *الوصيّة* لـ «شيفشنكو». رُفع النّخب. يذكر الأوكرانيّون ثراء بلادهم بإلحاح، تلك الثّروات التي كانت دائماً في خدمة الاتحاد السوفيتي: كان عداؤهم للرّوس صارخاً. كان سارتر متعكّر المزاج؛ كورنيتشوك، الجالس بجواره، أخبره للتوّ باسم أحد الكُتّاب الذين صافحهم؛ تيشونوف، الذي كتب عن سارتر مقالاً مسموماً سنة 62 عقب مشاركته في مؤتمر حركة السّلام: اتّهمه في المقال برغبته في رئاسة منظّمة مُفكّرين ستحكم العالم. مرّر سارتر غضبه إلى كورنيتشوك؛ اشتكى أن يكون موقف الاتّحاد السوفيتي إزاءه مُلتبساً: هل كان المُثقّفون الرّوس يقبلون فكرة تعايش ثقافيّ؟ هل يريدون فعلاً العمل معه على تحقيق ذلك؟ إن كانت الإجابة «لا»، لماذا يستدعونه وماذا يفعلُ هو هنا؟ احتجّ كورنيتشوف: الصّداقة بين الاتّحاد السوفيتي والمُفكّرين الغرب، أكثر من ضروريّة بسبب ما تُمثّله الصّين من تهديد خطير.

في اليوم الموالي خُضنا الـ«دنيبر» Dniepr الهادئ الفسيح، بين الضّفاف الحزينة المرشوقة بالشّواطئ الرّمليّة حيثُ تُسقى الأبقار. نزلنا في القرية التي وُلد فيها شيفشنكو وزرنا المتحف المُخّصص له. أشياء، لوحات - بينها ما هو مُستلهم بوضوح - كان قد رسمها بنفسه، وكان من بينها لوحة تروي قصّة حياته. ولدت حبيسة، فاشتراها بعض الكُتّاب المُعجَبين بأبياته. أمام اللّوحة التي ترمز إلى تحرّره، قال متعهّد المتحف بنبرة ادّعاء: «الآن، شاعر في قيمته لا يستحقّ مساعدة». الظّاهر أنّه يقصد: «مساعدة من الخارج». ثمّ ناضل الشّاعر ضدّ النّظام، سُجنَ ونُفِيَ. عند موته نصب له الشّعب قبراً لائقاً - مُؤسفاً جدّاً من خلال الصّور التي رأيناها - أكداسٌ من الحجارة الكبيرة. تمّ استبداله بمعلم رسميّ لا قيمة له.

سُعدنا بلقاء موسكو من جديد، مُحرّرين من كلّ الشّروط. لم يسبق لرائحة البنزين المُمَيِّزة للمدينة أن كانت أعنف؛ دون شكّ لكثرة السيّارات: شاحنات وزن ثقيل، وسيّارات تاكسي تضاعف عددها منذ سنة 63. ليلاً، كنّا نرى وميضها الأخضر: لكن، من المُفترض أنّه يُحظر عليها الرّكون على الرّصيف، وأحياناً ينبغي البحث عنها في موقفها المُخصّص لها. كان أغلب السُّواقِ مبتدئين ولا يعرفون المدينة جيّداً. كان نظام الاتّجاهات الممنوعة مُعقّداً إلى درجة أنّه لدى وصولنا إلى نزل پيكين، حيثُ نقيم، كان علينا السّير كيلومتر إضافيّاً قبل الوقوف أمام بابه.

واضح أنّ موسكو قد تغيّرت. شُقّ شارع كبير قريباً جدّاً من النّزل. هُدمت بيوت كثيرة قديمة لتُشيّد مبانٍ عصريّة. في الحيّ الذي كان فيه منزل دوستويفسكي، مازال هناك شوارع هادئة، محفوفة بإسطبلات قديمة، مُقفلة. ما أعجبنا هو أنّ السّاحة الحمراء باتت ممنوعة على السيّارات. كم هو رائع هذا الامتداد الفسيح المُقفر الذي تجاوره مغازة «غوم» Goum، من جانب، ومن جانب آخر جدار أحمر عملاق؛ في العمق، كانت تتلألأ الألوان الحيّة لـ «سان-بازيل». رقص وغنّى شباب وشابّات لا يتجاوزن الخامسة عشرة، ذات ليلة في السّاحة الحمراء: كانوا يحتفلون بنجاحهم في الامتحان.

ثمّة عدد كبير من الميادين في موسكو. حيثُ توزّعت أشجارٌ جميلة للغاية، أشجار حور تختلف عن أشجارنا. يوماً ما كانت كلّ هذه الأشجار في حالة تكاثر. كانت تتدلّى من الأغصان عناقيد من حبوب اللّقاح القطنيّة، راح الرّيح يشتّته فتطاير ريشاً دخل آذاننا وأعيننا وأنوفنا وأفواهنا؛ فكأنّ السّماء لحاف عظيم يُشقّ. بمحاذاة الجادة سالت جداول من الرّيش القطني. في الحدائق، كنّا نمشي فوق زرابيّ بيضاء. أذكر، أيضاً، ذلك اليوم الذي جلسنا فيه داخل متنزّه قريب من موسكوفا؛ كان الكبار والأطفال يقطفون زهور الهندباء ويصنعون منها ضفائر على شكل تاج يضعونه على رؤوسهم.

تحسّنت المؤن. لم يعد النّاسُ قادرين على اقتناء الطّحين أو الـ «كاشا». لكن في زوايا الشّوارع، كان يُباعُ القرنبيط والخيار والفراولة والطّماطم والبرتقال. إلّا أنّ الفواكه كانت باهظة جدّاً: ثمن برتقالة في النّزل يساوي ثمن قطعة كافيار كبيرة. وأصبح الأخير لذيذاً. كنّا نأكل جيّداً في كلّ مطعم نرتادُه.

لم يكن الوضع الثّقافي متوهّجاً. ما زالت الرّقابة تمنع *حاجز لينين*: لم يخرج الفِيلمُ إلّا لاحقاً في شكل مُحرّف ومُشوّه. كان تاركوفسكي يُعدُّ شريطاً عن روبلوف: أُجبِرَ على إعادة صياغة السّيناريو ولاحت له صعوبات جمّة. لم يكن الرسّامون «الملعونون» يعرضون أعمالهم. بعضهم كان يحتال على العيش ببيع لوحاته للأجانب. يُسمَحُ بعبور اللّوحات المعاصرة أو القديمة إلى خارج البلاد، شرط أن تحصل على تأشيرة من متحف تريتياكوف بأنّها لا تملك أيّ قيمة تجاريّة.

تُرجمت قصّة لكافكا: *تقرير لأكاديميّة*؛ وراج حديث عن نشر *المحاكمة* – الأمر الذي لا سابقة له. سنة 1962، كان بريخت مُتّهماً: إنّه يبتعد كثيراً عن الواقعيّة الاجتماعيّة. سنة 64، فتحت المسارح أمام أعماله: مثّلت في لينينغراد *أرتورو أوي* بإخراج متميّز. كانت هناك نيّة نشر *الكلمات* لسارتر الذي ترجمته لينا في *نوفي مير* على مراحل. تردّد فريق

المجلّة وحتّى تفاردوفسكي. بدا لهم الكتاب «فاضحاً»، «استعراضيّاً». أن يتحدّث المرء عن نفسه بتلك الصّرامة، هو أن يُخلَّ بتعاليم التّفاؤل، أي أن يقول عن الإنسان الشرَّ. دوروتش أحبّ *الكلمات* ودون شكّ هو الذي حاول التّأثير على تفاردوفسكي: انتهى الأمر بطباعة الكتاب.

استقرّ وضعُ إيرنبرغ المادّي. استؤنِف نشر كتبه من جديد. أخبرنا بقضيّة أرّقت كلّ أصدقائنا - بعضهم تحدّث عن عودة الستالينيّة - التي كانوا يجهلون تفاصيلها: قضيّة برودسكي. كان شابّاً يهوديّاً أحمر الشّعر يقيم في لينينغراد ويكتب القصائد؛ كان يكسب عيشه من التّرجمة، لكنّه لم ينتمِ إلى أيّ هيكل في الدّولة: لم يكن عضواً في اتّحاد الكُتّاب. كان إيرنبرغ يستلطفه ويرى أنّه موهوب. اتُّهمَ بالـ «تطفّل»: لم يكن ذلك المفهوم يُطبّق عادة سوى على القوّادين والمومسات. جرت المحاكمة في لينينغراد. نجحت صحافيّة حضرت الجلسة في تسجيل بعض الملاحظات؛ حرّرت تقريراً شاع بين النّاس خلسة تحت المعاطف. ترجمه لنا إيرنبرغ. كانت القاضية امرأة. قدّم برودسكي نفسه كمترجم وشاعر فسألته: «من قرّر أنّك شاعر؟ - لا أحد. ومن قرّر أنّي من جنس البشر؟» ثمّ، بغرابة، آخذته لأنّه لم يكن يكسب ما يكفي من المال: «هل يمكن العيش بالأموال التي تكسبها؟ - نعم. منذ دخلتُ السّجن وأنا أوقّع يوميّاً ورقة تؤكّد أنّ الدّولة تنفق عليَّ أربعين كوبيكاً في اليوم. وأنا أكسب أكثر من أربعين كوبيكاً... - ثمّة أناسٌ يشتغلون في المصانع ويكتبون الشّعر. لمَ لا تكون من بينهم؟ - الأناس لا يتشابهون: ثمّة الشّقر، والسّمر والحمر... - هذا نعرفه». كان الشّهود الذين دُعوا لمصلحته قليلين وكان أغلبهم من اليهود: وجدت القاضية صعوبة في نطق أسمائهم. ثلاثة من اتّحاد الكُتّاب دافعوا عن برودسكي: إنّه شاعر مُبدع، قالوا، وهو بالإضافة إلى ذلك مترجم متميّز. لكنّ عدد الشّهود ضدّه كان غفيراً. قالوا إنّ النّاس الذين كانوا يدعمون برودسكي هم جميعاً كسالى ومشاغبون ماكرون. لم يكن يُحبّ بلده: لقد تحدّث عن «الحشد الرّمادي» الذي يسيل في الشّوارع. كان معادياً

للثورة: لقد وسم ماركس بـ الـ «الشّيخ النّهم المُتوّج بثمر الصّنوبر». إنّه يفسد الشّباب بشعره وبالنّموذج الذي يُقدّمه: أحد الآباء اشتكى تمرّد ابنه الذي قرأ أشعاره ورفضه للعمل. لقد هوجم كمُثقّف وكيهودي. هذا هو جوهر القضيّة. حُكم عليه بخمس سنوات من الأعمال الشاقّة في عزبة حكوميّة، قريباً من أرخنجيلسك.

أذهلتنا هذه الحكاية. من جهة أخرى، انطبع لدى سارتر حدس إيديولوجي بأنّ أقدام الشّباب تزلّ. كان طلبة، وأساتذة شبّان، يسألونه عن برديف، وعن شيستوف؛ بطريقة مُقنّعة نوعاً ما، كانت فكرة الإله قد بدأت تنشأ لدى عديد منهم. ناقشنا الظّاهرة مع فريق المُفكّرين الذين كان من بينهم صديقنا أليكاتا، مدير الصحيفة اليوميّة *أونيتا (الاتّحاد)*. ما يأسف عليه، مثل سارتر، هو أنّ البحث عن كلمة أكثر حرّية لا تتقاطع مع موقف أكثر ثوريّة من الكلمات الرّسميّة، بل بالعكس مع المواقف الأكثر رجعيّة. كان لابدّ إلى جانب العقائديّة العلميّة المفروضة من قبل ستالين وورثته، أن يُعادَ النّظر في الأفكار الحقيقيّة لماركس: بدلاً من ذلك فإنّهم يديرون عنه ظهورهم. «الماركسيّة! قال أستاذ في الأربعين. نحنُ مُشمئزّون من كلّ ما قُدّم إلينا تحت هذا الاسم! – جدوا شخصاً يعرف ماركس جيّداً ثمّ نظّموا محاضرة». قهقهوا: «لا أحد في الاتّحاد السوفيتي يعرف ماركس. لا أحد يمكن أن نمنحه ثقتنا».

سؤالٌ طالما طُرح علينا، متعلّق بالطّلبة السّود. ما من خلاف بينهم وبين الطّلبة الرّوس. نشبت شجارات خلال الشّتاء وجُرح شباب سود وماتوا متأثّرين بجروحهم. ناقشنا الأمر مع سفير الجزائر، بن يحيى، أثناء العشاء في إقامته. يتلقّى الطّلبة السّود منحاً عالية من بلدانهم حتّى إنّهم يبدون في نظر الطلبة الرّوس أكثر حظّاً منهم؛ مع أنّ وضع الطّلبة قاسٍ بالنّسبة للأفارقة الذين أُرسلوا إلى موسكو مُحمّلين بوعود بالجنّة. السّكن سيئ لدى جميع الطّلبة؛ كانوا ينامون في مبيتات حيثُ القيّمون عليها أغلبهم كانوا حرّاساً سابقين في المُعسكرات؛ بدا الأكل غير قابل

للأكل بالنّسبة للأفارقة؛ والطّقس لا يُحتمل: لا تسمح لهم منحهم بارتداء ملابس تدفّئهم، كانوا يعانون البرد. كانوا يحتجّون على أوضاع يتحمّلها زملاؤهم بيسر أكبر لأنّهم أكثر تأقلماً معها. يجد هؤلاء ادّعاءات الأفارقة مبالغاً فيها. هنا أيضاً تحضر قصص النّساء. يصرخ السّود بالعنصريّة عندما ترفض بيضاء الرّقص معهم؛ ويغضب الرّوس حين تخرج روسيّة مع أسود. هل ثمّة نزعة عنصريّة لدى السّوفييت أم لا؟ نوعاً ما، بالنّظر إلى حذرهم من كلّ أجنبي. الأجنبي الأبيض محلّ ريبة فقط لأنّه أجنبي؛ أمّا الأسود فيعتقد أنّ لون بشرته هو سبب العنصريّة فيردّ الفعل بعنف.

في الاتّحاد السوفيتي، المُستهلك والمُستخدم سواء، لا أحد يملك حسّ المبادرة؛ لاحظتُ ذلك لكنّي لمستُه خصوصًا عندما ذهبنا في رحلة إلى فلاديمير. يصل القطار في اتّجاه ويغادر في آخر دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء إدارة القاطرات: تدير المقاعد على جانِبَيْ الرّواق المركزي ظهرها لقمرة القيادة. وبما أنّي لم أكن أتحمّل السّفر إلى الوراء، فقد بقيتُ ثلاث ساعات جالسة متربّعة في مقعدي. لكنّني أحببتُ منظر الأجمات الرّتيب؛ السّماء المُحمَرّة: لا تنفكّ الشّمسُ تغيب؛ عندما وصلنا كانت العاشرة وبعض الحمرة مازالت تلوّن الأفق.

فلاديمير، المُشيّدة من قِبَل القيصر فلاديمير-لو-مونوماك، سنة 1108، هي واحدة بين أجمل المُدن الروسيّة القديمة. جعل منها حفيد فلاديمير العاصمة وظلّت كذلك مائة وستّين سنة. ثمّ أصبحت بعد ذلك مركز حكومة كبيرة. نُفيَ إليها العديد من الثُّوّار في القرن التّاسع عشر. اليوم هي مدينة صناعيّة ثقافيّة كبيرة. منذ الأمسية الأولى تجوّلنا في المدينة العالية. تبعنا الطّريق الدّائريّة التي تحاذي أسوار الكرملين: عند أقدامنا، كان يسيل نهر وكانت أضواء المدينة الواطئة تتألّق؛ تجاوزنا حدائق خضراء تقف فيها، بشموخ، كنائس بيضاء؛ وكان العُشّاق على المقاعد يحلمون.

في اليوم الموالي، جدّدنا لقاءنا بالكنائس؛ تعود كاتدرائيّة دمتريفسكي

Dmitrievski، إلى القرن الثّاني عشر: تُغطّيها من فوق قبّة في شكل بصلة ذهبيّة، كان فستانها الأبيضُ مُزخرفا بشكل بديع؛ كانت كاتدرائيّة صعود العذراء جميلة تحت قبابها البصليّة الخمس، وكانت تحتوي على لوحات لـ «روبلوف» Roublov. رأينا أيضاً، كاتدرائيّة باب الذّهب، ذات الباب الحصين والقبّة الذهبيّة؛ تجوّلنا في الشّوارع القديمة، المحفوفة بأشجار جميلة ومنازل خشبيّة ذات حدائق صغيرة. أقلّتنا سيّارة خارج المدينة، لرؤية انعكاس كنيسة الشّفاعة على مياه نهر «نيرل» Nerl؛ ثمّ زرنا مدينة سوزدال Souzdal، وهي مدينة أقدم من فلاديمير، وتضمّ داخل أسوارها عدداً من الكنائس: بينها واحدة، كبيرة وعالية، شُيِّدت من الخشب مع قبّة من الحصى.

ذات صباح، استيقظنا على مشهد، تحت نوافذنا، لشاحنات تُقلّ فتيات بفساتين بيضاء وأولاداً يلبسون ربطات عنق حمراء، يمسكون في أيديهم بأغصان «بتولا». حفلات مسيحيّة كثيرة في الاتحاد السوفيتي استُبدِلت بحفلات لائكيّة: كان ذلك يوم عيد الربّ وكانوا يحتفلون بأشجار البتولا. في المُتنزّه الذي يحتلّ مساحة كبيرة في المدينة العالية، كان أناسٌ يُغنّون في استعراض مهيب، كانوا يلعبون ألعاباً مُختلفة، ويعزفون على القيثارة؛ بدت هذه البهجة عفويّة ومُوجّهة في آن. إقامة تحوّلت إلى مقهى: كانت هناك طاولات في الخارج وفي الدّاخل كان من الممكن وبوفرة اقتناء المُرطّبات وقطع الخبز المحشو بالبيض أو بالبصل. مرّت نساءٌ يحملن الأطعمة وأكوام المقرمشات. جلسنا إلى طاولة وأكلنا بشراهة. كانت نعمة لأنّه لم يكن هناك ما يُؤكل في النّزل. لم يكن الخبز لا أسود ولا أبيض؛ كان الماء المعدني مالحاً كمياه البحر. (ماء القنوات في الاتّحاد السوفيتي غير صالح للشّرب، إلا في موسكو حيثُ لديه نكهة نعناع صارخة لكنّها ليست سيّئة). كانت الأطباق غير صالحة للأكل، ما عدا البيض، وهو نادر. أمام النّزل حشد كبير من النّاس يتحلّق حول بائع متجوّل يُقدّم شطائر مُغبرّة. كان السّوق البهيج والنّشيط، فقيراً للغاية. إذًا، من أين تأتي هذه

الوفرة فجأة؟ إن كانت ممكنة هنا، فلماذا تلك الأزمة في بقيّة المدينة؟ لم نفهم الظّاهرة خصوصاً أنّ الأكل متوفّر ولائق في موسكو القريبة من هنا.

أردنا العودة في تاكسي جماعي وهو يُسمّى «سيّارة الطّريق»؛ لكن، ولأسباب غامضة، كان ذلك ممنوعاً على الأجانب. أخذنا القطار، إذًا: كانت المقاعد في الاتّجاه الصّحيح، هذه المرّة.

نصحنا أصدقاؤنا برحلة جيّدة: أن نذهب إلى تالان Tallin، عاصمة إستونيا، مروراً بالمدينة الروسيّة پسكوف وبالمدينة الجامعيّة الإستونيّة لـ «تارتو» Tartou: نعود في السّفينة إلى لينينغراد من حيُث سيتعيّن علينا الذّهاب إلى نوفغورود Novgorod. لم يكن هذا البرنامج قابلاً للتّنفيذ، شرحت لنا وكالة إينوريست، لأنّنا كنّا أجانب. في دُول بحر البلطيق، وحدها العواصم مفتوحة أمام الغرباء: يستحيل المرور من تارتو. لم نكن نملك الحقّ سوى في الذّهاب إلى تالان انطلاقاً من لينينغراد عبر القطار. لماذا؟ لم نسأل. أخذنا الطّائرة إلى لينينغراد.

أحبّ هذه المدينة، خصوصاً، مساءً، عندما ترقّ الأضواء وتمتزج الألوان الإيطاليّة الجميلة ببرودة الشّمال. كانت اللّيالي البيضاء مثيرة أيضاً. ينبغي أن يكون «لَيْلَكُ» كيف قد ذبُل، لكن هنا، لقد بزغ الرّبيع، وراح يزدهي؛ كان الشان-دي-مارس مكسُوّاً باللّيلك الياباني ذي الرّائحة الفلفليّة الرّصينة، وليلك كالذي في فرنسا ذي الرّائحة المُبهجة المُنعشة: أيّ إشراق من الزّهور والأوراق تحت سماء منتصف اللّيل الصّافية! قليلة هي الأشياء التي لامست وجداني في الحفلات اللّيلية.

ثمّ لاحت تالان، وبدا لنا أنّ العالم قد تغيّر. لم تعرف إستونيا سوى عشرين سنة، فقط، من الاستقلال، من 1921 إلى 1940. لخمسة قرون متواصلة، تخلّلتها حروب طاحنة، دامية، مرّت قديماً من يد الألمان إلى الدّنماركيّين إلى البولونيّين إلى السويديّين. منذ سنة 1721 أصبحت تحت الحكم السّياسي للرّوس، أمّا اقتصاديّاً فقد كانت تحت هيمنة إقطاع ألماني جعل منها مقاطعة غربيّة. ضُمَّت، بعد الحرب، للاتّحاد السوفيتي.

لكنّ تقاليد جمهوريّة 1921–1940 ظلّت حاضرة. كان النّزل على النّمط الأوروبي، أنيقاً جدّاً، مطبخ مُرتّب؛ كنّا نستمتع في قاعة الأكل ذات الشّرفات الزّجاجيّة، بمشاهدة المتنزّه ذي النّباتات الغزيرة. مساءً، تعزف الأوركيسترا بصوت خفيض. استقبلنا زوج جذّاب: السيّد سامپر، رجل مُسنّ حيويّ، ترجم قبل الحرب *الجدار* للغة الإستونيّة، وزوجته الرّائعة ذات الاثنين والستين عاماً. كانت مُتخصّصة في الموسيقى وكانت تتذوّق موسيقى الطّليعة. عاشا طويلاً في فرنسا وكانا يعرفان لغتها وثقافتها جيّداً. كانا دائماً حاضريْن كلّما كنّا في حاجة إليهما، ويتركاننا بمفردنا عندما يشعران بأنّنا نتمنّى ذلك، وكنّا فعلاً نتجوّل بحرّية في شوارع تالان.

شُيّدت المدينة العالية في القرن الثّالث عشر من قبل الدنماركيّين: ظلّت الزّنازين ومزارع الفلفل والأبراج والنّوافذ مشابهة تقريباً لما كانت عليه قديماً؛ كانت، من بعيد، تبدو كصورة لفيكتور هيجو. كانت الأسوار تحاصرُ أنهجاً ضيّقة مُبلّطة على غير مستوى واحد، محفوفة بمنازل قديمة، وساحات صغيرة صامتة في النّهار ومُقفرة ليلاً.

في تالان، أيضاً، تسحرني اللّيالي البيضاء: نرى من بعيد بحراً ومراكب شاحبة تحت سماء شاحبة. تنزل من الأسوار حتّى الطّريق حديقة تتعرّج داخلها ساقية صافية. كان بالإمكان أن نشمّ رائحة الزّيزفون واللّيلك الصّاعد مثلنا جهة الشّمال.

عند الأسفل تمتدّ مدينة الباعة. قديماً كانت الطّرقات الضّيقة التي تزدحم حولها الدّكاكين والمحال، تقود إلى ساحات فسيحة حيثُ ينتصب السّوق الكبير. الآن، أصبحت المغازات – جيّدة التّموين نسبيّاً – نادرة، والسّاحات خالية. ويلوح انطباع بأنّ المدينة قد تحوّلت عن مسارها: مدينة مُحتلّة. كان السُكّان يعيشون أفضل من نظرائهم الرّوس، لكن أقلّ من فترة قبل الحرب. واحدة من مميّزاتها، هي كثرة مصانع الحلوى المليئة بما لذّ من المرطّبات وكثرة المقاهي على الطّراز الغربي. أكبر المقاهي، مقهى تالان، الواقع في الطّابق الأوّل، يُذكّر بمقاهي فيانا وإنسبروك Innsbruck؛

فسيح ومُظلّل وصامت ومقسوم إلى فضاءيْن، يحتوي كلّ منهما على طاولة مُستديرة كبيرة. يغلقون الحادية عشرة مساءً. بالإمكان أن نأكل الحلوى وأن نحتسي الشّاي والقهوة: لا تُقدّم الفودكا.

ذُهلنا لرؤية واجهات عديدة تظهر مناظر طبيعيّة من أستراليا. ذاك أنّ عدداً كبيراً من الإستونيّين هاجروا بعد الحرب إلى كندا وأستراليا. حدّثونا عنهم بتعاطف فاجأنا في البداية. طلب أحد الصحافيّين حواراً مع سارتر قائلاً: «صحيفتنا مُوجّهة خصوصاً إلى أبناء البلد في الخارج». يشعر إستونيّو الدّاخل بدونيّة تجاه المهاجرين؛ لم يعتبروا أنّ المنفيّين قد رفضوا الاشتراكيّة، بل إنّهم عبّروا عن حسّهم الوطني: لقد انتزعوا أنفسهم من ربقة الدّكتاتوريّة العلمانيّة، روسيا، ودون أن يفصحوا عن ذلك، كان من الواضح أنّهم يساندونهم. هجّر الرّوس العديد من الإستونيّين غداة اندلاع الحرب، لا لشيء إلّا لأنّهم إستونيّون، أي مشكوك في ولائهم لروسيا. التقينا كاتباً، قضّى سنوات في المُعسكَر دون سبب. كنيسة ضخمة وموحشة، ترى من كلّ الزّوايا، كانت قد شُيّدت خلال القرن التّاسع عشر، ترمز إلى حضور الرّوس الثّقيل في إستونيا. كي يحتجّوا ضدّها – وضدّ البارونات الألمان، أيضاً – تأسّست فرقُ كورال قرويّة: كانوا يغنّون أناشيد وطنيّة. أطلعونا على الصّالة التي كانوا يجتمعون فيها كلّ ثلاث أو أربع سنوات، لابسين الزيّ التّقليدي الإيستوني.

عرّفنا آل سيمپر برؤساء تحرير في مجلّات، وناشرين: كانوا ينعمون بنوع من الاستقلاليّة خلافاً للأوضاع في موسكو: نشروا *الطاعون* لكامو. غير أنّ أحد الكتّاب الذين تحدّثنا معهم كان وفيّاً لتفاؤل دجانوف. حائز على جائزة لينين، خطابيّ كبير، كان يروي بطريقة مُضحكة حكايات عن الأنتركتيك التي كان مُتخصّصاً فيها. لكنّ أذواقهم الأدبيّة تختلف عن أذواقنا. عاب على سارتر تشاؤمه في *الجدار*. لم يحبّ أيضاً، يوم من *أيام إيفان إيفانوفيتش*: «لقد كتبتْ بطريقة قاتمة»، شرح. «وكيف كنتَ

ستكتبها أنت؟» سأل سارتر. تردّد: «لا أعرف»، اعترف. فكّر، أنّه لم يكن من الضّروري كتابتها أصلاً.

لا يجوز لنا دخول إستونيا عبر تارتو؛ لكن لا ضير إن قادنا إليها كُتّابٌ إستونيّون من تالان. كانت جولة ممتعة، مائتا كيلومتر وسط ريف مُسطّح لكنه فاتنٌ: براري، غابات، منازل قرويّة، واطئة وطويلة.

كانت غُرَفُ فندق المتنزّه عصريّة ومُبهجة وكانت الممرّات دون حراسة، الأمر الذي لم أعهده قط في الاتّحاد السوفيتي. قال لنا الأستاذ ب. الذي تناولنا معه الفطور في مقهى إنّ فرنسيّاً واحداً جاء إلى تارتو قبلنا منذ سنة 1945. أطلعنا في المدينة السّفليّة على بعض المنازل الخشبيّة الجميلة: أبدى أسفه لأنّ البلديّة لم تُفجّرها؛ لحسن الحظّ أن دمّرت الحربُ أغلبها! لم يكن رجعيّاً بطبيعة الحال. شُيّدت تارتو مثل كالان على تلّة في البداية؛ لكنّ الحرب التي عصفت بإستونيا ودمّرت عديد المعالم تسبّبت تقريباً في محو المدينة العلويّة. لم تبق سوى الكاتدرائيّة، المبنيّة بالطّوب الأحمر، مُمَزّقة، لكن جميلة: صعدنا لرؤيتها مع الأستاذ ب. الذي قام ببعض التّعاليق المتبرّمة والمُحتقِرَة. تمّ توضيب جزء من الكنيسة لاستقبال المكتبة الجامعيّة التي زُرناها. بعد ذلك، صحبنا دليلنا إلى نحّات، امتلأ بيته وحديقته بتماثيل بشعة. قبل عشرين سنة، كان، تقريباً، نحّاتاً ملعوناً: يُعاب على بعض المجموعات توجّههم الإيروتيكي في الفنّ. إنّه يصنع، حاليّاً، معالم جنائزيّة، وهو مُتوّج بعديد التّشريفات وعلى كلّ المارّين من تارتو أن يُسجّلوا حضورهم لديه بكتابة انطباعاتهم في سِجِلّه الذّهبي.

إجمالاً، لم تشدّ تارتو اهتمامنا كثيراً؛ لكنّنا أمضينا أوقاتاً ممتعة في الرّيف المجاور مساء الـ«سان-جون». أقلّنا السيّد ب، مُتبرّماً وكئيباً كعادته، على درّاجة ناريّة إلى البحيرة الكبيرة، المحوطة بالتّلال الغابيّة والمُرشوقة بالجُزر. استقبلنا موظّف غابات ومياه: كانت مُهمّتُه «إطلاعنا» على البحيرة: في الاتّحاد السوفيتي، كل شيء يتمّ شرحه من

قِبَلِ مُتخصّص في الميدان وهذا يزعجني باستمرار. في الواقع، ورغم أنّ هذا الدّليل أكثر ثرثرة من الأوّل فإنه أقلّ عبوساً. اقترح أن نتنقّل في مركب ومررنا بين الجزر الصّغيرة السريّة فوق ماء ناعم إلى حدّ أنّ قصبة قد تقسمه نصفيْن. في السّماء، تركت طائرات سحباً متموّجة بيضاء خلفها، لوّنتها الشّمسُ بالأحمر.

تسلّقت السيّارة عبر طريق مفاجئة مكاناً عالياً يُشرف على البحيرة. نصب شبابٌ خيمة في القمّة وأوقدوا ناراً كبيرة؛ كانوا يعزفون الأكورديون. راح سائقنا يجمع أغصاناً ميّتة ويُلقيها في اللّهب. جلب لنا شابّ إستونيّ، أتى معنا، الفودكا؛ طافت القارورة بيننا؛ رقص مع لينا على أنغام الأكورديون. لاحت لنا تجمّعات أخرى على التلّة من خلال النّيران الأخرى. كانت البحيرة، تحت أقدامنا، تسبح في صفاء كالحليب.

عُدنا إلى تالان، ثمّ لينينغراد حيثُ أقلّتنا سيّارة من وكالة إينتوريست إلى نوفغورود التي كانت قديماً مركزاً ضخماً للتسوّق. كان الكريملين بأسواره العالية الحمراء يُشرف على نهر عريض خامل، غابت تعرّجاته في سهل بلا نهاية. تقف كاتدرائيّة مهيبة داخل الأسوار. من الجهة الأخرى، أمكننا أن نرى بقايا أقواسٍ تشهد على سوق القرن الثّامن عشر، وعدداً من الكنائس الصّغيرة: كان كلّ تاجر غنيّ يبني واحدة. أحصينا خمساً وعشرين في جولة دامت الفترة الصباحيّة. كانت جميعها مكسُوّة بورق خشن أبيض؛ أعيد بناء إحداها طبقاً للأصل بالطّوب الأحمر والوردي. كان هناك الكثير منها في الجوار. زرنا ديراً ينتصب وحيداً، على ضفاف نهر فولكوف، العريض من ذلك الجانب كبحيرة. عديد المعالم مُهملة في روسيا: تسكّعنا حول كنيسة محفوفة بالأشواك، مازالت تحافظ على نقاء خطوطها.

تجوّلنا مُدّة يوميْن، دون أن نرى كنيسة واحدة مفتوحة. صباح اليوم الثّالث، اتّصل صحافيٌّ بلينا عبر الهاتف وقال بسخط: إنّ علينا الإعلان عن وجودنا كي «يطلعونا» على المدينة. «لكن، لديَّ كتاب يشرح كلّ

شيء، قالت لينا. - كتاب! إنّه لا يُساوي الكلام المُباشر». ضربنا موعداً مع مسؤولة المتحف التي علّقت على الكاتدرائيّة بكلمات ميّتة. رغم ذلك، فبفضلها رأينا الأبواب البرونزيّة، ذات الأصول الألمانيّة، حيث نُقشتْ مشاهد صغيرة غرائبيّة. يحتوي المتحف على مجموعة أيقونات ثريّة.

عدنا إلى موسكو، حيثُ أقمنا أيّاماً قبل أن نقلع في اتّجاه باريس.

تعيش الصّين والاتّحاد السوفيتي في نزاع مفتوح. تستنكر الصّينُ في سياسة التّعايش السّلمي نوعاً من التواطؤ مع الرّأسماليّة؛ وتتّهم روسيا الصيّن بأنّها تسعى إلى الحرب. تفاقمت هذا العداوة المتبادلة، إلى أن بدأت أمريكا تقصف الفيتنام سنة 65، لم يكن خروتشيف في الحكم لكنّ الذين خلفوه تبنّوا سياسته مع الخارج وبدل إرسال الأسلحة إلى هانوي Hanoi، تركوا المجال مفتوحاً للأمريكان: ندّد الحزب الاشتراكي بحيادهم ونعتهم بالمتعاونين وبمُحرّفي التّاريخ. ازدادت قناعة الرّوس بأنّ الصّينيّين يريدون إشعال نزال عالمي وبأنّهم يتأهّبون لغزو الاتّحاد السوفيتي. جميع أصدقائنا الرّوس يتقاسمون هذا الرّأي. لم يكونوا ينسبون للصّينيّين لا تكتيكاً ولا تخطيطاً استراتيجيّاً ولا أيّ دافع موضوعيّ لكن فقط رغبة شيطانيّة في الإزعاج؛ كانوا يرون فيهم، برعب، تجسيداً صارخاً للشرّ المحض. كان كلّ نقاش في هذا الشّأن عقيماً منذ بدايته.

على الصينيّين والسّوفييت أن يكونوا حاضرين في مُؤتمر السّلام الذي ينبغي أن ينعقد في يوليو 65 في هيلسنكي. مروراً بباريس، طلب إيرنبرغ من سارتر المُشاركة: ستخدم مُداخلته موقف الاتّحاد السوفيتي. قرّرنا الذّهاب إلى الاتّحاد السوفيتي شهر يوليو: من هناك سيتحوّل سارتر إلى فنلندا ليومَيْن أو ثلاثة.

بدا لنا، حال وصولنا إلى موسكو، أنّ سقوط خروتشيف كان له، على الصّعيد الثّقافي، انعكاسات سعيدة. نشرت *نوفي مير* قصصاً لسولجتسين، وقصائد لـ «أخماتوفا»، وقسماً من *مُذكّرات* إيرنبرغ حيثُ يذكر فترة جدانوف الكاتب العام للحزب الشّيوعي ورئيس البروباغندا. في نوع من

البيان، ناشد تفاردوفسكي الكُتّاب للهرب من الزّيف والتنكّر والتخفّي وإلى التّنديد بالأخطاء وقول الحقيقة دون خوف. نُشرت أعمال باسترناك مُجدّداً. لكنّ المعركة مازالت متواصلة. لم تُترجم أعمال كافكا بعد، رغم أنّهم يُقدّمونه على أنّه ضحيّة الرّأسماليّة، لا كمتشائم متخلّف. لم يحصُل تاركوفسكي على حقّ تصوير فيلم روبلوف. لكنّ أملاً يلوح في الأفق.

انتهى ميخالكوف، مساعد تاركوفسكي في إخراج *طفولة إيفان*، من تصوير فِيلمٍ عنوانُه *المُعلّم الأوّل*. لكن هل سيسمحون بعرضه؟ تردّد المراقبون بخصوص ذلك. شاهدناه في عرضٍ مُضيّق، وصعقنا حقّاً. كان مُقتبساً من قصّة الرّوائي الكيرغيزي Kirghize، أيتاموف Aïtamov، الذي التقيناه لاحقاً، لدى مروره بباريس. أحداث الكتاب تدور في أيّامنا هذه، في مزرعة اشتراكيّة بكيرغيزستان التي تحتفل بعيد ميلاد انبعاث المدرسة. أحدهم لاحظ أثناء الحفلة: «هناك من ينقص هنا: إنّه المُعلّم الأوّل». ثمّ تُروى حكايته: حكاية مأساويّة لكنّنا نعرف أنّها انتهت على خير، بما أنّ القرية انضمّت اليوم إلى الاتّحاد السوفيتي. الفيلم كان أكثر مرارة؛ تجري أحداثه غداة نشوب الحرب العالميّة الأولى، عندما كانت كيرغيزستان مأهولة بقرويّين بؤساء يضطهدهم أسيادٌ قُساة وجهلة. أُرسِل المُعلّم الأوّل، الذي كان محارباً في الجيش الأحمر ولينينيّاً مُخلصاً، لتأسيس مدرسة في القرية. استقبله الأسياد على ظهور جياد بسُخرية؛ أمّا المزارعون فاستقبلوه بارتياب. حوّل المُعلّم إسطبلاً قديماً إلى قاعة درس؛ ونجح في استقطاب تلاميذَ بعناد وشجاعة. لكنّه لم يتأقلم مع الوضع، لأنّ شغفه بلينين أعمى بصيرته، وامتلأ رأسه بدروس أُسيء فهمُها، وأُحبطَ بسبب جسامة مسؤوليّته. أدان الصّراع بين البروليتاريا والبورجوازيّة في حين كان المجتمع الكيرغيزيستاني لا يزالُ إقطاعيّاً. في الفصل، لمّا كان يتحدّث عن الموت، سأله تلميذ إن كان لينين سيموت يوماً هو الآخر: أعماه الغضب فضرب الطّفل صارخاً في وجهه. ألّبت تلك النّوبات العصبيّة عليه التّلاميذ والأهالي. كانت إحدى تلميذاته تُكنّ

له حبّاً كبيراً. كانت جميلة جدّاً، وتبلغ من العمر خمسة عشر عاماً. اختطفها الباي المُعظّم واغتصبها تحت خيمته. انهار المُعلّم الأوّل وأنقذها منه مُستعيناً بجنود من الجيش الأحمر. نقلها إلى مدينة مُجاورة حيثُ ستكون في أمان. استعر الباي غضباً وانتقم من الأهالي، فأحرقوا المدرسة؛ لقد عابوا على المُعلّم الأوّل أنّه تجاوز تقاليدهم وصبّ الشرّ فوق رؤوسهم. قرّر المُعلّم الرّحيل بعد الهزيمة التي مُنيَ بها. لكن في فورة نشاط، توقّف: سيبقى، وسيقاوم وسيكافح ضدّ نفسه وضدّ الآخرين. مُستعيناً بفأس، قطع شجرة الحور الوحيدة في القرية ليعيد مكانها بناء مدرسته المحروقة. راقبه الأهالي، مذهولين، مُتردّدين، ثمّ انضمّ إليه بعضهم، مُبيّناً بذلك أنّه ربح قضيّته أخيراً.

رسم الكاتب بتعاطف، ذاك المناضل المتصلّب في مبادئه، وأولئك القرويّين المتجمّدين في مصالحهم الفوريّة، عبيداً لعاداتهم القديمة: تكرّرت مأساتهم أكثر من مرّة، مُتمثّلة في إرادة غلغلة الشّيوعيّة في الأرياف من قِبَلِ زعماء الحزب. يُقالُ إنّ القادة، يتردّدون في بثّ الفيلم حتّى لا يخدشوا حساسيّة أهل كيرغيزيستان. ربّما، يُقال أيضاً، إنّ المراقبين صُدموا من مشهد البطلة وهي تستحمّ عارية في السّيل. بل أعتقد أنّ صراحة ميخالكوف هي التي ضايقت: من خلال بطله المؤثّر والبغيض تنكشف التّركيبة المُعقّدة للثّوريّين (انتهى المطاف بخروج الفيلم إلى النّور. ثمّ لاحقاً عُرض في باريس).

أعلمونا بأخبار برودسكي. كان في توافق مع المُزارعين، إنّه يهتمّ بالخيول، الأمر الذي يسُرُّه. باقتراح من سارتر وإيرنبرغ، وبوساطة من اتّحاد الكُتّاب، وُجّهت إلى ميكويان رسالة تطلب العفو عن برودسكي. هل كانت الرّسالة لتُحرّك الحكومة؟ بعد وقت قصير أمكن لبرودسكي العودة إلى لينينغراد حيثُ سيكون في وسعه أن يعيش حياة عاديّة.

في تلك السّنة زرنا ليتوانيا. يتقاطع مصيرها مع مصير إستونيا. لم تعرف الاستقلال إلّا بين الحربَيْن، بسبب ضمّها إلى بولونيا أوّلاً ثمّ إلى روسيا

في مرحلة ثانية. لم تكن صلتها بالاتّحاد السوفيتي أمراً سهلاً خلال فترة احتلال ألمانيا لها بين سنة 40 و45. عارضت زمرة من القرويّين بمساعدة بعض من أنقاض الجيش الألماني، تلك العلاقة بعنف. لجؤوا، إذًا، إلى الأدغال وراحوا يبثّون الرّعب في القرى (شريطٌ ليتواني غريب، وصف المُقاتلين. شاهدناه في عرض خاصّ بموسكو). ظلّ الوضع ملتبساً فترة طويلة. لا يبدو اليوم أنّ الرّوس محبوبون في ليتوانيا. احتفلوا منذ وقت قريب جدّاً بذكرى انضمامها إلى الاتّحاد السوفيتي بحماس فاتر، حتّى إنّ وكالة إينتوريست تردّدت في السّماح لنا بمواكبة الاحتفال.

فيما كنّا نتحرّكُ في موسكو ولينينغراد بحرّية، فإنّنا دائماً نكون مرافَقين برابطة كتّاب، للتكفّل بنا، كلّما نزلنا في إحدى الجمهوريّات. إلّا أنّ أحداً لم يكن في انتظارنا في مطار فيلنو Vilno، وسُررنا كثيراً بتلك الهدنة. كنّا نستعدُّ للعشاء بهدوء حين اقترب منّا مدير النّزل: «سيّد سارتر؟ هناك طاولة محجوزة باسمك». فتح باب صالة مخصوصة، حيثُ نُصبت طاولة لأكثر من عشرين شخصاً: أخطأ مُضيفونا في ساعة هبوط الطّائرة ووصلوا بعد الموعد بقليل. وابتداءً من اليوم التالي لم يفارقونا خُطوة. طلبنا مرّة، باستحياء، أن يُترك لنا المجال للتجوّل في المدينة بمفردنا. عندالمساءِ سألوا متضايقين قليلاً: «هل كان الأمر أفضل من دوننا؟» نحنُ نكنُّ لهم المودّة، لكنّنا لا نُحبّ أن نتنزّه في الشّوارع في موكب يضمّ خمسة أو ستّة أشخاص.

لم تكن فيلنو مُثيرة للاهتمام: بعض الطّرقات الجميلة، ساحات خلاّبة، كنيسة قديمة من الطّوب، ذات معمار مُعقّد ومتناسق؛ بعيداً عن المركز، كانت هناك كنيسة باروكيّة منقوشة بالكامل من الدّاخل: نباتات، حيوانات، شخوص يحملون الطّابع الرّيفي اللّيتواني.

صباحاً، فوجئنا ونحن ننزل إلى ردهة النّزل بقرويّين يملؤون المكان، بعقد مُزرية تحت الذّقون. وكانت قاعة الأكل تعجّ بالأمريكان. ومثلما هو الحال بالنّسبة إلى إستونيا، فإنّ «أبناء البلد المقيمين في الخارج»،

يكتسون أهمّية كبيرة في ليتوانيا؛ في مُستطاعهم المجيء والمغادرة كما يشاؤون. كانت قد وصلت باخرة إلى فيلنو، فسارعت عائلات المهاجرين لاستقبالهم في النّزل. ثمّة تناقض كبير بين ليتوانيّي «الدّاخل» الذين كان أغلبهم كولخوزيّين، وبين المنفيّين، البورجوازيّين، فقد كانوا أنيقين؛ تحدّثنا مع أحدهم: كانت غالبيتهم تنتمي إلى الطّبقة المسحوقة في المجتمع الأمريكي وتكره أمريكا.

قُمنا برحلَتيْن أو ثلاث: مُجدّداً رأيتُ قصراً مهيباً من الطّوب، منتصباً وسط جزيرة في قلب بُحيرة تشكّل واحدة من سلسلة بحيرات حزينة تمتدّ حتّى الأفق.

كانت الرّحلة من فيلنو إلى پالانكا على متن السيّارة بمحاذات البحر، متعبة بما فيه الكفاية. كان علينا، في كوناس Kaunas، ثاني مدينة ليتوانيّة، زيارة معرض عصري للزّجاج المُزوّق بشعٍ جدّاً، وورشة نسيج، ومُتحف عتيق مُهمّ: أعجبني مسيح خشبيّ، حيثُ في كامل البلاد نسخ قبيحة جدّاً عنه، رغم أنّ الأصل جميلٌ جدّاً؛ كان مُتوّجاً بتاج من الأشواك، يضغط بيده على وجهه، إنّها صورة حيّة عن التخلّي. بعد الفطور في مقهى جذّاب، على الطّراز الفياني، زرنا قلعة حيثُ سُجن مقاومون من قِبَل الألمان. أخذنا حارس الحصن وهو سجين سابق، في جولة طويلة داخلها. فرنسيّون كتبوا أسماءهم على جدران الزّنازين. عدد كبير من المساجين أُعدموا رمياً بالرّصاص، ودُفنت عظامهم في الجوار، على بعد كيلومترات. وضع سارتر باقة ورود على معلم خُصّص للذين سقطوا. ثمّ تجاوزنا كلايپيدا، ميميل القديمة، ذات المعمار الألماني الصّرف. ميميل Memel، اسمٌ آخر أقف مذهولة أمام تجسّده. طوال الطّريق، تحدّثنا مع مرافِقينا عن الأدب الفرنسي والسّينما الإيطاليّة. وصلنا مُنهكين للغاية، في وقت متأخّر إلى پالانكا. دخلت لينا أوّلاً إلى النّزل ثمّ خرجت مُستاءة: يريد المدير دعوتنا على العشاء. نجحنا في الإفلات.

لم تكن پالانكا مدينة ذات أهمّية، لكنّ بحرها رائع: على امتداد البصر،

أمواجٌ في لون قهوة الحليب والرّمادي الدّاكن تتسابق نحو الشّاطئ الرّملي. رغم درجة الحرارة – من اثنتيْ عشرة إلى أربع عشرة درجة – كان هناك أناسٌ يسبحون. بل إنّ بعضهم كان عارياً تماماً. أثناء نزهة، على طول الشّاطئ، سارعت نساءٌ بدينات، ثرثارات، نحو سارتر: كنّا بصدد التوجّه إلى الشّاطئ المُخصّص للنّساء. من الرّائج في الاتّحاد السوفيتي، أن يمارس الرّجالُ والنّساءُ عادة العُرْي، على شواطئ منفصلة. طبعاً، في الشّواطئ المُختلطة، يجب أن تكون بدلة السّباحة محترمة.

ذات مرّة، صباحًا، رأينا مشهداً غريباً: رجلاً يلبس مُشمّعاً أصفر يدخل الماء حتّى فخذيْه، وهو يدفع شيئاً ما بعصا كان يحملها في يده. كانت شبكة أفرغها على الشّاطئ قبل ذلك؛ وكان أطفالٌ يتشاجرون على القمامة. كانوا يبحثون عن حجر الكهرمان. أغلب الحجارة الشفّافة أو الدّاكنة التي تُصنع منها القلائد في الاتّحاد السوفيتي مُتأتّية من ذلك السّاحل.

رأينا على مسافة من پالانكا، بيتاً أقام فيه توماس مان: كان مُعلّقاً أعلى منحدر، فوق البحر، على مشارف غابة معزولة؛ يسكنُها الآن بعضُ الكُتّاب. المعلمُ جميل، لكن الأجمل منه، على بعد كيلومترات، تلك الكثبان العالية البيضاء؛ نفخت ريحٌ جعلتنا نتعثّر ونحنُ نتسلّق المرتفع؛ جلسنا في القمّة وتأمّلنا البحر الأزرق الحادّ الذي امتد على الهضاب المتألّقة كالثّلج.

عدنا إلى لينينغراد في الطّائرة وأردنا رؤية پسكوف التي فاتنا أن نراها السّنة الماضية. كان يُفتَرَضُ أن تأتي سيّارة إنتوريست، لتقلّنا صباح يوم السّبت. الجمعة مساءً، عند العاشرة، دُعيَتْ لينا إلى إدارة النّزل: كان طريق پسكوف مُغلقاً. كان من المستحيل أن يتدخّل مسؤولو اتّحاد الكُتّاب: لأنّهم كانوا قد خرجوا في عُطلة نهاية الأسبوع. لِمَ هذا الحظر؟ هل كان هناك موكب عسكري؟ في اليوم الموالي، قرّرت لينا أن تجرّب أن تلعب الورقة الكبرى، في إصرار منها على أخذنا إلى پسكوف. فسّرت لمدير النّزل بأنّ سارتر سيتوجّه إلى هيلسنكي: لم يكن مطروحاً أن تفسُد

صداقته بالاتّحاد السوفيتي لأجل أشياء بسيطة ومُزعجة، إن كانوا يريدون منه حقّاً أن يقف في صفّ السّوفييت ضدّ الصّين. بعد ساعة سمحوا لنا بدخول پسكوف، الأمر الذي قمنا به بعد الفطور.

سرنا في طريق مُقفرة. في پسكوف، استقبلنا وفدٌ ثقافي بحفاوة. اعتذر الوفد لأنّه لم يُقدّم لنا الورد فقد أُعطِيتْ لسفيرة بريطانيا، التي وصلت قبلنا. عرضوا علينا الذّهاب في اليوم الموالي لزيارة منزل بوشكين، على بعد خمسين كيلومتراً. تلقّت لينا توصيات: لا يُسمَحُ بدخول الأجانب. «سأتحمّل المسؤوليّة على عاتقي»، قالت مندوبة الثّقافة. لينا لاتي أقامت في پسكوف خلال الحرب، لم تجد فيها ما أحبّته من قبل: لقد دُمّرت أغلب البيوت القديمة والمعالم العتيقة.

لم يلامس بيت بوشكين وجداني كثيراً: بوشكين ليس شخصيّة معروفة كثيراً في فرنسا. لكنّي أحببتُ الرّيف المُشمس والأفق الرّحب من خلال البراري والغابات التي تضوع برائحة الرّبيع. لم نصادف قطّاً في الطّريق، ولا حتّى في تلك التي أفضت بنا إلى لينينغراد.

أمضى سارتر يومَيْن في هيلسنكي. عندما تحوّلتُ أنا ولينا لاستقباله في محطّة لينينغراد، كانت مليئة بأناسٍ يحملون بين أيديهم باقات ورد. تشكّلت مجموعات. لدى وصول القطار، سارعوا إلى القاطرات، بينما عزف الموسيقيّون النّشيد الوطني. هاجم بعض الصّحافيّين والمُصوّرين المندوبين الثّقافيّين. كان اليابانيُّ هو الذي جمع حوله أكثر الصّحافيّين. بدأت الخطابات، ونجح سارتر في الإفلات. في النّزل، روى لنا ما دار في المؤتمر. أبدى الصّينيّون عدائيّة ضارية؛ لم يكونوا يصفّقون سوى للفيتناميّين. ليلة الرابع عشر من يوليو، حيثُ نظّم الوفد الفرنسيّ حفلة صغيرة، غنّى أحدهم: «ليلة الصّين، ليلة العناق، ليلة الحبّ». كانت علاقة السّوفييت بالصّينيّين متوتّرة جدّاً؛ وقف السّوفييت موقف المُدافع فيما ضاعف الصّينيّون من حدّتهم. كانوا عنيفين، خلال النّقاش، إلى درجة أنّ إيرنبرغ، الذي حاول ضبط نفسه، كاد يُصابُ باحتقان؛ غادر القاعة، وفي

الممرّ سقط مغشيّاً عليه، وكُسر نصف وجهه. في اليوم التّالي، وخلال نقاش اتّهم فيه الصّينيّون الاتّحاد السوفيتي بالتّحريف، وتكييف الأوضاع، والعودة إلى الرّأسماليّة، ثأر إيرنبرغ: طالب الصّينيّون الوفد السوفيتي بالاعتذار، لكنّه رفع، لأنّ موقف إيرنبرغ يُلزمه وحده. «هذا غير مقبول! قال الصّينيّون. جميعنا نعرف كيف تجري الأمور. ردود الفعل الشّخصيّة ممنوعة، كل شيء مُخطّط له سلفاً. إن كان قد غضب أحد المندوبين، فلأنّه قرّر ذلك». وبدا واضحاً أنّ تصرّفاتهم تؤكّد إيمانهم بتلك القاعدة.

روى لنا سارتر أيضاً، مداخلته في المؤتمر. أكّد على عدم الرّضوخ للمساومة الأمريكيّة بل أن يتجنّد الجميع لإنقاذ الفيتنام: إنّها الوسيلة الوحيدة لإنهاء الدوّامة. صفّق الفيتناميّون بقوّة. عاب إيرنبرغ على سارتر كونه جاء في صفّ الصّينيّين. في الواقع لقد عبّر سارتر عن أسفه على ضعف مساعدة الاتّحاد السوفيتي للفيتنام. حسب رأيه، كان في مستطاعه أن يردّوا الأمريكان بقوّة. دون إشعال حرب عالميّة ثالثة لا أحد يتمنّى وقوعها.

لدى عودته، اقتسم سارتر المقعد مع امرأة شابّة، تعرف الفرنسيّة، وجنرال يُدعى «جنرال السّلم». «عندما كنتُ شابّاً، قال، علّموني كيف أحاصر 10000 رجلٍ وأقضي عليهم. ثمّ بعد ذلك علّموني كيف أبيد 10000إنسان. الآن، القضيّة المطروحة هي إبادة الملايين: أفضّل الكفاح من أجل السّلم». ترعبه فكرة أنّ الصّينيّين يمتلكون القنبلة النوويّة: يوماً ما سيُلقون بها في أيّ مكان كي يُشعلوا حرباً عالميّة. «بالنّسبة إليَّ، فأنا أعيش في وسط موسكو، أي أنّي سأموت فوراً. لكنّي أفكّر في أهل الضّواحي!» كانت المرأة الشابّة أيضاً خائفة: إنّ عدد الصّينيّين مهول! سألت باستحياء: «ألا يجوز أن تُدفع أمريكا لإلقاء القنابل... أوه! ليس على النّاس بل على المصانع الصّينيّة قبل فوات الأوان؟ – لا، قال الجنرال بصرامة: أوّلاً، هذه جريمة. ثمّ إنّنا حلفاء الصّين: إن هوجموا فسيكون علينا أن نهرع لنصرتهم». استمتع سارتر كثيراً بصحبة الجنرال العجوز.

خلال اجتماع رابطة الكُتّاب الأوروبيّين الذي انعقد في روما في أكتوبر 65، التقينا سيمونوف، سوركوف، تفاردوفسكي، وأصدقاء روسيّين أكثر تزمّتاً. أخبرونا أنّ قضيّة أخطر بكثير من قضيّة برودسكي، ستندلع في موسكو عمّا قريب: اتُّهِمَ الكاتبان، سينيافسكي ودانيال، بنشر كتب مناهضة للاتّحاد السوفيتي تحت أسماء مُستعارة، أبراهام تيرتز وأرجاك.

شرح لنا إيرنبرغ أنّ مؤسّسة النّشر الكبرى اليوم، في الاتّحاد السوفيتي، هي ساميزدات Samizdat: النّشر الحُرّ. الأدباء الذين تتّهمهم الرّقابة في الخفاء، ليسوا معنيين بالقرار: بمساعدة أصدقائهم، كانوا يرقنون نصوصهم على الآلات الكاتبة ويُمرّرون نصوصهم؛ أدب برمّته تشكّل، على غاية من الأهمّية، بموازاة الأدب الرّسمي. أحدهم سلّط الضّوء على قصص دانيال، المنشورة في فرنسا تحت عنوان *هنا* موسكو، بالإضافة إلى قصص ونصوص لسينيافسكي المنشورة تحت عنوان *الجليد الأسود*. رأيتُ *الجليد الأسود*، دون أن أتحمّس له كثيراً، لكن دون أن أجد فيه هجوماً على الاتّحاد السوفيتي. كان قصصاً ساخرة ونقديّة، لكن غير معادية للسّوفييت. أدان دانيال إرهاب ستالين، دون أن يهاجم الشّيوعيّة في ذاتها. لكنّ المُرجّح هو أنّهم شوّهوا أوطانهم.

تمّ إيقافهم منذ شهر أكتوبر. هاجمتهم صحيفة الـ «إيزفستيا» *Izvestia*، والـ «ليتيراتورناي غازيتا» *Literatournaïa Gazeta*، بعنف. يوم 13 ديسمبر، نادى الطّلبة في مظاهرة كبيرة بمحاكمة شعبيّة لـ «سينيافسكي» لكنّ البوليس فرّقهم. جرت المحاكمة في فبراير 66، أمام جمهور تمّ اختياره بعناية: أغلبهم أعضاء في الحزب الشّيوعي. مُنح المتّهمون الحقّ في الكلام وهتفوا ببراءتهم: لكنّ الصّحافة لم تنشر ما جاء في تظلّمهم. وخلطت المحكمة بين حالتهم ووضع تارسيس Tarsis الذي ألّف كُتُبًا عنيفة جدّاً، يهاجم فيها النّظام والذي سُمِح له بمغادرة البلاد قبل ثلاثة أيّام من المحاكمة بعد أن قرّروا أنّه مُصاب بالپارانويا. وأُصدِرَ مرسوم بأنّ سينيافسكي ودانيال مسؤولان عن النّيل من النّظام الاجتماعي والسّياسي

للاتّحاد السوفيتي.: برهن استغلال الصّحافة البورجوازيّة على خبث وانعدام تامّ للموضوعيّة. حُكم على سينيافسكي بسبع سنوات ودانيال بخمس سنوات في «معسكر الإصلاح بالعمل، وفق النّظام الصّارم». بمبادرة من إيرنبرغ، وقّع اثنان وستّون كاتباً عريضة يطلبون فيها إخلاء سبيل الكاتِبَيْن المُتّهمَيْن: وعرضوا أن يكونوا ضامنين لهما. إذا اعتبرنا أنّ اتّحاد الكُتّاب يضمّ ستّة آلاف عضو، فإنّ العدد اثنين وستّين هو حتماً عدد تافه. يتطلّب التّوقيعُ شجاعة كبيرة: من عواقبه الحرمان من بعثات الخارج، وخسران الوضعيّة، ووقف النّشر. خاض صديقانا دوروش ولينا هذه المخاطرة. خلال المؤتمر الثّالث والعشرين للحزب الشّيوعي بالاتّحاد السوفيتي، الذي انعقد غداة المُحاكمة، قرّر شولوخوف أنّ المُتّهمَيْن لم يلقيا العقاب الكافي: في وقت لينين يُرمى هؤلاء بالرّصاص، قال. ووبّخ، أيضاً، اللّيبراليّين الذين عرضوا مساندتهم: «أشعر بالخجل مُضاعفاً، محَلَّ الذين وهبوا الدّعم وطالبوا بحريّة هؤلاء المارقين». أكّد أنّ «المدافعين البورجوازيّين» هم وحدهم من وقفوا ضدّ المحاكمة. مع ذلك، نشرت صحيفة *الإنسانيّة* يوم 16 فبراير تصريحاً لأراغون ينكر فيه مشروعيّة المحاكمة باسمه وباسم الحزب الشّيوعي الفرنسي واتّخذ الحزب الشّيوعي الإيطالي نفس الموقف. مُنعت *الإنسانيّة* من النّشر في موسكو مدّة أسبوع كامل. وصلنا يوم 2 مايو: «ماذا جئتما تفعلان في هذا الفصل؟» سألنا إيرنبرغ. حسب رأيه، كانت أوضاع المُفكّرين مأساويّة. جميعُ الذين التقيناهم كانوا ساخطين على المحاكمة، حتّى الذين لم يُوقّعوا البيان. قيل لنا إن سينيافسكي ودانيال كانا يتلقّيان معاملة قاسية جدّاً في المعسكر. خلال كلّ الوقت الذي بقيناه في موسكو، أغلبُ المحاورات كانت تدور حول هذا الشّأن. كان جميعُ أصدقائنا قلقين ومُنزعجين. لم تكن ماكينة النّشر الموازي تسير إلّا بعد أخذ احتياطات شديدة التّعقيد. لم يصدر أيّ كتاب مُهمّ. انتهى تاركوفسكي من سيناريو روبلوف الذي رُخّص له: لكنّ دوروش قال لنا إنه قام بتنازلات كثيرة،

حتّى إنّ عمله لم يعد مُرضياً (شاطرتُه هذا الرّأي عندما شاهدتُ الفيلم في باريس، شتاء 1969. عرّاه النُّقّادُ تماماً: لكن أليسَ لأنّه ممنوع من العرض في الاتّحاد السوفيتي؟).

سنة 63، نشرنا في *الأزمنة المُعاصِرة* قصّة سولجستين الرّائعة *منزل ماتريونا*، التي ترجمها لنا كَاتَالا Cathala؛ صدرت القصّة قبل ذلك في مجلّة نوفي مير، لكنّها جوبهت بنقد شرس للغاية. نشرنا، أيضاً، قصّتَيْن لنفس الكاتب ووددنا لو أنّنا نعرفه. اقترح صديق مُشترك بيننا أن ينظّم لنا لقاءً. قالت لنا لينا يوماً إنّ سولجتسين هاتفها: كان يرغب في التحدّث إليها. فكّرنا، ربّما، بأنّ الأمر متعلّق بالموعد المرتقب بيننا. لكن عندما جاءت لرؤيتنا بعد مكالمة دامت ساعة بينهما، كانت سحنتها مرتبكة: «لا يريدُ رؤيتكما»، قالت لسارتر.

لماذا؟ لم يشرح الأسباب بشكلٍ واضح. «قال بصورة متقطّعة، إنّ سارتر كاتب نُشرت جميعُ أعماله. كلّما كتب كتاباً يعرف سلفاً أنّه سيُقرأ. أمّا أنا، فخلفي كمّ من الكُتب التي لن ترى النّور أبداً. لذلك لستُ قادراً على التحدّث مع سارتر: سيؤلمني ذلك جدّاً». فاجأتنا ردّة فعله. كان سارتر يعرفه أكثر ممّا كان هو يعرف سارتر الذي قلّما تُرجمت كُتُبه إلى الرّوسيّة: جزءًا من مسرحه و*الكلمات*. من هذه الزّاوية هما متكافئان، إذًا. ربّما لم يرغب في الظّهور مظهر الخانع لمصيره، أو الإفصاح لغريب عن أفكار لن يفصح عنها قبل سنة منذ التّاريخ في رسالة وجّهها إلى مؤتمر الكُتّاب. ما بدا لنا واضحاً، هو أنّ الحكم على كاتب بالصّمت والعتمة، هو أسوأ ما قد يتعرّض له الكاتب من نحس.

لم نستطع الذّهاب إلى آسيا الوسطى لأنّ الصّيف كان حارّاً جدّاً. في شهر مايو، درجات الحرارة مُعتدلة، واستمتعتُ برؤية سمرقند مُجدّداً: بعد وصولنا إلى الاتّحاد السوفيتي مباشرة، ضرب أوزباكستان زلزالٌ عنيف؛ لا مجال للتنزّه كسيّاح. لذا غيّرنا خِطّتنا.

عدنا إلى يالطا. كان هناك ازدحام كبير، وكان الطّقسُ منعشاً سنة

1963. تفتّحت الحدائق والمتنزّهات بزهور بنفسجيّة بديعة: عناقيد ثقيلة من اللّيلك والوستاريّة وأشجار الكرز اليابانيّة. زهور في كلّ مكان، تفوح البتونيا بعطرها الثّقيل الرّقيق. استعدنا نزهاتنا القديمة وركبنا البحر في قوارب هوائيّة. ثمّ، مُجدّداً، ركبنا سفينة بيضاء ورأينا الضّفة تبتعد مع مغيب الشّمس. دعانا الرُبّان للعشاء، وسط ظروف قمرته السيّئة. (كان في القمرة التي تعرّض فيها موريس توريز الكاتب العام للحزب الشيوعي الفرنسي، لعمليّة اغتيال أودت بحياته). طلب من سارتر متردّداً إن كان قد جاء للاتّحاد السوفيتي من أجل قضيّة سينيافسكي ودانيال.

أوديسا Odessa. إنّها، أوّلاً، بالنّسبة إليَّ السّلالم التي عرفتُها في فِيلمِ *سفينة بوتمكين الحربية* هي أكثر سحراً في الواقع. لا أجد ما هو استثنائيَّ من الأعلى؛ في الأسفل، ورغم الدّرجات التي أُلغِيَت لإنشاء الطّريق الموازية للمرافئ التي لا تصل إلى البحر. كنتُ قد قرأتُ منذ فترة قصيرة، *مُذكّرات* پاوستوفسكي حيثُ يروي الأيّام التي سبقت دخول الجيش الأحمر إلى المدينة: كانت الطّرقات خالية وسوداء وكان لابدّ كي لا نتحوّل إلى هدف للقنّاصة أو أن يُلقى القبض علينا من الخلف، أن نمشي بخطوات ذئب؛ هتافات النّاس باتّجاه الميناء: حمقى وحقائب من خوص يسيلون في المنحدر، حقائب مبقورة تلفظ شرائط دانتيل؛ الازدحام القاتل على الممرّات المؤدّية إلى السّفن الفارّة إلى القسطنطينيّة: غادروا الرّصيف حتّى قبل أن يتمّ سحبهم، وتسابقت الحشود نحو البحر. ثمّ خيّم الصّمت الكبير في المدينة المتروكة وتقدّمت الخيّالة السّوفيتيّة في الشّوارع المحفوفة بالجثث. عجّت المغازات المقفلة بالجرذان. استحضرتُ هذه الصّور بينما كنّا نكتشف أوديسا سيراً على الأقدام أو في تاكسي. كان المركز التّجاري ضاجّاً بالحياة؛ كان هناك أيضاً، أحياء سكنيّة هادئة حيثُ نمت أشجار الأكاسيا المكسُوّة بزهور بيضاء أمطرت بتلاتها على الأرض ثمّ تحنّطت؛ على طول الطّريق المنزوعة البلاط، اصطفّت بيوت ذاتُ واجهات متناسقة ظلّت سليمة منذ بداية القرن التّاسع عشر.

بدا أنّ الماضي يقاوم كي يظلّ على قيد الحياة. إلّا أنّ أهل المدينة قد تغيّروا. كان سُكّان أوديسا فيما مضى، وفي جزء كبير منهم مُكوّنين من اليهود ومن عرب الشّرق. اليوم، غالبية السُكّان أوكرانيّون. رغم ذلك، وفي أحياء ذات أرصفة متصدّعة، حيثُ الأكاسيا غارقة في وحل سميك، سمعنا يديش Yiddish (لغة يهود ألمانيا وأوروبا الشّرقيّة) تُتكلّم. أسرابٌ من الـ كافكا الصّغيرة ذوات العيون السّوداء تلعب في الأرصفة.

أقلّنا قطارٌ إلى كيشينيف عبر ريف جميل: براري، ومنازل صغيرة ذات أسقف من قشّ، وجدران مطليّة بالأزرق، حدائق خضروات مزروعة بعناية، هواء لطيف سعيد. مُحقت البلدة بالكامل تقريباً خلال الحرب: حسب البيوت الخشبيّة المزيّنة التي استطاعت أن تنجو، فقد كانت، دون شكّ، مدينة جذّابة. سألنا الكُتّاب الذين استقبلونا، عن سبب مجيئنا، بنوع من التّفاجؤ: أراد سارتر أن يُقصر الكلام فقال إنّ الزّلزال منعنا من دخول أوزباكيستان؛ بدا أنّهم لم يستسيغوا هذه الحجّة. غير أنّ علاقة مودّة قامت بيننا خلال اليومين حيثُ أطلعونا على الضّواحي: حقول فسيحة أرضها سوداء تتخلّلها البراري؛ قرى شبيهة بتلك التي لمحناها أثناء رحلة القطار، مرتّبة ومزدهرة. قبل الحرب، كانت تلك المناطق تنتمي إلى رومانيا؛ كثير من سكّانها يتكلّمون الرّومانيّة وعموماً يعرف المثقّفون الفرنسيّة.

انطلقنا بالسيّارة على طول پروث Pruth – الحدود الحاليّة – عبر طريق محفوفة بالأكاسيا البيضاء العطرة. عند مدخل كلّ قرية، كانت السيّارة تتوقّف؛ ننزل، نفرك نعالنا على ما يشبه السجّاد المهترئ بسبب مواد التّطهير: لقد اجتاحت الحمّى القلاعيّة المنطقة، ويُخشى أن نحملها من ضفّة إلى أخرى. من قريب لمحنا سلسلة جبال كارپات Carpates ذات الاسم الرّومانسي.

في طفولتي، كانت ستيفا تحدّثني كثيراً عن لفوف Lvov، مدينتها التي وُلدت فيها والتي تشكّل جزءًا من بولونيا؛ كم يبدو لي ذلك بعيداً! كم تقلّص العالم منذ ذلك التّاريخ، بما أنّه يبدو لي أمراً طبيعيّاً أن أكون هناك.

ترقى المدينة إلى أوروبا الوسطى أكثر من روسيا. شُيّدت المعالم على الطّراز الباروكي النمساوي، بأسطح خضراء جميلة واطئة. دخلنا كنيسة كاثوليكيّة؛ كانت مليئة بأناس ينشدون في كورال تراتيل جميلة: كان هناك عدد كبير من الشّباب في الصّالة.

في جامعة لفوف، طرح الطّلبة على سارتر نفس الأسئلة التي طرحها عليه كُتّاب فيلفو السّنة الماضية، وكُتّاب كيشينيف هذه السّنة؛ كانوا مُهتمّين بالسّينما الإيطاليّة، خصوصاً سينما أنطونيوني Antonioni، وبالأدب الفرنسي: خصوصاً الرّواية الجديدة وساغان Sagan.

خلال هذه الرّحلة القصيرة، خُضنا تجربة جديدة متعلّقة بالتوجّس من الأجانب. توقّفنا في لفوف، في مدينة على سفح جبال كارپات حيثُ رغبنا في القيام بجولة. ثمّة نزهة مبرمَجة، قالت لنا وكالة إينتوريست: أربع ساعات من السّير بالسيّارة في طريق جبليّة إلى أن نبلغ مضيقاً حيثُ سنتناول الغداء في نزل؛ أربع ساعات من النّزول. لكنّ لينا لا تتحمّل المسافات الطّويلة في طرقات متعرّجة. اقترحتُ اختصار الجولة: سنُخيّم في منتصف الطّريق المؤدّي إلى المضيق. مستحيل: يُمنع على الأجانب أن تطأ أقدامُهم أرضاً قبل الوصول إلى المضيق. اكتفينا، إذًا، بقضاء ساعتيْن في الغابة دون مغادرة السيّارة. الكارپات يشبه الـ فوزجس Vosges: أشجار صنوبر، عشب نديّ، هضاب زرقاء. رغبتُ في استنشاق رائحة المكان.

في حوصلة لكلّ الموانع التي اصطدمنا بها، التبست علينا غرابتها. في يالطا، الضفّة الشّرقيّة ممنوعة على الأجانب، إضافة إلى الطّريق المباشرة المؤدّية إلى عاصمة التاتار؛ مدينة سيباستوبول Sébastopol في شبه جزيرة «القرم» موصدة دون الأجانب؛ التّاكسي المؤدّية من فلاديمير إلى موسكو كانت ممنوعة يُمنع دخول دول البلطيق باستثناء العاصمة. يمنع الذّهاب من لينينغراد إلى تالان عبر القطار، والعكس صحيح كذلك. برهنت تجربة پسكوف تفاهة هذه التّراتيب. «إنّها مثل مقعد مدريد»، قال

لنا غويتيسولو الذي التقيناه في موسكو. «لافتة تقول: يُمنع الجلوس. أحدهم قال بتحقيق بدافع الفضول؛ تمّ طلاء المقعد قبل خمس سنوات، وعُلّقت اللّافتة، ومنذ ذلك الحين، لا أحد بادر بانتزاعها».

بعض التّراتيب، ليست، دون شكّ، سوى نوع من البقاء على الحال. لكنّ توجّس الرّوس من الأجانب يعود إلى تاريخ قديم.

يستمرّ السّوفييت في عاداتهم القديمة. في واحدة من كنائس فلاديمير، كانت هناك لوحة - عمل فنّي لشخص مجهول - بدت لنا حاملة لدلالات مُهمّة. إنّها تُظهر يوم الحساب. فوج من الملائكة يقف بجانب الربّ ومنتخبون دون عمر بروب طويل؛ على اليسار، نرى أناساً منذورين للجحيم، يلبسون ثياباً ضيّقة سوداء، ملابس داخليّة ضيّقة، وياقة من الدّانتيل، ولحية مُدبّبة: كاثوليك؛ خلفهم أناسٌ مُعمّمون: مسلمون. يتمّ التّمييز بين النّاس بحسب دينهم. لكنّ اختلاف الأديان يتداخل مع الهويّة. كلّ الأجانب مُخطئون وهم محكومون نتيجة لذلك.

سنة 1967، رفضنا المشاركة في مؤتمر اتّحاد الكُتّاب السّوفييت: وإلّا فإنّنا سنبدو موافقين على محاكمة سينيافسكي ودانيال، وعلى الصّمت الذي يلفّ سولجتسين. الطّريقة التي دار بها المؤتمر، القمع الذي تعرّض له عدد كبير من المُفكّرين اللّيبراليّين، خلال السّنة اللّاحقة، لم يشجّعنا على العودة إلى الاتّحاد السّوفيتي سنة 68. لكنّ أحداث تشيكوسلوفاكيا هي التي جعلتنا نقطع كلّ صلة به نهائيّا.

تشيكوسلوفاكيا. بالكاد رأيناها سنة 54، وأزعجتنا جملة قيلت همساً: «أشياء فظيعة تحدث هنا. في هذا الوقت». لكن سنة 63، لاحظنا ريح حرّية تهبّ في سماء پراغ. دُمّر تمثال لينين الضّخم والقبيح، منذ زمن. قُرئ كافكا وأحبّه النّاس. تُرجمت العديد من الأعمال الأجنبيّة، من بينها كُتبٌ لسارتر، ولي. استمعنا إلى شباب يعزفون الجاز ويقرؤون قصائد أمريكيّة لشعراء غريبي الأطوار، في كاباريه مزدحم بالنّاس. استطاع سارتر التّواصل مع الطّلبة في الجامعة بكلّ حرّية. كان للعديد من المُفكّرين الذين

يفهمون الماركسيّة جيّداً رأي عكسر السّوفييت. ظلّوا مُخلصين للشّيوعيّة لكنّ تفكيرهم أصبح ناقداً ومتطلّباً. لم يكونوا يخافون مواجهة الماضي والإفصاح عن أخطائهم. في أبريل 63 خلصت منظّمة تأسّست سنة 1962، إلى أنّ محاكمات پراغ قد تمّت فبركتها من كلّ القطع؛ طالبت بكسر الأحكام والإفراج عن المُتّهمين. بعض المراجعات رُفضت لكنّ التمشّي الجاري كان لا رجعة فيه. صديقانا الدّائمَان، هما هوفميستر Hoffmeister، الذي استقبلنا في المطار، و«ليام» Liehm الذي لعب دور الدّليل والمترجم. هوفميستر، كان وجهاً معروفاً جدّاً في پراغ. كان رجلاً ستّينيّاً. خلال شبابه كتب أشعاراً ومسرحاً وقصصاً ونصوصاً، ورسم الكاريكاتور وعرضه في پراغ وباريس سنة 1927 و1928 بنجاح كبير. غادر براغ نحو باريس سنة 39؛ درس الطّب ثمّ تمّ ترحيله إلى ألمانيا من حيثُ هرب كي يلتحق بالولايات المُتّحدة. بعد الحرب، عُيِّن مديراً للعلاقات الثّقافيّة، ثمّ من 48 إلى 51 سفيراً في باريس. ظلّ في معزل عن الحياة العامّة خلال فترة المُحاكمات. الآن، هو أستاذ في مدرسة فنون الدّيكور؛ استمرّ في الكتابة والرّسم.

في شبابه، كان «ليام»، كاتب نصوص وصحافيّاً بارعاً. ترجم العديد من الكتب الفرنسيّة. كان كلاهما مُثقّفاً ومنفتحاً وصاحب حيلة. كنّا نتحاور معهما في كلّ المواضيع دون تردّد.

في القصر الجميل الواقع في ضاحية پراغ، الذي هو على ملك اتّحاد الكُتّاب، التقينا الكاتب السلوفاكي مناكو Mnacko؛ كنّا نقدّر كتابه كثيراً، *الرّيبورتاج المُحرّف*، الذي يصف فيه تجاوزات الفترة الستالينيّة. كان حيويّاً وشغوفاً بالكتابة وصاحب عقل حرّ. التقيناه بمسرّة في براتيسلافيا Bratislavia.

لم أكن أعرف تلك المدينة. تجوّلنا فيها بصحبة زوجيْن رائعيْن، السيّد بايو وزوجته. كان ملحقاً في سفارة بباريس وهو من أطلعنا على معلومات رسميّة حول محاكمة سلانسكي Slansky. الآن هو يدير مجلّة أدبيّة.

بدت براتيسلافيا فقيرة. مجموعة غجر يسكنون أحياء بائسة، أسفل

القصر. منذ فترة قصيرة، وكي تدخل العملة الصّعبة، فُتحت الحدود القريبة يوم السّبت والأحد وانتشر في الطّرقات حشد كبير من النّمساويّين. قال لنا مدير النّزل إنه يعرف بعضهم معرفة جيّدة: قبل عشرين عاماً كانوا يلبسون الزيّ العسكري الألماني. كانت المقاومة السلوفيّة بطوليّة، والاضطهادُ دمَويّاً: لم تكن سمعة الألمان أو النّمساويّين جيّدة هنا. ذات مساء، أخذنا مناكو وأصدقاؤه إلى مطعم واقع وسط غابة واسمُه: «مغارة اللّصوص»: كان عبارة عن كوخ كبير ذي أثاث خشبيّ داكن تصطلي بداخله أنواع اللّحوم ذات الرّوائح الفاتنة. بينما كنّا نتناول العشاء ونحتسي النّبيذ الأبيض، إذ بمجموعة من السُيّاح استقرّت في طاولة مجاورة، وأخذوا يغنّون بالألمانيّة. ردّت طاولتنا بأغاني المُقاومة. كان الجوّ متوتّراً؛ ثمّ تحدّث مناكو مع النّمساويّين وانتهى الأمر بأن تصافحوا.

من براتيسلافيا إلى پراغ، تجاوزنا مناظر طبيعيّة شاسعة: تلالاً خضراء وغابات داكنة حيثُ يأتي أغنياء أجانب لقنص الطرائد الكبيرة. كنّا نرى في أغلب القرى أعمدة باروكيّة رفعها السكّانُ الذين نجوا من الوباء، غداة زوال الطّاعون شكراً لله، لأنّه جنّبهم الموت.

كانت إقامتنا قصيرة، لكنّنا بقينا على صلة بأصدقائنا التّشيك. سنة 64، نشرنا في *الأزمنة المعاصرة* قصّة ساخرة وقاسية لكونديرا، *لا أحد سيضحك*. التقينا في باريس بهوفميستر. سنة 1967، أصدر ليام في المجلّة الأدبيّة التي يُديرها، تقريراً مُفصّلاً عن أشغال محكمة روسال Russel. التقيناه في باريس بتلك المناسبة. في تلك الفترة، كان الرّسم والموسيقى والأدب مجالات حرّة، في تشيكوسلوفاكيا، قال لنا: بل إنّ كُتباً جيّدة رأت النّور في عهد ستالين. كان وضع السّينما أكثر سوءًا لم تكن هناك رقابة على الأفلام، إنّما كانوا يشجّعون المُخرجين المُخرّبين على الذّهاب إلى هوليوود. التّفسير، كما قال لنا ليام، هو أنّ القادة لا يقرؤون ويجهلون كلّ شيء عن الموسيقى والرّسم. بينما من حين إلى آخر، كانوا يشاهدون الأفلام في القاعات.

لاحت أزمة سياسيّة. كان الوضع الاقتصادي رديئاً. وليعالج الأمر، وضع «أوتا سيك» خطّة نظام جديد؛ أراد تبنّي الإنتاج حسب حاجة البلاد من مواردها الخاصّة؛ كان هذا الإصلاح غير ملائم للمركزيّة القصوى للسّلطة، تحتاج المسألة إلى تحرير النّظام؛ فنتج عن ذلك صراع بين البيروقراطيّين الجدد والقدامى. بدا أنّ الطّبقة العاملة اصطفّت خلف هؤلاء الأخيرين، وإن كان الإصلاحيّون يعدونهم بضمانات تتعلّق بجودة منتوجهم. كان المُفكّرون هم الذين أيقظوا في داخلهم رغبة في العيش تحت ظلّ ديمقراطيّة اشتراكيّة، وهم يلاحظون شلل السّلطة بسبب تناقضها الدّاخلي. كانت مجلة *ليتيرارني نوفيني* *Literarni noviny* (صحيفة الشّعب) تنقد النّظام بجسارة. قبل المؤتمر الرّابع لاتّحاد الكُتّاب الذي افتُتِح في يونيو، شنّ الستالينيّون على ليام ومجلّته حملة فاشلة. اربدّ الوضع في المؤتمر. أدان فاكوليك Vaculik عدم نجاعة وتصلّب القادة. أيّده آخرون. غادر هنديك Hendick، القاعة، وكان سكرتير اللّجنة المركزيّة ستالينيّاً شرساً. لم تعترف إدارة الحزب بالهيكل القيادي للاتّحاد، المنتَخَب من قِبَل الأغلبيّة السّاحقة. حدثت، إذًا، قطيعة بين الحزب والمُفكّرين. روّج هؤلاء عدداً هائلاً من البيانات التي تهاجم النّظام.

بعد حرب الأيّام الستّة، اتّخذت براغ موقفاً معادياً من إسرائيل. لم يكن مسموحاً بالتّعبير عن رأي مخالف للموقف الرّسمي. تحت ذريعة معاداة الصّهيونيّة، انبعثت معاداة اليهود من جديد وعلى تلك الخلفيّة حوكم سلانسكي. في سبتمبر 67، غادر «مناكو»«براتيزلافيا» إلى إسرائيل مأخوذاً بالغضب؛ لم يكن يهوديّاً لكنّه لم يقبل أن يمنعه أحد من كتابة ما يُفكّر فيه. عدد كبير من الكُتّاب التّشيكيّين، وقّعوا عريضة يطالبون فيها بحرّيتهم، حول القضيّة الإسرائيليّة كما حول بقيّة المسائل.

نهاية سبتمبر، وأثناء الجلسة العامّة، طردت اللّجنة المركزيّة ثلاثة كُتّاب من الحزب، من بينهم ليام. انعقدت جلسة أخرى نهاية أكتوبر

صادف التئامها مع مظاهرة طُلّابيّة وُصفت بالسّياسيّة، رغم أنّها متعلّقة بمسائل تخصّ الإضاءة والتّدفئة. من جهة أخرى، كانت سلوفاكيا تعيش اضطرابات جادّة، لأنّها كانت مُضايَقَة من قبل التّشيك. تنازع «نوفوتني» و«دوبسيك» في شأن المشاكل السّلوفاكيّة وتسبّب سلوك نوفوتني الأخرق في خلاف بين كثير من أعضاء اللّجنة المركزيّة. لم يعد بريجنيف Brejnev بتأييده لنوفوتني، عندما أحاط علماً بما يجري من قِبلِ دوبسيك وسيرنيك.

خلال جلسة ديسمبر، ضغطت اللّجنة المركزيّة عليه كي يستقيل. ليلة 4 إلى 5 يناير، تخلّى عن منصبه كزعيم للحزب؛ ظلّ فقط رئيساً للجمهوريّة. عُيِّن دوبسيك السّكرتير الجديد. حصل هذا التّغيير على نحو ديمقراطيّ بحت، بتسيير من اللّجنة المركزيّة.

هكذا تمّ التّرتيب لـ «ربيع براغ». من يناير إلى مارس، كان يُمنعُ بشكل خاصّ، صوتُ الإنتلجنسيا، صوتُ العقل. حاول المُفكّرون تأليب الجماهير على الإصلاحيّين، لكنّ كتاباتهم ابتعدت كثيراً: برهنوا على استحالة وضع حدّ لـ «تجاوزات» النّظام إلّا بتقويض السّيستَم برُمّته. عندما أدركت الطّبقة العمّاليّة حقيقة الأوضاع في البلاد، وبالأخطاء التي ارتُكِبَتْ، تسيّست واستعادت مطلبها القديم المتطرّف: الحكم للسّوفييت. ألغت الرّقابة الصّحافة، وانتعشت حرّية الإذاعة وضاعف المُفكّرون من نضالهم ضدّ السّيستم. استقال نوفوتني في شهر مارس؛ قرّر الزّعماء عقد مؤتمر للحزب واللّجوء إلى انتخابات برلمانيّة. في شهر مايو، نشر فاكوليك *بيان الـ2000 كلمة*: على العمّال أن يصنعوا الدّيمقراطيّة بأنفسهم. حصل هؤلاء على نظام يعهد لهم بتسيير المؤسّسات. أدركوا أنّ هذا المكسب كان ثمرة حوارات دارت منذ يناير وبات حقّ النّفاذ إلى المعلومة مطلبهم الأساسي: تشكّلت في المصانع «نقابات عمّاليّة لحرّية التّعبير». هكذا تحقّق الائتلاف الصّعب بين المُفكّرين والطّبقة العاملة.

لكنّ الحزب الشّيوعي للاتّحاد السوفيتي، خاف ممّا يحدث. يوم 1

يونيو، قرّرت اللّجنة المركزيّة للحزب الشّيوعي التشيكوسلوفاكي، في سرّية تامّة، الدّعوة إلى عقد المؤتمر الرّابع عشر: عندها راحت فرق من الجيش السوفيتي تقوم بدوريّات على الحدود التشيكوسلوفاكيّة. يوم 1 يوليو، وقّع الاتّحاد السوفيتي وبولونيا وهنغاريا وبلغاريا وألمانيا الشّرقيّة «معاهدة الخمسة» في وارسو. استدعوا السّتالينيّين التشيكوسلوفاك لمعارضة سياسة دوبسيك Dubcek. كان طعنة سيف في الماء. زاد التحام الشّعب بالحزب.

تابعنا الأحداث باهتمام كبير. قرأتُ *المزحة* حيثُ أشار كونديرا بسخرية سوداء إلى المناخ الذي يسود في تشيكوسلوفاكيا خلال سنوات الخمسين. استلهم الكاتب قصّته من واقعة حقيقيّة حدثت سنة 1949. نشر نيزفال Nezval، الذي كان الجمهور يُحبّه كشاعر لكن لا يُحبّونه كثيراً كإنسان، كتاباً شعريّاً، احتفى فيه بالمتع الحسّية وستالين. كان الشّباب يردّدونها مستهزئين. كلّفتهم تلك «المهازل» الكثير. وُصفت كُتُبُهم بالمؤامرة ضدّ الدّولة؛ هوجمت المجلّات التي نشرت لهم؛ اتُّهِمَ الكاتبان وشركاؤهما بأنّهم تروتسكيّون (نسبة إلى تروتسكي Trotsky) وعملاء الإمبرياليّة. قاما في بعض الأحيان بنقد ذاتي، فأن تكون مُثقّفاً واعياً بما يدور حولك من قضايا وحده كفيل بجعلك تشعر بالذّنب. ترجم كونديرا في روايته تلك المزحة الكبيرة؛ تحدّث عن سنوات الأشغال الشاقّة التي حُوكم بها الممازح. في أبريل، نشرت *الأزمنة المعاصرة* مقالات عديدة لتقدّميّين تشيك.

كنّا في روما، عندما علمنا بدخول الدبّابات السوفيتيّة إلى تشيكوسلوفاكيا في 21 أغسطس. قدّم سارتر حواراً لصحيفة پاييسا سيرا *Paesa sera*، الاشتراكيّة؛ وصف السّوفييت بأنّهم «مجرمو حرب»: وانهارت علاقتنا تماماً بالاتّحاد السوفيتي. ارتعب أصدقاؤنا الإيطاليّون. تنصّل الحزب الشّيوعي الإيطالي بقوّة من عدوان السّوفييت؛ اهتزّت علاقتنا بالحزب الشّيوعي الفرنسي، لكن بفتور. في كلا البلديْن، صُدمت القواعد التي

اعتادت دعم الإعجاب بالاتحاد السوفيتي غير المشروط، بموقف اللّجان المركزيّة. أمّا نحنُ فقد أحزننا الموقف الذي اتّخذه كاسترو. أرسلت لنا روسانا روساندا، الخطاب الذي تلقّته من النصّ الأصلي: كانت مذهولة بحزن لرؤية كاسترو يساند، بحماس، اجتياح قوّة عظمى لدولة صغيرة.

أرسل الكُتّاب السّوفييت لمُفكّري تشيكوسلوفاكيا ومُثقّفيها، للتّعبير عن مؤازرتهم. بين الكُتّاب الكبار، وحدهم سيمونوف، تفاردوفسكي وليونوف رفضوا التّوقيع. (إيرنبرغ كان قد مات). فكّرنا في أسى أصدقائنا الرّوس. لدى عودتنا إلى باريس، التقينا سفيتلانا، شيوعيّة شابّة نعرفها بالكاد. كانت تقضّي عطلة مع أختها على ضفاف البحر الأسود، عندما سمعت بالعدوان في الرّاديو. «أنا لا أبكي أبداً، قالت لنا. لكن هنا، انهرتُ باكية. أختي أيضاً». في النّزل، تناولا الفطور مع ضابط شابّ: «هوّنا عن نفسيكما، قال لهما. لن يدخل الألمان إلى الاتّحاد السوفيتي. نحنُ من سيتعقّبهم إلى بيوتهم». كان يظنّ، كالعديدين أنّ المسألة تتعلّق بقتال مع الألمان. إنّ الجماهير تساند الحكومة بعمى، قالت لنا سفيتلانا. لقد صرنا، معزولين تماماً، نحنُ المُفكّرين.

في نفس الوقت، رأيتُ صديقة رومانيّة قادمة من بوخارست. يوم 22 أغسطس، كانت في صالة تجميل، عندما فُتح الرّاديو. انفجرت باكية وقالت: «لقد هلَكْنا!» أعلن سوسيسكو Seausescu بأنّه سيُلقي كلمة وتحلّق سُكّان المدينة حول الرّاديو للإصغاء إليه. أدان العُدوان بعنف. ظهر تصريحُ سارتر الذي أدلى به إلى صحيفة پايسي سيرا على الصّفحات الأولى للجرائد. رُويداً، بعد التّعامل السرّي مع الاتّحاد السوفيتي، ساد الصّمت. عاد الرومانيّون الذين وجدوا أنفسهم عالقين في تشيكوسلوفاكيا بسيّارات منبعجة: رماهم الهنغاريّون بالحجارة في طريقهم إلى العودة. الطّبقات المُستنيرة الهنغاريّة شجبت التدخّل؛ لكن كان ثمّة دائماً عداوة بين هنغاريا ورومانيا وألهبت البروباغندا السوفيتية النّزاع بينهما، وظنّ القرويّون أنّ من حقّهم التّعبير عن غضبهم كما يرون ذلك مناسباً.

في أكتوبر، رأينا ليام مُجدّداً وتحدّثنا معه طويلاً. قال لسارتر إنّ مديري مسارح پراغ يدعونه لمشاهدة عرض *الذّباب والأيادي المُلوّثة*. قَبِلَ سارتر لكن كنّا مرتابين: ألن تُمنع المسرحيّات؟ هل سيمنحوننا الفيزا؟

ما حدث هو أنّنا نزلنا في پراغ يوم 28 نوفمبر عند الحادية عشرة صباحاً. كان الجوّ رماديّاً، ورطباً وبارداً. صحبنا مُدير المسرح ومُساعدوه وبعض الكُتّاب إلى نزل «ألكرون»Alkron، مُهمَلٌ لكنّه ظريف، وكان فيما مضى مركز تجسّس دُولي. من هناك انطلقنا إلى المسرح مباشرة بعد الانتهاء من البروفة النهائيّة للعرض الافتتاحي لمسرحيّة *الذّباب*. من الرّدهة سمعنا تصفيق الجماهير. جلسنا في الأماكن المُخصّصة لنا، وجاء عدد كبير من الطّلبة في القاعة يطرحون على سارتر الأسئلة. قال له ليام إنّ بإمكانه التكلّم من دون أن يخشى شيئاً: فوجئتُ بحرّية النّقاش. وكما صرّح من قبل للصّحافة، قال سارتر إنّ العدوان السوفيتي هو جريمة حرب؛ وإنه كتب *الذّباب* كي يُشجّع الفرنسيّين على المقاومة، وهو سعيد لأنّ مسرحيّته تُعرَضُ في تشيكوسلوفاكيا المُحتَلّة. قبل ذلك بفترة قصيرة، نفّذ الطّلبة إضراباً، وسألهم عن الدّوافع. «سيّد سارتر أنت وصلتَ للتوّ، وأنت تجهل أيّ ظروف نعيشُها؛ يمكننا، في مكان خاصّ، أن نُحدّثك عن أسباب الإضراب، لكن ليس في مكان عام: ثمّة رقابة ذاتيّة»، قال شاب. نهض آخر وكان أشقر وملتحياً ويدرس رياضيّات: «رقابة ذاتيّة أم لا، أنا سأجيب». وصعد على الرّكح. كان يتكلّم اللّغة التشيكيّة. ترجمت لنا مُترجمتنا وهي فتاة جذّابة ذات عينيْن زرقاوَيْن وملامح حزينة. لم يكن الطّلبة ضدّ الحكومة قط لكن أرادوا إبراز أهمّيتهم السياسيّة وإقناع القادة بالتّفاوض عن طريق الحوار. نفّذ العُمّالُ إضراباً لساعة مساندة لهم. استمرّ النّقاشُ ساعتَيْن تقريباً.

تناولنا الفطور متأخّراً، مع مدير المسرح وفريقه؛ ارتحنا في النّزل. خرجنا عند السّاعة السّابعة. كان الطّقسُ بارداً، كان هناك ضباب ورغم الألوان الزّاهية وعلامات النيون، فإن الطّرقات كانت كئيبة. عند أقدام

التّمثال الذي ينتصب في ساحة «وينسيسلاس» Wenceslas تكدّستْ أكاليلُ جنائزيّة؛ باقاتٌ موضوعةٌ على الأرض حيثُ كان يضيء بستان من الشّمع. أناسٌ يتأمّلون في صمتٍ وآخرون يتلون صلوات على أرواحِ ضحايا العدوان.

صباح اليوم الموالي، صحَبَنا مترجِمُنا إلى پراغ بالسيّارة. عادة، يكون هناك ازدحامٌ لسيّارات صغيرة. رأيتُ القصر والأحياء القديمة مُجدّداً، منازلها الباروكيّة الجميلة، ساحات جذّابة ومن بعيد رأينا الجسر ذا التّماثيل السّاحرة الذي لا يمكننا العبور من فوقه بسبب أشغال الصّيانة. زرتُ الكنيسة الصّغيرة لـ «جون هوس» Jean Huss. وتوقّفنا طويلاً عند السّاحة الكبيرة حيثُ أُحرِقَ جون هوس: أذكر السّاعة جيّداً، المنازل القديمة، وقليلاً إلى الوراء، جرَسَيْ الكنيسة.

تناولنا الغداء مع كُتّابٍ في مطعم جميل مُزوّق بأشجار اصطناعيّة: إنّها الموضة في پراغ، كالأعمدة القديمة عندنا، والمصنوعة من البلاستيك. التقينا هوفميستر مُجدّداً وتعرّفنا على الفيلسوف الشابّ كوسيك Kosik، الذي كان سارتر قد حدّثني عنه بكلّ خير. هنا أيضاً كان الحوارُ حُرّاً. لا أحد يرتاب أحداً ويسود بين الجميع تفاهم مُطلَق. الاجتماع الذي انعقد بين مائة شخص تقريباً والذي دار في اتّحاد الكُتّاب كان أقلّ أهمّية: كان الذين أردنا لقاءهم متغيّبين عن پراغ، وبينهم كونديرا.

مساءً، كان سيجري العرضُ الأوّل لـ*الذّباب*. كانت القاعة مليئة بالكامل. وجدنا الإخراج ممتازاً والممثّلين أيضاً. صفّق الجمهور بجنون على بعض المقاطع. عندما قال جوبيتير لأورست وإلكترا: «جئتُ لمساعدتكم»، انفجر الضّحك. وأيضاً، عندما قدّم لإليكترا وعوداً مُغرية، عند سؤالها: «ماذا تطلب منّي لدى عودتي؟» أجاب: «لا أطلب منكِ شيئاً... أو تقريباً لا شيء». كانت ردّة فعل الجمهور متحمّسة لقول جوبيتير: «عندما تنفجر الحرّية في روح الإنسان، فإنّ الآلهة لا تعود قادرة على فعل شيء إزاء هذا الإنسان». في عدد كثير من الجمل، رأى

الجمهور تلميحاً لأوضاعه، بل لقد رأى ظروفه تتجسّد. أخيراً، كان نصراً حقيقيّاً لسارتر.

ثمّ بعد ذلك احتسينا حساء بلحم بارد مُغمّس بالفودكا، والنّبيذ الأبيض والجعة. كنّا جالسين قبالة سيزاك Sisak وهادجيك Hadjek. كان الأوّل بديناً، ولديه وجه عريض تحت شعر قصير. كان هادجيك – الذي تعرّض لتشهير سافر (اتُّهم بالشّيوعي الديمقراطي العجوز، عميل الغِيستاپو وصهيونيّ، فيما لم يكن يهوديّاً أصلاً). ذا رأس عصفور مُنتّف الرّيش. كان يدعو الرّوس «حلفاءنا» وكان يتوخّى الحذر: «لا يجب إخافة حلفائنا». تكلّمنا كثيراً حسب رأيِه: يحبّ المُثقّفون الأحاديث الطّويلة. عليهم التصرّف بصمت.

مساء اليوم الموالي، تلقّى الجمهور *الأيادي المُلوّثة* بترحيب كبير. فقد وجد فيها الكثير ممّا يشبه الوقائع التي عاشها النّاس. عندما قال «هويدرر» إنّ جيش احتلال لا يُحَبُّ أبداً. كان التّلميح للجيش الأحمر. عندها صفّق الجمهور بصخب. رُوِيَ لي أنّ ممثّلة قد انتابتها نوبة ضحك أثناء إحدى الكوميديات وهي تقول لصديقتها في الهاتف: «اتّصلي لاحقاً، أنا مشغولة».

كان يومنا حافلاً بالمشاغل واليوم الذي يليه أيضاً. أطلعونا على الوقائع التي صوّرها التّشيك، خلال اللّيلة المأساويّة والأيّام التي تلتها: قرأتُ الكثير من التّقارير الصّحافيّة، لكنّ رؤية العين أمر مختلف تماماً. شاهدنا أيضاً وقائع صوّرها السّوفييت؛ تمّ عرضُها في الاتّحاد السوفيتي مع تعاليق أفرغت الحدث من كلّ معنى: أسلحة وُجدت في قبو أحد الوزراء واتّضح أنّها ترسانة مُعدّة لمحاربة الثّورة. في پراغ، عُرِضَ الفيلم من دون مراوغة أو خداع.

في حوار تلفزيوني، تجنّبنا أن ننطق بكلمات شبهة؛ لكنّنا تكلّمنا بطريقة شفّافة عن «التعاسة» التي فُرِضَت على شعب تشيكوسلوفاكيا، عن «مرارته المشروعة». ودّ باردوسيك لو أنّ لقاءً جمعنا بالعمّال. فكّر

في أن ربيع 68 حمل تغييرات مُهمّة لأوضاعهم، في قسم منها، نجحت على الأقلّ في نزع افتكاك السّلطة من أيدي البيروقراطيّين، والمشاركة في تسيير المصانع. لذلك ساندوا الحكومة الجديدة ضدّ روسيا. لسوء الحظّ، لم يكن مُتاحاً أن نظلّ في پراغ مدّة أطول كي نزور المصانع.

تناولنا الفطور في مطعم يُسمى الـ«موسكو»! مع مسرحيّين. وأمضينا أوقاتاً ممتعة في بيت آل هوفميستر: كان منزلهم الفسيح، يعجّ بأشياء مذهلة متأتّية من كامل أصقاع الأرض. أرانا رسوماً جديدة له، وكاريكاتيراً مُسلّياً لمُفكّرين ورجال سياسة تقدّميّين من أيّامنا هذه. روى لنا نكات عن الاحتلال. في براتيسلافيا 21 أغسطس، قال ضابط روسي لمدير التّلفزيون، صباحًا: «سأضع رجالاً في مبناك. سيصدّون عنكم أعداء الثّورة». فوجئ مساءً: «كيف؟ لا أحد معادياً للثّورة جاء إلى هنا؟» ولمعت في ذهنه فكرة: «إذًا، أنت هو المعادي للثّورة!» لكن خلال اليوم، خبّأ فريق التّلفزيون مُعدّاتهم في أماكن آمنة. حدّثنا أيضاً عن جريدة منعها الرّوس. تركوا بوّابة العمارة وشغلوا ردهة المدخل. كانوا يجهلون وجود باب خلفيّ، يتمّ منه تسريب الأوراق المطبوعة إلى قاعة في الطابق الثّاني. حتّى البوليس رفض التّعاون مع الرّوس، لذلك كان من الصّعب عليهم أن يعيثوا فساداً.

حدّثنا أصدقاؤنا عن المؤتمر الرّابع عشر للحزب الشّيوعي، الذي التأم خلسة، في وجود المُحتَلّ. إنّ سبب تدخّل السّوفييت هو منع انعقاده. كان يُفترضُ إضفاء صبغة قانونيّة على مسار تجديد الاشتراكيّة وتعزيز دور قادة الحزب الشّيوعي: هذا ما يجعله خطيراً في عيون البيروقراطيّين السّوفييت. انعقد المؤتمر في ظروف مُدهشة. أكثر من ثلثَيْ النُوّاب المنتخَبين شاركوا في أشغاله. اجتمعوا في مصنع كبير بپراغ يوم 22 أغسطس، ببلاغ من الرّاديو، وقادهم العُمّالُ إلى فيسوكاني، ضاحية اختيرت في سرّية كي تكون مكان الاجتماع. اشتغلوا طوال أيّام أمكنهم تحرير بروتوكول مهامّ.

أكّدت هذه الحوارات ما نعرفه: لم يكن الرّبيع التشيكي مُوجّهاً ضدّ الشّيوعيّة. ما أراده النّظام الجديد، هو التخلّي عن الوسائل البيروقراطيّة والبوليسيّة التي ميّزت الستالينيّين، واستبدال الإكراه بالإقناع، وأن يُنتَخب الزّعماء، عن طريق الاقتراع في كنف السرّية، بدل تنصيبه من الأعلى، أن يُمنَح العُمّال سلطة سياسيّة ومسؤوليّة اقتصاديّة: كانوا يريدون تطبيق شيوعيّة مثاليّة. ولم يبن السّوفييت موقفهم من «خطر الارتداد عن الثّورة» إلّا بعد المؤتمر. في الحقيقة، إن كانت هناك قوى مناهضة للاشتراكيّة موجودة منذ سنوات في تشيكوسلوفاكيا، فإنّه بسبب السّياسة العقائديّة غير النّاجعة لنوفوتني؛ بل لقد انهارت عندما قدّم الحزب الشيوعي برنامجه السّياسي الجديد. حاول توحيد البلاد بالشّيوعيّة وبداية من شهر مايو، عندما قرّر عقد الاجتماع الرّابع عشر للمؤتمر، ازداد نفوذه رسوخاً. كلّ الطّبقة العاملة تساند دوبسيك Dubcek: عبّرت عن موافقتها على آلاف القرارات. الآن هي مُسخّرة بالكامل ضدّ الاحتلال.

إذًا، ما كانت الدّوافع الحقيقيّة للتدخّل؟ تعتقد صديقتنا سفيتلانا أنّ البيروقراطيّين السّوفييت انزعجوا جدّاً من فكرة أنّ پراغ ستُسلّط الضّوء على جميع المحاكمات؛ كانت الجماهير مع الحكومة عموماً، لكن لم تكن مع أحد بعينِه؛ يخشى مسؤولو المحاكمات أن يجدوا أنفسهم مطرودين من قِبَل منافسين أكثر حكمة واستعداداً لتقديم التّنازلات منهم. من جهة أخرى، لم تستطع موسكو تقبّل فكرة إيقاف الرّقابة: «قال لي هنغاري مناهض للتدخّل، إنّ الأوكرانيّين يفهمون التّشيك بشكل أقلّ من الرّوس». ستتغذّى القوميّة الأوكرانيّة بالمثال التّشيكي. إنّ الموقف المهيمن للفرق المتزعّمة للحزب الشّيوعي في الاتّحاد السوفيتي، تكفي لتفسير العُدوان: إنّهم يرغبون في بسط نفوذهم على كامل البلدان الشّيوعيّة ولن يقبلوا باستقلاليّة لتشيكوسلوفاكيا.

غادرنا پراغ أكثر تفاؤلاً ممّا كنّا عليه لدى مجيئنا: كيف يُمكن للرّوس اختراق مقاومة مُتّحدة بهذا الشّكل؟

لدى عودتي من پراغ، قرأتُ *الاعتراف* لـ «لوندون». من بين من شملهم الإهـداء: «إلى كلّ من يتابعون الكفاح من أجل إعادة الوجه الإنساني للشيوعيّة». لم تخدعنا محاكمة «راجك» و«سلانسكي»؛ لم نُضف إيماناً من عندنا للـ «*اعتراف*»؛ لكنّي لم أجد أجوبة مقنعة في أيّ كتاب: كيف ومتى سيتم الاعتراف؟ أحدهم يدّعي التعرّض للتّعذيب؛ الآخر يدّعي الإخلاص الأعمى للحزب؛ آخر الأمل في القدرة على الدّفاع شعبيّاً. وحده لوندون كذّب المنظومة بأسرها بطريقة مُقنعة: يشعر القارئ بأنّه عالق معه في ورطة لا فِكاكَ منها. كان كتابه احترافيّاً، بسرعته وواقعيّته وعنفه. لقد سلّط الضّوء على نقطة طالما حيّرتني، كيف استطاع لسنوات عديدة، العيش مع امرأة، تخلّت عنه في محاكمته؟ في الواقع، لقد آمنت ببراءته حتّى اللّحظة التي اعترف فيها بنفسه عن كلّ جرائمه. لم يتكلّم حتّى عندما عذّبه الغيستابو: كيف كان من الممكن أن تتخيّل الوسائل التي كان التّشيك ينتزعون بها الاعترافات من أفواه المُتّهمين؟ تبرّأت منه ويكاد قلبها ينفطر حزناً. لكن ما إن نجح في لقاء معها بأن يؤكّد لها في كلمتيْن بأنّه بريء، قامت بكلّ المساعي لتردّ له اعتباره. خلال الاحتلال، وفي قلب الطّريق، دعت النّساء ضدّ الألمان: لم تنجُ من الموت إلّا لأنّها كانت حاملاً، ولقد ولدت طفلها في سجن ألماني؛ هذا يؤكّد أنّها تنتمي روحاً وجسداً إلى حزبها، كان عقيدة بالنّسبة إليها؛ أرى أنّه من الإجحاف لومُها على عدم توجيه النّقد له: قلتُ ذلك في راديو لكسمبورغ حيث أردتُ الحديث عن هذه القصّة التي لامست قلبي.

تناولتُ الفطور مع لوندون، عن طريق لانزمان. كان لطيفاً جدّاً معي. سأله لانزمان: «والآن، هل تمارسُ السّياسة؟ – شرط ألّا أكذب أبداً»، قال ضاحكاً. حلُمَ بأن يُترجَمُ إلى التشيكيّة وأن يتحوّل إلى السّينما على يد مخرج تشيكي. لكن لا. سنة 69، لم يعد ربيع پراغ سوى ذكرى. صوّر كوستا-غافراس في فرنسا فِيلمًا، رغم جودته، لم ينجح في وصف المأساة وتعقيدها. بدا لي أنّ إحدى ميزات كتاب لوندون أنّه يُنكرُ كلَّ مصداقيّة عن الاعترافات التي انتُزعت من المُتّهمين؛ لكن على العموم،

هذا لا يُضايق النّظام المُتغطرس: لقد كانوا يحاكمون دون اعتراف، الأمر بسيط (بعضهم عاد إلى طريقة الاعتراف).

أكتُبُ هذه الأسطر في مايو 71. كلُّ المُفكّرين التّشيك والسّلوفاك الذين جمعتنا بهم علاقة طرِدوا من الحزب الشّيوعي. فقدوا مناصبهم وهم الآن، يعيشون ظروفاً صعبة للغاية. أو أنّهم في المنافي. أمّا القادة التشيكوسلوفاك فهم يرزحون تحت هيمنة السّوفييت.

خيّب هؤلاء آمالنا. لم يأتِ على المُفكّرين وضعٌ سيئ كهذا من قبل. لا أحد من بين أصدقائنا أمكنه الحصول على تأشيرة للقدوم إلى فرنسا ونعلمُ جيّداً أنّهم يائسون وعاجزون تماماً. ألمريس الذي قال الحقيقة عن بلده، أُرسِل إلى سيبيريا من جديد حيثُ مات (عدد كبير من المُفكّرين رُحّلوا أو سُجنوا في المنافي وأنا أكتب هذه الأسطر). أظهرت محاكمات لينينغراد عداء اليهود المُستفحل في الاتّحاد السوفيتي، على الصّعيد الحكومي. أعتقد، بأسف لا أخفيه، أنّي لن أرى موسكو من جديد.

الفصل VII

أحسستُ بأنّي معنيّة جدّاً بالحرب الفرنسيّة - الفيتناميّة وأسعدني انتصار «هانويْ» Hanoï. عندما كفّت حرب الجزائر عن لفت انتباهي بعد يونيو 62، تحوّل مصير فيتنام إلى أول انشغالاتي: يغضبني التدخّل الأمريكي، ونقمتهم على حقّ الشّعب الفيتنامي في تقرير مصيره.

نحنُ نعلم، حين تمّ توقيع معاهدات جينيف سنة 54، بأنّ خطّاً حدوديّاً سُطّرَ كي يسمح للفِرَق الفرنسيّة والفيتناميّة بأن تجمع شتاتها، الفيتناميّون في الشّمال والفرنسيّون في الجنوب. لم تكن حدوداً لتقسيم الأرض إلى دولتيْن. تتحدّث المعاهدات عن وحدة البلد، الذي انتخب رئيسه سنة 1956. كان من البديهي - كتب أيزنهاور في مُذكّراته - أنّ 80% على الأقلّ من الشّعب سيختارُ «هو شي مينه» Ho Chi Minh. قرّر الأمريكيّون، باستهزاء، أن يمنعوا الاقتراع. أسّس الفرنسيّون في الجنوب «دولة فيتنام» لضرب «هو شي مينه» التي ترأّسها «باو-داي» Daï-Bao. لم تعترف معاهدات جينيف، التي تعهّدت أمريكا باحترامها، بوجود هذه الدّولة؛ زعم الأمريكيّون ظاهريّاً على الأقلّ أنّهم يعتبرونها بلداً ووضعوا على رأسها كائناً منهم، «ديام» Diem. أسّس الشّعبُ ضدَّهُ جبهة تحرير وطنيّة. أرسل البينتاغون فرقاً عسكريّة أكثر عدداً كي يسحقوا المُتمرّدين المُسلّحين. احتجّ اليسار الأمريكيّ على التدخّل. ثارت جامعة كورنيل Cornell، على التحرّك. كتب الأساتذة لجونسون رسالة إدانة؛ نظّموا مسيرة سلميّة. بداية 65، دعوا سارتر لإلقاء محاضرات في الجامعة

هناك. كان اليسار يتمنّى مجيئه من جديد: ساعدوه من قبلُ مساعدة مُهمّة بحضور اجتماعاته. وافقَ سارتر.

يوم 7 فبراير 65، تحت ذريعة مشاركة الشّمال في تلك الحرب – التي تهمّ البلد بأسره، ولم يكن التّقسيم إلى شمال وجنوب إلّا بدعة أمريكيّة – قصف الأمريكيّون الجمهوريّة الشّعبيّة الفيتناميّة؛ استأنفوا القصف يوم 2 مارس ولم يتوقّفوا قط.

خمّن سارتر أنّ ظروفاً مماثلة لن تكون مناسبة لسفره إلى الولايات المُتّحدة: الهجوم الذي شُنّ على الشّمال، في حركة تصعيديّة، هو خطوة عملاقة لا تقبل عودة إلى الوراء أبداً. كتب لجامعة كورنيل شارحاً موقفه. وقدّم حوارات لفائدة مجلّة *الملاحظ Observateur*، نقلتها صحيفة *الـ أمّة Nation*. كان سارتر فخوراً بقراره حتّى تدخّلت أمريكا في سان–دومينغ Domingue–Saint. بدأ اليسار الأمريكي يُوجّه اللّوم لسارتر على موقفه: أنت تتخلّى عنّا! إنّه انشقاق! كتبوا له فيما بعد. ما دام الأمريكيّون، حتّى ذوو النّوايا الحسنة، لا يزالون يعتقدون أنّ أمريكا هي مركز العالم! فإنّهم سيظلّون متأكّدين من أنّ سارتر ليس مسؤولاً عنهم: كان هو يُفكّر في الكوارث التي أشعلتها في العالم الثّالث، في كوبا، في فيتنام نفسها، وهو يقبل دعوة جامعة كورنيل. اعترفت الجامعة في رسائل ومقالات بأنّ رفض سارتر المجيء أثار ضجّة أكثر من كلّ النّقاشات الطّويلة: «لقد خدمنا ذلك كثيراً، كان ذلك مثالاً»، قال بعض المناضلين.

خرجت مسيرات حاشدة في الولايات المُتّحدة، والتأمت العديد من الحوارات في الجامعات. رفض عشرون كاتباً الذّهاب إلى البيت الأبيض. تضاعفت الاجتماعات والمظاهرات ضدّ الحرب.

في يوليو 66، تلقّيتُ زيارة شابّ أمريكي كان يعيش في إنجلترا وكان أحد أبرز أمناء منظّمة روسال Russel الخيريّة؛ كان اسمُه «شينمان». أطلعني على مشروع «*لورد روسال*»: أن يقع تأسيس محكمة، تستلهم روحها من محكمة «نورمبرغ»، لمقاضاة التحرّك الأمريكي في فيتنام.

أرسلت المنظّمة خبراء للتّحقيق في فيتنام، وجمعت الوثائق من اليسار الأمريكي، لتركيز محاكمة سينظر «قُضاتُها» في الأحداث ويطلقون الحكم. كان الهدف هو أن يُصدَمَ الرّأي العام العالمي، والأمريكي بصورة أخصّ. هل سنقبل أنا وسارتر أن نكون جزءًا من المحكمة؟ أوضح شينمان أنّ الجلسات ستجري في باريس، وأنّنا لن نكون مُضطرّين إلى حضورها جميعاً، وأنّهم سيمدّوننا بكلّ التّقارير، وأن دعوتنا للحضور لن تتم إلّا قبل يومَيْن أو ثلاثة أيّام من اتّخاذ القرار النّهائي.

دفعنا «تيتو جيراسي» Tito Gérassi للموافقة. قلتُ إنّه يناضل ضدّ حرب فيتنام. نحن نمنحه ثقتنا. أقنعنا.

في نوفمبر 66، انعقد اجتماع في التّعاونيّة، ضدّ حرب فيتنام. ازدحم حشد هائل أمام الباب وفي الدّاخل كان الحاضرون من فئة الشّباب المُهتمّ أكثر من العادة. صفّق الحضور بقوة عندما اتّخذ المُتداخلون أماكنهم، خصوصاً ماكس إرنست، كاتب اللّافتة التي تُزيّن القاعة. أثار سارتر الحماس عندما قال إنّ علينا الوقوف إلى جانب فيتنام، لا لغاية أخلاقيّة، بل لأنّها تقاوم من أجلنا. بعد مداخلات عديدة، عُرضت أفلامٌ قدّمها «غاتي» Gatti، موسيقى وبالي لـ «نانو».

هكذا تطوّرت فكرة المحكمة. يوم 1 ديسمبر، أعلن سارتر عن وجوده، في مقال كتبه. قال بعضُهم إنّ المحاكمة خالية من أيّ قيمة لأنّ قرار المحكمة معلوم سلفاً. هذا خطأ، قال سارتر. سيكون منهجنا في التقصّي، كمنهج كلّ مجلس قضائي: انطلاقاً من قرائن قويّة، البحث فيما إذا كانت الولايات المُتّحدة قد قامت بجرائم حرب. سنتّخذ قرارنا بناءً على قوانين نورمبرغ وبناءً على معاهدة «بريان-كيلوغ» Briand-Kellogg واتّفاقيّة جنيف.

أُرسِل أليخو كرپنتي من قبل كوبا للتّحقيق في شمال فيتنام لمصلحة محكمة روسال. تناولنا معه الغداء لدى مجيئه. أغلب القرى الصّغيرة قد مُحِقَتْ، قال لنا. كان الطيّارون يُفضّلون استهداف المدارس، والمستشفيات

ومصحّات الجُذام، والكنائس لأنّها بنايات صلبة، تُشكّل أهدافاً أفضل بالنّسبة إلى القاذفات. تنتظر هانوي قنبلة نوويّة قد تسقط عليها بين الحين والآخر. أُجلِيَ الأطفال. يبتاع السُكّانُ حاجياتهم بين الثّالثة والخامسة صباحاً، مُرجّحين أنّه الوقت الأقلّ خطورة من جانب الطيّران. وصف لنا الملاجئ الفرديّة المحفورة على طول الرّصيف، هشاشة هذه المدينة المُشيّدة بسيقان البامبو، وشجاعة الأهالي. أرانا أيضاً صورة لمدَنيٍّ مُحترق بالناپالم.

يناير 67، التقى سارتر بشينمان في لندن وبعدد من القضاة لصياغة المحاكمة وتحديد المسائل التي وجبت الإجابة عنها. عُقدت اجتماعات أخرى في باريس. كان سارتر قد عيّن لانزمان نائباً له، كي ينوب عنه أحياناً.

بعثة مكوّنة من جيارسي والمحامي ماتاراسو وآخرين، جلبت من الفيتنام سلسلة شهادات مُدهشة. تلتها شهادات أخرى بعد ذلك.

عزمنا على أن تجري المحاكمة في باريس. لكن في فبراير، أراد ديديجر Dedijer المجيء إلى فرنسا فرُفضت تأشيرته ولم يتمكّن من السّفر، فيما كانت قبل ذلك تُسلّم إليه بشكل عادي. كتب سارتر للجنرال ديغول ليستفسر إن كان لهذا الرّفض علاقة بمنع المحاكمة التي ستدور في باريس. أجاب ديغول في رسالة من مقطَعَيْنِ مثل خطاباته. يعني الأوّل: «بالطّبع نعم». لكنّ الثّانية تختمُ بـ: «بالطّبع لا». رغم سياسته، المناهضة لأمريكا في الظّاهر، فإنّ ديغول لا يريد أن يُغضب حكومة الولايات المُتّحدة. رسالة من المُفوّضيّة أكّدت الرّفض رسميّاً.

تواصلت المحكمة مع استوكهولم، إذًا. أجابت الحكومة بالرّفض. لكن في اليوم الموالي، أعلنت أنّه مناقض للدّستور أن نُمنع من الاجتماع: استضافتنا السّويد عكس مشيئتها، لكنّها كانت مُضطرّة إلى قبولنا بالرّجوع إلى مبادئها الدّيمقراطيّة. لم يعد، إذًا، ممكناً أن نعيش حياة طبيعيّة في باريس مع إمكانيّة حضور الجلسات من حين إلى آخر حسب ما تسمح به ظروفنا ومواعيدنا. لكن، منذُ تشكّلت، شدّتنا المؤسّسة وصرنا مُستعدَّيْن لتسخير وقتنا بالكامل من أجل القضيّة دون تحفّظ.

الأيّام التي سبقت سفرنا، مايو 67، كُنّا قلقَيْن فقد علمنا أنّ شينمان يعقد ثلاثة مؤتمرات صحافيّة في اليوم وأنّه يتكلّم كما اتّفق. نزلنا ذات سبت بعد الظّهر، مع عدد كبير من المندوبين. كانت في انتظارنا لجنة استقبال، إلى جانب لافتة عملاقة كُتبت عليها كلمة: محكمة. خلال الجلسة التي انعقدت في صالة نزل كبير، عرفتُ تحديداً ممّن ستتألّف اللّجنة. الرّئيس الشّرفي هو «برتران روسال» الذي ألزمه تقدّمه في السنّ بريطانيا. كان سارتر هو الرئيس التّنفيذي. ديديجر كان رئيس الجلسات، ويُساعده في ذلك شوارتز. هذا الأخير عرفتُه في حرب الجزائر. ديديجر التقيتُه منذ فترة قصيرة بباريس للمرّة الأولى. فيما مضى، قرأتُ كتابه باهتمام بالغ: *تيتو يتكلّم*... *كان قد* كافح في الأدغال مع تيتو: اليوم الذي جُرح فيه هذا الأخير، قُتلت فيه زوجة ديديجر. لاحقاً، تلقّى هو نفسه شظايا في رأسه لم ينجحوا في استئصالها.

مثّل يوغوسلافيا في الأمم المتّحدة سنة 1945 بصفته مؤرّخاً ودكتوراً في القانون. وشغل بعد ذلك مناصب عديدة مُهمّة. عندما منع تيتو كتابات دجيلاس، وألقى به في السّجن سنة 1955، احتجّ عليه ديديجر بعنف: لا لأنّه يشاطر دجيلاس أفكاره، بل لأنّه يرى أنّ من حقّه التّعبير عنها. عندها فقَد حظوته عنده وحوكم مع وقف التّنفيذ، «لإفشاء أخبار سلبيّة عن بلده للصّحافة الأمريكيّة». بعد سنة، حصل على ترخيص بمغادرة يوغسلافيا؛ سافر إلى الولايات المُتّحدة حيث درّس في جامعة مانشيستر، ثمّ في هارفارد ومن ثمَّ كورنيل. عاد للعيش في «لجوبلجانا» Ljubljana حيثُ مارس وظيفته كمؤرّخ. كان العضو الوحيد في المحكمة الذي ينتمي إلى بلد شيوعي. طويل القامة وعريض المنكبيْن، كان يوحي بالقوّة والتّضامن. في الواقع، كان أقلّ صلابة وثباتاً ممّا يبدو عليه: كان يعاني آلاماً عنيفة في رأسه بسبب جروحه القديمة وكان عليه الإقامة في المُستشفى فترات طويلة.

يحدث أن يُصاب بنوبات غضب يصعب السّيطرة عليها. انبهرنا بطبعه العنيد، حيويّته، الحرارة المنبعثة من حضوره. أصبح صديقنا.

بقيّة القضاة كانوا غنتر أندرس Gunter Anders، فيلسوف وكاتب ألماني؛ أيبارد Aybard، تركي، أستاذ قانون دولي وعضو في البرلمان؛ باسو Basso، دكتور في القانون الإيطالي، مُتخصّص في القانون الدّولي وعضو في البرلمان؛ كارديناس Cardenas، رئيس المكسيك السّابق، لم يأتِ إلى استوكهولم؛ كارميكايال Carmichael – الأمريكي من أصول أفريقيّة، الذي أطلق قاعدة: القوّة السّوداء *Black power* والذي قدّمَه أمريكي أفريقي آخر اسمُه كوكس Cox؛ ديلنجر Dellinger، أمريكي سلميّ، رئيس تحرير الجريدة المعارضة *التّحرير Libération* الذي قاده نضالُه السّياسي إلى السّجن؛ هيرنانديز Hernandez، شاعر فيليبيني، رئيس الحزب الديمقراطي للعمل، الذي دخل السّجن ستّ سنوات من أجل خلاف سياسي؛ كاسوري Kasuri، مُحامٍ في المحكمة العليا بباكستان؛ موريهاوا Morihawa، رجل قانون يابانيٍ؛ أبيندراث Abendrath، دكتور في القانون وجامعي ألماني تمّ تعويضُه بروائيّة سويديّة، السّيّدة ليدمان Mme Lidmann؛ بالدوين Baldwin، الرّوائي الأمريكي الأفريقي، لم يأتِ إلى السّويد ولم يتمّ تقديمُه. دوتشير Deutscher، المؤرّخ التروتسكي المعروف، دالي Daly، سكرتير عام نقابة عمّال المناجم الإيكوسيّين، لم يأتِ إلّا عند نهاية المداولات. بالإضافة إلى قضاة جدد: أوغليبي Ogleby، شاب من الحركة السّلميّة الأمريكيّة؛ ميلبا هيرنانديز Melba Hernandez، الذي شارك مع كاسترو في الهجوم على ثكنة مونسادا Monçada؛ بيتر واس Peter weiss الذي لم يكن في البداية سوى كاتب عام للّجنة السويديّة.

كان يعاضد القضاة لجنة قانونيّة من بينها جيزيل حليمي Gisèle Halimi، جوفا Jouffa، ماتاراسو Matarasso، سوزان بوفيي Souzanne Bouvier. مثّل شينمان وستاتلر منظّمة روسال. مُترجمون على قدر عالٍ جدّاً من البراعة، ساعدونا كي نفهم بعضنا بعضاً؛ كانت اللّغات المُستخدمة هي الإنجليزيّة والفرنسيّة والإسبانيّة.

أيقظتني صباح يوم الأحد آلة غريبة مُثبّتة في الجدار، يتمّ تعديلها مساءً، عليها أن تطلق في اليوم الموالي صريراً حاداً، في الساعة المطلوبة، ولا تسكُت إلّا إذا أعدنا ريشتها إلى الصّفر. رأيتُ من النّافذة شارعاً عريضاً، مقهى وحانة ذات شرفة حيثُ جلس أناس وامتعضتُ لفكرة أنّي سأقضّي عشرة أيّام هنا، بعيدة عن حياتي. لكن، فوراً، ما إن قطعت بي سيّارة التاكسي المدينة حتّى أُعجبْتُ باستوكهولم: أذرع بحريّة، ومسابحُ يلتمع ماؤها تحت أشعّة الشّمس، أسقف خضراء وكنائس وقصور، كان نزل المدينة عصريّاً وأخّاذاً بحُلّته المُغطّاة بالطوب الأحمر.

استأجرت المحكمة الطابق الرابع من دار الشّعب: مُدرّجاً كبيراً وعدداً من المكاتب. كانت فتيات تجُبْن الممرّات في تنانير قصيرة وكان هناك شبّانٌ ذوو شعر طويل يقومون بأشغال مُتعبة بصفة طوعيّة: التّرجمة، الرّقن، تنضيد النّصوص. فوجئت المندوبة الكوبيّة، ميلبا هيرنانديز بهؤلاء الشّباب: عزمت على أن تُحدّث كاسترو عنهم لأنّهم يُثبتون بأنّ النّمط «الاحتفاليّ» الممنوع بالقطع في كوبا، لا يتضارب مع الالتزام الثّوري. لاحظنا شخصاً جذّاباً يتابع كلّ الجلسات، جالساً في الصفّ الأوّل للجمهور. لم نُقرّر جنس هذا الشّخص إلى غاية اليوم الذي التقينا فيه ببيتر وايس: كان زوج ابنته وخلط أليخو كربنتر بينه وبين فتاة فحيّاه قائلاً: «أهلا آنستي». لاحظنا أيضاً زوجيْن يجوبان الأروقة والقاعات وهما يحملان مهداً في شكل حقيبة ينام بداخله رضيع: كان ستاتلر وزوجته. ذات مساء، في النّزل – بجدّية بالغة – رفضا دخول الرُّضّعِ إلى البار: «يُمنَعُ على القاصرين دخول البار».

في ذلك اليوم الأوّل، كان لنا اجتماع مُضيّق. كان علينا أوّلاً تدارك حماقة ارتكبها شينمان أثناء لقاء صحافي: جميعُ الصُّحف تستنكر أن تشتم المحكمة رئيس الوزراء إيرلاندر Erlander. نفى شينمان أن يكون إيرلاندر قد أرسل ترحيباً بروسال، فيما في الواقع، لقد بعث إليه ببرقيّة بكلّ أدب. أعدّ شينمان كلمة اعتذار وتقرّر أنّ أربعة قضاة فقط سيكونون مُخوّلين بالردّ على أسئلة الصّحافة.

كان عدد الاجتماعات المُضيّقة مُكثّفاً خلال الأيّام العشرة: كانت تلتئم بعد الجلسة المفتوحة، لتتواصل أحياناً إلى ساعة متأخّرة من اللّيل. في الحقيقة، كان هناك العديد من المواضيع تحتاج إلى نقاش: برنامج العمل خلال الأيّام القادمة؛ الأسئلة التي سيكون علينا معالجتها؛ أيّ صفة ننسبها إلى الأقلّية في حال لم تكن قراراتنا بالإجماع التامّ؛ ومسائل أخرى أقلّ أهمّية.

خوّلت لي هذه التّجربة، تأمّل نفسيّة الفريق. هؤلاء النّاس الذين أتوا من كلّ أرجاء العالم، كانوا جميعاً مُعارضين للإمبرياليّة الأمريكيّة؛ لكنّ وجهات نظرهم كانت مُختلفة جدّاً. يُمثّل كاسوري وفرنانديز يسار الدّول النّامية التي تجمعها بأمريكا معاهدات. مازال عداء أمريكا ينهل من ذكرى ناغازاكي وهيروشيما والاحتلال الحالي لأوكيناوا؛ يشعر اليابانيّون أنّهم معنيّون بشكل مُباشر بالعدوان المُرتكَب ضدّ بلد آسيوي. يُجسّد ميلبا هيرناديز كوبا حيثُ الثّورة الصّاعدة مُهدّدة من قِبَل الولايات المُتّحدة: فقد تأثّرت بمقاومة بلدٍ صغير ضدّ قوّة عظمى. يتكلّم الأمريكان باسم المُعارضة الدّاخليّة. «أيبارد» و«باسو» يُفكّران بأنّهما يُمثّلان الشّرعيّة، ويرى دوتشر أنّه سيتكلّم من جانب التّفكير التروتسكي. أنا وسارتر وشوارتز ننتمي إلى اليسار غير الشّيوعي. كان موقف ديديجر قريباً منّا جدّاً ومن بيتر وايس. في البداية ساد التوجّس بيننا. خصوصاً كاسوري وهيرناديز اللذين ظهرت عليهما عدائيّة للغرب. بالإضافة إلى أنّ لكلّ منّا طبيعته الخاصّة، حساسيّته ومزاجه. كانت هناك علاقات تقارب وعلاقات تنافر، بين الحين والآخر كان ينشب خلاف محموم، وضجّة. يحدث أن أكبح نفسي، لكن عموماً كان من المُهمّ بل من المُمتع أن ندخل في نزاعات.

كانت الحِدّة متأتّية خصوصاً من شخصيّة شينمان الغريبة. أعتقد أنّ المحكمة لم تكن لتوجد لولاه. بصمود كبير، قام بجولة حول العالم لعرض مشروعه، واستقطاب قضاة كي تقوم المُنظّمة. كان قادراً على العمل أيّاماً متواصلة دون أن يغلق عينيْه وأن ينام عند الضّرورة فقط على

خشبة. لكن، كانت لديه عيوب تلك الميزات، أكثر من غيرها. كان حيويّاً وناجعاً، وهو الرّجل الوحيد من بين الذين عرفتُهم، يخفي ذقنه تحت لحية كالطّوق لا لكي يحجب طراوة تقاسيمه، بل قسوتها وعنادها. أراد أن يُمارس على المحكمة ديكتاتوريّة حقيقيّة؛ كان الكاتب العامّ وكان مُمثّلاً لروسال: جاء الجميع ضدّ هذه الصّفة. كان غاضباً، واجتمع مع القُضاة في اليوم الأوّل؛ أُجبِرَ في اليوم الموالي على تغيير مكانه. لكن في جلساتنا الودّية كان يزعم بأنّه أراد أن يُحيط علماً بكلِّ شيء؛ تقمّص دور مُمثّل روسال وسُلطَتها: «اللّورد روسال لا يقبل أن... اللّورد روسال لا يطلب..». قال له سارتر يوماً بعد أن فقدَ قدرته على التحمّل: «لا تفعل مثل الجنرال ديغول الذي يقول: *فرنسا* عندما يريد أن يقول: أنا..». ورغم قدرته على أن يعيش حياة تقشّف، فإنّ شينمان، يريد أن يُبدي أنّه مُسرفٌ في التّبذير. مثلاً، كان يُطيل مُكالمات لا قيمة لها بين استوكهولم وباريس أو لندن. رغم القرارات التي اتُّخذت ظلّ يتحدّث إلى الصّحافيّين. صلابته وشدّته جعلتا سارتر وديديجر يشعران بالغضب. لكنّها أشياء تبعث على احترامه بالنّظر إلى قناعاته وحماسه الكبير للوصول إلى نتائج.

يوم الإثنين، دُعيَ الصّحافيّون إلى المُدرَّج وأمليت عليه توصيات فنّية. فُتحت الجلسة يوم الثّلاثاء. اتّخذنا أماكن خلف طاولة مُستديرة بحسب الأحرف الأولى من أسمائنا، وشغل الرّؤساء الثّلاثة الوسط. كنّا، كلَّ صباحٍ نجد تقريراً عن الجلسة السّابقة وتقارير صحافيّة عن متابعة الجلسات. كان في الصّالة مئتا شخص تقريباً: فريق الكُتّاب والتّقنيّين، صحافيّون، فريق من التّلفزيون السويدي وآخر من التّلفزيون الأمريكي. أزعجتنا الأضواء الكاشفة للغاية. كان أمام كلٍّ منّا مصدح. كنّا نرى المُترجمين من خلف حجرات زجاجيّة فرديّة تتدلّى من السّقف. حين يتوقّف متحدّث عن مداخلته، يُسمَعُ صوتٌ حازم ليطلب منه التأنّي، ويضرب ديديجر على الطّاولة بمطرقة كبيرة. يُمثّل «ها فان لو» الجبهة، فيما يُمثّل «فام فان باك» راديو فيتنام. كانا حاضرَيْن ضمن المدعُوّين الضّيوف.

أغسطس 65، طلب روسال من الولايات المُتّحدة إرسال محامي دفاع يرافعون لمصلحتها لدى المحكمة. لم يتلقّ منهم إجابة. كتب سارتر في نفس الاتّجاه لـ «دين روسك» Dean Rusk. لم يُجب الأخير مُباشرة، لكنّه أعلن للصّحافة بأنّه يرفض «اللّعب مع إنجليزي في الرّابعة والتّسعين من عمره». قرأ سارتر الردّ على الجمهور: وقارن بين روسال و«موظّف الشّؤون الخارجيّة الرّديء» الذي هو روسك. وأضاف أنّنا نطعنُ في كلِّ مُدافع عن الولايات المُتّحدة.: كان من السّهل على الحكومة الأمريكيّة أن تُنكر ذلك أو أن تتّهمنا بالقيام بمهزلة.

مع ذلك بدأنا أشغالنا. في هذه الجلسة الأولى – التي يُفترضُ أن تُعقَد بعدها أخرى بعد شهر – انصبّ اهتمامنا خصوصاً على الفيتنام الشّماليّة. أجبنا على سؤالَيْن:

1. هل ارتكبت الولايات المُتّحدة عدواناً، كما تُعرّفه القوانين الدّوليّة؟
2. هل حدث قصف على مواقع مدنيّة وأين؟

في تقارير مُملّة أحياناً، لكنّها غالباً مُهمّة، استنكر خبيران أمريكيّان في القانون الدّولي أن تخرق الولايات المُتّحدة معاهدة جينيف وأن تخلق من العدم فيتنامًا جنوبيّة؛ فسّروا هذه الخدعة التي سقط فيها كثيرون وخلص كلاهما إلى وجود عدوان صارخ. كان ذلك أيضاً رأيُ مؤرّخيْن فرنسيّيْن، «شيسنو» و«فورمان» ورجل قانون ياباني، بعد مُداخلات قيّمة حول مُجريات الحرب.

كان الهجوم على المدنيّين موضوع العديد من التّقارير. شرح الفيزيائي الفرنسي «فيجي» بصورة مُذهلة، كيف أنّ القنابل العنقوديّة – التي أطلعنا على نماذج منها وفسّر طريقة عملها – لا يمكن أن تُستخدَم لاستهداف مواقع عسكريّة: لأنّ كيس رمل كافٍ لإبطالها. إنّها أسلحة جديدة. قنبلة أمّ، تحتوي على ما يُقارب 640 قنبلة صغيرة، يُذكّر شكلها بحبّة الأناناس؛ إنّها مُكوّنة من غلاف معدني مُجوّف يحتوي على كراتٍ

أو إبر؛ إنّها تنفجر لدى ملامسة الأرض مُطلقة قذائف قد لا تتسبّب في خسائر مادّية لكنّها تتسبّب في عشرات القتلى والجرحى، وسط سوق أو ساحة قرية. صُمّمتْ هذه الأسلحة المضادّة للأشخاص خصّيصاً للتسبّب في مذابح بين الشّعوب الفقيرة: إذ لن تحمِيَهم منها لا أسقفهم ولا جدران أكواخهم. كذّب البنتاغون هذه الدّعاوى، وراح فيجي يكرّر براهينه بتفاصيل أكثر حجّة.

أكّد أطبّاء وصحافيّون حقّقوا في فيتنام وهم يُقدّمون أرقاماً وأسماء، الملاحظات التي طرحها أليخو كاربنتر: كان القصفُ يستهدف المُستشفيات ومراكز إيواء مرضى الجذام والمدارس. والكنائس أيضاً؛ دون شكّ، أراد الأمريكان تأليب الكاثوليك ضدّ العاصمة هانويْ: فشلت تلك المناورات. شهد الدّكتور بيهار ويابانِيّان توتوشيمو وكوغاي على التّدمير الممنهج للكنائس. قدّمت جيزال حليمي مُداخلة رائعة عن الضّاحِيَتيْن اللتين زارتهما: أسماء الأقاليم، الأرقام، الإحصائيّات، كان كلّ شيء مذكوراً بدقّة لافتة. كما كانت أيضاً إجاباتهم على المحكمة مُفصّلة وضافية. ذلك أنّ المحكمة أطالت سؤال المتحرّين. كانت رواياتهم تخضع إلى الغربلة، حتّى يتمّ اجتناب أيّ التباس قد يستثمره خصومنا ضدّنا.

تلا تلك المداولات استماع إلى شهادات أخرى: ذُكرت أسماء قرى، تعاوُنيّات، بعيدة عن أهداف الجيوش التي كان سُكّانها قد قُتلوا بالمئات جرّاء القنابل العنقوديّة، الناپالم أو الفسفور. وصف لنا الأطبّاء جروحاً رهيبة تسبّبت فيها هذه الأسلحة. كانت هناك مُداخلة مُهمّة بشكل خاصّ لـ «مادلين ريفو»، صحافيّة عاشت طويلاً في فيتنام.

أفلام وصُورٌ مُسقطة على الجدار - كثيرٌ منها التُقطت في الوقت المناسب - مؤكّدة التّقارير. عرضوا لنا جثثاً مدنيّة، مُحترقة، مُشوّهة، ورجالاً ونساءً، أحياء لكن مجروحين بشكل مرعب. ما لا يُقبل بحال هم الأطفال: أطفالٌ بأيادٍ منزوعة، بوجوه مُشوّهة، بأجساد مُخرّبة بالناپالم أو الفسفور، تشبه تلك التي رأيناها في متحف هيروشيما.

رأينا مدنيّين فيتناميّين شماليّين، جاؤوا خصّيصاً ليُدلوا بشهاداتهم. الأولى كانت مُدرّسة شابّة؛ كانت نائمة في مدرسة بـ «كانغ لينه» قرية صغيرة زراعيّة، حاشدة بالسُكّان، عندما أيقظها انفجار. قادت أطفالها إلى المأوى. فجأة لامسها شيء على قفا عنقها، اقشعرّ له بدنها. بعد قليل فقدت الوعي: دخلت حبّة شظية إلى دماغها. لم يكن من الممكن انتزاعها؛ كانت تُعاني من آلام رهيبة في رأسها وكانت نصف عمياء. تحدّثت باتّزان لأنّها لم تذكر سوى أشياء عاينتها بنفسها. ثمّ نزع طفل في الثّانية عشرة ملابسه ليُريَنا جسمه المحترق بصورة صادمة.

قدّم لنا فان دونغ، أحد المسؤولين في الجبهة، جريحَيْن كبيريْن من مدنيّي جنوب فيتنام. أحدهما كان مُنهكاً إلى درجة أنّه وجد مشقّة في الكلام. كان فخذه مُغطّى بالجُدري الذي بدا كأنّه جروح حديثة. أجاب الآخر على أسئلة المحكمة. كانت في عنقه عائلة كثيرة العدد، لم يكن يُقاتل، كان فقط يُساعد في إصلاح السّدود والجسور المُدمّرة. احترق بالناپالم فيما كان يتنقّل من قرية إلى أخرى في حافلة ليس فيها سوى مدنيّين. ذابت إحدى أذنيْه، واحترق وجهه، التصق ذراعه الأيسر بجسده، وامتلأ ظهره بالجُدري: على كامل المساحة، كان الورم في لونورديّ. فسّر لنا الأطبّاء بأنّ للجُدري حظوظاً كبيرة ليتحوّل إلى سرطان.

إلى جانب الأوقات المُهمّة والصّادمة مثل هذه، كان هناك أوقاتٌ مُملّة: مُحاضرات سيّئة أو أنّها خالية من أشياء جديدة. وبما أنّي صرتُ أستيقظ في ساعات ليس من عادتي الاستيقاظ فيها، فقد وجدتُ صعوبة أحياناً في الحفاظ على عَيْنَيّ مفتوحَتَيْن: أشرب الماء المعدني وأدخّن وأحدّق في الجمهور. ألاحظ لدى بعض القضاة إجهاداً كالذي يعتريني، لا يُكلّل دائماً بالنّجاح.

جزء كبير من سُكّان استوكهولم ساند مُهمّتنا، آخرون لم يفعلوا. يوماً، بينما كنّا نتناول الفطور مع أليخو كاربنتر في محلّ مُرطّبات صغير قريب من المحكمة، اقترب منّي رجل وقدّم لي وردة. من طاولة مجاورة، هنّأنا

آخر بحرارة. وفي يوم ظهر رجُلٌ أعلى المُدرّج وصرخ باللّغة السّويديّة: «اخرجوا من هنا، ارحلوا!» ثمّ لاذ بالفرار. كلّ يوم، عند السّادسة، إن كان الطّقس جميلاً، أو إن كان الثّلج ينزل، أو يهطل المطر فإنّ شباباً يجوبون الشّارع أمام دار الشّعب حاملين لافتات: إلى الجحيم رئيس المحكمة! تعيش الولايات المُتّحدة! وبوخارست؟ كانوا ذوي شعر طويل ويبدو جليّاً أنّهم مُترفون. نظّموا، يوماً، مسيرة واعتصاماً أمام المحكمة. التقينا بينهم، في الطّرقات، من كان يحمل لافتات وأعلاماً. ردّ مناصِرونا بمُظاهرة مُضادّة. جرت كلتاهما دونما حوادث.

ولمّا كانت ظهيرة يوم أمسٍ مُضجرة، خضتُ يومي الآتي بكثير من التوجّس، كان مُرتّباً على نحو يلغي أيّ فرصة للحديث وحدي مع سارتر أو أن أقرأ لكنّ أوقاتاً كثيرة أخرى كانت بالنّسبة إليَّ مُبهجة. أوّلاً، الفطور الذي تناولناه في مطعم النّزل: كان هناك طاولة كبيرة مُخصّصة للقهوة، زجاجات عصائر الفواكه، مأكولات، وأوانٍ وكان على الجميع أن يخدموا أنفسهم وأن يجلسوا إلى طاولة. كنّا عادة، نجلس إلى طاولة واحدة مع ديديجر. تتواصلُ حواراتنا بينما كنّا نجوب استوكهولم، وسط ضبابها الصّباحي الجميل.

ثمّ أمكنني الخروج في نزهة مع سارتر ثمّ مع لانزمان الذي جاء لينوب عنه ساعات. يمتدّ في قلب استوكهولم، الآن، حيّ تجاريّ عصريّ جدّاً، ذي واجهات زجاجيّة مُذهلة. لكنّي، على وجه الخصوص، تجوّلتُ في شوارع المدينة العتيقة. ضيّقة وصامتة، إنّها تُخبرُ بتشدّد العادات الرّيفيّة. مع ذلك، فإنّك تجد فيها عدداً كبيراً من عُلبِ الإغراء وقاعات السّينما، حيثُ، حسب الصّور المعروضة، فإنّها تعرض أفلاماً أكثر من جريئة. توقّفتُ أمام مكتبة. كانت إحدى الواجهات مُخصّصة لكتب النّباتات والحيوانات. وكان في الأخرى العرض الأكثر بذاءة فيما رأيتُ طوال حياتي. مباشرة أو عبر ثقوب أقفال مُزيّفة، كنّا نرى أزواجاً – جميعهم كانوا غيريّين جنسيّين، هذا هو التحفّظ الوحيد – يقومون بكلّ التّسالي

التي يُمكن أن يتخيّلها المرء: كانت الصّور فوتوغرافيّة وذات جودة تبعثُ على الدّهشة.

أحبّ كثيراً ليالي استوكهولم. كانت أحياناً مُتجمّدة، حتّى أنّ الثّلج قد تساقط. كان العديد من المحال مُضاءً بمصابيح كبيرة ذات ضوء مُتحرّك؛ أضاءت واجهة الأوبرا؛ كان مبنى ضخماً؛ إلى جانبه مرقص ذو ثريّات كريستاليّة ومطعم فاخر، مُزوّق بنباتات خضراء؛ كان في الطّابق الأوّل حانة «على الطّراز العصري» كانت ستُعجبُ جياكوميتي بفسيفسائها وتنانيرها وكعوبها. كان أغلب الزّبائن في مقتبل العُمر: فتيات في تنانير قصيرة، شبّاناً ذوي شعر طويل. كنّا نتناول السلمون المُدخّن في العشاء. صحبنا بيتر وايس وزوجته ذات مساء وصولنا. أحببتُ مسرحيّته كثيراً، «مارات- ساد» Marat Sade، وسرّني أنّي عرفتُه. لم يبدُ أنّه يبلغ الخمسين من العمر؛ كان أشقر، يحملُ نظّارتَيْن حُرشُفيّتَيْن، كان له وجه ذكيّ ومُحافظ يتحرّكُ حين يتكلّم. تحدّثنا معه، لا عن المحكمة فحسب، بل حول المسرح، عن «ساد»، عن كلّ شيء ولا شيء. بدت زوجته شابّة بوجهها الأشقر وملامحها الدّقيقة، رغم أن لها من زواجها الأوّل ابناً عمره سبعة عشر عاماً؛ كانت تنحت وتقوم بالدّيكور، خصوصاً مسرحيّات زوجها. كانت موهوبة للغاية: اكتشفتُ ذلك عندما تحوّلنا لتناول الغداء معهما. كانت شقّتها مُزخرفة بالسّيراميك والمُجسّمات العبقريّة. دعوا جيزال حليمي، شوارتز، ديديجر وأليخو كاربنتر. كانت الطّاولة منصوبة في مطبخ كبير؛ أكلنا السّلطة واللّحوم الباردة والسّمك المُدخّن ونحنُ نثرثر.

أحد أجمل ما في هذه الإقامة هو أن تجد أناساً تكنّ لهم الودّ: أليخو كاربنتر، الكاتب السّلوفاكي مناكو - واكتشاف غيرهم: ديديجر، بيتر وايس وزوجته، باسو الذي التقينا به لاحقاً في روما.

ثمّ، رغم بعض الأوقات المُضجرة، فنحنُ شغوفون بعملنا. نحنُ نتطوّرُ يوماً بعد يوم. تحوّلت فرضيّاتنا إلى يقين، ليتقاطع يقيننا مع عدد من الأشياء المؤكّدة المأساويّة. حتّى الذين يعرفون المسألة جيّداً - من

بينهم ديلنجر – كانوا يقولون إنّهم تعلّموا الكثير. ما كنّا قد عرفناه، اتّخذ الآن، شكلاً جديداً وهو يرتسم في لوحة شاملة.

كانت الصّحافة المحلّية حقودة؛ أشاعت أنّ المحكمة قد اجتمعت لتدفع أجور المُترجمين، فيما لم يتقاضَ هؤلاء فلساً واحداً؛ وبدل أن ينشروا صورة الطّفل الذي يعد أكثر من جسم مُحترق، كتبت الصّحف أنّه «كان مُحترقاً قليلاً». لم تُقدّم الجرائد الفرنسيّة سوى مُلخّص عن جلساتنا. لكنّ النيويورك تايمز نشرت تقاريرَ مُفصّلة طويلة عنها. أعطى «ترومبادوري» Trombadori في صحيفة *الوحدة* الإيطاليّة تقارير ضافية يوماً بعد يوم. تحدّث راديو اللّكسمبورغ وديوان الإذاعة والتّلفزيون الفرنسي عن المحاكمة بانتظام.

دامت المُشاورات فترة طويلة. بقينا، خلال المساء الأوّل، مُجتمعين في المُدرّج إلى غاية السّاعة الواحدة والنّصف صباحاً. من الغريب أن يجد المرء نفسه في مكانه المُعتاد، أمام قاعة فارغة. تمّ تكليف عدّة لجان لتحرير بيانات مُختلفة ستُعزّز أجوبتنا. لم ألمس السندويش، ولا احتسيتُ القهوة خشية الأرق؛ ربّما لذلك لم أقاوم مثل البقيّة؛ عندما انتهى الاجتماع شعرتُ بالدُّوار؛ لم أفهم تحديداً ماذا يجري أو ماذا أفعل هنا. في اليوم التالي عند الحادية عشرة، التقينا كي نتّفق حول مُختلف المسائل بصورة دقيقة. صوّتنا، وأدنّا بسرّية الولايات المُتّحدة لعُدوانها ولهجومها على سُكّانَ مدنيّين. ولم نتوصّل إلى اتّفاق حول تحديد مسؤوليّة حلفائها. بعد الظّهر، التأم مجلس علنيّ، حيثُ قرأ باسو تقريراً ختاميّاً مُدهشاً. تواصلت المُداولات بيننا في المكاتب حتّى التّاسعة والنّصف مساءً. هذه المرّة حشوتُ نفسي بالقهوة والمُنبّهات. أجمعنا بصوت واحد منقوص على إدانة أستراليا، نيوزيلاندا، كوريا الجنوبيّة لمشاركتها الولايات المُتّحدة جرائمها – كان صوت كاسوري هو النّاقص – ولم نُدن عدواناً بل هجوماً للولايات المُتّحدة على كمبوديا. مع ذلك لم نصل إلى اتّفاق فيما يتعلّقُ ببيانات اللّجان. في الخارج كان الصّبح ينبلج، مرّت السّماءُ من الأزرق

الدّاكن إلى الأزرق الفاتح فوق المدينة المُقفرة. «كان الضّوءُ آخذاً بالانتشار، لكن بيننا كان الغموض يتزايد»، لاحظ كاسوري. أخيراً، انتهينا عند الرّابعة؛ وقطعنا استوكهولم في انتعاشة الصّباح. نمتُ أربع ساعات نوماً مُتوتّراً. كان المُترجمون منهكين: كانت النقاشات حيث الجميعُ يتكلّمُ في آن، مُتعبة جدّاً بالنّسبة إليهم أكثر من الجلسات المُعتادة. كان على إحداهم أن تقضي ساعَتَيْن في المستشفى لعلاج حنجرتها.

عند الحادية عشرة والنّصف، اجتمعنا في المُدرّج: قرأ سارتر «المُرتَقَبون» التي حفّزت حكمنا، ثمّ الأسئلة والأجوبة. انفجرت القاعة بالتّصفيق. هنّأ الجميعُ بعضهم بعضاً. بكى الكوبيّون؛ اجتمع الدّمعُ في عيون الفيتناميّين.

رافقتُ سارتر، ديديجر وديلنجر إلى التّلفزيون السّويدي. رفضوا الماكياج. طرح السويديّون أسئلة خبيثة وغبيّة، تمّت الإجابة عنها أثناء الجلسة. «لكن، يبدو أنّكم لم تحضروا أيّ جلسة؟» سأل سارتر. تحدّث ديلنجر جيّداً: لقد دخل السّجن لنضاله من أجل السّلم، ونظّم العديد من المظاهرات غير العنيفة؛ كان لتصريحه وزن كبير عندما شدّد على ضرورة الوقوف ضدّ العنف.

في باريس، أعدتُ التّفكير، بحنين إلى تلك الفترة التي أُطبِقَت على نفسها. خُيّل إليَّ أنّ هذا العمل الجماعي، اليومي، الدّؤوب، بعيداً عن حياتي الخاصّة، قد أحالني إلى نوع من التّقاعُد؛ وأحسستُ بأنّي قد امتلأتُ كثيراً وبأنّي مُجنّدة: ما من تردّد، ما من وقت مُهدَر.

بدا لي غريباً، كالنّزوة، أن أتمكّن في الوقت الحاضر من الاهتمام بنفسي.

صادف أن جرت الجلسة الأخيرة بحلول الخريف. في سبتمبر 67، كنتُ مع سارتر في بروكسيل من أجل حصّة تحضيريّة. كان لنا موعدٌ في فندق السّلام: لكنّ «ماوِيّين»، كانوا قد اختطفوا أوّل الذين وصلوا، مُقدّرين أنّ مقرّهم كان أكثر ملاءمة من ذلك المركز المسيحي. انتظرنا حتّى تستعيدهم السّكرتيرة. كان المكانُ مُربكاً: غرفة مُخرّبة، تتوسّطها طاولة وُضعت عليها قواريرُ ماء وأكواب. كان هناك صليب على الجدار؛

كانت الأبوابُ مطليّة بشكل غريب وأُحيطت بأوراق فضّية؛ أحدها يفتَحُ على ساحة، وكان من المُستحيل غلقُها وكان الطّقسُ بارداً جدّاً. خلال وقتٍ قصير، وصل غانتر أنديرز، ستاتلر وإنجليزي آخر ثمّ حليمي، جوفا وأعضاء السّكرتارية. كان من المفترض أن نقيم في كوبنهاغن وكان بيننا زوجان دنماركيّان. تحدّثنا عن الاجتماع الذي انعقد أخيراً في طوكيو؛ وعن النّتائج التي جنيناها خلال الأشغال الماضية المُرسَلَة إلى فيتنام؛ عن أعمالِ اللّجان. وصل الدّكتور بيهار وديلنجر بعد الظّهر. طلب الأخير ألّا تُعقَد الجلسة قبل 21 نوفمبر، إذ ستنتظر مسيرات مُهمّة في الولايات المُتّحدة ضدّ الحرب، ابتداءً من 21 أكتوبر: نأملُ أن يقنع ذلك عدداً من المُقاتلين الأمريكيّين للإدلاء بشهاداتهم أمام المحكمة.

خرجت المسيرات المُعلَنُ عنها. قاد ديلنجر يوم 21 أكتوبر أكبر مظاهرة سلميّة انتهتْ بمحاصرة البنتاغون.

يوم 19 نوفمبر 1967، سافرنا إلى كوبنهاغن. لم نشأ الإفراط في استغلال حفاوة السّويديّين، وقبل الدنمارك، باستقبالنا. لم نجد في كوبنهاغن قاعة تناسبنا. استقرّ بنا المقام في صالة منزل نقابي في روسكيلد Roskilde، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من العاصمة. إلّا أنّ جميع نزل المدينة رفضت إيواءنا: كانت الإقامة في كوبنهاغن. أحبّذ هذا الحلّ. لم أكن لأسرَّ كثيراً بالحجر ليلاً ونهاراً في قرية.

كان ديديجر في انتظارنا بالمطار. قال إنّ شينمان في الولايات المُتّحدة وأنّه سيُلاقي صعوبة كبيرة في الالتحاق بالدّنمارك؛ هذا أفضل: ستكون النّقاشات من دونه أقلّ عصبيّة. التأمت المحكمة بنفس التّركيبة الماضية وبنفس التّوزيع. لكنّ دوتشر كان قد مات في روما جرّاء نوبة قلبيّة؛ غاب هيرناديز، وحضر فوكيشيما نيابة عن شورشي ساكا. في ذلك اليوم قدّم سارتر وشوارتز مؤتمراً صحافيّاً.

انطلقت المُداولات في اليوم التّالي. كانت سيّدة دنماركيّة ودودة (السيّدة نيلسن)، تأخذنا كلّ صباح في السيّارة. كنّا نسير عبر طريق سريعة

تقطع ضاحية لا قيمة لها ثمّ ريفاً كئيباً. انتصبت طاحونة ريح مُزيّفة على مُنحَدر. من بعيد لاحت أسراب من الطّيور البيضاء التي غطّت المساحات وضفاف بحيرة شاسعة. سندخُل روسكيلد قريباً، التي زُيّنت طرقاتها بأكاليل الورود والمصابيح فعيدُ الميلاد كان على الأبواب.

كانت روسكيلد هي المدينة التي يُقدّسُ فيها جُثمانُ الملوك وتُدفن. في المركز تنتصب كاتدرائيّة بديعة جدّاً تعود إلى القرن الثّالث عشر، إنّها الأقدم في الدنمارك؛ شُيّدت من الطّوب وكان لها جرسان عاليان جدّاً وأسطُح خضراء. كانت فسيحة ومُتجمّدة من الدّاخل؛ كانت تضمّ قبوراً بشعة وشبكات معدنيّة رائعة. إلى جانبها يقع القصر الملكي، بحجارته الصّفراء الجميلة، الرّصينة والمهيبة. من ميدان الكنيسة، كان بالإمكان رؤية مياه المضيق البحري من بعيد. رصاصيّة اللّون أو فضّية بحسب لعبة الضّوء. أحبُّ دائماً دخول هذه المدينة وجرسيها اللذين يلوحان من بعيد كأنّهما يُحلّقان في السّماء، سواء كانت الشّمسُ ساطعة أو كان الثّلج يتساقط. على بعد خطوات، يقع المنزل النقابي، فيلا المضيق. في المدخل، كان هناك شبّانٌ دنماركيّون شُقرٌ مُلتَحون، يحملون أساور حمراء في الذّراع، مُكلّفون بتمييز الضّيوف. صعدنا الطّابق، تجاوزنا صالة أكل فسيحة، تبعنا ممرّاً يُستَغَلُّ أيضاً مطعماً ودخلنا صالة الأفراح حيثُ يرقُص النّاسُ مساء السّبت: سيقام نشاطنا هنا. ستشغل السكرتارية الطّابق العلوي. كان المطعم ظريفاً جدّاً بفضل النّوافذ الزّجاجيّة الكبيرة المُشرفة على السّماء والأشجار والبحر، من بعيد. كانت قاعة الجلسات غريبة؛ سنتّخذ أماكننا على الرّكح خلف طاولة طويلة مُستقيمة. كان هناك حواجز تُحدّد المرقص. كانت أروقة ثلاثة تتفرّع من الشّرفة. من السّقف، كانت تتدلّى ثلاثُ ثريّاتٍ ضخمة؛ عُلّق على المنبر قبالتنا مصباحَان حمراوان. ومثلما هو الشّأنُ في استوكهولم، كنّا مُوّزعين حسب أبجديّة أسمائنا، وشغل الرّؤساء الثّلاثة وسط الطّاولة.

وجّه لنا رئيسُ الغرفة النّقابيّة الدّنماركيّة، في اليوم الأوّل، كلمات مودّة

ملتبسة. كرّر سارتر على مسامعنا دعوة المحكمة للحكومة الأمريكيّة. لم تكن الجلسة الأولى ولا الثّانية مُهمّة بالقدر المرجو. ولا حتّى الحصّتان التّالِيَتَان. كرّرنا الحديث في المواضيع المطروحة شهر مايو، وخُيّل إلينا، بصورة مُزعجة، أنّنا نغوص في مُستنقع. من ناحية أخرى- كان كثيرون - من بينهم سارتر وأنا - قلقين جدّاً؛ في هذه الجلسة، كانت هناك ثلاثُ مسائل راهنة: هل استخدَم أو جرّب الجيشُ الأمريكي أسلحة محظورة دُوليّاً؟ هل كان المساجين الفيتناميّون يخضعون لمعاملة لا إنسانيّة يمنعها قانون الحرب؟ مكتبة سر من قرأ

هل كانت هناك أعمالُ إبادة للشّعب وهل من الممكن أن توصَفَ بالمذابح؟

يشغلنا السّؤال الأخير. إن كان علينا أن نُجيب بلا، فكان من الأفضل ألّا نطرحها. غير أنّنا ونحن نتّخذ إبادة هتلر لليهود مرجعاً في ذلك، كنّا مُتردّدين في تشبيه حرب فيتنام بالمذبحة. كانت لنا في بداية الجلسة حوارات كثيرة مُضيّقة حول هذه المسألة دون أن نحسم أمرنا.

خلال الأيّام الأولى، قالت الصّحافة إنّنا نتعثّر. لكن لا. يوم الخميس، طرح يابانيٌّ موضوعاً جديداً بصورة لافتة: إفساد الغابات. تحت ذريعة ضمان أطول طرق ممكنة آمنة أمام الجيش، وحرمان المُقاتلين من فرصة للاختباء ومن ثمَّ تجويعُهم. ألقى الأمريكيّون موادّ سامّة لا على الغابات فحسب، بل على حقول الأرزّ والقصب السُكّري والخضروات. في الواقع، تتلخّصُ العمليّة في تدمير الغطاء النّباتي وتسميم الأهالي. إنّه وجهٌ خفيٌّ من وجوه الإبادة (يناير 1970، نقرأ في صحيفة لوموند Le monde: «كان علماء أمريكيّون قد طلبوا من البنتاغون الكفّ عن استعمال الموادّ السامّة التي تسبّب تشوّهاً في الأجنّة. وحسب صحافيّ من «سيغون» أكبر مدينة في فيتنام، والتي نشرت مقاله في *السّجلات الجديدة* بتاريخ 1 نوفمبر 1969، فإنّ حكومة جنوب فيتنام، تجتهد في إخفاء عدد الولادات المُشوّهة عن السُكّان. حرّمت الإدارة الأمريكيّة على الولايات المُتّحدة

بعض الموادّ السامّة الخطيرة جدّاً، لكنّ استخدامها يتواصل في فيتنام. هذا يعني أنّ البيت الأبيض، ورغم حصوله على الملفّ الطبّي، يستمرّ في متابعة نتائج التّشوّه على الأطفال الفيتناميّين»)..

مع ذلك لم تفتر عزيمتنا. تحوّلت جيزال حليمي إلى الولايات المُتّحدة؛ عرض على أنظارها اليسار وثائق مُهمّة سردت علينا مُحتواها: جرائد، مجلّات، كتابٌ حول قرية «بان-سوك» Suc-Ben، التي كانت الفرق الأمريكيّة قد محقتها بالكامل بعد قتل بعض الرّجال وتهجير كلّ الأهالي. ضمّت الوثائق شهادات مُحاربين أمريكيّين. إجمالاً، كان ذلك بمنزلة مرافعة ساحقة. أحضرت معها ثلاثة شهود قدموا خلال الأيّام اللّاحقة للإدلاء بشهادتهم أمام المحكمة.

الأوّل، مارتينسن، طالبُ علم نفس في جامعة بيركلي Berkley؛ انظمّ إلى الوحدات الخاصّة، أي أنّه قدّم لجنود الحكومة الفيتناميّة دروساً في فنّ التّعذيب، وقام بالتّعذيب بنفسه. كان يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة وكان وسيماً. كان في البداية متأثّراً ومرتبكاً. رويداً بدأ يشعر بالتّوازن. كان يبدو أنّه يعيش حالة نفسيّة دراميّة وهو الآن بصدد التخلّص من تعذيب الضّمير. «أنا طالب أمريكي متوسّط وأنا مُجرمُ حرب»، أعلن بصوتٍ مُضطرب. دامت شهادته أمسية كاملة. يدّعي الأمريكيّون بأنّ الجنود الحكوميّين المحلّيّين وحدهم من قام بالتّعذيب وأنّ كلَّ شيء قد حدث بين «الصّفر»؛ لكنّها كانت «كذبة ومغالطة كبيرة»؛ كان هو بنفسه قد نال من المساجين، وهو يغرز الخيزران تحت أظافرهم. عادة، يقوم جنود بسطاء بهذا العمل، لكن دائماً في حضور ملازم أو رقيب، وكان الضُبّاطُ على علم بما يجري. كان المساجين يموتون باستمرار. قدّم مارتينسن، قائمة بالطُّرق المستخدمة أثناء التّحقيق. كانت القاعة تستمع إليه وسط صمت ثقيل.

الشّاهدُ الثّاني، كان شابّاً أسود، «توك» Tuck. لم يقم بالتّعذيب بنفسه لكنّه حضر حصص تعذيب ومجازر. بأمر من أحد الضُبّاط، قتل امرأة لم تتمكّن من اللّحاق بعشيرتها المجتمعة في السّاحة: إن عصى، فإنّ مصيره

سيكون الإعدام. وصف «التحرّيات». رأى سجيناً يُلقى به من أعلى طوّافة وروى كيف يتمّ إنهاء حياة الجرحى. «يُرجّح ضُبّاطُنا بأنّ الفيتناميّين الجيّدين الوحيدين هم الفيتناميّون الأموات». «شيء آخر، مألوف جدّاً، قال، إذا أُطلِقَ علينا النّار من قرية فإنّ لنا «دقيقة جنون»: تقصف المدافعُ ونُشغّل الرّشّاشات على كلّ ما في القرية، أحياءً كانوا أو أمواتًا». سألناه عن عدد المرّات التي كان فيها شاهداً على «دقيقة الجنون»، وأجاب: «رأيتُهم يفعلون عديد المرّات! عدداً كبيراً، يمكن القول دائماً». حدّثنا أيضاً عن مُعسكرات التّرحيل التي يُسمّيها الأمريكيّون «القرى الاستراتيجيّة». «كلّ الذين رأيتُهم كانوا على مشارف الموت جوعاً وكانوا يرتدون خرقاً».

ثمّ استمعنا إلى «دونكان» Duncan، واحدٌ من «القُبّعات الخُضر»، مؤلّف كتاب، *الكتائب الجديدة*، حيثُ أدان عدداً كبيراً من جرائم الحرب الأمريكيّة. كان يعملُ في مجلّة *السّور*، وهي مجلّة ذات توجّه مسيحيّ، ناشطة جدّاً في مجال التصدّي للحروب. تحدّث أوّلاً عن تدريب المُنتَدَبين الجُدد: تحت حجّة تمرينهم على تحمّل التّعذيب، كانوا يُعلّمونهم طرقاً عديدة منه. أكّد أنّ الأمريكيّين كانوا يذبحون كلّ المساجين ما عدا الضُبّاط فقد كانوا «يحققون» معهم؛ ليُرمى بهم بعد ذلك للحكوميّين المحلّيين كي يُرسلوهم إلى مُعسكرات الموت. ثمّ وصف لنا بالتّفصيل «القرى الاستراتيجية»؛ كان يُسمّيها «حُفرَ القمامة». ما من فُرُش، أو ماء، أو أماكن لقضاء الحاجة. كانت الرّائحة رهيبة. ثلثُ أهالي جنوب فيتنام سيقوا إلى هناك. ليس للنّاس ما يفعلونه. كانت النّساءُ والشّيوخ يعيشون الصّدمة؛ كان الأطفالُ يشحذون ويسرقون ما يمكن سرقته من الجنود الأمريكيّين. كانت الفتيات الشابّات وحتّى البناتُ الصّغيراتُ يعرضن أجسادهنّ مقابل الأكل.

كانت شهاداتٍ شاقّة للغاية في سماعها: ما يرويه هؤلاء الأشخاصُ من حكايات، كانوا قد عاينوها وهذا ما يجعلها حاضرة بشكل مأساوي. كانت رواياتهم تتكرّرُ وتتقاطعُ في بعض النّقاط وكان لهذا التّطابُق أثر

مُتعِب، بالإضافة إلى قدرة قاسية على الإقناع. حتّى الصّحافيّون انشدّوا وقدّموا تقارير مُفصّلة عن جلساتنا. تحوّل مارتينسن إلى إنسان معروف. شرح في مؤتمر صحافيّ سبب وجوده في روسكيلد. كانت صورته في كلّ مكان. وصف صحافيٌّ فرنسيٌّ اسمُه باردوليني، جحيم «القرى الاستراتيجيّة» وعرض فِيلماً بالألوان: خيامٌ ضخمة حُشر فيها عدد هائل من الشّيوخ والنّساء والأطفال. كنّا نراهم جالسين على المدخل، بأيدٍ متدلية وملامح غائبة ضائعة. سرقة، دعارة، لم يفقد الأهالي القرويّون حياتهم فحسب بل فقدوا تقاليدهم أيضاً، بعدما كانوا يخضعون إلى نظامٍ صارم ينظّم عيشهم. كانت جريمة أخلاقيّة حقيقيّة.

سمعنا أيضاً، فيتناميتين تعرّضتا للتّعذيب. إحداهما كانت «مُثقّفة»: صيدليّة معروفة في سيغون، ما جعلها تتلقّى، قبل أن تُتّهم، حُكماً بالسّجن المؤبّد، فيما أُعدِمَ آخرون دون محاكمة؛ وأنّه، أيضاً، بفضل شهرتها، أطلقوا سراحها بعد سبع سنوات. كانت جميلة جدّاً في فستانها المحلّي المُخملي الأزرق الدّاكن ولقد عبّرت بكثير من الرّصانة والنّبل. ضربوها بشكل مُروّع، داسوا على صدرها وبطنها، وضربوا عقب ساقيها بالعصيّ الغليظة؛ وأُخضعت لما يُسمّيه الجلّادُ «الرّحلة في الغوّاصة» وهو نوع من التّعذيب يعود إلى القرون الوسطى؛ عُلِّقَت من معصميْها؛ وشدّوا وثاقها نصف عارية إلى شجرة مُغطّاة بالنّمل، الذي كانت لسعة واحدة منه تُسبّب قروحاً وحروقاً لا تُحتَمَل. وصفت تعذيباً تعرّض له غيرها من الضّحايا: ترقرق الدّمعُ في عيْنيْها وهي تذكُرُ ما تعرّض له أحد أقاربها. أرسلوها إلى مُعسكر الإبادة المشهور في پولو-كوندور. في إحدى المرّاتِ دلقوا على رأسها دلواً مليئا بالقيح، بُصاق المسلولين، القيء، مياه اغتسل بها مرضى بالجُذام؛ هذا المقطعُ صعقني أكثر من كلّ أنواع التّعذيب الأخرى: نحنُ عادة نفشَلُ في تخيّل الألم البدني، لكن يمكن للمرء أن يشعر بالتقزز من بعيد. طرح عليها القُضاة أسئلة كثيرة، وأُعجِبْنا حقّاً، بطريقتها في الإجابة وكيف أنّها كانت ترفض الخوض فيما لم تره بنفسها. أمّا الثانية فكانت

شيوعيّة، أُحرقَت بالحديد الأحمر وعُذّبت إلى حدّ أصبحت معه مُصابة بالصّرع. لكنّها كانت أقل إثارة للاهتمام من الأولى لأنّها كانت تقرأ تقريراً من الواضح أنّها لم تكتبهُ بنفسها.

من بين كلّ الشّهادات، كانت شهادة الدّكتور وولف الذي وصل مباشرة من «هوي» Hué حيثُ اشتغل سنتَيْن جرّاحاً في المُستشفى. كان ألمانياً غربيّاً بوجه مُثلّث، أشقر، ذا جبهة عريضة، وعيْنَيْن زرقاوَيْن، وسحنة برود. يناير 66، قدّم لـ*الأزمنة المعاصرة* مقالاً مُهمّاً جدّاً، لم يكن عليه التّوقيع، وكان يتحدّث عن الأمريكيّين في فيتنام. تحدّث ساعة وأجاب على الأسئلة بدقّة وبتفاصيل مُذهلة. تحدّث أوّلاً عن المنظر الذي قد نُشاهده من الجوّ، مُحلّقين فوق الأراضي الفيتناميّة: جلدٌ بشريّ يُعاني الجدري؛ انفجارات في كلّ مكان؛ مساحات شاسعة مُدمّرة بالموادّ الكيماوية؛ مشهد رماد. روى قصص التّمشيط: يُنقَلُ الشّبانُ في الطوّافات في وسط التحقيق، مُعذّبين، ويُلقى بهم في السّجون حيثُ يموتون. كانت الأراضي خالية من أهلها: ثمّة أربعة ملايين إنسان «مُجمّعين» في جنوب فيتنام. ثمّ وصف الجروح، الحروق، التشوّهات الخلقيّة التي خضع لها السُكّان بشتّى أنواع الأسلحة «المُضادّة للأشخاص»: قذائف عنقوديّة، نابالم، فسفور. حدّثنا، كيف أنّ الضُبّاط الأمريكيّين، كانوا لتسلية مُمرّضات تحت التّدريب، يأخذوهنّ في رحلة بالطوّافة لاصطياد الـ «فيات»: كانوا في الحقيقة يقتلون مُزارعين في الحقول.

أيّد التّقرير شريطٌ فظيع عرضَهُ «بيك» PicK، كان قد تمّ تصويره من قبل الأمريكيّين أنفسهم (اشترى بيك صُوراً وأفلاماً خلال رحلته إلى الولايات المُتّحدة) كان يعرضُ الصّور على شاشَتيْن: على الأولى صورٌ متحرّكة؛ على الأخرى صورٌ ثابتة. كانت كلتاهما لا تُحتَمَل. رأينا في المُستشفى وجوه أطفال وكبار ممسوحة بالكامل، لم يبق منها سوى عيْنيْن مذعورَتَيْن. مقابر جماعيّة. جرّافات تُدمّر غابات بأسرها. رأينا أمريكان ضخام الجُثّة، يعبثون بجنود فيتناميّين وهم يضربونهم بالأرجل على

الخِصيَتَيْن، ثمّ يُطلقون النّار على رؤوسهم من القفا، وأحياناً في الشرج للضّحك. آخرون كانوا يُحرقون الأكواخ.

تتناوبُ الجلساتُ المُضيّقة مع الجلسات العامّة، كما هو الشّأن في استوكهولم. كانت تجري هادئة لأنّ شينمان لم ينجح في دخول الدّنمارك. نزل ليلة في كوبنهاغن، إلّا أنّه تمّ تسفيره، لعدم حوزه جواز سفر. تحوّل إلى أمستردام، ومن ثمَّ إلى فنلندا حيثُ قضى ليلة في السّجن، ومن هناك إلى استوكهولم حيثُ تمّ إيقافُه؛ كانت الصّحف تروي كلَّ يوم عن محنته وكانت تُسمّيه «الهولندي الطّائر».

تابعنا التّفكير في قضيّة الإبادة. خلال اجتماع، في فيلا أحد الأصدقاء الدّنماركيّين، حوّل غانتر أندرس، ديديجر وسارتر هذا المفهوم إلى تحليل مُهمّ للغاية؛ لكنّنا ظللنا منقسمين. سارتر وأنا وآخرون، كنّا مُقتنعين بأنّ الأمريكيّين مُجرمو حرب، لكنّنا مازلنا متشكّكين في إمكانيّة أن ننسب إليهم مذبحة. كانت المندوبة الكوبيّة والمندوبون اليابانيّون ساخطين بسبب تردّدنا: كانت بالنّسبة إليهم قضيّة سياسيّة وما تشكّكنا الفكري إلّا أمراً زائداً عن الحاجة. افترقنا دون أن نقرّر شيئاً.

ثمّ رُويداً أصبحت قناعتنا أكثر صلابة، خصوصاً بعد المرافعات حول «القرى الاستراتيجيّة». تُعرّف اتّفاقيّة 1948 المذبحة كالتالي: «مسٌّ خطير بالسّلامة الجسديّة والنّفسيّة لأفراد مجموعة - إخضاع مجموعة إلى ظروف عيش تفضي إلى دمار جسدي، كامل أو جزئي - الإجراءات التي تعيق الولادة داخل مجموعة - التّهجير الإجباري للأطفال». نعلمُ أنّ تشتيت العائلات من القرى، مُحوّلة إيّاهم إلى كائنات آكلة للعشب، الوضع الصحّي المزري، هي أشياء تدين المُغتصِبَ في هذا الاتّجاه. القصفُ المُكثّف القاتل، رشّ الموادّ السامّة تعكسُ نيّة مُضمرة في الإبادة. أمّا في الشّمال، فإنّ قصف الأحياء الشّعبيّة في «هيفونغ» و«هانوي» لا يقلُّ برهنة على نيّة ارتكاب مجزرة تصفية كاملة. لدى وصوله، قال لنا «بوست» Bost، الذي حضر المحاكمة لفائدة صحيفة *الملاحظ الجديد*:

«لا تتحدّثوا عن إبادة» في غضون ثلاثة أيّام، كان مُقتنعاً تماماً بضرورة القيام بذلك. حين بدأنا بالتّصريح، قرأ سارتر نصّاً كان قد أعدَّهُ حول قضيّة المذبحة، وبدا لنا حاسماً. خلُص إلى أنّ الإبادة كانت مُضمرة ومُدَبّرة سلفاً، لأنّها الإجابة الوحيدة على تمرّد شعب كامل على مُحتلّيه. بموافقتها على دخول هذه الحرب الشّاملة، حرب من *طرف واحد، دون أدنى ردّ*، فإنّ الحكومة الأمريكيّة قد قرّرت القيام بإبادة شعب. بعد المحاضرة، قالت جيزال حليمي وماتاراسو لسارتر وهما اللذان كانا يُبديان حتّى تلك الآونة تردّداً: «لقد أقنعتنا».

قبلتُ الروتين اليومي بشكل أسهل مما كنتُ عليه في استوكهولم. كان في غرفتي بالنزل، ككلّ الغرف، طاولة، مكتب وسرير يختفي خلال النّهار خلف شبكة خشبيّة: كان سريراً من الطّراز الألماني، حيثُ بطانية ثقيلة تحلُّ محلَّ الأغطية واللّحاف. عندما استيقظتُ عند السّابعة صباحاً، كان اللّيلُ لا يزالُ جاثماً، كان الجميعُ نائمين لأنّنا لم نكن ننامُ قبل الواحدة صباحاً. أحبُّ مراقبة طلوع النّهار وكيف يغزو الضّياءُ الشّارعَ الحزين شيئاً فشيئاً. أحياناً، خلال الجلسات، يكون عليَّ مقاومة النّوم: ثمّة في بعض الأوقاتِ أناسٌ ينامون في القاعة صراحة. ثمّ فجأة، يُعرَضُ فِيلم أو نسمعُ شهادة فتستيقظُ جميعُ حواسّي. تناولنا الفطور في فجورد-فيلا، الأيّام الأولى. لكنّ الوجبات كانت رديئة جدّاً وصاخبة. اعتدنا، إذاً، الذّهاب إلى نزل مُجاور، هادئ وعتيق: وهو واحدٌ من النّزل التي رفضت إيواءنا؛ لم ينسَ المُدير أن يطلب من ديديجر التوقيع في سجلّه الذّهبي. أحياناً، كنّا نقوم بجولة قصيرة، كنّا ننزل إلى غاية فجورد. ثمّ نعود إلى أماكننا. ونحنُ نخرجُ من الفيلا، نجد أنفسنا في ليل لم نره يزحف. أقلّتنا السيّدة نيلسن وابنها إلى كوبنهاغن. دلّتنا على مطاعم جميلة حيثُ سنتناولُ العشاء مع لانزمان، الذي جاء لأيّام، كي ينوب عن سارتر، مع بوست أحياناً، أو شوارتز ومع ديدجر في بعض الحالات وفي أحيانٍ أخرى يُكتفى منهم باثنَيْن فقط. كان من بين المطاعم مطعم مُذهل اسمُه «الأمم السّبع»:

يحتوي على سبع قاعات مُزخرفة، كل منها على نمط بلد مُختلف؛ إحداها غرفة إسكيمو. لكنّ كلّ الوجبات المُقدّمة هي دنماركيّة. أذهلتنا تكاليف المعيشة؛ أقلّ قارورة نبيذ تساوي 30 فرنكاً؛ قارورة الويسكي، مائة فرنك؛ كانت القهوة باهظة الثّمن وإن كانت سيّئة؛ حتّى الجعة كانت مُكلفة وكان ثمن الوجبة مُشطّاً. ذاك لأنّ مواد الرّفاهيّة كانت تخضعُ إلى ضرائب قاسية: تملأ الضّرائب صناديق الضّمان الاجتماعي، وهي مُخصّصة لصيانة المُستشفيات ودور رعاية المُسنّين.

حيّرتنا ناحية من العادات الدّنماركيّة، إذ إنّ «معرض كوبنهاغن»، لم يكن قد افتُتِح بعد. ذهبتُ لاقتناء الجرائد من مكتبة في روسكيلد؛ وفوجئتُ برفٍّ من كتبٍ أكثر جرأة من التي وقعت عليها عيني في استوكهولم. على الرفّ وفي الدّاخل كانت هناك صُورٌ فوتوغرافيّة بالألوان لأناس يمارسون الجنس في كلّ الوضعيّات التي يُمكن تخيّلُها: أزواج من الجنسيْن، أحياناً في جنس جماعي مؤلّف من ثلاثة أو أربعة أشخاص. كان هناك مجلّات ودعاية تبدأ عناوينها بـ «بورنو». مجلّات بورنو، نشريّات بورنو، الخ. لم يكن الأطفالُ الذين يمرّون أمام المحلّ يلقون نصف نظرة على هذا النّوع من الأدب؛ كانوا مُهتمّين بمجلّات الأطفال والألعاب في واجهة أخرى. بدافع الفضول، اقتنى بوست مجلّة أسبوعيّة جنسيّة؛ طلبها من كشك لبيع الجرائد. بحثت المرأة العجوز - وكانت مُحترمة - عن المجلّة الأكثر فُحشاً، وطلبت مُساعدة حفيدتها، فتاة في الثّامنة عشرة من عمرها، وراحت الفتاة تبحثُ بدورها بنفسِ حياد جدّتها. مع ذلك، جحظت عينا بوست وهو يتصفّح المجلّة. يبدو في «بورنو-ويكاند» ومجلّات مُشابهة، أنّ أشخاصاً وأزواجاً يعرضون خدماتهم، ويطلبون الرّفقة. سألتُ السيّدة نيلسن إن كان الجانب الجنسي مُتطوّراً في الدّنمارك. لا، أجابتني، لأنّ الجنس خلسة غيرُ مسموح، يتمّ كلُّ شيء أمام الجميع وفي وضح النّهار: لم تكفِني هذه الإجابة.

مثلما هو الحال في استوكهولم، فإنّ المُتساكنين مُنقَسمون في شأننا.

ذات مساء، في مطعم، أهدتنا فتياتٌ شابّاتٌ طويلات القامة، يلبسن التنانير القصيرة، بلباقة وودّ، قارورة شمبانيا. غير أنّه في أحد الأوقات ما بعد الظّهيرة، سمعتُ انفجارَيْن، وانفتح بابُ الرّدهة ولمحتُ خلف الزّجاج وميضيْن أحمريْن: كانت ألعاباً ناريّة. مساء نفس اليوم، أُلقِيَ بحجر على زجاج صديق دنماركي استقبَلَنا يوماً.

لم نرَ شيئاً من كوبنهاغن لأنّنا كنّا نقيم في ضاحية المدينة من حيثُ نطلقُ مباشرة إلى روسكيلد. لكنّ سيلفي جاءت تُمضي عطلة نهاية الأسبوع معي، فارتحتُ من العمل قليلاً. أجّرنا سيّارة، واشترينا دليل كوبنهاغن، ومضينا ذات صباحِ سبت مُشمس إلى وسط المدينة. مشينا على الأقدام في طرقاتٍ ضيّقَة كثيرٌ منها كان ممنوعاً على السيّارات: كان هناك شوارع جميلة جدّاً، محفوفة بالمنازل؛ وكانت أشجارُ الصّنوبر والفوانيسُ وشعرُ الملائكة توحي باحتفال. في شارع الكتب المُستعملة، اتّسعت عينا سيلفي. رأينا قصوراً، كنائس، معالم: أجملها مبنى البورصة، المنتصب على حافّة قنال: إنّه يعود إلى القرن الثّامن عشر، بواجهته الطّويلة وأسطحه الخضراء وقمّة على شكل ثلاثة حبال ضخمة مضفورة فيما بينها. وجدتُ نزل إنجلترا حيثُ نزلتُ مع سارتر سنة 1947، والقنال المحفوف بالمنازل من الجهتيْن في كلّ الألوان والبارات التي كنّا، مساءً، نحتسي فيها بعض الكؤوس. كان هناك حانات كثيرة أخرى على طول رصيف الميناء، لكن، أيضاً محال حيثُ تُباع قمصان الرّجال الحريريّة ذات الألوان السّاطعة، من الواضح أنّها مُوجّهة إلى فتيان الدنمارك المتأنّقين: قيل لي إنّ المساءَ يُذكّر بحيّ سان-جيرمان-دي-بري؛ يعُجّ المكان بالنّاس. رأينا أيضاً ساحة جميلة وهادئة، مُستديرة ومحوطة بالقصور. والقلعة: ثكنات تعود إلى القرن الثّامن عشر، حمراءُ ساطعة، ذات أسطح كبيرة، وعدد كبير من النّوافذ؛ كانت صامتة ووحيدة، تُحيطُ بها سواترُ ترابيّة مكسُوّة بالأشجارِ والأعشاب.

ثمّ على بعد ربع ساعة من المدينة زُرنا مرفأً جذّاباً، كانت الطّرقات

بداخلة ضيّقة مُبلّطة بحجارة صغيرة، مُلوّنة على الحواف: حيثُ يذهب في ظنّ المرء أنّه في سلسلة صور متحرّكة لديزني. تناولنا السومون في شرفة فندق، مواجه للبحر: كان في الطّاولة المُجاورة زوجان يتحدّثان عن «الهولندي الطّائر». ثمّ تحوّلنا إلى إيلسينور Elseneur. أذكُر قصر القرن الثّامن عشر، الواقع على ضفاف البحر، أنيقاً، مهيباً لكنّه لا يوحي بشيء من هاملت Hamlet. رأينا الميناء، البواخر الضّخمة، ضفّة السّويد من بعيد: يبدو أنّ السويديّين والدّنماركيّين يجدون متعة كبيرة في التنقّل من بلد إلى آخر، يشتري هذا من جاره الزّبدة وذاك القهوة. عدنا عبر الطّريق الجميل الذي يُحاذي الضفّة. جاء اللّيل. تعاقبت فوق رؤوسنا أقواسٌ من الأنوار، على طول الشّارع المؤدّي إلى النّزل؛ حتّى لكأنّنا في قصر.

يوم الأحد صباحاً، ذهبنا إلى ضفاف البحر، على امتداد الممشى الحزين حيثُ تنزّهتُ وسارتر، وسط حشد صباحيّ مُنهكٍ من الحرارة: الطّقسُ الآن بارد، الممشى خالٍ، إلّا من بعض الصيّادين بالصنارة؛ بدت المنارة الصّغيرةُ خائفة.

كانت المدينة مُتجمّدة، رماديّة، مقفرة. أوينا إلى متحف الحجارة المنحوتة حيثُ عُرض العديد من الأعمال ذات الطّابع الفرنسي، أعمالُ رامبراند، وفرانس هول، ومن بينها رسم لديكارت مألوف لديَّ من خلال النُّسخ.

بعد انتهاء الاجتماع، ذهبنا لتناول الغداء - ديديجر، وايس، سارتر وأنا - في نزل برانسر Prinser بصحبة ستوكلي كارميكايل Stokley Carmichael. كان أنيقاً، غيرَ جذّاب، وودوداً، وهو بصدد القيام بجولة حول الدّول الإسكندينافيّة ليُلقيَ محاضرات مناهضة للحرب في فيتنام. وصل متأخّراً كي يُصوّت مع مجموع المحكمة؛ اتّفقنا على أن يُلقي تصريحاً مُستقلّاً؛ لاحقاً، ناقشنا الأشغال في جلسة مُضيّقة: «لن أنحاز إلى وجهة نظر قانونيّة، لأنّي لا أومن بالشّرعيّة»، قال مُبتسماً؛ هتف أيبارد: «ما

دُمنا أعضاءَ في محكمة فلا يجدر أن نقول إنّ الشّرعيّة مزحة». إنّه آخر اجتماع لنا. تقرّر أن المحكمة ستكتفي، فقط، بشكلها المُضيق، بوصفها مركزاً للتّوثيق والعلاقات الخاصّة بقضيّة فيتنام.

هذه المرّة أيضاً، دامت المُداولات طويلاً. جرت في نزل بروسكيلد، حيث خُصّصت لنا صالة كبيرة. أعدّ كلّ من جيزال حليمي وماتاراسو أسئلة حول ضلوع اليابان وتيلاندا والفليبين في عُدوان «لاووس» Laos، معاملة المساجين والمدنيّين، الأسلحة الممنوعة ومذابح الإبادة الجماعيّة. استغرق نقاشُ الأسئلة شكلاً، كامل ما بعد الظّهيرة. بعد عشاء سريع في قاعة الأكل بالنّزل، واصلنا الأشغال. ثمّة نقاطٌ في مُحاضرة سارتر حول الإبادة، أثارت الاهتمام: هل بالإمكان إحالة هذه المذبحة على أخرى أم لا وما هي؟ طالب بعضنا بإضافات أو تحويرات رفضها آخرون بالقطع. كانت الخامسة صباحاً، حين وصلنا إلى اتّفاق.

افتُتِحت الجلسة العلنيّة الأخيرة، بعد منتصف النّهار. كانت القاعة غاصّة بالجمهور. عرضنا أوّلاً شريط پيك المُروّع، وسط صمتِ أموات. ثمّ قرأ سارتر مُحاضرته هو وشوارتز، «المُرتَقَبون» التي حرّرتها حليمي مع ماتاراسو. أعلنّا فقط أنّ الأمريكيّين كانوا يستخدمون أسلحة محظورة، وأنّهم كانوا يُعاملون المساجين والمدنيّين بوحشيّة تنافي قوانين الحرب، وأنّهم ارتكبوا جريمة الإبادة. ثمّ أدنّا بالإجماع عُدوان لاووس، بمشاركة تيلاندا والفليبين. ثلاثة من اللّجان اعتبروا أنّ اليابان تُساعد الولايات المُتّحدة لكنّها لم تُشاركهم جرائم فيتنام. حين أُجيب عن كلّ الأسئلة المطروحة، انفجرت القاعة بالتّصفيق والتّهاني.

احتفظتُ بذكرى حارّة عن تلك الجلسة. كانت متعة العمل الجماعي وإقامة علاقات صداقة حاضرة بقوّة مثلما هو الشّأن في استوكهولم؛ والحقُّ أنّنا تعلّمنا أكثر من الجلسات السّابقة. ما يُؤسف عليه، هو نقص الصّحافة الذي قلّص من حظوظ نشر الوثائق والشّهادات والمُرافعات. حُفظَ المُهمّ في كتابيْن للجيب من منشورات غاليمار: لكن لم يكن هناك

ما يكفي من القرّاء. اضطرب الرّأيُ العامّ الأمريكي بالكشف عن مذبحة «سان ماي» San May التي حدثت في مارس 1968. لكنّ «توك» تحدّث عن «دقائق الجنون» التي كانت تجري باستمرار من قبل الجنود. كان عدد ضحايا «سان ماي» – 567، بينهم 170 طفلاً – أعلى بكثير من المُعدّل؛ لكنّها على الأقلّ، ليست جرائم من النّوع الذي يُمكن القول عنه إنه وقائع روتينيّة: أُطلق النّاس في القرى على الجي آيز G.I.'s، أحدهم قُتل؛ دخل البقيّة وقتلوا كلَّ السُكّان. ودون شكّ، لأنّ هذه الممارسات منتشرة في أمريكا فإنّ نيكسون أعلن مُطمئناً المسؤول عن مذبحة سان ماي: لماذا يتمّ اختياره كبش فداء من بين كلّ مجرمي الحرب الآخرين؟

تزايدت معارضة الحرب. ممّا جعل كثيرين من المُتقدّمين للانتخابات الرّئاسيّة يُعلنون أنّهم مع السّلم. أمر مريح حقّاً، أن يتمكّن بلد صغير من التصدّي لأعتى دولة في العالم، مبرهناً ببطولته أنّ الأموال والقنابل والعنف لا تفيد بشيء. لكن حتّى في ظلّ انتصاره فإنّ فيتنام ظلّت طويلاً ترزح تحت قمع الاجتياح. دفع الشّعبُ الثّمن باهظاً، لديّ من صوره المريعة ما يكفي ليجعل قلبي ينقبض كلّما فكّرتُ فيه.

***

الحدث السياسي الذي شدّني بعد حرب الفيتنام، خلال السّنوات الأخيرة، هي حرب الأيّام السّتّة. اهتممتُ به إلى درجة أنّ *الأزمنة المُعاصرة* أعدّت ملفّاً حول النّزاع العربي الإسرائيلي الذي بمناسبته سافرتُ مع سارتر إلى مصر وإسرائيل. قبل أن أذكُر كيف عشتُ الأيّامَ السّتّة سأروي أوّلاً ما رأيتُ خلال الرّحلتيْن.

لم نذهب من قبلُ لا إلى مصر ولا إلى إسرائيل. بعد الحرب تابعتُ بشغف صراع اليهود مع الإنجليز؛ تأثّرتُ بمأساة التّهجير *Exodus*. أحسستُ بالارتياح عندما وجد الناجون من مُعسكرات الموت ملجأً آمنا في دولة اعترفت الأمم المُتّحدة بأنّ قسماً كبيراً منه كان تحت هيمنة الاتّحاد السوفيتي. لكن بعد ذلك لم تراودني الرّغبة في الذّهاب

إلى إسرائيل. بينما مصر، فقد راودني حلم زيارتها منذ الطّفولة: النّيل، الأهرام، أبو الهول الذي طالما أسرني بجماله، في تلك السنّ التي تُنقَشُ فيها الانطباعات بصورة لا تُمحى أبداً. الاضطهاد الذي عاشه الشيوعيّون تحت حكم عبد الناصر منعنا من دخولها. سنة 1967، تصالح مع اليسار، بل إنّ المعارضة نصحتنا بدخول القاهرة. التقينا لطفي الخولي عديد المرّات، رجلٌ في الأربعين من العمر، قضّى سنين طويلة في سجون عبد الناصر؛ انضمّ إلى النّظام دون مغادرة مواقفه الماركسيّة. كان يُدير صحيفة يسار، *الطليعة*. كان يستعجلنا للمجيء إلى بلاده. من ناحية أخرى أيقظت المقالات التي كان لانزمان يجمعها للمجلّة فضولنا إزاء إسرائيل. قرّرنا زيارة البلدَيْن، وقد قبل كلاهما فكرة تحوّلنا إلى البلد الآخر. قبل السفر إلى القاهرة بقليل، علمنا أنّ ثمانية عشر شابّاً ممن أرادوا إعادة تأسيس الحزب الشيوعي، وجدوا أنفسهم في السّجن: لم تطلب منّا عائلاتهم صرف النّظر عن مشروعنا بل التدخّل لمصلحة أبنائهم عند عبد الناصر.

دُعينا من قبل *هيكل* مدير جريدة الأهرام، صديق عبد الناصر وناطقه الرّسمي. دعا لانزمان أيضاً. اهتمّ الصحافيّ المصري *علي السمان* بالجانب العربي في إطار الإعداد لملف *الأزمنة المعاصرة*: بفضله أُنجِزَ الملفّ. رافقنا. يوم 25 فبراير ركبنا الطّائرة نحنُ الأربعة.

نزلت الطّائرة ليلاً. استقبَلَنا *هيكل*، رجل قصير نحيف وضاحك، كان أشقر، وبدا واضحاً أنّه نشيط؛ والعجوز *توفيق الحكيم* – ويعني اسمُه: نجاح العاقل – والذي كانت *الأزمنة المعاصرة* قد نشرت له قبل خمسة عشر سنة كتابه الجميل *يوميّات نائب في الأرياف*؛ وهو كاتب مسرحيّ على وجه الخصوص مشهور جدّاً في مصر؛ كان يحمل «بيريّه» على شعره الأبيض. يُقالُ إنّه كاره للبشر، لكنّه رافقنا عن طواعية كلّما كانت الجولة غير مُتعبة. كان لطفي الخولي أيضاً في المطار، صحبة زوجته الشابّة الجذّابة، ليليان ملحقة وكالة الأسفار؛ ستكون مترجمتنا ودليلنا. قدّموا لنا أيضاً الدّكتور *عوض* وزوجته. بعد لقاء صحافيّ قصير، صعدنا

إلى منزل هيكل؛ أقلّنا إلى نزل «شيفارد» حيثُ أمكننا أن نرى النّيل على بعد خطوات. كان نهر كبقيّة الأنهار، لكنّه كان النّيل وكان أمراً ساحراً أن أراه بعيْنَيَّ.

صبيحة اليوم الموالي ركضتُ مباشرة إلى نافذتي. كان النّيل هناك، يجري، أخضر - لكن ليس الأخضر النّيلي. على الضفّة الأخرى رأيتُ منازل بشعة ونخيلاً وعلى الجسر، رأيتُ أعلاماً ترفرف في الرّف. ذهبنا إلى متحف القاهرة يتبعنا موكب مؤلّف من علي، آل خولي، صحافيّين. عُدنا لاحقاً عديد المرّات، مع ذلك نحنُ أبعدُ من أن نكون قد رأينا كلَّ شيء. كان ضيّقاً مقارنة بالثّروات التي يعجّ بها، كان سيئ الإضاءة والعناية، ولم تكن الكنوز موضوعة بشكل يحترم قيمتها: لم يمنعنا ذلك من الانتقال من أعجوبة إلى أخرى. شدّنا خصوصاً، النّحت لدى المصريّين القدامى - من 2778 إلى 2423. منحوتة على الشّيست، الديوريت، الغرانيت الوردي، الأسود والرّمادي، على الخشب. كانت واقعيّة وسحريّة في نفس الوقت. كانت تُجسّد ملوكاً وملكات وقساوسة، كتّاباً، أزواجاً، عائلات تتحلّى بطابع قدسي. تُجسّد المجموعة النّحاسيّة الأب وابنه؛ آخر - وهو الأغرب على الإطلاق - قزم مع زوجته وأبنائه. نرى أيضاً حيوانات، جنّيات، وآلهة. في حقبة تالية، تُصبحُ التّماثيل أكثر تشابُهاً. على الفراعنة الذين في التّماثيل أن يُشبهوا الإله آمون أمّا البقيّة فهي منحوتة على النّمط الأكاديمي. الاستثناء، هي تماثيل أخناتون التي خُصّصت لها قاعة بأكملها. هذا الفرعون الثّوري الذي حكم بين 1370 و1352، تخلّص من اسم أمينوفيس الرّابع، عارض أجداده، غادر طيبة، قلب الحكم والنّظام السياسي والدّين؛ طلب من الفنّانين الابتعاد عن العادات الملكيّة وأن يُجسّدوه كما هو فعلاً: كانت تماثيله أكبر من الطّبيعة بقليل، تُظهره ببطن كبيرة ووجه طويل مُلغز ومُتدهور؛ قلّدته عائلته وحاشيته؛ خلقت أعمالُه فرقاً واضحاً بين فترته والقرون الماضية.

لم نتمكّن من مشاهدة الزّخارف والكتابة سوى في وقت وجيز، وتوجد

عادة، في القبور، وهي تروي أحداث الحملات الحربيّة، والطّقوس الدينيّة وتخبر عن تفاصيل الحياة المصريّة القديمة بالتّفصيل. أطلعونا على كنز توت عنخ آمون (قلتُ قبل هذا إنّه قد تمّ إرسال جزء ضئيل فقط منه إلى باريس). رأينا الحجرات الجنائزيّة، بالذّهب ومنجَزَة بشكل مُذهل، وكانت متداخلة الواحدة وسط الأخرى داخل القبر؛ الأسرّة، العربات، التّوابيت الذّهبيّة، الجرار المرمريّة، جميعها ظلّت سليمة عبر العصور: إنّها من بين التّحف الصّغيرة الوحيدة التي لم تُنهَب. كان هناك آلاف التّماثيل الصّغيرة والحليّ المعروضة في الواجهات والتي كانت تُعطي فكرة رائعة عن الحضارة المصريّة. بعيدًا، في قاعة صغيرة، ينامُ الفراعنة وكبار المُوظّفين، مُحنّطين في شكل مومياء. أطلنا تأمّل واجهة مليئة بالمومياوات المُقنّعة والتّوابيت التي تعود إلى العصر الإغريقي الروماني. وُجدت في واحة الفيّوم، أونتينويْ ANTINOË أو الإسكندريّة. كان هناك أيضاً رسوم بالشّمع على الخشب أو على القماش، أُنجزت لزخرفة التّوابيت. كانت أعمالاً تُصنَعُ بالتّسلسل لكنّها مُدهشة بقدرتها على مضاهاة أعمال مُعاصرة.

كنتُ فيما مضى قد رأيتُ صُور أبي الهول والأهرام لذلك لم أُفاجأ لدى رؤيتها حقيقة. أعرف أنّها توجد في الضّاحية الشّماليّة للقاهرة؛ إلّا أنّي، أيضاً، تضايقتُ بمحاذاتها للأحياء الكبيرة المُغبَرّة، وعدد الزوّار المهول. كان الأمريكيّون يتجوّلون في الأنحاء على ظهور الجمال متنكّرين في هيئة فلسطينيّين. ولأنّي كنتُ قريبة جدّاً من المعلم، وبسبب الضّوء السّاطع لم أرَ سوى حجارة مُكدّسة بعضها فوق بعض.

دخلنا أكبر القبور. لزيارته يجب المشي على أربع على طول ممرّ متعرّج، يختنق المرء في هواء ساخن ونادر؛ نزلنا فوراً تقريباً. أعجبتني الأهرام، وأنا أراها من بعيد عندما أوغلنا قليلاً في الصّحراء. سحرني مشهدها وهي تلوح فجأة، ذات يوم، ونحنُ عائدون من الإسكندريّة وقد مالت الشّمسُ إلى الغروب، وبدت صغيرة وشفّافة؛ مشهد تجريديّ رائع

للغاية. كَبُر حجم الأهرامات؛ بدت في عُريها البارد محض كُتل هندسيّة؛ حضورها القويّ وسط أرض مُسطّحة مُقفرة وعارية، جعلني أفكّر في بعض اللّوحات السّرياليّة.

بعيداً عن القاهرة قليلاً، يقف هرم «سقارة» Sakkarah وسط بقايا معبد مهيب. بعد موته، أُلِّهَ إيموتاپ المُهندسُ الذي بنى المعبد. اغتُصب وسُرق مثل أغلب القبور. تحالف البنّاؤون والكهنة مع اللّصوص: كانت تلك طريقتهم لاستعادة ثروات الفراعنة.

منذ اليوم الأوّل، ثمَّ بعد ذلك أيضاً، تجوّلنا في القاهرة. كان في المدينة العصريّة شوارعَ أنيقة ومحال فاخرة؛ لكنّ الجاذبيّة كانت تنقصها. أمّا المدينة العتيقة فكانت ضاجّة بالحياة. في شارع محمد علي المشهور، المحفوف بالدّكاكين والمطاعم، لاحظتُ خياماً كبيرة من القماش الأحمر المُطرّز: إنّها فضاءات جنائزيّة؛ تُنصَبُ كي يوضَع فيها تابوت الميّت حيثُ سيُستَقبَل أصحابه وعائلته. في هذا الحيّ، كلّ الشّوارع لها صبغة القرون الوُسطى؛ يُعتَقَدُ أنك في قرية كبيرة أكثر ممّا يُعتَقَدُ أنك في عاصمة؛ أطفالٌ محشورون وسط الدّجاج والبطّ: كان العيدُ على الأبواب، فكانت الخرفان مربوطة على حافّة الدّكاكين، في انتظار التّضحية بها؛ كانت تنتمي إلى نوع مُوَحّد حيثُ ذيولها الطّويلة تتدلّى بين ساقيْها حتّى لكأنّها ستبلغ خرطوم الفيل طولاً. من بعيد، نصادف قطيع إوزّ، بقرة. كانت الطّرقات ضيّقة؛ وكان بروز الواجهات يصل أحياناً مائلاً إلى الأمام على نحو يغطّي معه الرّصيف بالكامل. في الأسواق كانت تُباعُ حليّ مُقلّدة على جواهر الملكة نفرتيتي: عقود، أقراط، مشابك، أساور من الذّهب والفضّة، وأحياناً مُزخرفة بخرز من كلّ الألوان. وأيضاً مُربّعات قماشيّة طُرّز عليها جِمالٌ وأحمرة ونخل وأهرام. الشّارع المشهور في القاهرة الذي ألهم الكُتّابَ: نهج قديم مسقوف، مُغلق ببابَيْن، مُجهّز بطاولات صغيرة وكراس. كان مليئا بالرّفوف والملابس التّقليديّة من كلّ الأصناف ومليئاً خاصّة بالمرايا، مكسورة بصورة مُفتعلة ومُزيّنة ومصقولة. يجتمع

المُفكّرون هنا حُبّاً بالمكان. ينامُ المدير من الصّباح حتّى المساء، مُمدّداً على كنبة قديمة مخفيّاً جيّداً تحت الأغطية حتّى أنّ ليليان روت لنا أنّها جلست فوق أحدهم ذات مرّة. صعدنا إلى القلعة من حيثُ كانت الإطلالة رائعة على المدينة ومآذنها التي لا تُحصى.

لم يبقَ من الأسوار غير الأبواب المنيعة. لكنّ المعالم الأهمّ في القاهرة هي المساجد. أحببْتُ مسجد السّلطان حسن، صومعته ذات الشّرفات الثّلاث، الدّرج المهيب الذي يصعد باباً هائلاً، الدّاخل المتناسق حيثُ تتدلّى من السّقف سبعون سلسلة فوانيس. (نُقلت من المتحف العربي) في جامع الأزهر، كان الطّلبة جالسين في شكل حلقات حول أساتذة اللاّهوت: نهضوا ليُصافحوا سارتر.

وإن كان الدّكتور عوض قد شرح لنا أنّ المصريّين ليسوا عرباً، فإنّ اختلاطهم بالعرب لم يؤثّر قطُّ في السُكّان الأصليّين، تركت الحضارة العربيّة في مصر، عديد المعالم عدا المساجد. في أحد المتاحف، جُمِع خشب منقوش، مُزخرف، نحاس، ومجموعة غنيّة من السيراميك، وأخرى من الطّين، الخزف، السجّاد، المصابيح، التُّحف. يوجد أيضاً منزل جميل جدّاً، مليء بالأثاث والتّحف العربيّة والحرير والزّجاج والحجارة الكريمة؛ كان الطّابق العُلويّ مُخصّصا للنّساء من حيثُ كان بإمكانهنّ الإطلالة من خلال «المشرّبيّة» على الحفلات التي تدور في صالون الطّابق الأرضي.

الرّكن الأكثر قِدَما في المدينة هو قصر الشّامة، حصنُ «الشّمعدان» La chandelle، الذي يُطلقُ عليه أيضاً اسم «الدير المسيحي»؛ كان محوطاً بالأسوار بالكامل، للزّائر أن يدخل من كُوّة في الجدار بين قلعَتَيْن. في الدّاخل يوجد المتحف القبطي الذي يعرض أجمل مُجسّمات الفنّ المسيحي الأوّل، من بينها رسوم وأقنعة من الفيّوم. اجتمعت في هذا الفضاء المُغلق كلّ الكنائس القبطيّة للمدينة تقريباً. أطلعونا على سرداب سان-سيرج، المكان الذي آوى العائلة المُقدّسة، خلال الهرب إلى مصر. زرنا أيضاً بالجوار كنيسة بن عزرا، التي شُيّدت حيثُ رأى موسى الشّجرة الساطعة.

لم يشدّني شيء في القاهرة مثلما شدّتني مدينة الأموات. إنّها مدينة حقيقيّة، تمرّ منها الأوتوبيسات؛ لكنّ المنازل كانت تحتوي فقط على حجرة واحدة، حيثُ يجتمع أهل الميت وأصحابه، وساحة يُسجّى فيها. وبما أنّ السّكن كان نادراً وباهظاً فإنّ بعض العائلات - أهل أو حُرّاس - كانوا يقطنون هذه القبور المُشيّدة. من خلال الطّرقات المُقفرة والصّامتة كنّا نرى من بعيد ملابس تجفّ، طفلاً، كلباً، دجاجة. يبدو أنّ في بعض اللّيالي تصبح هذه المدينة مُزعجة حقّاً. مجموعات يأتون لحراسة موتاهم؛ يأكلون ويُصلّون؛ نسمعُ في الظّلام همساً ووشوشة.

على متن طائرة صغيرة خُصّصت لنا، تحوّلنا إلى الأقصر حيثُ الآثار القديمة لطيبة القديمة. رافقتنا مجموعة من الصّحافيّين والمُصوّرين. عندما حلّق صالوننا الطّائر، رأيتُ بعيْنَيَّ المشهد الذي طالما تخيّلتُه في طفولتي: صحراء هائلة تتوسّطها واحات خضراء، إنّها الضّيعات التي أخصبها النّيل.

نزلنا في فندق عصري، مُحاذٍ لـ«ونتر بالاس» Wenter Palace القديم، ذي السّحر المتجاوز للسّنين، حيثُ كان الإنجليز يأتون إليه فيما مضى ليُدفّئوا عظامهم. بين النّيل وبيننا يمتدّ شارع مزروع بالنّخيل تربض فيه العربات؛ طلبة يجلسون على العشب أو تحت الأشجار يقرؤون أو يكتبون. كان النّهرُ عريضاً وهادئاً، كانت زوارق شراعيّة تشقّه بين الحين والآخر. من الضفّة الأخرى رأيتُ منظراً طبيعيّاً جافّاً ووعراً. بدا لي هذا السّلامُ مريحاً بعد اضطرابات القاهرة. كانت الشّمسُ ساطعة لكنّ الطقس لم يكن حارّاً.

قريباً من النّزل يقف معبد أمينوفيس الثاني الذي زُرناه والذي كان مُذهلاً. ثمّ عند مغيب الشّمس أخذْنا مركباً وأبحرنا في النّيل متأمّلين أضواء الضفّة المتألّقة. بعد العشاء - مبالغاً فيه كالعادة - صحبنا عالم آثار، بمعروف خاصّ، على متن العربة لرؤية القمر فوق معبد الكرنك. أدهشني اتّساعُه أوّلاً: لم يكفّ المهندسون عن توسيعه وتعقيده مدّة ألفَيْ سنة. إنّه المبنى الأكبر ذي الأعمدة في العالم. نتوه في غابة الأعمدة تلك؛

فجأة نتراجع أمام كاهن من الجرانيت الوردي، أمام تمثال ضخم. ذُهلتُ بالأقواس التي في شكل أوراق البردي. قطعنا ساحات، وردهات، وسط عتمة تخترقها من حين إلى آخر إطلالة القمر من بعيد. ركبنا العربة وأحببتُ في رقّة عذوبة اللّيل الاستماع إلى وقع حوافر الخيول على الطّريق.

عدنا إلى الكرنك في اليوم التالي آخر النّهار. سِرنا على طول الممشى المحفوف بالكباش المؤدّي إلى المعبد والذي كان جزءًا من طريق طويل كان يربط فيما مضى بين الأقصر والكرنك. وبواسطة الزّوارق كان الإله آمون يُنقَلُ كل بداية سنة جديدة، من معبد إلى آخر؛ في عمق معبد الكرنك كان مُصلّى من الجرانيت حيثُ ترتاحُ القوارب المُقدّسة؛ إنّها منقوشة على واحد من الكتابات الجداريّة التي تُزخرف الجدران. لم نكن قد رأيناها بالأمس، وتأمّلناها طويلاً. إنّها تروي قصة المعارك والانتصارات التي خاضها سيتي الأوّل Séthi 1 وابنه رمسيس الثاني. كانت رهافة الذّوق التي رُسمت بها المنقوشات والمنحوتات. وكانت رقّة النّقوش والمنحوتات متناقضة بشكل بديع، مع ضخامة المبنى، والطّابع الثّقيل للهندسة. الأعمدة الأسطوانيّة، الدّعامات المائلة، كانت جميعُها مُغطّاة من فوق إلى أسفل بوجوه الآلهة والرّسوم الرّمزيّة. تمتدّ في فضاء المعبد بحيرة مُقدّسة؛ قام على إحدى ضفافها مقهى، احتسينا فيه كأساً.

صباحاً، قطعنا النّيل على متن مركب كُسيَت كراسيه بأقمشة مطبوعة على الطّراز الفرعوني. كان الطّقسُ حارّاً: وضع سارتر ولانزمان وعلي ولطفي على رؤوسهم قُبّعات قماشيّة فبدوا كرعاة بقر مُزيّفين. رافقنا عالم آثار بقبّعة رياضيّة ونظّارتَيْن سوداوَيْن. أقلّتنا سيّارة إلى معبد دير-البحري المُشيّد من قبل الملكة حتشبسوت. كان المبنى ذو الشّرفات المتطابقة، مُهدّماً ومُرمّماً كثيراً، لكنّ النّقوش التي عليها كانت على غاية من الأهمّية. غالباً ما تُرسَم الملكة على الجدران على شكل وجه رجل. إنّها تُجلُّ خصوصاً البقرة «هاتور» التي تختصّ بمُصلّى داخل المعبد؛ ثمّة كتابة تظهر البقرة وهي تُرضِعُ الملكةِ. كتابة أخرى على الجدار تروي بالألوان،

الرّحلة، المسالمة دون شكّ، التي أخذتها إلى بلاد پونت أي الصّومال. أخرى تروي فترة شبابها والحفلات التي أقيمت على شرفها. معبد ظلّ سليماً بالكامل، ذو سقف أزرق مرشوش بالنّجوم، خُصِّص لـ «أنوبيس». أذكر النّقوش التي تتحدّث عن حورس على شكل عصفور والتي استطعنا أن نجد أوجه شبه بينها وبين أعمالٍ لـ «برانكوسي» Brancusi. أخت وزوجة تحتموس الثّاني، ابن زوجها، تحوتموس الثّالث - والذي كانت أيضاً عمّته ووصيّته - عندما خلفها محا اسمها وجميع رسومها من المعبد.

ثمّ بعد ذلك، زُرنا مقبرة «الشّيخ عبد القرنة»، الواقعة على تلّة؛ من بعيد بدت على فتحات القبور بُقعٌ سوداء تلطّخ الجدار الحجري. إنّها مقبرة موظّفي طيبة السّامين خلال حكم العائلة الثّامنة عشرة. لم أطل تأمّل ثراء اللّوحات والكتابة الجداريّة التي تخلّد فترة حكمهم. دخلنا قبر «خاميت»، كاتب تعهّد مخازن أمينوفيس الثالث للحبوب. كان يحتوي على ستّة تماثيل للميّت، زوجته، وبعض من عائلته. نراه على الجدار يعرض على الملك حساباته. على واجهة أخرى رُسم مشهد من الحياة الريفيّة. كان «منّا» Menna، أيضاً ناسخاً مُهمّاً في تلك الحقبة. بعض اللّوحات بالألوان تُظهره وهو يحمل قرابين لأوزوريس. البعضُ الآخر، كان يُظهر أشغالاً زراعيّة، ومعاينة المحاصيل. في قبر «بيخامرا» حاكم طيبة، نرى أناساً غريبين، ذوي بدلات وقصّات شعر غير مألوفة، يحملون إليه الضّرائب. نرى أيضاً مشاهد مُختلفة عن الحياة والطّقوس الجنائزية، التي كانت مومياء الميّت تحضرها. في وادي الملوك، كان أهمّ قبر هو قبر سيتي الأوّل. كي نصل إليه كان علينا النّزول عبر سلالم متتالية. ممرٌّ يؤدّي إلى قاعة صغيرة، بئر محفورة لتضليل اللّصوص: فقد كان اللّصوص عادة يدخلون السّرداب عبر الآبار. في الواقع، كان صدعاً مخفيّاً ببراعة هو الذي يُفتَحُ على صالة تُفضي إلى متاهة سلالم وأروقة، تفتح على غرف أخرى. كلّ الأسقف كانت مطليّة. والجدران مكسُوّة بالكتابة، والرّسوم والمُخطّطات. نرى من بينها، مثلاً، خمسة وسبعين

تصوُّراً للشّمس؛ الملك، أوزوريس، آلهة أخرى، شعب الأرض؛ زوارق شمسيّة. كان كلّ ذلك له وحده وهي حقّاً بمنزلة متحف فريد من نوعه. أدهشني قبر توت عنخ آمون بضيقه: عندما تمّ اكتشافُه، كانت الكنوز التي نُقلت إلى متحف القاهرة مُكوّمة أحدها فوق الآخر. ظلّت الكنوز سليمة لأنّ محاولة سرقة محاذية له فشلت من قبل، وكان بفضل ذلك أن ردمت الأنقاضُ مدخل القبر.

ذُهلتُ وأنا أرى حضارة كاملة تمرّ أمام عيني خلال فترة صباحيّة واحدة: حروبها واحتفالاتها المُقدّسة، طقوسها الوثنيّة، أعمالها، حياتها اليوميّة. أرى وجوه نساء يتبعن جنازة باكيات بحرقة؛ راقصات، عازفات تضعن على رؤوسهنّ أكاليل مُعطّرة. في بعض الحقبات، كانت الرّسوم أكاديميّة. لكن في أغلبها كانت رسوماً كهنوتيّة وحيّة ومُلوّنة بألوان صريحة مرهفة. يجب أن تُشاهد هذه الأعمالُ مرّات ومرّات، إنّها تُحفٌ فنّية نفيسة ذات قيمة عالية عابرة للعصور وجديرة بالتّوثيق.

لدى عودتنا، رأينا، وسط أحد البراري حيث تمرّ القطعان، تماثيل ممنون التي تُجسّد أمينوفيس الثّالث: بقاعدتها الضّخمة كان يبلغ طول الواحدة بناية ذات ستّة طوابق. تصدّعت جرّاء زلزال، أحدها كان يُغنّي كلّما وُلد نهارٌ جديد. لكنّ «سبتيم سيفير» Septime Sévère أصلحه ومنذ ذلك اليوم وهو صامت. تقف تلك التّماثيل العملاقة عند مدخل معبد أصبح اليوم مُدمّراً.

في اليوم التالي، طِرنا فوق النّيل وسدّ أسوان العتيق؛ دعانا القائد إلى قمرته كي نتمكّن من رؤية السدّ بشكل أفضل، ثمّ نزلنا بالقرب منه.

لدى وصولنا إلى المطار، لمحنا نساءً يلبسن فساتين وخُمُراً سوداء مُطرّزة ولامعة. أهدينا سلالاً مليئة بالتمر والبندق. صحبنا أحد المُكلّفين بالعلاقات العامّة إلى مواقع البناء؛ تجوّلنا في السيّارة وعلى الأقدام شارحاً لنا الأشغال. لم يكن السدّ قد اكتمل لكن سُمح له بريّ جزء كبير من الصّحراء. وسط الضّجيج، رأينا الجرّافات تتنقّل من مكان إلى آخر،

رافعات وشاحنات وعُمّالاً. شاهدنا تدشين هذا الإنجاز الضّخم في فِيلم عُرِضَ علينا مساءً. نعرف أنّ رفض الولايات المُتّحدة، تمويل المشروع أدّى إلى قرار تأميم قناة السّويس - أخذه الاتّحاد السوفيتي على عاتقه. حضر خروتشيف الاحتفاليّة جنباً إلى جنب مع ناصر. شيّد فريقا عُمّال الهيكل الرّئيس للسدّ، الأول انطلق من يمين النّهر والآخر من اليسار؛ رأيناهم يلتقون وسط القناة ويتصافحون: انفجرت احتفالات كبيرة في مصر اعتزازاً بالإنجاز. كانوا سعداء وفخورين لأنّهم حقّقوا لبلادهم رخاء جديداً. كانوا يعرفون أنَّ الخزّان العملاق الذي سُمِّيَ *بحيرة ناصر* ستسمح بريّ الأراضي القاحلة حتّى ذلك التّاريخ وأنّها ستكفل لهم الكهرباء اللّازمة للصّناعة.

مثلما هو الشّأن في الأقصر، فإنّ نزلنا كان عصرياً وقد شُيّد بجوار نزل «كاتاراكت هوتيل» العجوز، على منحدر بعيد عن المدينة مُشرف على النّيل. كانت هناك صخورٌ تبرز من الماء السّاخن وكانت تُسمّى العُيون. عند المصبّ كان النّهر هادئاً وكانت المراكب ذات الأشرعة البيضاء المنتفخة تتقدّم ببطء فوق المياه. كانت الشّمسُ ساطعة. أقلّنا مركب إلى جزيرة صغيرة مكسُوّة بالبساتين الاستوائيّة الآسرة. لمحنا الجزء العُلويّ من معبد الفيَلة: غرقت الجزيرة التي يقف فوقها المعبد منذ أوّل بناء للسدّ.

ضيعة النوبة أصبحت مغمورة في الوقت الحالي. في شريط بالألوان، رأينا القرى الجميلة والمنازل البيضاء المُزخرفة بطلاء جلبه الأهالي من أماكن غمرتها المياه. أعرف، أنّه بمبادرة من اليونسكو، اجتهد مهندسون من جميع أقطار العالم لإنقاذ معابد أبو سنبل وانتابتني رغبة كبيرة في رؤيتها. كانت رحلة مُضنية وطويلة على متن مركب المحرّك الذي يستقلّه السيّاح عادة. لكنّ وزير الثّقافة رتّب الأمور على نحو يُسمَحُ فيه بأن تأخذنا طائرة المُهندسين. بالكاد كان هناك مكان للطيّار وثلاثة رُكّاب مرافقين: سارتر، لانزمان وأنا. انطلقنا صباحاً. حلّقنا، مدّة ساعة، فوق صحراء ذات رمال بيضاء وصفراء تبرز منها هنا وهناك حجارة سوداء:

ذكّرني ذلك ببعض مناظر جبار هوقار Hoggar. ثمّ حاذينا النّيل، الذي بدا الآن، بحيرة عظيمة زرقاء صافية. لامسنا النّهر تقريباً. كنّا من بعيد، نلمح قمم النّخيل المغمور، وعلى ضفاف الماء منازل مُهملة ستغمرها المياه قريباً، لأنّ مُستوى الخزّان آخذ بالارتفاع.

كان عالم آثار في انتظارنا في المطار، كان بصحبته مهندس ألماني، هوشتييف، الذي كان يُدير الأشغال. من بين المشاريع المُقترحة سنة 1959، وحده المشروع السويدي حاز على الإنجاز بمشاركة فريق عالمي. يتمثّل المشروع في تجزئة المعابد ليتمّ بعد ذلك تجميعها أعلى الهضبة. أطلعونا أوّلاً على مكانها البدائي، والطّريق المفاجئ الوعر الذي كان عليهم اتّخاذه لنقل الأجزاء المُقتطعة مسافة خمسين متراً نحو الأعلى. على المنصّة، كانت هناك كُتل مُرقّمة ترقد تحت حضيرة أشغال مُغطّاة. ستكون المعابد مُشيّدة في غضون سنتَيْن، قال لنا هوشتييف، أكبر المعابد سيكون، كعهده في الماضي، على ضفاف الماء بما أنّه سيصل إلى قمّة المنحدر. بدا كأنّه تامّ. عند المدخل تقف أربعة تماثيل عملاقة لرمسيس الثاني؛ مُطوّقة بتماثيل صغيرة جدّاً، تُجسّد الأمّ والزّوجة وبنات الفرعون. أعلى الواجهة يجلس اثنان وعشرون قرداً. الإله رع، برأس الصّقر، كان هو أيضاً بهيئته الضّخمة واقفاً عند البوّابة. كانت مجموعة مهيبة ومنسجمة في آن. استطعنا رؤية اللّوحات والكتابة الجداريّة رغم السّقالات التي تملأ القاعات الدّاخليّة؛ إنّها مشاهدُ عسكريّة تروي حروب رمسيس الثاني: من بينها المعركة التي انتصر فيها على الحيثيّين. سيرتكز المعبد على منحدر اصطناعي: سيُشبه الموقع ما كان عليه فيما مضى.

تقف ستّة أعمدة أمام المعبد المُخصّص لـ «هاثور» Hathor: مُجسّداً رمسيس الثاني وزوجته نفرتيتي. أُشير إلى أبنائه بتماثيل أصغر. كان الدّاخلُ مُزوّقاً مثل الكتابة الجداريّة.

ألقينا نظرة على الموقع حيثُ العُمّالُ وهوشتييف الذي دعانا لاحتساء كأس في بيته. جلسنا في الشّرفة وأطلعنا على مزيد من تفاصيل الأشغال

الجارية. كان النّيلُ تحتنا يجري بجرأة بين المنحدرات ذوات القمم المدبّبة: كان في وسعي أن أمكث ساعات وأنا أراقبه. كان علينا الصّعود إلى الطّائرة. كانت العودة أكثر جمالاً لأنّنا تبعنا مجرى النّيل من الطّرف إلى الطّرف.

كانت آخر أهمّ زيارة قمنا بها لمصر القديمة. رأينا على مقربة من أسوان مصنعاً للموادّ الكيماويّة. من القاهرة تحوّلنا إلى حلوان حيث شُيّد مُجمّع صناعي للحديد والفولاذ. رأينا صبّ الحديد المُنصهر، المطرقة والسّندان، الآلات التي كانت تُشكّل الحديد السّاخن، وأخرى تُهذّب القطع من كلّ الشّوائب العالقة بها. كانوا بصدد إنشاء مبانٍ جديدة، أكثر اتّساعاً من الأولى. إنّها أول الإنجازات الصّناعيّة المصريّة الكُبرى. لم تكن عمليّة مربحة حتّى ذلك الوقت، لأنّ كلفة القطع المصنوعة عالية جدّاً.

أراد أصدقاؤنا إطلاعنا على النّتائج التي تمّ الحصول عليها في منطقة دلتا النّيل بفضل ريّ الصّحراء. صحبونا إلى الإسكندريّة في السيّارة. تناولنا الغداء في نزل كبير وحزين، على ضفاف بحيرة: حولنا امتدّ متنزّه «المنطرح» Montarah حيثُ قصر الملك فاروق القديم؛ تحوّلت هذه الفيلا البشعة ذات الطّوابق الثّلاثة إلى متحف. تبعنا الكورنيش. كانت أغلب البيوت مُغلقة لأنّ الناس يسكنونها في الصّيف. تجوّلنا في شوارع آهلة، دون خاصّية مُعيّنة. حول أحد المساجد، كان هناك احتفالٌ تنقُصُه البهجة. بعد العشاء، رحنا لمشاهدة عروض رقص بالبطن في كاباريه. كان شُبّانٌ شُقر يرمقون الرّاقصة بنظراتٍ مُخدّرة: كانوا جنودًا من الأمم المُتّحدة. رقصت امرأتان بشكل رائع. اليوم، أصبح القانون يمنع البطن العارية، فوضعتا حريراً شفّافاً. لم يكن العرضُ يشبه التقليد المُزيّف الذي كنتُ قد رأيتُه؛ كان تجريديّاً مثل الفلامنكو تماماً؛ ثمّ إنّ طرافته تقنيّة بحتة؛ فعلى الرّاقصة أن تتحكّم في كلّ عضلة على حِدة إلى درجة أنّ الجسد يكون ثابتاً تقريبا فيما ترتعش الكتفان وينتفض البطن. إنّه تمرين صعب للغاية؛ عندما توقّفتا كانتا مُبلّلتيْن بالعرق وتبدوان منهكتين.

غادرنا الإسكندريّة في اليوم الموالي عبر طريق الصّحراء. تجاوزنا

المُستنقعات التي وصفها «دوريل» في بداية روايته جوستين *Justine*. (وهو المقطع الوحيد الذي أعجبني في الكتاب). قديماً كانت تمتدّ في هذا المكان بحيرة يُشارُ إليها بـ «سترابون» Strabon، «فيرجيل» Virgile، «حورَس» Horace. كانت لا تزال موجودة في القرن التّاسع عشر وإن بجزء جافّ. أُغلقت اليوم بسدّ هدّمه الإنجليز سنة 1801 لأسباب استراتيجية: أغرقت المياه مساحات شاسعة. عزمت الحكومة على إعادته منذ سنوات. فسّر لنا أحد الفلّاحين طريقة الإصلاح. من الجهة الأخرى للسّبخة كانت هناك أراضٍ صحراويّة، نجح المصريّون في تخصيبها وتحويلها إلى أراضٍ زراعيّة. لكن فقط، في منطقة اسمُها التّحرير، تحقّقت النّتائج الأهم. بفضل سدّ أسوان، تمّ التحكّم في تدفّق نهر النّيل؛ وحُفرت شبكة قنوات حوّلت قسماً كبيراً من الماء إلى فروع. أطلعونا، في مركز لإدارة الأشغال، على مُسجّم لنظام الريّ الجديد؛ رأينا القنوات الرّئيسة. ثمّ رافقنا جنرال. قطعنا في حافلة صغيرة، كيلومترات من الطّرقات المُستقيمة تتقاطع في زاوية قائمة. حقول قمح وشعير خضراء من الجهتيْن: سيكون الصّيف موعد حصادها. رأينا، أيضاً، بساتين أشجار مُثمرة مزروعة مغروسة حديثاً. كان الجيشُ هو الذي يزرع هذه الأراضي ويعتني بها لأنّ السُكّان لم يرضوا بإخلاء قراهم؛ لكن يُتَوَقَّعُ أن تصبح تلك الأراضي مأهولة حالما يتمّ تأهيل منازل صالحة للسّكن. تعتزم الحكومة إنشاء العديد من التعاوُنيّات، والأفضل، ضيعات دُوليّة. على جانِبَيْ الطّريق اصطفّ جنود يُلوّحون بأعلام مصريّة وفرنسيّة. تكون الجولة التفقّديّة مُهمّة جدّاً في البداية، ثّم تصبح مُضجرة بفعل رتابتها؛ هذا ما فهمَه الفلّاح: طلب من السّائق العودة على أعقابه. انتاب الجنرال سُخط عنيف، وهدّده بإلقائه من السيّارة: كان في انتظارنا رجالٌ يحملون أعلاماً بين أيديهم، لم يكن بإمكاننا، على بعد كيلومترات، أن نحيّيهم. بعد نقاشات طويلة، تقرّر اختصار الرّحلة. أخذونا، إذًا، إلى مركز العمل الزّراعي: اصطفَّ العُمّالُ أيضاً في صفّيْن مررنا بينهما؛ كانوا يلوّحون بالأعلام هاتفين: يعيش سارتر! تعيش

سيمون! بعد فطور جمع ما يقارب الأربعين ضيفاً، قدّم لنا أحد المسؤولين ميداليّات. «قولوا للعالم أيَّ عمل نحنُ بصدد إنجازه»، قال لي ولسارتر. وقال للانزمان: «قُل لأعدائنا ولأصدقائنا أيَّ عملٍ نحنُ بصدد إنجازه». إنّها المرّة الأولى والأخيرة، خلال سفرنا، التي سيُلَمَّحُ له فيها بأنّه يهودي. كان يُعامَل مثلنا بنفس القدر من التّرحيب.

كنّا أيضاً محلَّ حفاوة منظّمة للغاية - وعفويّة أيضاً بنفس القدر - عندما زُرنا، بعد أيّام، قرية قمشيش؛ لقد أصبح مشهوراً بسبب مقاومته للإقطاعيّين. أقرّ الإصلاح الزّراعي الذي فرضه عبد النّاصر، ألّا يحوز أصحاب الأراضي المُسجّلة أكثر من خمسين هكتاراً. لكنّهم تلاعبوا بالقانون، مُسجّلين بقية الأرض لأفراد العائلة أو العُمّال أو الزّبائن؛ كان من الصّعب إبطال هذه الحيلة. أحد المُدرّسين في قمشيش، وكان قائد الاتّحاد الاشتراكي، وبمباركة من أصدقائه، استطاع أن يفضح مخالفة عائلة الـ «فقّي». أراد مُصادرة منازلهم لفائدة المصالح الاجتماعيّة للقرية. قُتِل في اللّيل في الطّريق. طالبت زوجتُه بالعدالة وتابعت نضال زوجها. أوقفت الحكومة عائلة الـ «فقّي» بالكامل. وأقرّت «لجنة مُصادرة الإقطاع» التي كشفت عن العديد من الحالات حيثُ عمد أصحاب الأملاك إلى قتل الفلّاحين؛ وانطلقت في القرى حملات ضدّ الإقطاع، مُتّخذين قمشيش نموذجاً. ذهبنا إلى قمشيش، يرافقنا الفريق المُعتاد وعُمدة الجهة. استقبلنا حشد هائل من النّاس. كانوا يرفعون اللّافتات. يعيش ناصر! ناصر حبيب الفلّاحين! وهتفوا ملء حناجرهم: «يعيش سارتر! تعيش سيمون!» وراحت مُدرّسة على نحو هستيري تنشد مجموعة ريفيّات يرتدين الأسود بأن يهتفن: «تعيش سيمون! تعيش سيمون!» إلّا أنّنا في الآن نفسه كنّا محلَّ تعجّب من قِبَل القرويّين. بالكاد استطاع الحُرّاسُ الشخصيّون أن يفسحوا لنا الطّريق كي نمرّ بينهم. أطلعونا على منازل من الطّوب بناها الريفيّون بأنفسهم. ثمّ دخلنا فناءً لا يسع سوى قسم من الحشد: حاول الآخرون اقتحام الباب الذي أُغلِق دونهم. كانت أرملة المُدرّس، امرأة

شابّة، سمراء، يبدو من ملامحها أنّها رقيقة وحيويّة. جلست بجانبنا على منصّة جمعتنا وإيّاها بالعُمدة وبعض المسؤولين. أهدت سارتر جلابيّة وأهدتني عقداً. كان لنا مع الجمهور حديث غير ذي أهمّية. أخذنا العُمدة وزوجته لتناول الغداء.

لم تقدّم لي تلك الزّيارة شيئاً عن أوضاع الفلّاحين. فما حدث هو أنّنا، ومدّة زيارتنا، لم نقترب منهم. لاحظنا فقط، أنّ القرى التي نقطعها في اتّجاه الأهرام كانت قرى فقيرة جدّاً. كانت المنازل من طين، وكانت الأبقار والجمالُ عجفاء؛ كانت النّساء، جميلات تحت الخمار الذي يحيطُ بوجوههن. كان التحدّي الأكبر أمام مصر، كي تحسّن مُستوى المعيشة هو أن تحدّ من تفاقم نسبة السُكّان. أطلق ناصر حملة لتحديد النّسل. رأيتُ مراكز رعاية أساسيّة مُتخصّصة. كانوا كثيرين. لكن ما من قرويّة كانت تقبل بتحديد النّسل قبل أن تُنجب خمسة أو ستّة أطفال. يعتبر الفلّاح بنيه أكبر ثروة يملكها؛ عندما يشيخ – وسيشيخ باكراً – فإنّه سيكون في حاجة إليهم لخدمة الأرض. ورغم غزو الصّحراء وتخصيبها فإنّ الأفواه التي على البلاد إطعامها كانت في ازدياد مُطّرد لا يسمَحُ بتحسين مُستوى العيش في الرّيف.

على صعيد آخر، ثمّة مشكلة أخرى أسيء التّعاملُ معها، إنّها قضيّة المرأة. كانت قاعدة تشريعات 1962 التي بنى عليها عبد الناصر نظامه، المُساواة بين الجنسَيْن. لكنّ التقاليد الإسلاميّة عارضت وهي الآن التي تَسود. التقيتُ في بداية إقامتي مناضلين مصريّين في قضايا المرأة: أطبّاء، مُحامين، صحافيّين؛ بينهم من كانت مُسنّة لكنّها حافظت على روح النّضال وهي الأولى التي حاربت الحجاب (نعلمُ أنّ هذه المعركة قد تكلّلت بالنّجاح) قبل حرب 14. قدّموا لي تفاصيل دقيقة. لم تكن الحقوق الاجتماعيّة والمدنيّة والاقتصاديّة متساوية بين الرّجل والمرأة. عندما يموت الأب، فإنّ البنت ترث جزءًا ضئيلاً جدّاً مقارنة بإخوتها. يصعبُ كثيراً على المرأة أن تحصل على الطّلاق فيما يحقّ للزّوج التخلّي

عنها دون إجراءات تقريباً. إنّ الهوّة عميقة جدّاً بينهما. نادرات هنّ النّساء العاملات خارج بيوتهنّ، وعادة لا يتمتّعن بنفس امتيازات الرّجال. قليلاً ما تخرج النّساء. لم أر امرأة واحدة من شرفة المقاهي في القاهرة. كان مُحدِّثِيَّ ساخطين على هذا الميز. طرحتُ هذه المسألة، عندما تحدّثتُ إلى طلبة جامعة الإسكندريّة في هذا الشّأن. حسب المشرّع، قلتُ، لن يكون هناك اشتراكيّة ما لم تكن النّساء جنباً إلى جنب مع الرّجل متساويات معه في الحق والواجب: «في حدود الشّريعة الإسلاميّة»، صرخت أصواتٌ رجاليّة. تناولتُ هذا الموضوع بالشّرح في مؤتمر قدّمتُه في القاهرة. اتّهمتُ المصريّين بالتّعامل مع النّساء مثل الإقطاعيّين، مُحتلّين وعُنصُريّين. برهنتُ بأنّ الذّرائع التي كانوا يتحجّجون بها هي ذاتها الحجج التي استخدمها المُحتلّون القدامى ضدّ مُستعمَراتهم: أدنتُ موقفهم باسم المعركة التي خاضوها هم أنفُسُهم لنيل استقلالهم. صفّقت النّساء الحاضرات بحماسٍ كبير. كان عديد من الرّجال مُستائين. لدى خروجي استوقفني رجلٌ مُسنّ؛ كان يُمسك في يده أطروحة كتبها عن القرآن: «عدم المساواة بين الرّجل والمرأة، إنّه الدّين، سيّدتي؛ إنّه مذكور في القرآن». تركتُه مع الصحافيّة التي كانت رائدة في مجال الدّفاع عن حقوق المرأة. جاءتني نساءٌ يشكرنني، أحياناً خلسة عن أزواجهنّ.

مع ذلك، كنّا نعرف زوجين يعيشان المساواة بتفاهم ويطالبان بها: لطفي وليليان الخولي. كانت ممثّلة عن جمعيّة من نساء مُتحرّرات قليلات العدد. كانت جميلة وأنيقة و«مُرهفة»، كانت تهتمّ بابنها وببيتها وبعملها أيضاً. كانت قبطيّة، أي مسيحيّة. فقدت الإيمان في سنّ الرّابعة عشرة خلال حجّ إلى الضّريح المُقدّس. أطلعتها امرأة متديّنة على الثّقب الذي زُرِع فيه الصّليب؛ في اللّحظة التي أدخلت فيها يدها بورع، غيّرت المُتديّنة رأيها: «بالمناسبة، أنتِ مسيحيّة رومانيّة أم أرتودوكسيّة؟ – أرتودوكسيّة. – إذًا، بالنّسبة إليك، هذا الثّقب»؛ ووجّهتها إلى آخر. اهتزّ كلّ شيء بالنّسبة إلى ليليان وكفّت عن الإيمان. لقد درست مُعمّقاً

وأرادت الذّهاب إلى باريس لتُعدّ للتّبريز في الفلسفة: منعها والدها من ذلك لأنّ الناس يُقبّلون بعضهم في الشّارع. كانت تجيد الفرنسيّة وتعرف الأدب الفرنسي جيّداً.

شاركنا في الكثير من الحوارات حول مشاكل مصر الرّاهنة. التقينا مُحرّري جريدة *الطّليعة*؛ وزير الثّقافة؛ علي صبري الذي كان يرأس الاتحاد الاشتراكي، الحزب الوحيد الذي كان ينتمي إليه المصريّون جميعا؛ ماركسيّين وشّخصيّات وطنيّة. أمامنا، لا أحد طرح موضوع الحزب الواحد، غياب الحياة النّقابيّة، القيادة السُلطَويّة. ما يشغلهم جميعاً، هي صعوبة التصدّي للإقطاع؛ الانفجار السُكّاني؛ وخاصّة، ظهور «طبقة جديدة» حلّت محلّ البورجوازيّة القديمة التي كانت هي نفسها مكوّنة من أناسٍ مُمَيّزين عن غيرهم. تأمّمت الصّناعة في قسم كبير منها، لكنّ الدّولة في حاجة إلى عدد كبير من الإطارات والتقنيّين الذين ستُضطَرُّ لتدفع لهم أجوراً عالية كي تسير أعمالها. كلّما كَبُر البلد كَبُر عدد الانتهازيّين الذين يجب تحمّلهم لحاجة الدّولة إليهم. هذه الفئة مُكوّنة من بورجوازيّين مُستقلّين أو مُساهمين.

عند نهاية إقامتنا، استقبلنا ناصر في فيلته بهيليوپوليس Héliopolis. رافقنا لانزمان، عليّ، وهيكل. دار الحوارُ في صالون كبير، ثلاث ساعات قُدّمت لنا فيها عصائر الفواكه. لم يكن لناصر ابتسامة «الأسنان البيضاء» التي تنسبها إليه الصّحافة المُغرضة؛ كان في وجهه وصوته سحر مُخمليّ، كان حريناً نوعاً ما. يبدو أنّ صداقته بهيكل تعود إلى هذا التناقض في الطّبائع، هذا طافحٌ بالحيويّة والبهجة والآخر قلق ومنطوٍ على نفسه. كان يسمعُ بانتباه ويتكلّم بهدوء غير مُتعجّل، منتقياً كلماته بعناية. سألته عن أوضاع المرأة في مصر. كان في صفّ المرأة؛ درست إحدى بناته مُعمّقاً وهو من شجّعها على ذلك. عندما خضنا في محور التّشريع التي تدعو إلى المساواة بين الجنسَيْن، اعترض أحدهم: «أن يكون لكلّ امرأة حقُّ الزّواج بأربعة رجال، مثلاً؟» أجاب بأنّ الإسلام قد نزل في مجتمع يمارس تعدّد

الزّوجات وأنّ القرآن أبعد من أن يكون قد جاء بها وحاول تحويلها إلى أمر مُستحيل بالنّظر إلى الشّروط العديدة التي فرضها. أمّا بالنّسبة إليه، فإنّه يتمنّى زواله. كان مؤمناً بالله، أضاف؛ أمّا الدّين فقد كان موجوداً في كامل محطّات مسيرته. ذكر سارتر الثّمانية عشر شخصاً في السّجون؛ طلب إن كان ممكناً تعجيل محاكمتهم. ابتسم ناصر الذي كان على علم بالموضوع بفضل هيكل: «محاكمة أنا أريد ذلك. لكنّهم مُهدّدون بعشر سنوات سجن. فكرتنا هي أن نحتفظ بهم بعض الوقت، ثمّ إطلاق سراحهم دون ضجّة. – طبعاً سيكون ذلك أفضل حلّ»، قال سارتر. عند نهاية المقابلة، طرح سارتر قضية فلسطين. «لا سبيل لتؤوي الدّول العربيّة اللّاجئين، قال ناصر. – لكن، ماذا لو أنّ إسرائيل آوتهم، هل تعترفون بإسرائيل. – بمليونَين ومئتيْ ألف فلسطيني، فإنّ إسرائيل لن تكون إسرائيل، قال ناصر غاضباً. من المُستحيل أن يقبلوا. – ماذا إذًا؟ – ماذا؟ قال ناصر بنبرة قلقة. الحرب؟ صعب!» لم يكن يبدو أنّه مُستعدّ لخوض مغامرة مماثلة.

منذ بداية رحلتنا، وهو على دراية بأنّنا عازمون على زيارة مُخيّم اللّاجئين في غزّة. ركبنا طائرتنا بصحبة الفريق المرافق لنا، وحلّقنا فوق الصّحراء: امتدّت تحتنا طريق مُعبّدة مُستقيمة لامعة، إنّه الطّريق الوحيد الذي يقطع الصّحراء. حلّقنا فوق الإسماعيليّة عن قرب، قناة السّويس، ضفافه، المراكب، البحيرات المرّة. اهتزّت الطّائرة بفعل ريح قويّة. مال لون وجه لطفي إلى الأخضر، وأحسستُ بالغثيان عندما وصلنا إلى العريش. دعانا زوجان فلسطينيّان يقيمان في لبنان منذ فترة طويلة، إلى سيّارتهما وعبرنا مناظر طبيعيّة صحراويّة جميلة. من بعيد، نلمحُ بين الصّخور خياماً لبدويّين وبدويّات يلبسن الأسود مكسُوّات بالحليّ. توقّفت السيّارة على حدود منطقة غزّة. قبل المغادرة مدّونا بأعلام «لجبهة التحرير الفلسطينيّة».

كان المُخيّم الذي زُرناه في غزّة قرية بائسة للغاية. كان من المزعج التجوّل في طرقاتها وخلفنا فريق يسير وراءنـا: مرافقون مصريّون

للحراسة، وزعماء فلسطينيّون. أدخلونا إلى الثّكنة المهجورة القديمة حيثُ اجتمعت عائلات في ملاجئ أكثر ضيقاً وعراءً. حدّثنا رجالٌ ونساء عن رغبتهم في العودة إلى ديارهم في الأراضي المُحتلّة. في الشّارع، سألنا أطفالاً: أحدهم كان يرغب في أن يُصبح طبيباً عندما يكبر، والآخر جنديّاً. كان مرافقونا مُشفقين على أوضاع الأهالي، لكن بشكل غير مفهوم؛ لكن أليسوا مسؤولين عن ذلك في جزء ما؟ هل كانوا يحسنون التصرّف في المعونات المُهمّة التي كانت تُقدّمها منظّمة الإغاثة الدّوليّة المُوجّهة للشّرق الأوسط؟ لم تكن الأرض ما ينقص. لماذا لم يتمّ تشجيع اللّاجئين على بناء مساكن مثلما كان يفعل سُكّان قمشيش؟ طرحتُ هذه الأسئلة خلال الاجتماع الذي التأم في بيت حوشي، الجنرال المصري الذي يحكم قطاع غزّة، وبحضور مائة ضيف؛ تساءلتُ أيضاً لمَ كلُّ هذه الأطعمة: كانت شهيّتي مقطوعة.

قادونا إلى الحدود. لمحنا العلم الإسرائيلي من بعيد والقبّعات الزّرق في الأرض الخالية من السُكّان التي تفصل الدّولَتَيْن. زُرنا مدرسة، ورشة نسيج، مؤسّسة لإيواء الأطفال الفلسطينيّين الذين فقدوا آباءهم في الحرب مع إسرائيل. كان الأطفال يرتدون الزيّ الوطني، أنشدوا، ترافقهم آلة البوق، أغنية حربيّة، تتمحور حول العودة إلى الوطن. مقاهٍ كثيرة في غزّة تُسمّى «مقهى العودة».

كان الضّيوف أكثر في العشاء وكانت الأطعمة مهولة. همست ليليان مُتضايقة: «كلّ هذا والعائلات تموت جوعاً في الجوار!» ثمّ اجتمع كلّ الحاضرين في صالة كبيرة وانطلق حوارٌ بين سارتر والقادة الفلسطينيّين. سألهم، عن الأوضاع لو أنّ الدّول العربيّة خرجت منتصرة من حرب على إسرائيل. حسناً! سنطرد الإسرائيليّين إلى بلدانهم، إلّا مواطني الدّول العربيّة فلديهم الحقّ في البقاء. كانت إبادة اليهود من قِبَل النازيّين جريمة، لكن لا يصحّ إصلاح جريمة بأخرى «أكبر» قال أحد مُساعدي «شقيري». أضاف دون دراية بالعواقب، لن نتردّد في إشعال حرب عالميّة أخرى كي

تقوم العدالة. كان النّقاشُ متوتّراً لأنّ سارتر أراد إيجاد طريقة تكفل عودة الفلسطينيّين إلى بيوتهم وحقّ إسرائيل في أن توجد: ربّما تمّ توزيع عودة اللّاجئين على سنوات، مثلاً. لكنّ الفلسطينيّين كانوا يطالبون بأن ترحل إسرائيل عن فلسطين المُحتَلّة. كان غضبهم وحقدُهم نزيهين وصادقين دون شكّ، لكنّهم كانوا يعبّرون عنه بجُمل مثيرة للشّفقة وضمن قوالب جاهزة لا تصل إلى نتيجة. أخيراً ختم سارتر: «سأنقل إلى باريس ما سمعتُه هنا من مواقف. – هذا لا يكفي، قال أحد محاورينا بسُخط. تمنّينا لو أنّك شاطرتنا موقفنا».

انزعج لطفي وليليان من عنف القادة الفلسطينيّين وعدم ركونهم إلى المنطق. إنّهما مثلنا، يجدان الوضع في غزّة لا يُحتَمَل. كنّا مقتنعين بحقيقة وخطورة الأزمة. لكنّ البروباغندا المُلحّة التي اصطدمنا بها أثارت غضبنا. وبدا أنّ الزّعماء الذين استقبلونا بلباقة كبيرة، يعيشون عالماً لفظيّاً بامتياز، بعيداً عن فاقة الحشد (بعد حرب الأيّام السّتّة، فقد هؤلاء القادة وشقيري معاً تأثيرهم في نفس الوقت. كان القادة الجُدد من طينة مختلفة تماماً).

في اليوم التالي صباحاً، قمنا بجولة في غزّة؛ يوحي السّوق والشّارع التّجاري بالفقر. بعد السّير بمحاذاة البحر، اقترح السّائق أن يأخذنا إلى حيّ شعبي. في الواقع، كان مخيماً آخر للّاجئين، بدا واضحاً أنّه أقلّ حرماناً من الأوّل. كان هناك أكوام من البرتقال على قارعة الطّريق. نزلنا من السيّارة. أوقفت ليليان امرأة وحدّثتها: كانت مثلنا راغبة في فتح حوارات حرّة، مع شخص لا يرزح تحت أيّ نوع من الضّغوط. مؤكّد أنّ اللّاجئين يكرهون إسرائيل. لكن ما رأيهم في مسؤوليهم؟ ما الذي يقدّمه لهم هؤلاء من مساعدة؟ كيف يعيشون يومهم؟ بالكاد سمعت منها كلمات حتّى لمحنا مُراقبين يأتون بسرعة نحونا. لم تتمكّن المرأة من إفادتكم، ما قالته هذه المرأة لا معنى له، هتف هؤلاء. لم نُلحَّ، لكنّ قلقنا ازداد. جاءنا انطباع بأنّ بؤس اللّاجئين بالأمس وشكواهم وأنينهم كانت مُوَجّهة. يظلُّ ذلك بلا فائدة ما دامت الأزمة متواصلة بأكملها، حتّى لو كانوا يأكلون

البرتقال من حين إلى آخر وبينهم من يُضايقه مصيره كثيراً. لدى عودتنا، تحدّثنا مع ليليان حول هذه الرّحلة التي أحبطتها هي أيضاً. كانت مصر أكثر فقراً من أن تعيل هذا الشّعب، قالت. لكنّها قالت، كان على اليهود بعد الحرب البقاء في دُولهم، مبرهنة على أنّها تجهل كلّ شيء عن القضيّة اليهوديّة كما طُرِحت على الغرب.

في القاهرة، أخبرنا هيكل أنّ ناصر قد أطلق سراح الشُّبّان الثّمانية عشر الذين كان سارتر قد حدّثه في شأنهم. كان، دون شكّ، ينوي القيام بذلك منذ فترة، لكنّ الصّيغة لم تكن مُتاحة بشكل أنيق.

انتهت الرّحلة. كانت رائعة ومُهمّة. العيب الوحيد، هو الفريق الصّحافي الذي كان يُرافقنا من مكان إلى آخر. لكنّ الاتّفاق والتّفاهم هما ما خيّم بيننا وبين رفاقنا القدامى، علي الذكيّ والمرح، لطفي الشّغوف بأفكاره، ليليان المُثقّفة والمنتبهة لكلّ التفاصيل. لم نعد نرى هيكل باستمرار، ذلك الرّجل الذي سحرنا بحيويّته وروحه الخفيفة. كان كلّ المصريّين الذين التقينا بهم يتكلّمون الفرنسيّة تقريباً. اخترنا لمرافقتنا من يعرفون لغتنا، لكن أيضاً كردّة فعل على الهيمنة الإنجليزيّة، كثير من المصريّين علّموا الفرنسيّة لأبنائهم.

استقبلتنا عائلة هيكل وعائلة الخولي وعائلة وزير الثّقافة بحفاوة كبيرة، تعلَقُ في الذّاكرة. كان العشاء في شكل طاولات صغيرة مُستقلّة ما كان يسمح باستبدال المُحاورين. كان البوفيه نصف البارد، نصف السّاخن، لذيذاً للغاية: ديكاً روميّاً ضخماً، خروفاً كاملاً، مُقطّعاً ببراعة. دعانا هيكل ذات مساء إلى مطعم داخل مركب عائم في النّيل. كُنّا نسمَعُ تحرّك الماء وكنّا نرى من خلال النّوافذ أضواء القاهرة. أحضر راقصة مُدهشة جعلتني أُعجبُ برقص البطن من جديد. دعانا العجوز توفيق الحكيم إلى العشاء، مع كامل الفريق، في مطعم، قريب من الأهرامات، يُديرُه بعضُ أصدقائه الذين كانوا مُستثمرين في مجال العقار: أراد أن يعرف كيف تأقلموا مع وضعهم الجديد. خاب أمله، لأنّهم كانوا غائبين، لكنّنا استمتعنا كثيراً.

كانت قاعة الأكل جيّدة، مُغلّفة بالأحمر، مُضاءة بمصابيح مُريحة، وعائمة في موسيقى لا نُدركُ من أين تأتي. مازحنا توفيق كثيراً: كان مُتزوّجاً منذ عشرين سنة ولا أحد رأى زوجته. كان يبدو في نسائه كارهاً للنّساء، فسّر لنا، وخشِيَ أن يثير زواجُه تهكّم الصّحافيّين. أقسم على زوجته ألّا تصحبه إلى أيّ مكان. أرعبه أحد الضّيوف مُهدّداً بالمجيء، يوماً، إلى بيته على حين غرّة، كي يقابل زوجته ويسمع منها فصل الخطاب. أكلنا، الفول والكباب، أيضاً، في مطاعم شعبيّة. في مقهى وسط المدينة، تعثّر سارتر ولانزمان، في سحب أنفاس من نرجيلة، دخّنها لطفي وعلي بفنّ.

المساء الأخير، أهدونا عشاء توديع في منزل عربي يعود إلى القرن السّادس عشر: دار الفنون؛ كانت تحتوي على أثاث عربيّ مُذهل وسقف جميل مُزخرف بالرّسوم. كان كلّ الذين التقينا بهم في رحلتنا مُجتمعين حول طاولة كبيرة مُستديرة، مليئة بأطباق من نُحاس. دار مشهد رائع بينما نحنُ نأكل: رقص بالبطن، ألعاب سحريّة، دراويش يدورون وراقص متميّز. أهدونا قناعَيْنِ جنائزيّيْن من الفيّوم.

لم تكن هناك رحلات جوّية مباشرة من القاهرة إلى إسرائيل. غداً مساءً، ركبنا طائرة إلى أثينا. لم يكن في انتظارنا أحد في المطار. كان ذلك مُريحاً وغيرَ متوَقّع. أمضينا الفترة الصباحيّة في ربوة «لايكابيت» وفي الأكروبول. ثمّ أخذنا الطّائرة إلى تلّ أبيب. رافقنا لانزمان لكن لثلاثة أيّام فقط.

يقع في نفوسنا قليلاً أن نواجه مرّة أخرى عادات الوصول، أن نألف وجوهاً جديدة، أن نعيش وسط الجماهير. لكن كانت رغبتنا كبيرة في رؤية إسرائيل. استضافتنا لجنة الاستقبال المُكوّنة من شخصيّات سياسيّة وجامعيّة وأدبيّة. نظّم رحلتنا «فلاپان» عضو حزب العُمّال الموحّد الذي كنّا قد التقينا به في باريس. كان ضمن الفريق الذي استقبلنا في المطار. قدّم لنا لانزمان، «مونيك هوارد»، وكانت امرأة شابّة سمراء وودودة، وهي ستكون مُترجِمَتنا. عرض عليَّ شابٌّ أشقر ذو شعر أحمر أن يصلح لنا دليلاً وأن يكفينا شرَّ المُشاغبين؛ فكّرتُ في أنّه أحدهم: في الواقع، كان

«إيلي بن غال» الذي سرعان ما أصبح صديقنا. وسط الحرارة والضّجيج، تحدّث سارتر قليلاً مع الصّحافيّين. ثمّ قادنا شلونسكي، كاتب عجوز من أصول روسيّة إلى نزل «دان» Dan، على ضفاف البحر.

كان البحرُ جميلاً، صباحًا، عندما فتحتُ نافذتي. إنّه السّحر الوحيد لتلّ أبيب. المدينة صاخبة وحيويّة، لكنّ شوارعها المُستقيمة لا تمتاز بشيء. كان شارعُ «ديزنغوف» Dizengoff، الشّارع الأكثر أبّهة لكنّ أقلّ جاذبيّة من شوارع القاهرة. كان هناك الكثير من المحال، إلّا أنّ الملابس والأغراض المعروضة في الواجهات لم تكن ذات جودة عالية. كانت المقاهي والمطاعم تُذكّر بتلك التي يرتادها الطّلبة في الحيّ اللّاتيني. على أبواب تلّ أبيب، رأينا يافا. أحببنا الأسوار، والقصور المتهالكة، والمنازل العتيقة، والسلالم العريضة. استمتعنا بالتجوّل في الأسواق الرّخيصة. ثمّ جُبنا البلاد. كان «فلاپان» يتقدّمنا ليُرينا من أين نتّجه وإلى أين نذهب وكان يُنظّم زياراتنا. وبما أنّه كان يتكلّم فرنسيّة رديئة، فقد كان لا يظهر إلّا قليلاً خشية أن يُضجرنا. لم نتخيّل اهتماماً هادئاً كما فعل.

أعلم أنّ الكيبوسات Kibboutzim[18] لم تكن تضمّ سوى 4% من الأهالي، ممّن لا يوجد بين أغلبهم رُوّاد، بأنّ وجودهم يثبت بشكل مُزيّف داخل بلد رأسمالي. لكنّهم في البداية جسّدوا مُغامرة مؤثّرة كم وددتُ لو أنّي شاهدتها. أمضينا هناك أوقاتاً طويلة. في تعاوُنيّة «مرحاريا» Merharia، استقبلنا «مير ياري» زعيم حزب العُمّال المُوحّد، الذي كان له مع سارتر حوارٌ طويل بينما كنتُ أتحدّث إلى مجموعة نساء. في «كيبوسات ديغانيا. ب». الكيبوسات الأمّ، الأقدم بينها جميعاً، استقبلنا «قدّيش لوز» رئيس الكنيست. تناولنا معه الغداء في صالة الأكل المُشتركة واحتسينا القهوة في بيته. تحدّثت زوجته بتأثّر بالغ عن ولادة الطّائفة الصّغيرة، منذ زمن بعيد، عندما لم يكن عربيٌّ واحد هنا، ما من بيت مُشيّد، عندما لم تكن هناك طريق واحدة، وأنّ النّساء قد خرجن من العدم، بعرق جبينهنّ بفضل

18- الكيبوسات Kibboutzim: مُستوطنات مُغلقة ومحروسة للعمل.

العمل بكدح جنباً إلى جنب مع الرّجل. الكيبوسات المحاذية من «لافات حاباشان» تقع تحت هضبة تومض من فوقها مصابيح مركز الحراسة السّوريّة. في إحدى المرّات دمّر السوريّون بالمدافع قاعة الأكل التي كانت لحسن الحظّ فارغة. بعد الوجبة يجتمع الناس تحت الأرض في نادٍ يصلحُ ملجأً. أطلعونا أيضاً على الخنادق العميقة المُجهّزة جيّداً والتي كانوا يأوون إليها في حال سماع صفّارة إنذار.

مسألتان حازتا على اهتمامي أكثر من غيرهما، أوضاع المرأة وموقف الشّباب من كلّ ما يحصل. في المسألة الأولى تحدّثتُ في تلّ أبيب مع مجموعة من النّساء ذوات المهن الحُرّة. بينهنّ كانت رائدة تبلغ من العمر ستّين سنة. فسّرت لنا أنّ الشّعار فيما مضى كان: «لا تكترث»: تجاوزنا بذلك كلَّ الفروقات؛ كنّا نتصرّف كالرّجال. الآن لا. الآن، قالت لي نساء شابّات – ممثّلة ومهندسة معماريّة – نحنُ نقبل بالفصل بين الأدوار. نعتقد أنّنا نخدم إسرائيل جيّداً بأداء «دور المرأة» على أن ننافس الرّجال، وهذا ما يهمّ في الأخير. إنّ مسألة النّسويّة حسب رأيهنّ، غيرُ مطروحة في إسرائيل.

أكّدوا لي في الكيبوسات أنّ النّساء يرزحن تحت أعمال شاقّة. ثمّة استثناءات: زوجة إيلي بن غال، تعهّدت بسياقة الجرّار، مثل الرّجل. تمّ قبولها كسائقة جرّار، بعد إخفاقها مرّتين، لكنّهم لم يكونوا يُثمّنون عنادها. في بيغاديا.ب. كانت النّساء يشتكين عدم حصولهنّ على حياة كريمة. باستطاعتهنّ أن يكنّ مُدرّسات، ويعتنين بحضانة الأطفال والمطبخ وقنّ الدّجاج: لم يكنّ يشاركن في الإنتاج. بينما أمكن نساءَ «لافات حباشان» تحقيق ذلك. اعترفن أيضاً، أنّهنّ غير ناشطات سياسيّاً وأنّهن أكثر خجلاً ونجاعة من الرّجال. لكنّهن كنَّ يؤمنّ بأنّهنّ يُمسكن أكبر قدر من المسؤوليّة الاجتماعيّة: يعملُ الرّجالُ في الأرض، قلن لي؛ نحنُ نعتني بالمُجتمع. كنَّ يعتقدن أنّ نساء الأجيال السّابقة قد أخطأن حين فرّطن في أنوثتهنّ: يطالبُ هذا الجيل من النّساء بحقّهنّ في التّرفيه والعناية

بأنفسهنّ. سمعتُ آراء مُختلفة في «مرحاريا». لم تكن النّساء راضيات بأدوارهنّ في المُجتمع. بينما كانت النّساء الشابّات اللّاتي التقيتُ بهنّ، يتمنّين تحقيق شخصيّاتهنّ. كنّ يُدِنّ الطّريقة التي كان الأطفال يتلقّون بها تربيتهم، جماعيّاً، حتّى أنّ الوالِدَيْن لا يكادان يريانهم سوى ساعات قليلة في اليوم. شابّة سمراء قصيرة، أرادت الاعتناء بأطفالها بنفسها: كانت تشعر بأنّها مُحبَطة. قالت لي فتاة شقراء جميلة بأنّ حرمانها من حضن والِدَيْها خلّف لها عقداً كثيرة؛ الآن هي أمّ، وهي تعتقد أنّ نوم الأطفال الصّغار بعيداً عن أمّهاتهم، مع حاضنة تتغيّر كلَّ أسبوع، لهو أمر خطير.

هذا الرّأي يُؤيّدُه «بيتلهايم» Bettelheim، في كتابه الذي خصّصه للتربية في الكيبوتسات، *أطفالُ الأحلام*؛ حسب رأيِه، كان غياب الأمّ يُعوِّضه باستمرار وجود أطفال آخرين، في نفس المُحيط (يُبيّن بيتلهايم أنّ هذا الوضع يؤدّي إلى نوع آخر من التّكوين له نتائج مُختلفة عن التربية العائليّة السّليمة. لكن سيتطلّب الأمر الكثير من التوسّع حول الكتاب لو أردتُ الخوض فيه، لذا أحلتُه على أهل الاختصاص). لكن، من جهة أخرى فإنّ بحثَهُ يؤكّد الخلاصة التي توصّلتُ إليها بنفسي، بكلّ أسف: تقبل المرأة في الكيبوتسات الاقتسام التقليدي للأدوار؛ الأعمالُ غيرُ المنزليّة كانت مُحتَقَرة: من المستحيل أن ترى رجلاً في مغسل للملابس. وإن كان بعض الرّجال، من حين إلى آخر، يُقدّمون الطّعام أو يطهون، فإنّه يعتبره نشاطاً ثانويّاً وأنّ حياته الأصليّة في مكان آخر. فيما لا أفق لهنّ سوى الحفاظ على مسير قطار الحياة اليوميّة.

من الصّعب معرفة أحاسيس الشّباب. لم تعد الكيبوتسات بالنّسبة إليهم مغامرة. «نشعُر بأنّنا محمِيّون»، قال لنا بعضهم. قد يرحلُ آخرون إن تجرّؤوا على ذلك، قال لنا آخرون في «لافات حاباشان». سيشعرون بنظرات المُجتمع الحارقة مُسلّطة عليهم؛ سيرتابون من هذا الاستهجان. مع ذلك فإنّ الكثيرين كانوا يرحلون، إمّا لبناء كيبوتسات أخرى في الصّحراء، أو للاستقرار في تلّ أبيب. في ديغانيا.ب. لم يبقَ من أطفال

قدّيش لوز سوى واحد، كمُدرّس؛ الآخر في الولايات المُتّحدة. وابنته الأكثر أناقة من فتيات الكيبوتسات الأخريات، فإنّها طالبة فلسفة في تلّ أبيب. سألناها لماذا قرّرت الذّهاب، لكنّها لم تشأ أن تجيب أمام أَبَوَيْها وأجاب والدها ضاحكاً: «إنّها تدرس الفلسفة كي تجد الأعذار لذلك».

ثمّة فرق كبير بين مُختلف الكيبوتسات، فسّر لنا إيلي. هناك «الجيّد»، حيثُ يسود التّفاهم بين النّاس ويتعاونون؛ وأخرى «سيّئة» حيثُ الإنتاج ضعيف والأخلاق مُنحَطّة. كان النّظام جماعيّاً. لم تكن إمكانيّات السّفر واستعمال السيّارة وحريّة استهلاك الموادّ متشابهة بينها جميعاً. في كيبوتس إيلي، القريب من الحدود اللّبنانيّة، كلّ الأفراد شبابٌ وتقدّميّون؛ كانت تُطَبَّقُ بينهم مساواة صارمة، إنّها مُستوطنة رائعة، قال.

إلى جانب المُستوطنات الزّراعيّة العسكريّة، الكيبوتسات، كان هناك الـ«تعاونيّات» moshavim، في القرى التي تخلو من حياة جمعيّة. بالإمكان التّمييز بينهم بسهولة، ففي الأولى نجد بنايات جيّدة حيثُ تجري الحياة الجماعيّة؛ وفي الثّاني لا وجود لبنايات مُهمّة. زُرنا تعاوُنيّة، مأهولة بهنود يتكلّمون الإنجليزيّة ومُهاجرين من شمال أفريقيا. تحدّثنا معهم. كانوا أساساً تُجّاراً صغاراً، ومُوظّفين. شقّ عليهم، في البداية، التأقلم مع مهنتهم الجديدة: زراعة الزّهور. لكنّهم سرعان ما تعلّموا العبريّة وخدمة الأرض. الآن، هم سعداء بمصيرهم. كانوا يسكنون منازل مُريحة، مؤثّثة على طراز البورجوازيّين الصّغار. وكانت النّساء يعتنين بالأطفال وبالبيت.

قادنا «پاتيش» أحد أعضاء حزب العمال الموحّد إلى مصنع القنوات المعدنيّة، كان أغلب العُمال من أفريقيا الشّماليّة ومن اليمن: من بين يهود الشّرق، كان اليمنيّون قادرين على التكيّف بشكل أفضل. رأيناهم يعملون وتحدّثنا إليهم بينما كُنّا نحتسي القهوة. كانوا يتكلّمون بسُخط عن العرب الذين يمنعونهم من التّواصُل مع أهلهم في تونس والجزائر. إن فُرِضت الحرب، فإنّهم مُستعدّون للمشاركة فيها. (إنّه الموقف العدائي الوحيد الذي سمعتُه خلال الرّحلة (في *الملاحظ الجديد*، نهاية شهر أبريل

1970، نقل فيدال ناكيت، أنّ الإسرائيليّين من أصول عربيّة هم وحدهم من صرّحوا أمامه بعدائهم للعرب). قال البقيّة إنّهم راضون عن العمل والرّاتب. هذا، دون شكّ، صحيح، لأنّ المصنع تابع للمنظّمة العامّة لعُمّال أرض إسرائيل *Histadrout*، التي كانت تُعامل الشغالين بشكل جيّد.

وُجِّهت هذه المُنظّمة للدّفاع عن مصالح الأجراء. وهي التي تملك إدارة الشّأن الاجتماعي؛ لا يحصل غيرُ المنخرطين بها على تأمين اجتماعي؛ أغلب العُمّال مُنخرطون فيها، إذًا. مع ذلك لا يُمكن الخلطُ بينها وبين النّقابة. لقد تأسّست منذ خمسين عاماً، لا على قاعدة الطّبقات، لكن على قاعدة وطنيّة. كان هدفها هو إنشاء بنية تحتيّة اقتصاديّة قادرة على تحقيق رأسمال إسرائيلي. أصبحت المُشغّل الأكبر في الدّولة: يعود لها الفضل في ربع الإنتاج الوطني. إنّها الصّندوق «النّقابي» الوحيد في العالم الذي يملك صبغة وبرنامجاً سياسيّاً. تقود الانتخابات على قاعدة الأحزاب لا على المنظّمات المهنيّة. فهي ليست ثوريّة ولا حتّى مُجدّدة بل بالعكس إنّها تجسّد الضّمان الأوفر كي يسود النّظام. تساند المنظّمة برامج الحكومة وتسعى لتطبيقها بوصفها تلعب دوراً سياسيّاً واجتماعيّاً مُهمّاً. ممارسة ضغوط على العُمّال على نحو يجعل من الإضراب أمراً مُستحيلاً. إن نشب صراعُ طبقات في إسرائيل فسيكون ضدّها ورغماً عنها.

كانت لنا حوارات مع قادة في المنظّمة، في الطّابق الأخير من مبنى ضخم في تلّ أبيب. كان هناك العديد من مديري الأقاليم، إلّا أنّهم لم يفتحوا أفواههم بكلمة لأنّ الكاتب العام كان يتحدّث طوال الوقت. كان عضواً في حزب العُمّال اليساري Mapaï وبدل أن يعطينا معلومات، كان يقوم أمامنا بالبروباغندا. ضغطتُ بالأسئلة على مسؤولة، كانت أيضاً عضواً في الحزب، نجحتُ في جعلها تعترف بأنّ هناك فرقاً كبيراً في سوق الشّغل بين النّساء والرّجال. النّساء كُنّ أقلّية، فكانوا يعهدون إليهنّ بأدوار أقلّ أهمّية وعلى هذا الأساس كانوا يحتالون على المساواة في الأجور.

لم نتّفق تماماً مع أعضاء حزب العُمّال وعموماً مع كلّ إسرائيليّ

اليمين. لم يكن الوضع مماثلاً لما هو عليه في مصر. هناك، لا وجود إلّا للحزب الواحد، ولا أحد يجادل في سياسة الحكومة. عندما دعا الناطق باسم جمال عبد الناصر سارتر، كان الجميعُ ما عدا الفلسطينيّين، يُكنّون له الودّ. إسرائيل ديمقراطيّة؛ ثمّة العديد من الأحزاب ولكلّ حزب عدّة مذاهب. كان اليمين مُعادياً لسارتر بطبيعة الحال، باستثناء: «إيغال علون»، وزير العمل والمنتمي إلى «أحدوت أفودا» Ahdouth Avoda. إنّها وقائع أسطوريّة؛ وهو المثل الأعلى بالنّسبة إلى اليمين وقسم كبير من الشّباب؛ لم نكن نشاطره أفكاره لكن خلال العشاء والأمسية التي قضّيناها معه، كان الحديث مُهمّاً ومرحاً، حدّثنا عن الطّريقة التي أحبّنا بها. في الواقع لم نكن قد التقينا إلّا بأناسٍ من اليسار: أعضاء من الحزبَيْن الاشتراكيّين؛ «أوري أفنيري»؛ «أموس كِنان»؛ أعضاء من يسار حزب العُمّال المُوحّد؛ المؤرّخ «بلوش» وشاب مُلتح، «ليفي»، اللذَيْن كانا عضوين في لجنة مناهضة الحرب في فيتنام: نظّما اجتماعاً حول فيتنام، تكلّم فيه سارتر وحضره الجنرال «دايان».

جمعتنا صداقة متينة بـ«مونيك هوارد». عندما جاءت من فرنسا قبل سنوات، اختارت مهنة مترجم. كانت مُتزوّجة بموسيقي؛ كانت تعيش في تلّ أبيب حياة مواطن بلا تاريخ. كان وضعُ إيلي بن غال فريداً. أمضى إيلي بن غال وهو ابن صناعيّ من ليون فترة الحرب مُختبئاً مع والِدَيْه في «شامبون-سور-لينيون» Chambon-sur-Lignon. مات أجداده خلال الترحيل، لكنّه كان صغيراً كي يتعاطف معهم. في القرية، كان الجميع ودودين مع عائلته. كانت مالكة المخبزة تُقدّم لهم الخبز دون وصولات. بعد الحرب شكروها: «أوه! هذا طبيعي، قالت، أنتم يهود، لكن لا بأس..». كان عمره تسع سنوات آنذاك وما زال يذكر تلك الكلمات. خلال السّنوات اللّاحقة، بدا له أنّ الفرنسيّين لا يعتبرونه واحداً منهم، فقرّر الهجرة. تحوّل أوّلاً إلى البرازيل حيثُ تزوّج؛ ثمّ استقرّ مع زوجته اليهوديّة في إسرائيل، في مُستوطنة عمل اسمُها كيبوتس غاليلي. عندما

عرفناه، كان راعي غنم. كان يأخذ أغنامه للرّعي قرب الحدود اللّبنانيّة. كان يعرف العربيّة قليلاً وكانت له حوارات مع الرّعاة اللّبنانيّين؛ كانوا يتقاسمون الخبز والجبن. مع ذلك قال له أحدهم ذات يوم: «يوماً ما سنُلقي بجميع اليهود في البحر. - أنا أيضاً؟..». سأل إيلي. تردّد الآخر قليلاً. «أنتَ أيضاً». كان إيلي يحمل معه بندقيّة عندما يخرج للرّعي، لأنّ احتمالَ تعرّضه للأذى قائمٌ دائماً. أخذ كتاباً أيضاً. ليس رواية: فهو يخشى أن ينسى قطيعه، فيما يجب تحريكه على الدّوام لمنعه من النّوم. لكن كتاب فلسفة؛ يتوقّف بعد صفحتَين أو ثلاثة للتّفكير مُهتمّاً بخرافه. هكذا، قرأ أفلاطون و*نقل العقل الجدلي*. كان يعتبر نفسه على يسار حزب العُمّال المُوحّد. كان يتمنّى أن تجد إسرائيل طريقة لإدماج اللّاجئين، وفي حالة حصول ذلك داخل البلاد، فإنّه سيُدافع عن مصالح الأقليّة العربيّة.

كانت القضيّة العربيّة من أولويّة مشاغلنا وقُدّمت لنا كلّ التسهيلات كي نجمع المعلومات في شأنها. في «جِيفاريت-هافيفا»، Guivaret-Haviva، مركز دراسات عليا يعملُ على التقريب اليهودي العربي، التقينا «محمّد واتاد»، مُحرّر الخليّة العربيّة لحزب العمال الموحّد، *المسَرد*. بعد الاجتماع دعانا لاحتساء القهوة في بيته. كان شابّاً، مع ذلك كان مُتزوّجاً وله ابن اسمُه كاسترو. فكانت المرّة الأولى التي أرى فيها قرية عربيّة في إسرائيل. أيّ فرق بينها وبين التعاونيّة! كانت القُرى اليهوديّة نظيفة ومُشيّدة بنظام صارم يجعلها شبيهة بمُجمّع سكني. يبدو هذا مُتجذّراً في الأرض كما لو كان تضاريس طبيعيّة: أنهج ضيّقة، أفعوانيّة، تفصل المنازل التي يبدو أنّ وراءها تاريخاً. نساءٌ ينزلن ويصعدن لابسات أزياءً محلّية تقليديّة ذات ألوان حيّة. روى لنا واتاد، ونحنُ نحتسي القهوة كم أنّ أوضاع عرب إسرائيل الثّلاث مائة ألف، صعبة. هنا، ينظر إليهم الناس بريبة، كما لو كانوا دعامة خامسة. وتعتبرهم الدّول العربيّة خونة تعاملوا مع العدو. كان له أخوان في الضّفة الأخرى؛ وهذا يجعل من الاحتفالات العائليّة أمراً مُستحيلاً، على أهمّيتها بالنّسبة إلى المُسلمين: «هذا حزين

جدّاً، بالنّسبة إلى أمّي التي تعيش هنا»، قال لنا. لا تُحرّك الحكومة ساكناً لتحسين أوضاع الأقلّية. ثمّة ميز لا يمكن أن نتجنّبه: لا يتمنّى اليهود تسلّح العرب، وهؤلاء يرفضون القتال معهم ضدّ إخوتهم؛ إنّهم، إذًا، غير معنيّين بالخدمة الوطنيّة. لكنّ العديد من مظاهر القمع يجب أن تُستَنْكَر. الحقوق السياسيّة متساوية بالنّسبة إلى الإسرائيليّين: لكنّ عدد العرب قليل كي تُصبح لهم شوكة. ثمّة نُوّابٌ عرب، لكنّهم قليلون جدّاً. ليس للعرب أيّ وسيلة لتغيير الأشياء تقريباً. لا أحد يهتمّ بأمرهم؛ إنّهم يشتغلون في المهن الأكثر مشقّة وقسوة وهم الضحيّة الأولى للبطالة. يوم وصولنا إلى تل أبيب، شهدنا مظاهرة لأنّ ثمانين ألف عامل في البناء وجدوا أنفسهم في البطالة: كان أغلبهم من العرب.

بعد فترة قصيرة، سمعنا من الجانب العربي، «لوائح استياء» أعنف بكثير ممّا قاله واتاد. استقبلنا، بشكل رسمي، مجلسُ «ماباي» Mapaï، البلدي في قرية كفر راما، واجتمعنا في فصل دراسي؛ ثمّ من طرف بلديّة قرية كفر ياسين، واجتمعنا أيضاً في فصل بمدرسة، كان المجلسُ الأخير مكوّناً من حزب العمال الموحّد والحزب الشيوعي. هناك، أدان العرب بعنف، الإهانة المُسلّطة عليهم. استولت الحكومة على أراضٍ عربيّة باسم المصلحة العامّة؛ أخلى القرويّون منازلهم؛ أعطوهم في المقابل تعويضات هزيلة وأسكنوهم قرى صفيحيّة كنّا قد لمحناها على تخوم القرية: أحد «المُجَمّعين» حدّثنا عن تلك الوقائع بغضب. اشتكى آخرون لأنّهم تورّطوا في المهن الأكثر قُبحاً وكونهم أوّل ضحايا الكساد. آخرون عبّروا عن سخطهم لأنّهم مُسجّلون في قائمات سوداء، حتّى إنّهم في حاجة إلى ترخيص بالجولان ليتنقّلوا. استُبدِلت الحراسة العسكريّة المُسلّطة عليهم بحراسة بوليسيّة ليست أقلّ حزماً. ظهرت مقالات صحافيّة في اليوم الموالي تُكذّب هذه المزاعم: لكنّ جميع أصدقائنا أكّدوا لنا أنّها حقائق ثابتة. برهن لنا ذلك، اليوم الذي قضّيناه في «نازاريت».

كانت المدينة، تقريباً، مأهولة بالعرب فحسب. التقينا نائب رئيس

البلديّة *عبد العزيز زوابي* وعدداً من المسؤولين العرب، في نزل على أبواب المدينة. أخذونا في سيارة إلى وسط المدينة حيثُ نزلنا؛ انتظمت «مسيرة عفَويّة» كبيرة، لا أدري من طرف من: كان الحشدُ مؤلّفاً في أغلبه من رجالٍ يُلوّحون بلافتات كُتبت عليها مطالب مُختلفة؛ كانوا يُطلقون الهتافات والتحيات. وجدنا أنفسنا مُحاصرين في مكان ضيّق، وعدلنا عن مشروع التنزّه في الأحياء القديمة. صعدنا إلى السيّارة واستدرنا؛ أراد الناس من وراء الهتافات أن يأخذونا لرؤية أوضاع الأحياء الفقيرة على وجه الخصوص: وعدنا زوابي بأن يأخذنا إليها لاحقاً. وفعلاً، في آخر اليوم، بعد جولة قصيرة في نازاريت العتيقة، رأينا نوعاً من الأرض الفسيحة التي توزّعت فيها أكواخ من الخشب والزّنك. لم يكن عددها كبيراً، لكنّ المدينة بأسرها بدت بائسة.

أمضينا ما بعد الظّهيرة في النّزل حيثُ استقبل سارتر في غرفة المؤتمرات عرباً من كلّ الأطياف. تنبّأ فلسطينيّو غزّة بأنّه لن يُسمَح لنا بمقابلة شخصيّاتٍ، ذكروا لنا أسماءها: سمحوا لهم بالمجيء وكان لنا معهم حوار.

لنلخّص الانطباعات، سيُصرّح سارتر لاحقاً لفريق لمجلّة *الأفق الجديد* التي يُحرّرها «فلاپان»: «لم أر عربيّاً واحداً يعتقد أنّه راضٍ عن وجوده في إسرائيل. لم أرَ عربيّاً واحداً قال إنه يتمتّع بنفس حقوق الإسرائيليّين». لقد توقّفت مُصادرة الأراضي منذ سنة، بفضل تحرّك حزب العُمّال المُوحّد، في جزء كبير؛ لكن لم يتمّ تعويض المُتضرّرين المطرودين، لم يتمّ إسكانهم كما ينبغي. لقد تكرّرت كلّ المظالم التي استمعنا إليها، بحجج جديدة.

كان لنا لقاء أخير مع العرب في القدس. جاء «أموس كِنان»، لرؤيتنا في النزل، وهو يهودي، دافع منذ سنوات عن حقوق العرب، وكلّفه ذلك إقامة في السّجن، كان برفقته أخوه وطالبان عربيّان. كلاهما ينحدر من قرية فقيرة جدّاً. تمرّدا بعد أن تمّ رفض حقّهم في تأسيس اتّحاد طلبة عرب: خشيت السّلطة أن يكون ذلك مصدر شغب. كان في وسعهما،

طبعاً، الانضمام إلى اتّحاد الطّلبة: لكنّ العدد كان قليلاً ومن دون تأثير. التقينا بعدد كبير من اليهود الإسرائيليّين الذين يرغبون في تحطيم الحاجز الذي يعزل الأقلّية. لكنّ المبادرات الخاصّة لم تكن كافية لتغيير الأوضاع. كان على الحكومة أن تفرض قانون منع التّمييز.

اكتشفنا الطبيعة ومدن إسرائيل، بعد حديث والنقاش. غاليلي، جبل تابور، نهر الأردن، الجبل المبارك، بحيرة طبريا: كانت تلك الأماكن المُقدّسة التي حلُمتُ بها في طفولتي، مناطق دينيّة وشديدة الاختلاف عمّا تخيّلتُه في شأنها. لم أتعرّف في ذلك الريف الأخضر، على التلال الجافّة والقاسية التي اغبرّت لها قدما المسيح. بدا لي نهر الأردن ضئيلاً. وحدها بحيرة طبريا تشبه أسطورتها. كنتُ أرى المشهد كاملاً من شرفتي. انتصبت هضاب سوريا أمامنا. تحوّلنا لزيارة معبد كفر نعوم والفسيفساء البيزنطيّة لكنيسة توفا الصّغيرة، التي حافظت على نظارتها، والواقعة على تخوم سوريا: كانت أجمل لوحاتها تمثل بطّاً يشرب وسط الزّهور.

تجوّلنا في «سافد» Safed، المدينة العتيقة التي كانت مهد التقاليد اليهودية الأولى «قَبَل» Kabbale. هرب إليها اليهود في القرن السادس عشر، عندما هجم الأتراك على فلسطين؛ تجمّعوا في شتى أحيائها، حسب أصولهم. إنّها مركز صناعات نسيج وأصباغ، وهي أيضاً محطّة تجاريّة مُهمّة، شكّلت المدينة بالإضافة إلى ذلك، مركزاً للدّراسات اللّاهوتيّة حيثُ استقطبت من إسبانيا والبرتغال وصقلية مئات العلماء والحاخامات الذين تحوّلوا فيما بعدُ إلى التصوّف. تشرف المدينة من فوق ربوة على منظر طبيعي جميل جدّاً يلوح من خلاله جبل غاليلي وجبل كنعان. كان على سارتر وإيلي وضع كبّة ورقيّة قبل الدّخول إلى الكنيسة اليهوديّة. كنّا نتحاور ونحن نجوب الطّرقات الضيّقة ونصعد السّلالم ونتأمّل الدّكاكين العتيقة؛ روى لنا إيلي قصّة الأحبار الأربعة في «سافد» الذين نجحوا في رؤية الحقيقة. الأوّل أصبح مُلحِداً: وكان يتجوّل يوم السّبت على ظهر حصان. الثّاني، تلميذُه، كان يتبعه ركضاً؛ كان رجلاً طيّباً ومُتعاطفاً وحين

انكشفت له الحقيقة، أصبح مجنوناً. بعد قرنَيْن من الزّمان، اكتشف آخر الحقيقة فمات. وحده الرابع تحوّل إلى حكيم مُبجّل إلى غاية اليوم.

من «سافد»، وعبر طريق جميل يشقّ مزارع الزّيتون، نزلنا إلى «سان-جون-داكر»: إنّه المركز الذي يجتمع فيه أكبر عدد من اليهود، خلال القرنَيْن، اللذيْن منعهم فيهما الصليبيّون من دخول القدس. رفع هؤلاء الأسوار والقلاع الموجودة إلى يومنا هذا. بعد مشاهدة الآثار، تناولنا الغداء على حافّة البحر، تحت الشّمس. أغلب أهالي المدينة عرب. زرنا المسجد، وتجولّنا في الأسواق القذرة قليلاً، والضاجّة بالناس. نمنا في حيفا، على قمّة جبل الكرمل. تناولنا العشاء مع عُضوَيْن من «الحزب الشيوعي الجديد»، الذي كان ينشط فيه العرب على وجه الخصوص. ثمّ أخذنا الأستاذ «هينمان» وزوجته بالسيّارة. بدت المدينة ميّتة. في اليوم التالي كان الميناء والشّوارع المجاورة تعجّ بالحياة. هناك نزل إيلي ومونيك قبل سنوات، وفكّرا - بعاطفة أقرّها يهودٌ آخرون: «لكن، هذا مُذهل! الجميع يهود هنا!» كانت دهشتهما كبيرة، لأنّ الناس لم يندهشوا من وجودهم بينهم: كيف لا يرتمي أحدنا في أحضان الآخرين؟

بعد ساعات، زُرنا قيساريّة Césarée. قام «هيرود الأكبر» بتوسيع الميناء الذي بناه الفينيقيّون. وأعطاه اسم قيساريّة، تعظيماً لأوغيست قيصر. شيّد هناك قصراً، فاستوطن الرّومان المدينة. تعود أسوار المدينة وأبوابها إلى العصور الوسطى. تمتدّ المعالم الأثريّة حتّى البحر. شمسٌ ساطعة لمع لها الطّوب على حافّة المياه الزّرقاء.

في القدس، نزلنا في النّزل المشهور الملك داوود؛ في ذلك المكان، كان مقرُّ الإدارة المدنيّة والعسكريّة؛ سنة 46، فجّرت منظّمة إرهابيّة يهوديّة جناحاً كاملاً منه: كان للحادثة رواج كبير في العالم. زرنا الكنيست أوّلاً، مبنى كبير جديد، في حيّ راقٍ. دار حوار دون أهمّية في قاعة اجتماعات شبه فارغة. أمكننا أن نلاحظ عكس ما أكّد فلسطينيّ، أنّه لا وجود للافتة على الجدار كُتب عليها «إسرائيل الكبيرة». استقبلنا وزير الصحّة

«بارزيلاي» في مكتبه. كان عضواً في حزب العُمّال الموحّد، ولقد أبدى ودّاً وانفتاحاً. كان مُتفهّماً لخطورة قضيّة اللاّجئين ويرى من الضّروري التّعجيل بالحلول. أدان رحلات 56؛ لكنّه أطلعنا إلى أيّ الأحزاب انحاز الاتحاد السوفيتي فدعا سفيره من إسرائيل، لكن لم يفعل ذلك مع باريس أو لندن.

ألقينا نظرة على القدس العربيّة من ربوة قريبة من النّزل: كان في استطاعتنا رؤية جدرانها القديمة ومعالمها. من الجانب الآخر للأسلاك الشّائكة، على بعد خطوات منّا، جنود أردنيّون يقومون بالحراسة، خلف الجدران أو أكياس الرّمل، وفوق الأسطح.

تناولنا الغداء في الجامعة، مع الأساتذة وخرجنا في جولة وسط حيّ «مِيّا شيريم»، وكان شبه مُخيّم يعيش فيه اليهود الأرتودوكس. كان قد وُصف لي فيما مضى، لكنّي لم أندهش إلّا عندما رأيتُ معاطف الرّجال الطّويلة السّوداء، وقبعاتهم المُستديرة؛ كلّ النساء يلبسن الأسود، كنّ يضعن مناديل معقودة حول الشعر المُستعار؛ بدا لي الأطفال غير لائقين في قبّعاتهم السّوداء؛ وجدتُ المشهد جنائزيّاً، مراهق له قسمات الفتيات، مُلزم بلبس البذلة الرجاليّة والمشي مقهوراً بجانب أمّه، امرأة ثقيلة مهيبة. يهود هذا الحيّ يكنّون العداء لحكومة إسرائيل: حسب رأيهم، فإنّ انبعاث صهيون لن يحدث قبل عودة المسيح. يعتبرون أنّه من التدنيس استخدام العبريّة في أغراض سيّئة: كانوا يتكلّمون لغة اليهود الألمان. يوم وصولنا إلى تل أبيب، قاموا بمظاهرة ضدّ تشريح الجثث. عُلّقت لافتات وكتب على جدران الحيّ الديني أنّ هذه العمليّة هي تعدٍّ على الأموات، ومن خلالهم، إهانة لله. تعتني النّساء بالبيت والأطفال. فيما يُمضي الرّجال اليوم في الصّلاة وترديد التمائم: كانوا يعيشون من الأموال التي تأتيهم من أمريكا. كانوا يحترمون السّبت. كان ممنوعاً على السيّارات التنقّل يوم السبت: قُتِلَ درّاج بواسطة سلسلة ممدودة في الطّريق. كان بعضهم في ذلك اليوم، يعلّقون مناديلهم في أكمامهم لأنّ سحبها من الجيب يُعتبَرُ

عملاً. رأت مونيك من بينهم من يضع شاله على كتفيه وهو ذاهب إلى الكنيسة، لأنّ حمله يُشكّل خرقاً للقانون.

تجوّلنا في الأحياء التجاريّة، والسّوق. أمضينا أمسية مُهمّة في بيت الأستاذ «شاليم» الذي كان يملك مكتبة كبيرة، مُخصّصة بالكامل لتفسير التوراة؛ كان من بين الحاضرين أساتذة في الجامعة والكاتب «كلود فيجي»؛ تحاورنا حول التصوّف وحول العادات اليهوديّة. بعد يومَيْن قدّمتُ أنا وسارتر، محاضرة، كلاً على حدة. وخصّصنا بعد الظّهيرة للأماكن التي تتردّد فيها ذكرى «الحلّ الأخير». نزلنا إلى السّرداب حيثُ عُرضت ملابس مُلوّثة بالدم. كانت أسماء بعض الضّحايا مكتوبة على الأسقف. ثمّ اتّجهنا نحو «جبل الذّكرى»؛ اتّخذنا الممشى المحفوف بالأشجار التي غرس كلّا منها «منقذ يهود»: أحد ما ساعد اليهود على تخطّي الحدود أو الاختباء. فعلاً، لقد احتضنت قاعة التّأبين، رجلاً سويسريّاً. كان بجانب شعلة الذّكرى؛ وخلفه مجموعة اليهود التي أنقذت حياته؛ كان الحاضرون ينشدون أغنية دينيّة. على الأرض الإسمنتيّة نُقشت حروف قدريّة كبيرة: «تريبلنكا Treblinka، داشو Dachau» وكلمات عديدة أخرى. عُرضت صُور فوتوغرافيّة في متوالية غرف. تأمّلتُ من جديد في واحدة من أكثر الصّور التي آلمتني: أطفالٌ حليقو الرّأس متحلّقين حول أستاذ الكمان بنظراتهم المُشفقة؛ صورة أخرى تظهر عربة مليئة بجثثهم. تبيّن إحصائيّة عدد الضّحايا دولة بدولة. ستة ملايين.

زيارة أخرى أثارت مشاعري، إنّها زيارتي لمُستوطنة العمل كيبوتس «لوهامي هاجيتاكت» Lohamé Hagétact (ثورة المُخيّم) حيثُ اجتمع الناجون من مُعسكر فارصوفيا. في النادي الذي استُقبلنا فيه، حدّثتنا امرأة وباقتضاب عن الطائفة: قالت إنّ الأفراد قد عانوا كثيراً كي يتأقلموا مع الحياة. كانت قائدة خلال ثورة المُخيّم. عندما وصلت إلى هنا، قبل عشرين سنة، روت خلال اثنتيْ عشرة ساعة متواصلة حكاية المُخيّم والاعتقال. منذ ذلك الحين لم تلمّح إلى القصّة. كانت تتحدّث بصوت

كئيب وبعيْنَيْن نصف مُغمَضتيْن. كانت النساء يبكين. أطلعَنا عضو آخر في الكيبوتس على مُجسّم للمُخيّم؛ ذكر بسرعة مجريات الثّورة مُشيراً بعصا رقيقة إلى المناطق التي دارت فيها الأحداث الكبيرة. ثمّ دخلنا إلى متحف ضمّ عدداً كبيراً من الصّور الفوتوغرافيّة: صور يهود مصعوقين بالكهرباء، عالقين في الأسلاك الشّائكة؛ وآخرين، ممدّدين على الأرض، وأشبه بهياكل عظميّة تحمل عيوناً جاحظة مجنونة؛ بينما جنود ألمان يلهون بضرب الشّيوخ؛ وآخرون ينظرون إلى «اليهودي الأخير وهو يموت».

كي نُتمّ رحلتنا، نظّمت لنا مونيك وإيلي زيارة للجنوب. كان علينا أن نستقلّ طوّافة كي نطير فوق حصن «ماسادا»، لكنّ الرّيح والأمطار حالت دون ذلك، فأخذنا السيّارة. سرعان ما أشرقت الشّمس. توقّفنا لتناول الغداء في نزل معزول من حيثُ أمكننا أن نرى من بعيد، وتحتنا، البحر الميّت. بعد الوجبة نزلنا. تجاوزنا اللّافتة التي تُشير إلى مستوى البحر وتابعنا النّزول. كان الماء يلمع بالأخضر والأزرق حسب الضّوء، على سفح جبال الأردن العارية. اتّبعنا الضفّة، وتركناه كي نوغل في الأراضي أسفل «الحصن»: منحدر طبيعي هائل، بنا عليه «هيرود» قصره. خلال الثّورة ضدّ روما التي أفضت إلى هدم معبد القدس، استولى اليهود على الحصن؛ ورغم العدد القليل للمُقاتلين فإنّ الرّباط العسكري قاوم سنتَيْن. عندما لاحظوا أنّها ستسقط بين يدي الرومان، انتحر المُدافعون التسع مائة وستّون. خمس نساء وثلاثة أطفال فقط ظلّوا على قيد الحياة. لا يمكن الوصول إلى القمّة من أسفل المنحدر حيثُ ما زالت آثار القلعة قائمة؛ لكنّي لم أندم على الطّوافة بالنّظر إلى المشاهد الطبيعيّة الرائعة حولنا: دعامات وأعمدة حجريّة ذات ألوان حادّة، ذكّرتني هندستها وبريقها بالصّحراء المُلوّنة في كولورادو. اتّخذنا الطّريق الساحليّة؛ كنّا نرغب في الذّهاب إلى منبع عين *غادي* – ذلك الذي فجّره ملاك كي يُنقِذ النبيّ إسماعيل – لكنّ قوّة الأمطار غيرت جدولاً صغيراً إلى سيل من الوحل كان من المستحيل تجاوزه: رسم في زرقة البحر مجرى في لون قهوة الحليب. توقّفت السيارات على

الجانبَيْن. عدنا أدراجنا. هبّت ريحٌ قويّة ثارت لها أمواج ذات ألوان مُقلقة؛ دفعت على سطح الماء علبة حديد بيضاء مُكعبة الشّكل، راحت ترتدّ كأنّها فوق الأسفلت. أدخلنا أيدينا في الماء وأخرجناها، كانت لزجة. تابعنا المسيح بمحاذاة الشاطئ. أصبح هناك مصنع في موقع «سدوم». صخور عديدة يُفتَرَضُ أنّها امرأة لوط التي تحوّلت إلى تمثال من الملح. أفضى بنا طريق متعرّج إلى «بير شيبة» Beersheba.

نمنا هناك، في نزل متجمّد. إنّها مدينة بشعة. شُيّد كلّ حيّ على نمط مُختلف عن الآخر: يبدو أنّ المُهندسين قد بحثوا عن بعضهم دون جدوى. كانت هناك شوارع فقيرة جدّاً. بعد زيارة سريعة، انطلقنا، صباحًا، عبر النّجف. تخطّينا حوضاً عظيماً – الجرن الكبير Le grand Mortier – ومشينا خطوات لننظر إليه من الأعلى، يقع منبع عين أفدات في أعماق وادٍ سحيق. أصبحت الصّحراء أكثر خطورة، أحواضٌ كبيرة تتناوب مع منصّات وعرة مُدبّبة وسلاسل متقطّعة. جعل تبدّل الضّوء – سحاب وشمس – فغنّت الألوان العنيفة. من بعيد لبعيد، كان بوسعنا أن نلمح مُستوطنة عمل محروسة أخرى، أسّسها شبّان هذه المرّة. أفضى بنا طريقٌ إلى منجم الملك سليمان. إنّها عبارة عن أروقة وأعمدة من الحجارة الصمّاء، والمنحدرات الشّبيهة بقلاع حمراء، ووورديّة، ورمليّة وصفراء وذهبيّة، طلاها عملاق همجي مجنون.

في «إيلات» Eilat، كان نزل «ملكة سبأ» معزولاً عن البحر بحضيرة بناء ازدحمت فيها الرّافعات والجرّافات؛ إنّها مدينة صغيرة مُستقلّة، محصورة بين مصر والسّعودية والأردن: كانت الجبال التي تحيط بالخليج تنتمي إلى كلّ هذه الدّول. من جهة الغرب، كان بالإمكان رؤية الميناء الأردني الصّغير المجاور. كان يرسو في عرضه مركب إسرائيلي وآخر أردني. زرنا على حافّة البحر، حوض أسماك مليء بأسماك ذات أشكال مُعقّدة وألوان صارخة؛ أغربها كانت كرات سودٍ تكسوها الأشواك، ومغلقة بالكامل؛ وعلى السّطح لمعت نقطتان هما العيْنان. تناولنا العشاء على الميناء، في مطعم جميل مُزيّن بشباك صيد كبيرة وبأسماك تحاكي الطّبيعة.

ومع أنّنا رفضنا التحوّل إلى زيارة الجيش الإسرائيلي، فقد خُصّصت لنا طائرة حربيّة للعودة إلى تل أبيب. تركنا سائقنا يذهب من دوننا. كان رجلاً رجعيّاً ومتزمّتاً. كان يرفض غالباً الانصياع إلى أوامر مونيك؛ كان عليها أن تحتال معظم الأحيان كي تبلغ غايتها. كان يتذمّر حين نطلب منه أن يتّخذ طريقاً محاذياً للحدود. وكان يغضب إذا أطلعونا على حيّ فقير في مدينة. وكان ذات مرّة، مسعوراً من الغضب، في إحدى القرى، عندما تحدّثنا مع عرب، وعند خروجنا من الاجتماع، وصفهم بالكذّابين.

ركبنا الطّائرة. جلس إيلي بجانب القائد، فيما جلستُ وسارتر ومونيك في الخلف. كنّا بداخل كبسولة زجاجيّة وكان المشهد لا حدود له من كلّ الجهات. كان الأفق مُسوَدّا، ونظرتُ بقليل من المخاوف إلى الصّحراء المُرتَجّة. لكن، في الواقع، لقد شققنا الهواء دون هزّات. لم نكن نُحلّق عالياً، لذا أمكننا التعرّف على المناظر الطبيعيّة التي مررنا بها بالأمس. قام الطيّار باللفّ حول المدينة العتيقة أفدات وميّزنا الأروقة وأنقاض البيوت. انتهت الصّحراء. لاحت لنا غزّة. حلّقنا فوق الأراضي المزروعة. رأينا حقول البرتقال الفسيحة: حتّى إنّنا رأينا البرتقال المقطوف والمرصوف في صناديق. تأمّلنا تقسيم الحقول، والكيبوتسات والقرى. حلّقنا فوق ميناء «أشدود» Ashdod، المُهيأ حديثاً جنوب تل أبيب. كان المنظر غريباً في أماكن عديدة منه: كان مرسوماً على الأرضيات العارية طرقات ومفترقات وعالم من الخطوط التي لا يبدو أنّ من ورائها طائل. ذاك أنّ المدينة لم تُشيَّد بعد. فقد تمّ تصوّر الشّوارع قبل بناء المنازل. عرفنا يافا ونزلنا في مطار حربي صغير، في ضاحية المدينة.

في اليوم الأخير، استقبلنا «إيشكول» Eshkol. عقد سارتر مؤتمراً صحافيّاً، وفي لقاء نظّمته صحيفة *الأفق الجديد* التقينا بجميع الشخصيّات التي بادرتنا بالودّ خلال رحلتنا. خلال إقامتنا، ما انفكّ سارتر يتحدّث مع محاوريه عن الأزمة الفلسطينيّة وعن ظروف العرب في إسرائيل. جدّد عهده بهذه المواضيع خلال تلك اللّقاءات الأخيرة.

جرت الرّحلة في ظروف مُختلفة جداً عن تلك التي مررنا بها في مصر. في إسرائيل، يعيش القادة حياة أقلّ ترفاً، ثمّ إنّهم ليسوا هم من استقبلنا. وإن كانوا قد أنزلونا إلى حدّ الآن في أحسن النّزل، فإنّ قطار الحياة كان مُتواضعاً، الأمر الذي لم نأسف له كثيراً. ما من طائرات خاصّة، ما من مآدب مملّة. رافقنا إيلي ومونيك فقط؛ لم يكن يتعقّبنا أيّ صحافي. في تلّ أبيب، ما عدا اللّيمون والأفوكاتو التي أحبّها، فإنّ الطّعام رديء في النّزل. (وكما لو كانوا يريدون إرضاء اليهود الأمريكان فقد كانت النّزل تتقيّد بالتعاليم الدينيّة، فكان ممنوعاً تقديم أطعمة تحتوي على اللّحم والجبن معًا). كنّا أغلب الوقت نأكل في مطاعم رائعة في الحي اليمني أو في الأحياء العربيّة بيافا: لم تكن قائمة المأكولات طويلة ولا وافرة.

في الطّائرة التي أقلّتنا إلى أثينا، كنّا متفائلين أكثر. كانت مطالب الدّولتين غير مقبولة للطّرف الآخر. ترفض مصر الاعتراف بإسرائيل؛ وترفض إسرائيل استقبال مليون فلسطيني. مع ذلك بدت لنا الحرب تهديداً بعيداً. «الحرب؟ لكن هذا صعب»، قال ناصر. وردّد كلّ الإسرائيليّين على مسامعنا: «نحنُ لا نأمل إلّا بالسّلم». تحتاج مصر إلى فترة طويلة من السّلم حتّى تنهي المشاريع المُهمّة التي تعهّدت بها لشعبها: التّصنيع، تخصيب الصّحراء. لم تكن إسرائيل ستنتفع بشيء من وراء الحرب.

أمضينا، إذًا، في أثينا يومَيْن سعيدَيْن. ظللنا جالسين فوق هضبة پينكس حيثُ يقف الأكروپول، دون أن نتفوّه بكلمة، بصمت مُريح. لم نر شيئاً، شهراً كاملاً، لم يُطلعنا عليه أحد أو يُعلّقْ عليه. تمّ كلّ شيء عبر الكلمات. وكان ذلك ضروريّاً تماماً مثل الانصياع إلى البرامج الدّقيقة. لكنّنا شعرنا بلذّة كبيرة في ترك الوقت يمرّ دون أيّ ضغط.

كانت الحدود الإسرائيليّة السورية مسرحاً لحوادث خطيرة ومتكرّرة؛ قبل أيّام من عودتنا إلى باريس، حدث أمر خطير. من نزلنا على ضفاف بحيرة طبريا، أرانا «إيلي بن غال» على الضفّة الأخرى، الشّريط الإسرائيلي الضيّق الذي يمتدّ أسفل جبال سوريّة والمُسمّى بسبب شكله: «أنف

ديغول». تتعرّض تلك الجهة إلى هجومات سوريّة متكرّرة. يوم 7 أبريل، أراد أعضاء أحد المُستوطنات المحروسة خِدمتها. أطلقت الحصون السوريّة النار على الجرّارات الفلاحيّة. بعد فترة قصيرة، قصفت سبعون طائرة إسرائيليّة مواقع عدُوّة. ثمّ أسقطوا ثلاث طائرات «ميغ» سوريّة في البحيرة. بعد أربع ساعات فتح السوريّون النار على كيبوتس على الحدود. دمّر الطّيران الإسرائيلي قلاعهم وأسقطوا ثلاث مُقاتلات «ميغ» بينها واحدة سقطت فوق دمشق مشتعلة. لم يردّ ناصر الفعل، ما يؤكّد تخميننا بأنّه مُنشغل بتحسين مصير شعبه وأنّه يريد الإبقاء على السّلام.

لكنّ، بعد شهر، تغيّر موقفه بعد الانقلاب الذي حرّضت عليه وكالة «سي إي آي» C.I.A، في اليونان ليلة 21 إلى 22 أبريل، كان مقتنعاً من أنّ أمريكا ستستخدم إسرائيل لإسقاط الحكومة السوريّة ومن ثمّ حكومته. من ناحية أخرى، أجبره، دوره كزعيم عربي على أن يفضّل القوّة على التوافق. ثمّة دون شكّ دوافع أخرى لذلك. في الواقع لقد حشد فيالق عسكريّة في سيناء. وجرى الاستعراض العسكري المُعتاد يوم 15 مايو، في القدس، مُحتشماً في تلك السّنة. خشيت إسرائيل أن يبدو ذلك استفزازاً. وبدا لناصر أنّ ذلك برهان قاطع على صحّة شكوكه. طلب من الأمم المتّحدة أن تسحب القبعات الزّرق من الحدود المصريّة الإسرائيليّة. وللغرابة، لم يوافق «يو تانت U Thant» فقط على ذلك، بل لقد أخلى شرم الشّيخ التي سرعان ما شغلتها الفرق المصريّة. لم يتفاعل «إيشكول» إلّا بقدر ضعيف وبيدْين مُرتعِشَتَيْن وشجّع تردّده ناصرَ على غلق خليج العقبة. بدءًا من ذلك اليوم – 23 مايو – بدا لا مفرّ من الحرب. كان المصريّون مُستعدّين لتحمّل مسؤوليّة خوضها. كتب هيكل – الناطق باسم الرّئيس – يوم 26 مايو: «الأمر لا يقف عند غلق خليج العقبة، بل هناك أشياء أهمّ: فلسفة إسرائيل في حماية نفسها. لهذا أقول إنّ إسرائيل يجب أن تهجم». أعلن ناصر في نفس اليوم: «أخذ شرم الشيخ يعني مأزقاً مع إسرائيل. هذا يعني أيضاً أنّنا كنّا مُستعدّين لدخول حرب شاملة مع إسرائيل».

مرّت أيّام من الهدنة. «أبا إيبان» Abba Eban، قام بجولة في العواصم الغربيّة: ربّما توصّل العالم إلى حلّ سلمي للنّزاع. لكن عندما وصل الملك حُسين إلى القاهرة وأعلن مساندته لناصر، فإنّ كلَّ أمل في السّلام قد تبخّر. كنّا من بين قليلين – من بيننا لورون شوارتز، لانزمان، سارتر وأنا – قد وقّعنا نصّاً يناشد إسرائيل والعرب ألّا يُغذّوا العداء فيما بينهم؛ لكنّنا لم نعلّق أملاً كبيراً على نتائج المبادرة.

عشتُ تلك الأيّام في قلق. زرتُ إسرائيل ومصر؛ جمعتني لأسباب أو لأخرى علاقات صداقة بين هذا البلد وذاك؛ فكرة أن يتناحر الجيشان، أن تُقصف المدن من الجانِبَيْن كانت مقيتة بالنّسبة إليَّ. كنتُ خائفة على إسرائيل أكثر. إذ لم يكن هناك نقطة التقاء بين وجهات النّظر حول النّزاع. لو هُزمت مصر فإنّها ستعيش. لكن لو غُلبت إسرائيل، حتّى لو لم يُرم بكلّ المواطنين في البحر، فإنّها ستضمحلّ ككيان موجود.

عدد كثير من الناس، قالوا إنّ على إسرائيل أن تربح الحرب؛ لكن لا أحد ذكر ذلك قبل أن تُفتَح جبهة العداء: بعد وقف إطلاق النار فحسب. كي يؤمن المرء بانتصار إسرائيل منذ البداية فإنّ عليه التبصّر أوّلاً. كان كلّ العرب موقنين بهزيمتها، وعدا بعض الجنرالات فإنّ كلّ الإسرائيليّين كانوا خائفين. علمنا لاحقاً، أنّ الحكومة قد حفرت آلاف المقابر في ضاحية تل أبيب. كان البلد مُطوَّقاً بالكامل: تبلغ الحدود الأردنيّة ست مائة كيلومتر جحافل حسين كانت الأقوى بين الجيوش العربيّة قاطبة. كانت السّفن السوفيتيّة، كلَّ يوم تفرِغُ في الموانئ المصريّة حمولات أسلحة. كان الجنرالات المصريّون، بدعم من الجماهير، يُبشّرون بالحرب المُباركة. نادت الإذاعات العربيّة بموت إسرائيل. أعلن «أحمد الشّقيري» عن إبادة تامّة للإسرائيليّين واليهود والعرب. ما نحنُ فاعلون بالصهاينة عندما يحين الأوان؟ تساءل الراديو الأردني. بعد صمتٍ، سُمعَت طلقات الرّشاشات وضحك. (لاحقاً، أراد العرب وأصدقاؤهم التّخفيف من وطأة هذه التّصريحات. لكنّ هيكل اعترف يوم 1 يوليو: «نحنُ نرتكب

الكثير من الأخطاء دائماً. لهذا فإنّ كلامنا يُعبّر غالباً عن أكثر ممّا نرغب في قوله وأكثر ممّا نرجو القيام به. هكذا تدعو الإذاعات العربيّة إلى سحق إسرائيل وإلى المذابح»). اندهش كلّ أصدقائي اليهود.

يبدو أنّ الغوث لن يأتي إلّا من تدخّل القوى العظمى. في هذا الإطار، نطق لانزمان بكلمات عاتبه عليها كثيرون بشدّة: «هل سيُجبروننا على أن نهتف: يعيش جونسون؟» أسلوب الخطاب ذاتُه ينمّ عن فرضيّة مُهينة. لكن أقلّ كارثيّة من أن تُمحق إسرائيل دون أن يرفع أحدهم إصبعاً واحدة لإنقاذها.

كنتُ، طيلة أيّام، أفتح الجريدة بتوجّس. يوم الاثنيْن 5 يونيو، في التاكسي الذي كان يُقلّني إلى المكتبة الوطنيّة، سمعتُ بذهول خبر قصف إسرائيل للقاهرة. تخيّلتُ المنازل مُدمّرة، الحرائق، الجثث التي تملأ الشّوارع. أيّ نوبة جنون دفعت إسرائيل إلى ارتكاب جريمة كهذه؟ وأيّ ثمن ستدفع؟ وجدتُ صعوبة في متابعة قراءاتي. عند منتصف النّهار، جاءت أخبار مُختلفة. كتبت «مسائيّة فرنسا France Soir» بخطّ عريض: هجمت مصر على إسرائيل. أعلن المنشور اللّاحق فقط: إنّها الحرب. لا يبدو أنّ القاهرة قد تعرّضت لهجوم بالقنابل.

مساءً، علمنا أنّ إسرائيل قد ألغت الطّيران المصري من الوجود دونما معركة. قصف الأردنيّون القدس؛ احترقت كنائس في تونس. في اليوم التالي، حاصر الجيش الإسرائيلي غزّة؛ استسلم الجنرال المصري الذي كنّا ضيوفه. تقدّم زحف الفِرقِ الإسرائيليّة: كان النّصر حليفهم. بدا لي مؤسفاً أن يتحوّل ذلك إلى ذريعة لممارسة العنصريّة ضدّ العرب؛ من جديد، سمعنا الشّعارات وأصوات المُنبّهات، التي استخدمها فيما مضى مساندو فكرة الجزائر الفرنسيّة: تصدّعت أذنايَ لهذا الضّجيج. انقبض قلبي للمصير المأساوي الذي آل إليه الجنود المصريّون في الصّحراء. لكن عندما دقّت ساعة وقف إطلاق النار، كنتُ سعيدة لأنّ إسرائيل لم تتحوّل إلى دم ونار.

يوم الجمعة بعد الظّهر، قدّم ناصر استقالته. كنتُ مُستاءة عكس أصدقائي. تسلسل تعيس للأحداث جعله يُشعل هذه الحرب: لم يكن يتوقّع ردّة فعل «يو تانت» ولم يترك له ذلك خياراً آخر. لكن دون شكّ، لم يكن مُحرّضاً على الحرب. كان يريد التّحسين من مستوى عيش شعبه وأن يلغي الإقطاع. هل سيحلّ العسكر محلّه إن رحل، أو برجال من اليمين؟ لحسن الحظّ فقد أثناه الضّغط الشعبي عن المضي في قراره.

بعد أيّام، تناولنا الفطور مع ليليان ولطفي الخولي. كان عليهما قضاء أسبوعيْن رهيبيْن في باريس. كانا قلقيْن، دون أخبار عن عائلاتهما وعن أصدقائهما. شاهدا خروج مُظاهرات معادية للعرب وانتابتهما أفكار عدائيّة: «لو أنّ مصر هي التي انتصرت لكانوا وشّحونا»، قالت ليليان. وكردّة فعل كان غضب محموم يغلي في صدريْهما. لم يرد أحد منهما أن يُصدّق ما تقوله الصحافة الفرنسيّة. كانا متأكّديْن من وجود مؤامرة أمريكيّة بريطانيّة للإطاحة بالحكومة السورية والمصريّة. أكّدا أن الطيران الإسرائيلي كان مدعوماً من قِبل الطيران الأمريكي: إنّه التّفسير الذي تمنّى ناصر أن تثبت صحّته لكنّ الاتّحاد السوفيتي لم يقرّ ذلك نظراً إلى علم الجميع بأنّها فرضيّة لا تستند إلى شيء. لم يتحمّل آل خولي أن نشكّ في ذلك. عاتبونا بشدّة كيف أنّنا لم نتّخذ موقفاً مسانداً لمصر، ضدّ إسرائيل. كان الحوار معهما صعباً للغاية. في لقاء آخر، كانا برفقة صديق مصري أكثر اتّزاناً، شيوعي سابق، كانت لنا معه في القاهرة لقاءات وديّة، وتحدّثنا بأريحيّة أكبر. اعترف أنّ الدّول العربيّة قد ارتكبت خطأً ديبلوماسيّاً جسيماً وهي تهتف بأعلى الصوت بتدمير إسرائيل. عرفنا لاحقاً، أنّه لدى عودة لطفي إلى مصر، تم إيقافه والزجّ به في السجن بصفته معارضاً. تمّ تسجيل قسم كبير من حواره الذي انتقد خلاله سياسة ناصر، من قِبَل البوليس (أُطلِقَ سراحُه منذ موت ناصر وتابع نضاله السياسي).

في شهر أغسطس من تلك السنة التقينا بمونيك هوارد في روما. كانت نحيفة ولاحظتُ أنّ قسماتها قد تشنّجت: كانت قد خرجت للتوّ من

المستشفى. انهار قلبُها بسبب اضطرابها جرّاء الحرب وعانت أيضاً من التهاب رئويّ خطير. كانت تعمل في إرساليّة ثنائيّة duplex (نوع من أنواع التحكم في خطّ التلغراف للسماح بعبور الخط من الاتّجاهَيْن)..

كانت منذ الصّباح وحتّى المساء، تسمع تهديدات دمويّة تبثّها الإذاعات العربيّة عن إسرائيل. كان من السّهل، أن تعتبرها مبالغات لفظيّة، تُفسّرها الحميّة التي في الطّبع العربي: في ذلك الوقت، كنتُ أشعر بحقد قد يُجمّد أوصالكم رعباً لو سمعتموني أعبّر عنه. لم يكن هناك اضطراب في البلاد اللّيلة التي سبقت الحرب، لكنّ الجميع كانوا قلقين. عند أوّل ظهور للاحتكار، فتحت الحكومة مخازن الطّحين والزّيت والسكّر، الأمر الذي طمأن ربّات البيوت. التحقت النّساء بدروس الإسعافات الأوّلية لمعالجة الجرحى. تمّ توسيع المقبرة على نحو يسمح باستقبال ستّين ألف ميّت. كان يُخشى أنّ تستعمل مصر الأسلحة السرّية: بنادق، أو غازات مُشلّة وُجدت منها مخازن في سيناء. لم يتمّ تلقّي خبر الانتصار ببهجة، قالت لنا مونيك أيضاً. لم يكن هناك عدد كبير من الأموات؛ لكن في هذا البلد الصّغير، يعرف الجميع بعضهم بعضاً، وما من عائلة لم تُصب في عزيز عليها أو صديق. كان لمونيك نصيبها من الحزن. ما أثّر فيها كثيراً، هو موقف اليسار الأوروبي الذي وصف إسرائيل بالإمبرياليّة ووصف العرب بالاشتراكيّين. كانت تتساءل كيف استقام تحريف مماثل.

وهب الاتّحاد السوفيتي أسلحة لمصر وساندها لدى الأمم المتّحدة. عندما تحدّث «كوسيغين» للتلفزيون ضدّ إسرائيل، قُطعت إجابة النائب الإسرائيلي. لا ترغب الدّول في الشرق سوى الانحياز إلى موسكو. فرح بعض اليهود البولونيّون بانتصار إسرائيل، وتمّ الإعلان عن أنّ اليهود البولونيّين الثلاثين ألفاً هم صهاينة. طالبت براغ المُفكّرين بتصريحات معادية لإسرائيل. وحدها رومانيا كانت الاستثناء نكاية في الاتّحاد السوفيتي. أكثر ممّا هو تعاطف مع إسرائيل.

في فرنسا، انقسمت المواقف وشُغف كلّ فريق برأيه حتّى راج

حديث عن قضيّة درايفوس Dreyfus أخرى. عائلات تمزّقت وصداقات انقطعت. من اليمين، عبّأ أنصار ديغول الخطْو خلف الزّعيم وأعلنوا معارضتهم لإسرائيل. لكنّ عدداً كبيراً من رجال اليمين الذين عُرفوا بعنصريّتهم ضدّ العرب تحاملوا الآن على اليهود. انحاز الشيوعيّون، بالطّبع إلى صفّ الاتّحاد السوفيتي. أمّا في اليسار غير الشيوعي فإنّ الآراء قد تباينت. وارتدّ كثيرون عن مواقفهم التي عُرفوا بها: كانوا سيُندّدون بإسرائيل لو أنّها دُمِّرَت أو دفعت ثمناً باهظاً مقابل البقاء. لكنّ انتصارها حوّل على نحو مُحبِط صورة اليهودي الضحيّة وانتقل التعاطف إلى العرب. تبنّى التروتسكيّون والماركسيّون وكلّ اليسار القضّية العربيّة، الفلسطينيّة بشكل خاص.

كان لدى اليهود، عادة، صراع أجيال، كان الآباء – سواء من اليمين أو اليسار – مُتضامنين مع إسرائيل، وتبنّى الأبناء موقفاً معادياً إزاء الصّهيونيّة.

لم أجد نفسي متّفقة تماما مع أيٍّ من أصدقائي، وكنتُ على طرف نقيض مع آخرين. لم أكن أعتبر إسرائيل دولة مُعتدية، بما أنّه، وحسب القانون الدّولي، يعتبر إغلاق خليج العقبة إعلان حرب، الأمر الذي أقرّه ناصر نفسه. أنكر أنّه بلد مُستعمِر؛ إذ لم يكن يستغلّ يداً عاملة من أبناء الأرض، لم يكن يجمع الثروات من المواد الأوليّة ليُرسلها إلى إقليم تابع له سيبيع لهؤلاء المواد بسعر مُضاعَف: لم يكن هناك بلد أمّ مُستفيدة. لا أعتبر أنّ إسرائيل رأس من رؤوس الإمبرياليّة: كانت الولايات المُتّحدة تساعدها على العيش، دون مقابل، فيما تُركّز قواعد عسكريّة في البلدان العربيّة التي تستغلّ نفطها عدا أنّهم يُقدّمون لها مُساعدات هائلة. غيرُ صحيح أنّ تطوّر إسرائيل يُضايق البلدان العربيّة: لم تمنع الجزائر من السّعي إلى استقلاله ولا ناصر من بناء سدّ أسوان، ولا ليبيا من إنجاح ثورتها. أمّا عرقلة وحدة العالم العربي، فبالعكس، فبفضلها تحقّقت عديد من النّقاط في هذا الشّأن؛ لا يجمعُ هذه البلدان الغريبة بعضها عن بعض والمتعادية أحياناً سوى حقدها على إسرائيل. إنّه بلد رأسمالي، ارتكب أكثر من خطأ: لم

يكن الوحيد، ولا يرى الآخرون وجودهم وقد وُضع على المحكّ مثلها. أمّا بالنّسبة إليَّ، فإنّ فكرة أن تندثر إسرائيل من خارطة العالم فتبدو لي بغيضة جدّاً. رجالٌ ونساءٌ بنَوا هذا البلد بأيديهم وكوّنوا عائلات وتجذّروا بمعونة الأمم المُتّحدة والاتّحاد السوفيتي ودول الشّرق؛ لن يكون من العدل اقتلاعُهم. هذا عدا أنّ عداء اليهود لا يزال متفشّياً في أوروبا وأمام التهديد الذي يتربّص بهم لم يجد اليهود سوى إسرائيل يحتمون بها.

أوضحت رحلتي إلى الشّرق الأوسط جسامة الأزمة الفلسطينيّة. أتفهّم التعبئة القوميّة لعرفات؛ لكنّي لا أقبل أن أرى في فتح - كما دأب عدد كبير من اليساريّين - حركة تتجسّد فيها آفاق اشتراكيّة. يؤسفني أنّ قسماً صغيراً من اليسار الإسرائيلي يسعى إلى التحاور مع الفلسطينيّين. وقد دفعوا بهم إلى الأمام، لم يعد الزعماء العرب يُكنّون لهم سوى البغضاء وأمام هذا التعذيب لا يسع المرء سوى أن يشعر بالسخط. يجب أن تُطرَحَ عليهم حلولٌ تُرضيهم فحسب. لكن لا يمكنني الانحياز إلى تلك التي اختارها القادة وهي في الواقع تدمير إسرائيل (أقول في الواقع، لأنّ البروباغندا الفلسطينيّة في استعمالها الأخرق للفرنسيّة تحجب النوايا المُبطّنة بين الجُمل)..

هذا لا يعني أنّي أؤيّد سياسة إسرائيل. تمنّيتُ لو أنّها لم تتعنّت في المطالبة بمحاورات مباشرة، بأن يأخذوا المبادرة بإعادة الأراضي المُحتلّة، وأن يُظهروا سعيهم لتحقيق السلام كما أثبتوا ذلك في الحرب.

وبسبب موقفي من قضيّة الشّرق الأوسط، صرتُ أشعر أنّي على هامش العلاقة مع مناضلي اليسار. أنا متعاطفة ومساندة للفهود السّود، مُعجَبَة بكتاب كيفر: *روح في الثّلج*؛ لكن حزّ في نفسي أن يهاجم اليهود في حوار نشرته *الأزمنة المعاصرة*. أخشى أن يكون اليسار قد أصبح متجانس الرّأي شأنه شأن الشيوعيّة. على اليساري أن يُعجَب بالصّين دون شروط، أن ينصر نيجيريا ضدّ دولة «بيافرا»، أن يكون مع الفلسطينيّين ضدّ إسرائيل. أنا لا أنحني إلى هذه الإكراهات. الأمر الذي لا يمنع أن أكون في صفّ اليساريّين على الأرض التي تعنيهم مباشرة: نضالهم في فرنسا. ومن أجلها.

قبل الخوض في محور علاقتي ببلدي، أريد التعريف بمواقفي التي تبنيتُها خلال العشر سنوات الأخيرة التي أحملها إلى اليوم إزاء بقيّة العالم. لكن تجدر الملاحظة قبل ذلك: أنا لا أولي نفس الاهتمام لكلّ الدول الأجنبيّة. مع ذلك، ثمّة بينها واحدة مُهمّة جدّا لكنّي لا أودّ رؤيتها بعَيْنَيَّ: الهند. من خلال التحاليل والريبورتاجات التي شاهدتها، فإنّ البؤس المنتشر فيها يبدو فوق الاحتمال. يُحبطني تعقيد تلك المشاكل السياسيّة والاقتصاديّة. طبعاً، لم أظلّ على الحياد فيما يخصّ مأساة البنغال. سُررتُ كثيراً بهزيمة المُعتدين الباكستان. لكنّ هذه النضالات لا يتردّد صداها كثيراً في فرنسا؛ ولم تكن لي صلة مباشرة بالدُّول المعنيّة. لم أشعر بأنّي مُهتمّة بالأحداث سوى من بعيد. سأتحدّث فقط عن أولئك الذين، لسبب أو لآخر، أثّروا فيَّ بشكل مُباشر.

قلتُ قبل هذا، كم ابتعدتُ عن الاتّحاد السوفيتي وكم أثّرت فيَّ مأساة براغ. لا شيء يبدو لي مُطمئناً فيما يجري بالبلدان الاشتراكيّة الأوروبيّة. لم تكن لي علاقات برومانيا أو ببلغاريا، حيثُ لا يزالُ النظام ديكتاتوريّاً ومُستوى العيش في الحضيض. الوضع أقلّ اختناقاً في هنغاريا ومستوى العيش أفضل، لكن عدا بعض الأفلام الرائعة جدّاً التي عُرضت في فرنسا لا أعرف شيئاً عن هذا البلد حيثُ ما زال الأدب يرزحُ تحت الرّقابة الصّارمة. في حين أنّ لديّ أصدقاء بولونيّين، كنتُ في بولونيا سنة 62، أحببتُ الكثير من المؤلّفات المكتوبة بالبولونيّة: كم كان مؤسفاً أن تتحطّم كلّ الآمال التي بُنيَت سنة 56. تعامل «غومولكا Gomulka» كدكتاتور في شتّى المجالات، خصوصاً إزاء المُفكّرين. في إجابة عن رسالة وجّهها إليه هؤلاء للمطالبة بالحرّية شنّ ضدّهم حملة ومنع عدداً كبيراً من منشوراتهم. لاحقاً، أُلقِي مُفكّران في مقتبل العمر داخل السّجن لنقدهما الاشتراكيّة البيروقراطيّة في رسالة مفتوحة. أكتوبر سنة 66، أدان الفيلسوف «كولاكوفسكي» (كاتب لعدّة مؤلّفات قيّمة منها مسيحيّون دون كنيسة) التراجع الحاصل منذ عشر سنوات الذي بات مُلاحَظاً بشكل صارخ: تباطؤ وتيرة النمو

الاقتصادي، انخفاض الحركيّة الاجتماعيّة، تفاقم الفروقات الاجتماعية بين الأفراد، وما ينجرّ عنه من شعور عام بفقدان الأمان والتخوّف. طُرِد «كولاكوفسكي» Kolakowski من الجامعة وأُقصِيَ من الحزب، ما أثار العديد من ردود الأفعال لمصلحته بين المُفكّرين.

سنة 67، أبدت حكومة كومولكا المعادية للفكر، عداءً جديداً تجاه اليهود. من بين ثلاثة ملايين يهودياً بولونياً لم يبق على قيد الحياة سوى ثلاث مائة وخمسين ألفاً؛ هاجر أغلبهم، إمّا رُعباً من الماضي أو خوفاً من الفاشيّين البولونيّين المتورّطين في مذبحة في «كيالسي» Kielce، سنة 46. في عام 1967، لم يبقَ سوى ثلاثين ألفاً داخل البلاد. لم يمنع ذلك وزير الداخليّة «كومزار» من ترتيب خطّة لقمع اليهود؛ انطلقت الحملة سنة 67، أرادت الحكومة استرداد المناصب التي يشغلونها وأن يتدرّبوا على الذّكاء من خلالهم. يوم 19 يونيو 1967، غداة حرب الأيّام الستّة، خلال مؤتمر النقابات، اتّهمهم غومولكا بإنشاء «الطّابور الخامس». وخلال الأشهر القادمة، أدانت الصّحافة والتّلفزيون والراديو والحوارات المفتوحة الصهاينة واعتبروهم أعداء بولونيا الأكبر: كان كلّ يهودي مثار ارتياب في أنّه صهيوني. نادت الصّحافة والقيادة العسكريّة بـ«تطهير اليهود». لم يُغضبوا إسرائيل بذلك فحسب، بل اتّهموا اليهود بمسؤوليّتهم عن إبادة الشعب البولوني من قبل هتلر. 30 يوليو 1968، احتجّ الطلبة أمام أبواب المسارح بعد قرار منع مسرحيّة «ميكيفيتس» Mickiewicz بعنوان *الأجداد*؛ تمّ إيقاف عدد كبير منهم؛ وانتظمت مظاهرة أخرى داخل جامعة فارسوفيا يوم 8 مارس للمطالبة بحرّيتهم: ردّ البوليس بوحشيّة ومن جديد تمّ إيقاف طلبة آخرين؛ أُطلق سراح أبناء العرق الآري واحتُفِظ باليهود. قسّم موكزار اليهود إلى ثلاث فئات، على نحو يُجيز العشوائيّة في التعامل معهم. 1 الصهاينة، الذين عليهم مغادرة بولونيا. 2 اليهود الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً أكثر ممّا هم بولونيّون. 3 الذين يعتبرون أنّهم بولونيّون أكثر ممّا هم يهود.

عشرون ألف يهودي غادروا بولونيا بين صيف 68 وصيف 71. حاول الآخرون القيام بنفس الشيء. لكن ومع السّعي إلى طردهم فقد ضاعفت الحكومة أسلوب الإهانة جاعلة من خروجهم أمراً صعباً. لم يكن في وسعهم الذّهاب إلى إسرائيل. ما إن يتقدّموا بمطلب للخروج فإنّهم يفقدون الجنسيّة وإمكانيّة العمل. وكان عليهم دفع خمسة آلاف «زلوتيس» zlotys: حوالَيْ راتبَيْن جيّدَين. وكان عليهم إعادة الشقة في «مظهر جديد»، ما يزيد من حجم النفقات؛ مع إلزامهم بدفع مصاريف دراسة أبنائهم. مُنِعوا من أخذ الأموال معهم. طولبوا بالقيام بقائمة مُفصّلة عن أغراضهم، مع إخضاعهم لتفتيش مهين من قِبل مصالح الديوانة. كلّ الأصدقاء البولونيّين - يهوداً أم لا - الذين التقينا بهم في باريس كانوا مُحبَطين بسبب المعاملة التي يتلقاها اليهود (نشرت *الأزمنة المعاصرة* سنة 70 قصّة رائعة - *ويسترن* - كتبها مؤلف من غير اليهود حول رحيل عائلة يهودية من بولونيا؛ وريبورتاجاً حول مجمل القضيّة كتبته يهودية بولونية في المنفى: *المذبحة خالصة*. سُلِبَ تريبر Trepper قائد الأوركيسترا الحمراء، حقَّ الهجرة إلى إسرائيل. ولأنّه طلب الرّحيل فقد طِرد من الحزب الشيوعي البولوني. وهو الآن تحت رقابة متواصلة من طرف البوليس).

مع ذلك، لم يتحسّن وضع البلاد إجمالا. في ديسمبر 70، بعد تمرّد عمال سيليسيا الذي كُبح بالدم، تمّ استبدال غومولكا بـ جياراك. يبدو أن الاتّحاد السوفيتي قد انتظر هذا التغيير وأنّ الشّعب قد تمّ تحت التّحريض، ثمّ إنّ لها أسباباً مقنعة: ارتفاع نسبة غلاء المعيشة. لم يكن جياراك يملك من الديمقراطيّة ذرّة واحدة: لم يكن يؤمل أن يقع أيّ تغيير.

من بين الدول الاشتراكيّة، كانت يوغسلافيا البلد الأكثر ليبراليّة إلى غاية سنة 72. تعايشت صحفٌ من مختلف المذاهب: من بينها التي كانت تنقد النظام بقسوة. كانت الحوارات مفتوحة بين المُفكّرين. تبدّل كلّ شيء منذ أحداث كرواتيا. إنّها المنطقة الأكثر تصنيعاً، والأكثر

تصديراً وجنياً للعملة الصّعبة. أُقِرَّ قانون، اقترحَه تيتو بنفسه، أن تنتفع كلّ جمهوريّة بالعملة التي تجنيها. في الواقع، كانت الحكومة هي مركز التوزيع، وكانت تبذّر منها قسماً كبيراً في أشغال استعراضيّة، لكن مثيرة للجدل: مثلاً، السدّ الضخم المُشيّد على الدانوب. ورغم أنّ توجّهها الصناعي فإنّ كرواتيا ليست بلداً غنيّاً. كان هناك سبعة آلاف عامل يشتغلون في ألمانيا الفيدراليّة، لعدم عثورهم على عمل في بلدهم. يعيش الطلبة أوضاعاً مُزرية: كانوا ينامون على الأرض أحياناً، مُتراصّين في أماكن ضيّقة. في نوفمبر، تظاهروا للمطالبة باحترام القانون وأن تستغلّ كرواتيا العملة الصعبة التي تُدخِلُها. كان هناك تيّارٌ قومي كرواتي، رجعي ومتزمّت، تدعمه منظّمة إرهابيّة (أوستاشي). لكنّ الطلبة أيّدهم الاشتراكيّون التقدّميّون؛ لم يطالبوا باستقلال كرواتيا عن يوغسلافيا، بل أن تحظى بجزء من السيادة في إدارة شؤونها. أرسل تيتو البوليس الصربي لضرب الطلبة بالعِصيّ دون رحمة. طوقّت الدبّابات زغرب. تمّ إيقاف كلّ المُثقّفين الكرواتيّين إلى جانب إيقافات أخرى في بلغراد نفسها. تمّ تكميم الصحافة وتعزيز السلطة المركزيّة. التقيتُ كرواتيّين ينتمون منذُ عشرين سنة إلى الحزب الشيوعي قبل أن يختاروا المنفى الطّوعي. قالوا إنّ الوضع سيتأزّم خلال السّنوات القادمة.

بين الدّول ثمّة من جسّد في نظرنا الأمل الاشتراكي: كوبا. لم تعد أرض حرّية: كان المثليّون الجنسيّون مقموعين؛ كانت شبهة أن تبدو على شخص ما نزعة معارضة لتأييد النظام. إنّما كان الهواء أكثر نقاءً في كوبا مما هو عليه في الاتحاد السوفيتي. كان محور مؤتمر هافانا الذي انعقد في يناير من سنة 68 مناهضاً لـ «الكنيسة الماركسيّة المستعارة»، حسب قول كاسترو الذي كان قد أطلق نداءً لـ «الطّليعة الجديدة». كانت النقاشات حرّة بالكامل؛ عرض رسّامون لوحاتٍ تجريديّة. حدّثنا أصدقاؤنا العائدون من المؤتمر بحماسٍ أنّ التجربة كانت ناجحة.

سُرعان ما خاب التفاؤل. انتهج كاسترو في تلك السنة بالذات مبدأ

الانغلاق. كفّ عن الدعوة إلى الكاستريّة في أمريكا اللّاتينيّة. في مايو، وحتّى لا يخيّب ظنّ موسكو وحتّى لا يوحي للسوفييت بالمعارضة، رفض إرسال رسالة تعاطف مع الطلبة الفرنسيّين. في يوليو، لم يرفع صوتاً لإدانة الطلبة المكسيكيّين الذين قتلهم البوليس وشاركت كوبا في الألعاب الأولمبيّة في مكسيكو. برهن الخطاب الذي ألقاه بمناسبة دخول الفرق العسكريّة السوفيتيّة إلى تشيكوسلوفاكيا بأنّه منحاز دون شروط إلى الاتحاد السوفيتي. ولم يتزحزح عن موقفه منذ ذلك التاريخ. كان ذلك حتميّاً، دون شكّ: كوبا في حاجة إلى موسكو، خصوصاً مؤونتها من البنزين. لكن ذلك مؤسف، لأنّ الاقتصاد الكوبي آخذ فقط في التدهور. ورّط الاتحاد السوفيتي زراعة الجزيرة في نوع من الفلاحة الأوحد فيما كانت الزراعات المتنوّعة واعدة وبوفرة؛ ولأنّ الشعب كان محكوماً بالصّمت، فإنّ الأهالي كانوا غير راضين بسياسة حكومتهم ممّا تسبّب في اتّخاذ إجراءات ردعيّة خانقة.

في مناخ مماثل، لم يكن متاحاً للمُثقّفين التّعبير والتحرّك بحرّية. أُغلِق متحف الفنون الحديثة سنة 68، وتراجعت ميزانيّة الثقافة إلى أسفل الدرجات. تمّ إيقاف خمس مائة شابّ لأنّ شعورهم كانت طويلة. في يناير من سنة 71، أقرّ كاسترو مرسوماً منسوخاً عن قانون نافذ في الاتحاد السوفيتي ضدّ «العاطلين» الذي بمقتضاه تمّ إيقاف برودسكي وألماريك. أتاحت تهمة «التطفّل» القيام بعمليّات اضطهاد وإصدار أحكام عشوائيّة. في أبريل، أُدينَ الشاعر «پاديلا» بتهمة معارضة الثّورة وسُجن بمقتضاها؛ أُطلِق سراحُه بعد توقيع نقد ذاتي وهو البذرة الأولى للاعتراف بالحمق: اتّهم ريني ديمون وكارول بأنّهما عميلان لدى وكالة «سي إي آي C.I.A»! كان على كاسترو التدخل بنفسه، لأنّه كان قد استقبلهما وتحدّث معهما طويلاً. لفّق تُهماً لمُفكّرين آخرين بأنّهم عارضوا الثورة. انتهى «شهر عسل الثّورة» الذي سحرنا.

ثمّة خيبة من نوع آخر، وهي ما آلت إليه الجزائر. لم يكن في المستطاع

أن يأمل أحدنا بأن يسود الرخاء والاستقرار الاجتماعي كأنّ مُعجزة حصلت؛ خلّفت الحرب مليون قتيل، قُتل عدد من الإطارات العليا في الأدغال، ترك رحيل مليون «قدم سوداء» ممن كانوا يبسطون سيطرتهم على البلاد، أوضاعها الاقتصاديّة غامضة. يوم حصول الجزائر على الاستقلال، 85% من الكبار كانوا أمّيين. لن يكون من السهل إعادة تنظيم الاقتصاد. ولم تحدث الكوارث التي تكهّن بها المُنادون بالاستعمار. لكنّ ثلث السكّان من الناشطين كانوا بلا عمل، وثلثاً آخر يشتغلون لمصلحة أرباب العمل في ظروف بائسة جدّاً: هاجر خمس مائة ألف عامل. لم تكن الظّروف ملائمة لتطبيق الاشتراكيّة؛ لكنّ الزّعماء لم يحرّكوا ساكناً في هذا الاتّجاه. ركّزوا رأسماليّة دولة لا تملك من الاشتراكيّة سوى الاسم. لم يُشجّعوا على التعاضد في الزّراعة؛ ولم يدفعوا العُمّال نحو الإدارة الذاتية في المجال الصناعي. وبدل تسييس المُجتمع، حرّضوه على العودة إلى القيم الإسلاميّة العربيّة. عكس ما يجري في تونس ومصر، فإنّ الحكومة لم تبذل أيّ مجهود في الحدّ من النّسبة المتصاعدة من الولادات بنسق فاق فيه عدد السُكّان مواردها. أمّا ظروف المرأة فهي سيّئة: جزائريّة شُجاعة روت ذلك في كتاب جميل. فهي لا تتلقّى سوى تعليم متواضع باسم التقاليد الإسلاميّة؛ ترتدي الحجاب، وتظلّ محجوزة في بيت والدها أو بيت زوجها الذي فُرِضَ عليها. أخطأ «فانون» عندما قال إنّه توقّع تحرّر المرأة الجزائريّة من سطوة الرّجل بفضل الدور الذي لعبته في الحرب. تريد السياسة الخارجيّة أن تبدو «تقدّميّة»: إنّها ضدّ الاستعمار وضد الامبرياليّة. ولكنّها في الداخل قوميّة ورجعيّة. لا شيء يؤكّد نيّة الجزائر في أن تُغيّر سياستها الداخليّة قبل أن تسعى إلى التقدم.

وماذا يحدث في الصّين؟ هذا سؤال أرغب في الإجابة عليه. سافرتُ إليها سنة 1955 ولدى عودتي خصّصتُ لها كتاباً. ثمّ بعد ذلك حاولتُ جمع المعلومات حول «حقبة المائة وردة»، القفزة الكبرى إلى الأمام

والتجربة الجماعيّة التي يقدّمها الاتحاد السوفيتي كنموذج للاشتراكيّة الغنيّة واعظاً الدّول الفقيرة بالصّبر، اقترح الصين نموذجاً للاشتراكية فقيرة، وشجّع البلدان المُضطهدة على العنف: نحنُ مُتعاطفون مع الصّين. قلتُ إنّ سارتر، في «هيلسنكي»، قد أيّد مشروعها. لكن عندما اندلعت الثورة الثقافيّة، لا أحد استطاع أن يُفسّر لنا على نحو مُقنع أيَّ حقيقة خلف تلك الكلمات. قدّمت الصّحافة الروسيّة والفرنسيّة أخباراً مُفككة ومتناقضة: سبح «ماوْ» في النهر الأزرق، يقطع الحرسُ ضفائر الفتيات، استبدلوا الأحمر والأخضر المُستعمل في قانون الطرقات، نظّموا الاستعراضات العسكريّة، كانت الحرب الأهليّة، لا، كانت مُجرّد اشتباكات. كانوا يخبكون النّكات، بدت بخروجها عن كلّ سياق، مُضحكة حقّاً. لم نكن نثق بتلك الصحافة المُغرضة. لكنّنا كنّا مرتابين ونحنُ نقرأ مقالات البروباغندا التي كانت تُنشَرُ بالإنجليزيّة والفرنسيّة في مجلّات تصدر في بيكين.

يعرض الخبراء الصينيّون تحاليل مُهمّة لكنّها دائماً قائمة على التخمينات. إنّها مسألة اقتصادية، يقول أحدهم؛ بل أزمة سياسيّة، يقول آخر؛ بل مقاومة للبيروقراطيّة، يعلن ثالث. هي تفاسير منطقيّة، دون شك: لا شيء مؤكّد، ليس بينها تفسير قادر على أن يمنحنا مفتاح الوقائع التي لم تكن تصلنا منها سوى أصداء مُشوّشة. النّاس الذين نعرفهم والذين كانوا في الصّين، عادوا مذهولين: لم يروا من الثورة الثقافية سوى ظاهر لم يفهموا منه شيئاً. في ديسمبر 66، مرّ أليخو كاربنتر (الكاتب الكوبي الكبير) من بيكين، عائداً من «هانويْ». كنّا أيضاً هناك في نفس السنة 55، كان قد أحبّ كلّ ما رأى. وجد اليوم، مدينة أخرى، عالماً آخر، مُرعباً. في الطائرة، كانت المضيفات توزّعن ما نعرفه في فرنسا فقط باسم «الكتاب الأحمر الصغير» وكانت إحداهنّ تذكّرنا كلّ نصف ساعة قائلة: «سأقرأ لكم فكرة للرئيس ماوْ». في بيكين، كان سُوّاق التاكسي، وراء المقود، يسردون أفكار ماوْ – التي كان المترجم ينقلها إلى كاربنتي. علق في المطار

أربع ساعات، وخلال كلّ هذا الوقت سمع المُلقّنين يقرؤون أفكار ماوْ على المسافرين المُصفّفين وفق صفّيْن، ثمّ بعد ذلك يُطلَبُ منهم تكرارها. سُحبت من تحت المطابع خمسة وثلاثون ألف صورة لماوْ، كان على كلّ بيت تعليق واحدة، كانت هناك نشريّة تُبيّن كيفيّة تعليقها ومكانه. سأل أحد الناشرين عن الكتب التي ستصدُر في تلك السنة فأجابه: «فقط، خمسة وثلاثون ألف نسخة لأعمال ماوْ. - لكن، غير معقول، لابدّ أنّكم تنشرون كتباً تقنية وكتباً مدرسيّة؟ - قلتُ: فقط». أثناء إقامته، خرجت حملات لمصلحة جامعي القمامة، الذين كانوا يُعتبَرون عمّال البروليتاريا النموذجيّين. اختاروا أحدهم، على أنّه المثالي، وجعلوه يُقدّم محاضرة في الجامعة بحضور كلّ الأساتذة (تمّ فهمه الآن: كانت الغاية التدريب على التعوّد على الأعمال اليدويّة دون أن ينقص شيء من احترام العمل الفكري). كانت قاعات السينما والمسارح مغلقة، ورغم الشباب الذين يملأون الشوارع فإنّ المدينة بدت حزينة في نظر كاربنتي.

بعد سنة رأينا كاتب ياسين الذي كان قد قضّى شهراً في بيكين، خريف سنة 67؛ كان يقيم في سفارة الجزائر. لا هو ولا أيّ من الديبلوماسيّين فهم ما يجري. مثل كاربنتي، سمع هو أيضاً مضخّمات الصوت تردّد الشّعارات ورأى المضيفات وسوّاق التاكسي يتلون الكتاب الأحمر. مع ذلك، فقد منحت تلك الحيويّة انطباعاً بالبهجة. كانت بهجة في عيون الصينيّين دون شك، أوضح. لكنّ الأجانب يعيشون في الرّعب: خطأ بسيط كان كافياً لعقابهم (طبعاً، ما عدا الذين دعتهم الحكومة فقد كانوا أغلب الوقت محوطين بالصينيّين). لم يجرؤ السفير الجزائري الأحمر على الخروج. كان كاتب يخرج قليلاً في المساء، لكن بحذر شديد. خرج السفير البلغاري للقيام بمشتريات من مغازة بصحبة سائقه؛ أراد أحد العاملين أن يبيع للأخير صورة لماوْ: رفض السائق، وهي غلطة بالتأكيد، سقطت الصورة أرضاً. كادوا يفتكون بهما، لولا أنّ البوليس تدخّل. لكن في المساء، نشب حريق في السفارة: دام الحريق ثلاثة أيّام.

قرأتُ باهتمام بعض كتب ماوْ: لكن «الكتاب الصغير» سقط من يدي. مؤكّد لأنّ المقولات التي تملأه لا تشير سوى إلى تطوّر مُحيَ تماماً من البلاد: بقيت فقط حقائق بديهيّة مُحبطة وتافهة. قيل لي إنّ المسألة تتجسّد في تلقين فكرة موضوعيّة وعمليّة لشعب ما زال يرزح تحت الطبقيّة. هذا ما يُفسِّرُ تعلّق الصينيّين بتعلّم المسيحيّة. لكن اليوم – مايو 71 – لا أفهم لماذا؟

لم ينجلِ عنّي الغموض بعد زيارة للسفارة الصينيّة سنة 1967. تناولنا العشاء مع آل «بوردي» و«فيركور». لم يقدّموا الويسكي كذي قبل: قبل ذلك بأيّام تظاهر طلبة صينيّون أمام السفارة، مُتّهمين القنصل بالتّرف والفساد؛ احتسينا أثناء العشاء النّبيذ الأبيض ونبيذ الأرز. رأيتُ من يمارس التحدّث ساعات دون قول أيّ شيء: سنة 55، في الصين؛ في الاتحاد السوفيتي، خلال المآدب الرسميّة. لكن لم أرَ قط مثلما رأيتُ في ذلك المساء. لم ينطق الملحق الصحافي ولا الملحق الثقافي بحرف واحد. أراد «بوردي» إغواء السفير لإفصاح فتكلّم معه بالروسية لكنّه تظاهر بعدم فهمه. فسّر عن طريق مترجم، بأنّهم، في بيكين، لا يحرقون أعمال بيتهوفن ولا كتب شكسبير، لكنّهم يحاولون تطويعها للوقت الراهن. ورغم أنّ المسارح كانت مُغلقة فإنّ السفيرة، قد تبجّحت بالأوبرا التي تجري فيها الآن. بعد العشاء، احتسينا الشاي الأخضر وكي يتجنّب الحوار، أطلعنا السفير على ألبوم رسوم أنجزها منذ زمن، خلال الرحلة الكبرى. لم يجرؤ على إلغاء دعوة كانت قد وُجّهتْ إلينا قبل أسابيع، لكنّه استقبلنا على مضض. كان ومن معه من الصينيّين قلقِين. علمنا في اليوم التالي أنّ مدير وكالة الصحافة في بيكين قد أُقيل من منصبه. بعد فترة دُعيَ السفير (ثمّ عاد بعد ذلك. إنّه واحد من بين الديبلوماسيّين القلائل الذين تمّ الإبقاء عليهم بعد الثورة الثقافية في مناصبهم القديمة).

فقط، بداية من سنة 70، أمكنني أن أقرأ مقالات مُقنعة حول الثورة الثقافية: بدت لي كحكاية مُشوّقة. وعلى عكس ما يعتقد الاتحاد السوفيتي،

فإنّ ماوْ يرى أنّ الاشتراكيّة تنتِجُ تناقضاتها الخاصّة وأنّ تأميم الأساليب لا يكفي كي تنتقل السلطة إلى العُمّال والفلّاحين؛ فيما كان «ليو Liou» يرى في الحزب جانبه الستاليني، مُعتبراً إيّاه تعبيراً جماهيريّاً متجانساً، أراد ماوْ أن يكشف عن النزاعات داخل الحزب من جهة وبين الحزب والجماهير من جهة أخرى. لقد منح الكلمة للشعب بتشجيعه للـ «دازيبُوا *daziboas*» (لوحة كُتبت بأحرف كبيرة بإمكان كل فرد أن يُعلّق عليها آراءه أو أن يفضح أعداء الشعب).، جيّش الحرس الأحمر ضدّ النخبة البيروقراطيّة والاقتصاديّين الصاعدين. اعتمد على الجيش، لا بوصفه وسيلة قمع عنيفة بل لأنّه مثّل، تحت إمرة «لين پياوْ»، جهاز بروباغندا ثوريّة من الطراز الأوّل. كانت الاضطرابات التي أفضت إليها المقاومة، بعيداً عن كشف هشاشة النظام، مقصودة وكان تطوّرها مسموحاً به أيضاً. مع ذلك، كان لابدّ، في قلب المواجهات بين الحزب واللّجان الثوريّة والحرس الأحمر، من آلية عليا: هذا هو معنى وسبب «طقوس الهويّة» التي تعزّزت في تلك الفترة. كان ماوْ وحدَه، من بين منْ «لوّحوا بالعلم الأحمر ضدّ العلم الأحمر»، القادر على تمييز الماويّين المُخلصين.

انتهت الثورة الثقافية في شهر أبريل من سنة 69، عندما حرّر المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الاشتراكي في بيكين بيانه. لكنّ ماوْ كان يعتقد أنّ الصراع بين الجماهير والبيروقراطيّين سيدوم عقوداً؛ أطلق فكرة «الثورة المستمِرّة» أي فكرة أن تنشأ تناقضات لا نهاية لها من صلب تواجد ثورة أبديّة داخل الثورة. هنا، يبدو أنّ عدداً مُهمّاً من الأهداف قد تحقّق. سعى النظام لتمرير مسؤوليّات أوّلية للجماهير في شتّى المجالات: الطبّ، التدريس، التصرّف في المؤسّسات التجاريّة. وحاول أيضاً إلغاء المسافة بين عُمّالِ السّاعد والمُفكّرين، أي أن يرتبط التعليم النظري بالتطبيق. على أمل الوصول إلى «إنسان جديد» قريبٍ من ذاك الذي تمنّى ماركس أن يوجِدَه.

منع ظهور طبقات اجتماعية مُمَيّزة، منح السلطة للشعب، أن يُجسّد

كلّ شخص نموذج الإنسان الكامل: لا يسعني إلا أن أنحاز إلى مشروع كهذا. مع ذلك، لم يكن من الحكمة أن أمنح الصّين ثقة عمياء مدحها الاتحاد السوفيتي كثيراً. يثير اهتمامي الجانب التلفيقي في بروباغندا المجلات المُوّجهة إلى الغرب. لو قيل لي إنّ من حق العمّال الحصول على ثلاثة أسابيع من الراحة لكنّهم يقومون بالتضحية من باب التحمّس للاشتراكيّة، فما أفهمُه هو أنّهم لا يتمتّعون براحة: لا مكان للحماس في الدستور. من الغريب الزّعم بأنّ الصّين هي الجنّة، في حين أنّ ماوْ نفسه اعترف بأنّ الثورة لم تنتهِ بعد. لكنّه من ناحية أخرى، غيرُ مُضطرّ ليصنع أسطورة كي يتمّ التعاطف معها.

أمكننا خلال فترة قصيرة أن نحلم بأن تُفتَح أمام العالم الثالث آفاق جديدة غير متوقّعة. تعد أفريقيا بتجديد الحضارة، أن تضيف «لوناً آخر لقوس قزح»، أعلن «ديمون» قبل سنوات. أيّدت الأحداث هذا التنبؤ الغريب. أوّلاً أفريقيا ليست مُتحرّرة. العنصريّة متواصلة في جنوب أفريقيا – بمباركة عدد من الدول الأفريقيّة – تقوّضت السلطة البرتغاليّة في أنغولا، غينيا والموزمبيق: لكنّها تقاوم. رغم الأنظمة السياسيّة الجديدة فإنّ الشعوب المُستَعمَرة ما زالت مُستغلّة اقتصاديّاً. كانت نسبة سكّان الريف عندما حصلت هذه الدول على استقلالها سنة 1960، من 80 إلى 90%. وخلال عشر سنوات كان النمو الديمغرافي أسرع من النمو الاقتصادي إلى درجة أنّ الشعب آخذ في النزول إلى الفقر من سنة إلى أخرى. لمحاربة الفقر، أراد بعض الزعماء، تغيير القوانين التي ورثها عن المُستعمِر؛ هوجموا وعُزلوا؛ اليوم، تمّ الانقلاب على جميع الأنظمة التقدّمية الحقيقيّة. ظلّت القارة السوداء نامية وضحيّة لثورات جوع، تُحرّض عليها غالباً القوى الرأسماليّة التي لديها مصلحة في التقسيم.

حدث ذلك طيلة ثلاثين شهراً من الحرب التي شنّتها بيافرا على نيجيريا كي تنتزع منها استقلالها. طالب الـ«إيبو» Ibos بها منذ سنة

45: من كامل أفريقيا، كانت تلك هي الطائفة الوحيدة التي تمتلك ثقافة متقدّمة والأغنى ولم يكونوا يتحمّلون سطوة الإقطاعيّين الشماليّين، الذين تدعمهم إنجلترا. ارتكبوا خطأ سياسيّاً من العيار الثقيل عندما بسط الحزب الإقطاعي نفوذه على نيجيريا الشماليّة وافتكّ الحكم سنة 1960 غداة الاستقلال؛ وبدل التحالف مع «يوبا» Youba، شعب الجنوب الذي يتزعّمه «أوُولُوو» Awolowo، تركوا القادة يفكّكون الحزب المُجتمع حوله. دفع الـ«إيبو» ثمن الخطأ باهظاً جدّاً. سنة 66، إثر انقلاب، نصّب ضبّاط شباب من الـ«إيبو» الجنرال «إيروزي» على رأس الدّولة، وتصالح الـ«يوبا» مع الـ«هوسا». نُكّلَ بزعماء الـ«إيبو» و«إيروزي» ومئتيْ ألف ضابط وثلاثين ألف مدنيّ (نساء، رجال، أطفال) وتعرّض مئات الآلاف إلى الاعتداء. هرب مليونان إلى شرق البلاد وكان تحت زعامة واحد من الـ«إيبو»، «أوجوكوو» Ojukwo. طالب الرأي العام هذا الأخير بزعامة الجزء المُنشقّ. طالب سنة 67 باستقلال بيافرا، المأهولة بأربعة عشر مليون ساكن. اعترف الثُوّارُ الأفارقة الأصليّون ببيافرا: «جوليوس نياريري» زعيم تنزانيا و«كرمث كوندا» رئيس زامبيا. اعترفت بها الصين سنة 68. لكنّ القوى الرأسماليّة اهتمّت بالنزاع في بيافرا لأنّها كانت تحتوي على ثروات نفطيّة مُهمّة. ساندت إنجلترا حكومة «لاغوس» لأنّها أرادت إبقاء نيجيريا في وضع من الاستعمار المُقنّع. زوّدتها بالقنابل والطائرات. قامت مصر والاتحاد السوفيتي بنفس الشيء لأسباب متعلّقة بالوجاهة. وجد الثمانية ملايين إقطاعي الذين اجتاحوا بيافرا أنفسهم مُحاصرين في رقعة أرض ضيّقة، مقطوعين تماماً عن بقيّة العالم. أنكرت «لاغوس» على الهلال الأحمر حقّ تزويدهم بالأطعمة والأدوية. تسبّب الجوع والغارات الجوّية في مقتل مليونَيْ إنسان. وحتّى بعد استسلام بيافرا، يناير 70، رفضت الحكومة النيجيريّة بحجّة الكرامة الوطنيّة مساعدة الهلال الأحمر الأجنبي، فكان ذلك بمنزلة إصدار حكم بالموت على عشرات آلاف الأطفال. التقيتُ قبل وبعد الهزيمة بعدد كبير

من الأطباء والصحافيّين العائدين من بيافرا، مصدومين رعباً. وقّعنا مع شخصيّات يساريّة، أنا وسارتر، نصّاً يقول: «بعد قتل الأمل في بيافرا امتدّ حكم العصابات السياسيّة بحجم الكوكب... ليسعَد القتلة والمنظّرون المأجورون: لقد جاب هذا الحكم العالم». أراد جهاز البروباغندا التابع لـ «لاغوس» إقناعي بأنّ الإبقاء على الحدود المرسومة من قبل الإنجليز والتي كانت تصبّ في مصلحة المُستعمِر، هي ضروريّة كي تنشأ الاشتراكيّة. أيّد جزء كبير من اليسار الفرنسي بدعم من الاتحاد السوفيتي «مذبحة بالمعنى التاريخي» كما سمّاها «ماريانستراس Marienstrass» في مقال كتبه للـ *أزمنة المعاصرة*. مع أنّ الـ «إيبو» يُشكّلون شعبا وأنّ اليسار ما انفكّ يعتقد أنّ الكفاح الوطني للمُضطهَدين هو الطّريق الأمثل نحو الكونيّة، وكان عليه أن يعترف بحقّ هؤلاء في تقرير مصيرهم. وحتّى لو بدت له قضيّة «لاغوس» مشروعة، فما كان عليه أن يقبل برحابة صدر بإلغاء ثقافة بأكملها، وإبادة مليونَيْ إنسان من بينهم جيل كامل من الأطفال. هذه اللامبالاة، تجعل من الغضب إزاء الأطفال ضحايا حرب الفيتنام، أمراً مثيراً للريبة. أذهلني خلال السنوات الماضية هذا المدّ من الوحشيّة والمذابح بتشجيع أو بقبول من «التقدّميّين» في فرنسا والعالم.

منذ سنوات أيضاً، تمرّ في صمت مذابحُ تقترفها الحكومة السودانية في حقّ شعب جنوب النيل. ولم يتأثّر اليسار إلّا عندما شنّ *النميري* حملة قمع همجيّة ضدّ الضبّاط والنقابيّين الذين أرادوا إسقاطه في يوليو 71: تعذيبٌ وإعدام بالجملة، وملاحقة للشيوعيّين.

إذا نظرتُ إلى أمريكا اللاّتينيّة فإنّ الحصيلة غير مطمئنة. لم يكن قابلاً للتصوّر أنّ تتكرّر معجزة الثورة الكوبيّة مرّة ثانية. كانت لي علاقات بعناصر ثوريّة من فنزويلا، بوليفيا وكولومبيا؛ كان اليسار مُنقسماً في كلّ من هذه الدّول، كان من الصعب قيادة المُتمرّدين، وكان القمع قاسياً وتكاد حظوظ النجاح تكون معدومة. كأنّه أمر مريح أن يعلم المرء بوجود

قوى تعارض الحكومة المدعومة من قبل الولايات المتّحدة. سرّتني إنجازات جبهة التحرير الفنزويليّة على وجه الخصوص. من جهة أخرى شكّل انتخابُ «ألاندي Allende» في شيلي انتصاراً لليسار لكنّه وللأسف سيكون دون غد.

عندما عُدنا إلى البرازيل سنة 1960، كنتُ وسارتر مقتنعيْن بأنّ الثورة الاشتراكيّة لن تقوم في هذا البلد قبل زمن طويل. أكّد لنا الشيوعي البرازيلي المشهور، «بريستر»، العكس؛ برهن لنا رجل اقتصاد تروتسكي نفس الفكرة: كلاهما استند إلى صورة ماركسيّة مُجرّدة للجزم بحتميّة الاشتراكيّة. في الواقع، لقد لاحظنا أنّ البروليتاريا البرازيليّة، المحظوظة مقارنة بالفلّاحين، لا ترغب في الثورة؛ كان الريف الشمالي الشرقي في وضع ثورة لكنّه كان عاجزاً تماماً. مع ذلك لم نعلّق آمالاً كبيرة على تحرّك القوة لسنة 64: أكّد لنا أصدقاؤنا في البرازيل لعدّة أسباب أنّ الجيش مسالم. إنّما انقلب العسكريّون على الحكم ومنحوه لـ «كاستلّو برانكو». وضع هذا الانقلاب الذي شجّعته أمريكا، الاقتصاد برمّته تحت نفوذهم؛ أدّت مكافحة الاشتراكيّة إلى الإلغاء الكامل للحرّيات: ساد الخوف بين صفوف النقابيّين والريفيّين؛ انخفضت الأجور بشكل شامل؛ وتمّ تعليق العمل بـ *مبدأ الحرّيات habeas corpus*. اختار عدد كبير من الديمقراطيّين والمُفكّرين المنفى الطوعي. تركّزت مقاومة؛ لكن نحنُ نعلم حجم الاضطهاد ووحشيّته: سجن، تعذيب، اغتيالات منظّمة من قبل سرّيات الموت. التقيتُ في باريس بعدد من المعارضين الذين تلقّوا التعذيب؛ آخرون عُذّب أقرباؤهم أو سُجنوا ممنّ رأوهم يختفون. وصفوا لي مناخ الشّبهة الذي خيّم على البلاد؛ كان الناسُ أثناء الزيارة يتظاهرون بعدم معرفة بعضهم بعضاً، خشية أن يُشتبَه أحدُهم في أنّه شريك لجاره؛ كان الطّلبة يتحاشَون الإفصاح لزملائهم عن آرائهم الأقلّ تخريبيّة. جعل الخوف من تعبئة معارضة أمراً صعباً للغاية.

فسّر لي بعضُ أصدقائي البرازيليّين بالتّفصيل، الطّرق المتّبعة للتأكّد من إبادة الهنود. كانوا يائسين تماماً، أمام عجزهم عن دفع هذا الكمّ الهائل من التنكيل المنظّم. المسألة اليوم، معروفة وكلّ احتجاج هو ضرب من العبث حتّى إنّي صرتُ أفكّر أنّ العودة إليها ستكون بلا طائل.

عرفتُ مؤخّرا - يناير 72 - أنّ حملة إيقافات شُنَّت في الأرجنتين؛ سُجن معارضو النّظام وكلّ المشتبه فيهم، وعُذّبوا بوحشيّة. تلقّيتُ رسالة من صديقة عانت طويلاً تحت رحمة «مولّد الكهرباء». كان هناك احتجاجات. لكنّ الحكومة ردّت بأنّ المساجين كانوا قد آذَوْا أنفسهم بضرب رؤوسهم على الجدران: «لم يكن في مقدورنا حراسة كلّ الزنزانات»، ختم كلامه.

وإن كانوا المسؤولين عن الانقلاب في البرازيل فقد أيّدت الولايات المتّحدة إسبانيا فرانكو، التي أنشئت على أسس بوليسيّة عشوائيّة، كما بيّنت محاكمة «بورغوس» الحزينة. كانت، أيضاً، ديكتاتوريّة بوليسيّة همجيّة في اليونان. يوم 21 أبريل 1967، بإيعاز منهم، استولى العسكريّون على الحكم في أثينا. تحوّل النواب البرلمانيّون إلى خطر بالنّسبة إلى الأقلّية الفاسدة بسبب الاستياء الذي كان مُخيّماً على البلاد. كان الاقتصاد في خدمة الأقطاب لا في صفّ مصالح الشّعب. بدأت تظهر علاقة التحام بين العُمّال والفلّاحين والبورجوازيّة الصغيرة وجزء من البورجوازيّة المتوسّطة؛ كانت القوى الديمقراطيّة ستكسب الانتخابات بنسبة ساحقة. لعب الجيشُ ضدّها «خطّة ضدّ التّدمير الداخلي» الذي كان على كلّ دُوَلِ حلف شمال الأطلسي. سحقت الأقلية الاقتصاديّة الفاسدة الجماهير مرّة أخرى، الذين لم تكن لهم القدرة على التعبير السياسي في غياب حزب وبرلمان. مارس عليهم النظام سياسة التّعتيم؛ كانوا يكوّنون الكوادر لغايات معروفة لكن الفكر والخلق كانا معدومَيْن. أعادوا إلى الحياة أساطير الأجداد والمعتقدات الدينيّة المتوسّطية. نزح الريفيّون إلى المدن هرباً من البؤس في البوادي فسقطوا في البطالة.

كانت كلّ معارضة تلاقي الاضطهاد ببربريّة. تعزّز القمع البوليسي الذي كان يمارس دائماً في اليونان. سُجِن وعُذّب بوحشيّة رهيبة ورُحّل كلّ المواطنين المُشتبه في تعاطفهم لا فقط مع الشيوعيّة بل وحتّى مع الديمقراطيّة. عدد كبير من بين الذين هربوا من اليونان، يعيشون اليوم حياة منفى سيّئة.

ما إن يبدو لهم أنّ حركة قوميّة أو شعبيّة تُهدّد مصالحهم، حتى تسحقها الولايات المُتّحدة. ملايين البشر، اليوم، يعيشون حالة دون الإنسانيّة كي يستطيع الفاسدون تكديس ثروات العالم الثالث. الفضيحة الغريبة، كما برهن رجال اقتصاد، أنّ مليارات الدولارات التي تسطو عليها أمريكا لم تكن تُوظّف لمصلحة الشعب الأمريكي: يعيش قسم كبير منها - السود على وجه الخصوص - في الفقر والبؤس. تستثمر الحكومة أرباحها الضخمة في الصناعات الحربيّة، حتّى إنّ استغلالها الفاحش للكوكب يجعل منها المسؤول الأوّل عن تدميره.

داخل البلاد، باتت أوضاع السود التي عاينتُها منذ أوّل رحلة لي، لا تُحتَمَل، ما جعل نسبة الجريمة تتفاقم بين الأوساط الأفرو-أمريكيّة، يليها تفاقم في القمع. كان الفهود السود مُطارَدين ومسجونين ومقتولين. يبدو أنّ البوليس قد نجح في تفكيك أو شلّ عدد كبير من الحركات، من بينها حركة «عُمّال الأرصاد»، المتمرّدين البيض المؤيّدين للطرق الإرهابيّة. مع ذلك، فإنّ أغلب الأمريكيّين الذين تحدّثتُ معهم يعتقدون أنّ النظام لا يسمح بالعيش: كان يسود في الولايات المتّحدة مناخ من العنف، والبطالة المتزايدة، شغّل الأمن عدداً كبيراً من العاطلين والمنحرفين، إلى درجة أصبح يُخشى معها من انهيار الاقتصاد؛ حتّى على المستوى التقني، كانت هناك العديد من التناقضات. «كان على كلّ شيء أن ينهار حتماً، إذ من غير المعقول أن يستمرّ هذا»، قال لي بعض الأصدقاء. ربّما تسبّب هذا التداعي بثورة على الصعيد العالمي؟ لا أدري إن كنتُ سأعيش ما يكفي لأشهد ذلك، لكنّه أفق مُريح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل VIII

بين 62 و68، لم أهتمّ قط بما يجري في فرنسا. لم يكن لليمين الذي توحّد ورضي بوصوله إلى الحكم، من هدف غير الحفاظ عليه؛ حاول اليسارُ المنقسم، عبثاً، الالتفاف حول برنامج متناسق: لم يكن لمواجهاتهم ما يبعث على الطمأنينة. خلال انتخابات 65، أحسستُ بالرضا لرؤية ديغول يحصل على تعادل في الأصوات؛ لكنّي لم أكن أكنّ تعاطفاً مع منافسه الجادّ «ميتران»: كانت أفكاره والجماعات التي يُمثّلها غريبة عنّي. لم أعد في قلق مثلما كان الحال خلال حرب الجزائر؛ لكنّي لم أكن فخورة ببلدي. لقد تصالح مع حكومة فرانكو، فيما كان الأخير يقتل «غريمو Grimau» زعيم الحزب الشيوعي. سجن ثلاثة عشر شخصاً من جزيرة المارتينيك، لم يعترفوا بأنّ المارتينيك مقاطعة فرنسيّة. سببت قضية بن بركة الخزي: لم تشهد الجمهوريّة الثالثة ولا الرابعة نشاطاً بوليسيّاً واسع النطاق مثل هذه الحكومة. اهتممتُ بالنزاع الذي قسّم الحزب الاشتراكي والحركات التي رجّت الجماهير: التحرّك الريفي، إضراب عُمّال المناجم المُحتجّين ضدّ تصفية مناجم الفحم. لكنّي لم أشعر بأنّي معنيّة مباشرة بأيّ شيء.

بصفتي أستاذة سابقة ولأنّ علاقات صداقة تجمعني بجيل الشباب، فقد اهتممتُ بالمشاكل التي بدأت تظهر في عالم الطّلبة. في شهر فبراير من سنة 64، كتب «كرافيتس» رئيس اتّحاد الطلبة الفرنسيّين، في *الأزمنة المعاصرة*، مقالاً يهاجم فيه المجلس القضائي؛ كان يُطالب بتصوّر مختلف للثقافة والحرّية، مشيراً إلى ضرورة خلق تحوّل في علاقة الطالب بالأستاذ. أطلق الاتحاد شعار: «السوربون للطلبة» رافضاً بذلك كلّ علاقة

عموديّة. سنة 65، كان هناك نقاش في *الأزمنة المعاصرة* حول هذه المسألة. رفض كرافيتس وبعض من رفاقه إخضاع الطلبة إلى التكنوقراطيا. لم يكن مُحرّرو المجلّة على تمام الرضا مع هذا المبدأ؛ بالنّسبة إليَّ أنا وسارتر فقد أيّدنا وجهة النّظر: على نقل المعرفة أن يتمّ عبر وسائل جديدة يجب البحث في شأنها.

ظهرت ميول مشابهة في دول أخرى، في صلة بالاتّجاهات السياسيّة. اندلعت في الولايات المتحدة ثورة طلابيّة ديسمبر 64، في بركلاي، حول الحقوق المدنيّة. في ألمانيا احتجاجاً على الحرب في فيتنام، اجتمع طلبة أمام السفارة الأمريكيّة ورشقوا واجهاتها بالبيض. ثمّ لاحقاً، اجتاحوا الجامعة احتجاجاً على التراتيب التفاضليّة. وتدريجيّاً انتهى بهم الأمر إلى اعتراض عامّ على المجتمع الرأسمالي. وزّعت منظّمة الطلبة الاشتراكيّين الديمقراطيّين مناشير ثوريّة. أبريل من سنة 67، نظّمت مسيرة ضدّ هامفري Humphrey [19]؛ وأخرى في يناير ضدّ شاه إيران: قتل شرطي طالباً برصاصة من مُسدّسه، ما أدّى إلى حراك طلّابي عارم. ورغم تفاقم الاضطهاد، فقد أسّسوا لجنة تحقيق وجامعة نقديّة. انتشر حراكهم في كامل أرجاء ألمانيا. كانوا يناضلون ضدّ الحرب في فيتنام، وداخل بلدهم، ضدّ احتكار الصحافة المقروءة. كان في ألمانيا وإيطاليا وهولندا وإسكندنافيا اضطرابات طلابية عنيفة.

الحوادث التي أعلنت عنها الصحافة في فرنسا، كانت أقلّ أهمّية. عندما جاء «ميسوف Misoffe» إلى جامعة «نانتير Nanterre» لتدشين المسبح، أخذه أحد الطلبة جانباً واشتكى إليه مشاكل الطلبة، كان اسمُه «كوهين بنديت». في نانتير أيضاً، حيثُ يمنَع على الطلبة دخول البنايات المُخصّصة للنساء (والعكس كان مسموحاً)، احتجّوا غاضبين: «لا للمُخيّمات الجنسيّة» اجتاحوا في فبراير من سنة 68 حي النساء. أدانوا الأوضاع المُزرية

19- هامفيري Humphery: سياسي أمريكي شغل منصب نائب الرئيس الثامن والثلاثين للولايات المتحدة في عهد الرئيس ليندون.

التي يعملون في ظلّها. خصّصت الصحافة حيّزاً ضئيلاً لهذه الاحتجاجات، أمّا أنا فلم يكن في وسعي أن أقيس حجم أهميّة الموضوع.

مثل كلّ الناس، بدأتُ أشكّ في الأمر في شهر مارس. إثر عمليّات العنف ليلة 17 إلى 18 مارس، تمّ إيقاف أربعة تلاميذ معاهد كانوا أعضاء في لجنة مناهضة للحرب في فيتنام. يوم 22 مارس، في نانتير، وبمبادرة من كوهين بنديت، شغل طلبة طابق الإدارة؛ خطّطوا لبرنامج حراك ضدّ حرب فيتنام وضدّ القمع الذي يرون أنّهم يرزحون تحته. وزّعوا المناشير طيلة الأيام الموالية، وشوّشوا سير الامتحانات. ولأنّ العميد كان قد أغلق الجامعة خلال نهاية الأسبوع، فقد اجتمعوا في مُدرّج ديكارت بالسوربون. يوم 12 أبريل تظاهروا في الحيّ اللّاتيني تضامناً مع «رودي دوسكي Rudi Duske»، زعيم *طلبة من أجل مجتمع ديمقراطي*. الذي أصيب بجروح خطيرة بالأمس من قبل فاشيٍّ ألماني.

نعرف الأحداث الموالية: أغلق «غرابان» عميد جامعة نانتير الجامعة لكي «يروّضَ» المسعورين، فاجتاحوا السوربون، وطلب لهم «روش Roche» البوليس. أُجلِيَ الطلبة من السوربون وتمّ إيقاف عدد كبير منهم في الخارج. دعت النقابة الوطنيّة للتعليم العالي الأساتذة إلى إضراب عام. ونظّم اتّحاد الطلبة، مظاهرة يوم 6 مايو، اليوم الذي كان على كوهين بنديت وآخرين أن يمثلوا أمام مجلس التأديب في السوربون. طُبِع يوم 6 مايو، بمواجهات بين الطلبة والبوليس في الحي اللّاتيني وكانت الرائحة الطاغية – التي أصبحت مألوفة – هي رائحة الغازات المُسيلة للدموع. مساءً، فتحتُ الراديو، عكس عاداتي، ولم أبرح الاستماع مدّة أربع ساعات. نقلت «أوروبا الأولى» و«راديو لكسمبورغ» لحظة بلحظة، المعركة الجارية في شارع سان–جيرمان: كنّا نسمعُ خلف أصوات المُراسلين المرتعشة، صخب الحشود وضجيج الانفجارات. كان ما يحدث خارقاً للعادة: نصب المتظاهرون المتاريس، ونجحوا في إبعاد فصائل الأمن الجمهوريّة بالحجارة، وحتّى قاذفات الماء السّاخن. علمنا في اليوم الموالي، أيَّ وحشيّة ضرب بها

البوليس الطلبة بالعِصيّ، ملاحقة إيّاهم حتّى في البنايات التي احتَموا بها؛ أوسعوهم ضرباً في المخافر. لكن هل في وسع القمع أن يُخرِسَ هذه القوّة الجديدة التي انفلتت من عقالها للتوّ؟ كنتُ آملُ، أنا وأصدقائي، أن تُحرّك اضطراباتهم النظام أو حتّى أن تُسقطه: تحوّل الشّعب إلى انتفاضة.

في اليوم الموالي، سار بين عشرين ألفا وخمسين ألفاً من «دينفر روشرو» إلى ساحة «النجمة L'étoile» صادحين بالنّشيد الوطني مُلوّحين بالأعلام الحمراء والسّوداء. كانت السوربون منيعة بسبب البوليس الذي طوّقها؛ لكنّ كوهين بنديت ورفاقه لم يمثلوا أمام مجلس التأديب.

رُوِيت ليلة العاشر من مايو المشهودة مائة مرّة، الأيام التي نجح فيها حراك النقابات. أصبح نضالهم شائعاً وشعبيّاً.

كثير من الأساتذة أيّدوا الطّلبة، من بينهم لورون شوارتز – رغم أنّهم كانوا قد سخروا منه منذ فترة غير بعيدة بسبب مواقفه التمييزيّة. وقف الأساتذة كاستلر، جاكوب، مونود إلى جانب الطّلبة وجاؤوا في صفّهم خلال ليلة المتاريس. لم نكن أساتذة لكنّنا شعرنا بالمسؤوليّة. في بيان نُشر يوم 9 مايو، عبّرنا عن تضامننا مع المُحتجّين، مهنّئين إيّاهم على إرادة «الهروب، بكلّ الوسائل، من نظام سلب الإرادة». نحنُ نأملُ، أضفنا، أن يحافظوا على «قوّة الرّفض» القادرة على فتح الآفاق. قال سارتر يوم 12 مايو في راديو لكسومبورغ إنّ العلاقة الجائزة الوحيدة بين الطّلبة وبين الجامعة هو كسرها لذا وجب النزول إلى الشارع. وردت تصريحاته في مناشير وُزِّعَت في الحيّ اللّاتيني.

ثمّ سرعان ما عاد الطّلبة إلى مُدرّجات السّوربون بعد فتحها. لم أتخيّل حفلة مماثلة، لا في مجد الشباب ولا حتّى بداية 68. كان العلم الأحمر يرفرف فوق الكنائس وفوق تماثيل العظماء. ازدانت الجدران بشعارات صُمّمت قبل أسابيع في نانتير. كانت الكتابات والمناشير والرّسوم واللّافتات تظهر كلّ يوم في الأروقة؛ كانت مجموعات تتحاور بحماس وقوفاً على عتبات السلالم. كان لكلّ اختصاص منصّته التي يُوزّع منها المناشير والجرائد.

منصّات فلسطينيّة تجاور أخرى خاصّة بيهود اليسار المُتطرّف. شبّان في مُقتبل العمر يتراصّون على مقاعد المُدرّجات: من يريد أن يأخذ الكلمة فليُعرّف بوضع وأفكاره مُطالباً بدور أو مُقترحات؛ كان الجمهور يجيب، مؤيّداً أو معارضاً. تمّ، في قاعات الدّرس، تركيز مكاتب للصحافة. عدد كبير من الطلبة قضوا اللّيلة في نفس المكان، محشورين وسط أكياس نوم. جلب متعاطفون عصائر الغلال والسندويشات والأطباق الساخنة.

كنتُ آتي باستمرار مع بعض الأصدقاء نجوب الأروقة والساحة. كنتُ دائماً ألتقي بأناس أعرفهم. كنّا نتنزّه، نتحدّث ونستمع إلى النقاشات: كثير منهم يحومون حول النزاع الإسرائيلي العربي، حول الأزمة الفلسطينيّة. ابتداءً من 15 مايو جرت حفلة في ساحة «أوريدون Orédon»: كان علم أسود يرفرف فوق المسرح الذي شغله الطلبة. هناك أيضاً دارت نقاشات مُهمّة وتناوب على الخطاب. كانت الأوركيسترا تعزف ألحان جاز راقصة. كان الجميع متحابّين، شباباً وكهولاً وشيوخاً.

مع ذلك، فهم الطّلبة أنّهم في حاجة إلى الطّبقة العمّاليّة إذا أرادوا إفشال النّظام. لقد لعبوا دور الشرارة لكنّهم لم يكونوا ليقوموا بثورة. يوم 17 مايو حملوا العلم الأحمر الذي رفرف فوق السوربون، إلى «بيلانكور Billancourt». كتبوا لافتة: «تتسلّم الطبقة العاملة العلم من بين الأيادي الهشّة للطّلبة». وفعلاً، اندلعت إضرابات في نانت وفي كل أرجاء فرنسا. كان لباريس هيئة غريبة طيلة أيّام. 18 مايو توقّف النقل العمومي. أصبحت السجائر نادرة. أُغلِقت البنوك وانتقصت السيولة. وقعت أزمة بنزين؛ طوابير طويلة من العربات اصطفّت أمام المضخّات الوحيدة التي ظلّت تعمل: يوم 21 مايو أُغلقت جميعها. أضرب عمال النظافة، فاضت الحاويات وامتلأت الشوارع بالقمامة. يوم 24 مايو بلغ عدد المُضربين بين تسعة وعشرة ملايين. تجاوزت مطالبهم الزيادة في الأجور؛ شغلوا المصانع حيثُ علّقوا الأعلام الحمراء. هتفوا بالشعارات: «عشر سنين، هذا كافٍ – المصانع للعُمّال – السلطة للشغّالين». بحث الطلبة عن مجال للتواصل معهم. خرجوا

في جماعات إلى أبواب المصانع: أغلق النقابيّون الممرّ دونهم. تواصل إضراب رابطة الطلبة الوطنيّين: كان إضراباً مفتوحاً، ومدّ فيه الطلبة شهراً آخر، الأمر الذي خالف كلّ التقاليد.

مساء 20 مايو، دُعِيَ عدد من الكتاب للمجيء إلى السوربون للتحاور مع الطلبة. وجدنا أنا وسارتر ومجموعة من الأصدقاء الذين رافقونا، أنفسنا أمام مسؤول شاب. كانت العاشرة صباحاً. بدا قلقاً. «لا مجال للامتثال، بل سيكون الحراك أكثر اضطراباً».، قال لنا. كان على المتحاورين الجلوس في الصالة، وسط الجمهور؛ لم نسمعهم جيّداً بسبب عدم وجود مضخّمات صوت. لن يُسمع سارتر بالتأكيد؛ بعض الطلبة لم يكونوا يُحبّونه، وبما أنّ القاعة كانت حافلة بأسباب الاستفزاز، فكان يُخشى فعلاً من شجارات جادّة. صعدتُ، متخوّفة قليلاً، إلى الطابق الأوّل، «مركز الاضطراب الثقافي» حيثُ كانت مارغريت دورا، دوفينيو، كلود روي، وكتّاب آخرون، عدد كبير من المنظّمين، والأستاذ لاپاساد رئيس الخليّة. أكّد لنا أنّ الجلسة ستكون متوتّرة؛ لن نتمكّن، ربّما، من دخول المُدرّج الذي يُفترَضُ أن يحتوي على أربعة آلاف شخص ويضمّ اليوم سبعة آلاف. طلبوا جميعاً التحوّل إلى الساحة وأن نتكلّم بالتناوب؛ ازدحمت الحشود، لكنّنا رفضنا. ثمّ، كيف السّبيل إلى الخروج من هذه القاعة أصلاً؟ كان الشّجار في الأروقة. بقينا برهة في مكاننا، وفجأة، اختُطِفَ سارتر: أخذوه إلى المصدح، قيل لنا. وفعلاً: من النافذة، وخلف المصدح، تحدّث سارتر إلى الطّلبة المُحتَشدين في الساحة. ثمّ راج أنّه اختفى؛ بدأتُ أقلق حين علمتُ أنّهم نجحوا في إقحامه داخل المُدرّج: هل سيتمكّن من الخروج؟ كيف ستجري الأمور؟ بعد قليل، جاء طالب يخبرنا أنّ النقاش قد انطلق وأنّ كلّ شيء يسير على ما يُرام. تذمّر بعض الكُتّاب غاضبين لدعوتهم من أجل لا شيء. «سئمنا من النجوميّة»، قالت مارغريت دورا.

انتظرتُ سارتر بصحبة أصدقائي في مقهى بالزار Balzar. قدم بعد ساعة، يتبعه حشد من الطلبة والصحافيّين والمُصوّرين. روى أنّ الجلسة

كانت صاخبة لدى دخوله المُدرّج، لكنّه نجح في إحداث الصّمت بعد بضع جُملٍ. أطلع مُحاوريه على حجم الأمل الذي يضعه في هذه «الديمقراطيّة البرّيّة التي صنعتموها والتي أزعجت كلّ السلطات». وأجاب خلال ساعة عن الأسئلة المُوجّهة إليه. في الختام صفّق الحاضرون بحرارة. انضمّ إلينا بعض الأصدقاء الذين اتّخذوا أماكن في المُدرّج منذ الثامنة والذين شهدوا على امتلائه شيئاً فشيئاً. عند التاسعة، لم يكن في المُستطاع إدخال فأر؛ اتّخذ بعض الطلبة مكاناً بين ذراعيْ ديكارت، آخرون على كتف ريش-ليو Riche-lieu. الغريب، قالوا لنا، هو أنّ الجماهير جاءت لتسمع خطاب سارتر لكن خوفاً من النجوميّة، لا أحد نطق اسمَه.

بعد ذلك، بقينا في اتّصال بالحركة. التقينا بـ «جيسمار Geismar» أكثر من مرّة؛ حاور سارتر كوهين بيندت لفائدة *الملاحظ الجديد*. كان الشبّان في مُحيطنا ينتمون جميعاً إلى لجنة التّنفيذ. كانوا يبيعون جريدة *العمل*، يوزّعون المناشير، ويشاركون في كلّ المظاهرات.

ركّز الطلبة متاريس ليلة 23 و24 مايو احتجاجاً على طرد كوهين بيندت؛ كانت المواجهات مع الأمن عنيفة. يومّ الرابع والعشرين، نظّمت الرابطة العامّة للشّغل مسيرَتَيْن لمساندة المُضربين، جرت في ظروف جيّدة دون حوادث. مساءً، اجتمع الطّلبة حشوداً أمام محطّة ليون. كانوا يستمعون إلى خطاب ديغول في الراديو الذي أعلن فيه إجراء استفتاء شعبي حول المُساهمة وصاحوا عليه ساخرين. تحوّل عدد كبير بينهم وعلى رأسهم جيسمار إلى البورصة وأضرموا فيها النّار؛ أطلقت «قوى حفظ النظام» العنان لغضبها: ضربٌ بالعصيّ، اغتصاب ودون شكّ قتل مُقنّع بحوادث سير. يوم 27 مايو انعقد اجتماع في ملعب شارليتي توافق فيه ميتران ومونديس فرانس، في غياب الرابطة العامة للشغل، لكنّه بدا واعداً. تظاهرت الرابطة بعد يوميْن. كان من المؤمّل أن يتّحد اليسار، أن يفرض على البورجوازيّة برنامجاً مناهضاً للرأسماليّة وحكومة انتقاليّة.

في الواقع، وابتداءً من ذلك التاريخ، كان الارتداد. أعلن ديغول، لدى

عودته من بادن بادن Baden Baden حيثُ التقى القوات العسكريّة سِرّاً، حلّ الجمعيّة العامّة. يوم 30 مايو، انتشر موكب من أنصار ديغول في الشان-إيليزي Champs-Elysées. ولدى تبخّر الجوهر، خرج الباريسيّون حشوداً، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. من ناحيته، قرّر «سيغي Séguy» وقف الإضراب، مُعتبراً نفسه قد نجح في تحقيق «نتائج مُهمّة» ووصف الطّلبة المُساندين للإضراب بالمُحرّضين. مع ذلك، تحوّل عدد كبير من الطّلبة لمصنع رينو احتجاجاً على احتلاله من قبل البوليس: اختنق أحدهم، «جيل توتان»، في محاولة للفرار من «قوى حفظ النّظام». في اليوم التالي قُتل عاملان في سوشو Sochaux. مساءً، دعا اتّحاد الطلبة الفرنسيّين، الطّلبةَ، للاحتجاج ضدّ القمع أمام محطة الشّرق؛ أغلق البوليس الحيّ بشدّة. نشبت مواجهات عنيفة جدّاً في الحيّ اللّاتيني؛ هاجم المتظاهرون الحافلات ومراكز الشّرطة، قطعوا الأشجار، أحرقوا السيّارات، وهشّموا الواجهات؛ كان بينهم أربع مائة جريح. أرهب عنفهم الأهالي فكفّوا عن التّعاطف معهم. وضع البوليس خطّة تجعل من التجمّعات أمراً مُستحيلاً. مُنعت المُظاهرات، وتفرّقت الجموع. ظلّت سيتروان في إضراب، طُرد ثماني مائة أجير. انطلق إضراب في ديوان الإذاعة والتّلفزيون الفرنسي: فُصِلَ كلّ الشغالين الذين شاركوا في الإضراب.

زرتُ السوربون في مناسبة أخيرة يوم 10 يونيو. التقيتُ لاپاساد وكان مُتحمّساً جدّاً. «تحدُث هنا أشياء رهيبة، قال لي. سأطلعكِ عليها». كانت الأقبية مليئة بالجرذان، ما قد يتسبّب في أوبئة خطيرة. «الأوبئة، ثمّة واحد فقط، أجاب طبيب شاب: البراغيث». كلاهما اشتكى من التعفّن الشامل للأوضاع؛ خلال اللّيل، تمتلئ السوربون بالمومسات والمجانين والمتشرّدين. كان تُجّار المُخدّرات يأتون لبيع بضاعتهم في كلّ ساعة داخل الأروقة: كانت رائحة المُدرّجات تفوح بالحشيش والماريجوانا. صعدنا إلى الطوابق العلويّة حيثُ المصحة «الموازية» التي اتّهم الطبيبُ بأنّها سرقت المورفين من المصحة الرسميّة؛ أكّد لاپاساد أنّها مسرحٌ لبيع

المُخدّرات ولعمليّات الإجهاض. فتح باب موصد من الدّاخل: وجدنا أنفسنا وسط حجرة ليس فيها سوى مرآة وسرير. قدّمني بمبالغة وسأل ما الذي يحدث هنا في هذا المكان. «إنّه لمعالجة الكُتّاب المُتعَبين»، قالت شابّة وهي تمسح على رأسي بوقاحة: في الواقع، كنتُ أبدو كأنّي أتدخّل فيما لا يعنيني. قال الطّبيب، ونحنُ ننزل، إنه ذاهب إلى «رين Rennes» لإثارة البلبلة، من هناك سيجلب البطاطا للمُضربين: كان في السوربون فائضٌ منها. أطلعني لاپاساد، بعد ذلك على شبّان كنغوليّين من «كاتنغي» تحديداً، كانوا يضعون خوذات ومُسلّحين بقضبان حديديّة؛ كانوا يدافعون عن السوربون من أيّ اعتداء غربي وأظهروا شراسة كبيرة ضدّ البوليس؛ لكنّ لاپاساد كان خائفاً من أن يقع هؤلاء الطلبة بين أيدي المرتزقة، منزوعي الانتماء السياسي تماماً: كان عدد كبير منهم من بين قدماء المنحرفين. أصرّ لاپاساد على أن يأخذني إلى الأقبية كي يُرِيني الجرذان، لكنّي رفضت: رفضتُ أيضاً أن أكتب مقال «تعفّن السوربون» الذي كان قد طلبه منّي. لم أكن أشاطره غضبه الخاصّ، وعلى أيّ حال لم أكن لأفضح الطّلبة. ظهر المقال المطلوب 12 يونيو في صحيفة *لوموند* *Le Monde*، تحت توقيع «جيرود دي لاين Gerod de L'ain».

أجُليت السوربون والـ أوديون لاحقاً. فرّخ البوليس ثانية في الحيّ اللّاتيني. رمى بعض الطّلبة قوارير مولوتوف من فوق الأسطح. ثمّ عاد الهدوء – هدوء جنائزي. في الطّرقات، غُمِر الممشى بالزّفت. صعد عُمّال بالسّلالم وحكّوا جدران المكتبة وكنسوا المُعلّقات الجميلة. كانت البلاد متضامنة في البداية، ثمّ متسامحة، كانت تتنفّس النّظام. كانت الانتخابات نصراً ساحقاً لأنصار ديغول. لقد أُجهِضت الثّورة. لم يفهم أكثر الطّلبة تبصّراً ما جرى. كانوا جميعاً تقريباً، ينتمون إلى رابطات مؤيّدة لفيتنام وكانوا متأثّرين بصمود الفيتناميّين: يبرهن هذا على أنّ أقلّية صاحبة قرار قد تهزم قوّة أكبر منها. هكذا سيق الطلبة للعب دور الشّرارة. لكنّهم كانوا مدركين أنّ تحرّكهم الكبير لن يؤدّي إلى إسقاط النّظام: «لا تقوم الثّورة في

يوم، واتّحاد الطّلبة والعمال ليس للغد»، قال كوهين بيندت. لكن، ومع اعترافهم بالفشل فقد استمرّوا في الأمل: «ليست هذه سوى البداية، علينا أن نواصل الكفاح».

أكّد سارتر في أكثر من حوار عمّا يعتبره أصيلاً في انتفاضة مايو. وبدل أشكال الثّورة التي كانت هي الحاجة، وضع الطّلبة أساليب جديدة للاحتجاج: السّيادة. تحوّلت فكرة السّلطة في مجتمعنا التكنوقراطي إلى فكرة أهمّ من الملكيّة؛ إنّهم يطالبون بالسلطة: أن يمتلكوا مصيرهم بين أيديهم. فهموا أنّ الفرد في هذا العالم اللاإنساني يُعَرَّفُ بالأشياء التي يُنتجها أو المنصب الذي يشغله: ثاروا ضدّ هذه الوضعيّة، وطالبوا بأن يقرّروا بأنفسهم أيّ دور عليهم أن يلعبوا. حذا العُمال الشّباب حذوهم: تمرّدوا على الظروف البروليتاريّة، الأمر الذي يُعتبر جديداً ومُهمّاً للغاية.

لم يرَ المتحزّبون في أحداث مايو سوى انفجار صبياني ورومانسي: في الواقع، لقد كانت أزمة مجتمع لا أزمة جيل. برزت تناقضات الرأسماليّة واضحة في كون الطّلبة المتزايدين لم يكونوا يرون أفقاً في انتظارهم: سلّط هذا الانفجار الضّوء على النّظام وأسّس منطقة حامية بالنّسبة إلى البروليتاريا. لهذا، أضرب تسعة إلى عشرة ملايين عامل. طُرح للمرّة الأولى منذ خمسة وثلاثين عاماً سؤالٌ مهم حول الثورة وانتقالها إلى الاشتراكيّة في بلد رأسمالي مُتقدّم. برهن مايو أنّ المقاومة من أجل بسط النفوذ على العُمّال قائمة، المبادرة الخلاقة للحشود الضروريّة. أشار أيضاً إلى ظروف الكفاح الناجعة لفائدة الاشتراكيّة: كان لابدّ من خلق أرضيّة صلبة قادرة على القيام بثورة في البلدان الرأسماليّة المُتطوّرة.

كان حراكُ مايو، بشكل غير مباشر، هو الذي قاد إلى هزيمة ديغول أبريل 69. سُررنا بذلك. ضحكنا كثيراً من ارتباك الفريق الحاكم. في خطاب له في الراديو، وسم «لا مالين La Maleine» والديك روشي: بالديك وشي. أعلن هؤلاء السّادة أنّ «الاضطرابات» ما زالت ستتوالى. لم يحدث منها شيء. لكن لم نهتمّ كثيراً باختيار رئيس من بين «پومپيدو» و«پوشي».

لم نكن نعلّق اهتماماً على استبدال موظّف بآخر، دون تغيير جذري في المنظومة Le Système.

تحفّظنا على التصويت مثل الكثير من الفرنسيّين.

أردنا ترك المجال مفتوحاً بيننا وبين «اليساريّين». أما كان في مستطاعهم أن يجدوا في *الأزمنة المعاصرة* عشيرة يمكنهم التعبير في داخلها عن آرائهم المُختلفة؟ التقينا، خلال صيف 1969، في روما بالأخوين كوهين بيندت، كرافيتس، فرنسوا جورج، وعدد آخر من الرّفاق. كانوا عائدين من عطلة قضوها في شاطئ إيطالي. بدوا متوتّرين ويكنّ بعضهم العداء لبعض. استحضروا حوادث مايو بحنين، والدّور الذي لعبه كلّ منهم، مُتّهمين بعضهم بعضاً بحمل عقليّة المحارب القديم. ما صدمنا حقّاً هو أنّهم كانوا يحملون عقليّة المهزومين. بعد حفلة مايو، وجدوا أنفسهم خالي الوفاض. أدانوا *الأزمنة المعاصرة*، مؤاخذين إيّاها كونها تحوّلت إلى مُؤسّسة. لم تنجح سياسة تجميع القطيع، إذًا.

مع ذلك، ظلّ سارتر يلتقي باليساريّين من بعيد. أبريل من سنة 70، طلب البيار البروليتاري لقاءه بعد أن أحسّ بالانحطاط. صودرت جريدتهم *قضيّة الشّعب*؛ تمّ إيقاف مُديريْ تحريرها المتعاقبيْن، «لو دونتيك» و«لو بري»: لم يحدث ذلك في فرنسا منذ سنة 1881، باستثناء فترة الاحتلال الألماني. ما الذي يمكن فعلُه إزاء قمع مُهين كهذا؟ بعد دراسة حلول كثيرة، قبل سارتر بإدارة *قضيّة الشّعب*. تجدر الملاحظة بأنّه لم يقبل كلّ المحاور. خصوصاً، أسفه لخلط اليسار البروليتاري عمله مع المقاومة، ودور الحزب الشيوعي مع العملاء، فتحدّثت عن «احتلال» فرنسا من قبل البورجوازيّة وعن «تحرير الأراضي». بدت له تلك المساواة، خرقاء وغير متينة. لكن على الجبهة، كان متضامناً مع الماويّين. أيّدهم لأنّهم أيقظوا العنف الثّوري بدلاً من إخماده كما فعل اليسار والنقابات. كانت التحرّكات المُتاحة – العرائض والاجتماعات – دون فائدة: يجب المرور إلى تحرّك غير مشروع. قرّر، إذًا، رسميّاً، إدارة *قضيّة الشّعب*. أي أن يتحمّل مسؤوليّة كلّ المقالات التي

ستُنشر فيها. كان لابدّ، أيضاً، من إيقافه: لم يحدث ذلك. كان كُلّما صودر عدد، اكتفت الحكومة بالتحرّي حول (س).

رافقتُه نهاية مايو إلى محاكمة «لو دونتيك» و«لو بري». كانت القاعة مليئة والمحكمة مُطوّقة بسيّارات الشّرطة. خلفي، جلس صفّان من البوليس بالزيّ المدني. وبالزيّ الرسمي، واقفين حول القاعة. وجدتُ في الجلسة، كثيراً من الوجوه التي أعرفها، من بينهم جيزيل حليمي. لم يُستَدع سارتر للاستماع إليه إلّا بعد الظّهر، تناولنا الغداء في مطعم مُجاور. جاء صحافيّون، يطلبون من سارتر تصريحاً حول حلِّ *اليسار البروليتاري* الذي أُعلِن هذا الصّباح عن قراره: لا نعرفه. بعد وقت، جاءت جيزيل حليمي تبحث عنّا. روت لنا أنّه خلال قراءة مقالات *قضيّة الشّعب* المُتّهمة، اهتزّ المُحامون والمتربّصون – وكانوا كثيرين في القاعة – رعباً: «كيفَ يُسمَح لأشياء كهذه أن تُنشَر!»

اتّخذنا أماكننا حين كان على عامل مناجم سابق أن يُدلي بشهادته؛ كان أخوه قد مات بالتليّف الرئوي؛ وصف ظروف العمل في المناجم واتّهم المُجتمع بالتسبّب في حالة اليأس؛ هنّأ *قضيّة الشّعب* لأنّها فسحت المجال لأصواتهم كي تعلو، في الوقت الذي خنقتها الصحافة البورجوازيّة. ثمّ شهادة عامل ذي شعر طويل، وأكّد حصول اليسار البروليتاري على حزمة كبيرة من تذاكر المترو التي وزّعها على العُمّال. تحدّث آخر عن العنف الذي مارسه البوليس في «فلان». آخر من هيئة «فرانسيسكان» صرّح بأنّه أيضاً مُتّهم بما أنّه يدير صحيفة تدافع عن نفس القضايا التي نشرتها *قضيّة الشّعب*. أكّد رجل دومينيكي، استناداً إلى مواعظ بابويّة أنّ الأغنياء لصوص.

كان جميع الشّهود مُقنعين ومُتحمّسين، لكنّهم يتكلّمون في الفراغ. كان قرارُ القاضي قد اتُّخذَ مُسبقاً.

ركّز سارتر على فضيحة أن يكون هو ضمن الشّهود، فيما يقف المُديران السابقان في قفص الاتّهام. لم يكن يُطالب باعتقاله بل بإطلاق سراح «لو دانتيك» و«لو بري». سأله المُحامون عن تفسير لحلّ *اليسار البروليتاري* يوم المحاكمة، لكنّ القاضي منعه من الإجابة.

طلب النائب العام من الهيئة، مصادرة *قضيّة الشعب* نهائيّاً. تمّ رفض مطلبه، بل حافظت الصّحيفة على وجودها الشّرعي.

عقد الطّلبة اجتماعات؛ وُضعت الحواجز بينهم وبين البوليس في «سونسيCensier»، في جامعة العلوم، وحتّى الثالثة صباحاً في الحيّ اللاّتيني وشارع سان-جرمان. في اليوم الموالي، حُكِمَ على «لو دانتيك» سنة سجن، و«لو بري» بثمانية أشهر، وسُجّلت عمليّات عنف من قِبَل فِرق صغيرة، طاردها البوليس بالدرّاجات. اتُّهم «جيسمار» بتشجيع «المُخرّبين» من خلال كلام تحريضي نطق به في خطاب، صدر في حقّه منشور إيقاف، وانطلق البوليس في التّفتيش عنه.

بعد أيّام، حوصِرت ورشة سيمون بلومونتال صاحب المطبعة التي تعاملت معها *قضية الشعب*: كان قد خبّأ خمساً وسبعين نسخة من الجريدة في مكان آمن. أراد البوليس إيقاف بلومونتال. لكنّ العُمال منعوهم. في الغد، التأمت في بيتي ندوة صحافيّة لاستنكار هذه الإجراءات العشوائيّة: كان وضعُ بلومونتال قانونيّاً لأنّه طبع لجريدة لها وجود قانوني؛ القمع، هو مضايقته في نشاطه المهني.

غطّى راديو لكسمبورغ النّدوة مع عدد كبير من الصّحف من بينها «لو موند Le Monde».

شكّل «أصدقاء قضيّة الشّعب» جمعيّة يترأسها ميشيل لايريس وأنا. رفض مركز المحافظة تسليمنا وصلاً. رفعنا شكوى. رُفِضَ مطلبنا في البداية؛ ثمّ كسبنا. نادى سارتر بصحبة دافازي، تيلون، هالبواتشز وآخرين إلى إغاثة ضحايا القمع. أرادوا من وراء ذلك، تكوين تجمّع يضمّ يساريّين من شتّى النزعات.

وجد ثلاثون من باعة *قضيّة الشعب*، أنفسهم في السّجن: اتُّهموا بالرّغبة في إعادة تشكيل *اليسار البروليتاري*. البعضُ من أصدقاء *قضيّة الشّعب*، قرّروا توزيع الجرائد في الشّارع. لم نشأ أن يتمّ إيقافنا كما ادّعى م. ديتور و«*دقيقة*»، بل أن نضع الحكومة أمام تناقضها لكونه لم يعتقلنا. كنّا

عشرة تقريباً، لكنّ عدداً كبيراً من الصحافيّين والمُصوّرين كانوا يسيرون خلفنا وحولنا، فبدا كأنّ عددنا كبير. في شارع داغير وسط ذلك الديكور المألوف لديَّ، أمام تاجر أبتاع منه حاجياتي، أخرجنا من سيّارة حقائب مليئة بالصّحف والمناشير لنوزّعها. كانت الخامسة والنّصف والكثير من الناس كانوا يقومون بالتسوّق. شققنا الزّحام ونحن نادي: «اقرؤوا *قضيّة الشّعب*. لأجل حرّية الصّحافة!» وكنّا نوزّع منها نُسخاً؛ ثمّ اتجهنا إلى شارع لوكلارك حيثُ الحشدُ كان أكبر. بين الناس من رفض تسلّم الصحيفة بسحنة استهجان: «إنّها ممنوعة»، قال رجل؛ آخرون تسلّموا العدد بلا مبالاة؛ آخرون طالبوا بها. سألت بائعة أسماك جالسة أمام محلّها: «إنّهم يبيعون لنا أدوية تُسمّمنا: هل تتحدّث صحيفتكم عن هذا؟ - إنّها تتحدّث عن كلّ المظالم التي يُخضعونكم لها. - أعطني واحدة، إذًا». بدأ يتكوّن تجمّع؛ دعا أحد رجال الأمن سارتر، أخذ منه حزمة جرائد ووضع يده على ذراعه. أمطرهما المُصوّرون بالصّور ومشينا جميعاً إلى المخفر، نادى أحدهم في الشارع: «توقفون حاصلاً على نوبل!» ترك الشرطي سارتر الذي تبعه من الخلف، في الأثناء كان الأصدقاء يهتفون: «إلى السّارق!»، لكنّ الشرطيّ راح يحثّ الخطى أكثر فأكثر، كان يركض تقريباً؛ عدنا أدراجنا، نُكمل توزيع الصّحف. تخطّف الناس الأعداد، مُتحمّسين ومُستمتعين. وصلنا إلى أليزيا بأيادٍ فارغة. اجتمعنا في مكان هادئ لتحرير بيان سيُقدّم إلى الجرائد. علم راديو لكسمبورغ بالواقعة: سمعنا أصواتنا - اقرؤوا *قضيّة الشّعب* - والتفسير الذي قدّمه سارتر في الطّريق: لم تكن *قضيّة الشّعب* ممنوعة، كان من الظّلم إيقاف الأشخاص الذين يبيعونها. نجحنا في الصّمود خمساً وثلاثين دقيقة. قدّمت *لو موند* يوم 22 يونيو، تقريراً جيّداً عن العمليّة.

عُدنا إلى ذلك يوم 26. كنّا أكثر عدداً من المرّة السابقة. اجتمعنا أمام «ريكس Rex» - قبالة *الإنسانيّة L'humanité* - وسِرنا نحو ستراسبورغ-سان-دينيس. بصحبة الصحافيّين والمُصوّرين. كنّا نوزّع أعدادنا على الناس الجالسين في شرفات المقاهي. كانوا ينظرون إلينا إمّا بلا مبالاة أو بعدوانيّة

أو بتضامن: عدد كبير من الناس كانوا يبتسمون لنا. في غضون ساعة قطعنا الطّريق وعدنا أدراجنا، سالكين الضفّة الأخرى من الرّصيف. اقترب أربعة أو خمسة أعوان بوليس ثمّ ابتعدوا. عادوا بعد ذلك متأهّبين. «لستم في وضع إيقاف، لكنّه روتين للتعرّف على الهويّة»، قالوا لنا. عندما توقّفت حافلتنا أمام مخفر الشرطة، أدخلونا مُباشرة، ما عدا سارتر الذي قيل له: «أنت حرّ، سيّد سارتر». في الدّاخل كان هناك عشرات الرّفاق: كنّا عشرين في المُجمَل. جاء سارتر بينما كانوا يتثبّتون من أوراق هويّتنا. عندما وجد نفسه مُهمَلاً وحده في الشّارع حاملاً حزمة صحف بين يديه، راح يُوزّعها. عندئذ أدخلوه.

بدؤوا بملء استمارات عنّا: «هل ثمّة هنا شخصيّات أخرى، ما عدا السيّد سارتر؟ برتران دي بوفوار ليس كاتباً..». عندها هتفنا معا: «جميعُنا شخصيّات. – لا أعرف أحداً بينكم. – ليس خطأنا إن كانت تعوزك المعلومة: جميعنا شخصيّات. – إذًا، أنا أيضاً»، قال الشرطي باحتقان. طلبوا منّا أنا وسارتر أن نتبعهم إلى المكتب: كانوا يريدون إطلاق سراحنا والاحتفاظ بالبقيّة. رفضنا. حينئذ بدأ أعوان الشّرطة يرتبكون، تعلّقوا بسمّاعة الهاتف برهة وقال أحدهم بصوت مرتفع جدّاً: «إنّها قصّة مجانين! – لم ندفعك إلى قول ذلك!» قال أحد بيننا. ضحكنا كثيراً. جاءت التعليماتُ، طبعاً، بإخلاء سبيل سارتر والاحتفاظ بالبقيّة، الأمر الذي صدّه موقفنا وجعل منه مُستحيلاً. بعد ساعة، قدم أعوان بوليس مدني وضابط يرتدي زيّاً رسميّاً مُوشّحاً بالفضّة. أعلن لسارتر في خلوة بأنّهم سيُطلقون سراحنا بعد نصف ساعة. ليكن: لكن أخرج وسارتر بعد الجميع، قلنا. أخلوا سبيلنا جماعات صغيرة. خرجتُ بعد سارتر بدقيقتين، ووجدتُه في ركن من الشارع، محوطاً بالصحافيّين مُتحدّثاً إليهم في آلات التّسجيل. تحدّثتُ أيضاً. كرّر سارتر أنّه لم يكن يرغب في أن يتمّ إيقافه، لكن أن يضع الحكومة في تضارب مع ذاتها: نجح في ذلك تماماً، دلّ على ذلك ارتباك البوليس. نُقلت التصريحات والوقائع إلى «تروفو Truffaut»، الذي كان يُنشّط يومها بالذّات حصّة في راديو لكسمبورغ، فأذاعها على مُستمعيه. حظيت العمليّة،

إذًا، بقدر جيّد من الدّعاية. مساءً، لمّح التلفزيون إليها، مُقدّماً تعليقات مُحايدة. تحدّث عنها أيضاً التلفزيون الألماني والإيطالي والإنجليزي والسويسري. بالتّأكيد من أجل هذا السّبب أنّ الجرائد خصّصت صفحات طويلة للحدث: صفحة كاملة في صحيفة *المقاومة*، مقالات طويلة في *لو موند* والـ*فيجارو*. ظهرتُ وسارتر في الصّفحة الأولى من *فرنسا المسائيّة France Soir*. وحدها *«پاري-براس»* التي قدّمت تعاليق مسمومة، زاعمة أنّ سارتر غاضب لأنّهم تركوه حرّاً.

في باريس وصيفاً في روما، استمرّت علاقات سارتر باليساريّين. قدّم حواراً لمجلة *«الأحمق الدُّولي»*، قبلتُ - بنفس تحفّظات سارتر المتعلّقة بـ*قضيّة الشّعب* - أن أديرها. لدى عودتنا إلى باريس، تحمّل سارتر إدارة صحيفتيْن يساريّتين: *«الكلّ»* و*«الكلمة للشّعب»*. اهتمّ كثيراً بالإغاثات الموزّعة في كامل تراب فرنسا.

دعمنا *قضيّة الشّعب* بعمليّة أخرى خريف 70، علماً أنّها لم تكن مُوزّعة بشكل أقلّ من البقيّة، رغم حظر الحكومة لها. يوم صدور العدد 37، تحوّل *«أصدقاء قضيّة الشّعب»* إلى المطبعة. جاء أحدهم يبحث عنّي بالسيّارة في بيتي: «هناك سيّارة شرطة في ركن الشارع المقابل لبيتِك»، قال لي. وإن كان سارتر موضوع مراقبة بوليسيّة، فإني لم أصدّق الأمر. لكن ما إن انطلقنا، حتّى لحقت بنا سيارة الأمن؛ توقّفت في نفس الوقت معنا أمام منزل سارتر. ناور بهم السائق بمهارة. كان طقساً خريفيّاً جميلاً، أزرق وذهبيّاً، وكان من الممتع أن نجوب باريس. في الورشة كانت هناك آلة تطوي، أوراق *قضيّة الشّعب* في صخب وبوتيرة سريعة. مع منتصف النّهار، اجتمع عدد كبير من النّاس، بينهم صحافيّون ومُراسِلون من مُختلف القنوات التّلفزيونيّة. تحدّث ماسبيرو، بلومنتال وسارتر إلى الصّحافة وأمام آلات التّسجيل. حوّلنا إلى بيت ماسبيرو ثلاثة آلاف نسخة: عثر علينا أعوان البوليس الذين كنّا قد ضلّلناهم وتبعونا دون تدخّل. وضعنا نُسخاً في مكتبة *متعة القراءة* ووزّعنا أخرى في الشّارع. ربضت سيّارة بوليس على بعد خطوات، لكنّها تركتنا

نفعل. إلّا أنّ ثلاثة شبّان غامروا بخوض شارع سان-ميشال، فأُلقِيَ عليهم القبض. عن طواعية، ركب مع هؤلاء، غودار، ديلفين سيريغ، ماري فرانس بيزيي. تحوّلنا إلى مخفر «بونتيون» للشّرطة وبقينا أمام الباب، نتحدّث إلى الصحافيّين وأمام القنوات التلفزيونيّة الأجنبيّة إلى أن أُطلِقَ سراحُ رفاقنا الستّة. كانت السيارة المُكلّفة بتعقّبنا هناك، والتقط واحد من بين أعوان الشّرطة لكلّ منّا صورة من نافذة بالطابق الأوّل. رافقتنا سيّارتهم إلى غاية المطعم الذي تناولنا فيه الغداء. كان ذلك تبذيراً فاحشاً للأموال التي يدفعها الناس إلى حدّ لم أصدّق معه عيْنَيَّ.

العمليّة الأكبر هي تلك التي نظّمتها منظّمة الإغاثة الحمراء في «لانس Lens» في شهر ديسمبر. في فبراير سنة 70 قُتِلَ ستة عشر عامل مناجم تحت انفجار منجمي في «هينين لياتار». كانت المسؤوليّات واضحة في الحادث، وكنوع من الانتقام، عمد بعض الشبّان غير المعروفين، إلى إلقاء قوارير مولوتوف في مكاتب الإدارة، مُتسبّبين في حريق داخلها. اعتقل البوليس، دون دليل، أربعة ماويّين واثنين من ذوي السوابق العدليّة. اعترف هذان بأنّهما هما اللذان ألقيا القوارير وبأنّ الأربعة هم شركاؤهما. كان يُفترَضُ أن تجريّ محاكمة الحريق يوم الاثنين 14 ديسمبر، نادت منظّمة الإغاثة الحمراء في القاعة الكبيرة للبلديّة، بمحاكمة شعبيّة. وللإعداد للجلسة، تنقّل سارتر إلى «هينين لياتار» ليُحقّق في الحادثة، ونام في قرية العمّال.

«لانس»، مدينة منجميّة، بشعة وسوداء. باقتراب عيد الميلاد، ازدانت الشّوارع بشعر الملائكة والقناديل والأكاليل. كانت الصالة الكبرى لنزل المدينة - مبنى عصري فسيح يقع في السّاحة الرّئيسة - تعجّ بالناس، عند الرابعة مساءً: من سبع مائة إلى ثماني مائة شخص. عُلّقت على الجدران صُور عملاقة للعمال الذين ماتوا في الانفجار. وفوق المنصّة التي كانت ستلعب دور المجلس، عُلّقت لافتة: ««هوليار» القَتَلَة». جلس سارتر خلف طاولة على المنصّة، بجانب أستاذ ملتح أحمر الشّعر، وكان المسؤول الأوّل عن منظّمة الإغاثة الحمراء بجهة الشّمال. كان يعرج وعلى وجهه كدمات،

فقبل يومين حاول مجهولان التسلّل إلى سيّارته والاعتداء عليه بالعنف. اتّخذت اللجنة مكاناً خلف طاولة أخرى: السيّدة العجوز «كامفان»، نصف العمياء، بوجهها الشّبيه بالجمجمة، أمٌّ وزوجة لعامل مناجم مقاوم، قتلهما الألمان خلال الحرب؛ مهندس، طبيب، عامل مناجم سابق. قرأ المهندس نصّاً مطبوعاً يعبّر عن رأي الأعراف. أخذ مهندس آخر الكلمة وفضح هذا النصّ؛ بعض الشّهود وجّهوا التّهم. كان خطأ «مؤسّسة هوليار» صارخاً. انتُزِعت يوم الحادث مروحة لاستبدالها بأخرى، أكثر قوّة؛ وفي انتظار تركيبها، تراكم الغاز في الخندق. لم يكن عليهم إرسال العُمال إلى أعماق المنجم. كان عليهم القيام بالصيانة في يوم راحة، أو أن يوقفوا العمل حتّى يتمّ تركيب الآلة الثانية وتبدأ بالعمل. لكن، استُخِفَّ بالسّلامة كالعادة. كانت شرارة واحدة تكفي للتسبّب في الانفجار القاتل. شهود آخرون أكّدوا أن حادث العمل لم يكن ناجماً عن هذه «الحتميّة القدريّة» التي حاولت الأعراف الاحتماء بها بل يُعزى إلى لامبالاة المُشغّلين إزاء الأخطار التي تُهدّد العُمّال: كان من المُستحيل أن يقع حادث حين تدخل المنجم إحدى الشّخصيّات المُهمّة، لأنّ كلّ تدابير السّلامة تُتّخذُ.

ثمّ قام الأطبّاء بمحاضرة رائعة حول الغبار الحجري (السيليكوز)؛ إنّها تقتل تسع مائة عامل مناجم في السّنة؛ ومن البقيّة كانت تصنع أناساً نصف عاجزين قبل سنّ الأربعين، أو حاملين لأمراض خطيرة. أدانوا شراكة بعض زملائهم في السكوت عن هذه الجريمة: كانوا يرفضون القيام بتحاليل السيليكوز للعمال حتّى لو كانوا مُصابين بها، كي يُجنّبوا مؤسّسة هوليار دفع غرامة. في حالة موت أحد العمّال بالغبار الحجري فإنّ زوجته لا تتقاضى تعويضاً إلّا إذا كانت نسبة الإصابة 50% وللتأكّد من ذلك كان الميتُ يُشرّح بحضور زوجته مُكرَهة على ذلك: آملين أن تعدل المرأة عن الجراية. وصف عمّال سابقون الحالات الاستثنائيّة وأدانوا بشدّة أخطاراً لا يزال العامل يتعرَّض إليها، والقصور المُنجرّ عنها، انعدام ضمير الأطباء. عاتبوا النقابات لأنّها لم تكن ترفع مظالمهم. لخّص سارتر في مرافعته مجمل

التّهم الموجّهة لربّ العمل. وأبطل حيَلَ الأعراف: «إنّ العُمّال أنفسهم هم من يهملون تدابير الوقاية الضّروريّة» ذلك أنّ أداء العامل ينقص، إذا حافظ على سلامته، وعندئذ سيحُطّ من أجره بنفسه. المُشغِّل هو المسؤول عن الحوادث والأمراض المهنيّة: إنّه يقيم براهين براءته بالعامل نفسِه. تُعطى توصيات وقاية من برج عالٍ: لكنّ الجميع يعرف أنّ العامل سيسيء اتّباعها، وإلّا فإنّه سيشهد على تدني راتبه وهو أمر مأساوي بالنّسبة إليه. «إذا اتّبعتَ تدابير السّلامة، قال أحدهم لأحد الرّفاق، فإنّ أطفالكَ لن يأكلوا اللّحم».

عاتبوا سارتر كونَه «نصّب نفسه قاضياً»

في الواقع، لقد رافع ولم يحكم. نطقت اللّجنة بأسرها بالحكم. «ما الجدوى، ما دامت لا توجد عقوبة؟» استنكر بعضهم. لمثل هذه الإدانة جدواها؛ إنّه إنذارٌ يُوَجَّه إلى الأعراف وهي طريقة لإضاءة الرّأي العام. كلّما سكت الناس عن الجرائم المُرتكبة باسم الرّبح، أصبح من الصّعب إدانتها.

يوم الإثنين الموالي، أُخليَ سبيلُ المُتّهمين بعمليّة حرق الإدارة، بمن فيهم اللذان اعترفا بضلوعهما فيها وورّطا الماويّين. طبعاً، جرت في ملابسات هذه الحادثة، آليّات بوليسيّة، اخترنا عدم التعرّض إليها ما دام قد أُطلِق سراح الجميع (تقضي القاعدة بإخلاء سبيل الوشاة عندما تثبُت التهمة على الذين أشاروا إليهم. لكن أن تشيَ ببريء لا يعني أن يُطلَق سراحُك وقد اعترفت بجريمة).

نهاية يناير، شاركتُ في اجتماع نظّمه «*أصدقاء قضيّة الشّعب*». تمّ الاعتراف بجمعيّتنا وسئمت الحكومة من مصادرة الجريدة: أردنا إعلام الناس بانتصارنا. ترأس ميشيل لايريس الاجتماع، الذي لم يُشارك فيه سارتر. تحدّثت في محور لا شرعيّة الحكومة وسط شرعيّة مُشتركة، وأضحكتُ القاعة كثيراً وأنا أروي مغامراتنا مع البوليس خلال عمليّات توزيع *قضيّة الشّعب*.

تحدّث الآخرون، خصوصاً عن إضراب الجوع الذي قام به مُعتَقَلون سياسيّون من أجل تحسين ظروف نشاطهم السياسي. انحاز إليهم جيسمار

الذي نجح البوليس في إيقافه - وإن كان يحظى بتميّز نسبيّ عنهم -. طالبوا لأنفسهم كما للحق العام، ظروف اعتقال يمكن تحمّلها: من بينها، حقّ الحصول على كتب وتلقّي الزيارات.

قرّر بعض اليساريّين الدخول في إضراب جوع، هم أيضاً تأيداً لهذه المطالب. قبل القسّ الذي كان يخدم كنيسة سان-برنار - في أنفاق مون بارناس - أن يؤويَهم. كان من بينهم، ميشيل فيان ولقد ذهبتُ لزيارتهم مرّات عدّة. كانوا مُخيّمين في مركز إيواء فسيح، قريباً من مكتب القسّ. غطّوا الجدران باللّافتات والرّسوم والشعارات والبيانات: علّقوا أيضاً في الممرات وعلى جدران المحطّة ليشرحوا حراكهم. لم يكونوا يبتلعون في اليوم، سوى ليتر ونصف الليتر من الماء وخمسة قطع سُكّر. مع ذلك - وعكس ما يحدث عادة - لم يكونوا ملازمين للفراش. كانوا يتحاورون فيما بينهم، كانوا يستقبلون الصحافيّين والزائرين وكانوا يبيعونهم جرائد اليسار، المكدّسة فوق طاولة؛ كانوا يحرّرون النّصوص ويُجدّدون خزاناتهم ويبتكرون شعارات جديدة. كانوا، كل يوم عند منتصف النّهار يخرجون قليلاً لاستنشاق الهواء.

ذات ليلة، تماماً عند منتصف اللّيل، رنّ جرس بيتي؛ كانت ميشيل ومُضربة أخرى. اقتحمت فرقة بوليس فاشيّة أبوابهم وطردت النّساء، لم تكنّ على علم بما كان يحدث لرفاقهن. اتّصلوا بالقسّ هاتفيّاً وجاء يبحث عنهنّ. نجح المُضربون في اللّجوء إلى مكتبه ومن هناك أطلقوا الإنذار. انسحبت فرقة الكوموندو بعد أن كسروا القوارير والمزهريّات واقتلعوا المُعلّقات. عادوا ليلة أخرى، لكنّ المُضربين كانوا قد نصبوا الحراسة فلم يتمكّنوا من الدّخول. لم يُعلَم قط إن كانوا ضمن مجموعة *الغرب* أو - بصورة أدقّ - مُشاغبي بوليس. بعد فترة قصيرة دافعت الصحافة البورجوازية نفسُها عن مطالب المُضربين، ثمّ سرعان ما استسلم «پليفان Pleven» أقرّ النّظام الخاصّ الذي طالب به المُضربون عن الطّعام. عيّن لجنة تقصّي للبحث في الدّوافع التي جعلت من الوقائع تتّخذ بعداً سياسيّاً ولتحسين ظروف

مساجين الحقّ العام (مرّت ستة أسابيع ولم يُنجَز شيء إلى غاية 1 مايو 1971). صمد المُضربون واحداً وعشرين يوماً. نحفت أجسادُهم لكنّهم كانوا في صحّة جيّدة.

في تلك الفترة بالذّات - يوم 6 فبراير - وبطلب من صحيفةأُدين، انتقلتُ إلى ميرو Meru للقيام بتقرير صحافي. كان «حادث شغل» رهيب. يوم 11 مايو، انفجر مصنعُ روشال الذي كان يصنع موادَّ غازيّة مُعدّة للتّحويل إلى مبيدات حشريّة ومواد تجميل. رأى شهودٌ، فتيات في مقتبل العمل يخرجن من الورشة وقد تحوّلن إلى شعلات مُضيئة، نصف عاريات، يتدحرجن على الأرض صارخات. نُقلت سبع وخمسون ضحيّة إلى المُستشفى من بين سبعين عاملاً، أغلبهم شابّات صغيرات. ماتت منهنّ ثلاث. تلقّى الآخرون طوال أشهر - ثمانية عشر شهراً تقريباً - علاجاً مروّعاً. أُصيبوا جميعاً بالشّلل.

في تقريرها عن الكارثة تحدّثت الصّحافة الكبيرة، عن قدر محتوم، مع أنّ مسؤوليّة مدير المصنع م. بيريون كانت صارخة حتّى إنّ المحكمة قد وصفت الحادثة بالـ«الخطأ الذي لا يُغتَفَر» وأدانته بالقتل بالإهمال. واكتفت مع ذلك بالحكم عليه بسنة سجن مع تأجيل التّنفيذ وغرامة ماليّة قدرها عشرون ألف فرنك. (وحظي السيّد م.بيريون بعفو وراحَ يدير صفقة أخرى واعدة). التّحقيق الذي قمتُ به من جانب العُمّال وبمساعدة م.پ، مدير الصّناعة الذي تخلّى عن منصبه تعاطفاً مع الضّحايا سنة 67، أثبت لي أنّ م. بيريون يستحقّ وصفه بالمُجرم.

صُنّف مصنع روشال في خانة المؤسّسات الخطيرة جدّاً لأنّها تستخدم غازات قابلة للاحتراق؛ كان المصنعُ يُخزّن سبعة وعشرين طنّاً منها بدلَ خمسة عشر المسموح بها. وبسبب قصور المنشأة وغياب الرّقابة، كان يحدث تسرّب غاز بشكل مُستمرّ، فينتشر في المكان لأنّ الغاز كان يمرّ في فضاءات لا تخضع إلى التّهوية. غالباً أيضاً ما تكون صنابير الپروبان والبوتان سيّئة الإغلاق. كان هناك أكثر من سبب لنشوب حريق. كان شابٌّ يبلغ من

العمر خمسة عشر سنة، مارك فيني، هو المُكلّف بفتح المصنع والتأكّد من سلامة المُنشأة. عندما وصل يوم 11 مايو من سنة 1967، بدا له كلّ شيء طبيعيّاً. لكن عند الثامنة والرّبع تماماً، لاحظ طبقة سميكة من الغاز تتسرّب من ماكينة الإنتاج الرّئيسة. («كان الغاز يُشاهَدُ، قالت لي إحدى العاملات. حين يلتقي بالهواء فإنّ كتلاً صغيرة من الكريستال الأبيض تتكوّن. اشتكت زميلة قائلة: «إنّه يجمّد ظهري»». قالت لي أخرى: «كانت هناك طبقة من الغاز، كان بالإمكان رؤيتها: كانت بيضاء؛ لا، بل رماديّة، مثل الضّباب»). أخطر رئيسه في العمل الذي أغلق الصّنبور وطلب منه أن يُشغّل آلة إلصاق وضع المُلصقات. رفض قائلاً: «سيحدث انفجار. - لكن لا. هيّا، قال الرّئيس وأضاف: إنّه أمر». أذعن مارك فيني. وقعت شرارة. اشتعل الغاز. هرب الجميع. لكنّ الممرات كانت موصدة وأبواب كثيرة مُقفلة بقطع من الكرتون؛ كان يُفترَضُ أن تُفتَح من ناحية الخروج حسب القانون الجاري به العمل: غير أنّها كانت تُغلق بالانزلاق. كان السّقف المُضاعف من النايلون: احترق وتهاوى؛ احترقت ميدعات البوليثيلين التي كانت الإدارة تفرضها على العاملات. أكلت النيرات الورشة بأكملها. لماذا انبجست الشّرارة؟ الإجابة صاعقة من جانب بيريون. كان على الوصلات الكهربائيّة أن تكون عازلة وأن تكون المحرّكات الكهربائيّة مُجهّزة بنظام مُضادّ للانفجار. ولكي يُوفّر ألفين وخمس مائة فرنك اقتنى آلة وضع مُلصَقات (تلك التي تسببّت في الانفجار) من النّوع الكلاسيكي. كان الوصل الكهربائي سيّئاً إلى درجة أنّ جميع المؤسّسات المحلّية كانت ترفض التدخّل للقيام بالصيانة لفائدة بيريون: كان عليهم غلق المصنع أيّاماً من أجل إعادة كلّ شيء كما ينبغي. لم ينكر بيريون أن التماس الكهربائي قد حصل مرات عدة خلال تلك السّنة. في مايو 66، طالبت جمعيّة أصحاب الآلات البخاريّة والكهربائيّة بجملة من التعديلات على الأجهزة. لم يكن المصنع خاضعاً للتراتيب الجديدة. وجّهت، أيضاً، مصلحة الوقاية بالصّندوق الجهوي للحيطة الاجتماعيّة ملاحظات لبيريون. لم يعر أيّ اهتمام لكلّ هذه التّحذيرات. روى لي م.پ

أنّ بيريون كان يُجيب كلما وجّه إليه توصيات تتعلّق بالسّلامة: «لا تكن مُغفّلاً. اضربهم بالسّياط، هذا كلّ ما أعهد به إليك».

ومتفقّدو الشّغل؟ «لم نر أحداً منهم». على أيّ حال، لم يدخلوا قط إلى هذا المكان»، قالت لي العاملات. أقرّت محكمة «أميان Amiens» بـ«غياب» التفقّد المهني. والحقيقة هي أنّ متفقّدي الشّغل في أيّ مكان من فرنسا، والذين يُفترَضُ بأنّ مُهمّة فرض الوقاية وتدابير السّلامة منوطة في عُهدتهم، هم أنفسهم شركاء في جرائم أرباب العمل. كانوا يُغمضون أعيُنَهم. بتشجيع من المناصب العليا. في فرنسا، 80% من المصانع لا تحترم إجراءات الوقاية المنصوص عليها في مجلّة الشّغل: تنخفض الإنتاجيّة ونسب الرّبح لو أنّ المتفقّدين فضحوا التجاوزات.

فضيحة أخرى في هذه القضيّة: موقف العدالة. لم تجرِ المحاكمة سوى بعد عامَيْن من الفاجعة. استغلّ بيريون ذلك بفُحش. لم يُشر إلى رئيس العملة الذي أعطى الأمر بتشغيل الآلة.

الفضيحة الثالثة هي التدابير التي اتّخذتها الحيطة الاجتماعية. حين يبلغ القصور الجسدي نسبة أقلّ من 50% فإنّ الضحية لا تتقاضى سوى نصف الجراية التي تمنحها تلك النّسبة بالذات؛ أي حين تكون نسبة قصور العامل 14% فإنّه يتقاضى 7% من راتبه. ينحازُ طبّ الشّغل إلى جانب الأعراف لا إلى جانب الضحايا. في «ميرو Meru» أغلب نسب القصور تتراوح بين 14% و20% ما يجعل من الضحايا يتقاضون ما يقارب أربع مائة فرنك في الثلاثيّة. ولا تُسلّم لهم أموالُهم إلّا حين يستأنفون العمل، وإلّا فإنّهم مُتّهمون بالعيش على منح الدّولة.

لماذا لا تجري محاكمة الصّندوق كي يتمّ الترفيع في جرايات القصور المهني؟ لأنّه سيكون عليهم دفع جميع مصاريف القضيّة في حالة خسرانها!

ما هو وحشي، قال لي طبيب في الجهة، هو أنّ الحيطة الاجتماعيّة لم تشأ اعتبار – وبشكل مُزرٍ أيضاً – سوى حالات عدم القدرة على العمل. لكنّ أشياء أخرى تدخل جوهر الموضوع. لقد تعذّبت العاملات نفسيّاً في

سنّ مُبكّرة جرّاء الآلام التي دامت أشهراً. منهنّ من انهارت عصبيّاً. عشن في خوف. إنّ التشوّه الجسدي رهيب، خصوصاً عندما تكون المرأة في مُقتبل العمر: كنّ يشعرن بالخجل من وجوههنّ وأجسادهنّ. أخيراً، إنّ مُستقبلاً مُظلماً ينتظر عدداً كبيراً منهنّ. إنّهنّ مُهدّدات بتشوّش في وظائف الدّورة الدمويّة وبالسّرطان.

يبدو وجه الشّبه كبيراً بين هذه القضيّة وضحايا هوليار. في كلتا الحالتين استطاع ربّ العمل القتل والإفلات من العقاب. تفقّدية الشّغل والأطباء والمحاكم هم جميعاً شركاء في الجريمة. وهاتان الحالتان ليستا استثنائيّتين، لكنّهما نموذجيّتان بشكل مأساوي. في 80% من مصانع فرنسا، يتمّ إسقاط السّلامة لفائدة الرّبح ويظلّ العُمّال كلَّ يوم يُقدّمون حياتهم للمجهول.

إن كانوا قد طلبوا منّي المجيء إلى ميرو، قبل أربع سنوات بعد الحادثة، فلأنّ الضحايا كانوا يحاولون لمّ شملهم من أجل الحصول على جرايات مُحترمة. سُررتُ بالقبول، أوّلاً لاعتقادي بأنّ فضائح كهذه يجب أن تُدان وعلى الرأي العام أن يعلم بها؛ ولأنّي تعلّمتُ كثيراً في ذلك اليوم. التقيتُ بعاملات شابات، دخلتُ منازلهنّ، رأيتُهن يمارسن الحياة، استمعتُ إليهنّ، تحدّثتُ إلى عائلاتهنّ. كانت تجربة محدودة جدّاً، كانت مصانع ميرو متمركزة في منطقة ريفيّة وكلّ العاملات تقريباً كُنّ بنات فلّاحين؛ لكنّي خرجتُ من وضعهنّ بنظرة واقعيّة وملموسة لا تمنحها التحاليل في الكتب.

أيقنتُ أيضاً، كم هو ضروري وجود الصّحافة اليساريّة التي ما انفكّ النّظام يقمعها: لا يتمّ الحديث في غيرها وبالتفصيل عن أوضاع العُمّال، حياتهم يوماً بيوم، ونضالاتهم. تحاول الصّحف اليساريّة أن تخبر العُمّال بما يجري في طبقتهم، الأمر الذي تسكتُ عنه أو تنكره الصحافة البورجوازيّة.

رغم بعض التحفّظات - خصوصاً أنّي لستُ غافلة عما يقع في الصين الماويّة - فإنّي أتعاطف مع الماويّين. إنّهم ينادون بالاشتراكيّة الثّوريّة مُعارضين الرّجعيّة السوفيتيّة والبيروقراطيّة الجديدة التي أوجدها التروتسكيّون: أشاطرهم رفضهم. لستُ حمقاء كي أعتقد أنّهم سيُنجزون

غداً ثورة، بل إنّ «نبرة النّصر» لدى بعضهم تبدو لي عقيمة. ولكن وإن كان اليسار التقليدي يقبل بالمنظومة - واصفاً نفسه بأنّه فريق بديل أو معارضة مُحترمة - فإنّهم يُجسّدون الاحتجاج الجذري والنّاجع. إنّهم يخلقون خلايا نشاط في بلد مُتزمّت، ونائم، ومُذعن، من أجل إيقاظ الرّأي العام. إنّهم يحاولون الانصهار في بروليتاريا «القوة الجديدة»: الشّباب، النساء، الأجانب، عمال المنشآت الصّغيرة الريفيّة، الأقلّ إحاطة من قبل النقابات مقارنة بمن يعملون في مناطق صناعيّة كبرى. إنّهم يُشجّعون، وأحياناً يُحفّزون على تحرّكات من نوع جديد: الإضراب الوحشي، الاحتجاز. كانوا بذلك يطرحون مُشكلة تمهيد للثّورة. لو واصل البلد في التدهور، لو أنّ تناقضات المنظومة لاحت واضحة أكثر فأكثر، فسيكون لهذا التّمهيد دور يلعبه. على أيّ حال، مهما كان الأفق، لم أندم على الخدمات البسيطة التي قدّمتها لمصلحتهم. أفضّل مساندة الشّباب في كفاحهم على أن أبقى شاهدة سلبيّة على يأس قاد الكثيرين من بينهم إلى الانتحار.

نهاية سنة 70، طلبت بعض المنتميات إلى حركة تحرير المرأة لقائي؛ كن يرغبن في التحدث معي حول مشروع قانون جديد يتعلّق بالإجهاض، الذي يُفترَضُ أن يُعرَض على مجلس النُواب؛ يعتقدن أنّ المشروع مُحتشم جدّاً، وكن يردن إطلاق حملة لفائدة الإجهاض الحُرّ. ولكي يصدمن الرأي العام، اقترحنَ أن تعلن نساءٌ شهيرات وأخريات غير معروفات بأنّهنّ قمن بالإجهاض من قبل. بدت لي الفكرة جيّدة. قبل عشرين سنة، عبّرتُ في *الجنس الثاني*، عن استيائي من قمع الإجهاض وعرضتُ النّتائج الخطيرة التي قد تسفر عن منعه؛ كان، إذًا، من الطّبيعي أن أوقّع *بيان الـ 343* الذي نُشرَ ربيع 71 في *الملاحظ الجديد*. لم يكن الأمر يتعلّق - كما رأى بعضُ النُقّاد - بإقرار الإجهاض في فرنسا، ولا حتّى بتشجيع النّساء على الإجهاض، بل، ولأنّهنّ يقمن بذلك بشكل كبير - من ثماني مائة إلى مليون إجهاض في السّنة الواحدة -، أن يُمنَحنَ ظروف عمليّة لائقة جسديّاً ونفسيّاً، الأمر الذي لا يزالُ امتيازاً طبقيّاً. طبعاً، يُفضّل استخدام وسائل المنع. لكن في

انتظار أن يتمّ الاعتراف بها ويتمّ تعميمها على أوسع نطاق – فقط 7% من الفرنسيّات يستعملن وسائل المنع – فإنّ الإجهاض يظلّ أفضل حلّ أمام اللاّتي ترفضن مجيء الطّفل. المُشكلة، هي أنّها تلجأ إليه، رغم الصّعوبات والخطورة والشعور بالإهانة. لقي البيان نقداً لأنّ نساء معروفات فقط وقّعنه؛ غير صحيح؛ بل ليس بينهنّ سوى القليل؛ أغلب اللاّتي وقّعن البيان، هنّ إمّا كاتبات أو مُوظّفات أو عاملات.

لاستكمال الحملة، نظّمت الجمعيّة اللاّئكيّة الفرنسيّة، يوم 20 نوفمبر، بالشّراكة مع تظاهرات نسائيّة جرت في اليوم نفسه، في كلّ أقطار العالم تقريباً، مسيرة، قطعت باريس، مؤلّفة من نساء يطالبن بحرّية الأمومة، تحديد النّسل والإجهاض. ساهمتُ في ذلك. سِرنا من ساحة الجمهوريّة إلى ساحة الأمّة، شاغلين الطّريق، حاملين لافتات كُتبت عليها شعارات؛ لوّحت بعضهنّ بحفّاظات الأطفال، خيوطاً حديديّة عُلّقت عليها ملابس مُتّسخة، دمى من الورق، بالونات في أشكال حيوانات؛ كانت واحدة من بينهنّ تُوزّع البقدونس – رمز الإجهاض المنزلي – وكانت أخريات ترشقن نباتات منه في شعورهنّ. كنّا تقريباً أربعة آلاف، كانت الأغلبيّة من النّساء، لكن كان هناك رجال ملتحون أو ذوو شعر طويل. أطلقنا البالونات، غنّينا وأنشدنا كلمات متناغمة: « أطفال مرغوبون، أطفالٌ محبوبون، أمومة حرّة». جلب بعض الأولياء أبناءهم وكان بالإمكان رؤية أطفال في السادسة يُغنّون مع آبائهم: «سننجب الأطفال الذين نريد». جرى كلّ ذلك تحت سماء جميلة باردة، بهيجة وحافلة بالغرابة. الغريب في الأمر هو أنّ جلّ النساء اللاتي يعترضن سبيل المتظاهرات كنّ يُصفّقن ويهتفن بكلّ جوارحهنّ متضامنات تماماً. عندما مررنا أمام كنيسة سان-أنطوان، كانت هناك عروس تلبس الأبيض بصدد صعود السُلّم. صرخنا: «حرّروا العروس! العروس معنا!» وأخلى متظاهرو المقدمة موكبنا ودخل الكنيسة. تحدّث القسّ قليلاً مع المناضلات ثمّ انطلقنا نحو ساحة الأمّة. قبل الوصول، التقينا بمعارضين يحملون لافتات مُضادّة. كانت مسيرتهم قد رُفضت ومن بينهم من خطرت

له فكرة الانضمام إليها. عندها راح موكبنا يهتف: «ما من أطفال للتّسلية. – أوغاد سينالُ النّساء من جلودكم»، وعلت أصواتنا بالنّشيد الوطني. في ساحة الأمّة، تسلّقت بعض النّساء منصّة التّماثيل وأحرقن الحفّاظات، رمز الأوضاع النّسائيّة. صدحت الحناجر بأناشيد أخرى، مرحة: كان احتفالاً سعيداً وأخويّاً.

شاركتُ أيضاً في تحرّك آخر، يخصّ «مركز تأهيل القاصرات الحوامل بليسيس روبنسون». منذ ربيع سنة 70، أحطتُ علماً بالوضع. هذا المعهد المفتوح منذ سنة 1944، يضمّ بناتٍ من سنّ الثانية عشرة إلى سنّ الثامنة عشرة، وجدن أنفسهنّ حوامل وهنّ عازبات. أُرسِلن إلى المركز بعد طردهنّ من المعاهد الحكوميّة التي كنّ يتلقّين فيها تعليمهنّ. كان هناك خمسة وثلاثون مكاناً، وكانت مئتا مشروع أمّ تمرّ بالمركز بالتّناوب كلّ سنة: يتكفّل المركز بالبنات اللاتي ينحدرن من عائلات مُتوسّطة يكون عدد الإخوة والأخوات فيها مُرتفعاً. كان هناك ثلاثة أو أربعة أساتذة يُعدّون المقيمات ليتحوّلن إلى شغيلات في أماكن عمل جماعيّة، أو موظّفات في المكاتب: لكنّهنّ لم يكنّ يتلقّين سوى سنة واحدة من التعليم؛ السنتان الثانية والثالثة كانتا بالنّسبة إليهنّ مضيعة للوقت. كانت ظروف العمل مُزرية على أيّ حال: ثمانية آلات رقن في المُجمل؛ تتمّ دروس الرياضيّات في المغسلة. تحطّم مُستقبل طالبات متفوّقات في الدّراسة. لم يكن هناك مكتبة. فيما يتعلّق بالزيارة والخروج فإنّهنّ يُعامَلن كمنحرفات. اقترح البرنامج العائلي تقديم محاضرات حول منع الحمل لفائدتهنّ: رفضت الإدارة. وليُعبّرن عن احتجاجهنّ ضد هذه الممارسات، طلبن الانضمام إلى رابطة الأمهات العازبات التي كان يُفتَرض أن تزور المركز: منعتهن الإدارة من ذلك.قرّرن يوم الخميس 16 ديسمبر الدّخول في إضراب عن الدّروس وعن الطّعام. أرسلت المديرة تلغراماً قصيراً وفجّاً إلى أوليائهن: «تعالوا حالاً لأخذ ابنتكم»، وأعلنت عن نيّتها في غلق المركز. مثل بعض الآباء لأخذ بناتهم: أحدهم ضرب ابنته، رمى بها أرضاً وسحلها من شعرها دون تدخّل من أحد. إحدى القيّمات طلبت

المساعدة من الرابطة اللائكيّة الفرنسيّة. انضممتُ، يوم الأحد صباحاً، إلى المجموعة التي تحوّلت إلى المعهد: قصر بشع يقع وسط متنزّه، في عزلة تامّة. ورغم وجود مندوبة عن الإدارة وتفقّدية الأكاديميّة، فإنّنا تحدّثنا مع المُقيمات.بعض المناضلات بقين على عين المكان طيلة اليوم وحتّى ليلاً. تحت ضغطهنّ، طلب المتفقّد من المدير العام موعداً أجازه الأخير لليوم الموالي. رافقتُ القيّمة وبعض المراهقات إلى مكتب العميد؛ حضر أعضاء من منظّمة الإغاثة الحمراء، هالبواتشس، شارل أندري جوليان. وبعد إذن بالكلام، فسّرت لوسيان، أمّ قادمة، بأنّهن يطالبن بالانعتاق، وبإعانة تساعدهنّ على تربية أبنائهنّ. وفعلاً، فمع أنّ الزواج كان يحرّر الفتيات في سنّ الخامسة عشرة، فإنّ الأمّهات العازبات كان عليهنّ بلوغ السابعة عشرة قبل الخروج من وصاية آبائهنّ: فالوالدان هما من يقرّران إن كان عليها الاحتفاظ بالمولود أم لا. وكانا يختاران التخلّي عادة، تحت ضغط من المؤسّسة؛ التي تعتبر أنّ المولود هو ملك للأمّ الشابة؛ مع ذلك، وبدل أن تمنحها دعماً إضافيّاً، فإنّها تحرمها من المنحة العائليّة التي تتقاضاها على ابنتها، تحت ذريعة أنّ الأخيرة قد غادرت الدراسة! كان إجراءً جائراً، أدهشني، أنا نفسي وكلّ الذين تحدّثت إليهم في هذا الشّأن. كانت، إذاً، مطالب لوسيان مشروعة للغاية. لم يقلّ غضب العميد عن الآخرين: «تطالبين بامتياز مُريح، تحت حجّة ارتكاب، لا أقول خطأً لأنّي أكره هذه الكلمة، لكن زلّة». أوقفتُه: « حسب أيّ قانون تُعتبر ممارسة الجنس في الثالثة عشرة زلّة، حسب رأيك؟» عجز عن الإجابة لكنّي أحسستُ بوقع فضيحة على من كانوا حوله. لا يقبل مُجتمعنا الجنس في صفوف الأطفال. قال راهب للوسيان: «أنتِ ترين أنّ لدينا غرائز جنسيّة في الثالثة عشرة: أنا لا». طالبت لوسيان ورفيقاتها، أيضاً، بألاّ تُطرد تلميذة حامل من المعهد بشكل آلي: «لكن، ما نفعله يصبّ في مصلحتك، قال العميد. أولياء التلاميذ هم من يطالبون بإعفاء بناتهم». طبعاً؛ ليتمكّنوا من إنكار الغريزة الجنسيّة على مراهق في الثالثة عشرة، يجب أن يعاملوا من استسلمت له كأنّها نعجة جرباء. يخشى الأولياء الذين يرفضون

تكويناً جنسيّاً لأبنائهم وخصوصاً بناتهم، أن ينتزعهم التعلّم من جهل يريدون التّصديق بأنّه براءة. لكن لماذا تقوم الجامعة بذلك؟ إنّه السّؤال الذي وجّهتُه إلى العميد وإلى شارل أندري جوليان ما ذكّرهما بسنغور: لم يشأ بعض الأولياء أن يعلّم أبناءهم رجلٌ أسود ورغم ذلك حافظ سنغور على وظيفته. ذاك أنّ الجامعة تشاطر الأحكام العفيفة للأولياء وتعتبر المراهقات الحوامل مُذنبات. المُذنب في هذه القضيّة هم الأولياء والمؤسّسة. عدد القاصرات الحوامل، اليوم، في فرنسا أربعة آلاف، ممّن تتراوح أعمارهن بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة: لو أنّها تابعت تكويناً جنسيّاً فإنّ جلّهنّ كنّ سيتصرّفن بحذر أكبر. مع ذلك، حين تشتكي أمّ قادمة بأنّها لم تتعلّم شيئاً عن وسائل منع الحمل، فإنّ السّلطة تهزأ قائلة: «لقد تأخّر الوقت قليلاً!» ويبدو أنّها لو وقعت في نفس الأزمة لعوقبت من جديد: «لا يسمحون للمؤطّرين بالمجيء بل يحضرون القساوسة»، قالت القيّمة. «إنّها مقاربة خاطئة ودالّة»، قال المُتفقّد. وشرح طويلاً، أنّ على أولياء التلاميذ التقرير أن يقبل المعهد محاضرات للتأطير أم لا. «هل ثمّة جمعيّة أولياء في مركز التأهيل پليسيس روبنسن؟ – لا. – إذًا، فإنّ المديرة تتّخذ القرارات باسمها الخاص». لام العميد المراهقات لكونهنّ يردن معاملة مثل الراشدات، أن يكون لهن أبناء، فيما هنّ في الأصل قاصرات. أشرتُ إلى أنّ المجتمع هو الذي يخضعهنّ إلى هذا المبدأ المتناقض. إن كنّ أطفالاً فلا يجب أن نخضعهنّ إلى قوانين تخصّ الكبار، بل أن نتعامل مع أوضاعهنّ كحالات استثنائيّة، أن نسمح لهنّ بالإجهاض؛ إن كنّ راشدات، فيجب مساعدتهنّ وتحريرهنّ. في النهاية قدّم العميد وعوداً غامضة تتعلّق بتحسين ظروف العمل والزيارات والخروج. وعد أيضاً باستقبال مندوبين نهاية شهر يناير. على أيّ حال، بناءً على ذلك، ستستمرّ الأوضاع كما كانت عليه في السّابق. كتبتُ في هذا الشّأن مقالاً في *قضيّة الشّعب* حاولتُ من خلاله إدانة الانتهازيّة الأخلاقيّة للشّرفاء، السّلطة المتجبّرة للأولياء، الوضع المأساوي الذي يرزح تحته شبابنا في المجتمع.

إن كنتُ قد شاركتُ في تحرّكات نضاليّة، إن كنتُ قد التزمتُ بخوض المغامرة النسائيّة، فذاك لأنّ موقفي المتعلّق بقضايا المرأة قد تطوّر. نظريّاً، ما زلتُ على موقفي. لكنّه تغيّر على الصّعيد الميداني، والعملي.

نظريّاً، قلتُ قبل الآن (في كتابي *سلطة الأشياء*) إنّي إن كنتُ كتبتُ اليوم *الجنس الثاني* فلأجل أن أقدّم قواعد عمليّة لا فكريّة في تضاد مع الذات ومع الآخر. كنتُ سأبني فكرة اضطهاد الآخر، لا على تنافس الضّمائر، لكن على أسس النّدرة الاقتصاديّة. قلتُ أيضاً إنّ أفكار الكتاب لم تكن للتغيّر: جميعُ النظريّات الذّكوريّة ترمي إلى تبرير اضطهاد المرأة؛ إنّها مُشكّلة من جانب المُجتمع على نحو يؤيّدها.

«لا نولَد نساءً، بل نصير كذلك»: أتبنّى هذه القاعدة مُجدّداً، التي تعبّر عن واحدة من الأفكار المُحرّكة في *الجنس الثاني*. مؤكّد أنّ هناك اختلافات جينيّة بين أنثى البشر وبين الذّكر، اختلافات جسديّة وأخرى في الغدد: إنّها لا تكفي لتفسير الأنثويّة؛ إنّها بناءٌ ثقافي وليست مُعطى طبيعيّاً: لم تتطرّق العالمة الشهيرة السيّدة «ليلار» إلى هذه القناعة. بل لقد تعمّقت من خلال الدراسات المُكرّسة للطّفولة في السّنوات الأخيرة؛ جميعها تثبت أنّ نظريّتي صحيحة وأنّها فقط تحتاج إلى استكمال: «لا نولدُ ذكوراً، بل نصيرُ كذلك». الفحولة، أيضاً، ليست مُعطى أصليّاً.

لا يهتمّ فرويد بالأطفال، إلّا عندما تظهر عليهم علامات أزمة أوديب: ثلاث أو أربع سنوات. لكنّ مراجِعَ مثل *الحصن الخالي* لبرونو بتلهايم Bruno Bettelheim تبيّن أيّ أهمّية يكتسيها مستقبل الفرد خلال الأشهر الأولى من وجوده. ذالك ما أثبتته، فعلاً، تجارب أُنجزت في إسرائيل من طرف الجامعة العبريّة في القدس. درس باحث في علم النّفس وطبيبةٌ مجموعةَ أطفالٍ في سنّ الثالثة، بينهم من وُلد في عائلات من نسل أشنكازي، مُرَفَّهين ومُثقّفين، الآخرون، السفارديم (العبريّون الأصليّون)، فهم فقراء يقطنون مساكن سيّئة ومُرهَقون؛ كانت الطّائفة الأولى نَشيطة، مُبدعة، يُحسن أبناؤها التواصل مع الآخر، ويدافعون عن أماكنهم وألعابهم؛ كان الآخرون

فاترين، مُنغلقين، لا يجيدون اللّعب معاً، ولا يُدافعون عن ممتلكاتهم؛ لم يكن لديهم حسٌّ بوجودهم إلّا قليلاً، حتّى إنّهم يتعرّفون في الصّور على رفاقهم لا على أنفسهم. اختُبر الفريقان سنتَيْن وأُخضِعوا إلى تعليم صارم؛ في البداية تسلّى الأطفال المعاقون وتطوّروا؛ لكنّ الأطفال المُميّزين كانوا يحظَوْن بمجهودات أكبر من قبل المُدرّبين: في ظرف سنتَين بدا أنّ تقدّمهم كان مُلاحَظاً مقارنة ببداية التّجربة. فشلت تجربة «الإدماج»: ظلّ الأطفالُ المتأخّرون مُصرّين على اللّعب فيما بينهم. كان الوقت قد تأخّر في سنّ الثالثة كي تتكافأ الحظوظ. حسب دراسة قام بها عالم أعصاب أمريكي، بنجامان بلوم، وعلماء أوروبيّون، فإنّ 50% من طاقة الشّخص وقدرتهُ على التّحصيل تتكوّن في سنّ الرابعة: إذا لم تتمّ الإحاطة بالطّفل خلال هذه السّنوات، وتوجيهه جيّداً نحو استخدام مهاراته، فإنّ تطوّره وانسجامه مع مُحيطه لن يتمّا بنفس الدّرجة لاحقاً. يكفي إذن ألاّ «يُحفّز» الأولياء أبناءهم الصّغار إناثاً وذكوراً بنفس الطّريقة حتّى نكتشف اختلافات مُهمّة بين البنات والأولاد منذ الثالثة إلى الرابعة.

سلسلة أخرى من التجارب أفضت إلى نتائج مُشابهة، تتعلّق بالدّور الأساسي الذي يلعبهُ المُدرّب: إنّها تجارب «روستال Rosenthal» ومُساعدوه. خلُص روستال إلى استنتاجات باهرة بعد أشغال أدارها في جامعة هاوارد تهمّ تجارب حول الجرذان الأليفة؛ ظنّ أنّ النتائج المُتحصَّل عليها مُرتبطة بالسّلوك الأصلي للباحث: وجد ما توقّع إيجاده. ولكي يُفنّد نظريّته، كوّن قِسمَيْن من الجرذان؛ قال لفريق المُختَبرين الأوّل إنّ الفصيلة أ مُدرّبة بشكل خاصّ على تخطّي المتاهات؛ وأنّ الفصيلة ب، فصيلة غبيّة. حصل المُختبرون على نتائج مُذهلة مع الفصيلة أ، وسيّئة مع الفصيلة ب: لقد أثّر تفاؤلُهم أو انهزاميّتهم على مجرى الاختبارات. أخضع روستال أساتذة إلى نفس التّجربة. أجرى اختبارات لبعض الطّلبة. قام بتحرير قائمتين يكون فيها مُستوى الذّكاء متعادلاً بينهما. وأعلن أنّه سجّل في الأولى الطّلبة الأذكياء جدّاً، وفي الثانية المتوسّطين والضّعفاء. اقترح

الأساتذة اختبارات جديدة للطّلبة: حصل الفريق الأوّل على أعداد عالية جدّاً، وبدا أنّ أعداد الفريق الثاني كانت رديئة للغاية. يعلم كلّ البيداغوجيّين أنّه، لكي ينجح طفل، يجب أن نمنحه الثّقة بنفسه؛ إذا شككنا في قدراته فإنّه سيُصابُ بالإحباط، وسيفشل. تبرهن تجربة روسنتال – التي قام بمثيلاتها وأدّت إلى نفس النّتائج – أنّه، خلال فترة التدريب فإنّ لسلوك المُعلّم إزاء المُتعلّم دوراً حاسماً: سيحصل على ما يتوقّع من نتائج. لكن، ومنذ أن يكون الطّفل في المهد وبعد ذلك، فإنّ الأولياء ينتظرون شيئاً آخر من الفتاة مُغايراً للولد. طبعاً، تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الانتظار ليس مُجرّد شعور: إنّه يُتَرجَم بتصرّفات.

تتعامل الأمّهات مع الأولاد بشكل يختلف عن معاملاتهنّ مع البنات، قال اختصاصي النّفس الأمريكي روبـرت.ج. ستالر الذي درس بعمق مسألة الخنوثة الذّكريّة. استبعد جوهريّاً (في مقال نُشر في *المجلة الجديدة للبسيكولوجيا*، في العدد 4، خريف 1971، حيثُ لخّص أهم ما جاء في نظريّته). «الفكرة المغلوطة بأنّ الأنوثة والذّكورة شأن بيولوجي لدى البشر»، ذكّر بالـ «تجارب العديدة الطبيعيّة التي برهنت أنّ نتائج التربية، التي تبدأ منذ الولادة، هي التي تُحدّد القسم الأهمّ من الهويّة الجنسيّة»، أكّد: «ليس من باب القوى الفطريّة أن يعرف الرّضيعُ إن كان ذكراً أم أنثى. سيُعلّمه الأولياء ذلك، وبإمكانهم تعليمه أمراً آخر... اختيار الاسم، لون الملابس، طريقة ارتداء الملابس، المُخالطة، أنواع الألعاب – كلّ هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى تبدأ عند الولادة».

لا تعامل الأمّ (بشكل خاصّ) الذّكور مثل الإناث. لا تلعب الأمّهات بعضو أولادهـم الرُّضعِ بأريحيّة كما كانت تفعل مُربّيات غارغانتويا Guargantua، أو مُربّيات لويس الثالث عشر: لكنّهن فخورات بذلك، إنّهنّ يُطلقن عليها أسماء حميمة، عند المناسبة تمدحُه. لا شيء مع عضو الفتاة الذي يظلّ مجالاً مخفيّاً. هذا ما يُفسّر – لا بفطرة غريبة – التنوّع بين سلوك الذي يُمكن أن يُلاحَظ منذ سنّ السنتيْن بين الأولاد والبنات. امرأة شابّة

تعمل في حضانة حدّثتني، كم كانت تتلقّى الضّرب؛ عندما يدخل الأولاد إلى الحمّام فإنّهم يظهرون أعضاءهم دون حرج؛ تعلّم البنات في سنّ مُبكّرة أن «يُخفين هذا»؛ إنّهنّ خجولات ولديهنّ شعور دفين بالعار؛ يتجسّس الأولاد على الرّفيقات الصّغيرات وهنّ يغتسلن أو يقضين حاجاتهنّ: فيما لا تتجسّس البنات على الأولاد. مرّة أخرى، هذا يثبت لا معنى أن تكون الحشمة من صنع الهرمونات: لقد تمّ تلقينهم إيّاها إلى جانب كلّ الخصائص التي يُزعَمُ أنّها أنثويّة. أردتُ التحدّث بالتّفصيل عن عمليّة التلقين هذه في *الجنس الثاني*. تفرض الألعاب المُقدّمة للأطفال أدواراً مُحدّدة؛ تقبل الفتاة ألعاباً تشبه ما تقوم به أمّها والولد ألعاباً يقترحها والدُه. يُشجّعُ الأولياء هذا الميز في جميع المجالات لأنّ واحداً من أكبر مشاكلهم هو أن يتحوّل أبناؤهم إلى مثليّين جنسيّين، يُسمّى ذلك بالنّسبة للفتاة «ولداً ضائعاً».

نعلم أنّ فرويد يفرّق بين المرأة والرّجل بحسب الجسد، تغبط الفتاة الولدَ على عُضوه الذّكري وتقضّي بقيّة حياتها متعلّقة بفهم دونيّتها مقارنة به. قلتُ في *الجنس الثاني* إنّي أرفض هذا التأويل. معظم الفتيات يجهلن كلّ شيء عن أجساد الأولاد؛ عندما تكتشف العضو الذّكري فإنّها تفعل، عادة بكثير من اللامبالاة أو حتّى التقزّز. لنتناول بالحديث هذا النقاش في *سياسة الجنس* لـ «كيت ميلي» حيثُ تتساءل لماذا تجد الفتاة هذا الشّيء أعلى قيمة من آخر لمجرّد أنّ حجمه أكبر؟ حسب فرويد، هي ترى عضواً أكثر ملاءمة للعادة السرية من البظر: لكنّها لا تفهم أبداً دور القضيب في عمليّة العادة السرّية. وهل تعلم أصلاً أنّها تملك بظراً؟ لا يعرف فرويد المرأة سوى من بين حالات إكلينيكيّة بحتة؛ تعاني مريضاتُه من كبت جنسي وكنّ غير راضيات عن أوضاعهنّ الجنسيّة. أراد تفسير الواقعة الثانية بالأولى. لكنّ المُجتمع هو الذي يفرض على المرأة وضعاً مُعيّناً إجباريّاً. حتّى إنّ فرويد نفسُه، قد اعترف في نهاية حياته بأنّه لم يفهم شيئاً عن المرأة. أطلقَ أحكاماً «آليّة» انطلاقاً من عصره ومحيطه، جعلته يعتبر المرأة رجلاً ناقصاً. استُخدِمَت هذه الفكرة التي ما زالت إلى اليوم تتبنّاها عديد التحاليل

النفسية من قبل المتأثّرين بفرويد: كانوا ينسبون عقد الذّكورة إلى امرأة لا تلزم «مكانها».

منذ صدور *الجنس الثاني*، ظهر في فرنسا كما في أمريكا أدب وُجِّه لإقناع المرأة بـ «طابعها المخصوص». زعم هذا الأدب «تفسير لغز الأنوثة»، الأمر الذي يصبّ في تفسير لغز المرأة. قيل إنّه أدب مُستَهلَك، تجاوزه الزّمن: ما شكّل دليلاً قاطعاً على إرهاب الحداثة في هذا العصر. قيل إنّ النساءَ أنفسهنّ يؤكّدن ذلك. لا تجد النّساء العاملات في الشّغل سوى الخيبة؛ أغلبهنّ يفضّلن البقاء في البيت. عندما تتضارب طبقتان، فإنّ هناك دائماً بين المهزومين من ينضمّ، بدافع الانتهاز، إلى الشقّ المُتميّز («يقع تثمين المرأة لنفسها في عينيها وفي عيون الرّجال عندما تتبنّى وجهة نظر الرّجل». ج. تكسيي، «البحوث السوسيولوجيّة والمرأة»، *الأزمنة المعاصرة 1/ 12/ 1965*). ثمّ إنّه علينا التثبت جيّداً من البحوث السوسيولوجيّة التي يُديرها أناسٌ بنزعة مُحافظة (*إيدام Idem*): طريقة طرح السؤال هي التي تُملي الإجابة، في أحيان كثيرة. من جانب آخر، صحيحٌ، في الأوضاع الراهنة، أنّ عمل النساء تُضاف إليه مشاغل البيت، لا تجعل من المرأة كائناً مُتميّزاً عن الرّجال: إنّه المُجتمع هو الذي يفرض عليها ذلك، مُستعملاً كلّ الوسائل السيئة لزرعه في وعيها. أخيراً، ما زالت المرأة في البيت بعيدة عن الشّعور بالرضا الذي تحاول إبداءه؛ غير سعيدة بمصيرها، لا تريد أن تحظى ابنتها بمصير مماثل، مُطالبة، بمرارة، بالإبقاء على وضعها المؤلم. أمّا الرّجال، فهم مُتمسّكون بتأكيد سُمُوِّهم. لا تزال الهيمنة الذّكوريّة متأصّلة في الرجال الفرنسيّين حتّى إنّ بعضهم لا يتردّد في بناء اعتزازه بها على أنّ الرّجال يتبوّلون وقوفاً – الأمر الذي لا يراه المُسلمون قاعدة. تحدّث السيّد شعبان دلماس بحماس عن «المُجتمع الجديد» وفصّل بأنّ المرأة ستكون مُساوية للرّجل، لكن، طبعاً، في حدود الاختلاف. أعتقد أنّ هذا الفرق ينسب إليها تنظيف المؤخّرات: الرّضع، المرضى، المُسنّين، هنا يكمن «العمل الاجتماعي» الذي يقترحه م. ديبري. والحقيقة أن أوضاع المرأة لم تتغيّر في فرنسا خلال السّنوات العشر

الأخيرة. لقد عُهِد إليها بتعديل شامل في النّظام الزّوجي. سُمِح بتحديد النّسل: لكنّ 7% فقط من النساء في سنّ الإنجاب يستخدمن وسائل منع الحمل، كما لي أن قلتُ. فيما ظلّ الإجهاض ممنوعاً بالقطع. تتحمّل المرأة مشاقّ أشغال البيت. واختنقت شكوى العاملات.

في الولايات المُتحدة، أدركت النّساء خطورة هذا الاضطهاد وثُرن. أصدرت بيتي فريدن كتاباً رائعاً، سنة 1963، «*الأنوثة الغامضة*» الذي كان له صدى كبير. وصفت فيه قلقاً لم تجرؤ على تسميته: قلق المرأة العاملة. بيّنت كيف أنّ الرأسماليّة سعت إلى التّلاعب بالمرأة من أجل حصرها في دور المُستهلِكَة: يصبّ ذلك في مصلحة الصناعة والتّجارة كي تتضخّم رؤوس الأموال. أدانت استخدام نظريّات فرويد وتابعيه لإقناع المرأة بمصيرها الأوحد المحتوم: تربية الأطفال والعناية بالبيت. بعد ثلاث سنوات، أسّست بيتي فيدن حركة نسائيّة ليبراليّة إصلاحيّة، سيتمّ تجاوزها إلى حركات أكثر راديكاليّة، ستؤسّسها نساء شابات. سنة 68، ظهر بيان مُجتمع من أجل الحدّ من سلطة الرّجال؛ لا يجب اعتباره برنامجاً جادّاً: إنّه كُتيّب شديد الضّراوة، حيثُ يُدفَعُ بالثّورة ضدّ الرّجل إلى أبعاد غريبة. الأهمّ من كلّ ذلك نشأة حركة تحرير المرأة، خريف 68، التي تضمّ عدداً كبيراً من المُنخرطين. تشكّلت مجموعات أخرى. عُرفَت الحركة بالمظاهرات الاستعراضيّة وبأدب غزير يؤيّدها: مقالات كثيرة، وكتب، من بينها *سياسة الجنس* لكايت ميلي، *جدليّة الجنس* لشولاميث فايرستون، *قوّة التّآخي*، مجموعة دراسات أنجزها روبان مورغان، *المرأة المخصيّة* لجيرمين چرير. لم تكن هؤلاء النّسوة يطالبن بتحرير سطحي للمرأة، بل برفع الاستعمار عنها، إذ يعتبرن أنّهنّ تحت «الاحتلال من الدّاخل». كنّ يعانين الميز في سوق الشّغل، وإن كان الأخير يمارس عليهنّ ابتزازاً غير مأجور: لم يكن يحظيْن بحظوظ الرّجال ورواتبهم. انتشر نشاط الحركة في كامل الولايات المُتّحدة. وأخذ صدى في كثير من دول العالم، خصوصاً إيطاليا وفرنسا حيث تطوّر نشاطُ حركة تحرير المرأة.

ما هو مصدر هذا الانفجار؟ ثمّة سببان رئيسيّان. الأوّل هو أنّ وضع المرأة في مُجتمع رأسمالي متقدّم – مرفّه اقتصاديّاً من وجهة نظر الرّجال – يُمثّل في نظرهم تضارباً. لا يُعتبَرُ العمل في البيت، في مُجتمع تجاري، كشغل حقيقي: كي يحظى بذلك، عليه أن يكون فاعلاً في الإنتاج العمومي. إنّ بقاء العمل المنزلي – حتّى باستخدام الآلات – في أيّ بيت، داخل مُجتمع حيثُ أشكال العمل مُرشّدة، هو ضرب من النّشاز. السّبب الثاني وهو الأهمّ؛ هو أنّ النّساء لاحظن عدم جدوى الحركات النّضاليّة اليساريّة والاشتراكيّة. إنّ تغيير العلاقات الإنتاجيّة لا يكفي لتغيير علاقات الأفراد فيما بينهم خصوصاً أنّ المرأة لم تبلغ منزلة الرّجل في البلدان الاشتراكيّة. عدد كبير من مناضلات تحرير المرأة في الولايات المُتّحدة وفي فرنسا قمن بالتّجربة بأنفسهنّ: تُكَبَّلُ النّساءُ، حتّى في الجماعات الأكثر إيماناً بالثّورة، في أشغال رديئة لا كرامة فيها، بينما يكون الذّكور عادة هم رؤساء العمل. بينما حمل نزر من النّساء، في «فانسان»، راية الثّورة واقتحمت يساريّات القاعةَ صارخات: «السّلطة في القضيب». قامت الأمريكيّات بتجارب مُشابهة.

أمّا في أيّامنا هذه، تأثّرت الحركات النّسويّة (الفيمينيست) في الولايات المُتحدة بالهيپي والـ«ييپي Yippies» وخاصّة بالفهود السّود؛ في فرنسا تأثّرت هذه الحركات بأحداث مايو 68: إنّها تهدف إلى خلق أشكال ثوريّة مُختلفة عن أنماط اليسار الكلاسيكي وأمكنها أن تبتكر طُرقاً جديدة.

قرأتُ الأدب النسوي الأمركي، وراسلتُ بعض المناضلات، رويتُ نقلتُ حواري مع بعضهنّ وكنتُ سعيدة بأنّ النسوية الجديدة في الولايات المُتّحدة تتبنّى أفكار *الجنس الثاني*: سنة 69، وصل عدد النّسخ إلى سبع مائة وخمسين ألفاً من كتب الجيب. أن تكون المرأة من صنع الحضارة لا من صنع البيولوجيا فهذا أمر لا شكّ فيه. ينأين عن كتابي على المستوى العَملي: يرفضن وضع ثقتهنّ في المستقبل، يردن الإمساك بزمام أمورهنّ اليوم لا غداً. هذه هي النّقطة التي غيّرتُها: ألتمس لهم العذر.

قد يكون *الجنس الثاني* مفيداً للمناضلات: لكنّه ليس كتابا نضاليّا. أعتقد أنّ وضع المرأة سيتطوّر بتطوّر المُجتمعات. كتبت: «عموماً، كسبنا المعركة. أرى أنّ مسائل عديدة تبدو أهمّ من تلك التي تعنينا بشكل خاصّ». وقلتُ في *سلطة الأشياء*، في حديثي عن أوضاع المرأة: «إنّها مُرتبطة بمُستقبلها المهني في العالم، لن تتغيّر بجدّية إلا إذا طرأ تحوّل كبير على منظومة الإنتاج لهذا السّبب لم أشأ الانغلاق في موضوع الأنثويّة». لاحقاً، في حوار مع جينسون Jeanson (فرانسيس جينسون، *سيمون دي بوفوار أو مؤسّسة الحياة*).، قلتُ إنّي أوّلتُ مسألة الأنثويّة بشكل صحيح وجذري، منذ اللّحظة التي أبعدتُ عنها أفكاري. لكنّي أظلّ على صعيد نظري: أرفض وجود طبيعة أنثويّة. الآن، صرتُ أفهم من كلمة نسويّة أن تناضل المرأة من أجل مطالب ذات بعد أنثويّ، بالتّوازي مع صراع الطّبقات. من هذه الزّاوية أعلنُ أنّي نسويّة. لا، لم نكسب المعركة: في الواقع، منذ 1950 لم نفز بشيء تقريباً. لا تكفي الثّورة الاجتماعيّة لحلّ مشاكلنا. تشمل هذه المشاكل أكثر بقليل من نصف البشريّة: أعتبرها الآن جوهريّة. وأعجَبُ للقبول السّهل باستغلال المرأة. من الصّعب أن نفهم النّظر إلى العبوديّة كمسألة طبيعيّة، في ديمقراطيّات قديمة، وثيقة الارتباط بمبادئ المساواة: كان على هذا التناقض أن يبدو لهم جليّاً دون الحاجة إلى إضاءته. يوماً ما سيُطالب الناس بالرفاهيّة بنفس القدر من العجبِ الذي تمسّكت معه الديمقراطيات البورجوازية والشّعبيّة دون وخز للضّمير بعدم التكافؤ بين الجنسَيْن. أحياناً، وإن كنتُ أرى الدّوافع جيّداً، فإنّي أندهش. باختصار، كنتُ فيما مضى أعتقد أنّ الأجدر هو أن يمرّ صراع الطّبقات قبل المقاومة من أجل المساواة بين المرأة والرّجل. أقرّ اليوم أنّ الاهتمام يجب أن يكون مُوجّهاً للقضيّتَيْن معاً.

وصفت جوليات ميتشال في كتابها الصّغير الرائع *وضع المرأة* (الصّادر سنة 1971، استكمالاً لمقال مُهمّ: «الثّورة الأطول» المنشور سنوات قبل ذلك في إنجلترا في *مجلّة اليسار الجديد*). الخلاف القائم بين النسويّة الراديكاليّة والاشتراكيّة المُجرّدة.

نسويّة راديكاليّة	اشتراكيّة مُجرّدة
* الرّجال هم المُعتدون.	* المنظومة هي المُعتدية.
* منحت كلّ المُجتمعات المنزلة الأسمى للرّجال.	* الرأسماليّة تضطهد النّساء.
* إنّه صراعٌ بسيكولوجي الفوز فيه للرّجال.	* تُفَسَّرُ المسألة بالملكيّة الخاصّة.
* لا تملك الاشتراكيّة ما تمنحنا إيّاه.	* علينا فهم ارتباطنا بالاشتراكيّة.

إلخ.

دافعتُ منذ سنوات عن الاشتراكيّة المُجرّدة؛ الآن، أعتقد مثل جوليات ميتشال أنّ أي قسم من القِسمَيْن على حِدَة لا يكفي: عليهما أن يتكاملا فيما بينهما. نعم، يسحق النّظام الرّجال والنّساء على حدّ سواء لكنّه يُحرّض الرّجال على قمع النّساء: إلّا أنّ كلَّ رجل يُؤول المسألة ويتبنّاها بطريقته وحسب ميوله؛ سيحتفظ بأحكامه، نواياه، حتّى لو تغيّر النّظام. ومثلما لم يكن في إمكان ثورة الشّباب سنة 68، أن تقلب النّظام بمفردها، فإنّ ثورة النّساء لن تغيّر بمفردها منظومة الإنتاج. لكن، من ناحية أخرى بدا واضحاً أنّ الاشتراكيّة - في صورتها الراهنة - لم تستطع أن تعتق النّساء. هل ستتحقّق اشتراكيّة تكفل العدل، يوماً ما؟ إنّها في الوقت الحالي يوطوبيا فيما أنّ ظروف المرأة القاسية أمر واقع.

يفترق مناضلو تحرير المرأة في العديد من النّقاط. وجميعُهم متردّدون فيما يتعلّق بمُستقبل الأسرة. يعتقد بعضهم - من بينهم شولاميث فايرستون - أنّ التقويض ضروري لتحرير المرأة والأطفال والمُراهقين. لا يُثبتُ فشل المؤسّسات التي قدّمت نفسها على أنّها بديل للعائلة، شيئاً على الإطلاق:

إنّها مجرّد مكبّات نفاية، على هامش مُجتمع يتطلّب إعادة هيكلة شاملة. هذا صحيح، وأرى صواباً أيضاً ما ذهبت إليه فايرستون في نقدها للأسرة. إنّي أستنكر العبوديّة التي تُمارَسُ على المرأة من خلال الأطفال والإفراط في منح هؤلاء النفوذ. يضمّ الأولياء أطفالهم في لعبة ساديّة مازوشيّة، عاكسين عليهم أحلامهم وهواجسهم وتوتّرهم. إنّه وضعٌ رديء للغاية. على الواجب أن يُوَزَّع بين الأمّ والأب. ويُفضّل ألاّ يُهمَلَ الأطفال أبداً، بأن تُضبَط سلطتهم وتُراقَبَ بحزم. بهذه الطّريقة المُنظّمة، هل ستُحافظ الأسرة على جدواها؟ ثمّة مُجتمعات يتمّ فيها التكفّل بالأطفال من قبل كلّ الكبار في محيطهم؛ وأثبتت التّجربة أنّها ناجعة من خلال النّتائج الباهرة؛ لكنّها مُجتمعات قليلة العدد حتّى يتسنّى الحكم بأنّه حلّ مناسب للأزمة. مثل العديد من النسويّين، أرغب في إبطال الأسرة، لكن لا فكرة واضحة لديَّ عن البديل.

نقطة مُختَلَفَة أخرى: علاقة الرّجل بالمرأة. كلّ النسويّات مُتّفقات في هذا المجال وجبَت إعادة تعريف الحبّ والجنس أم لا. لكنّ بعضهنّ ينفي دور الرّجل في حياة المرأة، خصوصاً في الجانب الجنسي، فيما ترغب أخريات في الحفاظ على وجود الرّجل في فراشهنّ. أنحاز إلى هؤلاء. أبغض مُطلقاً، أن تُغلق المرأة على نفسها مُعسكر الأنثويّة. استناداً إلى التجارب المُنجَزَة في مُختبرات ماستر وجونسون، بعض النسويّات يعتبرن أنّ النشوة المهبليّة أسطورة وأنّ النّشوة الوحيدة هي المتّصلة بالبظر: كي تصل إلى اللذة الجنسيّة لا حاجة للمرأة بالرّجل، عكس ما يؤكّده فرويد. بنى فرويد، دون شكّ، نظريّته على تصوّره البابَاوي حول العلاقة الجنسيّة: ينفي ذلك استقلال المرأة جنسيّاً ويُخضعها كرهاً إلى تبعيّتها للرّجل. بل لقد بلغ به الحماس حدّاً فكتب: «إنّ العادة السريّة البظريّة، هي عمليّة ذكوريّة وإنّ إلغاء الجنسيّة البظريّة هو وضع ضروري لتأصّل الأنوثة». وبما أنّ البظر هو عضو أنثويّ خالص فإنّ جملته الأولى تقفز إلى العيون مباشرة. إنّها محض ذريعة أن نعتبر المرأة التي اختارت اللذة البظريّة - في المثليّة أو بشكل فردي - أقلّ اتّزاناً من غيرها. من جهة أخرى لا أساس من الصحّة لفكرة

إلغاء الجنسيّة البظريّة؛ يتّصل البظر بالفرج بشكل وثيق بل لعلّ هذه الصّلة هي التي جعلت من اللذة المهبليّة أمراً ممكناً. يقودنا ذلك إلى القول إنّ هناك خصوصيّة لا تقبل الإنكار للذة الناتجة عن إيلاج مهبلي وهذا ما يجده عدد كبير من النساء أكثر إرضاء وإشباعاً. لا تُثبت التجارب التي قامت على فصل الإحساس الداخلي للفرج عن باقي التفاعلات، شيئاً. ليس الجماعُ اتّصالاً بين عُضوين تناسُلّيين ولا حتّى بين جسدَيْن لكن بين شخصَيْن، والنّشوة ظاهرة نفسيّة بحتة (وصف جيرار زوانغ في كتابه *عضو المرأة*، بكثير من الدقّة الظّروف والميكانيزمات التي تفضي إلى اللذة المهبليّة (صفحة 125 إلى 129). ذكّر بأنّ حالات العادة السرّية الفرجيّة عديدة جدّاً؛ استعمال الـ «چسكل Guesquel» من قبل الهنود الحمر، الطّريقة التي يُلبِسُ بها شعب بولينيزيا أعضاءهم الذكريّة وشعوب أخرى مثلها، لا تعني شيئاً إذا أقررنا بعدم وجود إحساس فرجي).

لا أقبل أيضاً، فكرة أن يكون الجماعُ اغتصاباً. بل لعلّي ابتعدتُ في هذا كثيراً عندما كتبتُ في *الجنس الثاني*: « الإيلاج الأوّل هو اغتصاب في كلّ الحالات». أفكّر خاصّة في ليلة زفاف تقليديّة، حيثُ تُفتَضُّ بكارة عذراء جاهلة، بشكل أخرق. صحيح أنّ الرّجل يأخذ المرأة دون أن يسألها عن رأيها، في جميع الطّبقات الاجتماعيّة، وأحياناً يفعلُ بالعنف؛ لو فرض عليها الجنس في تلك الحالة فإنّ الجماع يتحوّل إلى اغتصاب. كما يُمكن أن يكون متبادَلاً من الجانِبَيْن، حُرّاً ومقبولاً؛ تشبيه الإدخال بالاغتصاب، هو سقوطٌ، إذًا، في الأسطورة التي تجعل من العُضو الرجولي سيفاً، سلاحاً مُهيمِناً.

يدفعُ حقد بعض النساء على الرّجال إلى الطّعن في كلّ القيم التي يعترفون بها، والتخلّي عمّا يُسمّينه «النّموذج الذّكوري». لستُ موافقة على ذلك، بما أنّي لا أصدّق وجود خصلات، قيم، طرق عيش تخصّ المرأة: سيكون ذلك بمنزلة إقرار بوجود طبيعة أنثويّة، أي أن نضيف إلى أسطورة ابتكرها الرّجل إقفالاً على المرأة داخل إطار جائر. ليست المسألة بالنّسبة

إلى المرأة مُجرّد إثبات وجود كامرأة، بل ككائن بشريّ له شخصيّة وحضور كامل. لا معنى لرفض «النموذج الرجالي». في الحقيقة، الرّجال هم الذين ابتكروا الثقافة والعلوم والفنون والتقنيات بما أنّهم هم من كانوا يُمثّلون الكونيّة. وكما أنّ البروليتاريا تستخدم موروثها الماضي، فإنّ على المرأة أن تستخدم ما أوجده الرّجل لمصلحتها. ما لا شكّ فيه هو أنّ الحضارة القائمة على الذّكور بهدف بلوغ الكونيّة تعكس مازوشيّة كبيرة؛ يبدو ذلك في المفردات التي يستخدمونها. علينا ونحنُ نستعيد ما سُلب منّا من ثروات، يجب أن نُميّز بين ما هو كوني وما هو ذكوري. تليق بنا الكلمات *البيضاء* والكلمات *السوداء* كما تليق بهم تماماً: لا كلمة *فحولة*. أعتقد أنّ في وسعنا دراسة الرياضيات والكيمياء دون مشاكل؛ لكنّ البيولوجيا وأدهى منها التحليل النفسي والبسيكولوجيا هي مجالات محلُّ ريبة. تبدو لي مُراجعة المعرفة أمراً شديد الأهمّية.

التقيتُ بنسويّين كثيرين إن من خلال كتاباتهن أو مباشرة وكان لهنّ مواقف مشابهة لمواقفي تقريباً، لأجل هذا السّبب، وما قلت، شاركتُ في البعض من حراكهن النضالي والانضمام إليهن. لديّ نيّة المواصلة في هذا الطّريق.

ثمّة نقطة لم يتغيّر فيها مبدئي وأريد الإشارة إليه هنا: إلحادي.

أرواحٌ طيّبة كثيرة كانت تندب سوء الحظّ الذي أفقدني «الإيمان». قرأتُ في بعض المقالات أو الرّسائل المُوجّهة إليَّ: «آه! لو أنّها عاشت وسط مسيحيّين حقيقيّين!» «لو قرأتِ الإنجيل بدل قراءتك للنّسخ المُشوّهة!» «لو أنّها التقت بقسّ ذكيّ!» يجب أن أسمع: «لو أنّها التقت بي *أنا*: لكانت ارتقت إلى مُثُلي وحذت حذوي، مُقتنعة تماماً ببراهيني». في الواقع، كان تكويني الديني مُعمّقاً جدّاً؛ أحفظ من الإنجيل مقاطع طويلة. عرفتُ خلال شبابي ولاحقاً قساوسة أذكياء: ولأنّهم كانوا كذلك، لم يزعموا أنّ بتأثيرهم عليَّ سيُنقذون روحي. الإيمان، ألا يرتبط ذلك بالربّ، بأقداره، بالمغفرة التي

يمنحها. وفي الحقيقة إنّه تضارب نظري أن تشرح وجوده أو غيابه بوسائل طبيعيّة وطارئة.

لكنّي وإن كنتُ لا أعتقد في الماوراء، أجد نفسي قادرة على البحث في العوامل الاجتماعية أو النفسيّة التي تُحفّز سلوك الكاثوليكيّين المُخلِصين. إنّهم لا يقومون بشيء، عادة، خلاف تكرار ما لُقّنوا إيّاه أو شاهدوا غيرهم يُمارسه في محيطهم. يمكنهم القول مثلما قالت الشخصيّة التي جسّدها «تراتينيون Trintignant» في «*ليلتي في بيت مو*»: «كنتُ كاثوليكيّاً، فبقيتُ كذلك». الإيمان، أكسسوار نتلقّاه في طفولتنا مع مُجمل الأسلحة البورجوازية الأخرى التي نُحافظ عليها، عادة، كالبقية دون طرح أسئلة في شأنها. وإن حدث أن راودتنا الشّكوك فنحن نطردها لأسباب عمليّة: وفاء عاطفي للماضي، ارتباط وثيق بالمُحيط، الخوف من الوحدة والمنفى الذي يُهدّد عدم المُنضوين. كان لـ «زازا» عقل ناقد. بعض المظاهر في دينها حيّرتها؛ إن كانت لم تقطع معه فبسبب الحبّ غير المشروط والموجع التي كانت تكنّه لأمّها: لم تشأ، في أعماقها، الابتعاد عنها. أرادت أن تثق في كائن عزيز لاهتزاز ثقتها بنفسها وقلقها. في أغلب الحالات، تكون هناك العديد من العوامل الفكريّة المُحرّكة لهذا الرّهان. لقد حصّلنا عادات في التّفكير، منظومة مرجعيّات وقيم سُجنّا داخلها. لا يجرؤ القسّ، مثلاً، على القطع مع ماضيه، حتّى لو كانت أفكاره تُحرّضه على ذلك. ثمّة أيضاً عوامل مادّية؛ من المُستحيل على دانيال-روپس، ومورياك أن يتساءلا عن صلابة قناعاتهما: ستكون النّتيجة، حتماً، هدم المسيرة بأكملها.

يُقال لي إنّ الارتياب يأتي أوّلاً بالنّسبة إلى بعضهم: يوماً ما، فجأة، يكتشف المعنيُّ ربّاً: «دخل إلى غرفتي وحدّثني في الحديقة.. إنّه موجود: لقد التقيتُ به». عموماً – ومثال سيمون ويل مثالٌ صاعق – يمرّ المُتحوّلُ بنوبة. تتهاوى تصوّراته عن العالم، وتنفجر صورته التي رسمها عن نفسه. من أعماق كربه، تغمره السّعادة بإيجاد المخرج فاتّخذ من بهجته القصوى استنارة. يصرّ المؤمنون بطواعية على شقاء العيش الذي يجدونه في حضور

الله؛ استنتجتُ أنّهم يجدون الكثير من الرّاحة. أمّا بالنّسبة إلى المآسي والظّلم التي تلفُّ الأرض فسيتمّ التعويض عنها في العالم الآخر، ليس عليهم أن يحزنوا لذلك. سيغفر لهم الله أخطاءهم ويلتمس لهم العذر بسهولة لأنّهم هم من جعلوه يتكلّم. ثمّة استثناءات؛ بالنّسبة إلى الأخت *فافيلا دي ريو*، لم يكن الربّ ذريعة، بل ضرورة: إنّه يرافقها في حربها على البؤس والاستغلال وضدّ كلّ الجرائم المُرتكَبة من طرف الإنسان إزاء أخيه الإنسان. يخوض قساوسة ولائكيّون نفس المقاومة. لكنّهم ليسوا كثيرين.

طلبتُ من بعض المؤمنين في أحيان عديدة، كيف يُفسّرون إيمانهم. من بينهم من أجابني بدوافع فلسفيّة بالية: «لم يخرج العالم من العدم... لم يكن العالم نتيجة للصّدفة». آخرون، بنبرة عاطفيّة: «يجب أن يكون هناك أشياء لاحقة... من دون الله لن يكون هناك سبب للعيش... سيكون الأمر مُحبِطاً للغاية..». وآخرون ذكروا صنف التجارب التي كنتُ قد لمّحتُ إليها. قال لي مُتخصّص في اللاهوت: «يوم تأكّدتُ من عقيدتي، أحسستُ بوجود الله كما أراكِ الآن أمامي: لم تُمحَ تلك الذّكرى من خيالي قط». السّؤال هو لماذا نذر حياته لانطباع الطّفولة ذاك. عديدون قالوا لي ببساطة: «الإيمان؟ إنّه أمر لا يُفَسَّر».

أعرف أنّه إيمان أطفال: الاعتقاد في الله، بالنّسبة إليه، هو الإيمان بالكبار الذين حدّثوه عن الربّ. عندما كفّ عن استدرار ثقتهم، أصبح الإيمان اتّفاقاً مُبهماً تُساورُه الشّكوك يتمثّل في الإيمان بأنّنا مؤمنون. في سنّ الخامسة عشرة، كنتُ مُكتملة كفاية كي أرضى بأيّ شيء. ثمّ لاحقاً، جعلتني دراستي للفلسفة أفهم أنّ كائناً موجوداً في ذاته ولذاته في آن واحد، هو كائن لا يستجيب لأن نفكّر فيه. أبداً، لم تكن المسألة بالنّسبة إليَّ – ولن تكون – مُجرّد عودة إلى العِبَرِ التي سحرتني خلال سنواتي الأولى.

من بين الكُتّاب الذين رأوا في خاتمة *سلطة الأشياء* برهانَ فشل، ثمّة عدد كبير، تنافسوا في نسبه إلى إلحادي. من دون هذا الإيمان السريّ الذي يسمحُ لإنسان ستّيني بأن يُمضي ليالي سعيدة في علب اللّيل الباريسيّة،

كنتُ سأشعر بهول وجود لا يتعالى على الربّ. إنّ غرور بعض المسيحيّين هو الذي سيُغلق عليهم أبواب السّماء إن كانت هناك أبواب. وإن حدث أن صادفوا إنساناً سعيداً وغير مؤمن، فإنّهم فوراً سيتّهمونه بعدم فهم اللّغز والمأساة الإنسانيّة؛ إنّه السيّد هومايس Homais؛ كانوا يغضون سطحيّة مفاهيمه المحدودة. إن كان لديه إحساس بالموت والغموض والمأساة، فإنّ هذا ينقلب ضدّه أيضاً. أو أن يؤكّدوا له – ومن لم يفعلوا معه ذلك؟ – بأنّه يؤمن بالله في أعماقه.أو أن تُعتبَر ثورته وقلقه دليلاً على أخطائه. يصيبني العدم بالغثيان: هذا يعني أنّنا خالدون.

تحليل غريب، يدلّ على الدّور الذي يلعبه الدّين في أغلب الحالات: الهروب والتصحّر. الإيمان قادر على تجنيب الملحد مشاكله. الأدهى هو أنّ المؤمن يستلهم سُمُوَّه من هذا الجُبن. إنّه يمدّ إلينا يداً كريمة من عليائه: «أنا على يقين أنّ صوت الربّ سيصلكم يوماً». لو أنّ أحداً أجابه: «أتمنّى أن يأتي يوم تكفّ فيه عن هذا اللّغو»، فإنّه يغضب غضباً شديداً.

تحت أيّ ألوان ترين العالم الذي تعيشين فيه دون ربّ؟ عديد من القرّاء كتبوا لي أنّ ما يُعجبهم في كتبي هو حسّ البهجة وحبّي للحياة: تفاؤلي. آخرون – خصوصاً فيما يتعلّق بكتابي الأخير *الشّيخوخة* – يستنكرون تشاؤمي. كلتا الفئتين سطحيّة. قلت هذا: منحتني طفولتي تفاؤلاً حيويّاً. كنتُ دائماً واثقة من نفسي ومن نجمي. بل لقد ابتعدتُ في الطّيش إلى حدّ الثقة بالمُستقبل: لم أصدّق الحرب قبل أن تندلع. مذّاك وأنا منتبهة. مع ذلك غذّيتُ آمالاً سرعان ما حبطت: ما انتظرته من الاشتراكيّة – في الاتحاد السوفيتي وكوبا والجزائر – لم أجده. صدّقتُ بسرعة، وأنا أكتب *الجنس الثاني* باقتراب مجد النّساء. حتّى وإن كنتُ مُلمّة بما يحدث، فإنّ خيالي يظلّ أبطأ من هول المآسي التي تقع مثل ما حصل في بيافرا والبنغال: لقد فوجئتُ بها. لعلّ خطئي هو الاعتقاد بأنّ الأفظع هو الأكيد. مع ذلك، لديّ هاجس رؤية الحقيقة وجهاً لوجه والتحدّث عنها مُخفّفة من الأعباء: من يجرؤ على القول إنّ ما يحدث مُضحك؟ أكّدت لي الرّسائل التي

تلقّيتُها من أشخاص مُسنّين بعد صدور كتاب *الشّيخوخة*، أنّ الواقع أكثر مرارة ممّا وصفتُ. بالعكس، لأنّي أكره الأحزان ولأنّي ميّالة إلى توقّعها، أجدني دائماً إمّا غاضبة أو قلقة حين تتحقّق: أشعر بالحاجة إلى مشاركة الناس أحاسيسي. كي تحارب أمراً، عليك أوّلاً أن تكشفه، أن تُبدّد غموضه الذي يُخفيه حتّى تتجنّب التّفكير فيه بهوس. لأنّي أرفض الهروب والكذب، يتّهمونني بالتفاؤل؛ لكنّ هذا الرّفض يعني الأمل: ما في إمكان الحقيقة إنجازه؛ إنّه سلوك متفائل أكثر من اختيار اللامبالاة والجهل والزّيف.

تبديد الغموض، قول الحقيقة، إنّها أهداف سعيتُ وراءها في كتبي بكلّ ما أوتيتُ من عزم. لهذا العناد جذور في طفولتي؛ أكره ما أسمّيه وأختي بالـ «حمق»: طريقة لإخماد نور الحياة ومسرّاتها تحت الحجج والأحكام والروتين والتّظاهر كذباً، والتوصيات الجوفاء. أردتُ الهروب من هذا الاضطهاد، وقطعتُ عهداً مع نفسي على أن أدينه. اعتمدتُ على الوعي بأنّ لي وجوداً في العالم، كي أدافع عن نفسي ضدّه. إنّ تاريخ ظهور القمع، سيادته وارتعاشه، تفضحُ زواله في الأفق: سكنتني كلّ هذه الثّيمات منذ طفولتي وما زالت تشغل حيّزاً مُهمّاً في مؤلّفاتي. ثمّ لاحقاً، عندما نسبتُ نفسي في سنّ الرابعة عشرة، إلى «جو دي لويزا ألكوت»، وسحر «جورج إليوت»، تمنّيتُ أن ألبس أنا نفسي في عيون الجمهور هذا البعد الخيالي الذي جعل بطلات الرّوايات والكاتب المُتخفّي خلفهنّ رائعين. لم أبدأ بكتابة رواية للتّمرين، لأني كنتُ قد خلعتُ عني الماضي بين عشرين وثلاثين سنة. لكنّي حاولتُ بعد ذلك أن أروي قصّتي، اعتماداً على التجربة والحاجة إلى ذلك.

قال لي سارتر يوماً إنّ لديه شعوراً بأنّه لم يؤلّف الكتب التي حلُم بها في سنّ الثانية عشرة. «ثمّ، لمَ قد أميّز طفل الثانية عشرة؟» أضاف. أنا أختلف عنه. طبعاً، ليس في مُستطاع أحد أن يواجه مشروعاً غامضاً ولا متناهياً بكتاب مُنجَزٍ ومحدود. لكنّي لا أشعر بالفجوة بين النّوايا التي دفعتني إلى تأليف كتب وبين الكتب التي أمكنني أن أنجزها. لم أكن موهوبة في الكتابة. لم

أملك مثل فرجينيا وولف وبروست وجويس، القدرة على تحريك العواطف والقبض على العالم الخارجي في كلمات. لكنّها لم تكن غايتي. أردتُ أن أوجَدَ في عيون الآخرين، وأنا أشاركُهم، بالطّريقة المباشرة الممكنة، حبّي لحياتي وتعلّقي بها: لقد نجحتُ في ذلك تقريباً. لديَّ أعداء ألدّاء، لكنّ لديَّ عدداً كبيراً من الأصدقاء من بين قرّائي. لا أطمعُ في أكثر من ذلك.

لن أضع خاتمة لكتابي هذه المرّة. أترك للقارئ عناية الخروج بالخلاصة التي يشاء.

مكتبة
t.mc/soramnqraa

المحتويات

مقدّمة المؤلّف 5
مُقدّمة المترجم..7
الفصل الأوّل..9
الفصل II..127
الفصل III..153
الفصل IV..233
الفصل V..277
الفصل VI..311
الفصل VII..373
الفصل VIII..465

telegram @soramnqraa

كرّست سيمون دي بوفوار حياتها للكتابة والبحث والاطّلاع والدّفاع عن قضايا المرأة في مختلف جوانبها دون أن يلهيها ذلك عن النّضال من أجلِ إنسانيّة يطيب فيها العيشُ، إنسانيّة خالية من العنصُريّة والجهل والاضطهاد. إلّا أنّ ما يُميّزها عن غيرها من الحقوقيّين هو نصّها الرّائعُ الذي ما انفكّ يرافقها في جميع محطّات سعيها إلى إحراج الطّغاة على اختلاف طبيعة سلطاتهم (التميز بينَ الجِنسَيْن، البورجوازيّة، استغلال الدّين، اغتصاب الحُرّيات، الاستعمار، الدّكتاتوريّة..). بوسائل ضغط ميدانيّة وصحافيّة وأدبيّة وسياسيّة، على نحوٍ لا تتحقّق معه المطالب وتُعادُ الحقوق إلى أصحابها فحسب، بل أن يقف الجُناة - وهذا هو الأهمّ - أمام مسؤوليّاتهم وهم على دراية لا يكتنفها غموض بما تدينهم من أجله الإنسانيّة والتاريخ. فهي، إذًا، محاكمة للعتاة من جهة ودرس للأجيال حتّى لا تتكرّر أخطاء سوء الاختيار والتخاذل وتغليب المصلحة الخاصة على الإحساس العام بالقضايا.

في الفنّ والمعمار أيضاً، من خلال اكتشافاتها وأسفارها الكثيرة حول العالم، كان لها وجهة نظر عميقة، اختلفت عمّا يرويه أدباء الرّحلة، فهي وإن بدت تنقل ما رأت أثناء زياراتها، فهي ترمي من وراء ذلك إلى تقصّي مسيرة الإنسانيّة في حيرتها الوجوديّة وبؤسها وطريقة تعبيرها عن أسئلة الموت والخلود وعن جدوى الإنجاز والتّضحية. ومن خلال قراءاتها وأحلامها أخذتنا دي بوفوار في جولة داخل عالمها السّحري المُتفرّد، وعرّجت بنا على علاقاتها وصداقاتها التي كان لها أثر عميق في حياتها، لاسيّما تلك التي جمعتها بالفيلسوف الكبير رفيق دربها سارتر.

لكنّ الأهمّ في اعتقادي هو تفرّد سيمون دي بوفوار في إحساسها العميق بواجب تجاه الوجود يُحتّم عليها سرد ما أتاحه لها هذا الوجود من فرص سفرٍ واطّلاع وتأمّل وأمجاد، كأنّها تدفع مقابلَ حياةٍ قُدّمت لها في شكل هديّة جميلة لا شيء يشكُرها سوى العمل. وهكذا سيشعر القارئ على امتداد الكتاب بأنّه مُنطلق في رحلة طويلة جذّابة في الصّورة والمعنى، ترجو من خلالها الكاتبة أن تعيره حواسّها وعقلها ووجدانها وحاضرها وماضيها كي يُشاركها امتنانها لما حَبَتْها به الحياة من مِنَح وأيّدتها به دون كثيرين من ظروف جعلتها تعيش أفكارها. وأخيراً، ولكي تجعل المتلقّي من كلّ زمن وبلد، بأسلوبها، شاهداً على أنّها أدّت ما عليها تجاه المُضطَهَدين أفراداً كانوا أم شعوباً وتجاه التّاريخ. وعلى أنّها سوّت حسابها أمام الضّمير والفكر.

9 789933 604936

مكتبة | سُر مَن قرأ